رواية

اليهودي والفتاة العربية

قصة الحب الخالدة

عبدالوهاب آل مرعي

مكتبة العبيكان
Obeikan
Publishers & Booksellers

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العسيري، عبدالوهاب أحمد

اليهودي والفتاة العربية: قصة الحب الخالدة./عبدالوهاب أحمد العسيري.-

الرياض ١٤٢٦هـ

٧٠٩ ص؛ ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٠ - ٨٤٥ - ٤٠ - ٩٩٦٠

١ - القصص العربية - السعودية أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٧ / ٥٧٤٣

ردمك: ٠- ٨٤٥ - ٤٠ - ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٥٧٤٣ / ١٤٢٧

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

العبيكان للنشر
Obeikan
Publishers & Booksellers

الرياض . العليا . تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى جميع أبناء إبراهيم (عليه السلام)

يهودا... وعربا

أهدي هذه الرواية

الفصل الأول

شارب الفتاة

إنه ينظر إليها بشيء من التقزز... ثم يغفي إغفاءة حالمة... ليهتز بعدها من جديد... ثم يشيح بوجهه كي يعاود تقززه... لأنها لا زالت كما كانت... تشد بلطف وحذر... شعرات طويلة في طرف شاربها... وبعد أن تصل أناملها الدقيقة إلى نهاية تلك الشعرات... تمد الفتاة شفتيها للأمام قليلاً... ثم تنفخ بزفير طويل... صحيح أن شاربها ليس كشارب رجل... ولكنه شارب الأنثى التي اختلطت أنوثتها بأحاسيس رجولية... تثور بعنف... كلما تحسست الفتاة شاربها الذي يحوي تلك الشعرات الطويلة المتفرقة... كي تبدأ بالإمساك به... ثم تسحبه في شبه عنترية... إشباعاً لنزعات غريبة في أعماقها.

نظرات (صبرة) ثاقبة كاسمها... وصوتها الأكثر غلظة يجعلها أكثر شبهاً بشاب مراهق... مع أنها أنثى لم تجاوز الرابعة عشرة.

إنه هناك... تهتاج مشاعره بعنف... بيد أنه لم يزل يتابعها بنظراته الجرداء... إلا من معاني التوتر والقلق... ولكنه في النهاية يلف رأسه يمنة... ليُدخل سبابته إلى منتصفها في أذنه اليسرى... ثم يخرج إصبعه لينظر فيها بإمعان... ثم لا يلبث أن ينزل يده كي يمسح بها صدره... دون مبالاة... ثم يعود أخرى كي يسمح لعينيه أن تعاود النظر... إلى الفتاة صبرة... من جديد.

هل ستجعله هذه الفتاة يفقد عقله... ويدخل في دائرة الجنون... وهل ستجعله تلك التصرفات الرجولية التي تمارسها فتاته الرعناء... يفكر بجدية في نزع بذرة حب قديمة... ألقاها في أرضٍ رتعت فيها طفولته البريئة... منذ أيام الصغر... وهل سيثور بركان الحمية في قلبه الغض... كي يجبره على سحب جميع أوراق الورد التي طرحها في طريق صبرة... كي يطرحها على أرض فتاة أخرى... هي أكثر أنوثة ونعومة.

أوه... إنها المعادلة الصعبة... التي يحار بين كفتيها كل من تصارعه هموم الوله القديم... ولكن سرعان ما تجد المعادلة حلها...عندما يتأمل الفتى اليافع... خطوطاً مبحرة لجمال الصبية الأخاذ... كلما ارتسمت مع غروب الشمس استقامة جسمها الممشوق... وهي تمسك عصاها... وتلوِّح بها خلف أغنامها... أو اقتربت قليلاً لتلقي السلام عليه... كي يصرعه ما وهبها الله إياه من تقاسيم مبهرة... في استدارة وجهها... أو سحر التقاء أنفها البارع... مع ملتقى ما بين حاجبيها الهلاليين... أو التمعت مع استدارة البدر المكتمل كرتا عينيها المستديرتين... ثم النافرتين لأعلى من جهة نهايتي حاجبيها... وحورها الذي يجعل عينيها ياقوتتي السواد... كل ذلك يجعل من حب سبران قصة مجنونة... تتناسى في إصرار... ترهات الشارب المقيت... والعنترية الزائفة... وتجعله يجدد العزم على سرمدية حبها.

خفقة جمالٍ ساحر... تبدو ثائرة في تقاسيم الشعاب المنحدرة... والجبال الشاهقة... لتبعث رسالة نسيم صبحٍ قارب على الظهيرة... لقد كانت الشمس مستعدة لتخطي كبد السماء... كي تميل كرتها الذهبية جهة الغروب... والدماء في قدمي سبران المتشققتين والحافيتين... قد أذاقتهما حرارة الأرض الرملية شيئاً من طعم الشواء... لم يكن سبران قد تقاضى أجراً على تلك الوقفة... سوى ما يرقص في داخلة من معاني حالمة... كلما أوسع عينيه أو نمّرها... في مراقبة صبرة.

نسمات الريح الحارة هي أيضاً تأخذ نصيبها من الفتى المرهق... وكلما تسارعت غيمة صغيرة لتمنح أسطورة حب صغيرة قليلاً من الظلال... انفلت صوت مزعج لإعصار صغير... كي يحرم أرضاً قاسية كتلك... ولو شيئاً من هدوء وحنان.

شعر سبران أن أجرة النظر إلى صبرة... لا يمكن مقايضتها بالآلام التي كوت قدميه... لذا بحث عن شيء خلفه... وعلى بعد أمتار... رأى حَجرةً قرمزية اللون... مجوفة من قلبها... قصدها سبران بخطوات باردة... لم يكن الأمر صعباً... لقد جلس داخل التجويف... ووضع كفيه تحت خديه... ومرفقيه على ركبتيه... وأكمل ما بدأه من مراقبة.

وفي لحظة مفاجئة من بين تلك اللحظات المخطوطة بكف الوله... اضطربت كل الآمال التي صنع منها سبران أوهاماً ذات قباب ومآذن... ووقف ذهنه ليطالع عن يمينه... ثم ليرفع بصره لأعلى... كي يتوقف بهدوء على منتصف قوام صبرة... التي وقفت بطولها الفارع ... وأدارت عينيها هنا وهناك... وقالت في لهجة صارمة بعد أن مدت يدها للأمام:

- "اذهب وأحظر غنمك من هناك... وتعال بها إلى هنا... ألا ترى... لا يوجد هناك أية نبته من عشب... العشب هنا... أريدك أن تكون رجلاً... الرجل يجب أن يكون رجلا".

أدخل سبران عنقه قليلاً في رأسه... وشعر بما يشبه الإهانة... ولكنه انتفض كالملدوغ... عندما صرخت في وجهه مرة أخرى:

- "قم... الرجل يجب أن يكون رجلا".

بدأ سبران ينظر يمينة ويسرة وهو يبحث عن كلمات يقولها... ولكنه أخيراً قال في تحدٍ واضح:

- "والمرأة يجب أن تكون امرأة... أنت فتاة... أتفهمين أنت فتاة ولست رجلاً".

وعندها صوب سبران نظراته في عينيها بصمت... وانتظر قليلاً... ولكن سرعان ما التهمت عيناه المهزومتان... سهاماً أطلقتها نظرات صبرة الغاضبة... لتجعله يشعر بلجام من الحديد... يطبق فكيه على بعضهما... وبعد صراع طويل بينه وبين نفسه... قام سبران وهو يحمل وجهه التعيس... كي يوليه جهة غنمه.

بيد أن ذلك المشهد بمجمله لم يكن ثنائياً يتوقف على فتاة وفتى... لقد كان هناك شخص... ثالث يتابع ما يحدث... بكل صمت... ولا يحاول أن يقدم أي مشاركة ... إنها فتاه صغيرة... اسمها ريحانة... وقد كان وجودها بالنسبة للصبي والصبية شيئاً أشبه بالعدم... لكن شيئاً ما كان يجعل تلك الفتاه التي لم تجاوز السادسة من العمر... قادرة على وضع إطارات بالغة الدقة... لكل ما يجري هنا... إنها جالسة بجوار (المشنة)... تلك الساريتان المنتصبتان على طرف بئر (مارعة) وعن طريقها يسحب الماء.

ريحانة الصغيرة جالسة في هدوئها... تراقب صبرة وسبران... وترى في أفعالهما شيئاً من الطرافة... ولكن اهتمامها يزداد أكثر... بمراقبة تلك الشنة السوداء المعلقة على الخشبة الواصلة بين الساريتين... والمتدلية على البئر... وبين الحين والآخر تقوم ريحانة في خفة... وتلقي ببصرها من حافة البئر... لتدقق النظر في العين الصغيرة التي تنبع بالماء من تلك الأعماق... وعندما يغطي الماء حلقة العين تصرخ:

- "يوجد في البئر شن كامل".

وتستمر في تكرار هذا الكلام... وربما تتغنى به... وربما سحب أحد الموجودين حبل المشنة وأنزل الشنة للأسفل... ثم ملأها ماء ليسكبه في حوض الماشية... وربما لم يعبأ أحد بما تقوله تلك الفتاه الرائعة... ليجعلها تجاهُل الناس تقوم من مقامها وتنادي صبرة بكل صوتها وتقول:

- "أنا ذاهبة للجبل".

تذهب ريحانة مسرعة لجبل طيني صغير... بنته بالماء والطين... بجوار حوض الماشية... وتعيد هندسة زواياه... أشبه بقصور (السراة) ذات (الأرقاف) الحجرية... ثم تزين مزرعة المنزل الصغير بعيدان صغيرة من الريحان... حتى إذا اكتمل بناء البيت مع حديقته...انتقلت ريحانة خطوات من مقعدها الأول، لتصنع منزلاً آخر، وحديقة أخرى... بيد أن تذكر ريحانة للحوار الذي دار منذ دقائق بين

صبرة وسبران جعلها تنفض يديها من آثار الرمال... ثم تمسك شعراتها المتدلية في انسياب عفوي بين أذنيها وخمارها الصغير... ثم تبدأ بقرض أطراف الشعر بأسنانها الصغيرة... وهي تتأمل بإعجاب... صورة صبرة... عندما كانت تردد:

- "الرجل يجب أن يكون رجلاً".

كانت ريحانة تغمض عينيها في تأمل... ثم تفتحهما وهي تتابع خطوات أخيها الأكبر سبران... وبدت مقتنعة تمام الاقتناع... بأن الرجل يجب أن يكون رجلاً... وإلا... كيف سيتمكن الرجل من حفظ النساء... وتحقيق حياة الأمن لهن... في بيئة ترتسم فيها ألوان المعاناة... حتى في الأطراف الخارجية... لقرص الذرة الحمراء... أو نتوءات زبد الماعز.

قامت ريحانة من جوار منزلها الصغير... وألقت بنظرة نحو البئر... ثم صرخت:

-"في البئر شن كامل".

أقبلت صبرة كي تسحب الشن من البئر... ثم ابتسمت بعد أن ألقت نظرة سريعة على ريحانة... وقالت في ثقة وهي تحدث نفسها وتحدث ريحانة أيضاً:

- "الرجال لا يربيهم إلا النساء".

قالت ريحانة في براءة.

- "وهل ستتزوجين سبران".

ضحكت صبرة من أعماقها ولمعت عيناها فجأة ثم قالت:

- "بعد أن أربيه".

انطلقت صبرة في خفتها المعهودة... نحو غنمها... بعد أن أفرغت الشنة... وبقيت ريحانة تنتظر أخاها.

التركي الأشقر

(عين الدين أغا)... تركي جاوز الخمسين... ولكنه أكثر شبهاً بشاب يتفتق حيوية ونشاطًا... إنه يستطيع و بكل حيوية أن يحمل صناديق الرصاص على ظهره العريض... بعد أن يربطها بحبلين من الجلد المبروم... يتدليان على كتفيه.

عين الدين أشبه بالأسطورة عند فتيان قرية (العريفة)... وعند فتياتها أيضاً... والجميع ينظر إليه بكل احترام وتقدير... وهناك شيء آخر... يزيد من ثقتهم فيه... إنها أفكاره الثاقبة التي يبديها في حل المشاكل التي تواجههم... إضافة إلى ما لديه من المعلومات الطبية... وعين الدين لا يتأخر أبداً عن تقديم وصفات علاجية... لكل من يقصده شاكياً من مرض ما.

شاربه الأصفر الغليظ يُذكِّر الفتيان دائماً بشارب صبرة... ولا أحد يدري عن مدى العلاقة العاطفية بين عين الدين وبين صبرة... ولكن عزوف هذا الرجل عن الزواج حتى سن الكهولة يضع حوله الكثير من علامات الاستفهام والتعجب... الملفت للنظر أن عين الدين يتجه بعد كل صلاة عصر نحو جبل (الكرش) العملاق... حيث ترعى صبرة أغنامها كل يوم... إنه يصعد بكل عزيمة وجرأة... وربما لاحظ الكثير من الذاهبين أو القادمين جلوس عين الدين مع صبرة على تلك الصخرة المستديرة... التي تقع وسط الجبل... والتي هي أشبه بكرش الغول العملاق... لقد تعارفت الأجيال منذ قديم الزمان على تسمية الجبل بهذا الاسم... وارتبطت صورة تلك الصخرة المستديرة في أذهان الجميع... بصورة كرش الغول... التي يحيطها الشعر من كل جهة... ومع أن هذه الصخرة العملاقة أصبحت علماً بارزاً يتفاخر به أهل القرية... إلا أن القصص التي تدبجها العجائز أصبحت تراثاً أكثر ضخامة... بالنسبة للأطفال الذين يسألون دائماً عن أسرار سكان هذه الصخرة... من عالم الأرواح.

ومع كل ذلك فإن عين الدين لا يأبه أبداً بما يثار على ألسنة الصبية... حول ملك الجن الذي حفر لنفسه داخل الصخرة بهواً واسعاً... ووضع في طرفه عرشاً مزخرفاً... وهو يؤذي كل من يرقى على سطح الصخرة.

لذا فمن غير المستغرب... أن يرتقي عين الدين كلما أراد مقابلة صبرة... إلى سطح الصخرة... ثم يناديها بصوت طويل... وتأتي هي بدورها مسرعة تاركة أغنامها وحيدة في سفح الجبل... أو في حماية سبران... وما إن تصل إلى حافة الصخرة حتى تقول:

- "انزل يا رجل من فوق عرش إبليس... انزل قبل أن يخطفك الغول".

فيضحك حينها عين الدين... وينزل بهدوء ... ويبقى مدة وهو يحادث صبرة... ثم يتركها ويذهب... في حين تلوك الغيرة فؤاد سبران المحدودب على أشجانه وهيامه.

عين الدين يدّعي على خجل وتوتر... أنه أحد موظفي الدرك العثماني... وأن عمله يرجع إلى المسؤوليات التي ينيطها به ذلك البناء الضخم... المنتصب على جبال السراة... والمطل على تهامة من الجهة الغربية لمنطقة (شعار المراعي)... لكن عين الدين كان ملازماً لقرية العريفة... أشبه بمن ولد فيها... وربما بدا لمن يتابع أعماله هناك... أن هذا الرجل ينتمي إلى عسير... أكثر من انتمائه إلى إستانبول.

إنه يعشق الجبال الشاهقة... ويعشق أشجار السدر المتراصة في الأودية المتعرجة ... لقد ذاب هنا وانصهر مع مفردات الحياة البسيطة... التي فرضت عليها صعوبة الحياة أشد أنواع البساطة... فاكتسبت الهدوء والصمت حتى صارت البساطة هي الطبيعة التي يتطبع بها الناس... عين الدين يعيش هنا بكل هدوء... ويلجأ في المساء إلى مضجعه... كلما أنهى أعماله في نقل الرصاص... عبر القرية... وربما عشق عين الدين شيئاً يخفي بين طياته أبعاداً ضبابية... وعلاقة غامضة... ربما أثارت حوله الشكوك ودعت للريبة... إنه السر الدفين لعلاقة عين الدين بصبرة... ومن يدري ماذا يختبئ بين الجبال الشاهقة... ووراء الوديان الوعرة... التي لا تعرف سوى الشمس الحارقة... أو الطين والحجر.

هكذا ولدت علاقة مرهونة للزمن... بين عين الدين... وبين يتيمة مات والدها منذ أيام طفولتها الأولى... وبعد وفاة والدها بوقت قصير... تزوجت أمها برجل آخر... وذهبت معه للقرية المجاورة... أما صبرة فهي تعيش وحيدة مع أغنامها في منزل أبيها القديم... بجوار مزارع الذرة.

يوم من أيام عام ١٢٩٦هـ

(محايل عسير)... المدينة الدافئة... إنها حاضرة مذهلة لأولئك القرويين... الذين لا يعرفون عن الحياة إلا ما بين أيديهم... وحين يذهبون إلى محايل... من أجل تبادل بعض السلع... يشعرون بما يشبه الصدمة الحضارية... وتكون القصص التي يدبجها كل من يزور محايل أشبه بالأساطير... لأولئك المستمعين من أهل القرية... خاصة من الأطفال والعجائز... الذين لم تسنح لهم الفرصة... كي يذهبوا لها يوماً.

ها هي تشرق الشمس... في صباح يوم الجمعة... ١٢٩٦/٣/٢٥هـ... وتلك هي صبرة... إنها تحمل جراباً من الخصف على ظهرها... وتمسكه بكفها من فوق كتفها... وتنطلق سعيدة... أشبه بعود الخيزران... وبين الفينة والأخرى تعيد سحب منديلها الأصفر الباهت... لتعيد تغطية شعرات سوداء، بدت على جبينها... ثم تفتل شاربها... وترمي بأقدامها للأمام.

وبعد سير بأقدام حافية... على حصباء الوادي المدحرجة... لمدة تقارب السبع دقائق... دخلت صبرة مع مدخل السبيل الضيق... الفاصل ما بين مزرعة الذرة الحمراء... ومزرعة البرسيم... توقفت صبرة قليلاً... ثم انثنت بجذعها جهة شجرة الأراك ... لتحفر في بطن الطين حفرة قصيرة... ثم تخرج عوداً تستاك به.

أكملت صبرة سيرها حتى خرجت من السبيل الضيق... وحينها ابتسمت... لقد كان مشهداً ساراً أن رأت سبران قادماً من بعيد... انتظرته حتى وصل ... وفي أثناء انتظارها كانت تعيد لف منديلها... بما يضمن لها إخفاء شعرها... وتغطية جيدها ورقبتها... ولكن سبران لم يكد يصل إليها حتى سحبت شاربها... وألقت إليه نظراتها النارية المعهودة... وقالت في تسلط:

- "إلى أين إن شاء الله".

- "أنا ذاهب إلى السوق".

- "وماذا تريد من السوق".

– "سأبيع هاتين العُكّتين من سمن المعز... وسوف تأتي لي بالرزق الحلال... وأنت إلى أين تعزمين الذهاب".

– "أنا ذاهبة للسوق... وأيضاً معي عكتين من السمن... سأبيعهما".

– "وهل لدى البدو... ورعاة الأغنام... سوى السمن يبيعونه".

– "احمد ربك... لا تكن كفوراً... الرجل يجب أن يكون رجلاً".

نظر شزراً إلى شاربها... تقزز قليلاً... ولكن سرعان ما أعاد النظر إلى عينيها... وانفردت على شفتيه ابتسامة بريئة... ولكن صبرة لم تطل الانتظار بعد ابتسامته... لقد عرفت ما يدور بخاطره... لذا رفعت عود الأراك في يدها... وأسرعت به تجاه عينه... وقالت في غضب:

– "غض طرفك... يجب أن تكون رجلاً تعرف ما لك وما عليك... وإلا فإنك ستفقد عينيك ... الرجل يجب أن يكون رجلاً".

أطرق سبران برأسه... وانتظر حتى سارت... ثم سار خلفها... إنه الآن يفكر... ويفكر بعمق.

– "هذه الفتاة عفيفة طاهرة... وجميلة جمال القمر، يتهادى بين كتل الغيوم السوداء... وهي نشيطة تحب العمل... وتحب إتقان كل شيء... إنها فتاة مذهلة... ولكن لست أدري... هل ستقبلني زوجاً لها".

لاحت في تلك الأثناء صورة عين الدين... وهو أشبه بالجبل الشاهق... وشاربه الذهبي يلمع... وعيناه تتدحرجان لتلمح كل شيء... لا بد وأن تلك الشخصية المذهلة... التي يمتلكها عين الدين... هي المنافس الأقوى... والعقبة الكؤود... في طريق سبران... نحو فؤاد صبرة.

انقطعت تلك الهواجس... عندما التفتت صبرة في حدة نحو سبران... لقد كانت تتقدمه بعشرة أمتار... وبعد أن صوبت بصرها جهة عينيه... قالت في غضب:

- "هيا تحرك... لا تكن كأسوأ الشياه...الرجل يجب".

لم يسمح سبران لأذنيه أن تكمل سماع كلمات صبرة الأخيرة... لقد أدخل أصابعه في أذنيه... فلم يعد قادراً على التحمل لمدة أطول.

ولأن النهار هو وحده الزمن هنا... ولأن الوقت يقاس بأجزاء النهار... فقد مر ربع نهار... على لقاء صبرة بسبران... وسيرهما في الطريق الطويل... وبعد كل هذا العناء... وصل القلب النابض بالحب... والقلب النابض بالغموض... مع حامليهما إلى السوق... لا شيء يسمع سوى اضطراب أصوات الأغنام والأبقار... والقليل من صراخ الباعة... وهم ينادون الزبائن:

-"... شيء بلاش ... شيء بلاش".

حرارة الشمس الملتهبة تجعل تجارة السقيا تجارة وافرة الربح... وأولئك الحاملين لجرار الماء على ظهورهم ينادون بكل هدوء:

- "هب لك ماء... هب لك ماء".

ويأخذون أجرتهم زهيدة... مما يحمله التجار معهم من حنطة أو ذرة أو دخن... والأجرة في الغالب لا تزيد عن نصف الكف أو ربعها... يأخذها الساقي بفرحة ليقذفها في الجعبة التي يربطها في ظهره... تم يواصل البحث عن ظامئ آخر... ومع ازدحام السوق... ترى المآزر الصفراء والقمصان السماوية... هي ما يستتر به الناس... إنها ألوان صارخة في دنياهم الصامتة... وهي تضفي شيئاً من البريق الذي يطربون له... ويجدون فيه فناً مذهلاً... وفي الغالب يضعون الريحان على رؤوسهم المشوطة بالزيت... ويرمون شعرهم على ظهورهم على شكل جدائل يتفاخرون بطولها.

أما النساء فهن متحجبات قد التزمن تغطية جميع أجزاء البدن بأسمال متهالكة... أعيتها الأيدي التي توارثتها منذ سنوات بعيدة... ولا يعني انتشار الرقع في ثوب إحداهن سوى ألوان زاهية... تزيد من جمال الثوب... لأن النساء في بيئة

كتلك... لا يجعلن معيار الجمال في قيمة الملبس... لأنهن لا يملكنه... والمعيار الحقيقي الذي يقاس به مقدار الجمال هنا... هو اعتناء المرأة بالحناء والكحل ... ونوع الزيت الذي تدهن به إحداهن شعرها... خاصة وأن زيت السمسم هو الزيت الأكثر شهرة لدهان الشعر... المرأة هنا موجودة كالرجل... ولها ذات الاحترام والتقدير... بيد أنها عند مرور الرجال الأغراب تسحب منديلها الأصفر لتغطي به فمها وأنفها... إنهن يخفضن أصواتهن عند الحديث مع الرجال... حتى صبرة لقد أصبحت الآن مطرقة الرأس خافضة الصوت... بعد أن دخلت السوق.

مر ربع نهار آخر... وخرجت صبرة من السوق وهي تشعر بالسعادة... لقد باعت السمن... وباع سبران أيضاً ما كان لديه من سمن.

صبرة وسبران سيتجهان إلى قرية العريفة الآن... بالطبع سيكونان مترافقين في الطريق الطويل إلى القرية... ولكن بعد أن تشتري صبرة شيئاً هاماً... يبدو أنها تعد لشرائه منذ مدة... لقد اتجهت في خفتها المعهودة... نحو سوق المشبك... أوه... المشبك... إنه حلوى ذات ألوان رائعة... تصنع بأيدي نساء محايل الأكثر تقدماً... وهي بيضاء تقرمش... وهي حمراء أو صفراء.

شعر سبران بسعادة غامرة عندما علم أن صبرة ستضحي ببعض المال... من أجل شراء المشبك... وهو حتماً سيشاركها في أكل المشبك... سبران في هذه الحال لن يخسر فلساً واحداً في شراء الحلوى... عليه أن يجمع المال كي يشتري حماراً يحمل الأشياء نيابة عن ظهره.

لم تتغيب صبرة... كثيراً لقد جاءت وهي تحمل قفها على ظهرها... ممسكة عروتيه من فوق كتفها... يبدو أن المشبك أصبح بداخله... ويبدو أن لسان سبران سيذوق أخيراً شيئاً من السكّر... وصلت صبرة إلى سبران... وقال في فضول:-.

- "هل اشتريت مشبكاً؟".

ردت صبرة في شيء من اللامبالاة:

- "وما دخلك أنت... هذه هدية لإنسان عزيز علي".

- "ألن يكون لي نصيب منه؟".

- "الرجل يجب أن يكون رجلاً... اذهب واشتر لنفسك ما تريد... فأنا لست رجلاً وأنت لست امرأة... كي أصرف عليك".

اقتنع سبران هذه المرة... أن الرجل يجب أن يكون رجلاً... وأن المرأة يجب أن لا تصرف عليه... ولكنه مع ذلك لن يشتري مشبكاً... لأن هذا يعني أنه سيبقى مدة أطول... وهو يحمل الأشياء على ظهره... بدل أن يحملها الحمار نيابة عنه.

بقي سيران طيلة الطريق يفكر في كلام صبرة... من هو يا ترى ذلك الإنسان العزيز عليها... والذي سيحظى بالمشبك... من المفروض أن لا يكون أعز عليها منه هو شخصياً... ولكنها استكثرت عليه قطعة من مشبك... وهذا يعني أن قلبها يحتله رجل آخر... قد يكون...

- "أوه ما هذه الكارثة... هل يا ترى سيكون ذلك الرجل هو زوجها المستقبلي... وعندها سيذهب قلبي في مهب الريح".

طيلة الطريق... لا أحد من أفراد القافلة الاثنين... سبران وصبرة... يكلم الآخر... سوى بعض الألفاظ الاستفزازية التي تلقيها صبرة ساخرة من سبران... عند تأخره في المشي... لقد طال الطريق بالقدر الكافي... لإشعار أفراد الركب بالتعب... والظهيرة كانت كفيلة بصقل القدرات... كي تتصدى لويلات الحر... ولكن لا مناص من الاستمرار في العناء.

وكلما لاح الظل هنا أو هناك... يكاد قلب سبران يتقطع حسرة على دقائق من الجلوس تحته... بيد أن صبرة بكبريائها تتجاهل الظل... وتتجاهل سبران أيضاً... وسبران يقلب عينيه في غيظ... لأن خوفه من لسانها السليط يجبره على مجاهدة هذا الإعياء... وهذا الحر... ولا زال عقله يجول بين الفينة والأخرى... مع ذلك المشبك... وأخيراً أدخلت صبرة يدها في قفها... وعالجت شيئاً هناك... ثم أخرجت قطعة صغيرة من المشبك... وبدأت تقربها من فمها في عملية استعراضية.

لقد رقص قلب سبران مع الحلوى الحمراء... ورقص لسانه داخل فمه... ولكن سرعان ما تغيبت القطعة في فم صبرة... وزادت سرعتها أكثر وأكثر... وكأن طاقة ما... قد اشتعلت في جسمها... وبقي سبران يجاهد في ابتلاع ريقه عديم الطعم... الذي اجتمع مع انفتاح شهيته للأكل.

مر الوقت بطيئاً مع دقات الأقدام... التي تدق بوهن على الطريق الطويل... ومع حلول وقت العصر... كان سبران وصبرة على مشارف القرية... ابتسم سبران للفتاة... وقال في تقدير:

- "في أمان الله... أنا ذاهب لمنزلي".

ابتسمت صبرة... وأكملت دربها... بيد أن سبران لم يكن صادقاً عندما ادعى أنه ذاهب لمنزله... لقد انحرف قليلاً... ثم عاد لمراقبة صبرة... إنه يشعر أن وراء المشبك سر خطير... وعليه أن يكشفه بأسرع وقت ممكن... استمرت صبرة في السير... واستمر سبران في الملاحقة... إلا أن مشاعره أصبحت كجلمود صخر... عندما قصدت صبرة مكاناً آخر غير منزلها... لقد استمر سبران في ملاحقتها في توتر يتزايد... وعيناه لم تنفك من متابعة أعقاب صبرة السمراء... التي ترتفع وتنخفض... على إيقاع سعادتها... وأيضاً مع إيقاع أحزانه.

كم كانت دهشة سبران عندما اتجهت صبرة نحو البيت الصغير... الذي يسكنه الكهل التركي... عين الدين آغا... وقفت صبرة عند الباب... وبدأت تطرق بكل اهتمام... مرت دقائق دون أن يجيبها أحد.

عين تراقب

قرية العريفة هنا... هي أشبه بنقطة وصل... بين الأتراك وبين العسيريين... المزروعين مع جذور هذه الجبال... وذلك المكان المستطيل الشكل... والمفتوح من جميع جوانبه... والذي انتصبت في أطرافه أعمدة من خشب السدر الغليظ... وبني في أحد جوانبه جدار متعرج بطول شبرين من الطين المدهون بماء البرسيم...

هنا يجلس الأتراك الشقر... بعد أن يربطوا بغالهم وجمالهم... ويبدؤون في إعداد طعامهم... بعد أن يشتروا حطباً ودقيقاً ولحماً من السوق... وربما آثروا الراحة أكثر... فطلبوا من أحد الموجودين أن يطبخ لهم بأجرة زهيدة... ومن هناك يأتي عين الدين... بجسمه القوي... وينزل صناديق الرصاص من فوق ظهور الجمال... وربما لم يكن على ظهور الجمال رصاص أو صناديق... ربما كانت أسلحة أخرى... أو أعمدة رخامية... أو صناديق تحوي دراهم من فضة... هي رواتب العسكر... أو ربما كانت ملابس... أو فواكه مجففة... أو حبوباً... أو أي شيء آخر... وبعد أن يأخذ عين الدين أجرته يجلس مع أولئك الأتراك... ويتبادل معهم أحاديث طويلة.

المهم في تلك الأمور... التي تحدث الآن تحت سقف السقيفة... أن ثمة رجلان... من أصل تسعة رجال... لم يأتوا إلى هذا المكان من قبل... إنهم غرباء على مرتاديه من الأتراك... ولم يبادلهم عين الدين مشاعر الارتياح ... من أول وهلة اصطدم فيها نظره بأنوفهم الطويلة... لقد توجس من نظراتهم المتحرية... والمدققة حوله... في كل شيء... ومن محاولتهم إخفاء شخصياتهم الحقيقية... عندما طرح عليهم عين الدين أسئلة عدة.

هكذا كان يفكر عين الدين... ولكن بقاء هذين الرجلين لم يدم طويلاً في المصطبة... لقد استأذنا لأعمال هامة... كما زعموا... لا أحد يدري كنه تلك الأعمال... بيد أن أحدهما لاحظ سبران وهو واقف هناك... يحاول التخفي... لقد بدا وكأنه يراقب أحداً ما... لم يكن ثمة إلا عين الدين... وهؤلاء الأتراك... وربما كان لاستئذانهما علاقة بمراقبة سبران للمسطبة... لكن استئذانهما جعل عين الدين يشعر بالارتياح قليلاً... وبعد لحظات من استئذانهما جاءت صبرة من هناك حاملة قفّها فوق ظهرها.

ابتسم عين الدين لها... في حين سأله أحد الجالسين:

- "من تكون هذه الحسناء".

- "إنها ابنتي...".

قام عين الدين متجهاً جهة صبرة... في حين وقفت صبرة على بعد ٢٠ متراً من المصطبة... وعندما وصل إليها دار حديث قصير بينهما... وفي أثناء الحديث أنزلت صبرة القف من فوق ظهرها... ثم وضعته على الأرض... وعيناها لازالتا شاخصتين في عين الدين... لقد سارع عين الدين لمساعدتها... ولكنها رفعت يدها وقالت:

«شكراً لا حاجة...

فتحت صبرة قفها... ثم أخرجت بكل هدوء تلك الهدية... في حين هز عين الدين رأسه... ورفع يده إلى صدره... وبدأ يربت على صدره ممتناً... أخرجت صبرة تلك الحصيرة الصغيرة... التي بداخلها المشبك... ثم ناولتها لعين الدين... بعد أن كسرت منها كسرة صغيرة... وأقسمت أن تضعها هي بنفسها في فمه.

عين الدين يلوك الحلوى... وسبران يلوك هناك أحقاداً وهموماً تنوء بحملها الجبال... ولكنه حمل أحقاده وسار بخطوات وئيدة ... لقد كان يتبع كل قدم من أقدامه بأختها... حتى وصل إلى منزله الطيني ... وهناك كانت ريحانة الصغيرة... تكنس فناء البيت بمكنسة صغيرة... لم يلق لها سبران بالاً... لقد قصد الغرفة الوحيدة المظلمة... عدا ما يدخلها من بصيص هزيل للنور يتسلل مع (الجوبة)... تلك الفتحة المستديرة لذراعٍ واحد... في طرف السقف المرصوف من القش.

ولكن ذلك النور الخافت لا يستطيع إضاءة شيء من ظلمات الهموم... المنسكبة قسراً بين أوصال سبران... ومع كل زفرة يزفرها صدر الشاب... يتذكر ذهنه المكدود... ذلك الوجه الأحمر... والشارب الذهبي.

نظرات سبران التائهة، تدور في تقاسيم الجدار المتعرج، طيني اللون... ومع كل نتوء في الجدار تصطدم به عين سبران... تزداد ضربات القلب المهموم... لقد أمال سبران رأسه قليلاً... ثم مد يده بهدوء... ودون قصد... وقعت يده على (المعيّرة)... ذات النصل الحاد... والتي يزيد طولها عن ذراع ونصف... أمسك سبران بمقبضها المفضض... وبدأ يدلكه في هدوء... وتعبث الشياطين بأفكاره حينها.

ومع مرور الوقت أفاق سبران من همومه... وحمل معيّرته... وخرج...

بدا أنه قد تناسى الكثير من همومه... وبعد مسير لم يطل... وصل سبران إلى حظيرة غنمه المحاطة بسياج من أعواد العرين... كان التيس الفحل هناك يصول ويجول... ويمارس تسلطه في مملكته الصغيرة... والماعز جميعها مجتمعه في زاوية (العرشة) المضللة بقصب الذرة... التيس ذو الشعر الكثيف فوق الرأس يفرض رهبته على الحضيرة... أشبه بملك متسلط على مملكة مستدجنة... تأمل سبران قليلاً... لا يدري لماذا تمنى أنه هو بذاته ذلك التيس... ولكنه لم يتوقف طويلاً عند هذه الأفكار الحمقاء من وجهة نظره... لقد أبعد الخشبة التي تعيق فتح الباب... ثم فتحه.

خرجت حينها الماعز... وهي تقفز فرحاً... في حين تأخر التيس الفحل قليلاً... ثم خرج بكل كبرياءه... ضربه سبران على قفاه... لشيء في نفسه... لذا أسرع التيس... ثم لحق سبران بأغنامه.

وبعد دقائق... كان سبران واقفاً خلف ماعزه... في وادي (روا)... المجاور للقرية من الجهة الشرقية... لقد كانت جهتا الوادي مبنيتين بالحجارة الكبيرة مع الطين... وأشجار السدر منتشرة في كل مكان... والمعيرة لا زالت في يده... جلس سبران بكل هدوء... تحت إحدى شجرات السدر... وتناول حجراً صغيراً من جواره... وسحب معيرته من غمدها... ثم بدأ في إمرار حدّها على الحجر كي يسنها... وفي تلك الأثناء أقبل الرجلان اللذان كانا في المسطبة... لقد تقدما وابتسامتهما تسبقهما... ثم سلما على سبران... وجلسا قبالته... وبدا بينهما حديث طويل.

أدوات هامة

مع انبعاث صوت المؤذن لصلاة العشاء... كان عين الدين يسكب على يديه قليلاً من الماء... ثم يدلكها... وبعد ذلك يمد صوته في عمق الظلام كي يردد تكبيرات المؤذن... الهدوء يعم المكان... لتوه خرج عين الدين من غرفته الصغيرة... لقد أطفأ الضوء... لم يعد هناك نور أصفر ينبعث من النافذة الصغيرة... ولكن

عين الدين قبل أن يخرج من غرفته حمل كيساً صغيراً... كان موجوداً في الصندوق الحديدي القديم... لقد وضعه بهدوء في جيب معطفه الداخلي.

عين الدين لا يفكر في دلك يديه... إنه يفكر بعمق في شيء آخر... وتفكيره منصب هذه المرة حول صبرة... انتهى المؤذن من أذانه... وأكمل عين الدين وضوءه... ثم أخرج ذلك الكيس الصغير... وأخرج قطعاً حديدية من داخله... وبدأ يدلكها بعناية... ثم وضعها ثانية في الكيس... وقام متجهاً نحو المسجد.

بيت من بيوت الله

وفي طيات الظلام كان هناك شيء يتحرك في هدوء وصمت... ويراقب بحذر تلك الخطوات الخاشعة... التي يخطوها عين الدين في اتجاه المسجد... لم يكن المسجد سوى غرفة مبنية من الحجر... وجدرانها الخارجية مكسية "بالقضاض".

والقضاض مادة أشبه بالرخام... يصنعه العمال الأتراك المهرة... من أحجار "الخورم"... بعد أن يوقدوا عليها في أفران خاصة... إنه شيء مذهل... لكل من يدخل المسجد ويشاهد بديع الصنعة فيه... وعند باب المسجد من الخارج كتابات قديمة ... كتبت للذكرى... في اليوم ذاته الذي انتهى فيه بناء المسجد... وبدايتها... لا إله إلا الله محمد رسول الله... ثم يتبعها ذكر متسلسل لأسماء من شاركوا في بناء المسجد... وفي النهاية يبدو التاريخ الذي انتهى فيه بناء المسجد... بيد أن أرقام التاريخ قد تآكلت من تعاقب الزمن... ومن آثار الملوحة... ولم يكن لقارئ ماهر أن يجيد قراءتها...

أما جدران المسجد من الداخل فهي مصهورة بالطين المعجون مع الماء... ومدهونة بماء البرسيم... وعندما يدخل الداخل للمسجد لا يجد صعوبة في اشتمام رائحة البخور... حيث تجتهد نساء القرية في التناوب على تبخير المسجد بأجود أنواع البخور... وهناك صوت صفير خافت... يسمعه كل من يدفع الباب ليدخل... إنها قدسية مذهلة... يضع أعباء نفسه عند عتبتها كل من يلج للداخل.

أرضية المسجد... منخفضة عن مستوى الأرض قليلاً... ومفروشة بالحصير المصنوع من سعف النخل... ويوجد في إحدى الزوايا المتعرجة مشكاة فيها إناء صغير... وتوضع في داخل الإناء قطعة صغيرة من الشحم... وفتيل من الصوف... ملفوف بإتقان... يوضع بشكل حلزوني حول الشحمة... وعندما يتشبع الصوف بالدهن توقد النار في طرفه... ويبقى ذلك الفتيل قادراً على إصدار الضوء طيلة وقت الحاجة إليه... وبعد انتهاء الحاجة إليه... يمسك أحدهم طرف الفتيل بإصبعه... وتنطفئ النار... في انتظار ليلة أخرى.

دخل عين الدين بعد أن فتح الباب وطأطأ رأسه قليلاً... لدنو عتبة الباب العلوية من رأس كل رجل طويل... أجال عين الدين طرفه قليلاً... ثم سلم... لم يكن ثم إلا المؤذن الذي كان مشغولاً بفرك إحدى عينيه... وبعدها دخل عين الدين في صلاة السنة... مر الوقت سريعاً... واجتمع خمسة من سكان القرية... بعدها أقيمت الصلاة... وتقدم عين الدين للمحراب الصغير... ثم قال:

- "استووا للصلاة... الله أكبر".

عمت السكينة المكان... وبدت الرؤوس المطرقة... واللحى الثائرة تضطرب في هدوء... وكأنها توحي بخشوع رهيب... وصلة عظيمة بالخالق... ومن هناك... بدأ عين الدين في قراءة الفاتحة... وعلى وجهه الأبيض... تنعكس أشعة الشحمة الذهبية... التي تتسلل في هدوء عبر الظلام... ويبدو طرف شاربه الغليظ الأصفر مضطرباً مع اهتزاز فكيه بالقراءة... ولا يخلو المكان من صوت بعوضة تطن هنا أو هناك... أو تحشر نفسها في أنف أحدهم أو أذنه...

الناس صامتون يستمعون القرآن الكريم... وربما حاولوا تدبر آياته... وربما كانت أكثر المعاني المقروءة غامضة عليهم... ولم يكن ذلك يمثل لهم مشكلة كبيرة... لأن معظمهم لا يجيد أن يقول طيلة الصلاة إلا (سبحان الله و الله أكبر).

و لكن مع كل ذلك... لا يشك الناظر إليهم أنهم يملكون قلوباً تزداد تعلقاً بالخالق... الذي يرزقهم... وينزل عليهم الأمطار... وفي النهاية يتوفاهم... ويقتص للمظلوم من الظالم... وهذا هو أهم ما يعتقدونه في ربهم.

أولئك البسطاء لم يسمعوا قط بالميتافيزيقا... ولا بالراديكاليين الجدد... ولم يؤلموا رؤوسهم بتدبر فلسفة سقراط... ولا فضائل أفلاطون... ولا آخر أطروحات الفكر الحداثي... أو مسلمات البراجماتية... ولو شرحت لهم أفكارها التنظيرية أياماً لما زادوا لها إلا احتقاراً... ولما كانوا حريصين على فهمها أبداً... هدفهم الأسمى هو البقاء في الحياة حتى يتوفاهم الموت... ولا شيء غير ذلك... ولعل تلك الصفات جعلت قلب عين الدين يميل إليهم... ويعيش معهم في وئام وسلام...

سبران هناك في طرف الصف... إنه من بين الواقفين للصلاة... قد صف قدميه خلف عين الدين...

ماذا يحدث بالداخل

بعد انقضاء الصلاة خرج سبران دون أن يصلي الوتر... مع أنه قد اعتاد كغيره على أن يصليه بعد صلاة العشاء مباشرة... لقد بقي منزوياً في الظلام بجوار باب المسجد... كان ينتظر بقلق وتوجس... وعندما خرج عين الدين من المسجد تبعه سبران بخطوات حذرة.

انطلق عين الدين كما توقع سبران... جهة منزل صبرة... كان سبران يراقب أقدام عين الدين وهي تحمله جهة الفتاة... ويتذكر أيضاً تلك الركعات التي ركعها منذ قليل أمام الناس... وكان يصر على أسنانه من الغيظ.

استمر سبران في المتابعة... وعندما دخل عين الدين للمنزل بقي سبران بجوار الباب الخشبي المتهالك... وبعد قليل سمع سبران الضحكات المنبعثة من بين الشفاه السعيدة... كاد رأسه يشتعل شيباً... لا بد وأنهم يقرمشون المشبك... سبران يهز رأسه قليلاً... ثم ينظر إلى معيرته المربوطة في خاصرته.

مر الوقت بسرعة... كاد صبره ينفذ... استدار سبران خلف المنزل... وصعد على حجرة صغيرة كي يصل للكوة الصغيرة... في جدار الغرفة الخلفية... لم يعد الصوت مسموعاً له الآن بدرجة كافية... عزم على أن يُدخل رأسه مع تلك الكوة الصغيرة... وذلك لأن منزل صبرة مكون من غرفتين... إحداهما للنوم والأخرى للجلوس.

لقد كانت الكوة الصغيرة التي يعالج سبران خلفها مآربه... تقبع في جدار غرفة النوم... أما عين الدين وصبرة فهما في غرفة الجلوس... المسافة بين سبران وبين عين الدين وصبرة تتجاوز الثمانية أمتار... لذا لم يكن الحديث مسموعاً لديه بدرجة كافية... بيد أن الضحكات ترن وترن في أذنيه... مر الوقت مترقباً حذراً... ومع انسداد نسمات الهدوء انبعث صوت صغير من جهة سبران... دق قلب الفتى... والتفت في ذعر... وعندما دقق النظر وقعت عينه على وجه عين الدين... الذي خرج فجأة في الجهة الأخرى من الكوة الصغيرة... تأمل عين الدين ذلك الوجه المحبوس بين إطارات الكوة الصغيرة... لقد كان في أول وهلة أشبه بوجه شبح... وبعد أن حقق عين الدين النظر رفع السراج الذي كان في يده ثم قدمه للأمام قليلاً... بدا وجه سبران واضحاً... وتفصَّد العرق على جبينه... وبدأت الرجفة تهز أوصاله... ولم يتمالك إلا أن يشيح بوجهه... ولكن عين الدين قال في عتاب:

- "عيب يا سبران... التجسس على الناس عيب وحرام".

أنزل عين الدين السراج بهدوء وهو يحادث نفسه ويقول:

- "مسكين أنت يا سبران".

الجريمة

وقف عين الدين هنيهة... ثم بدأ يحرك قدميه جهة الباب... قاصداً الخروج... كان يفكر بهدوئه المعهود... وبعد أن جاوز الباب الخشبي استنشق من الهواء ما ملأ به رئتيه... ثم نظر إلى السماء في غبطة... ثم اتجه يميناً جهة المكان الذي يقف فيه سبران أمام الكوة الصغيرة... لم يكمل عين الدين خطواته تلك... لقد توقف فجأة... وابتلع ريقه في ذعر... وبدأ يمسك أنفاسه... ومع هدوء الليل باغته من بين الظلام ما لم يكن أبداً بحسبانه... إنها حركة سريعة لم ير خلالها سوى لمعان المعيرة الحادة يشع مع بصيص الضوء الخارج من غرفة صبرة... ثم شعر بوخز ألم يتزايد شيئاً فشيئاً حتى سرى في جميع أجزاء بطنه... لم تكن الطعنة طعنة وحيدة... لقد سُحبت المعيرة من

بطن عين الدين ثم أعيدت فيه مرة أخرى... ولكن عين الدين ألقى بصره للمرة الأخيرة... كي يودع ما حوله... مرت لحظات أخرى أشد وطأة... وحصلت بعدها جلبة شديدة... ثم سقط عين الدين على ركبتيه...

ومع تلك الجلبة الشديدة فزعت فتاة في الثامنة لتقف في صرامة وسط الغرفة... لم تكن تلك الفتاة بعيدة عن مسرح الأحداث... وإنما كانت جالسة مع عين الدين وصبرة... في الحُجرة ذاتها... ولم يكن سبران بالطبع يعلم بوجود هذه الفتاة في هذا المكان... لأنها كانت منزوية قليلاً في زاوية الحجرة... تقوم بمهام أوكلها القيام بها عين الدين... إنها الطفلة ريحانة... بيد أن وقفتها تلك لم تكن أقرب لوقفة طفلة في الثامنة... منها لوقفة إنسان ناضج يجيد فهم الأمور كما هي... قالت ريحانة لصبرة التي لا زالت نائمة في فراشها:

- " لا تتحركي يا صبرة... سوف أطالع كل شيء".

خرجت ريحانة في تلك الأثناء في قلق شديد... وعندما وقفت على عتبة الباب ارتسم في ذهنها منظر من أبشع المناظر التي يقدر لها أن ترتسم في ذهن طفلة صغيرة... لقد أدركت الكثير من مفردات هذا المشهد... ولكنها أهوت ببصرها على عين الدين... ثم تسمرت فجأة... بعدها طالعت يمنة ويسرة... ثم أعادت النظر لتدققه في الجسد الممدد.

عين الدين جالس يعتصره الألم ليطالع بعين واهنة... مرة يرفع رأسه ومرة ينزلها... لم تدر ريحانة ماذا تفعل ولكنها جلست أمامه... ومدت يدها الصغيرة لتحمل أمعاءه الخارجة من طرف بطنه... إنها بكل براءتها تريد إرجاعها للداخل... عل عملها ذاك يعيد الأمور إلى نصابها... نظرت هنيهة إلى وجه عين الدين... ثم قالت وحشرجة في صدرها تجبرها على النحيب المتقطع.

- "لا عليك... لا عليك يا عم عين... لا عليك".

طأطأت ريحانة برأسها... في حين اهتاجت مشاعر الأب الرحيم... داخل الرجل المحتضر... عند سماعه لكلام ريحانة الحاني... بعدها ارتسمت ابتسامة الوداع هناك... على الثغر المرتجف... ومرت لحظات قاسية... تم نظر عين الدين إلى الواقف أمامه على بعد خمسة أمتار... وهو متصلب أشبه بتمثال حجري... ومعيرته الحادة في يده وقد تلطخ رأسها بالدم.

- "هل أنت رجل يا سبران... ربما كنت كذلك".

كانت الفتاة الصغيرة ريحانة مستمرة في معالجة إعادة الأمعاء... وتصنع ذلك بكل رفق... ضناً منها أن يديها الصغيرتين... لم تكونا ملوثتين بشيء من البكتريا... أو ضناً منها أن هذه الطريقة هي الطريقة المثلى لإعادة الحياة إلى جسد ممزق.

ولكن عين الدين أجال بصره في الأخوين سبران وريحانة... ثم أمال رأسه للخلف ليغمض عينيه... تقدم سبران جهة عين الدين بخطوات بطيئة ثم صرخ...

- "لا".

في تلك الأثناء خرجت صبرة بهدوء... تتهادى خطواتها مع آلامها... ولكن بصرها اصطدم بوجه الأسطورة التركي ذي الشارب الذهبي الذي أصبحت عيناه مغمضتين... وبطنه مفتوحاً... ودماؤه تنزف من كل مكان... حتى من أنفه وفمه... طأطأت صبرة رأسها حتى اصطدم بحافة الباب الجانبية... ثم وضعت يديها على رأسها وصرخت صرخة مدوية... وبعدها قالت بصوت حزين:

- "هل قتلته".

نظر سبران إلى معيرته... ثم نظر إلى وجه عين الدين الذي أسلم روحه لله... ثم لوجه ريحانة وصبرة... وبعدها انتشى ورفع معيرته ثم هرب.

لكن تناقضات المشهد ولّدت في نفس ريحانة آلاماً شديدة... لم تتمالك الفتاة نفسها، لقد تبعته وهي تقول:

- "سبران ... سبران".

توقف سبران حتى لحقت به أخته الصغيرة... ثم قالت بهدوء:

- "أين ستذهب... يا أخي".

- "لا عليك".

- "أرجوك... قل لي... يجب أن يتضح كل شيء".

نظر سبران لها في توتر... ولكن قطعة المشبك الموجودة في حبيب ثوبها العلوي جعلته يتوقف قليلاً... ليعيد ذكراه لصباح هذا اليوم... بعدها قال سبران:

- "من أين أتيت بالمشبك يا فتاه".

دمعت عينا ريحانة... ثم رفعت يدها المتضمخة ببقايا دماء عين الدين... وسحبت المشبك من جيبها العلوي... ونظرت فيه ملياً... بعدها نظرت إلى وجه سبران الذي بدا أكثر شحوباً وذبولاً... وبداخلها كانت مشاعر متضاربة تصول وتجول حول السر القديم الذي استأمنتها عليه صديقتها صبرة... منذ ما يقارب العامين... هل عليها أن تكشف السر بعد أن انتقل عين الدين إلى الدار الآخرة... لم يعد ثم قيمة لسر كهذا... وعلى سبران أن يتحمل المسؤولية كاملة... رفعت ريحانة يديها مع ما تحمله من المشبك... الذي أصبح مع مرور الوقت مكسواً بصبغة من الدم... ثم قالت:

-"هذا المشبك لك... عليك أن تأكله يا سبران... لقد كسره الطبيب عين الدين بيده منذ قليل... وناولني إياه... وقال لي:

-"هذا لك يا ريحانة أنت وأخاك... أنتما من أطيب من عرفت في هذا الوادي... ثم إن السكر مفيد لصحتكما".

تناولتهُ ووضعته في جيبي كي نقتسمه أنا وأنت عندما أعود للمنزل... خذه يا سبران... خذه".

تناول سبران المشبك... ثم تأمله لحظة... بعدها ألقى به على الأرض... وقال:

- "ماذا عن صبرة".

أمسكت ريحانة الصغيرة بيد أخيها ثم سحبته جهة بيت صبرة... لم تكن صبرة حينها واقفة على الباب... لقد دخلت... تقدم سبران وأمامه أخته حتى دخلا من الباب... أما صبرة فبدت نائمة في فراشها دون حراك يذكر... لقد كانت الفاجعة عليها مذهلة... تقدمت ريحانة حتى جلست عند رأس صبرة في حين وقف سبران في منتصف الغرفة وبدأ يجيل طرفه بهدوء فيما حوله.

صبرة لم تستطيع أن تتحرك إنها على فراش مرضها... لقد كانت بجوارها تلك الأشياء الغريبة... أنبوبة وخرق صغيره بيضاء... ومقص وسكين صغيرة حارة... وبعض الأعشاب... هذا هو الشيء الذي يربط صبرة بعين الدين... إن الطبيب عين الدين يقوم بعمله هذا كل شهر... إنه يأتي ليعالجها من دائها العضال داء استسقاء الكبد... وهو يطلب منها قبل أن يأتي أن تحضر ريحانة كي تساعده وأيضاً من أجل تهدئة صبرة... وأيضاً هو كما يقول:

-"لا يحب أن تجمعه بفتاة غرفة... فلا يجوز أن يكونا لوحدهما".

لقد طلبت صبرة ذلك من ريحانة... وريحانة دائماً تتخفى لتجيء إلى هنا... عين الدين يعمل بإخلاص لعلاج هذه الفتاة الميئوس من شفائها... ولكن شفقته عليها و ثقته في الله تضطره لذلك... الأمر العجيب أن دواءه هذا كانت له نتائج مذهلة... والتركيبة التي صنعها من أعشاب الجبال بعد تجارب كثيرة ساعدت صبرة المريضة على مغالبة الداء العضال.

بدأت ريحانة تمسح على رأس صبرة النائمة... ثم نظرت إلى وجه سبران الواقف وقالت:

- "هل تعلم يا سبران أن صبرة الآن صارت في أواخر أيام علاجها من دائها... لقد قال: لنا عين الدين ذلك... لقد قال:

- "إنها تجاوزت المرحلة الصعبة".

- "انظر يا سبران إلى نضارة وجهها... انظر إلى بشرتها الصافية... إنها تسير للأفضل... أما هذا الشارب في وجهها... وذلك الصوت الغليظ فإنه لا يهم... هكذا قال عين الدين... إنه يقول إن العلاج الذي صنعه يحوي شيئاً غريباً اسمه... اسمه... هرمونات... وهذه الهرمونات تختلط مع... خلايا الجسم... إنه هكذا قال... قال: إن في أجسامنا خلايا... نعم خلايا كما قال... وكلما دخلت الهرمونات للخلايا يتغير الجسم بحسب نوع الهرمونات... وتلك الهرمونات غيّرت ملامح صبرة... وجعلت الشعر ينبت فوق شفتها... وجعلت صوتها غليظاً... ولكن عين الدين وعدها أن كل تلك الأعراض ستزول بعد انتهاء مدة العلاج... وتماثل ذلك الجسد الناحل للشفاء... أوه يا أخي سبران... كم كانت أفضال ذلك الرجل الراقد في الخارج كثيرة على صبرة...؛ لذا قررت صبرة أن تشتري له هذا اليوم شيئاً من المشبك... لم يأكل المشبك... لم يأكله... أليس كذلك يا سبران".

قالت ذلك وهي تنظر لسبران بألم... في حين ارتجف جسم سبران... وكاد ينفجر باكياً ... ثم أكملت:

- "و لكن أفضاله لا تقتصر على علاجها فقط... إنه أيضاً يسعى لتعليمها... وتعليمي أنا أيضاً... عين الدين قبل أن يبدأ في إدخال الأنبوب الحديدي إلى بطنها... يبقى مدة وهو يقص لنا قصصاً جميلة... عن الأنبياء الكرام... والرسل العظماء... إننا نسعد بسماع تلك القصص... وصبرة تقول:

- "(إنها تتحمل الآلام بعد سماعها للقصص)".

لست أدري كيف تقدر على ذلك... ولكن عين الدين يقول: إنها تدخل فيما يشبه النوم... أما أنا فإن قلبي يرقص طرباً وفرحاً... كلما سمعت تلك القصص عن الرسول الأمي محمد... واليوم بالذات قال عين الدين لصبرة:

- "من أين لك هذا المشبك".

قالت صبرة:

- "من السوق... لقد ذهبت لأبيع السمن... وقد ذهب معي ذلك الشاب الطيب سبران... إنه أفضل شباب القرية".

رد عليها عين الدين.

- "وهل شاهد المشبك ؟".

قالت صبرة:

- "نعم... ولكنني آثرت أن لا أعطيه شيئاً من المشبك... لأني نويت أن أهديه لك بكامله".

ولكن عين الدين صمت قليلاً وقال في هدوء:

- "أوه يا بنتي صبرة... لقد أذيته بذلك... لقد حرمتيه مما انفتحت نفسه عليه... والرسول محمد ﷺ... ينهى أن يؤذي الإنسان إنساناً مثله... لأننا ولدنا على الدنيا لنتعاون لا ليؤذي بعضنا بعضاً... لقد قال رسول الله محمد ﷺ «**لا تؤذ جارك بقتار قدرك**»... أي لا تجعل رائحة الطعام تصل لجارك... ثم لا تعطه من طعامك... يجب عليك يا صبرة أن تعطي جارك سبران من هذا المشبك".

لقد كسر عين الدين قطعة من المشبك... وناولني إياها... ثم قال في خشوع تام:

- "خذي يا بنتي يا ريحانة... أعطي هذه الحلوى لأخيك".

ثم أردف مبتسماً:

- "وفي يوم زواج سبران من صبرة... سأشتري الكثير من المشبك... وسأوزعه على جميع سكان القرية... صبرة تماماً كابنتي... ومنذ سنتين أنا أعالجها... لم أرى مثلها في الدين و الأدب".

هكذا تسارعت أحداث مذهلة داخل وجدان الواقف أمام الفتاتين... إنه يسترجع تلك الصورة التي انفجرت في عقله منذ وقت قصير... صورة ذلك الطبيب

المسجى على الأرض... وسرعان ما تحولت نظرته إلى عين الدين من الشك والريبة... إلى التعظيم والإجلال... لقد أصبح في عينيه بطلاً عظيماً... وكأن فتيل الحب في وجدان سبران... بدأ يشتعل الآن بجوار كرهه... كل الموازين بدأت تتغير... إنه يحب عين الدين من كل جزيئات قلبه... ولكن صورة مذهلة تطفلت على القلب المتردد... بين الكره والحب... إنها صورة القتل... القتل غدراً... وصورة البطل الأسطورة... وهو يخرج من الدنيا على نصل خنجر الغدر... التي غرست في فؤاده... هل فات الأوان... وهل ستبدأ رحلة العذاب التي سيحترق بها وجدان سبران... ليمسح شيئاً مما حسبه دموعاً... ولكنه سرعان ما شم رائحة ما... ثارت مشاعر سبران بما يشبه البكاء ... وثارت أفكاره بما يشبه الدوار... وفي تكل اللحظات المهووسة بدأت عينا صبرة تنفتح شيئاً فشيئاً... لم يكن أمامها سوى صورة من رأت فيه قاتلاً شقياً... افتتح حياته بالقتل دون سبب يذكر سوى الوهم والغباء... بدأت شفتا صبرة تردد:

- "يا لك من حيوان تافه حقير... الرجل يجب أن يكون رجلاً... لا أن يكون غادراً... الرجل يجب أن يكون رجلاً".

نظر سبران لأخته الجالسة عند رأس صبرة... أراد أن يقول شيئاً... ولكن تفكيره هداه لشيء آخر... لم يتكلم سبران بكلمة واحده... ولكنه بدأ يتراجع للخلف... وبعد أن خرج من دار صبرة... وقف عند جثة المرحوم عين الدين... اقترب منها أكثر... تذكر ما كان سيصنعه هذا الرجل في يوم زواجه من صبرة... أوه... لماذا مات هذا الرجل... لم تكن الجثة سوى عملاق من نور... أو أسطورة من نار... لم يشأ سبران أن يقترب أكثر... لقد شعر أن النور سيخطف بصره أو ستحرقه النار... هذا العملاق العظيم... ونظرات صبرة النارية... وهناك مهام جسام... كاد سبران من فرط حزنه أن يغرس خنجره في ذلك القلب الذي يضخ الدم في بدنه... وربما كان يريد إزالة الأحقاد الدفينة... ولكنه شعر أن موته لن ينفع أحداً... لذا حمل قدميه... وهرب... كأنه كان يطرد نفسه... أو يطرد

وهمه... وربما كان يطرد صورة رجل أحبه الجميع... اسمه عين الدين... وبعد دقائق التهم الظلام والجبال... وأودية عميقة... جسماً مهموماً كان يحيط بقلب لم يستطع أن يستوعب همه... غاب سبران... ولا أحد يدري إلى أي فج عميق سوف تحمله الأقدار... أما الفتاتان بالداخل... فلم تنفك عيناهما عن النظر لبعضهما... كانت كل واحدة منهما تجول في عالم ذكرياتها الخاص بها... لم تنطق شفة أي منهما بكلمة... ولكن طول الانتظار والصمت... جعل صبرة تتكئ على ركبتيها ثم تقف بهدوء... وعندما شاهدتها ريحانة قالت في استجداء:

- "ابقي كما أنت... سوف أحضر لك بعض الماء... وربما وجدت قليلاً من الحليب في بيتنا... لن أبخل به على صديقة مريضة".

سارت ريحانة بخطوات «واهنة»... تردد صداها صورة قاتمة... لم تزل الذاكرة تجترها بين اللحظة والأخرى... وعندما خرجت ريحانة من منزل صبرة سارت خطوتين للأمام... ولكن فضولها كان ملحاً عليها عندما آثرت أن تلقي نظرتها الأخيرة على المسجى هناك في الصمت.

ارتمت النظرة الحزينة كي تطالعها الجثة الباردة من ثقب الحياة الأسود... ولم يكن ثم حياة و لكنه الموت... بدا عين الدين... وبدا الدم الذي ترهبه فتاة في الثامنة وقد أصبح مع التراب كصورة أبشع عجين أحمر قان يقدر لفتاة في الثامنة أن تشاهده... ولكن الحزن الذي خالط قلب ريحانة وهي ترى وجه الحياة الكالح أقل بكثير من فاجعة المريضة بداء الكبد... عندما سمعت نحيب صغيرتها ريحانة... وهي تودع صورة الموت تلك... ولم يكن لصبرة مع وقع أقدام المعاناة على قلبها المكسور إلا أن تقوم متجاهلة نصيحة الطبيب لها بأن لا تقوم قبل يوم كامل... وأين طبيبها الناصح يا ترى... قامت صبرة وخرجت... كل هم من هموم الحياة يهون... إلا همّاً واحداً... إنه الهم الذي يرى فيه صاحب القلب الصقيل، صورة صاحب الأيادي البيضاء عليه، وهو يسبح في دماء براءته، دون أي جرم ارتكبه... خرجت صبرة وهي تصارع الألم والحزن... ووقفت بجوار الطفلة الصغيرة... وبعد أن تبادلتا نظرة حزينة... لم تجد الفتاتان أسهل من البكاء على هذا المأتم المفجع...

وبعد لحظات ضمت كل منهما الأخرى... طال الوقت كذلك... أو لم يطل... ولكن أحداً لم يدر أي الفتاتين أغمي عليها أولاً... بيد أنهما في النهاية سقطتا مجندلتين على أرض من لحم ودم... سقطتا على جثة الرجل المسجى... وأخفى ظلام الليل مشهداً كان جديراً بأن يُحفر في الذاكرتين الغائبتين عن الوعي لساعات الليل.

يتم فظيع

أسبوع أسود يمر على قرية العريفة... لم يعد ثم رجل ذو شارب أصفر... اسمه عين الدين... لقد أصبح ثالثاً للحجر والتراب... ولم يعد ثم شاب يحب صبرة وينتظر بلهفة ليلة زواجه منها... لقد صار ثالث الأشباح والظلام... ولم يعد ثم صبرة... الفتاة الرشيقة... ذات الشارب والعنترية... لقد آثرت الموت على البقاء في حياة موحلة مليئة بالأحقاد... ماتت صبرة مع مرضها الرهيب... وفارقت الحياة كمداً على من رأت فيه والداً ووالدة... الرجل الذي أسدل عليها عباءة الرحمة بعد أن فقدت والديها... مات عين الدين... وماتت صبرة... واختفى سبران... وها هي تلك اليتيمة الأخرى ريحانة... إنها في منزلها الطيني لا تذكر شيئاً سوى القصص التي غرسها في ذهنها ذلك الرجل التركي... الذي أحست ذات يوم أنه والدها... تماماً كما أحست بذلك من قبلها صديقتها المرحومة صبرة... لكن اختفاء أخيها سبران سر غامض في حياتها... وندبة يصعب على قلبها الغض أن يحتمل أعباءها... حتماً سيأتي أخوها الأكبر شداد، الذي سافر منذ شهر إلى اليمن...

شداد مع أنه أخوها إلا أنها لا تجد في قلبها أي ميل نحوه... إنه غليظ كالوحدة... وقاسي كالصخر... وأشد فظاعة من وجه الحرباء... ولكن عليها أن تواجهه... وعليها أن تحبه أيضاً... وعليها أن تعيش مهما كان وجه الحياة قبيحاً... لأن الموت وجه من أقبح وجوه الحياة.

رحلة التعاسة

الهواء الجاف يرتفع ثم ينخفض... أشبه بأمواج سيل العرم... ولكنه في النهاية يخرج من بين شقي الجبل الرهيب... المشقوق من أعلاه إلى أسفله... في الجهة

الشمالية لقرية الغال... وعند خروج ذلك الهواء يتبعه دوي رهيب... أشبه بصوت الزئير... في بطن الأسد.

عصابة شداد السوداء ذات النقط الحمراء... ووجهه الحنطي المائل للسواد... وشاربه المنتوف من أطرافه... كل ذلك يوحي بمدى قوة الحياة التي يعيشها هذا الشاب المكتمل... ولكن نظراته الثاقبة... وتحمله لكل شيء... يمنح الناظر إليه انطباعات ما... عن وجوب الحذر...

وكلما سار شداد بمحاذاة الهوة العميقة... المطلة على تهامة من جهة جبال الغال... ترتسم في ذاكرته تجعدات ذلك الوادي السحيق... كي يصرف نظره بعدها... ويبحر في تفكير عميق... في مدى تجاعيد حياته هو... وبجوار شداد ينتعل عادي حذاءه التي دخلت في طرفها من جوار كعبه شوكة صغيرة... ومع طول الوقت أصبح من الصعوبة إخراجها... وهي كثيراً ما تعكر صفوه كلما دهس الأحجار.

ثوب عادي رمادي اللون... ربما من الصبغة الأصلية التي صبغ بها عند صناعته... وربما من تلبدات الأتربة والقاذورات مع مرور السنين التي مرت على الثوب دون غسيل... بشرة عادي ربما مالت إلى البياض قليلاً... أما شعره المنسدل للخلف لم يكن أطول من شعر شداد... ولكنه على كل حال أنظف قليلاً... لم ينظر عادي إلى أعماق وادي تيّة السحيق... لأنه قد مل النظر لمثل هذا المنظر... ولكنه اكتفى بإدخال يده في فتحة القف المعلق على ظهره... وأخرج حفنة من الشعير وبدأ يقضمها وهو ينشد:

- "الحَب حَبي... والعجاجة مع الزيت والسمن سمني أحبسه في الصراري".

نظر شداد إلى عادي بطرف عينه اليمنى ثم قال:

- "لم يطلب أحد منك أن تكون كريماً".

نظر إليه عادي وهو يطحن الحب الناشف بين أسنانه وقال:

- "الحب الذي على ظهرك يشبع له حماراً... ولكن من الصعب على نفسك أن تتقصه".

لم يبال شداد كثيراً.... لقد اكتفى بأن قذف ببصره مسافة أطوال... إلى مهالك تلك الجبال... التي تفصل جبال السراة عن سهول تهامة... كل شيء مرعب ويوحي بالسقوط لمسافات تزيد عن ١٠٠ متر... وقطعان الغزلان سرعان ما تهرب كالريح... ولا تلبث بعض الصخور التي ركلتها الأقدام الواثبة أن تسقط... ثم تحدث دوياً جديداً... نظر شداد إلى صديق رحلته عادي وقال باستخفاف:

- "هل تستطيع أن تصيد لنا غزالاً".

قال عادي وهو يبتسم بسخرية:

- "أنا لا أفكر في الصيد... بقدر ما أفكر في كيفية النجاة من أنياب النمر ذي الظهر المقوس... هذه الجبال من يدخلها مفقود ومن يخرج منها مولود... ألا توافق على ذلك يا صاحبي!؟".

- "لا تكن جباناً يا صاحبي... أنا أحمل حربتي الحادة... وأعرف تماماً كيف أمنع بها النمر... وكيف أذيقه طعم دمه... هـ هـ...".

- "النمر له أنياب ومخالب... وسرعته كسرعة البصر... والشيء الوحيد الذي سينقذك منه هو كون بطنه ممتلئاً بلحم غزال مقرَّن... أو ربما لحم مسافر دخل الليلة الفائتة لهذه الجبال... ثم دخل بعدها لبطن النمر...".

- " أنت خائف يا عادي... ولا أدري لماذا الخوف ؟".

- "لأن أبي... ومن قبله عمي... كانا إحدى وجبات النمر وصغاره... إيه يا شداد... لو تسمع أمي العجوز وهي تقسم علي دائماً أن لا أدخل لمهالك هذه الجبال إلا مع الظهيرة... وحين تكون الشمس... هي وحدها من يجبر النمر على البقاء في عرينه".

نظر شداد إلى عادي شزراً وحمل حربته ذات النصل المصنوع من اليراع (القصب) وذات الرأس المصنوع على شكل سكين حادة الطرفين... طولها أربعة أصابع... وسرعان

ما ألقى ببصره نحو غيمة صغيرة في السماء... لكن عادي نظر إليه بطريقة أكثر سخرية ثم قال متهكماً:

- "لا أدري... هل ستبيت هذه الحربة معنا في بطن النمر... أم أنها ستبيت في العراء و الوحشة خارج بطن النمر".

- "لا تطل الكلام... و إلا باتت هذه الحربة في بطنك".

توقف عادي قليلاً ليعيد ربط حذائه المصنوع ظهرها من جريد النخل... وبطنها يحوي طبقتين من جلد الثور... بالطبع كان الثور هو ثور العجوز أم برمة الذي سقط في بئر الجديلة... ومات غرقاً... لقد صُنع من جلده أحذية لجميع سكان القرية يومها... ولكن عادي حين رأى الثقب يزيد في بطن الحذاء قال يحدث نفسه:

- "حفظك الله يا عين الدين آغا... لولا أنك نزلت بئر الجديلة... وربطت الثور الغارق بقرنيه... لما أمكنني حفظ قدمي بحذاء لمدة عام كامل".

قال شداد وقد تأخر قليلاً في المشي:

- "ماذا تقول يا عادي".

- "هل تذكر ثور العجوز أم برمة".

- "أذكره جيداً... وأذكر حين أكلتم من لحمه وهو ميتة... لم يذكر اسم الله عليه... ولم يستقبل القبلة".

- "المهم لقد شبعنا حينها من اللحم... وبالمناسبة يا شداد... فقد خرج الثور من البئر قبل أن يموت... لقد نحرناه وهو لا يزال يتحرك... لقد أقسمت بذلك (أم برمة)... إنه حلال و ليس حراماً".

- "بطونكم كالمقابر... لا ترد ميتاً... هـ هـ هـ".

- "وهل أنت سعيد يا شداد... بهذا الحذاء في رجلك... والتي هي من جلدك".

- "أنا لست في حاجة للحذاء... أما أنت فلو تلفت حذاؤك هذه لما استطعت المشي".

- "اطمئن... حينها سأجد جلداً أصنعه حذاء... فربما تسقط أنت يا شداد في بئر الجديلة... وعندها نطلب من عين الدين أن يخرجك... ثم أقص جلد قدمك واتخذه حذاء هـ .. هـ ..".

قال شداد في احتقار:

- "يا كلب".

لم يجب عادي... ولكنه سرعان ما أشار إلى ناحية الصوت... لقد كانت شجرة الطلح تخفي خلفها ثلاثة وبران برية... الوبران البرية بحجم القطط ولكنها حيوانات عاشبة... ولحمها يتسابق عليه الصيادون... وعابرو السبيل... من أمثال شداد وعادي... فهم يتبعونها في جحورها ويرصدونها لساعات... حمل شداد حربته وانطلق خلفها مسرعاً... ولكنها كانت أكثر سرعة منه... لقد اختفت فجأة... واختفى شداد قليلاً عن عين عادي... ثم عاد إليه... ولكنه في عودته هذه كان متوتراً... وكأنه يخفي شيئاً ما... إنه أشبه بسر صغير... أراد شداد أن يبيح بالسر... ولكنه سرعان ما أعاد النظر إلى صخرة قريبة... ثم فكر قليلاً... وقال:

- "هيا... هيا".

- "ماذا عن الوبران".

- "لا شيء... لا شيء... لقد اختفوا جميعاً".

الاثنان تابعا سيرهما بسرعة... وخلال وقت الظهيرة كانا كثيراً ما يركضان... وأحياناً قليلة يسيران سير الهوينا من شدة التعب... أيديهما كانت على قلبيهما من شدة الخوف... فالنمر قد يهجم في أية لحظة... وشعورهما بحلول الظلام وهما داخل الوادي يؤكد لهما أنهما لا محالة سيلحقان بعالم الأموات...

مـر الـوقت سـريعـاً وانقطعت المسـافـة... وبدت من هنـاك... قـرية العـيـدة... بسـاحتها الرحبة... لقد آن لهما أن يتنفسا الصعداء.... نظر شداد للشمس... ثم ابتسم وقال:

- "انظر عادي... لا زالت الشمس حية لم تمت حتى الآن... نعم لقد جاوزنا العصر بقليل... علينا أن نتيمم ونصلي".

تيمم الرجلان... ثم صلى شداد إماماً... لقد كانت صلاته مستعجلة أشبه بنقر الغراب... ولكنه كان راضياً عنها تماماً كرضا صاحبه.

أكمل الرجلان سيرهما جهة قريتهما... لقد مر ما يقارب الساعة والربع... وبعدها... كانا داخلين إلى قرية العريفة... لقد حطت بهما أقدامهما أخيراً في مسقط رأسيهما... بعد شهرين من السفر... قصد كل منهما بيته... إلا أن شداداً لا زال يفكر في موضوع هام... شغل رأسه طيلة الطريق... إنه الشيء الذي رآه حين ركض خلف الوبران... وعليه أن يتخذ قراراً حاسماً تجاهه.

ريحانة قادمة من أسفل الوادي... وهي متثاقلة في السير... قدماها النحيلتان لا تكادان تحملانها وتحملان القربة ذات العشرة لترات من الماء على ظهرها... إنها الآن تكسب قوتها من حملها للماء... وإيصاله إلى منازل بعض أهل القرية... عليها أن تحمل قربة أخرى... كي تأخذ أجرة اليوم... أجرتها هي فقط وجبة غدائها... ووجبة الغداء هي كسرة لا تجاوز حجم الكف... من خبز الذرة الحمراء... وعليها أن تزيد قربتين أخريين إذا أرادت نصف بصلة... أو قدحاً متوسط الحجم من اللبن... وجبة واحده في اليوم هي طعام ريحانة... والجهد الذي تبذله جهد متواصل... ووجبتها الوحيدة تلك لا تكاد تمدها مع هذا العمل المرهق بما يحتاجه جسمها النحيل... كي ينمو... ولكن عليها أن تصبر... وعليها أن تبقى لتدير صراع الحياة... من أجل البقاء... فجميع الأغنام التي كانت تدر عليهما شيئاً من منافع الحياة لا تدري أين اختفت... ربما كان الأرجح... أن سبران عندما هرب... قد أخذها معه... وباعها في الطريق...

ريحانة أنهت عملها اليومي... وحظيت أخيراً بما كانت تطمح إليه... لقد عادت بكسرة الخبز... وبقدح اللبن المهزوز داخل ثمرة الدباء المجوفة... أفضل شيء لحفظ اللبن هي تلك الدباء... التي يُزال لبّها وتبقى قشرتها حتى تتصلب... ثم يحفظ فيها الماء أو اللبن... تلك الدباء التي تشرب من طرفها ريحانة صغيرة جداً... وهي في الحقيقة إناء منزلها الوحيد... إنها تشرب فيه الماء... أو تشرب فيه اللبن... ولكنها عندما أقبلت تجاه منزلها فوجئت بأن الباب كان مفتوحاً... لم تخف ريحانة كثيراً من كون الباب مفتوحاً... لأنه لا شيء تخاف عليه من السرقة... بين جدران هذا السكن الصغير... وحين دخلت الفتاة رأت وجه أخيها المكفهر... إنه شداد... ذو الوجه الحنطي واللحية متفرقة الشعر... وتلك الأسنان المتزاحمة في فم عظيم الشفتين... وعندما رآها سرعان ما أخرج يده من فمه وقال:

- "أين كنت... وأين ذهب سبران... ولماذا منزلكم خال من الطعام... أنا أسافر وأشقى وأنتم تأكلون".

أسرعت ريحانة في وضع خبزتها الصغيرة بين يديه... وبجوار الخبز وضعت إناء اللبن... لقد آثرت السلامة من اللسان السليط... ومن الواجب على بطنها أن يحتفظ بعصارة الهضم فترة أطول.

بدا نهم شداد غير المتناهي... يتمثل في التهام ما كان قبل قليل عرقاً في جبين ريحانة... وتحول الآن إلى خبز ولبن... وبعد قليل سيكون غذاء لجسد شداد القوي... قال شداد وفمه ممتلئ بالطعام... وقطرات من لعابه تتناثر على الطعام وعلى وجه ريحانة الجالسة أمامه في خشوع:

- "أين سبران"؟

- "لا أدري".

- "لا تدرين... اذهبي و ابحثي عنه".

- "منذ أسبوع لم أره... منذ أن قُتل عين الدين".

- "ماذا ... وهل قُتل عين الدين".

- "نعم...".

أعاد شداد نظره جهة ما تبقى من الخبز... الذي كانت عين ريحانة ترقبه بلهفة... وتأمل في أن يبقيه لجوعتها... ثم التهمه دفعة واحدة في غضب... ثم قال:

- "هيا اذهبي للنوم الآن... يجب أن نذهب غداً لأعلى وادي تية... هناك شيء مهم... نسيته هناك... سنذهب بعد طلوع الشمس بقليل... يجب أن لا نتأخر... يجب الخروج من الوادي... قبل حلول الظلام... النمر لا يرحم.

تمدد شداد في مكانه وهو يشعر بشيء من الشبع... وقامت ريحانة وهي تحس بكل أصناف الجوع... وذهبت للخارج لتقضي شيئاً ما.

رحلة العناء

أشرقت شمس اليوم التالي... وارتفعت قليلاً... وسارت أقدام شداد الغليظة... وتلك الأقدام الحافية... نحيلة الساقين... التي تحمل الفتاة ذات الأعوام الثمانية... لقد حملتها كثيراً... ولا زالت تحملها...

الفتاة تسير... وتحاول أن لا تتعثر... أقدام دقيقة قصيرة تنتقل... وتوسع الخطى... لتدخل أطراف أصابعها داخل الحفرة العريضة... التي حفرتها للتو... أقدام شداد الحافية.

لا تدري ريحانة إلى أين ستتجه... أو ما هي نهاية خطواتها تلك... ولكن جوعها الثائر في أحشائها يكاد يقطع أوصالها... إنها تتصبر وتتصبر... لترى في ذعر... نهاية هذه المعاناة... وأخيراً انتهى الصبر المبطن بالخوف... عندما قررت الفتاة... أن تأكل ثمرة الطلح... الطلح نبات شوكي ضخم... وثمرته أشبه بحبات البازلاء... ولكن طعمه أقرب مرارة للعلقم.

كانت شجرة الطلح بجوار الطريق... توقفت ريحانة وبدأت في قطف الثمر... قطفت ثلاث حبات خضراء... وعندما وخزتها أحدى الشوكات الحادة سحبت يدها بسرعة... وبدأ الدم في النزيف... ولم يسعفها الوقت لتنشغل بنزيفها... لأن شداد انتهرها قائلاً:

- "تابعي السير يا (رخوة)".

تابعت ريحانة سيرها... وبدأت في فك ثمر الطلح الذي تحضنه يدها الصغيرة... ثم أخرجت الحبوب المرة... ثم ألقت بها في جوفها دون مضغ... والآن... توقفت أصوات المعدة الخالية... بمجرد وصول بذور الطلح إليها... لأنها بدأت في هضم ما حسبته طعاماً.

الحرارة التي تبعثها الأرض الطينية لا تكاد تُحتمل... والرمال التي تسفها الرياح في عيني ريحانة تجعلها طيلة الطريق أشبه بالباكية... وهناك على بعد خطوات... ترى شجرة نخل طويلة... وبجوارها الظل الظليل... يتراءى أمام عيني تلك البائسة... والسراب يوهمها بالماء... وليس ثمة ماء... بيد أن نظرة واحدة لظهر شداد... ثم إلى رقبته السوداء من الخلف... تجعل التفكير في الماء أو الظل مجرد أهازيج.

بدأ شداد في ترديد موّال طويل... يقطّعه بصوته المزعج... لقد كان صوته يدخل إلى أذني أخته... دون أن يطربها... إنه أخوها... وهي تحبه... ولكن قلبه الغليظ لا يجعلها تشعر تجاهه بأدنى مشاعر الأخوة... إنها ترجو منه نظرة رحمة أو شفقة... كم تمنت أن يكون عين الدين آغا هو أخوها الحقيقي... لا أن يكون أخوها هو هذا الوحش المرعب... ولكن عين الدين لم يعد يعني لريحانة شيئاً... كل ما يعنيها الآن... هو كيف يمكنها إسكات فقاقيع الجوع في بطنها... الفقاقيع الأشبه بطلقات الرصاص... لا أحد يعير هذه اليتيمة أي انتباه... سوى قطعة الغيم البعيدة... التي جاءت الآن من هناك... لعلها أن تمنع الرأس الصغير... من أن يغلي ما بداخله من مخ... ابتسمت ريحانة فيما يشبه السعادة... لا أحد يدري لأي شيء كانت تلك السعادة... ولكن ريحانة تذكرت صورة عين الدين... وكأنه فوق

السحاب... تذكرت شاربه الأصفر وهو يهتز فوق شفتيه... التي تهتز في خشوع... لتذكر بعض الأحاديث عن الرسول محمد ﷺ:

- "محمد كان صغيراً... كان يتيماً... وكان في سن الثامنة... مثلك تماماً يا صغيرتي ريحانة... ولكن الله كان يحبه... وكان أهل مكة يحبونه... أحبه القريب والبعيد... حتى نصارى بلاد الشام... لقد أحبوه عندما رأوه... وعندما سافر محمد الصغير... مع عمه... إلى بلاد الشام... كانت الشمس حينها حارقة... ولكن غيمة صغيرة أتت مسرعة... وحجبت أشعة الشمس عن رأس محمد العظيم... وعندما أشرف أحد علماء النصارى من صومعته... لفت نظره تلك الغيمة... ولفت نظره أكثر... ذلك الطفل... وتذكر شيئاً في الإنجيل... لقد تذكر إحدى صفات نبي آخر الزمان... إنه مخلوق يسبّح الشجر و الحجر عند مروره... وعند اشتداد حرارة الشمس يأتي الغمام ليظله.

لم تنتبه ريحانة من تأملاتها تلك... مع صورة الطفل اليتيم... إلا عندما سمعت صوت يد شداد... وهو يكسر العصا من شجرة المرخ... كسر شداد العصا... ثم عاد نحوها أشبه بالوحش... لقد كان يرغي و يزبد... ثم يقول:

- "تريدين تأخيري حتى غروب الشمس".

أكلت ريحانة على ظهرها اللين جلدتين قويتين... ثم تابعت السير بجوار أخيها... ولم تعد تذكر (عين الدين)... ولا (محمد بن عبدالله)... لأنها كانت تبكي من الألم.

ومع ميلان الشمس قليلاً... بدأ السائران على أقدامهما يدخلان بين الجبال الوعرة... كل أحجار الوادي ملساء... وكل شيء يذكّر بالوحشة والوحدة... ماذا يريد هذان السائران... وإلى أي جهة قد عزما المسير... وهل سيخرجان من هذا المكان الموحش أحياء... أم أنهما سرعان ما يكونان طعاماً للسباع... حان وقت صلاة الظهر... ونظر شداد حينها إلى ريحانة... ثم نظر إلى السماء وقال:

- "الله أكبر... الله أكبر... الله...".

وأقام الصلاة... وبعد أن أكمل الإقامة جلس... ومد يده أمامه... ثم تيمم... وقال لريحانة:

- "صلي يا بنت... صلي".

أكمل شداد صلاته بسرعة... أما ريحانة فإنها لم تصل... فلم يجعل الجوع والإعياء مجالاً للتفكير... في شيء كالصلاة... إنها تكاد تسقط مع كل خطوة تخطوها... ولكن كلمات شداد التي قالها بعد صلاته أعادت لها الطمأنينة.

- "أستغفر الله... من كل ذنب... هيا يا ريحانة... شدي حيلك... سنصل قريباً".

بدأ الصاحبان... الأبعد ما يكونان... عن أقل معاني الصحبة... في السير الحثيث... لقد بقي وقت قصير و يصلان إلى الهدف... الذي في ذهن شداد... أما ريحانة فإنها لا تدري ما هو الهدف... الهدف بالنسبة لشداد معروف جداً... إنه ذات المكان الذي يحوي الصخرة الكبيرة... والذي شاهد فيه حينها شيئاً ما... أخفى ذكره على صاحبه عادي... لقد عاد إليه الآن... وهو يحمل العزم على التفرد بالمصلحة لنفسه.

تقدمت خطوات شداد... لقد كانت ريحانة تسير خلفه... وكان قلبها يدق بقوة... ولكنها أحست بقليل من السعادة... عندما رأت ما جاء من أجله... ها هو ذاك... الكهف الصغير... والمحفور في الصخرة الرمادية... على بعد ثلاثة أمتار من الأرض... الصخرة يصل ارتفاعها إلى ستة أمتار... وهي أشبه بقطعة واحدة ثابتة في الأرض... إنها ملساء... ولا يمكن لأحد أن يتسلقها بسهولة... ولكن عزيمة شداد لا يمكن أن تقف أمامها تلك العوائق... العسل الشهي الذي فاض من جوانب الكهف الصغير... يجعل عيني ريحانة تكادان تخرجان من أحداقهما... ويجعل ريقها يجتمع في فمها أشبه بكرة... ودقات قلب سعادتها تكاد تركض إلى جميع أطرافها... بدأت ريحانة تنظر في إصبعها المتسخ بالطين... قريباً ستلعق هذا

الإصبع... وسيكون العسل محيطاً به... آه ما أجمل الحياة... انتهت كل تلك الآمال عندما سحبها شداد بقوة ... وهو يقول:

- "سأرفعك حتى تصلين إلى العسل".

شرع شداد في إخراج السكين... ثم إخراج جلد قربة صغيرة قد وضعها مسبقاً تحت الحزام... ثم عاد ليحزم من جديد.. الحزام هام لكل رجل هنا... ويسميه شداد كمر... كمر شداد الجلدي غليظ... ويحيط بوسطه أشبه بإحاطة السوار بالمعصم... ويضع شداد في جيب الكمر ما يخف من أغراضه... أما الخنجر فإنه يغرسها بين الكمر وبين جلد بطنه العاري... من الأسفل.

حمل شداد أخته ريحانة... حتى وضعت قدميها على كتفيه... ثم وضعت يديها على الصخرة... وبدأت تفرد ركبتيها... حتى اقتربت من العسل... ناولها شداد السكين والقربة... وقال:

- "هيا اقطعي العسل... وضعيه في القربة".

تباطأت يد ريحانة... المهتزة من الجوع ومن الخوف... وأخيراً وصلت بسكينها إلى بيت النحل... وبدأت في حفر الواجهة الأمامية لبيت النحل... إنه طين مبني بمهارة ودقة... وهو يعزل أقراص العسل عن الهواء الخارجي... ويسيل العسل من بين شقوق متعددة فيه... كسرت ريحانة أول كسرة منه... ودخلت رائحة عسل السدرة إلى جميع بدنها الواهن... وأحست أنها الآن بجوار الجنة الموعودة... أكملت تكسير بقية الطين العازل... شداد من أسفل ينظر وينتظر... لقد نفد صبره... وبدأ يقول:

- "أسرعي... يا رخوة...".

لكن النحل لم يكن من الطيبة بالدرجة التي تجعله يقدّر عناء هذه المسكينة... التي أجبرتها ظروفها القاسية... على الحضور إلى هنا... ثم الصعود إلى منتصف هذه الصخرة المرعبة... لتبدأ في تكسير منزل النحل الطيني.

بدأ العسل يبلل إصبع ريحانة الصغير... وبدأ عقلها يسبح في آفاق جميلة... ولكن الفجأة الظالمة... أكلت عقل ريحانة... عندما باغتها ألم شديد كاد يصدع رأسها... إنها لسعة لعينة على خدها اللطيف... كم هي عميقة أحزانها... وكم هو موت بطيء ذلك الإعياء الذي تتجرعه ريحانة... مع كل نبضة خوف يرتجف بها قلبها... آه... لقد أصابها الدوار... وأحست بما يشبه السقوط... ثم سقطت... ولكن لم تمهلها كف شداد الغليظة... لقد تقدمت بقسوة لتلطمها لطمة أقسى من الموت ذاته... ثم أنزلها على الأرض الصلبة... وهو يرغي ويزيد.

لم تكن ريحانة تدرك ما حولها... لقد دخلت فيما يشبه غيبة الوعي... ربما من الجوع... وربما من الحسرة والألم... جراء تلك اللطمة... انتفض شداد أشبه بالملدوغ... وبدأت الدماء تثور في رأسه... عليه أن يتصرف... لقد بدأ يبحث عن حَجرة كبيرة... وبعد أن وجدها... وضعها بجوار الصخرة... لم تكن الحجرة كافية لإيصال شداد إلى كهف النحل... بحث عن حجرة أصغر... وضعها على الحجرة الأولى... وبحث عن حجرة ثالثة... وضعها على الحجرتين السابقتين... وأخيراً صعد... لقد أصبح قريباً من هدفه... إنه يحمل في إحدى يديه جنبيته... وفي اليد الأخرى كان يحمل الجلد الذي يريد وضع العسل فيه... أدخل شداد يده في بيت النحل... وأخرج كسرة من أحد أقراص العسل... أوه... لقد قرر أن يأكل منها قليلاً... قبل أن يضعها في الجلد... وضعها في فمه... وبدأ يتذوق... لم يلبث طعم العسل حتى بدأ يذوب في فمه... وبدأ جسده في القشعريرة... إنها نحلة هائجة... لقد حان موعد القصاص... الآن... على يد شوكة النحل... وبدأ سم النحلة يسري في يد شداد... وبسرعة بدأ شداد يطارد النحلة... يمينة ويسرة... ويضرب وجهه ورأسه... لأن عدداً من النحل قرروا المشاركة... ولكن الحجرات الثلاث من تحت قدميه لم تعد قادرة على تحمل اضطراب بدنه... لقد بدأت الدنيا تدور به... بدأت عيناه تدوران بقمم جبال الوادي... وقلبه يدفع الدم بقوة... إنه يشعر أن موازين الأشياء تغيرت... والأحجار بدأت في الانهيار... ومع انهيارها انهار شداد... الأشبه بالمجنون... وسقط على رأسه... لم تكن المشكلة كامنة في سقوطه... ولكنها

كمنت في تلك الحجرة الصغيرة... ذات الرأس المدبب... إنها منتصبة في انتظار الجمجمة المهووسة... سُمعت قرعة صغيرة... بعدها ثار دم شداد من رأسه المجروح.

ولكن النزف المرعب... لم يكن في الحقيقة... نهاية الفصل المأساوي... من فصول معاناة ريحانة... الغائبة عن الوعي... في هذا المكان الموحش... ريحانة ستدخل الآن في فصل آخر... هو أشد فظاعة... ولعل بطله الحقيقي... هو موت شداد... وبقاؤها وحيدة هنا... مع مغيب الشمس... بين الجبال الموحشة... وبين أصداء زئير السباع وفحيح الحيات.

المشهد الرهيب

ريحانة ذات الأنف الصغير والعينين الواسعتين تنتبه لما حولها شيئاً فشيئاً... ثم تضع يدها على خدها... إنها تتحسس موضع يد شداد عندما ضربها... هل لازال شداد هنا... وهل سيكمل واجبه فيما يسميه تأديباً لأخته اليتيمة... بدأت ريحانة في الجلوس... وضعت يدها خلفها بقلق... ثم استندت عليها... ثم بدأت تنظر يمنة ويسرة... إنها لا تشعر أبداً بوجود شداد... ولكنها تشعر بالظلام الرهيب... الخانق لكل شيء... إنها الآن تتذكر كل شيء بوضوح... بالطبع ليست في منزلها الصغير... ولكنها في مكان فضيع... إنها هنا بين الجبال... وهذا الظلام بعتمته يلتهم الجبال المهيبة... ولكن سرعان ما اضطرم الجوع في جوف ريحانة... وضعت الفتاة يدها على بطنها... ثم تذكرت شيئاً... وهي في شبه غياب للوعي.

- "الله ما أجمل العسل... شكراً يا شداد... لأنك أتيت بي إلى هنا... إلى جوار العسل".

صورة العسل تتجدد في مخيلة الفتاة الصغيرة... التي لم تستطع استيعاب الفاجعة... ألقت ريحانة ببصرها داخل الظلام.

- "هل تُرى شداد هنا بالجوار... هل هو يأكل العسل... وسيعطيني قطعة منه؟".

نادت ريحانة بكل براءة:

- "أخي شداد... أخي أنا هنا".

بدأت ريحانة في التحسس لما حولها... كان الوقت ساعتها قد قارب منتصف الليل... حيث نامت الفتاة نومة هانئة بعد أن أضناها المسير الطويل... الذي لم تشرب فيه سوى قطرات الذل... الأشبه بالبحار المتلاطمة... ولم تأكل فيه سوى زقوم النظر إلى رقبة شداد الوحشية...

لم تتنبأ ريحانة بأي شيء مما جرى حولها خلال ساعات نومها... ولكنها الآن تفكر بجدية في العسل الذي بدا يلوح لها في كل مكان... مدت ريحانة يدها الصغيرة في الظلام... وضعتها على الأرض بكل هدوء... لقد وجدت رطوبة وبللاً... وجزمت ريحانة من داخلها أن تلك الرطوبة ليست سوى رطوبة العسل... نعم عسل تلك النحلة التي قرصتها عند المغيب... بللت ريحانة إصبعها في العسل جيداً... ثم سحبتها... ورفعتها... لقد أحست بوزن ذلك العسل يثقل إصبعها... وبسرعة الملهوف وضعت ريحانة عسلها في فمها... ثم لعقت إصبعها بتلذذ.

- " أعوذ بالله... ما هذا العسل الكريه".

أغمضت ريحانة عينيها بشدة... ثم هزت رأسها في تقزز... وأدركت لوهلة رهيبة... أن ما بيدها لم يكن خارجاً من بيت النحل... وإنما من رأس أخيها المسجى بجوارها ميتاً... دون أن تعلم به.

قلبها الغض بدأ في النبض بعنف... وبدأ وعيها الذي غادرها بسبب إعيائها يعود... لقد بدأت تتصور الأمور على حقيقتها... ورأسها كاد يشتعل شيباً... ولكنها كانت تحس بما يشبه الموت البطيء... يسري في أطرافها.

قامت ريحانة في ذعر... إنها عازمة على الهروب... سارت خطوتين فقط... ثم بدأت تتعثر في شيء متكوّم... إنه أشبه بأكوام اللحم... لم يكن ذلك اللحم سوى جثه أخيها المتوفى... فقدت ريحانة توازنها... وبدأت في السقوط... لأنها لم تكن من القوة بحيث تقاوم هذا السقوط... أو تمنع وجهها من أن يرتطم بالأرض... لكن ارتطامها ذاك كان أخف بكثير مما يمكن أن تتوقعه مشاعرها الملهوفة... أحست أن وجهها ينسحب قليلاً على جلد رطب... وأحست أن ذلك الجلد يحوي مادة لزجة.

رفعت ريحانة رأسها قليلاً... ثم بدأت تحرك لسانها الأشبه بكسرة من فحم... على شفتيها المتشققتين:

- "يا الله"...

إن طعماً حلواً يتسلل إلى داخل فمها... إنه العسل... نعم... العسل... هذا الجلد الملقى على الأرض ليس سوى جلد القربة التي وضع شداد فيها العسل... منذ ساعات...

الجوع الملقي بنفسه داخل أمعاء ريحانة يتصارع مع الخوف والذعر... ويجعلها تتناسى كل ما حولها فجأة... لتعيد لعق العسل... ولكن سرعان ما ينتفض جسدها وهي تتذكر الدم المسفوح... واللحم المسجى... ولكن الظلام الرهيب يقف عازلاً قوياً... يمنعها من رؤية الفظاعات التي تجاورها... هكذا هي الحياة... إن جهلنا بما حولنا في كثير من الأحيان قد يكون نعمة عظيمة... تجعلنا أكثر استقراراً وتفاؤلاً... وربما كانت معرفتنا بما حولنا أكسب للتوتر... وحينها نقف على حقيقة مرة للحياة... تجعل من الصعب احتمالها... أو تجعلنا ننكمش على أنفسنا قانطين.

الفصل الثاني

حي اليهود في دمشق

تلك هي الطرق... إنها ضيقة جداً... في هذا الحي القديم... وهذا الطريق يمتد من خان السمك جنوباً مروراً ببيت داود شاع شمالاً... وبجوار جدران المنازل على جانبي الشارع تجري المياه المنتنة طيلة اليوم... داود لا يهتم كثيراً لجريان تلك المياه أمام باب منزله... لأنه يستفيد منها في غسل آنية الخمر... وهو لذلك لا يجهد نفسه في إحضار المزيد من المياه النقية.

منذ قليل دخل داود... ونزع قبعته بهدوء... ثم وضعها على المعلاق المغروس في الجدار... وحك عينه حتى احمرت... ثم واصل السير حتى دخل إلى الغرفة المظلمة... ثم تحسس قليلاً بيده... وأمسك بالشمعدان... وبدأ يقدح النار في شمعاته السبع... وبعد أن ملأت الأنوار أجزاء الغرفة الداكنة... ذات الرائحة النفاثة... ضحك بكل سعادة... وضرب بكفه على الكوز الفخاري الكبير... وأعاد ظهره للخلف قليلاً حتى اتكأ على الجدار.

بقي داود قليلاً يفكر فيما حوله... ويلقي بنظراته الثاقبة في كل أنحاء الغرفة... ثم أمسك أنفه الطويل المحدب... وجره للأمام قليلاً... وانطلق خارجاً من الغرفة... عليه أن يكمل عمله بأسرع وقت...

خطواته تنطلق بسرعة وهي تحمل الحذاء الأحمر... ذا الخيوط القصيرة... فتح داود الخزانة السوداء الموجودة في غرفة الاستقبال الصغيرة جداً... وأخرج

خارطة رسمت بطريقة يدوية... وهي مليئة بالأسهم الطويلة وبالأسماء الدقيقة... وبدأ يقرأ في تلك الأسماء ويحاول حساب الأطوال والأبعاد.

وضع سبابته على كلمتي (البحر... الأحمر) المكتوبة في طرف الصفحة الأيمن... من خريطته... ثم نظر لكلمتي (ميناء... القنفذة) وأخرج المسطرة وحسب المسافة بين القنفذة وبين كلمه محايل في الخريطة... ثم حسب المسافة من كلمة محايل إلى كلمه أبها.

لم تكن تلك الأسماء سوى مواقع في خريطة الجزيرة العربية التي رسمها اللورد هوبرت بون... كتب داود أحرفاً عبرية في وريقات صغيرة معه... ثم قام نحو الخزانة وأخرج كوباً حديدياً له عروة كبيرة... وله غطاء من التوت... ويوجد في طرفه قفل... فتح داود الكوب وأفرغ قطعاً ذهبية صغيرة كانت بداخله... ثم بدأ يفركها ويشمها... ويتلذذ أيما تلذذ بالرائحة النتنة... التي تخرج من إصبعه بعد الدلك... أعاد داود النقود إلى الكوب... ثم إلى الخزنة... ومد يده جانباً... ورفع قطعة المسدس ذي المقبض الخشبي... ثم أعاده من جديد... وحك رأسه من الخلف... وبعدها أغلق باب الخزانة... وانصرف جهة رف الكتب المثبت على الجدار... وسحب كتاباً عنوانه (مذكرات الطبيب (هوفرن) في عسير) كان هذا الطبيب يعمل لدى المندوب العثماني في عسير... بدأ داود يقلب الصفحات حتى وصل إلى فصل (جبال الغال... والأحجار الثمينة).

في كتاب من كتب الاستشراق

جلس داود باهتمام... ثم وضع الكتاب على الأرض... ورفع يده... ووضع سبابته على الأسطر التالية:

«وبعد أن أشرفنا على تلك الهوة السحيقة من جهة منطقة شعار... كانت قطعان الضباء تنفر من أمامنا كالطير... وكان اسم قائد القافلة السيد شاهين... وكان يتكلم بصوت هادئ ويقول:

- "بعد ساعة سنصل إلى أسفل العقبة... وسنشرب الماء ونريح الجمال".

كنا حينها في وقت والظهيرة... ولفت نظري أن أشعة الشمس تلمع بصورة مذهلة... عندما تنعكس على جبل يسمى (جبل الرهوة) وهو يبعد قرابة ٥٠٠ متر عن جبل الغال الوعر... الأشبه بقرني ثور أمريكي... لأن له شقين متقابلين... تذكرت حينها مناجم الألماس في إفريقية... وتأكد لي عند مشاهدتي ذلك اللمعان... أن جبال السروات... وخاصة جبال الحاجز... الذي يحجز تهامة عن السراة... أنها تحوي الكثير من الكنوز الثمينة... ولعل مستقبل أوربا والعالم... سينتهي بهم إلى جبال وعرة تحوي الفلزات الثمينة... ولكن عندما ينتدب المغامرون أنفسهم لكشف الثروات الموعودة... ويأتون إلى هذه الأماكن المذهلة والمخيفة... فقط عندما يضحون من أجل حضارة أعظم... أنا واثق من نجاحهم... وأنا هنا أؤكد... أن على كل باحثي المستقبل... ممن سيقدر لهم الحصول على المعادن الثمينة في هذه الجبال... أن يذكروا اسمي... لأني أول من تحدث عن وجود تلك المعادن...».

أغلق داود كتابه وهو يقول:

- "غداً سيبدأ السفر"..

الفصل الثالث

ولدٌ في الحادية عشرة

يسير ذلك الطفل بكل حنقٍ وتثاقل... ويدخل حضيرة الدجاج والأرانب... ثم يتقدم نحو جراب الحبوب ويحفن حفنة كبيرة من حب الذرة المكسور... ويلقيه على الأرض بكل عنف... ويدير عينيه الخضراوين في صناديق البيض ليتحقق من وجود أية بيضة هناك... وعندما اقتربت الدجاجة الصفراء ذات العرف المسحوق من أعلى... ركلها بقدمه بكل عنف... ثم انطلق بسرعة بين الدجاج لينغص عليهم وجبتهم... وبعدها يخرج.

عليه أن يتجه الآن إلى حضيرة الأبقار والأغنام... التوتر يبدو سمة لازمة على وجهه... وعلى جميع حركاته... والهم يبدو كجبل كبير حط على رأسه... لم يلبث مصطفى طويلاً حتى وصل إلى حضيرة الماشية... حمل العلف ودخل... وألقى به في كل فوضوية... هنا وهناك... وبدأت الأغنام والأبقار في الأكل... أنفه الكبير يجعله دائماً ينظر إلى نفسه نظرة تشاؤم... وحاجباه الغليظان جداً والقصيران جداً يجعلانه أبعد ما يكون عن أدنى مستوى الوسامة ... وربما كان رأسه المسطح من الأعلى والمسطح من الخلف أيضاً... والأكثر شبهاً من جهة القرنين بقدر من الألمنيوم... يجعله أكثر قرباً لنوع "وليكوسنال" من الجنس السلافي... ويجعله أبعد ما يكون من العنصر التركي... إنه الآن يعمل في مزرعة خال أمه "حسين آغا"... ولكن إحساسه برقابة الجميع له... يجعله يكره كل من يشاهده.

بيد أن الإنسان الأكثر كراهية في قلبه هو والدته.... إنه يكره دخول البيت... فقط لأن والدته زبيدة ذات ٢٧ عاماً قابعة فيه... زبيدة بدأت تلف الحجاب الأسود على رأسها منذ وفاة زوجها (علي رضا أفندي) قبل ستة أشهر... هذا الفتى يرى في وجه والدته صور التناقض والازدواجية... كما يرى ذلك تماماً في كل أنماط الحياة من حوله... وكلما دخل المنزل استقبلته والدته بابتسامة الحب التي سرعان ما يحيلها كمداً في قلبها... حين ينتهرها بنظرات عينيه التي ينتقد فيها حجابها... وجميع ما تدعيه من صلاح.

لم يكن مصطفى ذو الأحد عشر عاماً نبيهاً... بقدر ما كان أنانياً يكره أن ينظر إليه أحد بنظرة دونيه.... إنه يريد أن يثبت للجميع أنه قادر على التمرد وقادر على تمزيق كل أستار الحياة القدسية.

وفي مساء أحد الأيام دخل مصطفى على والدته ببذلة جديدة... تبلغ قيمتها نصف مجيدي [1]... الأم حينها لا زالت متجهة جهة بيت الله تؤدي صلاة المغرب... وتذرف شيئاً من دموع ندمها على أيام الصبا.

كما هي العادة... دخل مصطفى والحقد يبدو على محياه... وعيناه تتأملان هذه المرأة التي بدأت تلبس ثوب الزاهد... بعد أن اختفى زوجها... أو مات... وهو يتساءل في نفسه... أين ذهب والدي... لماذا تخفون الحقيقة.... ولكنها سرعان ما تجاهلت نظراته... وقامت فزعة لتسأله عن مصدر قيمة النقود التي اشترى بها بذلته، قال لها بكل صلف:

-"لقد اشتريتها بحر مالي".

- "ومن أين لك حر مال... أنت لا زلت صغيراً على الكسب... وهذه البذلة أغلى بكثير من قيمة تستطيع جمعها أنت... عليك أن تتقي الله".

---

(١) عملة فضية عثمانية.

سار شوط أشبه بشوط الكهرباء في بدن مصطفى... وتذكر النعوت والألفاظ النابئة... التي تنهال عليه من أطفال الحي في مثل سنه... وتذكر الشائعات التي تطرق أذنه مع كل غدو أو آصال... عن سبب اختفاء والده... وبعدها ألقى بنظرة نارية إلى أمه وقال:

- "أتقي الله... أم أتقي الشيطان... علينا أن نستمتع قدر استطاعتنا... أنتم لا تتقون الله عندما تخفون الحقائق عني... وأنت عبدت الشيطان طيلة عمرك... هل تريدين مني أن أصدق صلاتك هذه... أو أصدق ما تلفين به وجهك... نحن شيء من الشهوة... والشهوة شيء منا... ولا شيء أسميه مبادئ... إلا ما تكتنزه عقولنا الصدئة".

أدار مصطفى ظهره لوالدته... ولكن سرعان ما بدأت أصوات حذاء حسين آغا... خال زبيدة... تجد طريقها لآذان الجميع... حسين آغا رجل في الأربعين... إنه طويل القامة قوي الشخصية صارم كحد السكين... وغالباً ما يحب البطش بمن يخالف أوامره... ونظراته الملتهبة تشعر مصطفى بالذل والهوان... لذا فإن مصطفى يكره خال والدته... تماماً كما يكره والدته... وسرعان ما دخل الخال والغضب يصدر من زفراته... ألقى بنظراته الشرسة إلى مصطفى وقال:

-"أين ذهبت بزوج البط الرمادي... أين ذهبت به ؟".

- "لا أدري...".

-"لا تدري... أم أنك سرقته وبعته... جميع من في السوق شهدوا بذلك".

وسرعان ما هوت لطمة قاسية على وجه الصبي... الذي بدأت الحياة أمامه تتحول إلى محرقه... وعليه أن يحترق فيها ويحرق كل الناس... وبعد توتر قصير هرب الصبي... ونظر حسين إلى زبيدة بنظرات تأنيب... ولم يقل لها كلمة واحدة... إلا أنها قالت:

- "سأعوض لك قيمة زوج البط... فقد اشترينا بقيمته بذلة الصبي".

هز حسين رأسه قائلاً:

-"عليك أن تدخليه المدرسة الدينية... هناك كتَّاب المحلة بمراسم... ستعلمه القرآن... والأناشيد الدينية... ولعلها تعدل من سلوكياته... أو سيكون شوكة في نحورنا... بعد أن فعل والده ما فعل".

لم يكمل حسين كلمته القاسية... ولكن زبيدة فهمت أن وجودها أصبح ثقيلاً هنا... لقد طأطأت برأسها في خجل... في حين خرج حسين وغضبه يتبعه.

سائق العربة

تبدو عربة التفاح جديدة... وتبدو الزينات ذات الألوان الخضراء والحمراء مناسبة للون التفاح... المتراص على طريقة أهرام صغيرة على سطح العربة... بجوار العربة يقف الشاب حنطي اللون في كآبة... ويحمل خرقة بالية بيده... إنه يدلك التفاح في خفة... ثم يعتني بإعادة رصه... على تلك الطريقة البديعة... ثم يطرق ببصره طويلاً في حزن... حتى يأتي أحد المارة ويسأله عن سعر هرم التفاح.

لم يدم جدار الصمت طويلاً... العم نصر الله الكردي أقبل من هناك... بعد غياب دام ثلاث ساعات... لم يشعر الشاب بقدومه إلا عندما وضع العم نصر الله يده على كتف الفتى قائلاً:

- "يا صابر... ألا زلت تفكر... عليك أن تعيش هنا... كما يعيش كل الناس".

انتبه صابر الفتى... وحمل إحدى التفاحات... وبدأ يدلكها... ولكن العم نصر الله قال:

- "أنت تقوم بعملك بشكل جيد... ولكن سرحانك الطويل يا بني... علامة الحزن لا زالت مرتسمة على وجهك".

- "نعم... نعم يا عمي".

- "عليك أن تتعلم كيف تنادي الزبائن... وكيف تقنعهم بأنهم في حاجه ماسة لشراء التفاح... عليك أن تجعلهم يتخيلون إنهم يتمتعون بأكل التفاح... هكذا هو

السوق... وربما استطعت جمع مبلغ من المال... وأصبحت تملك عربة خاصة بك... ولكن قل لي كم بعت من التفاح في غيبتي".

هذا هو العم نصر الله إنه صاحب العربة... لقد أذن للفتى صابر أن يعمل معه في هذه التجارة البسيطة... ولكن صابر بدأ يشعر بالملل من هذا العمل... إنه غريب لا ينتمي إلى تركيا... وهو أيضاً لا يجيد اللغة التركية... لغته التي يجيدها هي العربية... ولحسن الحظ أن العم نصر الله يجيد العربية أيضاً... إضافة إلى التركية... وهو رجل رحيم ذو خلق... إنه لا يعرف الكثير عن هذا الشاب ولكنه قابله في إحدى مزارع التفاح... عندما ذهب لشراء بعض الثمار... وعندما رأى دموعه على خديه أشفق عليه... لقد كان الفتى حينها أجيراً يعمل في قطف الثمار... سأله نصر الله:

- "من أين أنت يا بني".

- "أنا من الجزيرة العربية... أنا عربي ولست تركياً".

- "العرب يا بني والأتراك شيء واحد... ودولتهم واحدة... ولكن قل لي كيف وصلت إلى هنا... ولماذا اخترت هذا الطريق؟".

صمت الفتى وطأطأ رأسه... في حين بدأت شفته ترتجف... ثم اهتز في توتر وهو يقول:

- "ولكني عملت خادماً لدى قوافل الحج... كنت أعلف الجمال عندما تقف تلك القوافل في محطات الوقوف... نعم يا عمي... وفي النهاية وجدت نفسي هنا".

ابتسم العم نصر الله وقال:

- "لا عليك لا عليك... ولكن قل لي... هل أنت سعيد بعملك هذا؟".

- " إنه عمل مؤقت... وعندما يكون العمل محدوداً بزمن فلا تهم سعادة الإنسان فيه".

شعر نصر الله بمدى نباهة هذا الولد... لذا قال:

- "ماذا إن احتجتك للعمل معي في إحدى عربات بيع التفاح... هل توافق؟".

ابتسم الفتى وقال:

- " لا يضير... ربما كان العمل معك أفضل".

ومن تلك الساعة انتقل الولد الذي يدعى صابر للعمل مع العم نصر الله... صابر يسكن مع كثير من الناس البسطاء...الذين يسكنون في مباني قديمة بجوار المسجد الجامع بمراسيم... ويقوم مع أذان الفجر ليصلي... ثم يباشر عمله في بيع التفاح... ومع مرور الأيام أصبح صابر منسجماً مع عمله بدرجة كبيرة.

وفي ذلك اليوم الغائم... وقبل أذان الظهر بقليل... كان صابر يضيف عدداً من الزينات الجديدة في جوانب العربة... ويصلح التالف من الزينات القديمة... وينادي:

- "يا تفاح يا أخضر... يا تفاح يا أحمر... يا تفاح يا ولد".

وتحت الشجرة المجاورة للعربة يجلس العم نصر الله على المقعد الصغير المصنوع من الخيزران الأبيض... وأمامه الطاولة الصغيرة... يوجد إبريق الشاي... المسود من كثرة قعوده على الجمر... وبجوار الكرسي صندوق حديدي صغير مفتوح من أعلى ويحوى الكثير من الجمر... وبداخله يعد الشاي... المسبحة الطويلة في يد العم نصر الله تروح و تجيء... ثم ترتطم بالطاولة الصغيرة... والعم نصر الله يردد دون شعور كلمة (لا إله إلا الله)... ثم يعيد سحب سرواله الواسع من جهة نصف فخذ... ويضع فخذاً على أخرى... وبعدها يقول:

-"ناد ناد عالتفاح يا صابر ناد".

الذاهبون والقادمون مع هذا الطريق الضيق قلة... ولكن سعر التفاح المتواضع يسمح للجميع بأن يشتري "كوماً" أو نصف "كوم" إن أراد... وهكذا تُجتمع المجيديات في يد صابر... ومع خروج الناس من الصلاة يزداد عدد المشترين... وفي طرقات

كهذه... هنا في تركيا... تدور عجلة الحياة... وتدور ملكيات المجيديات... بعد أن تقوم بدورها في إشباع الأفواه... إنها فلسفة الاقتصاد البسيط التي يفهمها جيداً العم نصر الله...

ومع أذان الظهر... الذي فتق التحام الوجود مع العمل للدنيا... كي يسمح له بالقيام بالتحام آخر... هو الالتحام مع الوجود المقدس... في عمل خالص للآخرة... توقف دولاب السعي من أجل الذات... ليدخل الناس في رمز عظيم للعمل مع غير الذات... كي يدركوا أن هناك أشياء أخرى هي غير ذواتهم ومصالحهم... وليبدو بارزاً للإنسان... أن الحياة لا تتوقف فقط عند مصالحه... وإنما هناك أشياء أخرى عليه أن يدركها... أوقف نصر الله أفكاره... وأوقف الحركة الدورانية لمسبحته... ووقف هو أيضاً... فلا يليق أبداً... أن يسمع رجل في سنه الأذان... ويبقى جالساً في مكانه... فالصلاة تناديه... والصف الأول يناديه... ومع قيامه أقبلت امرأة من هناك وهي تنادي بالتركية:

- "يا حاج... يا حاج".

قال لها:

-"الصلاة أولى من التجارة... ومن التفاح... و بعد قضاء الصلاة سنعطيك تفاحتين زيادة".

ولكن المرأة ردت في عجل:

-"أنا لا أريد شراء التفاح... ولكن ولدي هذا أريد تسجيله في المدرسة الدينية... أريده أن يكون عالماً في الشريعة... أين هي المدرسة يا سيدي... المدرسة الدينية؟".

تقاسمت نظرات الشيخ ونظرات صابر وجه الصبي... ذي الأحد عشر عاماً... إنه ولد بغيظ عابس... يلقي بنظرات نارية لكل من يقابله... قال العم نصر الله:

-"وهل سيدرس في المراسيم... إنه محظوظ بك... نعم الاختيار... لو كان لي ولد في سنه... لما درس إلا في المراسيم الدينية".

نظر العم نصر الله إلى صابر ثم فكر قليلاً وقال بالعربية:

-"هذه الأم تريد أن تلحق ولدها بمدرسة المراسيم الدينية... وهناك سيتعلم القرآن والشريعة واللغة العربية".

نظر العم نصر الله للمرأة ثم قال مؤكداً:

-"هذا الطريق... سيري إلى حانوت الزيت... ثم انظري عن يسارك سترين كوماً من الأخشاب المعدة للبناء... سيري بجوار الأخشاب... وهناك ستبدو لك مزرعة صغيرة للبازلاء اجعليها عن يمينك... ثم سيري مسافة نصف ميل... هناك سترين سوراً من الأخشاب المتراصة والتي يفصل بين كل خشبتين منها مسافة المتر تقريباً... وسترين الأطفال من بين تلك الفراغات... تلك هي المدرسة... عليك يا ولد أن تكون مطيعاً للأستاذ".

قالها العم نصر الله وهو يبتسم... في حين نظر الفتى للعم نصر الله شزراً ثم قال له بهدوء:

-"يا كلب".

شعر العم نصر الله أنه لم يسمع تلك الكلمة... في حين نظرت الأم المحجبة إلى ولدها وسحبته وانطلقت... ولكن الفتى صابراً سبح في طيات الكلمات التي سمعها عن العلم والمعرفة... وعن الشريعة و القانون... وعن المدرسة... إنه يشعر أنها شيء ولد في داخله للتو... كثيرة هي الأشياء التي تولد في داخل الإنسان دون أن تستأذن... وكثيرة هي الأفكار التي يتبناها الإنسان دون أن يطلب منه تبنيها... في حين أن كثيراً ممن توجه لهم تلك الأفكار ليلاً ونهاراً لا يتبنونها... وربما حاربوها بكل طاقتهم.

انصرف صابر عن أفكاره تلك... حين أمسك العم نصر الله بيده وقال:

-"علينا أن نذهب للصلاة... ابدأ بتغطية العربة... ثم أقفلها واتبعني... أنا أمامك في المسجد".

قام الفتى بتغطية التفاح واتجه إلى المسجد... وفي أثناء الطريق أكمل مشوار أفكاره... وبدأت صورة العالم تنفتح في ذهنه... وصل صابر إلى الفناء الكبير... الداخلون إلى المسجد يعيدون لف العمائم، وكبار السن هم الذين يتوافدون بكل خشوع مع وقت الأذان... وبجوار المسجد تتوقف العربات وينزل من فيها... وفي اليمين للداخل للمسجد ترى من يحمل القرب المليئة بالماء... ثم يفرغها في خزان الماء العلوي لكي يتسنى نزول الماء عبر المجاري الصغيرة المفتوحة... أنهى صابر وضوءه... ثم دخل المسجد... أصوات القراء و هم يتغنون بالقرآن يبعث الطمأنينة... بعد عناء العمل الطويل... وشيوخ يجلسون متكئين على الأعمدة المنتصبة في باحة المسجد... ويأتي إليهم الناس ليستفتوهم... أرضية المسجد ناعمة على قدمي صابر... لأنها من السجاد التركي المزخرف... والجدران مبنية بالحجارة المزخرفة... وهناك المحراب والمنبر الرخامي... ذو اللون الأخضر... دخل صابر في صلاته خاشعاً... وبعد أن أكملها استند إلى الجدار الأيمن... وبقي يستمع لقراءة القرآن... إنه لا يجيد القراءة ولا الكتابة... وهو يفكر في قيمة الإنسان عندما يجيد القراءة والكتابة... أغمض صابر عينيه ليستعيد ذكرياتٍ ما... وفي أثناء ذلك أقيمت الصلاة... واصطف جميع من في المسجد في صفوف خمسة... وقد قرب كل واحد منهم قلبه خاشعاً في محراب الله... راجياً من ربه أن يهديه لأفضل الأخلاق والأعمال والأقوال... تائباً من الظلم والكبر و الأحقاد... هكذا شعر كل من في المسجد... أو على الأقل شعر به صابر، الذي هام حباً بالعم نصر الله... وكان أذناً صاغية لكل نصائحه... صلى الجميع أربع ركعات... وبعدها قاموا نافرين جهة أعمالهم... ومن بينهم قام صابر... بيد أنه عندما جاوز باب المسجد بقليل... وقف وفي ذهنه أفكار كثيرة... وعليه أن يتخذ قراراً حاسماً حيالها... مكث صابر برهة... وعندما خرج نصر الله... قابله صابر بابتسامة المتأسف... وقال له:

- "يا عم نصر الله، أنا أشعر بالخجل... ولكني قررت ترك العمل لديك... أرجو أن لا يزعجك ذلك".

حدق العم نصر الله في الفتى بدهشة ثم قال:

-"لماذا يا ولدي هل أساء أحد إليك؟!".

-"كلا... ولكني راغب في الالتحاق بالمدرسة الدينية".

هز نصر رأسه معجباً... ثم دارت عيناه في وجه صابر... بعدها قال:

-"على بركة الله... سوف أجد من يعمل لدي غيرك... ولكن لن تجد عندي ذلك العلم الذي ستجده في المدرسة... لابد وأنك قد تأثرت برؤيتك لذلك الولد مع أمه".

ابتسم صابر موافقاً... في حين مد نصر الله يده لجيبه... وأخرج نقوداً لم يعدها... ثم وضعها في يد الصبي... وربت على كتفه... بعدها ذهب الصبي.

المدرسة

عند باب المدرسة جلبة صراخ... وثمّ أناس واقفون للفرجة... والسبب في ذلك الصخب صبي في الحادية عشرة... واسمه مصطفى... بيد أن الخاسر في كل تلك المهاترات والصخب هي الأم المسكينة... التي احتدم العراك بينها وبين ولدها... لسبب أنها تريد إجباره على الدخول من البوابة... وهو يرفض ذلك بشدة... لقد اجتمع مع مرور الوقت بعض أساتذة المدرسة... وبدؤوا في تفهم أبعاد ما حدث... ثم قال الأستاذ ذو الشارب الغليظ المعقوف... والذي جاء لتوه:

- "كن مطيعاً يا ولد... ستتعلم الكثير في المدرسة".

وبعد انتهاء ذلك الأستاذ من كلامه تقدم قليلاً جهة الولد... ثم وضع يده على كتفه وبدأ يربت... وحينها نظر إليه مصطفى وقال:

-"ما ذا تريد؟".

لم يجبه الأستاذ؛ لأن شاباً في السابعة عشرة قال بصوت مرتفع:

- "هل تسمحون لي بالدراسة هنا يا عم؟".

لم يعد الأستاذ ذو الشارب منتبهاً للولد مصطفى... لقد لفتت نظره تلك السكينة المرتسمة على وجه الشاب صابر... بعدها ترك مصطفى وسار متقدماً جهة الشاب القادم... ومد يده له مصافحاً ثم قال:

-"أنا أستاذ اللغة العربية نحن نريد الطلاب المهتمين... وأنت تبدو طالباً حريصاً... تفضل بالدخول يا ولدي... وهناك ستكمل جميع إجراءات التسجيل".

دخل صابر وتبعه الأستاذ وبدأت عيون الحاضرين تتابع التقلبات المرتسمة على وجه مصطفى... إلا أن والدته قالت مستجدية:

- "ادخل يا ولدي... أرجوك".

ولكن مصطفى رد عليها بحنق.

"سأدخل... فقط لشيء واحد... هو أنك لا تريدينني أن أعيش معك... لم يعد لي مأوى إلا هذه المدرسة".

رفع مصطفى رأسه... ثم تقدم جهة الباب... وبعد لحظات تغيب خلف الأسوار... في حين بدأت زبيدة تمسح دموع حسرتها وندمها... ثم انصرفت.

شيء من المال

ها هي الأيام... لقد امتطت ساعاتها في السير نحو المستقبل... وفي جو المدرسة الهادئ يبدو صابر نشيطاً مجتهداً... وجميع الأعمال التي يقوم بها... يقوم بها بكل سعادة... إلا أن أزمة السكن تمثل له مشكلة حقيقية... هذا هو اليوم الرابع منذ أن دخل للمدرسة... إنه يقضي الوقت من الصباح حتى العصر في المدرسة... ولكنه بعد ذلك هو مضطر للخروج... لأن أبواب المدرسة ستقفل... وعليه أن يبحث لنفسه عن مأوى جديد... لأنه ليس من بين الطلاب الذين تمنحهم المدرسة سكناً داخلياً... فالسكن الداخلي رسومه مرتفعة.

ولكن يا ترى من أين له ذلك المأوى... صابر لا يملك من النقود شيئاً... إلا تلك التي أعطاه إياها العم نصر الله... وتلك النقود القليلة كتب عليها أن تنتهي بعد شراء صابر للأقلام والدفاتر... وبعض مصاريف الطعام.

بالطبع لم يكن المشهد أحادياً... ففي المقابل يوجد الصبي مصطفى... الذي لا يلقي لدراسته أي اهتمام... ومع ذلك فقد حصل على غرفة صغيرة من الغرف التابعة للمدرسة في جهتها الشمالية... وهناك مصروف مناسب يتقاضاه يومياً من صندوق المدرسة... ذلك المصروف هو ما تركته له والدته وطلبت من مسؤول الصندوق أن يعطيه جزءاً منه مع صباح كل يوم... الجديد في الأمر هو أن علاقة حميمية نشأت بين التلميذين... لعل ذلك يرجع لإحساس كل منهما بالغربة أو المعاناة... وهما يقضيان معاً أغلب أوقات الفسح في المدرسة... ويتبادلان أطراف الحديث التي يتبادلها دائماً أولئك الذين يشعرون بالحرمان... لم يكن صابر يشعر بجميع ما يكتنف صاحبه الجديد... ولكنه على أية حال يشعر بأنه محروم مثله... وهذا يكفي لتكوين علاقة.

انقضى اليوم الخامس لصابر... وأصبح الآن مفلساً بكل معنى الكلمة... ولم يكن أمامه من خيار سوى الذهاب للعمل بعد انتهاء وقت الدرس... وبالطبع ليس من طريق سوى عربة التفاح... ومع غروب شمس اليوم الخامس كان صابر يصلي مع العم نصر الله في المسجد الجامع... إنها مياه باردة من السكينة... تلك التي أحس بها... أحس أنها تثلج صدره المحروق... وبعد انتهاء الصلاة خرج صابر من المسجد ووقف عند الباب... وبدأ يراقب صور الوجوه المرتسمة على مقدمات الخارجين... ثم انتعل حذاءه البالية وهو ينظر... لم يطل الوقت حتى خرج العم نصرالله... تسبقه ترانيم التسبيح... وطقطقات أحجار المسبحة المرمرية... وعندما رأى الرجل الشيخ وجه الفتى صابر ابتسم له وصافحه... لكن صابراً بكل انكسار طأطأ رأسه وقبّل يد العم نصر الله... وكانت آثار الحزن مرتسمة على وجهه... ثم قال:

- "اعذرني يا عمي... لقد تركت العمل عندك دون أن أراعي حاجتك لي... والآن... أنا محتاج لك".

- "ماذا يا صابر... ما الأمر... لا تقل ذلك أبداً... ثم إياك أن تترك المدرسة مهما كانت الأسباب".

نظر صابر للعم نصر الله بإكبار... ثم قال:

-"أنا لن أترك المدرسة... ولكن يا عمي... أنا سأعمل عندك من بعد صلاة العصر إلى الليل... لأني لا أملك نقود السكن... ولا نقود الطعام... وأنا أحتاج إلى عمل".

- "إذن الأمر كذلك يا بني... لا يهم جميع الأمور سهلة".

فكر نصر الله قليلاً... ثم تقدم للأمام جهة مقعد من الحجر المبني... وبعد أن جلس قال:

- "يا بني... سأشتري عربة جديدة وسوف... نعم سأشتري عربة جديدة... وسأجعلك تعمل فيها... العربة التي كنت تعمل فيها مسبقاً وجدنا من يعمل فيها بدلاً عنك... وعليك أن تحضر التفاح يومياً من مزرعة الباشا رضوان... وأنا سأتدبر أمر الدفع للباشا... أنت أمين يا صابر... وتستحق كل خير... وعيك أن تبيع بضاعتك في الأماكن المجاورة لمدرستك... هذا موسم التفاح... وبعد انتهاء الموسم سوف تبيع الخضروات... الطماطم الخيار... العربات يا بني لا تتوقف مادام المزارعون يزرعون".

دمعت عينا صابر وهو ينكس رأسه... ثم تقدم قليلاً ليقبل رأس العم نصر الله.

المطففون

مرت الأيام سريعة... لقد تقدم صابر في الدراسة بالدرجة التي أصبح من خلالها قادراً على القراءة والكتابة... إنه الآن يحفظ بجد من كتاب الله... وقد درس دروس الحساب واللغة العربية... وأوقات فراغه يقضيها مع مصطفى... ذلك

الطالب الذي يجلس في المدرسة وكأنه تل من اللهب... إنه متضجر من كل شيء... وعندما جاء صابر نحوه بعد صلاة الظهر... التي يلزم الجميع بأدائها... كان مصطفى جالساً على أحد الكراسي... تحت شجرة الليمون الكبيرة... وقف صابر بهدوء... وفرد ابتسامته... ثم قال:

- "أرجوك يا مصطفى... لقد حفظت سورة ويل للمطففين... وأريد منك أن تسمعها لي".

نظر مصطفى الصغير إلى صابر الذي يكبره بثمان سنين... ثم قال له:

- "المطففين !!! ومن هم المطففون".

- "لا عليك فقط خذ المصحف... وتابع قراءتي".

تناول مصطفى المصحف... وفتحه على سورة المطففين... وبدأ صابر في القراءة... لقد كانت أخطاء صابر كثيرة... لدرجة أن مصطفى ناوله المصحف وقام من مكانه... وذهب للساحة الكبيرة.

عقدة العمامة والحجابْ

من بين أوراق الأشجار الكبيرة في المدرسة الدينية بمراسم تفوح أصوات الأطفال بعطر براءتهم... وهم يرددون سورة النازعات... والذاهبون والقادمون من المعلمين... يحمل كل واحد منهم مسبحته ويضع العمامة على رأسه...

وتلك الابتسامة العريضة لا تفارق وجه صلاح صدقي... معلم القرآن... في الفصل الأول... ومن بين هؤلاء الجالسين يوجد واحد فقط هو المقطب بجبينه... وعقله يكاد ينفجر... وعيناه الزرقاوان تكادان تسيلان حقداً... كلما ألقى نظره على الحلقة الدائرية المجاورة... تلك الحلقة المخصصة لتعليم الفتيات...

المعلمة طاهرة عبد الحي تجلس في وسط الفتيات... ثم تعيد لف حجابها بين الحين والآخر... وتقول:

-"يا بنات... الإسلام أكرم الأنثى... وجعل لها حجابها الذي يحجبها عن الشر... كما جعل لها حجابها الذي يحجبها عن النار... الحجاب يقيكن نار الرذيلة في الدنيا... ونار جهنم في الآخرة".

طاهرة عبد الحي هي زوجة صلاح صدقي... عام واحد مر على زواجهما... لكنهما عاهدا ربهما على أن يقضيا عمرهما في تعليم الأطفال... وعندما ابتسم صلاح للطفل الجالس أمامه في الحلقة... شعر ذلك الطفل أن تلك الابتسامة لم تكن إلا طعنة نجلاء من السخرية والاحتقار... قال صلاح:-.

- "إن شاء الله ... ستكون أحد حفظة القرآن الكريم يا بطل".

لم يكن الجو الثائر داخل الطفل ليجعله يحمل كلام الأستاذ على محمل الخير... إنه ودون سابق نذير جزم بأن الأستاذ يقصد السخرية منه... لأنه ولد مشرد... لا قيمة له في الحياة سوى الدروشة والتدين... لذا قال مصطفى بسرعة:

- "لن أحفظ القرآن ... ولن أبقى في هذه الدار المنحوسة... أنا أعظم بكثير منكم... أنتم مجرد دراويش".

و بالفعل سلم الطفل قدمه للريح... وانطلق جهة الباب... لم يصل الصبي للباب إلا بعد أن سمع نداء طاهرة من خلفه:

- "يا بني".

نظر الصبي... ولاح له الحجاب على رأسها كأبشع جلد تنين يمكن لطفل أن يشاهده... وبدأت عقدة جديدة مع الحجاب ومع العمامة تعتمل في قلب الصبي... وبعدها خرج بعيداً وراء الأسوار.

تفاح للجوع

هكذا أصبحت كل الوجوه مكفهرة في عين صبي هارب من مدرسته... ومن أمه ومن خاله... الحياة أشبه بمقبرة... والأحقاد تضطرم في جوفه ناراً هائلة.

لا أحد يبتسم... إلا أولئك المتدينون... أصحاب العمائم من الرجال... أو صاحبات الحجاب من النساء... ولكن ابتسامتهم أشبه بالسكين... هكذا تخيل مصطفى... أو هكذا خيل له... ولكن ذلك كله يحفر في قلبه الغض أخاديد عميقة... تجعله يكره الدين ويكره الشرف... ويتمنى لو أن الحياة غابة موحشة... لا دين فيها ولا أخلاق... لأن الدين والخلق يذكرانه دائماً بعقدته غير الزائلة... في كونه لم يعرف والده الحقيقي... أين ذهب... أين اختفى.

وعندما أحس مصطفى بالجوع وهو يسير في طريقه الطويل تجاه اللا هدف... قرر أن يسرق... يسرق فقط ليأكل... وكانت عيناه متجهتان جهة التفاح... والتفاح في عربة ذات عجلتين يدفعها أمامه رجل كهل... ولكن ماذا عساها تفعل تلك التفاحات بالجوع المضطرم... اقترب مصطفى من الخان المتحرك... وسأل عن سعر التفاحة... ثم عن سعر عشر تفاحات... ثم عن سعر مئة تفاحة... ثم سأل عن تكلفة العربة التي تحمل التفاح... ثم سأل لماذا كانت العجلة اليمنى في العربة مكسورة... وعندما نفى صاحب العربة... أكد له مصطفى ذلك... وطلب منه أن يتأكد بنفسه... انحنى الكهل للأسفل... وحمل مصطفى تفاحتين ووضعهما داخل قميصه من جهة الظهر وانصرف... ولم يلق البائع بالاً لهذه الأعمال الصبيانية... لأنه لم يعلم أن التفاحتين قد نقصت من عربته.

التهم مصطفى التفاح... وقرر بعدها أن يذهب جهة خالته أخت والدته في سيلانيك... لم يكن الطفل خرّيتاً صغيراً ليعرف الطريق... لقد هام على وجهه وهو يبحث عن هدفه الضائع... وأحس أن الدنيا ملعونة بالفعل... كل شيء يسودُّ في عينيه... لقد تعب كثيراً... ولكنه في النهاية وصل إلى خالته... واخترع لها قصة جديدة تحكي معاناته مع والدته... التي تحتقره... ومع خال والدته الذي يعتبره عبداً عنده... لقد رقت خالته له... وقررت إبقاءه عندها ولئم الجرح الغائر في قلبه... بل لقد وعدته بإدخاله إلى المدرسة الملكية... وبعدها إلى المدرسة الرشيدية العسكرية ... وستتكفل بجميع مصاريف دراسته.

بدأ دولاب الحياة يسير من جديد... وبدأ مصطفى يجد نفسه هنا في المدرسة العسكرية التي أصبح أحد طلابها... وبدأت الطموحات الكبيرة تسري في وجدانه وتكبر مع الزمن.

صابر بعد ذهاب مصطفى

يشعر بأن الحياة ثقيلة... وأن جميع نسمات الهواء واقفة... وأن الركود يميت كل شيء... ولكن الأسئلة العملاقة التي بدت تشغل حيزاً من ذهنه أصبحت تستأثر بمساحة التعليم... لم يعد حرص صابر على التعليم الآن كحاله مع أول يوم لدخول المدرسة... هل ستتوقف الحياة عند هؤلاء المؤمنين... وهل سيكونون هم ثديها الحالب... أم أن عجلات أخرى تدور في هذه الحياة غير عجلتهم... ما هي الحياة بمنظارها الأكبر... وما هي الحياة بمنظارها الأصغر.

لكن كلمات قالها مصطفى بدأت تدب في خلجات صابر... لقد ألقاها مصطفى عرضاً... أما صابر الشاب العربي الأعزل عن كل تعقيدات الفكر... فقد حملها محمل الانتباه... أسطورة الغرب... التقدم... الحرية الحضارة... فرص العمل... كل ذلك يرن ويرن في ذهن صابر... ولا يجد تفسيراً له.

مرت الأيام سريعة... وتقدم صابر في التعليم... وكان ما لم يكن متوقعاً... لقد أصبحت المدرسة مملة بالنسبة له... ومع نهاية عام كامل... كان صابر قد حمل نفسه... وألقى بقدميه خارج أسوار المدرسة... ليبدأ رحلة جديدة جهة أوروبا... أوروبا وما فيها من الأشياء المثيرة... لم ينس صابر أن يعبر الطريق الذي فيه عربة العم نصر الله... لقد قابله العم نصر الله بابتسامة عريضة... جلس الرجلان قليلاً... وأوضح صابر عزمه على الرحيل... وأنه سيترك عربة العم نصرالله التي يعمل فيها مساء... لم يجد العم نصرالله بداً من هدر دمعتين على خديه... خوفاً على مستقبل هذا الصبي الذي أحبه... ولكنه قال:

- "يا بني، عليك بالصلاة... عليك بالصلاة... وحذار من الرذيلة... حذار من الرذيلة... الخمرة... والفاجرات... ولا تأكل إلا اللقمة الحلال... وإياك أن تسرق... أو أن تغش أو تحتال... هكذا علمنا القرآن... ونحن مسلمون يا بني... يجب أن لا نفرط في ديننا من أجل دنيا فانية".

أحس صابر أن قلبه يخفق... ولكنه ضم العم نصر الله إلى صدره... كآخر جرعة حنان يلملمها قلب مشرد... وعندما أراد صابر أن يمضي... أعطاه العم نصر الله شيئاً من المال... عسى أن يساعده في رحلته نحو المجهول.

الفصل الرابع

الطفلة... والوادي

بدأت شقشقة العصافير تطرق كل أذن... وبدأت أشعة الشمس تتسرب عبر جسد ريحانة البارد... الندى العذب يبلل الأوراق ويبلل أيضاً بعض خصلات الشعر المتدلية فوق أذن فتاة بريئة... وقطع الغيوم تهبط تارة وترتفع تارة أخرى... وبين الفينة والفينة تتشكل في السماء لترسم لوحة بديعة... وسرعان ما تتسارع الرياح.... لتمسح لوحة الغيوم... لتعود الغيوم مرة أخرى لرسم لوحة أخرى متجاهلة كل أعمال الرياح... وربما كان للغيوم ذات يوم... أن تجتمع من جديد... لتهزم الرياح... وينزل المطر... بإذن الله.

والجبال الشاهقة تعيد تكرار أصوات النمر الرهيبة... مخرجة صدى الزئير كجوف رهيب داخل جوف أكثر رهبة... والوحوش هنا هي وحدها من يتكلم... وشيء آخر بدأ يتكلم... أو ربما أوحت ملامحه بذلك... إنهما عينان غشيهما الوسن منذ ساعات الليل الأولى... وألقى عليهما النوم معطفه لتناما في العراء ست ساعات... دون معطف أو دثار... والآن بدأت العينان ترتجفان برعشة ضئيلة... ومع انتعاشتهما صمت كل شيء في الوادي الرهيب... أو كاد يصمت... هل حلت اللعنة على الجسد المسجى للموت بجوار ريحانة... وهل نزف الدم القاني على بقعة الأرض المرعبة ليكون شيئاً من السكن لقلب تتخطفه مخاوف كل شيء.

أهداب ريحانة انفرجت... ومع انفراجها انفتح الجفنان الذابلان أشبه بحبات الزبيب... وسرعان ما لمعت الياقوتتان الجميلتان من تحت الأجفان... وبدأت الصور

تُلتقط... لتَعرض على عقل ريحانة أبشع مشاهد الوحدة والحرمان... كل شيء راكد سوى وميض البصر... وقلب آخر يرتجف خلف عظام قفص صغير... لطفلة صغيرة... لا تملك طريقاً يوصلها للراحة سوى الموت.

هل ستموت الطفلة هنا... وهل سيكون فصل موتها البشع أكثر بشاعة من فصل موت عين الدين وموت صبرة... وأيضاً موت أخيها شداد... أم أنه سيقدر لها أن تعيش... لتقابل أشباح الموت في كل مكان... بدأت الطفلة تتذكر ما حولها... وبدا واضحاً أنها كانت ليلة البارحة في علم لا في حلم... قليلٌ من الوقت وقعدت ريحانة من مرقدها... وبدأت تقلب طرفها... ها هي تلك جثة أخيها المرحوم... وها هو ذاك دمه المسفوح من أسفل جمجمته... هناك يلقى عكة العسل بنفسه... ليعلم الجميع أنه سبب كل المصائب... وفي الأعلى يطن النحل ويزن... ويذهب ويجيء... ويسخر من الجاني ومن المجني عليه... ثم يكمل مشواره نحو زهور شجرة السدر.

فكرت ريحانة قليلاً... هل تُراها ستنهار... وستصرخ بكل قوة... لتعيد لها الجبال الشاهقة صرخاتها بأصداء متتابعة... أم أنها ستصل سن النضج وهي لم تتجاوز الثامنة من العمر... وهل تُراها ستكبر في لحظات وتكون قادرة على الحياة هنا... أم أنها ستبقى مرتدية ثوب براءتها... وتقوم في خوف لتبحث عمن يضمها ويمسح على رأسها بعطف... ويقول:

-"لا عليك يا بابا".

كان عقل الطفلة يتحرك في ثورة... وكانت أفكارها تتوارد على ذهنها أشبه بالسيل... إنه الموقف الحاسم... ولكنها حتماً ستعيش... ولن تستسلم أبداً للموت ما دامت قادرة على الحياة... أول فكرة خطرت على ريحانة هي الجثة... قامت الطفلة... وهي لا تكاد ترتعش إلا كما يرتعش جذع الطلح الصلب عندما تمر عليه الريح... وسارت للأمام... وفي طريقها... حملت الجلد الملطخ بالعسل ورفعته بيدها... ونظرت يمنة ويسرة ثم تقدمت خطوتان ووضعت الجلد على شجرة سلع صغيرة... وعند رؤيتها لنبتة السلع تذكرت اللحم... لأن طريقة إنضاج اللحم عند

أهالي هذه الوديان، لا تكون إلا تحت الأرض... فالحفرة تحفر ثم يوضع فيها الحطب ثم توقد النار لمدة نصف ساعة... وبعدها يوضع السلع ذو الورق الأخضر الأشبه بورق الصبار الصغير... ثم يوضع عليه اللحم... وتقفل الحفرة... وبعد ساعة تكون الأعين قد نعست من انتظار اللحم... الذي سرعان ما يخرج من الحفرة... ويكون اللحم حينها هو الحنيذ.

ريحانة... تذكرت اللحم عندما رأت السلع... ولكن اللحم الذي تذكرته هو لحم آخر... إنه لحم أخيها... الجوع هنا يبسط رهبته خاصة على الفتاة التي قررت أن تتغلب على الموت... وقررت أن تصنع حياة من نوع خاص... في جبال هي أشد فظاعة... ولكن نظرات الطفلة تقفز هنا وهناك... أشبه بنظرات لبؤة كاسرة مكسورة الأيدي... ولعل العقل الصغير داخل الجمجمة الصغيرة أصبح يفكر بطريقة أخرى... هل آن الأوان لطفلة صغيرة أن تأكل لحماً... لم يكن لريحانة مجال في الانتظار... ولم يكن بوسعها أيضاً أن تستسلم لموت بطيء يسقيها إياه الجوع... ولكن الخيارات أصعب مما يتصورها عقل لم يشاهد ذات يوم هيمنة جبال السروات على وديانها السحيقة...

وبجوار شجرة السدر توقفت ريحانة طويلاً تفكر... ثم اتجهت جهة أعلى الوادي وصمتها يكاد يطبق عليها... إن عليها أن تقوم بعدة أعمال خلال فترة قصيرة... ولكنها تتساءل... هل تحفر الحفرة أم تبحث عن الماء... وهل يا ترى يوجد ماء هنا... أم أن الماء الموجود هو فقط ماء عينيها... سمعت ريحانة أصواتاً تضطرب... لم تكن لتخاف أكثر مما هي خائفة... ولكنها ألقت ببصرها جهة مصدر الصوت... لقد هدأت قليلاً... أنها مجموعة من الوبران التي سرعان ما هربت... خطرت في ذهن ريحانة فكرة جديدة... سارت ريحانة بعدها بسرعة جهة المكان الذي رأت فيه الوبران... وهناك وبدأت تبحث عن آثار الأقدام الصغيرة... التي رسمتها الوبران الصغيرة وهي تقفز... أقدام الوبران صغيرة وآثارها أقدامها أصغر... بيد أن عزيمة ريحانة على الحياة تصنع شيئاً مذهلاً... لقد بدأت الطفلة

في تقصي آثار الوبران... حيناً تتلاشى الآثار وحيناً آخر تظهر... على شكل حفر صغيرة يرسمها أحد أظافر الوبر... وفي حين ثالث تظهر الآثار جلية و كثيفة... ولكن ريحانة عازمة على الوصول مهما كانت العوائق... أقدامها النحيفة تنقلها في خفه... والجوع والعطش بداخلها يكادان يعتصرانها عصراً... الطريق يطول ويطول... وآثار الوبران تتلاشى تدريجياً... والموت... الموت يتراءى لها بين كل حجر و حجر... ومع كل ذلك فإن عزمها يقذف بداخلها صبراً عظيماً... صعدت ريحانة على تلك الصخرة الصغيرة... وبدأت تستشرف... لا شيء هناك سوى الموت... نظرت في الجهة الأخرى... لا شيء هناك سوى الموت... نزلت ريحانة وتقدمت عشر خطوات... كان اليأس يرى صورته في نظراتها البريئة... ولكن أقدامها لم تعد تقوى على المزيد... لقد أحست أنها تنهار... تقدمت ريحانة خطوتين ثم سقطت... وبدأ زفيرها يزداد قوة... إنه الشيء الوحيد الذي ازداد قوة لديها... هل هذه هي النهاية... هل ستنتهي المأساة عند هذا الحد... وهل سيطمس النسيان كل ما جرى... أم أن العزيمة ستحل كل العقد.

ألقت ريحانة برأسها المنهك على صخرة قريبة... وحينها بدأت تسمع صوت الوبران من جديد... لقد فرحت أيما فرح... هذه الوبران هي دليلها الوحيد للوصول إلى الماء... بدأت السعادة تدغدغ أمنياتها من جديد... وبدأ لسانها الجاف يذوب في حلقها... هل تُرى الماء... سيرى طريقه من جديد... إلى هذا الحلق... أم أن الديدان هي من سيدخل جوفها قبل أي قطرة ماء... قامت ريحانة وهي تبتسم... عليها أن ترصد الوبران جيداً... مر الوقت سريعاً... وأخيراً ها هي تلك الوبران... كادت ريحانة من فرط فرحتها أن تطير.

لقد وقفت بهدوء... ثم تقدمت بسرعة لملاحقتها... وبعد أن سارت لمسافة توقفت فجأة... ثم أعادت تدقيق النظر فيما رأت... وبعد ذلك شعرت أن الدماء بردت في عروقها... وبدأ الدوار يلف رأسها... كل ذلك حصل... بسبب شيء مهم... ذاك أن ريحانة رأت ما لم تكن تحسب آن تراه بكل هذه السهولة... إنه

النمر الجبلي المرقط... الذي سمعت عنه كثيراً... ولكنها الآن تراه... وليس راءٍ كمن سمع... كان النمر ذو الذيل المكوّر من آخره بسبب شعره الكثيف... يسير مخفياً بدنه بين الأحجار... وكانت الوبران خائفة تترقب هجومه عليها... أما ريحانة فهي واثقة أن النمر لم يرها حتى الآن... تراجعت الفتاة للخلف... حتى أسندت ظهرها إلى إحدى الصخور الكبيرة... ثم التفتت يميناً و يساراً... لم يكن سوى غصن من شجر الطلح، قد امتلأت جوانبه بأغصان صغيرة وبأشواك أصغر... كان طول الغصن مترين تقريباً... لقد كان ذلك الغصن يبعد عن ريحانة قرابة الخمسة أمتار... إنه سلاح جيد... ولكن ذهابها إليه أمر مُرعب... وحتماً سيعرضها للخطر... وربما لفت تقدمها نظر النمر الجبلي.

النمر هناك يتربص بالوبر الجبلي في حذر... وريحانة تحاول أن تتقدم ولو قليلاً... لمراقبة الوضع... ولعلها تسحب الغصن بهدوء... بدأ رأس ريحانة يخرج من خلف الصخرة... و بدأت عيناها تترقب... والنمر هناك متأهب... للانقضاض على الوبر المختبئ خلف شجرة صغيرة... لحظات مهيبة و بعدها قفز النمر جهة الوبر... ريحانة ترقب بحذر... أمسك النمر بالوبر من ظهره... ريحانة هناك مندهشة... لم تشأ أن تحزن على الوبر... ولم تشأ أن يهتز قلبها شفقة عليه... إنما هي سعيدة أتم السعادة... لأن النمر سيسد جوعه... وسيكون في غنى عن أن يلتهم كومة من العظام... يشدها لبعضها جلد شاحب ناشف... تحمله فتاة تتنفس النكد كما تتنفس الهواء... ولكن سرعان ما انتفض الوبر... وأدركت جسمه قدرة رهيبة جعلته يقفز... ويقفز بعيداً عن أيدي النمر... ربما كان مجروحاً... وربما كان مكسوراً... ولكنه هرب نحو النجاة... بدا وكأن النمر مكتوي بنار الحنق والخذلان... وبعدها التفت يمنه... وهناك... رآني شيئاً حسب أنه لن يراه في مثل هذا الوقت... وفي مثل هذا الزمن... إنه جسم فتاة، ستكون أفضل بكثير من جسم الوبر... التقت العينان... عينا نمر عربي وعينا فتاة عربية... وفهم كل منهما ما يدور في ذهن الآخر... لم يكن لدى عقل ريحانة قدرة على ترجمة ما حولها بطريقة

سريعة... لأنه يرى ولأول مرة... نمراً مفترساً... يتربص ليهجم... نمر جائع يرى حياته مرهونة بافتراس مخلوق أمامه... أبشع الموت موت إنسان تحت أنياب نمر... موت الوبر تحت أنياب النمر... ربما كان أمراً سهلاً... لأن الوبر لا يدرك ما حوله كما يدركه الإنسان... ولكن الإنسان قادر على الفهم والإدراك والإحساس بكل شيء.

اقترب النمر خطوة... وريحانة تقترب من نهايتها خطوة... كادت أن تسقط ليدخل عقلها في إغماءة طويلة... تدخل بعدها في هدوء إلى جوف النمر... وهي لا تشعر... سقطت من عينها دمعة... وتذكرت أخاها الجبار... الذي جاء كالكلب إلى هذا الوادي الموحش... لتكون هي في النهاية طعاماً للسباع... تقدم النمر خطوة أخرى... ولكنها ودون سابق نذير انطلقت وحملت غصن الشوك... تشبثت به وبكل قوة وتراجعت قليلاً للخلف وبدا وأن قلبها يكاد ينفجر من قوة الخفقان... مرت لحظات قاسية... وبعدها بدا وأن قوة خفية تسربت إلى كيانها... ونفثت في داخلها قوة من جنس قوتها حين عزمت على البحث عن الطعام... ريحانة في ذهول تنظر يمنة ويسرة... رويداً رويداً... ثم قررت أن تتراجع... النمر بدأ ينشغل بفهم حقيقة هذا الجسم الذي يحمل الغصن... إنه عازم على التهامه... ولكن ما العمل مع كل هذا الشوك... ريحانة شيئاً فشيئاً تتراجع للوراء... وأخيراً أسندت ظهرها إلى شق صغير في منتصف الصخرة... بالكاد كان ذلك الشق قادراً على احتضان جسمها الناحل... لكن الصور تتضح أمامها الآن... أمسكت الفتاة بالغصن الشوكي بكل ما أوتيت من قوة... وحاولت أن تضعه درعاً واقياً لها... وفجأة انقض النمر وزئيره يسبقه... ونظراته تكاد تُشرّح كل موضع في جسد ريحانة... وعندما وصل... لم يكن بينه وبين الفتاة سوى سنتمترات... لا يصل مجموعها للمتر... اقترب برأسه قليلاً... ولكن الرؤوس المدببة في أطراف الشوك حالت دونه ودون التقدم.

حاول النمر أن يبحث لنفسه عن فرجة ليقتحم معها... ولكنه عجز عن ذلك... ألقى بنظراته بحنق... وبقي في توتر ظاهر... يروح و يجيء... وأخيراً ألقى بجسده لينام بجوار من عزم على أن تكون طعامه بعد أن يزال هذا الشوك.

تمر الدقائق والنمر يترقب... والطفلة تترقب أيضاً... وتهيم بعقلها المهدودة قواه... في دقات قلبها التي بدأت تتباطأ... وترقب الحياة من مُقرّب رهيب... يتسارع بها نحو هوة الموت... ولا تشاء أن تمسح دموعاً في وجهها... لأن فتاة لم تشرب الماء منذ يومين أحق بها أن لا تجد دموعاً في محجريها... لكن قدمان صغيران كانا يحملان جسم ريحانة بدءا في الانهيار... وقيمة حياةٍ صغيرةٍ لفتاةٍ صغيرةٍ بدأت تتضاءل... وكل قواها خارت... وماذا يُصنع يا ترى من أفكار في رأس فتاة في الثامنة... وما هي المشاعر الولهانة في فؤاد صغير أشبه بحبة التين... تتقاذفه أمواج المحيط الهادر... وبماذا تُرى قلبها يخفق... أهو من خوف أم من عزيمة... هل يكون الموت هو الحل الأقل خسارة لها... أم أنها الحياة الحائرة هنا... هكذا كانت تشعر الفتاة... ولكن لاح لها أنه... الموت... الموت... هو الحل الأمثل لكل براءة عينيها... اللتين لم تعودا تريان سوى الموت الغاشم.

قررت ريحانة أن تجلس... وقررت أيضاً أن ترتاح... تماماً كما كان يرتاح غريمها الرابض بجوارها... لكن المعاناة ستبقى واقفة بينهما... لم تكد قدماها تنثيان حتى وقف النمر... إنه الآن متأهب للانقضاض... ازدادت خفاقات قلب الفتاة ومر الوقت حذراً... وبعدها انقض النمر بسرعة رهيبة... ولكنه انقض في الاتجاه الآخر بعيداً عن الفتاة... نظرت ريحانة في دهشة إلى الاتجاه الذي انقض إليه النمر... وهناك رأت وبراً صغيراً... لم يلبث الوقت قليلاً حتى نشب الوبر بين أنياب النمر... ليكون النمر بذلك قد أعاد شيئاً من هيبته... التي سيسمح معها لنفسه بالذهاب بعيداً مع غنيمته الجديدة.

أطرقت ريحانة برأسها للأرض وأعادت شريط ذكرياتها... ثم رفعت رأسها للسماء وهي تتأمل.

- "من هو الذي ينقذ المؤمنين من براثن الموت... ويمنحهم سلسبيل الحياة من جديد... إنه الله... الله...".

تذكرت ريحانة ذلك الرجل المؤمن (عين الدين آغا) وقررت أن تقرأ الفاتحة... وبدأ شريط الصور يرجع نفسه من جديد للملكوت الهائل... ويبعث في وجدان الطفلة شوقاً عارماً لفهم الحياة بطريقة أعمق... لم يكن أمام الطفلة سوى أن تفكر كما يفكر الناضجون... هكذا تصنع الحياة الصعبة طبائع أصحابها... وهكذا يلهمهم الله قدرة خارقة على التكيف مع ما حولهم... ويمنحهم القدرة على فهم الجزئيات... ليبقى الإنسان قادراً على صناعة الحياة... إنها هبة الله للمخلوقات.

انتفضت ريحانة... ومسحت ما علق من دموع على جفنيها... ولكنها بسرعة تذكرت أخاها النائم نومة من لا يقوم... هل ستجبرها الحياة الجائعة على التهام مزع من لحمه... أم أن رزقاً آخر سيقدر لها كما قدر الوبر رزقاً للنمر... هل سيمنحها القدر... عذاب الضعف... حين يجبرها على التهام أوصال لحم بدأ يتعفن... أم أن رزق الله الذي لا ينتهي ستفتح أبوابه لها في هذا المكان المقفر... تذكرت ريحانة بعض أحاديث عين الدين البليغة... تذكرت عينيه الصافيتين وشعره الأشقر وهو يلمع تحت أشعة سراج الدهن الصغيرة... في بيت صبرة... وثنيتاه المتفلجتان... وروحه الحانية... وهي تكسب الدفء للفتاتين اليتيمتين وهو يقول:

- "التوكل لا يكون أبداً إلا على القادر... لأن القادر هو وحده من يستطيع أن يمنحكِ ما تطلبينه... نحن أغبياء عندما نطلب قضاء حوائجنا من البشر... الله وحده يقضي لنا ما نحتاجه... لأنه وحده القادر على كل شيء... ولكن علينا أن نتوكل على الله... وسنرى حينها كيف تتحول الحياة إلى طريق سهل واسع... محمد رسول الله ﷺ... قال ذات مرة لأصحابه «**لو تتوكلون على الله حق توكله... لرزقكم كما يرزق الطير... تغدو خماصاً وتعود بطاناً**» نحن يا بناتي نحتاج إلى الله... ولو كنا في جبل مقفر مخيف... ولجأنا إلى الله... فسيرزقنا الله... لأنه يرزق النمل في جوف الجبل... ولو كنا في بحر لرزقنا الله... لأنه يرزق السمك في بطن البحر".

هكذا تذكرت الفتاة كلاماً كان أثمن عندها من كل شيء... لأنها بفضله... بدت واثقة بأن المقادير بيد الله سبحانه... لقد أنقذها الله بعد أن كادت تذوق طعم

الموت على يد النمر... حتماً كان الله معها وحتماً لن يضيعها الله... تذكرت ريحانة جثة أخيها... لذا انطلقت نحوه... وعندما رأته تأملت ملامحه جيداً... ما أبعده عن عين الدين... تأملت طنين الذباب الأزرق وهو يدخل مع منخريه... مالت قليلاً عن جثته... ثم بدأت بالحفر... الأرض رمليه سهلة... لم يكلفها الحفر كثيراً... ساعة كاملة فقط... إنها تحفر تارة وتراقب الجهات الأربع من حولها تارة أخرى... وهي تمسك الحجر الحاد الذي تحفر به من جهة... وتمسك غصن الشوك من جهة أخرى... خشية أن يباغتها النمر... وأخيراً انتهت من الحفر... لقد كانت الحفرة بعمق ربع متر... قامت ريحانة جهة الصخور... وأحضرت أربع أحجار مصفحة... بالكاد كانت تقلبها... ثم بدأت في سحب الجثة... لم تكن الجثة خفيفة بالقدر الذي يساعد فتاة الثامنة على سحبها... لذلك قررت أن تقلبها.

أمسكت ريحانة جثة شداد مع الكتف ثم جاهدت حتى قلبتها... النمر ليس له أي أثر... بدأت ريحانة تجدد يقينها بأن الله معها... لن تضيع أبداً وهي في كنف الله... دخل شداد قبره الصغير... ووضعت ريحانة أحجار القبر بطريقة بدائية... فقط لتمنع الرمل من النزول إلى الجسد... ثم دفنت الجثة... وانتهى فصل رهيب من فصول معاناة ريحانة... وبقيت فصول أخرى... ربما كان على ريحانة أن تعيشها هنا... أو ربما كان عليها أن تموتها هنا.

صراع للبقاء

إغفاءة قصيرة قضتها ريحانة جالسة... بعد جهدها الجهيد في دفن جثة أخيها... وسرعان ما قطع إغفاءتها تلك طنين متواصل... وبعدها بدت الرعشة تملك عليها جميع بدنها... نظرت الفتاة لمصدر الصوت... إنه سرب النحل الراحل... لقد انفصلت خلية صغيرة من النحل... عن الخلية الأم... وها هي الآن عازمة على الرحيل... لم يكن الإجهاد الذي امتد على مفاصل جسم ريحانة الهازل... ليمنعها من إغفاءتها القصيرة تلك... جوار قبر أخيها... ولكن الخوف الذي امتلك نياط قلبها فجأة... أشد فظاعة من لذعة الكهرباء... لأن النمر

بالمرصاد... سرعان ما انتفضت ريحانة واقفة... لا يزال غصن الشوك في يدها... وعليها أن تفكر في شيء هام... إنه المبيت... كيف ستنام في الليل القادم... إنه سؤال يصعب الجواب عنه... الأمر مذهل لا محالة... وربما كان الموت قادماً في طيات الساعات القادمة... فكرت ريحانة قليلاً... الجحر... نعم الجحر... هو ما ستصنعه بيتاً لوحدتها.

ألقت ريحانة نظرتها الأخيرة على قبر شداد... ثم انصرفت بسرعة... إنها الآن تتجه جهة الصخرة التي اختبأت في صدعها الصغير... الصدع ارتفاعه متر وعمقه ربع متر... إنه أضيق من أن يكون منزلاً... ولكن لا توجد فكرة أخرى كي تستدل بها على منزل مناسب.

وصلت ريحانة للشق الصغير... وألقت عليه نظر فاحصة... ثم بدأت في جمع الأحجار الصغيرة من حواليه... كانت الأحجار التي جمعتها ريحانة صغيرة أشبه برأس الخروف... وربما حاولت دحرجة بعض الأحجار التي تصل لحجم رأس العجل... بدأ البناء في الارتفاع رويداً رويداً... وبدأ العرق في التكور على جبين الطفلة... والتحدي الآن بدأ يزداد... إنه تحد رهيب بين ريحانة وبين الشمس... التي تسابق الوقت لترمي بنفسها في أحضان الغروب... وترمي بالدنيا في أحضان الظلام... وربما ترمي بريحانة في أحضان الموت... ولكن لم يكن أمام ريحانة سوى قبول التحدي... انتهى البناء أخيراً... وأصبح في ارتفاع متر واحد... وكان المنزل له أرضية صغيرة مساحتها نصف المتر... وتلك هي الشمس تشارف على المغيب... والجولة الأخيرة هي السقف... وريحانة متعبة إلى أقصى الحدود... ولكن تذكرها للكرة التي في ذيل النمر... يفجر في داخلها طاقة كالبركان... المشكلة تكمن في نوعية المادة التي ستختارها ريحانة للسقف... والمشكلة ليست في الاختيار... وإنما في انعدام المواد التي يمكنها أن تختار منها.

بقيت الفتاة برهة تفكر... ثم انصرفت تبحث... وبعد قليل أقبلت ومعها خمسة عيدان غليظة... بنفس درجة غلظة حقلة الإصبعين... وضعت ريحانة أعوادها

تلك... ثم انطلقت للبحث عن شجر العوسج... العوسج ذو الأعواد القاسية... إنه شجر شوكي عنيد... لا يتجاوز طول الشجرة منه المتر... ولكن أشواكه القصيرة حادة كالإبر... ريحانة تكفيها شجرة واحدة... ذهبت ريحانة يميناً وشمالاً... لا شيء يوجد سوى الصمت... وبقايا مفردات الطبيعة الموحشة... وشيء هناك رأته الفتاة واقتربت منه... لم يكن سوى الوبر الذي قصم ظهره النمر... إنه الآن ميت... حملته ريحانة بهدوء وتأمل عميق... ووضعته جانباً... ثم واصلت بحثها... وعلى مرمى حجر رأت الفتاة ثلاث أشجار خضراء... انطلقت ريحانة تجاهها... كم كانت سعادتها حين رأت الماء... إنها صخرة مجوفة مملوءة بالماء... العطش الرهيب قد بلغ بالطفلة مبلغاً صعباً... وذلك المبلغ جعلها وبكل سرعة تتكفئ على الماء لتشرب... شربت ريحانة حتى رويت... كم كان الماء عذباً زلالاً... وكم كان يجري في البدن الضامر أشبه بجريان الروح في الجسد... ثم قعدت الفتاة في هدوء... وقالت:

-"الحمد لله".

كلمة عذبة... سرت في النفس الصغيرة بسكينة أخاذة... تذكرت ريحانة الكثير مما كان عين الدين يقوله لها... ولصاحبتها صبرة... عن الصلاة... تذكرت أنه قال ذات مرة:

- "الصلاة حبل... ولكنه حبل بين الله وبين عباد الله... الصلاة هي أن يطير الإنسان للأعلى... بعيداً عن كل ما حوله... حتى يتكلم مع الله... إننا نصل بقلوبنا إليه... ثم نحمده ونشكره... إنك حين تصلي تعترف بين يدي الله بأنك ضعيف عاجز... وأنك مخطئ مذنب... ثم تعاهد الله على أن تواصل سيرك في الحياة... دون أن تؤذي أحداً... لأن المسلم إنسان يختلف عن كل الناس... فهو ينظر دائماً بعينين اثنتين... عين تنظر لله... وعين تنظر للحياة... وكلما امتدت عين المسلم التي تنظر إلى الله نحو شيء من زخارف الحياة... لاح لها أن تدخل في الصلاة...

فيشعر حينها المؤمن أنه مع الله... وأن الله معه... الصلاة خمس مرات في اليوم... أليس كذلك يا بنات... أتدرين لماذا كانت الصلوات خمساً... ولم تكن واحدة... لأننا دائماً نحتاج أن نصلي... دائماً نحتاج أن ننفض عن حياتنا كل غبار الهموم... فالحياة كلها هم ونصب... والأرض كلها تراب وطين... ونحن نحتاج للطيران بعيداً نحو السماء نحو الله... كي يرضى عنَّا ونرضى عنه... وبذلك نكون سعداء".

سقطت دمعة حارة من عين ريحانة... سرعان ما غسلتها حفنة الماء التي جرت على وجهها... وأكملت ريحانة غسل يديها ورجليها... لقد تذكرت الصلاة... وتذكرت أنها لم تصل حتى الآن... لم تصل الفجر ولا الظهر ولا العصر... بالتأكيد هي لا زالت صغيرة على فرض الصلاة... ولكنها الآن مؤمنة بأن الإنسان لا يصلي لأن الصلاة مفروضة عليه فحسب... ولكن لأنها أيضاً سعادة وأمان... وهي أشبه بالماء والهواء لكل حي... وقبل أن تكمل الفتاة أفكارها تلك... سمعت من بعيد زئير النمر... رجف قلبها وخفّت مسرعة وعيناها تسبقانها... وقريباً منها بخطوات... رأت شجرة العوسج... إنها شجرة ملقاة في إحدى جنبات الوادي... لقد قلعتها السيول منذ زمن... وألقت بها هنا دون مبالاة... ولم تدر السيول المنحدرة من الجبال الشامخة... أن ثمة قدر يُقدّر المكان المناسب... لهذه الشجرة ... كي تكون نجاة لبائسة يتيمة... ولكنها عناية الله... تقدمت ريحانة نحو الشجرة الملقاة... وحين أمسكتها نظرت إلى السماء... لتجدد ثقتها بأن عناية الله تلاحقها هنا... سحبت ريحانة العوسجة وولت وجهاً ناحية حجرتها الصغيرة... وعندما وصلت... بدأت في تكسير الشجرة لأغصان صغيرة... وذلك بإلقاء الأحجار عليها... وبعد بضع ضربات... تحولت العوسجة إلى أغصان مناسبة لسقف الغرفة... وضعت ريحانة الأغصان على سقف الغرفة... ثم وضعت أحجاراً في أطراف الأغصان... كي تتثبت الأغصان بها... صناعة بسيطة لكنها متقنة... وأخيراً دخلت ريحانة لمنزلها... كل شيء أصبح جاهزاً... تذكرت ريحانة شيئاً في الخارج... لذا وقفت ثم انطلقت لتحضره... إنه الوبر... وأيضاً جراب العسل... الذي وضعته في وقت

الظهيرة... على شجرة المرخ... ومع الغروب... دخلت ريحانة حجرتها الصغيرة... وسحبت غصن الشوك كي تقفل به الباب... ثم وضعت أحجاراً قد أعدتها في الداخل على ذلك الباب ... وأصبحت الحجرة مكاناً آمناً... وسُمع من داخل الحجرة نداءٌ خافتٌ... لطفلة يتيمة... في أعماق الظلمات... وهي تناجي وبرها الصغير... الذي نال منه الموت... فأصبح كتلة من لحم... كانت تقول بهمس عذب حاد:

- "أنت هنا... أنيسي في وحشتي... في هذه الليلة... ولكن يا ترى من يكون أنيسي حين تتعفن... أيها الوبر الصغير... أو تصبح تراباً".

بقيت ريحانة تضم الوبر لصدرها وتبكي... لقد أدخل جسم الوبر البارد... بعض الدفء... في قلب اليتيمة المجروحة... ولكنها لا تفكر في هذه الليلة كما تفكر في غد وبعد غد... رفعت ريحانة رأسها للسماء... وكانت النجوم تبعث نورها من بين أشواك السقف... تأملت ريحانة قليلاً في تلك النجوم... تذكرت بهدوء وصمت مؤنساً لكل الخائفين... قد أخبرها عنه عين الدين... تذكرت كلمات كالجواهر... صاغها الشيخ الصالح... في سبائك كالذهب... داخل ذهن ريحانة الغض... أغمضت ريحانة عينيها... وبدأ حديث الشيخ... وكأنه يتسلل إلى أعماقها:

- "يا بناتي ... الوحشة هي أن تبقى الوساوس تنهش قلوبنا... ولا نجد ما نشغل عقولنا بالتفكير فيه... المؤمن وحده هو من لا يشعر بالوحشة... فقط لأنه عندما يخلو بنفسه... لا يدع للوساوس طريقاً لقلبه... إنه سرعان ما يدخل في حديث عذب... ومناجاة طويلة مع من يحبه... ذلك أن حبيبه قد ملأ قلبه بالطمأنينة والسكينة... أتدرون من هو حبيب المؤمنين يا بناتي... إنه الله... الله الخالق خلقهم وخلق الكون... إنه حتماً قريب منهم... هل سمعتن بحديث رسول الله: «... لقد كان وحيداً في الغار... نعم في غار فارغ في أعالي جبال مكة الموحشة... ولكنه كان ينظر للسماء... وكان يقول دائماً (يا رب) لقد أحس حينها أن الدنيا كلها موحشة... لأنه لا يقطنها إلا الذئاب... أو

بشر هم أشرس من الذئاب... الناس كانوا يقتلون البنات... وكانوا يقطعون الطريق... وكانوا يتفننون في ظلم الضعفاء... كانوا يشربون الخمر... وكانوا يعبدون الحجارة... ليلتمسوا من صلابتها قسوة فضيعة في قلوبهم... لقد كانوا يكذبون... ويشهدون الزور... وكانوا يقطعون أرحامهم.

كانوا كذلك إلا القلة القليلة... محمد اليتيم ضاق ذرعاً بحياة كهذه... وزاد قلبه وحشة... مع أنه كان يعيش بين الناس... لقد قرر في داخل قلبه أن يأنس بشيء أعظم... إنه الخالق للكون... وعندها ذهب إلى الغار... ودخل فيه... ونسي دنيا الذئاب من حوله... لأن الملائكة حفته وأنزلت عليه السكينة... لم يعد بعدها خائفاً... لأنه أيقن أن الله معه... الله الخالق معه... أنتن كذلك يا بنات... أنتن يتيمات... تماماً كما كان محمد يتيماً... وعليكن عند الخلوة والوحدة ألا تستوحشن... فقط اذكرن الله".

طأطأت ريحانة رأسها بهدوء... وحف الظلام كل أنحاء المكان... وسمع من الداخل صوت الطفلة صغيرة... وهي داخلة في الصلاة "الله أكبر".

الفصل الخامس

يوم قديم على جبال السروات

الكون الفسيح يعيد ذاته... ويعبر عن نفسه هنا بتكرار... ويعطي الناس البسطاء انطباعات متشابهة عن حقيقة الوجود... وتلك هي أشجار النظار... تبدو منسجمة مع كل شيء... وتصطف في خط واحد... وكأنها قامت في محراب الصلاة... نحن الآن في العام ١٢٥٠هـ... شيء آخر يعبر عن نفسه هنا... إنه الجفاف... الذي لحق بكل شيء... وكاد أن يُلحق كل شيء بالموت... وهناك أنباء متضاربة عن تفشي داء الجدري... لم يبق شيء لدى الناس يحرصون عليه، سوى غنيماتهم... التي أصبحت أشد هزالاً منهم ... وأخيراً عزم الجميع على الرحيل... الرحيل إلى حيث المجهول... وحيث تلوكهم أسنان الحياة من جديد... ثم تتفلهم لمعاناة أخرى.

الناس يعيشون على جبال عالية تشرف على تهامة ذات الأودية السحيقة... والقبائل التي ينتمون إليها قبائل شتى... تمتد جنوباً من قبائل قحطان وشهران... حتى قبائل غامد وبالقرن في الشمال... المسافة طويلة على سلسلة الجبال الوعرة... ولكن تعداد الناس فوق هذه الأرض المتسلسلة الجبلية قليل... لأن الجميع يتسابقون إلى الموت... ويتسابقون إلى الراحة من العناء... تسابق الفراشات على اقتحام النار...

المسافة من شرف تمنيه إلى شرف بالقرن تزيد عن ٣٠٠ كلم... بيد أن القرى المتناثرة على حواف جبال السروات... تُرى أشبه بحبات التين على شجرة جاوز عمرها الخمسة والعشرين عاماً... وهنا سمة مشتركة... إنه ذلك الجفاف الرهيب... الذي يجلد الناس ويجبرهم على الرحيل... وعليهم أن يتركوا الجبال ويهاجروا نحو الشرق... حيث الصحراء المفتوحة.

الشيخ معارض بالكاد جاوز الخمسين... ولكنه أصبح ضامر العود والبدن... هكذا يدخل الإنسان في سن الشيخوخة سريعاً... لأن الخمسين هي بداية النهاية وهي أيضاً بداية أرذل العمر... لا أحد هنا يصل لعمر السبعين... أو حتى الستين... إلا المعمرون... والمعمرون يعدون على رؤوس الأصابع... الجميع يموتون قبل هذا العمر بكثير... وغالب أسباب الموت أمراض عدة... تفتك... ولا أحد يعرف كنهها... بيد أن الملاريا هي الشبح الرهيب... الأكثر زمجرة في ميدان الموت... وكثيرون هم الذين يموتون بسبب فقر الدم أو سوء التغذية... ولكن معارض نظر إلى طفلته الوحيدة ذات الثلاثة عشر عاماً... وقال لها في صرامة:

- "غداً سنرحل... الأغنام ستهلك... علينا أن نبحث لها عن العشب... رأيت آثار برقٍ ليلة البارحة... ربما كان جهة بيشة... أوه يا ابنتي... قد نتعب كثيراً في الطريق... ولكن الموت من التعب أفضل من الموت من الجوع".

هكذا هزت رديفة الفتاه رأسها مقتنعة كل الاقتناع بأن الموت من التعب أفضل من الموت من الجوع... وكسرت كسره من قرص الشعير وناولتها لوالدها... وناولته أيضاً قدح اللبن ثم طأطأت رأسها وقالت:

- "لقد انتهى الشعير يا أبي".

- "هل بقي سمن... حتماً لو أنزلناه غداً إلى السوق فسنجد من يعطينا به شعيراً".

- "لم يعد في الأغنام قطرة حليب... يبدو أنها لن تعطينا حتى يعطيها الله من رحمته".

- "سيعطيها الله وسيعطينا".

فكر معارض قليلاً ثم نكس رأسه قائلاً:

- "ولأجل ذلك... فسيكون الرحيل غداً بإذن الله".

"علينا أن نحذر يا أبي ونحن نسير... مع الجفاف يكثر قطاع الطرق".

"لن يطمع أحد فينا يا ابنتي ولا في مواشينا لا شيء لدينا يرغبهم في سرقتنا".

- "إنهم جوعى يا أبي ... تكفيهم رائحة المرق... لن يتورع اللصوص أبداً".

- "ولكن... الله يستر".

مسح الأب فمه بيده... ثم مسح وجهه بيديه التي بللها بقليل من اللبن ثم قال:

- "الحمد لله".

قامت رديفة مسرعة... وأحظرت المكحلة المحفورة في المرو الأبيض وأدخلت فيها الميل النحاسي الأملس... ثم ابتسمت لأبيها قائله:

-"هات عينك من أجل الكحل".

- "بارك الله فيك يا بنتي".

مسحت رديفة بذلك العود داخل عين والدها... ثم أدخلته مرة أخرى في المكحلة وأخرجته كي تمسح به في العين الأخرى وهي تبتسم... قامت رديفة من مكانها بعد أن غطت المكحلة كي تردها في مكانها... فوق الحجرة البارزة بطول شبر واحد من الجدار... وضعت رديفة مكحلتها بهدوء... ولكن المشط الرابض هناك... منذ عشرة أيام... دغدغ مشاعر أنوثتها المنتزعة بالكره من عالم طفولتها المكدود... حملت رديفة المشط وهي تبتسم... ثم سحبت من تحت عنقها ربطة المنديل الأحمر... الذي يلف شعرها... وخلعت المنديل بشيء من الدلال الفتي...

وبدأت تمشط... وتحك أيضاً مواضع قرصات القمل الشره... أثار حكّها المستمر شراهة القمل... وبدأ رأسها كأنه سوق لقطعان قمل جشعة... ولكنها لم تلق لذلك بالاً... وعندما أنهت ما بداخلها من رغبه... سارت بتباطؤ نحو فراشها... ألقت نفسها على الحصير البالي... لقد حان وقت النوم.

كرةٌ من العجين

الشيخ معارض أخرج رأسه من الكوة الصغيرة في داره الطينية... تم أجال طرفه في الدنيا الباردة... ثم قال:

- "لا إله إلا الله... أشهد أن الموت حق".

وبدأ ينادي.

-"يا رديفة... هيا استيقظي... لقد ظهرت نجمة الصبح".

وفي خفة الفراشة هبت الفتاه من فراشها... وانطلقت نحو الحطب المرصوص بجوار الدار... وحملت منه ستة عيدان... ووضعتها في (الميفاء) الصغير الذي توقد فيه النار... ثم أحضرت جمرة صغيرة من (الصلل) المبني من الطين داخل غرفة المجلس... والموضوع خصيصاً لتدفئه غرفة الجلوس... ووضعت الجمرة بين الحطب... وبدأت تنفخ فيها حتى أوقدت النار... وما هي إلا دقائق حتى عادت نحو النار التي أصبح حطبها جمراً... ثم حملت (المجحم)... وهو القطعة الحديدية المصفحة من أحد طرفيها... كي يحمل الجمر على الطرف المصفح... حملت رديفة شيئاً من الجمر... وقامت كي تضعها في الصلل... وبعدها انطلقت نحو الماعز... وهي تنظر للسماء برجاء كبير... وتقول.

- "يا رب... أسألك قطرات من الحليب في ثدي الشاة... يا رب... من أجل والدي... وليس من أجلي".

دخلت رديفة داخل ظلام الحظيرة الصغيرة... ذات السقف المنخفض، بارتفاع متر ونصف... ثم تحسست حتى أمسكت بالشاة التي تعرفها... أوه... يا إلهي... كم كان صغيراً ذلك الثدي... وكم كان اللبن في داخله قليلاً... ولكن رديفة لم تيئس ... لقد رفعت الإناء الفخاري الصغير وبدأت تحلب فيه... انتهى صوت الحليب المتناثر على جدار الإناء بسرعة... ولم تكن كمية الحليب حينها قد جاوزت كوبين صغيرين... قامت رديفة وهي تقول:

-"الحمد لله... سيكفينا هذا المقدار".

خرجت رديفة من الحضيرة... ودخلت المنزل... وحملت دلة القهوة... ثم توقفت قليلاً... ورفعتها نحو أنفها... ثم شمت رائحتها جيداً... إنها تحتاج لتعقيم... اتجهت رديفة جهة الصلل... وحملت قطعة من الجمر بالملقاط الأسود العتيق... ووضعتها داخل الدلة وأغلقتها... وبعد ما يقارب الدقيقتين فتحت الدلة... وألقت الجمرة من داخلها بعيداً... ونفضت آثار الرماد... ثم سكبت الحليب داخل تلك الدلة... ووضعتها بجوار النار... في طرف الصلل... وتركتها كي تغلي.

وفي تلك الأثناء اتجهت جهة المخزان الصغير... تحت درج المنزل... وأخرجت منه القف ذا اللون البني الداكن... والمصنوع من جلد بقرتهم (وكره)...التي ذبحت في عيد السنة قبل الماضية... وكانت هي آخر بقرة قدر لهم امتلاكها... نفضت رديفة الغبار جيداً من القف... وبدأت في وضع حاجياتهم التي سيأخذونها معهم في رحلتهم جهة بيشة... والتي ستدوم موسماً أو موسمين... حتى يأذن الله بنزول المطر على قريتهم... لم يطل الوقت حتى عاد والد رديفة من المسجد... وأنهت رديفة صلاتها بعد أن أنهت جمع كل الحاجيّات... وبدأ في تناول الحليب الحار وقليل السكر... وربما قليل الدسم!!... ولكن الهم كان واضحاً على ملامح وجه الشيخ معارض... قالت له رديفة:

-"ما بك يا أبي لقد...".

- "حدثت علي بن حيدر... وعارف بن جراد... عن الرحيل... ولكنهم لن يرحلوا معنا".

- "هل هذا يعني أننا سنرحل لوحدنا".

- "لست أدري... ولكن أظن أن هذا هو خيارنا الوحيد".

- "الطريق خطر يا أبي... وهو يهدد بالموت".

- "ولكن البقاء هو الموت المحقق لنا ولمواشينا... لا خيار لنا سوى الرحيل... حتى ولو كنا لوحدنا".

- "وهل لدى جيراننا ما يقتاتون به... هم ومواشيهم".

- "أظن أن لدى علي بن حيدر مدفن مليء بالذرة ... ربما حفرة في الصخرة المجاورة لباب منزله قبل أربع سنوات... ودفن فيه قبل سنتين ما يقارب العشرة أفراق... جاءني الخبر الأكيد أنه فتحه في الأسبوع الماضي... ولم يخبر أحداً بذلك... ولكن... لا شيء يبقى سراً في هذه الأيام... وأما عارف بن جراد فقد فتح باب (قصبة شلِّيلة) التي كنز فيها ما يقارب الخمس مئة (ريزة) من قصب الذرة... قصبة شليلة قصبة طويلة... وتتسع لكميات كبيرة من العلف... وسمعت أن عارف ابن جراد سيأخذ نصف مدفن علي بن حيدر... في مقابل أن يعطيه نصف كمية العلف التي كنزها في قصبته".

- "آه يا والدي لماذا لم تحفر مدفناً... وتبني قصبة أيام كثرة المطر؟".

- "القصبة يا ابنتي كما تعلمين بناية طويلة من الحجر والطين... يصل طولها إلى (١٥) متراً... ورجل في مثل حالي... ومثل سني... لا يستطيع بنايتها لوحده ... أما المدفن فإنه كان في بطوننا... لم يكن لدينا مزرعة كبيرة أيام الأمطار...؛ لذا فإننا لم نحصد شيئاً يستحق أن نحفر له مدفناً... لقد كنا نأكل من المحصول حتى فني".

- "الحمد لله يا والدي على كل حال".

- "مع بزوغ أول خيوط النور سنكون خارجين من القرية... زادنا قليل... وسيفرجها الله".

لم يكمل الشيخ معارض حديثه إلا وصوت الطارق على الباب يطرق أسماعهم... قامت رديفة مسرعة ورفعت (الضبة) التي كانت تمسك الباب... وبدا وجه أحد أولاد علي بن حيدر... وفي يده اليمنى صرة متوسطة الحجم... فيها ما يقارب الثلاثة أمداد من الذرة... وقال:

- "هذا سلام والدي عليكم... نرجو لكم رحيلاً سالماً".

قالت رديفة في تأثر:

- "هذا حَب".

- "نعم هذا حَب".

- "شكراً لأنكم لم تنسونا".

- "المسلم لا ينسى أخاه المسلم... أليس كذلك".

- "إذن... فإن الله لن ينساكم".

اتجهت رديفة إلى والدها في لهفة... وقالت له وعيناها تذرفان الدمع... ولسانها يتلعثم من الفرحة:

- "لقد جاءنا حب... من عند عمي علي بن حيدر".

- "صحيح يا ابنتي... الحمد لله... إن الله لا ينسانا... إذن اذهبي واطحنيه على الرحى بسرعة... واصنعي لنا قرصين على هذه النار... الحمد لله على نعمته".

كانت رديفة في قمة النشوة والسعادة... وهي تعالج الطحن... إنها تبتسم تارة وتضحك تارة أخرى... وتتخيل نفسها وبطنها مليء بالخبز... الله ما أجمل الخبز... لم تكن سرعة رديفة في إنجاز عملها لتجعل الوقت يمضي طويلاً... حتى

انتهت من كل شيء... ثم أخذت القليل من الطحين... ووضعته في الصحفة... وأضافت عليه شيئاً من الماء... وبعد مدة قصيرة أقبلت رديفة جهة والدها مبتسمة... وفي يديها كرتين من العجين... ثم قالت:

- "هذه (القعمة) لك يا أبي وهذه (القعمة) لي".

القعمة هي الكرة من العجين... تلقى بين الجمر... لتنضج بهدوء... فتكون من الخارج أشبه... بالخبز المقرمش المحروق... ومن الداخل أشبه بالعصيدة الطرية... إنها بالطبع وجبة متنوعة ولذيذة... لدى كل فقير معدم!! ابتسم والد رديفة من كل قلبه... وقال:

- "هل طحنت جميع الحب".

- "نعم... ألست سريعة جداً".

-"بلى... أنت تماماً مثل أمك... يرحمها الله حين ذكرناها... ولكن لماذا لا تصنعين قعمتين أخريين... نأكلها في الطريق الطويل... ربما لن نقف لنشعل النار أو لنعجن ونخبز".

جالت الفتاة بخاطرها قليلاً... وهي تتذكر صورة أمها التي ماتت منذ عامين... بسبب الحمى الشديدة... وأحست بغصة ناشبة في صدرها... ولكنها قالت:

- "صدقت يا والدي".

درب صامت

الدرب تطويه أقدام الأغنام الهزيلة... وتطويه خلفها أقدام الشيخ العجوز وفتاة خيزرانية القوام... ولكن الأمل بالحصول على حياة أفضل يجعل الملل والسأم شيئاً اعتيادياً... بل ربما شيئاً ضرورياً... لكل من تسوّل له نفسه الطمع في حياة أفضل... والأغنام لا تحرم نفسها من أي فرصة تسنح لها في التهام نبتة أو ورقة يابسه... ورديفة يدغدغها الفرح كلما أدخلت يدها في الجراب... الذي تحمله تارة

على ظهرها وتارة تضعه على ظهر الخروف الأكبر... كي يساعدها في حمله... ثم تتلمس كرة الخبز... وتحلم في هدوء... وهي تتأمل أشعة الشمس الذهبية المتراصة على رؤوس الصخور السوداء... أنها تكسر من تلك الكرات كسرة صغيرة... ثم يمتد الأمل بها... فترى نفسها وهي تأكلها... وتتدلل في مضغها.

الطريق المتجه من قرى السودة جهة بيشة طريق منحدر... ولكن الشيخ معارض اختار السير بجوار وادي تانة... الوادي العملاق الذي تتهدج سيوله من أعلى قمم السودة حتى تصب في بيشة... ثم تتجاوز بيشة حتى تغوص في صحراء الربع الخالي... وخلال الطريق بدأ معارض يحكي لفتاته أخبار تلك السيول المدمرة... وكيف أنها في بعض الأحيان تفحش بهم... حتى تلتهم قرى بأكملها... ولكن السيول المدمرة لا تتهدج مع الوادي إلا كل ثلاثين... أو أربعين سنة... تماماً هي مثل الثلج الذي لا يهبط على هذه المناطق إلا كل خمسين سنة... مر الوقت بارتياح... وانقطع شيء من الطريق الطويل تحت الأقدام... وعندما حل وقت الظهر قالت رديفة:

- "لماذا لا نرتاح قليلاً يا أبي... ونأكل الخبز... وربما كان في الماعز شيء من الحليب... لقد أكلت عشباً كثيراً هذا اليوم".

- "أي عشب كثير أكلته يا بنتي... أنها لم تأكل سوى ما يسد أودها... ولكن... ومع كل ذلك أرجو أن يكون فيها القليل من اللبن... ثم إن علينا أن لا نتوقف إلا في المكان الذي نجد فيه الماء... كي نشرب منه وتشرب منه أغنامنا... أعرف رجلاً أمامنا... في قرية الملاحة... اسمه أبو كراب... سنشرب عنده... ونسقي مواشينا... وربما وجدنا عنده شيئاً من طعام وبعدها نرحل".

ابتسمت رديفة... لأنها دائماً لا تملك إلا أن تبتسم... وأي شيء تجده فتاة لا تطرد إلا اللقمة الصغيرة... تسد بها ثورة الجوع في أحشائها عندما يحدثها أبوها عن الطعام... ارتفع ثغاء الأغنام وهي تهبط بمحاذاة الوادي نحو قرية الملاحة... الوقت قارب الظهيرة... وحرارة الشمس بدأت تفوح من الأرض... لكن الشيخ

معارض وابنته رديفة يتخيلان الماء الذي سيطفئون به نار عطشهم قريباً... ويحول دونهم ودون الإحساس بالإعياء... قال معارض:

- "قرية الملاحة قرية مشهورة بمياهها... منذ خمس سنوات لم آت إليها... ولكن حتماً ستشاهدين مزارع الذرة... والتفاح الأخضر... وأشجار (الحماط) منتشرة في كل مكان... الناس في أعلى جبل عسير لا يزرعون سوى الشعير والقمح... ولكن كلما اتجهنا شرقاً يا بنتي تتنوع أصناف المزروعات... هناك الرمان و(الفركس)... وأيضاً يزرعون العنب... ولكنهم في سنوات القحط لا يهتمون بشيء اهتمامهم بزراعة الشعير... لأنه يحصد خلال ثلاثة أشهر من زراعته... ثلاثة أشهر فقط ثم يأكلون منه... أما القمح فهم في الغالب لا يهتمون به... ذلك أنه يحتاج إلى ستة أشهر حتى حصاده... وهذا كفيل بجعل الناس يموتون قبل الحصاد... ولكنني خائف يا بنتي... أخشى أن يكون الجفاف قد عم كل شيء حتى الملاحة... فالأرض هنا لا تنبئ بنزول مطر قريب".

- "وماذا سنصنع يا أبي لو لم نجد الماء في الملاحة".

- "لا تقولي ذلك يا بنتي... عندها سنهلك... ولكن الله سيلطف".

تتسارع الخطوات من خلف جبل (صعرور)... لقد أصبحت قرية الملاحة واضحة للعيان... إنها الباحة الكبيرة... التي لم تكن تعرف إلا بمزارعها الخضراء... وأوديتها ملتفة الأشجار... ولكن الفاجعة حلت على معارض... عندما أطل من بعيد... على تلك المزارع المتراصة... إنها مزارع الملاحة... وتبدو وكأنها قد احترقت بالنار... عيناه لا تريان مزارع... وإنما تريان قاعاً صفصفاً... أشبه بالبيادر الحجرية... قال معارض في شهقة:

- "يا إلهي... الملاحة جافة... هذا ما لم يكن بالحسبان... إنها والله السنة القحيطة... التي تقحط الناس بجفافها".

قالت رديفة في قلق.

- "لماذا لا نذهب إلى العم (أبو كراب)... لعلنا نجد عنده من الماء ما يكفينا".

استمر الركب في السير متجاهلاً خيبة آمله... حتى وصلوا إلى المنزل الحجري ذي الطابق الواحد... بدأ معارض يدعو بصوت جهوري:

- "أبو كراب... يا أبو كراب".

ردت امرأة في الأربعين.

- "أبو كراب غير موجود... مرحباً بالضيف... تفضل".

دخل معارض وابنته... كانت الخيبة مرتسمة على الوجه الحنطي المتعب الذي يحمله الشيخ... والوجه الشاحب الوردي... الذي تحمله رديفة.

- "أين صديقي أبو كراب يا حرمة الجار...".

- " لقد رحل... ألا ترى الدنيا... قد أحرقها القحط... لقد ذهب للحج... سوف يحج ويعمل طيلة طريق رحلته... الحج فيه منافع للناس".

- "والماء ما حال الماء في البئر".

- "الماء حاله محزن... نحن على حافة الهلاك... إن لم تنزل رحمة السماء".

- "والبئر؟".

- "البئر... البئر تملأ لنا القربة في الصباح... ثم لا تعطينا إلا قربة أخرى في اليوم التالي... حتى مواشينا هلكت".

نظر معارض إلى ابنته رديفة بكل أسى... وأغمض عينه في توجس ثم قال للمرأة:

- "هل نستطيع أن نشرب".

قامت المرأة وملأت لهم كوباً فخارياً صغيراً وهي تقول:

- "الله يسقينا ويسقيكم... الله يسقينا ويسقيكم ...الله يسقينا ويسقيكم".

شـرب مـعـارض نصف الكوب... وناول رديفـة لتـشـرب بقـيـة الماء... ولم يشأ معارض أن يسأل عن ماء للأغنام التي معه... ولكنه قال:

- "هل يوجد في (المحنية) ... ماء".

- "مـاء المحنيـة أكثـر جفـافاً من حلقك... عندما دخلت علي قبل قليل... هل أزيدكم ماء".

- "لا بأس... كوب آخر... الله يعوض عليكم".

- "لا يجب أن نبخل بالماء... ولكن كما ترى... هذه القربة أصغر من أن تكفي طيلة يوم كامل... الله يسقينا ويسقيكم... الله يسقينا ويسقيكم... الله يسقينا ويسقيكم".

شـرب الـوالـد وابنتـه... ثم انصرفـوا... كـانت الخـيبـة سحـابة مـرتسـمـة على وجوههم... ولكن رديفة قالت متفائلة:

- "ما هي المحنية يا أبي".

- "المحنيـة هو مكان التـقـاء وادي الحظـر بوادي تانه... عندهـا يكبـر الوادي... ويلتف على جبل (الرخمة)... الأشبه بجسم الأسد... ومنطقة التِفافه هي منطقة المحنيـة... إنهـا أرض مـباركه... لا ينقطع ماؤها... ويقـال إن الخضـر عليه السـلام طاف بهـا منذ أمـد... الله أعلم... المهم أن مـاءها العـذب أشبـه بالزلال... ولكن أخشى مـا أخشـاه... أن تكون المحنيـة جافه كمـا قالت المرأة... عندهـا لا أدري مـاذا سنفعل".

أطرق معارض برأسه... وبقيت رديفة تفكر فيما قاله أبوها... كانوا يسيرون... والأغنام تسير أمامهم... وبعد أن جاوزوا الملاحة الشمالية بقليل... بدت لهم مقدمة جبل الرخمـة الضخم... كان شاهقاً متـأهباً... وكأنه أسـد يريد الانقضاض... إنه منبسط من أعـلاه بطول (٥٠٠) متـر، ثم يأتي نتوء جديد بارتفـاع ٣٠ متـراً لأعلى...

تماماً هو كالأسد... اندهشت رديفة لرؤية الجبل المهيب... ولكنها على التو فكرت في المحنية... هل سيكون فيها ماء كي تشرب منه الماعز... وبعد قليل من السير نظرت رديفة جهة اليمين... وإذا بالقصور الحجرية ذات الطبقات الثلاث تجتمع في حيز صغير... وتمثل قرية محصنة إلى أبعد الحدود... قالت رديفة:

- "يا أبي... لماذا لا تذهب إلى تلك القرية... ربما وجدنا عندها الماء".

- "أوه قرية آل قَرَّانْ... حتماً سنعود إليهم... لو لم نجد الماء في المحنية... إنها قرية الفرسان الشجعان... كم سمعت عنهم من القصص الغريبة".

- "هل لهم قصة يا أبي... قلها لي كي ينقطع الطريق بسرعة... ونصل إلى المحنية".

الطريق لن يقطعه إلا قدميك يا رديفة... ولكن الأحاديث تساعدنا على نسيان خطواتنا... لقد بقي آل قَرَّان يحاربون البدو لمدة ثلاث سنوات... آل قران هم أهل هذه الديار... كانوا يمتلكون المحنية ويمتلكون ملتقى الواديين... وادي الحضر ووادي تانه... أما البدو فإنهم أهل أغنام جاؤوا من كل مكان... عندما نزلت الأمطار على حدود قرية آل قران... واستأذن البدو حينها في البقاء مع أغنامهم للرعي في أعالي وادي الحضر... ووادي الحضر هو وادي قرية آل قران... حيث ينشرون فيه أغنامهم للرعي... ويسقون من سيوله مزارعهم... إنه أرض محجوزة لهم من قديم الزمن سمح آل قران للبدو بالبقاء طيله الموسم... ولكن البدو تجهموا... وأرادوا أن يردوا الإحسان بالإساءة... لذا أعلنوا أنهم لن يرحلوا عما تحت أيدهم من الأرض... وأنهم أصبحوا مالكين لها رغم أنف الجميع... وصل الخبر إلى محمد أبو ثريا... كبير قرية آل قران... ويسمى حينها والد الجميع... مع أنه أب لبعضهم وعم لبعضهم الآخر... وابن عم للبعض الثالث... ولكن عمره وحنكته جعلته يحظى بتقدير الجميع... لقد ثارت دماء الغضب في رأسه كبركان... ثم أقسم أن يقص شعر رأس كبير البدو... الرجل الغليظ المسمى مطرود... وأن يحرق شعره، ويبخر بدخانه ذيل فرسه... نكاية وإذلالاً... وكان تعداد قرية آل قران

٧٠ فارساً... ولم يكن البدو بالعدو الهين... بدأت الحرب... وكان آل قران يهجمون على البدو نهاراً... ولكن البدو يعودون في الليل ويهجمون على آل قران... وهم في عقر ديارهم... وبدأت الخسائر تتفاقم لدى الطرفين... وذات ليلة أخرج محمد أبو ثريا رأسه من (الكترة) الصغيرة في حجرته... وإذا بالنار تلتهب... لم يكن ذلك اللهب إلا حريقاً أضرمه البدو... في حضيرة خيول آل قران... هرع محمد أبو ثريا إلى موقع الحريق... ويداه على رأسه... وسمع صهيل الخيول في الداخل... وأسرع جهة الباب ليفتحه... ولكن النار كانت على الباب... لقد التهمت الباب... ووضعت أمام الدخول سداً منيعاً... اتجه أبو ثريا جهة السقف وبدأ بمعوله يحفر ثم يقلع أخشاب السطح... حتى فتح فرجه كي يسمح للهواء بالدخول... ثم واصل كسر الجدار... وتوافد أبناؤه لمساعدته... وخلال لحظات قليلة... كانت الفتحة في الجدار كفيله بإخراج الخيل واحداً إثر الآخر... لقد مات الكثير من الخيول... ولكن الفرس ثريا لازالت على قيد الحياة... وهذا ما جعل أبو ثريا يجزم على البرِّ بيمينه... وتبخير ذيلها من ناصية زعيم البدو... كان البدو حينها قد أيقنوا أن خيول آل قران قد احترقت... وعزموا على الهجوم عليهم في الليلة المقبلة... لسحقهم عن بكرة أبيهم... إن لم يفروا من ديارهم بعد حرق خيولهم... ولكن أبو ثريا أحس بذلك... لذا جمع جميع أفراد قريته بعد صلاة الفجر... وقال لهم:

-"تعلمون أنه أصابنا من هؤلاء البدو نصب طويل... وتعلمون أن وادينا هذا هو وادي الحضر... وليس للبدو فيه أي نصيب... إلا ما جادت به نفوسنا عليهم... صدقة كانت أو هدية... ولكن أعمالهم الرعناء لم تتوقف... وأنتم الآن بالخيار... لقد قتلت أغلب خيولنا... وليس لديهم ما يشجعنا على غزوهم... ولكن لدينا ما يشجعهم على غزونا... وقد تكون الغزوات القادمة من صالحهم... هم يريدون منا أن نفر... أو أن نموت تحت سيوفهم... ومن أراد منكم أن يفر فله الخيار وله السلامة... ومن أراد أن يَقِرَّ هنا فأنا أول القارِّين... وسأقاتل من أجل مالي حتى آخر قطرة".

حينها تضافرت الأصوات.

- "كلنا قارين كلنا قارين".

قال الشيخ:

- "إذن نحن آل قرّان... وقرّان... حتى الموت".

ثم خرج أبو ثريا مهتماً وقال:

- "ليتبعني الفرسان... وكل من جاوز الخمس عشرة سنة".

في غضون دقائق... كانت أشعة الشمس تتسلل إلى القرية... وكان أبو ثريا يوزع الأدوار لخطته الجديدة... لقد قسم كل من حوله إلى أقسام ثلاثة... ثم أرسلهم جهة حدباء حمدان... وهي أرض جرداء في الجنوب من القرية... وعبرها يكون طريق البدو... وقِسمٌ من كبار السن... أرسلهم مع شروق الشمس جهة أعلى وادي تانه... والقسم الثالث أمرهم أن يستمروا في العمل داخل مزارعهم... كان البدو يراقبون كل ما يحصل... وقد كان على رأسهم زعيمهم مطرود... وكان بعض البدو يقول:

- "لقد فروا".

والبعض الآخر يقول:

- "لقد قرّوا".

وذلك لأن بعض البدو انتبهوا لمن رحل عن القرية... بأمر أبو ثريا فحسبهم جميعاً فروا... أما بعض البدو الآخر فقد لاحظوا المزارعين في مزارعهم، فقالوا إنهم قد قروا... ولكن أحداً من البدو لم يلاحظ من ذهبوا جهة حضن حمدان... وهناك كانت تكمن الخطة... ومع انتصاف الليل كانت خيول البدو متجه جهة القرية... لتقضي على ما تبقى فيها أو تسلبه وتنهبه... وقبل وصولهم للقرية بما يقارب ٣٠٠ خطوة... بدأت الخيول تختفي واحداً تلو الآخر... وبدأ الصراخ يعلو والدم يتناثر... لقد سقطت خيول البدو في الحفرة... وأصبح فرسانها كأعجاز النخل المنقعر... واجتمع فرسان آل قران وقضوا على الأعداء المنقعرين... وقال أبو ثريا:

- "خذوا خيولهم غنيمة بدل خيولكم... وادفنوا أجسادهم المنقعرة في هذه الأرض الحدباء... ولتبقى هذه (القعره) حفرة يعرف بها أبناؤنا... ويعرف كل الناس... مدى بأس آل قرّان"(١).

انتهت قصة معارض... التي عرضها على ابنته رديفة... وكانوا حينها قد شارفوا دخول المحنية... ولكن الجفاف أسبق إليهم من أي علامات المطر... كانت الأيدي على القلوب وكان الخوف باعثاً حقيقياً على توقع الأسوأ... وعندما وصلوا إلى المحنية ولم تكن المحنية سوى أرض قاحلة جافة لا توجد فيها قطرة ماء... وقفت رديفة بنت معارض ووقفت العنزات... وبدا كل شيء وكأنه هالك... قالت رديفة:

- "ما العمل يا والدي... كل ما منينا به أنفسنا أصبح سراباً".

- "لا تقنطي يا ابنتي... سنذهب إلى آل قران".

- "إن بيوتهم تبدو خاوية ... لا أظن ثمة شيء يوحي بحياةٍ فيها".

- "لماذا قلت هذا الكلام... لا تكوني يائسة".

- "انظر إلى مزارعهم... إنها أشبه بقطعة من صحراء".

- "ولكننا حتماً لن نقنط".

عاد معارض مع ابنته جهة قرية آل قران... وفي أسفل جبل الرخمة الأشبه بالأسد الرابض... سمع صوت عجوز وهي تصرخ... ذهب معارض مسرعاً نحوها... ولما رآها واضعة يداها على رأسها قال:

- "ماذا بك يا مرأة ؟".

- "وا حسرتاه ... وا حسرتاه".

- "ماذا حصل".

---

(١) لا زالت آثار (القعُر) الحفر في قصة آل قران موجودة حتى اليوم... وكذلك منازلهم ومزارعهم.

- "لقد مات آخر رجل من أسرة آل قران... إنه الجدري... حصدهم عن بكرة أبيهم... هلكت أسرة الشجاعة وأسرة الجود والكرم... جميعهم قتلهم الجدري... نعم... انظر لتلك الصّفة... إنها المحجر الذي بناها أبو ثريا رحمه الله... عندما بدأ الجدري في جسم ولده سبع... ومات سبع... ومات سبعون بعده... لم يبق أحد... إلا دبشي... دبشي الذي رحل جهة مكة... ولعله هو أيضاً مات هناك... وا حسرتاه".

- "وبقية أهل مصرة... ماذا حصل بهم".

- "مصرة... جُلُّ أهلها ماتوا... لم يبق من الأسر التي عاشت سنين هنا... في جود وسخاء... وعمروا وشيدوا... إلا أطفال أو شباب... لكنهم أشد ضعفاً أمام الجوع والمرض... فتيان نجباء... أوفيا... ولكن ...».

- «قولي لي يا عمتي... من بقي من فتيان القرية؟».

- «بقي خيرتها... لا تحزن يا دبشي... بقي فتيان فيهم الخير والبركة...

ذلك الفتى الشجاع... شظا... والفتى الحازم... عوخة... ومزهر... صاحب العقل اللامع والفتى الصالح... ابن الضبعة... صاحب العزيمة... وآخرون... وآخرون... ولكن... إيه... جميعهم يحملون بذور الخير لهذه القرية... ولكن... الجوع والفقر... ربما ليسوا بقادرين على مقاومة العناء الطويل... كلنا مساكين... الجوع كافر يا رجل".

وضعت العجوز يدها على رأسها... ثم أكملت صراخها... ثم قال معارض في حزن:

- " وأنت ماذا تفعلين هنا".

- "أنا هنا لأعالجهم... لقد أصابني الجدري ولم أمت فيه... لذا فإنه لا يصيبني".

- "ومياهكم ... هل بقي لديكم ماء".

- "لو كان هناك ماء لما مات الجميع... نعم... منهم من مات بالجدري... ولكن منهم من مات بالجوع والعطش... وبعد أن أصابهم الجدري لا أحد يزرع... ولا أحد يحفر الآبار... لقد انتهى كل الماء... حتى الآبار أصبحت مرتعاً للقطا".

- "إذن فجميعنا للهلاك".

- "سيكون دود قبورنا أكثر شبعاً منا".

امتعض معارض من هذه الكلمة ثم اتجه جهة كهف صغير... في أسفل جبل الرخمة... لقد عزم على البقاء هنا... فالأغنام لم يعد بوسعها السير في هذا الحر... دون ماء... ولكن العجوز صاحت به بقوة... وقالت:

- "لا تذهب للكهف... إنه مكان موبوء بالجدري".

ارتجت أطراف معارض... ولكن العجوز أردفت.

- "والجثث التي في دار الحَجْر... ألا ترى أن من الواجب عليك أن تساعدني في دفنها".

- "بشرط... أن تعطينا قليلاً من الماء... لي ولابنتي وللماعز".

- "أعوذ بالله... ما هذا الطمع... حتى دفن الأموات... تريد عليه أجراً".

- "ليس أجراً... ولكنه الخوف من أن أكون أحد المقبورين بجوارهم عما قليل... وأيضاً... فإن من الواجب عليك أنت إكرام الضيف... ولو بقليل من الماء".

- "سأسقيك من قربتي أنت والفتاة... أما الماعز فلها أن تعيش ولها أن تموت... لقد مات البشر من الظمأ... فلماذا تعيش هي إذن".

- "من أين تأتين بالماء يا امرأة".

- "من الحسوه في أعلى وادي الحضر... إنها حفرة بطول قامة الرجل... لم ينقطع ماؤها منذ ولدت... ولكن الناس الآن حولها أشبه بالنحل على الملكة... إن كلاً منهم يحمل قربته الصغيرة كي يملأها... وقد مُنعت المواشي من الشرب منها... الماء بالكاد يكفي للبشر".

صاحت رديفة من جوار إحدى الماعز:

- "أبي أبي... العنزة... سهبا... ولدت... لقد ولدت تيساً صغيراً".

لم يكترث الأب لهذا الخبر... لأن الماء هو الحياة... ودون الماء فالموت والحياة سيان... والولادة وعدم الولادة سيان...

البارود

أكمل معارض سيره نحو شجرة من أشجار العرين المرصوصة عبر وادي تانة كالعقد النحاسي القديم... ولم يسند ظهره على الحجرة الملساء... لأن صوت الدوي المخيف يرتج في أطراف القرية... ويرجع صداه هنا وهناك... انتفض قلب معارض ثم صاح للعجوز:

- "ما هذا يا امرأة".

أطرقت المرأة قليلاً تتسمع... ثم قالت باستغراب أكبر وقد وضعت يديها على أذنيها على شكل هلال لتسمع بطريقة أفضل.

- "الله أعلم... ربما قامت القيامة".

أما رديفة فقد احتضنت عنزتها من شدة الخوف... ثم لم تلبث أن أطلقت عنزتها وفزعت نحو والدها... وبعد لحظات قليلة تكرر الصوت المدوي نفسه... وبدأ الجميع يرتجفون... لكن الأغنام التي نفرت مسرعة تجاه لا شيء... كانت فقط تتحرك خوفاً... وكانت العنزة المولودة أيضاً من بين أولئك الفارين... غير أن جميع الأغنام توقفت فجأة... وبدأت في الثغاء بصوت حزين... قال معارض مخاطباً العنزة الصغيرة... التي ينظر لها من بعيد:

- "فلتموتي قبلنا... أيتها العنزة... لو علمتُ أن فيك لحماً لذبحتك... لكن البشر لا يأكلون العظام... حتى أمك وجميع الأغنام تحتاج عظامها ليومين على النار حتى تنضج".

ثم نظر جهة العجوز وقال:

- "هل تجيدين أكل اللحم نياً... أم أنك تفضلين أكل العظام النية".

قالت العجوز متصنعة أنها سمعت ما قال معارض... مع أنها لم تسمع السؤال جيداً:

- "هذا قرن الثور الذي يمسك بالأرض... لقد اهتز... أليس كذلك... الأرض مستقرة على قرن ثور كبير... وإذا تحرك الثور حدثت هذه الأصوات".

قالت الفتاه في انتباه:

- "الأرض على قرن ثور".

وحين لم يجبها أحد قامت منصرفة جهة عنزتها الصغيرة... التي لا زالت تصيح... وفي تلك الأثناء سُمع الصوت الرهيب نفسه... ولكنه في هذه المرة سمع بدرجة أقوى... إنه الآن يبدو عن قرب... مر وقت قصير وبعدها ظهر شاب لم يجاوز العشرين... كان يسير في ثقة وأنفة... ويحمل في يده عصا طويلة وغريبة... ومن أعلاها حديد ومن أسفلها خشب مفلطح ثم قال:

- "مرحباً بكم يا ضيوفنا... وأنت يا عمتي ... تعالي وخذي هديتك".

صاحت العجوز ودموعها تغطي عينيها:

- "دبشي... ابن أخي... أين كنت كل هذه السنين... تعال يا ولدي... كم أنا مشتاقة لك".

أقبل دبشي في تبختر... وهو يقول:

- "كيف حال أهلي ووالدي... لقد أتيت لكم بالسلاح الذي لا يقهره سلاح... إنه البارود... سوف يفرح والدي كثيراً... ولن يكون للبدو أي خطر على الحضر بعد الآن".

وصل دبشي لعمته في تلك الأثناء... واحتضنها وقبل رأسها ويدها... ثم دقق النظر في عينيها... ولكن الحزن بدأ يذرف مع دموعها شلالاً صغيراً قال لها في تعجب:

- "لماذا البكاء... هل أنت مريضة... هل أصابكم مكروه".

نظرت إليه في حسرة أليمة ثم قالت:

- "لا أدري ... هل أنا حزينة على ما حصل لأهلك... أم سعيدة لأنك قد أتيت... وأنت سليم معافى... قطب دبشي بجبينه شعوراً بالصدمة التي تنبأ بها قلبه... ولكنه رفع رأسه وملأ رئته بالهواء... ثم قال:

- "هو الطاعون إذن".

غمغمت العجوز... ووضعت كلتا يديها على وجهها... ثم قالت:

- "إنه الجدري... لم يبق من آل قران إلا أنت".

ثم انفجرت باكية... طأطأ دبشي برأسه... ثم جلس على ركبته وهو يقول:-

-"رحمهم الله... كانوا شجعاناً أشداء... وأهل كرم ودين... وكانوا لا يرضون القهر ولا الضيم... إنهم أشداء على الأعداء رحماء بينهم... قولي يا عمتي ماذا حصل بالبدو؟".

-"البدو حصدهم الجدري جميعاً... لم يبق منهم أحد".

-"الجميع يموتون... الطيبون والأشرار... ماذا حصل لأهل مصرة هل مات منهم أحد؟".

- "لم يبق إلا أطفال صغار... الموت كان عاماً".

قام دبشي في شموخ وصلابة... وهو يقول:

- "ولكن على عاتقي أنا... سأبني قرية آل قران من جديد".

- "إن الصابرين أجرهم على الله".

- "سأذهب جهة منازلنا".

في تلك الأثناء كانت الفتاة رديفة تقلب نظرها بين عنزتها وبين دبشي الفتى الشجاع... وعندما أعادت عينها إلى عنزتها للمرة العاشرة فاجأها أمر غريب... لذا صاحت.

- "العنزة... العنزة".

نظر دبشي إلى الفتاة بشيء من العطف... ثم انصرف جهة القرية وهو يفكر في المصيبة التي حلت عليه وعلى عائلته... أما الفتاة... فقد بقيت واقفة عند عنزتها المولودة... تمسح على رأسها وتنظر في قدمها المغروسة في الأرض... ثم تحاول سحب تلك القدم...

رديفة الآن تفكر وتفكر... كيف حصل هذا الشيء الغريب... كيف انغرست قدم العنزة في الأرض... الأرض ليست وحلاً... ولا يوجد فيها أحجار... هذا أغرب من الخيال... بدأت رديفة تزيل التراب... استمرت في ذلك حتى حفرت نصف شبر... ولكن رديفة بعد أن أنهت الحفر... فاجأتها تلك الخشبتين المتلاصقتين... واللتين عمل فيها الوقت عمله حتى تآكلتا مع منتصفهما... بدرجه تسمح لرجل العنزة الصغيرة أن تدخل ثم لا تخرج..

ماذا تحت الأخشاب

بدأت رديفة تدق بسبابتها على الخشب... كانت الدهشة تتسور عليها عقلها من كل جانب... ثم أخذت حجرة مستطيلة ومدببة... وبهدوء أدخلتها بين شقي الخشب... وبدأت تحرك الحجرة يمينة ويسرة... بدأ الشق يتسع بتأثير الحجرة... وبدا الأمل في نجاة العنزة يتضاعف... ولكن رديفة تتساءل... ما تفسير كل ذلك... حركات أخرى تقوم بها رديفة بكل جهدها... وتنفرج الخشبتين... وأخيراً ها هي تلك العنزة الصغيرة قد تحررت... رديفة متجهة بكل عقلها نحو هذا الشق الموجود في الأرض... إنها قلقة بشأنه... هل هو يا ترى جحر أفعى... أم جحر فأر... أم أنه شيء آخر... ولكن يا ترى... ماذا يعني هذا الوضع المنتظم للخشب... إنه يوحي بأن يداً آدمية قد عملت كل هذا... أدخلت رديفة إصبعها في ذلك الشق... لكن دون فائدة ... اقتربت بعينها لتنظر... أيضاً ليس ثم فائدة... أخذت رديفة عودا بطول ذراع... وأدخلته في الشق... ولكن الشق التهمه... ولم يصل العود إلى نهاية ذلك الشق... ما الأمر يا ترى... أخذت رديفة حجرة صغيرة... وألقتها في الشق... ثم

اقتربت بإذنها كي تسمع... لم تسمع شيئاً... دققت السمع... لا شيء... ولكن يبدو أن الحجرة لا زالت تهوي... هذا ما زاد الدهشة لدى رديفة... وبعد وقت قصير ارتطمت الحجرة بالماء... ما هذا الصوت... إنه أشبه بصوت الحجرة عندما تلقى في البئر... أخذت رديفة حصاة أخرى... وألقت بها مع الثقب... ثم انتظرت قليلاً وهي تتسمع... إنه بالضبط ما توقعته... هذا الثقب يفضي إلى الماء... مشاعر مذهلة من الفرحة والذهول فرضت ذاتها على العقل الحائر... أحست رديفة بشيء من الجنون أو الغباء... هل يمكن أن تُحفر البئر هكذا... بظلف عنزة... لم تملك الفتاة إلا أن رفعت عينيها للسماء... ثم قالت تخاطب ربها:

- "هل بالفعل رزقتنا يا الله".

أعادت رديفة النظر مع الشق... ثم أدخلت أنفها وبدأت تشم... إنها رائحة الماء... لحظات حالمة... وبعدها صاحت الفتاة الظامئة... بأعلى صوتها وهي تتجه مسرعة نحو والدها:

-"الماء... الماء... لقد وجدت الماء".

سمعها والدها الذي يجلس على بعد خطوات منها... كان يراقبها وهي تلعب... لم يشأ أن يفسد عليها لعبتها وهي تحفر... لقد رآها وهي تضع العصا أو ترمي الحصى... حتماً سيُنسيها اللعب معاناة العطش... أو الخوف من المستقبل... ولكنه ابتسم عندما سمعها تقول:

- "الماء ...الماء".

وقال في نفسه:

- "مسكينة هذه الطفلة... أوه يال عنائها... إنها تسلي نفسها بالأوهام".

ولكن رديفة صرخت ثانية وثالثة... وقالت في فرحة:

- "تعال يا أبي... هنا بئر عميق... لن نموت من العطش... تعال يا أبي هيا تعال".

هز الأب رأسه ثم قال:

-"تعالي يا ابنتي... العبي هنا في الظل... الشمس ستؤذيك".

ولكن رديفة استمرت في صراخها... كانت متجهة نحوه... ومرة تسقط ومرة تقوم... وهي في أثناء ذلك تقول:

- "تعال يا أبي... أنا لست أمزح... لقد استجاب الله دعاءك... هنا ثقب بئر".

- "ثقب بئر!!! ما هذا الكلام... وهل تحفر الآبار بالثقوب... الله المستعان... أرجو أن لا يكون الجوع قد أصابك بالصفار".

ثم قام الأب مهتماً... وسار مسرعاً حتى وصل إلى ابنته التي توقفت منذ قليل... بعد أن سقطت من السرعة... وبعد أن ساعدها... وقفت على قدميها في ثقة... ثم سحبته نحو حفرتها... سار معارض خلف ابنته لا يلوي على شيء... وعندما رأى الحفرة الصغيرة تمالكته الحيرة... ثم دقق النظر فيها بقلق... ولكنه دهش عندما رأى ذلك الشق الصغير... سألها:

-"ما هذا يا رديفة... هل هنا ثعبان".

- "كلا كلا... إنها بئر في الأسفل... يوجد الكثير من الماء".

تقدم معارض... وبدأ ينظر مع الثقب... ثم ألقى بحصاة صغيرة وهو يعالج دهشته... مر وقت قصير... وبعد ثوان قليلة... سمع دوي الحصاة في الماء... ثم صرخ في جنون أشبه بجنون ابنته الذي حل عليها منذ قليل.

- "هذا هو الماء... حمداً لله... حمداً لله... إنه لا ينسى عباده".

نظر ساعتها لابنته في حب ثم أردف... بعد أن ضمها لصدره في حنان.

- "إنك فتاة مباركة... يا رديفة".

لم يكن من العجوز المنسجمة مع وحدتها هناك... إلا أن تأكد لها أن الرجل وابنته قد أصابهما المكروه... لذا قامت من مقامها وجاءت نحوهم وهي تضرب إحدى يديها بالأخرى... وعندما وصلت إليهم... نظرت في وجوههم... ثم نظرت

في الشق... ودققت فيه النظر... وبعدها تنهدت في سعادة... وجلست وهي تقول في هدوء وثقة:

- "إنها بئر هلالية... بئرٌ هلالية... لقد وجدتم بئراً هلالية".

ضمت العجوز ركبتيها بهدوء ثم أكملت كلامها.

- "هذه البئر... حفرت منذ أيام بني هلال... إنها آبارهم التي ساعدهم الجن في حفرها... ماؤها لا ينقطع أبداً".

قامت العجوز... وعندما أطلت على الحفرة الصغيرة... ورأت الخشب قالت تكمل حديثها:

- "الحمد لله... هذا ما كان ينتظره الأجيال وراء الأجيال... لقد أخبرني أبو ثريا أن هذه الأرض أرض مباركة... وأنه سكنها الخضر عليه السلام... ثم سكنها بنو هلال... لقد حفروا فيها آباراً عديدة... ولما حصدتهم الحرب وعزموا على الرحيل سقفوا آبارهم بالأخشاب... ثم دفنوا أسقفها... كي لا ينال منها العدو مأربه... كانت هذه القرية هي مصرة الصغيرة... كان ذلك في أيام بني هلال... وكانوا يقولون:

- "إن مصر فيها واديان يلتقيان... نعم... وهنا في قرية آل قران واديان يلتقيان... لم أعد خائفة... سيعود آل قران من جديد... فها هو دبشي عاد... وها هو الماء وجد... الحمد لله... الحمد لله".

بدأ الشيخ معارض في إبعاد التراب عن الخشب المرصوف فوق البئر... بكل فرح... ولكن جاء من هناك تحدوه الحيرة والتوتر... ذلك الشاب الفتيّ... دبشي... استقبلته العجوز في فرح أخاذ... وعرضت عليه كل تفاصيل القصة... كان دبشي حينها ملهوفاً بتذكر كربه العظيم... في هلاك أسرته... ولكن سُرِّي عنه قليلاً بمعرفته لقصة الفتاة وعنزتها... وكيف أنها وجدت كنزاً هو أثمن من الذهب... إنه الماء... ثم قالت العجوز:

-"هيا... هيا يا دبشي... ساعد عمك الشيخ في كشف البئر".

ابتسم دبشي... وتناسى همومه... وانطلق جهة البئر... وبدأ في الحفر... كان ساعداه القويان يبرزان مدى قوته... وكان شاربه المقصوص من جهة فمه والممتد من طرفيه إلى لحيته يلمع مع أشعة الشمس... ولحيته الطويلة من الذقن والقصيرة من العارضين توحي بنبل كبير... وكانت بداية حاجبيه المتصلين من أعلى الأنف... واللذين ينفران من طرفيهما لأعلى... إيذاناً بقوة الشكيمة... وعصابة دبشي التي لا تعدو كونها شقيقاً صغيراً يلف رأسه مع شعره المجدل للخلف... بجديلتين قصيرتين بعض الشيء... وكلما حفر قليلاً مسح جبينه العريض و أغمض عينيه ثم قال منشداً:

-"رد المراكب يا كتاب المحـــاديب أرض ذراها الغيث تورق صحاريها

عيني من الونات تحفر سراديب واذني بعد فرقـــاه حنت لطاريهـــا"

في تلك الأثناء كانت رديفة ذات (١٣) عاماً تنظر بكل إعجاب لهذا الشاب الفتي... وتوغل بأفكارها في نشيده العذب... لذا جلست قبالته... ووضعت يدها تحت خدها... وفغرت فاها وهي تتأمل... لم يدم صمتها ذاك... لقد أنشدت بصوت عذب منخفض... وكأنها تناجي نفسها.

- "ليل الشتاء إن طال طالت مساريه وعين تشوف الهم تظهر مواريها"

رفع دبشي رأسه... ثم ألقى بنظرة بريئة على الفتاة... وقال بصوت طويل:

- "تظهر مواريـهـا".

أعاد دبشي عينيه إلى مكان الحفر... ولكن صورة الفتاة ارتسمت في ذاكرته الآن... لقد نقشت صورتها على ذهنه... أشبه بالنقش على الصخر... مكث الفتى قليلاً يتأمل... ثم رفع أول خشبه من على سطح البئر... وأعاد النظر إلى رديفة وقال:

- "سلمت يا فتاة .. أنت سيدة هذا المكان".

طأطأ دبشي ظهره ثانية... كي يكمل نزع بقية الأخشاب... وعندما انتهى قال:

- "أول من سيشرب من ماء البئر... أنت يا الفتاة هذه بئر رديفة[1]".

نظرت رديفة إلى دبشي بإعجاب أكبر... ثم نظرت إلى والدها فأحست بالخجل... ثم ذهبت خلف عنزتها... ولكن والدها قال:

-"تعالي بالأغنام يا رديفة... سوف نسقيها الآن".

قلب دبشي بدأ يرقص... هذه الفتاة مؤدبة أفضل الأدب... وهي ذكية ونبيهة... وتخدم والدها بكل جد... إنها تستحق أن تكون أميرة هذا الوادي... وتستحق أن تكون أماً للأبطال الجدد... من آل قران.

(١) بئر رديفة موجودة حتى اليوم في قرية مصرة (مسلت).

الفصل السادس

ليلة من ليالي دورين موند

صبي لم يجاوز السابعة عشرة... يحمل المعول ويهوي به بأقصى قوته... ثم تتفتت قطع الفحم الحجري تحت ضربات معوله... إنه صامت صمت الأحجار... ولا ينبس ببنت شفة... وكأنه لا يجيد سوى هز الرأس... بنعم أو لا ... مع كل أمر يصدره إليه المهندس شوماخر.

العمق هنا يزيد عن ١٥٠متراً... والعرق يتصبب أشبه بصنبور... ولكن سرعان ما يختفي العرق المتساقط بين كسر صغيرة من الفحم.

والظلام الدامس يمتلك كل شيء... ولا يبدده سوى النور المثبت في قلنسوة كل عامل... ومع انسجام عمال المنجم مع نغمات معاولهم... يبدؤون في هز رؤوسهم.

وبعد ست ساعات من العمل... يتسارع العمال بإلقاء أجسادهم على الأرض... لأن وقت الطعام قد بدأ... وسرعان ما ينتهي وقت الطعام... بمجرد انتهاء الطعام البارد الذي تحويه آنية النيكل الصغيرة.

الملفت في الأمر... أن ذلك العامل الصغير... لا زال لغزاً محيراً... تُغرس أوتاده بحدة... في عقل المهندس شوماخر... ولعل السبب يكمن في صمته الأشبه بالخرس.

بدأ الصبي في ثقب سقف النفق... الذي انتهت معاول الحفر منه آنفاً... عليه أن يثبت في السقف عشرة مسامير... يصل طول كل منها إلى متر... وعليه أن يكون حذراً من الانهيار... إنهم كثر أولئك العمال الذين كتب أمام أسمائهم (مات في الانهيار) في لائحة استلام الأجرة... لا يريد هذا الصبي أن يموت هنا... يمكن للإنسان أن يموت بأمان في أي مكان... ولكن هنا سيكون الموت بشعاً إلى أقصى درجات البشاعة.

سحب الصبي سرواله الداكن إلى أعلى... لأن السروال لم يعد قادراً على التشبث بخصرٍ أكثر شبهاً بعصاً رفيعة... بعد أن زالت كل نتوءات الشحم... جميع العمال أصحاب الوجوه الحمراء والعيون الزرقاء ينظرون باحتقار إلى هذا الصبي... بسبب لون بشرته... ولكنهم سرعان ما يشفقون عليه... بمجرد تحريكه ليديه وفمه... مقنعاً إياهم أنه أبكم لا يتكلم... وأنه غير قادر على السمع بدرجة كافية.

وأخيراً أقنعهم بإيماءات بسيطة... أنه مجرد لقيط... وأن والده كان ألمانياً... أما أمه فقد كانت إفريقية... ولهذا السبب كان لونه حنطياً... لقد ترك والده والدته بمجرد معرفته بأنها حامل... وأما والدة الصبي فقد تركت طفلها عندما علمت أنه أصم وأبكم... وهكذا اقتنع الجميع... بأن الواجب يحتم عليهم رعاية لقيط رمته الأقدار في دنيا متلاطمة.

يقضي الصبي ليلته كاملة في الغرفة التي تخصه مع أربعة من العمال الآخرين... وغرفتهم تلك تقع في مكان يبعد ثلاثة كيلو مترات عن المنجم... العمال يذهبون بعد تناول عشائهم لقضاء سهرات مثيرة... ينفّسون بها عن أنفسهم ضغوط ساعات العمل... أما الصبي فيبدو عازفاً عن كل مظاهر اللهو واللعب... الشيء الغريب أنه عازف حتى عن صناعة علاقة حالمة... مع فتاة في عمره... يراقصها وتراقصه... ويشرب معها حتى الثمالة... وهذا الشيء لا يكاد يصدقه أبداً... من يستمتع بليالي برلين الحالمة... والأغرب من ذلك... أن هذا الشاب يبدو عازفاً حتى عن مشروبات الشامبانيا المعتقة... التي تغص بها سراديب الليالي الحمراء... في

مدينة الشباب الصارخة... دورين موند... ويحاول إقناع الجميع أنها لم تدخل جوفه قط... الخمر والجعة... أوه... لا يأبه بها... ولا يلقي لها بالاً.

و كلما ذهب أصحابه إلى سهراتهم الليلية... يلقي بنفسه في فراشه... ويبدأ في التأمل... وبمجرد ما تغفو عيناه قليلاً ينتفض... أشبه بالملدوغ.

جميع أصدقاء الفتى يتساءلون باستغراب... عن مدى بشاعة حياته... ومدى تعذيبه لنفسه... إنه أشبه بميت بين الأحياء... وكلما تساءل أصحابه أمامه عن إمكانية وجود سر دفين في طيات صدره... يسارع في تبرير ذلك بقلق واضح... يترجمه على شكل حركات يديه ووجهه... ولكن سرعان ما يتوقف عن إكمال تلك الحركات.... ويكتفي بإخراج نبرة صوته الوحيدة... الأشبه بنطق حرف الألف.

وعندما يلحون عليه في الذهاب معهم في سهراتهم... يبدأ بحركات معينة... ويحاول من خلالها إقناعهم أنه يكره النساء... لأن وجوده في الحياة كان بسبب نزوة والده الأبيض مع أمه الزنجية... إنه يكره النساء... وأيضاً يكره الجنس.

مُدنٌ حمراء

وفي تلك الغرفة الصغيرة... وبجوار سرير الصبي الخشبي يوجد رف صغير يحوي روايات قديمة للأديب العظيم جوهان فلفجاغ... وبجوار الرف الصغير من الجهة الأخرى يقبع السرير الأكثر أناقة... والذي تتعلق فوقه صورة زيتية لأزهار أنف العجل... ذات اللون الأحمر المائل للصفرة... وبجوار الصورة يقف تمثال رخامي لفتاة مبتسمة... قد رفعت يديها العاريتين لأعلى... واقتربت بأنفها من الزهرة...

صاحب السرير يسمى بارِيخ... إنه شاب حالم... يحب أن يستمتع بكل مفردات الحياة... صحيح أنه عامل حفر في أحد مناجم الفحم... ولكن العمل يبدو لديه ممتعاً... وتبدو سهرات الليل أكثر إمتاعاً... وصديقاته يستمتعن بالبقاء معه... ويقدسن فيه جماله الساحر... وروحه المرحة... كل ذلك زاد من قدرته على اختراق

جدران قلوبهن... إنه مذهل كلما استخدم جرأته... المحاطة دائماً باللطف والحذر... بإريخ أسطورة في عالم الفتيات... وخاصة الفقيرات منهن... تلك الفتيات اللواتي يعاودن ارتياد الكازينوهات في ليالي مدينة دورنيمون الحمراء... ربما للمتعة... وربما لكسب شيء من المال... سواء ببيع بعض الحلوى... أو التعرف على رجل ثري.

وليالي مدينة دورينمون ليست سوى بار كبير... فهي تعج بكل ألوان الحياة العصرية... والمصانع جعلت من السكان آلات متحركة طيلة النهار... وعند نزول الليل تبدأ الأنوار الحمراء تنبثق من كل وكر.

لقد قارب الوقت الآن... على دحرجة عقارب الساعة الكبيرة... في نهاية شارع بيتورونميو... كي تحط خلف منتصف الليل... وهذه الليلة هي إحدى ليالي الآحاد المقدسة... عند الجميع.

يشرد بعيداً عن العالم

بدأ الباب الخشبي المقفل يبعث بصوت ارتطام أصابع بإريخ عليه من الخارج... وبسرعة فتح بإريخ الباب... بعد أن طرقه طرقات سريعة... لم يكن في داخل الغرفة سوى الصبي الذي يقع سريره بجوار سرير بإريخ... والذي لم يفصح عن شخصيته حتى الآن... كانت طرقات بإريخ على الباب في هذا الوقت أشبه بطعنات السيف على قلب الصبي... والسبب في ذلك... هو كون الصبي... في وضع غريب... ولا يجب أن يراه أحد عليه... لقد كان جالساً مستقبلاً الجدار... وكانت ركبتيه مثنيتين... بحيث تتلاصق فخذاه بساقية... وربما كانت كفاه مرتفعات للأعلى... ويبدو لمن يراه أنه خاشع قد تعمق في رياضات اليوجا.

انصرف الصبي عن أعماله تلك بسرعة مذهلة... بمجرد شعوره بوجود شخص عند الباب... وتسارعت في قلبه دقات أشبه بالألغام المتتالية... ووجَّه وجهه جهة الباب... وجهة الداخل الجديد بإريخ... كم كان وجهة باهتاً... وكم كانت عظام

وجهه بارزة... لدرجة أن أَعْظُمَ عينيه توهم من يشاهده فجأة... أنه أمام شبح خرج لتوه من مقبرة... ولكن سرعان ما رسم الصبي على وجهه بسمة كاذبة... أراد أن يخفي بها متاهات الحزن والألم... المتفاعلة في أغوار وجدانه... لم يكن بإريخ المحنك جداً... والخبير في تقلبات الوجوه... بقادر على تجاهل كل ما يرتسم على وجه صبي مسكين... لا يستطيع بأي حال أن يخفي معالم براءته... عوضاً عن معالم توتره.

تقدم بإريخ حتى وقف قريباً من الصبي... ثم جلس مقابلاً له في شيء من العفوية... وفرد ابتسامة عريضة على وجهه... كم تحركت خوالج الرحمة والشفقة في قلب بإريخ... عندما رأى دمعةً متكورة في إحدى محاجر عيني الصبي... مدَّ بإريخ في هدوء يده... ثم فرد جبينه في دعابة... و مسح دمعة الصبي وابتسم له قائلاً:

- "يجب أن تعيش... نعم يجب أن تعيش... حتى لو لم ترد ذلك... فإنك حينها ستعيش رغم أنفك... الحياة هكذا... لقد وجدنا فيها لنعيش... ولكن علينا أن لا نحزن... عجلة الحياة مستمرة... وهي دائماً تدور... وجميعنا سندور معها... ولكن الشيء المهم الذي علي أن أذكرك به هو أننا يجب أن نَبتلع كل متعة تصادفنا... لأن عمرنا أشبه بعمر الزهرة... وعندما لا تشم الزهرة وهي نضرة فحتماً لن تشمها بعد أن تذبل... أليس كذلك يا صغيري".

لم تكن قسمات وجه الصبي متفاعلة كما يجب مع هذا الكلام المنمق... وفي النهاية أشار الصبي إلى بإريخ بعد أن نكس رأسه... لقد استطاع أن يوصل له رسالة صغيرة... لقد شار إلى فمه وأذنه... كي يخبره أنه لا يسمع ... ولذلك فهو لم يفهم شيئاً مما قيل... أصيب بإريخ بشيء من خيبة الأمل... ولكن سرعان ما لمعت عينا بإريخ... وعزم على التحدي... بإريخ يعشق التحدي كما يعشق الحياة، لقد قرر الدخول لأعماق هذا الصبي الأخرس... الأصم، ولكن لا عن طريق الكلام و إنما عن طريق الفعل... غمز بإريخ بإحدى عينيه... ثم بدأ يتمايل برأسه يمنة ويسرة... ثم مدَّ صوته بنغم طويل أخرج معه لسانه الأحمر... وأخيراً قام من

مكانه... وبدأ في الرقص في منتصف الغرفة... إنه يرقص في شبه هستيرية... ويشير بأصابعه لأماكن حسَاسة في جسده... وبعدها انفجر بالضحك.

الصبي الجالس لم يكن غبياً... لقد بدأ يفهم كل ما يدور حوله... وأيضاً كل ما يدور في ذهن بإريخ... ولكن الصدمة التي ارتطمت بجدار قلبه الصغير كانت مذهلة جداً... لأنه اكتشف لوناً من ألوان الحياة لم يكن يحتل مكاناً في ذهنه المكدود... من قبل... ولكنه لا زال يدخل في ذهوله كلما سأل نفسه... هل يستحسن الناس حياة منمقة بهذا اللون... وهل الجميع يحسبونه لوناً جميلاً... لتوه الصبي رآه أشد قبحاً... لا يوجد مبرر واضح لدخول الصبي في دوامة من هذا النوع... خاصة في مجتمع عمال المناجم... المجتمع الذي لا يستهجن كثيراً مما قام به بإريخ... رقصات بإريخ كانت مدللة تدعو لممارسة الجنس... ولم يكن الجنس الذي تدعو له سوى الجنس الشاذ... الشذوذ الجنسي شيء اعتيادي بالنسبة لبإريخ... وهو الشيء الذي أراد بإريخ أن يُخرج بواسطته كل هموم الصبي الكئيب.

ولكن عيني الصبي الموغلتين في النظر للأرض... كانتا تنظران للحياة بطريقة أخرى... غير تلك التي ينظر بها بإريخ... ذلك لأن نظرة بإريخ للحياة أقرب لمداعبة الحواس الجسدية منها لنظرة متعمقة في الروح والمشاعر... إن نظرته المقدسة للجسم تجعله يؤمن بأن الإنسان كلما متع مفردات جسمه... خرج من همومه... لم يشأ بإريخ أن ينظر للصبي نظرةً فلسفية روحية... بقدر ما تعمد أن ينظر له نظرة حسية جسدية... لكن الحقيقة الغامضة في أعماق الصبي تشير إلى كمونٍ رهيب لثورةٍ أكثر رهبة... داخل وجدانٍ يحمل سراً تُقفِل جوانبُه جميعَ أدوات الصمت... لا أحد يستطيع أن يبتسم... لأن الصبي صرخ بأعلى صوته قائلاً:

- "لا... لا...".

لم يكن نطق الصبي لهذين الحرفين يمت أبداً لنطق الأخرس... إن اللسان الذي لم يكن يُجيد سوى حرف الألف أخرج الآن حرفين أكثر وضوحاً... ولكنهما أبعد ما يكون عن لغة "بإريخ " الألمانية... إنهما أشبه بأحرف الطلاسم بالنسبة

لبإريخ... الذي بدأ يسبح في حيرته... ولكن يبدو أن الحرفين يمثلان شيئاً هاماً لهذا الصبي... الذي تحول الآن إلى سرٍ كهل...

استمر الصبي يصرخ لعدة لحظات... ولكنه سرعان ما عاد لرشده من وجهة نظر بإريخ الصامت... وعادت لجسده جميع عناصر الهدوء... وسرعان ما لاحظ علامات الدهشة والاستغراب ترتسم على وجه بإريخ... الذي ثارت فيه الدماء حتى كسته باللون الأحمر... شعر الصبي أنه قد خرج بشكل صارخ عن خط السير الذي خطه لنفسه من قبل... مع جميع أصدقائه... إنه أبكم لا يتكلم... ويجب أن لا يتكلم أبداً... أما السؤال عن كونه أبكم بالفعل... أم أنه قادر على النطق... فهذا أمر آخر... المهم أن عليه الآن... أن يكمل خطوات سيره في الطريق نفسه الذي طرقه من قبل... وعليه الآن أن يخرج نفسه من متاهات عقل "بإريخ"... الذي بدأ يشك في كنه هذا الصبي وحقيقته.

وبعد تفكير قصير نكس الصبي رأسه... وبدأ يشير إلى مواقع معينه في جسمه كي يوصل إلى بإريخ حقيقة أخرى... فهو لا يستطيع أن يفكر في شيء من هذا النوع... أراد أن يقول... إنه ليس أبكم و شبه أصم فحسب... بل وهو أيضاً ناقص في رجولته... هكذا أوصل الصبي رسالته إلى بإريخ... وهكذا فهمها بإريخ... لقد أحسَ بإريخ أنه أصبح صغيراً وقزماً في عيني الصبي... كل حركاته ورقصاته لم تكن سوى خناجر مسمومة تدخل في وجدان صبي محروم... كم كان الصبي يحتقر هذا البهلوان...؛ لأنه يذكره بعجزه ونقصه... توغل بإريخ بعقله في عيني الصبي... وهو يتأمل... ربما كان هناك الكثير من الأشياء الجميلة في الحياة... والتي تدخل السعادة على الكثيرين ممن يحرصون عليها ويستطيعون تحصيلها... ولكن تلك الأشياء الجميلة بعينها... تدخل الكثير من الحسرة والألم... على نفس كل من يراها ثم يتمناها... ولكنَ حِبَالَ عجزه عن تحصيلها تجعله يكرهها... أو يصورها لنفسه بأبشع صور القبح... بإريخ بدت له الصورة التي كان الصبي ينظر بها إلى رقصاته... إن ذلك الشيء الجميل لدى بإريخ لا يمثل للصبي سوى الغثيان

والتقزز... نظر باريخ لعيني الصبي ثم ابتسم في وجهه بحنان... وقبله بين عينيه وقال له:

- "هيا... عليك أن تنام".

هزَّ الصبي رأسه... وأمال ظهره كي يدخل في نوم عميق.

يوم من أيام الصبي

الشمس ذهبية فاقعة... أشعتها كأساور من ذهب أحمر... مُلقى في عفوية ساحرة... على صدر حسناء فاتنة... وخيوط أشعتها ذهبية أيضاً... والصباح ينعكس على إحدى ضفاف نهر الراين كلؤلؤ ساحر... وأشجار الصنوبر تتعانق مع المروج الخضراء... لتبعث رسالة حب إلى الصبي الذي يسير مع ساعات الصباح الأولى... إلى عمله في المنجم... والطريق مكتظة بالغادين والرائحين... وعربات الخيول تسير مسرعة... وتهزٌّ من بداخلها كي يشعر بالكبرياء... لأنه لا يسير على قدميه... ومع طقطقة حوافر الأحصنة القوية... ينظر الصبي بإحدى عينيه إلى الشارع الممتد... ويواصل السير على قدميه... إنه يتأمل على عجل تلك المقاهي والخانات... المكتظة بالسلع وبالناس... ثم يركز النظر في الكنيسة الممتدة بصومعتها إلى الفضاء البعيد... الصبي لا يهمه أبداً... هل أولئك الداخلون مع أبوابها بروتستنت أم كاثوليك... مع أنه سمع مرة من باريخ... أن البروتستنت يمثلون ٤٥٪ من المسيحيين... وهم من أتباع الفيلسوف لوثر... أما الكاثوليك فهم ٤٠٪... وعندما تساءل الصبي عن ديانة المسلمين... وحرك يديه بإشارة "الله أكبر"... ضحك باريخ... وقال:

- "أوه... ربما قصدت.... المسلمين... ربما كانوا فقط ٢٪".

الصبي لا تهمه المذاهب و لا الكنائس... ولكن ربما لاح بخلده مرة من المرات أن يعرف الكثير عن أناس من البشر يقال عنهم الأنبياء... إنهم كثر، ولكن المهم لديه ذلك النبي العربي... وذلك الدين الذي يتبعه الكثير من أهل الشرق... أولئك الذين وصلوا

بحضارتهم إلى قلب إسبانيا... لقد رأى الكنائس كثيراً... ولكنه الآن يريد أن يلقي بصره... ولو مرة واحدة... على معبد من معابد أتباع النبي العربي... إنه يغمض عينيه بهدوء... ثم يصنع في ذهنه صورة مئذنة لمسجد يتيم... أوه إن ذلك لم يحصل.

بدأ الصبي يسرع في سيره... محاولاً تناسي كل أفكاره... نظر الصبي للشمس في توتر... لقد تأخر هذا الصباح عن عمله... وحتماً سيُمنح عقوبة معينة... ربما سيخصم من راتبه... أو سيكلف بعمل إضافي... مرت الدقائق بسرعة... ووصل الصبي إلى موطن العمل... هنا لا شيء سوى العرق والجهد المتواصل... وقّع الصبي بصمته في أوراق الدوام... واتجه نحو "شوماخر" المهندس ذي السلطة والكبرياء... شوماخر أشبه بنحلة طنانة... إنه أبداً لا يجلس ولا يحس بالكسل... هو يتنقل بين الممرات... سائراً على قدميه أو راكباً في العربة الحديدية السائرة على سكة الحديد الصغيرة... وهو يتلمح دائماً... ويرصد كل الحركات والسكنات.

معمل الفحم هنا أرضي... وله مدخل ومخرج هما عبارة عن فتحتين في اتجاهين مختلفين... وتلك الفتحتان تساهمان في تجديد الهواء... وفي سهوله إخراج الفحم... وإدخال العربات والعمال... وهذا هو حال المناجم الأرضية في الغالب ... هذا المنجم أشبه بكهف كبير... ارتفاع المنجم من منتصفه يبلغ (١٠) أمتار، وقطره (٣٠) متراً، وهو مستطيل الشكل... وفي جوانبه تبدو الكهوف الصغيرة ذات الارتفاع لمتر أو مترين... وسرعان ما يواصل العمال الحفر في هذه الكهوف... حتى يصلوا إلى كمية الفحم التي يمكنهم إخراجها... وينتقلوا تلقائياً أو بأوامر شوماخر إلى كهوفٍ أخرى... كم يتمنى الصبي أن يُكتب له حظ أوفر وينتقل من عمله في هذه المناجم الأرضية... إلى العمل في المناجم السطحية... التي تعد بالنسبة للمناجم الأرضية أشبه بالجنة... إنها المناجم التي لا يكون بعد الفحم فيها عن سطح الأرض سوى عشرة أمتار أو أقل... ويسهل الحفر حتى الوصول إلى الفحم وإخراجه دون الحاجة إلى كهوف أو مسامير لتثبيت سقوف الكهوف كي لا

تنهار... أيقظ الصبي السارح... الذي وصل لتوه بعد رحلة طويلة على قدميه... تلك الصرخة التي أطلقها شوماخر الواقف هناك كالطود.

- "لماذا تأخرت ؟".

أشار الصبي جهة رأسه ليخبر شوماخر بأنه كان مريضاً... لم يشأ شوماخر أن يصدقه... لذا قال:

- "عليك أن تبقى هذه الليلة هنا... عليك أن تعمل لمدة ساعتين إضافيتين بدل ما أضعته من وقت".

تقدم شوماخر حتى أمسك بيد الصبي... ثم سحبه حتى وصلا إلى أحد أنفاق المنجم الصغيرة... وقال له:

- "هذه الليلة تحفر في هذا الكهف... عليك أن تحفر في عمقه مترين... انتبه من الانهيار... الجأ لتثبيت المسامير... ستكون سعيداً بعملك... أليس كذلك".

ماذا يخبئ القدر للصبي

الليل في الخارج حالك... ولكن حلكة الظلام في داخل المنجم شيء مرعب... وهناك رهبة أعظم... إنها ما يجول في صدر الصبي الصغير... ويزيد من رهبته تلك... رائحة الفحم داخل النفق... وتلك الأضواء اللامعة حين تتقلب في الأحجار السوداء... بعد أن تنطلق من المصباح المعلق فوق رأس مهموم... وعندما تحاول طرقات المعول جاهدة تبديد الصمت المذهل... يدق القلب... ويدق... وينسى حقيقة الوجود... وعلى الصبي أن يكمل ما تبقى عليه من عمل... ليخرج إلى الهواء الطلق... ماراً بجوار حراس المنجم اللَيليين... الذين يقفون عند مدخلي النفق... إنهم أشبه بالأخشاب المسندة... وكثيراً ما يُرى أحدهم واقفاً على قدميه... وهو يغط في نوم عميق... إلا أن وجودهم هناك يسكِّن قليلاً من روع الصبي.

طرقات المعول تتابع... والزمن يمضي ثقيلاً... والصبي يكاد ينهي عمله بعد أن أمضى الوقت الإضافي كاملاً... لقد قرر أن يضرب ضربته الأخيرة... وسيُنزل بعدها معوله... وسيخرج من هذا المكان الأشبه بقبر قارون... بيد أن شيئاً ما قد حصل... وكثيراً ما تُبدي الأمور المثيرة وجهها مع آخر اللحظات... وإن شاء قائل أن يقول عن ذلك "مسك الختام" فربما كان ذلك صحيحاً.

إن الخاتمة التي ختم بها الصبي آخر ضرباته كانت غير اعتيادية... لأن الصوت الذي صدر من المعول يحوي شيئاً من الرنين... قرر الصبي أن يعيد الضرب بمعوله لمرات أكثر... وقد ركز الصبي نظره مع كل ضربة جديدة... شيء آخر لمع على طرف المعول... إنه شيء آخر غير الفحم... إنه أكثر صلابة وربما كان أكثر قيمة وثمناً... توقف الصبي قليلاً ليحاول فهم ما حوله... ثم عزم على إكمال عمله في الحفر... ضرباته تتسارع... وهمته عالية... شيء هام يجعله لا يتوقف عن الحفر حتى يكمل ما اعتمل في رأسه للتو... ساعة كاملة والصبي مستمر في العمل... وبعدها يقرر الصبي أن ينهي عمله... لقد نظر يمنة ويسرة... ثم خبأ شيئاً خرج له من بين الأكوام السوداء... إنه شيء آخر لا يبدو من جنسها... ولكن الصبي يشعر أن ذلك الشيء سيدخله حتماً في حياة جيدة... هي أكثر إثارة من كونه عاملاً بسيطاً في مناجم الفحم... خرج الصبي متسللاً وعند مخرج المنجم ألقى التحية على الحارس... ولكن الحارس قال له:

- "يجب نفتشك... ربما سرقت شيئاً من أدوات الحفر".

فهم الصبي ما كان يدور في ذهن الحارس... هذا الحظ التعيس يلحق أصحابه... وهكذا ستخيب الفرصة التي ضنها الصبي فرصة النجاة... قام الحارس من مكانه... ولكنه نظر إلى وجه الصبي... وتذكر أنه الصبي الأخرس... لذا ابتسم وقال له:

-"اذهب...".

انزاح الهم الكبير من فوق القلب الصغير... وسار الصبي لا يدري إلى أين يتجه... ولكن سرعان ما تلاشى بدنه الناحل بين زحام الناس... في ليالي "دورينموند".

الفصل السابع

صباح باكر

بدا الوادي صامتاً كعادته... ومنذ ساعات الصباح الأولى كانت زرافات من الوعول والوبران ترد الماء لتشرب... والنمر يوزع زئيره على الجبال كي يثبت للجميع أنه ملك هذا الوادي بلا منازع... وداخل الكهف الصغير يرقد مخلوق ضعيف... بيد أن بداية العهد الجديد لهذا الوادي... قد انبلجت بالفعل... عندما بدأ هذا المخلوق بوضع أول لبنات الحياة هنا... ذلك المخلوق بنى منزلاً صغيراً ليعيش فيه.

لم تكن ريحانة لتعلم ماذا تقدر المقادير لها... ولم يكن الوبر الميت من اليوم الفائت ليعلم أنه سيكون عظيم الفائدة بعد موته... ولكن ريحانة مع نومها العميق لم تشعر أنها هنا لوحدها... وأن ما يحيط بها ليس سوى جبال الغال الوعرة... وقطعان من الوحوش والهوام... والوحدة الرهيبة.

أشعة الشمس المتسربة بدأت تؤذي العينين الصغيرتين... والصغيرة بدأت تتقلب في مخدعها... ثم فتحت عينين حمراوين... لم يكن حالهما بعد يقظتهما بأفضل من حالهما في منامهما... ولكن سرعان ما تذكرت الفتاة ما حولها بسرعة... وعرفت أنها لم تكن سوى ضحية سهلة لأطماع أخيها وحمقه... نظرت الفتاة إلى السماء من بين أشواك العوسج... ثم استجمعت قواها... ووضعت إحدى يديها على الأرض... والثانية وضعتها على وبرها الصغير... وبدأت تتذكر... أوه

لقد كانت جثة الوبر هذه أنيساً لها بالأمس... ولكن الجثة أصبحت اليوم أكثر برودة وصلابة... لم تعد ريحانة اليوم بحاجة إلى هذا الوبر... خرجت الفتاة... ثم تقدمت عدة خطوات... ووضعت الوبر... قد يكون لها حاجة إليه في الساعات المقبلة... لا أحد يدري... ولكن ريحانة عازمة الآن على التحدي... وعلى السير في طريقها إلى آخره... عليها أن تعرف واقعها تماماً... ثم عليها أن تعيش فيه بأحسن طريقة تمكِّنها منها الظروف... شيء بدأ يتجسد أمام عينيها... إنه ودون مقدمات... الوجه الصبوح للرجل الطيب... عين الدين آغا... إنها تكاد تراه و تكاد أيضاً تنطلق لتلقي بنفسها بين ذراعيه... إنه الإنسان الوحيد الذي علمها شيئاً من الحنان... وشيئاً من الرحمة... قالت الطفلة بما يشبه الهمس:

- "عين الدين".

بدأت تتذكر كلماته... إن كلماته مخزونة في ذكرياتها... أشبه بكتاب كبير... وفي كل حين وآخر تفتح بعض أوراق الكتاب... لترى الفتاة ما بداخلها... تذكرته عندما جاء وهو يحمل (ثلاثاً) من القطا... قد صادها في وادي (ريب)... وابتسم لها ولصاحبتها صبرة ذات الشارب... ثم قال:

- "هذه ثلاث قطيات... لثلاثة أيتام... ألا تعرفن... ألم أخبركن عن حياتي قديماً... أنا عندما كنت صغيراً كنت يتيماً... سأنتف الريش... ثم سأشويها... ثم سآكلها جميعاً".

قالت صبرة:

- "ونحن... ألسنا أيتاماً مثلك".

- "أوه لقد نسيت... إذاً سأعطي كل واحدة منكن واحدة منها... انصرف عين الدين جهة البركة... وغمزت صبرة بعينها لريحانة كي يتبعانه... وعندما وقفتا عند رأسه قال:

- "أتدرين يا فتيات... محمد كان قوياً... لم يكن قوياً مثلي... بل هو أقوى مني".

بعدها ابتسم عين الدين... ثم قالت صبرة:

-"هل هو أقوى مني أنا أيضاً".

- "أوه... أقوى منك بمرات ومرات... لكن القوة التي كان رسول الله قوياً بها ليست قوة الجسم فقط... وإنما هي قوة القلب والنفس".

قالت ريحانة حينها:

-"ما هي قوة القلب يا عمي؟".

قام عين الدين و مسح على رأس ريحانة... وابتسم لها في حب صادق... وقال:

- "خذي يا ريحانة... انتفي هذه القطاة... وأنت يا صبرة... انتفي هذه... وأنا سأنتف الثالثة... وسأخبركم عن الحكاية".

و بعد أن جلس الثلاثة على أحجار بيضاء... بدأ عين في الحديث.

- "إن سلامة القلب... هي أن يكون الإنسان إنساناً... وقسوة القلب هي أن يكون الإنسان حيواناً متوحشاً... وضعف القلب هو أن يكون الإنسان حيواناً داجناً... الإنسان وحده يستطيع أن يعمل الشيء الذي لا يستطيع أن يعمله أي مخلوق آخر... إنه يستطيع أن يعمل بذكاء... ويستطيع أن يتحدى المخاطر... ويستطيع أيضاً أن يتغلب على الصعوبات جميعاً... ويستطيع أن يمنح الخير للآخرين... رسول الله صمد وتحدى... وحين صمد لم يكن عدوه شخصاً واحداً أو عدة أشخاص... لقد كان عدوه هو الرمز الأول للشر... الشيطان... وأدوات أخرى للشيطان... هي من الجماد والحجر... والبشر... لم يكن محمد قوياً... لأن قلبه لم ينهزم أمام كل هؤلاء... ولكن قلبه كان قوياً لأنه تحداهم... وقد كان ساعتها وحيداً... لقد وقف شامخاً كالجبل... وقال لهم لسان حاله:

- "كلا... عليكم أن تتركوا طريق السوء الذي تسيرون فيه... أنتم حيوانات متوحشة... عندما تقتلون وتشربون الخمر... وتظلمون الضعفاء... أنتم حيوانات داجنة... عندما تقفون في محراب العبادة لآلهتكم الصماء البكماء".

قالوا له:

- "سنقتلك...".

ولكن عزيمته وقوته... رفعته من مكانة البشر... إلى مكانة الملائكة... فقال لسان حاله وهو يتحداهم بإصرار تنهار أمامه القوى جميعاً:

- "لو وضعتم الشمس في يميني... والقمر في يساري... على أن أترككم تعاقرون أعمالكم الوضيعة... دون أن أناصحكم... وأفضح مدى ضعف عقولكم... وضعف قلوبكم... وأمنعكم من الرذائل التي تسيئون بها لأنفسكم... وتسيئون بها للآخرين... لما تركت دعوة الحق التي أحملها... دعوا الشمس تثقل يدي... دعوها تحرقني... دعوها تذيبني... سأحتمل كل ذلك... ولكني لن أحتمل أن أرى أحداً منكم يظلم نفسه... أو يظلم طفلته فيقتلها... سوف أعلمكم دروس القوة... وسأصنع منكم أناساً أقوياء... أنتم الآن تظنون أنكم أقوياء... ولكن قوتكم لا تعدو كونها أشبه بفحيح الأفعى أو نباح الكلب".

الكلب يا بناتي عندما ينبح يظن من نفسه أنه أقوى الأقوياء... وكذلك الحمار عندما ينهق... ولكن الجميع يحتقر الحمار ويحتقر الكلب... ويعلم أن النهيق والنباح... ليسا سوى مظهرين وضيعين من مظاهر الضعف.

الرسول لا يأبه بالشمس ولا بالقمر... ولا بثقيل الحمل... وإنما يأبه بأمة العرب... التي وكلت نفسها في يوم ما... لأهواء حيوانية... فأصبحت من أضعف الأمم... وحدهم الشرفاء هم الذين يستطيعون أن يكونوا أقوياء... الرسول قال لهم لسان حاله ساعتها:

- "أنا سأمنحكم القوة... عندما أصنع منكم بشراً... وأصنع لكم همة وعزيمة تلائم هموم البشر... بعيداً عن هموم الحيوانات المتوحشة... أو الحيوانات الأليفة... عليكم أن تعملوا بجد ونشاط... من أجل حياتكم... ومن أجل حياة الآخرين... اقتلوا الكسل واقتلوا الضعف واقتلوا الاستكانة... وكذلك اقتلوا القسوة

والجبروت والظلم... الشمس هي رمز القوة... ورمز القسوة... وهي أيضاً رمز الإحراق... والمؤمن الحق لا يبالي بها أبداً... حتى لو وضعت في يمينه... أما القمر فإنه رمز الرقة ورمز الهدوء ورمز الغباء... والمؤمن لا يبالي أن يكون في يساره... المؤمن لا تثقله الشمس بقوتها فتجعله ينحاز لها فيكون جباراً... ولا يثقله القمر بهدوئه وضعفه فيكون هزيلاً... المؤمن هو من يقرر أن يعيش بكرامة وقيمة... وبطهر ونقاء... ثم يعزم على السير في طريقه هذا حتى النهاية... ثم يصنع لنفسه وللناس من حوله حياة كريمة هانئة»...

هكذا يا بناتي صبر محمد وصابر... حتى صنع عصبة هم خير عصبة أخرجت للناس... لقد درّسوا العالم دروس القوة ودروس العزيمة... وبذروا في رحم العالم بذور الخير... وأنتن كذلك يا بناتي... إياكن والهزيمة أو الرضوخ... لمتاعب الحياة أو آلامها... أصنعن لأنفسكن حياة هانئة... في أي مكان تطأه أقدامكن... واصنعن الحياة الهانئة لكل الناس... وإياكن أن تنتمي إحداكن للشمس فتكون جبارة... أو تنتمي للقمر فتكون ضعيفة... و كونوا مثل محمد ﷺ".

تلاشت صورة عين الدين من أمام عين ريحانة... واستنشقت هواء نقياً ملأت به رئتها الصغيرة... وفردت يدها للخلف كي تزيل معالم الكسل والنوم... ثم قامت... ذهبت ناحية الماء كي تتوضأ وتصلي الصبح.

وبعد أن صلت ريحانة مدت يدها... وأكلت شيئاً من العسل... لقد أحست أنها أشد قوة... وأشد صلابة... وأنها أقوى بكثير من كل الظروف المجاورة لها... حتى ولو كانت فتاة صغيرة... وحتى ولو كانت وحيدة في هذا الوادي... فالشمس في يمينها... والقمر في يسارها... والأعباء أهون عليها بكثير من أن تستسلم لمعاناتها... عليها أن تصمد كما صمد الطفل اليتيم محمد... وعليها أن تتحدى كما تحدى هو جميع الدنيا... وستبقى سيرة الطفل اليتيم... وسيرة الرسول العظيم... نوراً تهتدي به أجيال البشرية... وتنزاح معه أتربة الظلم والجهل... وهذا اليتيم هو مدرسة الحرمان... وهو صانع التحدي.

ريحانة... السدر... العوسج

أجالت ريحانة نظرها في المفردات القليلة من حولها... وعزمت على صناعة حماية أكبر لبيتها الصغير... لم يكن من طريق سوى العوسج... إنه الوسيلة الطبيعية الأفضل للحماية... وهو أيضاً أنسب طريقة في هذا الوادي... ولكن من أين تحصل على المزيد منه... بدأت ريحانة في السير هنا وهناك... وبعد فترة قصيرة أقبلت جهة مخدعها وهي تسحب عوسجة متوسطة الحجم... وبعد دقائق أخرى جاءت بعوسجة أخرى صغيرة... كان بحثها هادئاً ومركزاً... لقد عرفت الكثير عن بيئتها الجديدة... وأيضاً أصبحت تفكر في الاستفادة من كل شيء تراه... وكلما مرت بشيء هنا أو هناك... تتساءل بهدوء... كيف يمكنها أن تستفيد منه... سارت ريحانة جهة إحدى الصخور المجاورة... وتسلقتها بخفة... وبدأت تدقق النظر... يبدو أن هناك بعض أحجار المرو الأبيض... هذه فرصتها لتجميع حجرين كبيرين... ذهبت ريحانة جهة المرو... وأخذت حجرين... أحدهما كروي الشكل و الآخر طويل... فكرت الفتاة قليلاً... ولكنها بدل أن تعود استمرت في البحث... كانت تقلب الأحجار يمنة ويسرة... يبدو أنها تبحث عن حجرة من نوع خاص... وبعد عناء طويل... يبدو أنها حصلت على حجرة مناسبة بعض الشيء... إنها مستطيلة... وذات حد قاطع من أحد جانبيها... يبدو أنها صالحة لتكون سكيناً... حملت ريحانة الأحجار... وعادت نحو مخدعها... وبعد أن وضعت الأحجار انطلقت لتكمل جمع العوسج.

الوقت يمضي وريحانة تأتي بعوسجة صغيرة... بين الفينة والأخرى... وأحياناً قليلة تأتي بعوسجة كبيرة.

هل ستشعل النار

لم يكن العوسج الذي جمعته الفتاه بالكافي لوضع السور الذي فكرت في بنائه... ولكن الفتاة توقفت عن جمع العوسج... إنها تفكر في شيء أهم... النار

كيف يمكنها إيقاد النار... وبدأت ريحانة في جمع الحطب... ربما لم يكن جمع الحطب عبئاً؟؟ على الفتاة... لأنه موجود بكثرة... وبأحجام مناسبة... تمكنت الفتاة من جمع القدر الكافي... وبعد أن أنهت هذه المهمة جلست بجوار حجرتها الصغيرة... وبدأت ترص بعض أعواد الحطب الصغيرة على شكل كومة صغيرة... ثم أحضرت عشباً يابساً... ووضعته بين عيدان الحطب وفوقها... ثم أحضرت المروتين... ووضعت المروة الكبيرة بين الحطب... وأحاطتها بالعشب... وأمسكت الأخرى بيدها... وبقيت تنتظر... وتنظر إلى الشمس... ريحانة تنتظر كي ترفع الشمس درجة الحرارة في صخرتيها... وفي العشب والحطب الصغير... وبعد فترة قصيرة أمسكت ريحانة بالصخرة التي بين الحطب... أوه إنها لا زالت باردة... وضعت ريحانة الصخرة التي في يدها وذهبت وهي تحمل الصخرة الحارة... وبدأت في تكسير العوسج ثم رصه بشكل دائري حول مخدعها... مر الوقت بسرعة... تذكرت ريحانة النار التي تريد إشعالها...؛ لذا انطلقت جهة حطبها الصغير... وعندما أمسكت بالمروة وجدتها حارة جداً... سوف تبدأ في قدح الشرارة التي ستكون منعطفاً مهماً في حياتها... لم تكن عملية إيقاد النار باستخدام مروتين بالأمر السهل... بقيت ريحانة تقدح وتقدح... ولكن دون فائدة... وأخيراً بدأت الخيبة تراودها... نظرت ريحانة نحو السماء وهي تخرج من رئتها زفير الألم... وارتجفت شفتها السفلى تجاوباً مع بوادر بكاء يقطع القلب... لم يكن ثمت حيلة... نظرت ريحانة للصخرتين ملياً... ثم ألقت بهما في استسلام... لقد عزمت على قضاء بعض الوقت القادم في صلاة الظهر... صلت ريحانة الصغيرة صلاتها... وانسجمت في تلك الصلاة مع خشوعها أشد الانسجام... انقضت الصلاة.

اللحظات التي قضتها الصبية في الصلاة كانت كفيلة بمنحها الكثير من القوة والإصرار... قامت ريحانة من مصلاها... ثم عادت بالمروة التي في يدها وانطلقت جهة العوسج... إن العمل في بناء العوسج على المنزل الصغير... ذو فائدة ملموسة الآن... سيكون أشبه بالدرع الواقي... وعليها أن تفكر في طريقة أفضل لإيقاد النار... النار... النار ستكون سلاحاً آخر للحماية... وأيضاً ربما احتاجت الفتاة

للنار في غرض آخر... ولكن عليها أن تحافظ على وقتها... وعليها أن لا تبدده في أيما عمل إلا بعد التفكير جيداً.

يد ريحانة ترتفع وتهوي... والحجرة الكروية ترتفع وتهوي... من أجل تكسير العوسج ثم بنائه... وأشواك العوسج تتحول بسرعة إلى أغصان في يد ريحانة... كل غصن منها بطول متر ونصف... ريحانة لا تريدها قائمة وإنما تريدها مائلة على الأرض بزاوية ستين درجة... وهذا يجعل ارتفاعها لا يجاوز الخطوة... النمر يستطيع القفز من فوق هذا الارتفاع... هذه تعد مشكلة... لذا فكرت الفتاة في وضع غصنين على بعضهما أشبه بالبناء... ربما لو فعلت ذلك فلن يستطيع النمر أن يقفز فوق هذه المسافة... فكرت ريحانة في المساحة التي ستسورها بالعوسج... إنها تحتاج إلى دائرة محيطها ستة أمتار... ولكن العوسج لن يكفي لإحاطة هذه الدائرة... بدأت ريحانة تخطو الخطوات الست... ثم بدأت في رص الأغصان من أحد أطراف الصخرة التي يقع المنزل الصغير بداخلها... كان المنزل أشبه بشق صغير... جميع العوسج الذي رصته لم يصنع سوى أربع خطوات من محيط الدائرة... إنها تحتاج إلى كمية من العوسج تغطي الخطوات الخطوتين الباقيتين... وأيضاً هي في حاجة إلى باب كي يتسنى لها العبور جيئة أو ذهاباً... ولكن المشكلة الآن تكمن في الوقت... الوقت الآن قارب على العصر... والشمس منحدرة بسرعة نحو الغروب... ونحو الليل البهيم المخيف... انطلقت ريحانة لتصلي صلاة العصر... وبعد الصلاة اتجهت نحو الماء... وجدت طيناً مناسباً هناك لقد جمعته على شكل كومة... ثم فتحت من أعلاها فتحة أشبه بفوهة البركان... وبعد ذلك قامت الفتاة لتملأها بالماء... وبعد ملء الحفرة بالماء عادت ريحانة جهة العوسج... ورتبته الترتيب النهائي... وبعدها انطلقت جهة الطين المتخمر مع الماء... وبدأت في عجن الطين المبتل... أوه... إنه الخلب... وريحانة بعملها هذا تخلب الخلب... وتعجنه... وهي تعرف هذا العمل جيداً... لأن الكثير من المنازل في قريتها تبنى بالخلب... وربما بالحجارة التي يوضع الخلب بينها... الخلب أشبه

بالإسمنت... والمنازل الخلبية أشد صلابة وقوة... إنها تبقى صامدة لمئات السنين... ولكن الطريقة المعتمدة لدى البناءين المهرة هي وضع التبن مع الخلب... وعندها تكون الخلبة أشبه بالصبة الإسمنتية... التي يتخللها الحديد... ريحانة تتذكر أهل القرية وهم يبنون الخلب ثم ينشدون:

- "أعط الباني شحم الضان... فإذا عيا... فالخولاني".

الخولاني هو الأمعاء الغليظة... وريحانة تتذكر شحم الضأن وتتذكر الخولاني... وتتمنى أي شيء منهما لأنها جائعة... ومن الصباح لم تتناول إلا القليل من العسل.

أوه... يال القسوة... لقد نسينا أن نطعم بطلتنا الصغيرة... و تركناها تعمل في جمع العوسج... وفي إيقاد النار... ثم في الخلب... أي قسوة أصابتنا... ولكن من حسن الحظ أن ريحانة تذكرت هذا البيت من الشعر... لقد شعرت هي بجوع رهيب يحتل كل أحشائها.

وجبة شهية

لم تكن مشكلة الفتاة في الحصول على غذاء مناسب كبيرة... لأنها تذكرت جلد العسل الموضوع على الشجرة الصغيرة... انطلقت ريحانة نحو العسل... إن قلبها يدق ومعدتها أيضاً تدق... وعندما وصلت للشجرة أحست أن اللعاب يملأ فمها... مدت يدها وأمسكت بالجلد... ورفعته نحو فمها الناشف... وبدأت بكل هدوء تلحس الجلد بلسانها... وتتمتع... في المستقبل سيكون العسل الذي في أعلى الصخرة أحد مصادر طعامها... بالتأكيد... هكذا فكرت ريحانة... وهي الآن عازمة على وضع طريقة مناسبة للاستفادة من العسل... لم يكن بطن الفتاة من السعة بحيث يحتاج المزيد من الطعام... لقد أحست أن في العسل الذي أكلته كفاية لها... ولكن سيعينها الله في الأيام القادمة... وسيقدر لها رزقاً من نوع ما... انطلقت الفتاة جهة الخلب... وبدأت تكوره كوراً بحجم رأس الجدي ... ثم تسير به نحو

العوسج الملقى بترتيب دقيق... حيث كانت أطراف أغصانه نائمة على الأرض متجهة جهة المخدع... أما أشواكه فهي متجه للخارج... بدأت الفتاة في وضع الخلب الواحدة تلو الأخرى... وأنهت عمل اليوم مع غروب الشمس... وما يبقى من هذا العمل فستكلمه غداً... عليها الآن أن لا تشعر بالجوع... وعليها أن تتجاهله حتى الصباح.

أين الخلاء

انطلقت الفتاة جهة الماء... إنها تريد الوضوء والشرب... ولكنها منذ أمس لم تذهب للخلاء... بالتأكيد لا يوجد شيء في بطهنا كي تخرجه... إنها أشبه بالصائمة... ولكن ريحانة بالفعل ذهبت للخلاء... لقد ابتعدت عن مكانها بقدر كاف... وقبل أن تقعد رأت على بعد خطوة شجرة كبيرة... هذا شيء يقذف في قلبها بعض الأمل... إنها شجرة سدر عملاقة... حتماً ستكون مصدراً جديداً للرزق في هذا الوادي لو كانت محملة بالثمر... لم تعد ريحانة وهي جالسة... تفكر في قضاء حاجتها... بقدر ما هي تفكر في ثمار السدرة العملاقة ... لقد أنهت جلستها تلك بكل سرعة... ثم أسلمت قدميها للريح... وانطلقت جهة شجرة السدر... لم يكن الوقت طويلاً حتى وصلت الفتاة... إنها تنظر هنا وهناك... وترى تلك الثمار الصغيرة الصفراء لشجرة السدر... متناثرة هنا وهناك على أرض الوادي الرملية... نظرت الفتاة إلى السماء وقالت بكل إيمان:

"اللهم لك الحمد".

ثم ما لبثت أن حنت ظهرها... وبدأت في جمع ما أمكنتها يدها من جمعه... وبين الفينة والأخرى تلقي في فمها حبة أو حبتين... وعندما امتلأت يداها الصغيرتان... انطلقت لتضع حبات السدر في حجرتها الصغيرة.

عادت ريحانة كي تتوضأ وتصلي... أي خشوع ورهبة وجدتهما الفتاة في صلاتها... إنها واقفة أشبه بمن كانت صلاته قرآناً... أنهت ريحانة صلاتها الخاشعة... وبدأت تفكر في مدى عناية الله بها.

الرجل المؤمن

أطرقت الفتاة الخاشعة إلى الأرض... ودون أي مقدمات... بدت صورة قديمة محببة لنفسها تكبر شيئاً فشيئاً... إنها صورة عين الدين... لقد أصبح ماثلاً أمامها الآن... كانت مشاعر الأمن مختلطة في نفسها مع مشاعر الخوف... ولكن هل تراه كان موجوداً أمامها بالفعل... الرجل القوي عين الدين... الرجل الأكثر إيماناً ويقيناً... هل هو موجود فعلاً وهل بعثه الله من قبره ليبث في فؤاد المسكينة البارد... أشعةً من دفء... أم أنه العقل المكدود في رأسها يفتش دائماً بين صفحات الماضي كي يخرج ورقة كتبت عليها بعض كلمات الحب والرحمة والأمن... ريحانة لا تدري ماذا حصل لها... ولكنها بالفعل أحست أنها تتذكر صورة عين الدين وهو يبتسم لها... ثم ينفرد وجهه الصبوح بضحكة كبيرة... كان ذلك بالفعل ما رأته... إنه قادم من بعيد... وهيئته تتقدم نحوها... وهو يحمل... يحمل في يده المشبك ذا اللون البرتقالي... ثم يسرع نحو الفتاتين اللتين ترقعان مزقاً كبيراً في ثوب صبرة البالي... وقف عند أقدامهما الممتدة للأمام ... ثم قدم لهن المشبك ثم قال في هدوء:

- "هل تعلمون أني جئت لكم بطعام... وطعام لذيذ... ليس المهم أن يجد الإنسان الطعام... ولكن المهم أن يتوكل على الله... قد نجد طعاماً كثيراً وقد نأكله... ولكن ربما كان ذلك الطعام مسموماً أو متعفناً... وبعد أن نشبع ربما نمرض وربما نموت... ولكن عندما نتوكل على الله فإن الله حتماً سيرزقنا بالرزق الحسن... ألا تعرفن قصة حبيبنا العظيم... الرسول محمد... عندما هاجر... لقد عزم على قطع المسافات الطويلة بين مكة والمدينة... حينها لم يكن معه طعام... ربما لو كان معه طعام لتعفن الطعام من طول الطريق... ولأصبح سماً قاتلاً... ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما جاع هو وصاحبه نظرا إلى السماء... وقالا بكل يقين (يا رب)... كيف جاءهم الرزق... لقد كان بجوارهم امرأة... وقد كان مع المرأة عنزات ترعاها... رسول الله سار بهدوء وتوكل على الله... وعندما اقترب من المرأة نظر إلى صاحبه وكأنه يقول:

- "ألم تر أن الله يجيب الدعاء".

قال الرسول للمرأة:

- "أعطينا لبناً".

قالت:

- "إنه لسيدي... ولا أقدر أن أنقص منه قطرة".

اللبن يا ريحانة... لا يأتي من المعز... وإنما يأتي من التوكل على الله... يا بنات... وما دام الرجلان قد توكلا على الله فسيأتيهما اللبن... حتى ولو لم تسمح لهما المرأة بالأخذ من عنزتها... قال لها الرسول حينها:

- "هاتي لنا عنزة لم تحمل قط... ولم تلد قط... ولا يوجد فيها قطرة من لبن".

المرأة كادت تضحك... لأنها كانت تظن أن الرزق من العنزة... ولكنها أحضرت لهم عنزة لا زالت صغيرة... لم يكن من الرسول الأعظم إلا أن مد يده الشريفة... ومسح بإيمان عميق على ضرع العنزة... ثم قال:

- "باسم الله".

لم يقل الرسول باسم صاحبة العنزة... لأنه لا أحد من هؤلاء يرزق... لقد قال:

- "بسم الله".

ومسح على ضرع العنزة... ليس غريباً أن يمتلئ الضرع بعدها باللبن... لقد امتلأ الضرع بركة وقدرة من عند الله... امتلأ الثدي باللبن... وحلب منه الرسول ما كفاه وكفى صاحبه... وشربا حتى شبعا... ثم ناول الرسول المرأة بقية اللبن... شربت المرأة وهي مندهشة... شربت حتى شبعت... لم يكن الأمر غريباً أن يمتلئ الضرع باللبن... لأن اسم الله هو القوة العظمى في هذا الكون... وأمره أعظم من كل شيء... وأنتن دائماً يا بنات... لا غنى لكن عن التوكل على الله... حتى لو كانت

إحداكن في أبعد مكان عن الناس... فحتماً سيرزقها الله... سيرزقها بطريق لا تظن أبداً أن فيه رزق...

ابتسمت ريحانة وأحست بشي من الدفء... إن للدنيا معاني كثيرة... وتلك المعاني ترجع لتصور الإنسان لطبيعة الحياة... وطبيعة من حوله... ولكن ريحانة بدأت تشعر أن وجودها هنا شيء من القدر... إنها تشعر بطفولتها البريئة وهي ترتمي في أحضان هذه الجبال... ثم تشعر من داخلها أنها وضعت في طيات عقدة صعبة... ولا شيء مما حولها يساعدها على حل تشابك عقدتها... ولكن عزيمة قوية في داخلها تكسبها شيئاً من الصبر... وشيئاً من التحمل... ولازالت خفقات قلب الصبية تشعرها أن قوة عظيمة تقف وراءها... ولا زالت تشعرها أنها قادرة على النجاح... كلما تغلبت على الخوف وعلقت آمالها أمامها... ولكن الشيء الوحيد الذي آمنت به ريحانة إيماناً جازماً... هو أن عليها أن تواصل السير في هذا الطريق... أجالت ريحانة بصرها في الشفق المنبعثة ألوانه من جهة الغروب... لم يكن الشفق إلا خطاً صغيراً... لأن الجبال قد حجبت مجمله... ولكنها لم تفكر في الشفق... بقدر ما فكرت في شيء آخر... انصرفت الفتاة نحو الماء المجتمع في الحفرة... وهناك توضأت بالماء الدافئ بعض الشيء... كانت ترش الماء على وجهها المطبوعة في أطرافه ألوان من التعب والإجهاد... ثم تدلك البشرة المتشققة... أنهت ريحانة وضوءها ثم عادت إلى جوار مخبئها... وهناك صلت المغرب... وبعد انتهائها من الصلاة... أحست أنها ألفت البقاء في هذا الوادي... لم تفكر كثيراً... لقد بدأت في التسبيح المنتظم... ثم سبحت تسبيحات غير منتظمة... ثم قامت... في أثناء ذلك ودخلت مخبأها... ومن الداخل أغلقت على نفسها بأشواك العوسج... ثم انبعثت كلمة بسم الله... وسمعت الفتاة الصغيرة وهي تطقطق في ثمار السدر... ربما كانت سعيدة داخل المكان الموحش... وربما كانت عين في السماء تكلؤها بأتم عناية... إنها في عين الله.

مغامرة الأيام العشرة

انبلج وجه الصبح... وتشققت جيوب العتمة... وتحركت القُمرية الصغيرة داخل مخدعها... أوه ما أجمل الصباح... هذا اليوم هو اليوم العاشر لمجيء ريحانة إلى هذا المكان... لم يعد المكان موحشاً كما كان من قبل... لقد أتمت الفتاة بناء سور العوسج من كل مكان... حول مخدعها الصغير... وأيضاً من فوق الصخرة الكبيرة ومن جوانبها... وكل العوسج مثبت في الأرض بكرات من الخلب متلاصقة... حتى النمر لا يستطيع الآن تسور هذا السور... أما الغرفة فقد زادت ريحانة من مساحتها ببناء الأحجار المتراصة مع الخلب... لقد أصبحت مساحة الغرفة خطوتين صغيرتين من خطوات قدمي ريحانة... في العرض... وخطوتين ونصف في الطول... وهناك كوة صغيرة لدخول الضوء والهواء... وتلك الكوة محشوة بالعوسج... أما ارتفاع الغرفة الآن فهو يقارب الخطوتين... وباب الغرفة صغير جداً... أقرب لنصف خطوة عرضاً... مع ارتفاع خطوة... وعند إلقاء نظرة سريعة على أرضية الغرفة... فإنها تُرى مرصوفة بالخلب المنعم بمهارة... وحتى جدران الغرفة إنها الآن (مليوسة) بالخلب... بقي السقف... لم يكن أحد ليعلم أن فتاة صغيرة... قد توصلت في اليوم السادس... لوجودها هنا... أي قبل ما يقارب الأربعة أيام... توصلت إلى فكرة ذكية جداً... لقد جمعت (٣٤) غصناً صغيراً... طول كل منها خطوة ونصف تقريباً... وسمكه هو سمك حلقة الإصبعين نفسهما... وأحضرت الفتاة حينها عوداً آخر أكثر سماكة... ربما كان سمكه بقدر ما تحيطه إبهامي اليدين مع سبابتيهما... بالطبع ليدي ريحانة الصغيرة... ثم أحضرت الفتاة أحجاراً مسطحة... كانت قد رأتها في اليوم السابق في أسفل الوادي... أما مساحة كل من تلك الأحجار المصفحة فإنها ربع خطوة في الطول وربع خطوة في العرض تقريباً... الأحجار ليست منتظمة المحيط... وسماكتها لا تتجاوز عقدة الإبهام... وهي صلبة بدرجة كافية... وضعت ريحانة العود الكبير في منتصف سقف الغرفة، ثم وضعت الخلب على طرفية، وأكملت البناية بالخلب بمقدار سماكة هذا الغصن... وبعد ذلك وضعت الأغصان الصغيرة بعرض الغرفة... لقد رصتها متجاورة... ويبعد

كل واحد منها عن الآخر قرابة النصف شبر... وبعد ذلك وضعت الأحجار المسطحة أشبه ببلاطات (السيراميك)... ثم أحضرت الخلب على شكل كرات صغيرة... واكتمل البناء بوضع الخلب على الأحجار... وعلى أطراف الأغصان... ومع غروب شمس اليوم الثامن كان السكن منتهياً.

ريحانة تعلمت خلال هذه الأيام العشرة معلومات مهمة... لقد كان أهم تلك المعلومات على الإطلاق هو يقينها بأن عليها أن لا تستعجل في العمل... بالقدر الذي يجعل الملل أو التعب يسري إلى بدنها... أو بالقدر الذي يجعلها تضجر من عملها... أو يجعلها لا تصنعه بالطريقة المتقنة.

العسل ثانية

هناك أمر مهم... حصل لريحانة الصغيرة... في اليوم الرابع من دخول هذا الوادي... لقد استطاعت الفتاة أن تنفذ ما فكرت فيه من قبل... لقد نجحت في أن تجعل العسل أحد مصادر قوتها مع السدر والماء... ولكن ذلك لم يحصل نهاراً وإنما حصل ليلاً... لقد أحضرت ريحانة مع غروب الشمس عوداً طويلاً... كان العود بطول خمس خطوات... وقد كان العود دقيقاً بدرجة تساعد ريحانة على دحرجته... ريحانة عرفت أن النحل ينام بالليل... من مراقبتها له خلال ليلتين فائتتين... لقد كان في نهاية ذلك الغصن فرعين... طول كل منها نصف خطوة... وهذا ما سيساعد على ثبوته على الصخرة... إنها تريد أن تجعله سلماً... بدأت ريحانة ترفع العود قليلاً... قليلاً... ثم تثبته من أسفل بحجرة قد دحرجتها من قبل... ثم وضعتها في أسفل ذاك السلم.

لقد نجحت في بداية الأمر... إلا أن ذلك العود كان بالنسبة لريحانة ثقيلاً جداً... ريحانة ليس لديها من الأدوات ما يساعدها... ولكنها استمرت في المحاولة والتحدي... لقد ارتفع الغصن خطوة واحدة من جهة الصخرة... وهذا لا يفيد... المشكلة الآن تكمن في كون جميع قوى الفتاه انهارت... لم يدم إصرار ريحانة

طويلاً... لقد نظرت للغصن بيأس... ثم تركته وذهبت للصلاة... وبعد أن أنهت صلاتها داعب عينيها النوم... لذا لجأت لفراشها... وقبل نومها مكثت ساعة تفكر في حل تلك المشكلة... لم تكن الحلول في متناول الذهن المكدود... لقد انسدل الجفنان على العينين... وبعد ذلك هيمن على الفتاة نومها... مرت الساعات هادئة... ومع صباح اليوم التالي وجدت ريحانة الصغيرة حلاً... لقد اهتدت إليه عند يقظتها... قامت الفتاة مسرعة... كان شيء ما يعتمل في وجدانها... انطلقت بسرعة جهة الوادي... ومن هناك أحضرت عوداً آخر... بطول خطوتين... وله فرعان صغيران من أعلاه... وبدأت بهدوء تضع العود الصغير تحت العود الكبير... وترفع شيئاً فشيئاً... ثم ثبتت الفتاة العود الصغير على الأرض... وتنطلق لطرف العود الكبير... على الصخرة الكبيرة... من جهة الأرض... ثم تدفعه للأمام... ارتفع العود الكبير على الصخرة ربع خطوة... ثبتته ريحانة بوضع حجرة صغيرة خلفه... ثم عادت نحو عودها الصغير... ورفعته قليلاً بعد أن غيرت مكانه... ولكن العود بدأ يهتز؛ لذا انطلقت لإحضار عود صغير آخر... كي يسند العود الأول من الجهة المقابلة... واستطاعت ريحانة بعد وقت قصير أن تضع العود الكبير على شكل سلم... حتماً سيوصلها لمكان النحل... ثبتته من أسفل بالحجارة والخلب... ووضعت العيدان الصغيرة كأعمدة تسنده... وثبتتها بالأحجار والخلب... وأنهت عملها هذا مع الظهيرة ... كان ذلك العمل الهام قد تم في اليوم الخامس.

وفي ذلك اليوم... وبعد غروب الشمس... أخذت ريحانة ذلك الجلد... الذي أتى به شداد... حين قدمت معه لهذا المكان... وتسلقت العود المتكئ على الصخرة... وبدأت بحرص تراقب النحل... إنه الآن نائم... لفت ريحانة الجلد على يدها... وأدخلت يدها بلطف شديد... وبدأت تكشط العسل المحاذي ليدها.

النحل لم يأبه بها كثيراً... لأنه نائم... سحبت ريحانة يدها وسحبت ما أحاط بالجلد من العسل... ثم نزلت... وانطلقت بسرعة لتأكل العسل... أخيراً... ها هو الطعم الشهي يجد الطريق لبدنها... ومنذ اليوم الخامس وحتى غروب شمس اليوم

العاشر... والطعام الرئيس للفتاة هو العسل... لقد عادت الصحة والنشاط للجسد النحيل... والآن... لم يعد الطعام ليمثل مشكلة بالنسبة للفتاة... أما بالنسبة لتلك الأيام البائسة... التي قطعتها الفتاة بصعوبة مذهلة... قبل أن تحصل على العسل... فقد كان اعتمادها على النبق والماء... وربما على أوراق بعض الأشجار التي لا تعتبر مرة المذاق.

وبعد أن دخل العسل لحياة الفتاة تغيرت الأمور تغيراً جذرياً... وتلك هي شمس اليوم العاشر تنطفئ في ماء الغروب... وتحت أشعتها الخابية تخلد ريحانة إلى طمأنينة وهدوء... داخل منزلها الصغير... وسعادتها لا تكاد توصف... لقد أنهت جميع أعمالها بنجاح باهر... وأصبح المسكن الآمن... يضم جسمها الناحل بكل حنان... والطعام والشراب... لم يعودا ليمثلا لها أي مشكلة... دخلت ريحانة لمنزلها... لقد كانت متوضئة للصلاة... توضأت من الحفرة الصغيرة بجوارها... إنها حفرة صغيرة في الصخرة المجاورة... لقد ملأتها ريحانة بالماء منذ الصباح... كان الماء يقطر من خصلات شعرها... لذا دخلت في صلاة المغرب... وبعد انتهاء الصلاة ابتسمت ابتسامة ساحرة... وحكت رقبتها من الخلف... أوه لقد أحست بالخجل... لأنها أمسكت بفتلات مستطيلة قد تكورت على رقبتها... لقد تذكرت أنها لم تغتسل منذ أن جاءت إلى هنا... أمسكت ريحانة بإحدى خصلات شعرها من الخلف... إنها أكثر شعاثة... تلمست الفتاة ساقيها... يبدوان مكسوان بالتراب... أرخت رأسها قليلاً... لن تغتسل الآن... ولكنها سوف تحلم... عليها أن تُدخل ذهنها في طيات الزمن... كي تتلمس إكسير حياتها هناك... إنها تبحث عن عين الدين في ثنايا عقلها... كم ولدت سعادة صغيرة ثم كبرت في قلبها... عندما تذكرته ذات يوم... وهو ينضحها بالماء الذي سكبه في قربة صبرة السوداء... ثم قال بعدها:

- "يا ريحانة، يجب أن تكوني ريحانة... ويجب أن لا تكوني حنظلة... عليك أن تكوني نظيفة طاهرة... لأن الطهر قيمة ملائكية".

وفي حين كان يبتسم... ملأ يديه بالماء يريد أن يغرق به شعرها... ولكنها هربت جهة صبرة... تبعها عين الدين وهو يضحك ويقول:

- "يا ريحانة... إذا كبرت ستكونين حنظلة... يجب أن تكوني نظيفة".

وعندما اقترب منها حثاها بالماء... انسكب الماء على صدر قميصها... وعندما تبللت... نظرت إليه بغضب... ثم عادت نحوه بسرعة... ولكنه هرب منها... كانت تركض خلفه وهو يهرب... استمر المشهد قليلاً... ثم توقف وقال:

- " ماذا تريدين".

- "أريد أن أبللك بالماء".

- "بشرط".

- "ما هو الشرط إذن".

- "أن تسمحي لي أن أغسل رأسك بالسدر والماء... ستكونين عندها طاهرة نظيفة... أنت الآن صغيرة... وعمرك ست سنوات... عليك أن تتعلمي النظافة من الآن".

وافقت ريحانة على شرطه... وبللته بالماء... ثم ذهب معها ليحضرا أوراق السدر... وعندما جلسا إلى جوار الماء... بدأ يضع السدر ويدلك رأسها...

انتهى المشهد المبعوث في مقبرة الذاكرة الصغيرة... وزفرت ريحانة وهي تتذكر الصور السريعة... أوه لقد مت يا عين الدين... ما أعظم تواضعك... أغمضت الفتاة عينيها... إنها الآن تتذكر جيداً... وتكاد تحس يديه وهما تدلكان رأسها... قال عين الدين حينها:

- "لماذا يا بنتي كان واجباً علينا أن نتنظف؟".

أشارت ريحانة بكتفيها الصغيرين لأعلى... كمن يقول:

- "لا أدري".

قال عين الدين حينها:

- "لأن الإسلام دين النظافة... ودين الطهارة... الإسلام يخبرنا ويؤكد لنا أننا نختلف تماماً عن الحيوانات... لأن الحيوانات لا تتطهر... وهي لا تتطهر لأنها لا تحتاج للطهارة... أما الإنسان فإنه يذهب ويجيء مع الناس... ويقابلهم ويقابلونه... لذا فإن عليه أن لا يؤذيهم برائحته... ولا بشكله القبيح... وحده رسول الله كان أجمل الناس... لأنه كان أنظفهم وأطهرهم... وهو أول من سن قوانين النظافة الخالدة... ووضعها دستوراً إلزامياً في كل يوم... وجميع الشعوب الآن تقف معجبة على بوابة مبادئه وهديه... حتى ولو لم يسلموا... إن الكثير منهم يسير على القوانين الجميلة التي وضعها للطهارة... فقط لأنهم اكتشفوا أنها الحق المطلق... كان كثير من أهل الديانات المحرفة... قبل الرسول... يتعمدون أن يكونوا أقذر ما يمكن... لأنهم يضنون أن في ذلك قربة من الله... وكانوا يعذبون أنفسهم بالقذارة... ضناً منهم أن الله سيكتب لهم بذلك أجراً... لقد جهلوا أن الله جميل يحب الجمال... وحده رسول الله هو من علَّم كل أصحاب الديانات أن القذر يحب القذارة... والجميل يجب الجمال... والله جميل يحب الجمال... محمد أوصانا بأن نتوضأ لكل صلاه... أو على الأقل نكون طاهرين مع دخول الصلاة... وأمرنا أن نغتسل يوم الجمعة... وأمر كل إنسان منا أن يقلم أظافره ويزيل شعره من أماكن كثيرة في جسمه... وأمرنا أن نكرم بقية الشعر ونجعله منظماً ومرتباً... وينهانا أن نجعل شعرنا أشبه بشعر الشيطان... حتى الطيب والرائحة الزكية... لقد أحبها رسول الله وأمرنا أن نحبها... وأمرنا أن نتطيب مع كل صلاه... وأسناننا... نعم... أسناننا كذلك... علينا أن ننظفها... المسلم هو المخلوق النقي... وهو المخلوق الطاهر... لأنه يستمد صفاته الحسنة من أوامر خالقه... حتى بعد موته وقبل دفنه... أمر الدين أهله أن يغسلوه.

غاب عين الدين شيئاً فشيئاً... وأسلمت ريحانة عينيها للنعاس... بعد أن عزمت على أن تقوم من صباح الغد... وتغتسل بالماء و السدر.

النار

سوف تكون الفتاة الصغيرة أقدر على إدارة شؤون حياتها... في هذا المكان المقفر... لقد قررت ترك اليوم الحادي عشر لدخولها هذا الوادي أشبه بيوم الإجازة... حيث اغتسلت وغسلت جميع ملابسها... هذا شيء مهم... ثم جلست أمام صفحة الماء بهدوء... كي تمشط شعرها... ولكن ما هو يا ترى ذلك المشط الذي تمسكه بأناملها الصغيرة... لقد كان جزءاً من ساق شجرة الصبار... قطعته ريحانة بعناية... ثم غرست فيه (٧) أشواك طويلة... من أشواك شجرة الطلح... لقد بدا يوم الإجازة يوماً جميلاً... لأن ريحانة أكلت ثمار السدر... ثم لعبت بعروسة صغيرة صنعتها من الخشب... ثم تسلقت شجرة عملاقة لا تدري ريحانة ما اسمها... ولكنها أشبه بشجرة التين... وأخذت من أوراقها كرة صغيرة... صنعت منها رأساً لعروسها... ومع الظهيرة عادت للمنزل... إنها تفكر في النار... كيف يمكنها أن توقد النار... لم تكمل ريحانة إجازتها في ذلك اليوم لأنها كانت مشغولة البال بإيقاد النار... لذا انطلقت لتبحث عن شيء ما... لقد أحضرت عوداً مدبباً من أعلاه... وكانت سماكته بسماكه الإصبع... وأحضرت أيضاً حجرة صلبة... ثم بدأت تدق الحجرة الصلبة بحجرة مدببة حتى حفرت فيها حفرة صغيرة... وضعت ريحانة طرف الغصن المدبب في الحفرة الصغيرة التي حفرتها في الحجرة الصلبة... ثم بدأت تدير العود براحتي يدها جيئة وذهاباً... بقيت مدة وهي تدير العود... وأخيراً بدأت تجد رائحة الدخان... لقد نجحت أخيراً... احتكاك العود بالحجرة الصلبة رفع من درجة حرارة العود... ذهبت ريحانة لجمع القش... وبعد أن عادت بملء يدها وضعته بجوار العود... واستمرت في فرك العود بين راحتيها... مضى وقت طويل وهي لم تمل... وأخيراً بدأت النار تشتعل في القش... وضعت ريحانة المزيد من القش... ثم وضعت عيداناً صغيرة... وأخيراً اضطرمت النار... أحضرت ريحانة عوداً كبيراً ووضعته في النار ثم ابتسمت... لقد نجحت نجاحاً باهراً... هذا اليوم هو يوم النجاح المبهر... وعليها أن تحافظ على هذه النار...

يجب أن لا تنطفئ أبداً... وبعد صلاة العصر سارت ريحانة هنا وهناك... إنها تريد أن تستجم قليلاً... لذا أمسكت بحجرة مستديرة... ورمت بها... لم يكن في ذهنها أي شيء تفكر فيه... ولكن منظر الجبل الطويل المجاور لها أغراها بتسلقه... لماذا لا تتسلق الجبل... إنها حتماً سترى كل شيء في هذا الوادي... وستكشف كل ما حولها... أحست ريحانة أنها فكرة رائعة... وبعدها اتجهت جهة الجبل... قليل من الوقت وبدأت في الصعود... الجو هادئ جداً... والسكون يلف المكان... ولكن لا داعي للقلق فإن الله معها.

الحجل والبيض

أمسكت ريحانة بحجرة مستديرة بحجم رأس الخروف... ورمتها إلى بعيد... إلى بطن الوادي السحيق... استأنست قليلاً بدويها وهي ترتطم... ألقت الفتاة نظرة ساهية... ثم حملت غصناً يابساً من العوسج... إنه سلاح ردع لا بأس به... ثم واصلت سيرها... وأخيراً وصلت للقمة... الله... إنها قمة مرتفعة... ومن يقف فوقها يستطيع كشف كل شيء تحته... كم يبدو الوادي ساحراً ومهيباً... وانعكاس أشعة الشمس على الجبال يبرز لوناً قرمزياً أخاذاً... يا له من مكان رهيب... حملت ريحانة حجرة أخرى... وألقت بها بكل طاقتها... وقعت الحجرة في مكان قريب... ولكن ريحانة سمعت طقطقة خافتة... لأجنحة طير لتوه طار... لقد خافت قليلاً... ولكنها سارعت نحو مصدر الصوت... أوه إنها هناك... أنثى الحجل... إنها تطير مبتعدة عن جحرها... طائر الحجل أكبر قليلاً من الدجاجة وأصغر من الديك... ولونه رمادي داكن... وتنتشر نقاط بيضاء على ظهره... إنه طائر جميل... ولكن هل يكون ذلك الجحر بيتاً للطائر... انطلقت ريحانة جهة الجحر... كان الجحر عميقاً إلى حد ما... إنه بعمق خطوة واحدة... دققت ريحانة نظرها في الجحر... لقد شاهدت خمس بيضات... يا الله... بيض الحجل طعام لذيذ... ولكن... ترى هل أصبح البيض فاسداً... وتخلقت الفروخ بداخلة... كيف للفتاة أن تعرف... نظرت ريحانة يمنة ويسرة... ثم انطلقت لتحضر عوداً من قريب... جاءت بالعود الطويل

وأدخلته... وبدأت تسحب البيض وعندما أمسكت أول بيضه وجدتها لزجه وكأنها غسلت بالماء... نعم... لتوها وضعتها تلك الحجلة... هذا يعني أن البيض لم يفسد بعد... هذه الحجلة تضع إلى ٢٠ بيضة... والبيض لم يفسد بعد... أخذت ريحانة تلك البيضات... وقبل أن تتصرف أعادت واحدة منها... إنها تخشى من أن تغير الحجلة مكانها إذا فقدت جميع بيضها.

حياة ذئب

بدأت الفتاة في النزول... ولكنها بعد تفكير قصير قررت أن تبقى هنا فترة أطول... هذا المكان جميل... لذا قعدت على إحدى الصخور... وبدأت تجيل طرفها هنا وهناك... وبعد وقت قصير يملؤه الهدوء... بدأت لحظات حاسمة مذهلة... شيء ما تفجر فجأة... لقد بدأ الزئير الرهيب يهز جوانب قلبها الغض... لقد سمعت صوت الذئب وهو يجلجل في الوادي... ماذا ستفعل... حتماً عليها أن تنزل... حملت الفتاة بيضاتها ونزلت بسرعة... كان جسمها النحيل يهوي كجسم عصفور... وكانت قدماها تقفزان من حجرة لأخرى... وأخيراً وصلت لبيتها... أزاحت الباب المصنوع من العوسج... ثم دخلت... ومع انحناءة صغيرة للخلف... سحبت الباب... لقد أصبحت الآن أكثر أمناً... مرت مدة قصية وبدأ دوي مخيف يدك أوصال الوادي... وبدأ معه قلب ريحانة يرتجف... وبدأت الفتاة تنصت باهتمام... لصوت الدوي... قلب ريحانة يرتجف... ولكنها أسرعت جهة سورها الشوكي كي تتفقده... إنه متقن مع كل جوانبه... أمسكت بأحد أغصان العوسج المغروسة في الخلب وبدأت تحركه... الحمد لله إنه كصخرة نابتة في الأرض... ارتاح فؤادها قليلاً... انطلقت جهة الباب... تأكدت من إحكام العوسجة الصغيرة التي تسده... وتأكدت من العودين الطويلين... الواقفين على طرفي الباب... والمنغرسين في الأرض المدعمة بكمية كبيرة من الخلب... إنهما ثابتان... والفتحة بينهما صغيرة لا تجاوز نصف خطوة... والعوسجة كفيله بسده بإحكام بالغ... كل شيء على ما يرام... وريحانة لن تأبه كثيراً لهذا الدوي... عليها أن تذهب كي

تشوي شيئاً من بيضاتها الأربع... في فنائها الصغير... اليوم ستشوي بيضتين... وغداً بيضتين... أو... اليوم ستشوي اثنتين... وغداً واحدة... وبعد غد واحدة.

النار هنا بجوار ريحانة... إنها تحوي الجمر... وبجوارها أعواد القَرَض... بدأت ريحانة تجمع الجمرات الصغيرة لتضعها في طرف الرماد الساخن... ثم وضعت البيضتين على تلك الجمرات الصغيرة... كي ينضج البيض ببطء... وكي لا يتكسر... ثم دفنته بالرماد الساخن.

انتهت ريحانة من عملها هذا... ثم قعدت تنتظر... ولكن صوت الدوي الذي خبا قليلاً عاد بدرجة مرعبة... اتجهت ريحانة جهة باب الفناء... وبدأت تتابع... ثم ظهرت لها الصورة البشعة... إنه الذئب الشرس يتقدم مسرعاً... ثم يتجه جهة سورها الشوكي... فزعت ريحانة... وبدأت تدور من جديد... لتتأكد من متانة سورها ومن أغصانه المرصوصة... الذئب يسرع في العدو... وهي تزداد خوفاً ولوعة... الذئب يقترب ويقترب... ويكاد يستعد للقفز داخل سورها... وهي تروح وتجيء في رهبة وتراقب... ولكن الذئب سرعان ما نظر خلفه وانصرف... بعيداً عن سورها... وفي تلك الأثناء...كانت ريحانة تتهيأ... لتعيد تهدئة أعصابها من جديد... ولكن صورة أشد ضراوة بدأت في الظهور... وكأنما هي حلقات المصائب... تتابع هنا بدقة... لقد ظهر دون سابق نذير... وجه النمر هناك... إنه يتقدم نازلاً من منتصف الجبل... خطواته ثابتة... وهو يتلمح.

وأخيراً بدأ يجري... وبدأت المطاردة بين النمر والذئب... النمر اقترب... وبدأ يصوب نظره جهة ريحانة... والفتاة الصغيرة تتابع خطواته... ونظراته الحادة تكاد تغشاها... وقلبها يرتجف بقوة... وقفزات النمر طويلة... وأقدامه طويلة... هل سيمكنه ذلك يا ترى من تجاوز السور والقفز من فوقه... لماذا لم أفكر في هذا من قبل... الموت يقدح بين عيني الوحش القادم... والرعب يبدو في مخالبه التي ترتفع مع خطواته... وريحانة لا حيله لها... إنها تفكر وتفكر... وأخيراً رفعت الفتاة ثوبها لأعلى... وكشفت عورتها للنمر... إنه وضع استسلام مؤكد... ولكنها فعلت ذلك؛

لأنها سمعت ذات يوم... من إحدى عجائز القرية... أن النمر لا يهاجم الإناث... لقد نسيت الفتاة... كلام العجوز حينها... ولم تلق له بالاً... ولكنه خرج الآن من بين طيات عقلها... وأصبح واقعاً.

المدهش أن النمر توقف قليلاً... ثم نظر يمنة ويسرة... وانطلق في الجهة التي فزع إليها الذئب منذ قليل... لا تدري ريحانة هل طال الوقت أم قصر... ولكنها سمعت دوي أقدام النمر يخبو شيئاً فشيئاً... سترت ريحانة عورتها وكلها خجل... إنها لا تدري هل هرب النمر من عورتها... أم أنه ذهب صوب غريمه الذئب... وبعد لحظات بدأت ترتفع أصوات جلبة من نوع آخر... إنه العراك الرهيب... ولكن ليس بين النمر والذئب... وإنما بين النمر وثلاثة ذئاب... المعركة تزداد ضراوة... وريحانة تشاهدها عن كثب... وسرعان ما بطش النمر بالذئب الأول... ونشبت أنيابه في رقبته... ولكن الذئبين الأخيرين قفزا على ظهره... ثم نهشاه بعنف... وبدأ النمر يتلوى... ولكنه لم يقع... قفز الذئبان عليه بضراوة أشد... ونهشا بطنه... استدار النمر حينها... وقفز كالرعد ثم ألقى بأحدهما بعد أن قصم ظهره... وتبع الآخر وأمسكه برقبته حتى الموت... لقد قضى على ثلاثتهم... ولكن النمر كان مجروحاً... التفت حوله بهدوء... ثم عاد أدراجه وهو يسحب أقدامه.

لقد مر من جوار ريحانة وهو واهن الخطوات... لاحظت ريحانة أن النمر لم يكن ذكراً... وإنما هي أنثى... لقد عرفتها بأثدائها... واصلت النمرة سيرها... وصعدت لتل صغير... واستمرت في السير... ولكنها سقطت... لم تطل سقطتها... لقد بدأت تهز يديها وقدميها... ثم انقلبت على ظهرها... لم تطل رقدة النمر الأنثى... لقد قامت مثقلة... ثم تابعت سيرها جهة أعلى الجبل... عرفت ريحانة أن النمر الأنثى ذات صغار... وربما هاجم الذئب صغارها... ثم دافعت عنهم... ولم يكن بحسبانها أنها ستقابل كل هذا العدد من الذئاب.

النمرة الأم

في أثناء تشوق ريحانة... لمعرفة حقيقة النمرة الأنثى... وحقيقة صغارها... طقت البيضة التي بين الرماد... إيذاناً بأنها قد نضجت... ولكن ريحانة لم تأبه بالبيض كثيراً... لقد اتجهت جهة الباب... وفتحته... ثم حملت عوسجتها في يدها... وتلمحت يمنة ويسرة... ثم سارت بسرعة... في نفس الجهة التي سار فيها النمر... سارت وهي تترقب.

مر الوقت بهدوء مزعج... ريحانة تسير خلف النمر... حتى رأته يصعد لجبل بعيد... ثم يلقي بنفسه بجوار غار صغير... عادت ريحانة بعد ذلك إلى منزلها... وأقفلت الباب... واتجهت للبيض كي تأكله... لقد حل الليل.

نامت ريحانة ليلتها تلك... لم تكن نفسها مستقرة كما كانت في الليلة الفائتة... لقد بدأ القلق يساورها... عليها أن تكون أكثر حرصاً في هذا الوادي... ولكن لا مناص... عليها أن تكون أكثر مغامرة... إنها لن تحبس نفسها في بيتها... والله سيتولاها حتماً.

خرجت ريحانة في صباح اليوم التالي... لقد أكلت بيضتها الأخرى... وهي الآن ذاهبة جهة السدرة... إنها تفكر في كثير من الأمور... وعليها أن تنجزها جميعاً... ولكنها لا تملك الأدوات اللازمة... ستذهب بعد السدرة جهة كهف النمر... عليها أن تشبع فضولها... وتعرف آخر التطورات... أكلت ريحانة حبيبات من النبق... وحملت الباقي واتجهت جهة الكهف البعيد... إنها تقدم رجلاً وتؤخر الأخرى... وأخيراً أطلت على الكهف من بعيد... النمر هناك لازال رابضاً... ولكن يبدو أنه شعر بها... لقد قام متثقلاً... ولكنه مصاب... وتبدو إصابته بليغة... عادت ريحانة بهدوء... ولكن حرصها جعلها تعود مع طريق آخر.

إلا أن الفتاة بعد أن سارت خطوات... لاحظت شيئاً أدهشها... إنها أشبه بقطعة من قماش... اقتربت ريحانة بحذر... يال الهول... إنه كجمجمة الآدمي...

بل هي بالتأكيد جمجمة بشر... كادت فرائص ريحانة تتقطع من الخوف... نظرت يمنة ويسرة في رعب ثم أسلمت قدميها للريح وهربت حتى دخلت منزلها... إنه منظر بشع... لقد تذكرت الصغيرة أخاها شداداً... الذي دفنته منذ أيام... بالتأكيد ليست جمجمته... يبدو الأمر غامضاً... ألقت ريحانة بنفسها على الأرض داخل بيتها... وبقيت فترة وهي تستعيد أنفاسها وترتب أفكارها... ولكن فكرة ما قذفت بالعقل المنهك من جديد في أتون التحدي... لقد أصبح فضول ريحانة أمراً مذهلاً... لم تعد خائفة من الموت بقدر ما هي عازمة على التحدي والبقاء... لقد أصبحت تعشق الصراع... أحست أنها تريد معرفة كل شيء في هذا الوادي... حتى قصة تلك الجمجمة... فتحت ريحانة باب منزلها... وانطلقت مسرعة حتى وقفت على الجمجمة... تبدو هناك قطعة القماش البالية... أزاحت الفتاة قليلاً من التراب وبعض الأشواك... إنه هيكل عظمي متكامل... ولكن تبدو ملابسه قد مزقت... لأنها متناثرة هنا وهناك... دققت ريحانة نظرها... ورأت الحبل الطويل... وبشيء من الجسارة تذكرت الفتاة أنها في حاجه ماسة للحبل... لذا قفزت لتأخذه... ولكنها رأت الفأس بجوار عظام اليد الأخرى... وهناك مزودة الماء... وحذاء جلدي متهالك... أوه هذا أحد الحطابين... لقد كان فريسة لسباع الوادي من قبل... لم تفكر ريحانة كثيراً في المفردات المرعبة حولها... حاولت أن تبحث في تلك الثياب الممزقة... وأخيراً وجدتها... إنها السكين... نعم سكين حادة.

- "الحمد لله... هذا ما كنت أبحث عنه".

حملت الفتاه الصغيرة تلك الأشياء... قطعة قماش ربما كانت عمامة للحطاب... وحبله الطويل... وفأسه وسكينه... وأيضاً مزودة الماء.

عادت ريحانة جهة منزلها... ولكنها في أثناء عودتها فكرت... لقد التمعت في ذهنها فكرة جديدة... تذكرت أشياء كثيرة قالها لها عين الدين حول صناعة القرب... انطلقت الفتاة الجسورة لحد الانتحار... جهة الذئاب التي قتلت بالأمس على يد النمر... وجدتها باردة... ولكنها لازالت طرية... بدأت ريحانة تشق جلد

الأول... ثم استمرت تسلخه... إنها تسلخه بهدوء... وبحرفية لا بأس بها... دامت قرابة النصف ساعة... ليس بالوقت الطويل... لقد أنهت سلخ الجلد... وأصبح في يدها الآن... صحيح أن سلخها لم يكن متقناً... ولكنه أفضل من العدم.

نظرت ريحانة للذئب الثاني... إنها مجهدة... ولكنها تحس بحرص شديد على أن تصنع به ما صنعته بأخيه... لم يدم الوقت طويلاً حتى قررت إعادة العمل نفسه، أخذت حجراً أملس ثم حدت السكين عليه... وبدأت في عملها... مر الوقت سريعاً... ويداها مجهدتان... أكملت سلخ الذئب الثاني... لكنها أحست برغبة في سلخ الثالث... وبدأت بالفعل في سلخه... الوقت يمر وهي تنجز عملها ببراعة... وعندما أنهت العمل انطلقت جهة إحدى الصخور القريبة وَفَرَدَتْ الجلود عليها بطريقة متزنة... إنها تفكر الآن فيما هو أبعد... بالتأكيد هي تفكر في دباغة الجلود... حتما ستصنع بها فرشاً أو آنية.

ولكن كيف تدبغ الجلود... هذا ما فكرت الصغيرة فيه... لقد سمعت من إحدى العجائز... أنها إذا أرادت دباغة الجلود... فإن عليها أن تضع شيئاً من ورق شجر الشَّثْ... تفرده على الجلد... ثم يطوى الجلد... ليبقى فترة كي يجف... فعلت ريُحانه ذلك بالجلود الثلاثة... وطوتها ووضعتها على الصخرة المجاورة.

لقد أصبحت الجلود الآن جاهزة لتلقي حرارة الشمس... وريحانة متعبة أشد التعب... ولكن لا زالت هناك فكرة تدور برأسها انطلقت الفتاة... وأحضرت قطعة من لحم الذئب... وضعتها على النار... وبدأت تشم رائحتها... إنها رائحة نضج اللحم... حاولت ريحانة الصغيرة أن ترفعه... لقد أدخلت فيه عوداً صغيراً... واقتربت به من فمها... فتحت فمها بهدوء... ولكن سرعان ما أقفلت ذلك الفم الصغير... لقد أحست أن نفسها تعاف لحم ذئب... هذا الشكل الشائن لوجه الذئب يكفيه بشاعة... خشيت ريحانة أن يؤثر هذا اللحم في طباعها فتكون أكثر وحشية... ربما كانت في حاجة للمزيد من الوحشية في هذا الوادي... لكنها تذكرت صورة عين الدين، أحست أنه يقول لها:

- "أنت أشبه بفتاه تركية يا ريحانة... وأنت وديعة ومؤدبة... وأنت لا تأكلين الحرام... وهذا اللحم ... أنت تركتيه... لأن الله حرمه... فإن الله لن يتركك في هذا الوادي دون طعام... وقد رزقك الله رزقاً كثيراً... كلي البيض وكلي ثمار السدر... وكلي من العسل... وإن تركت اللحم المحرَّم... رزقك الله من حيث لا تحتسبين".

ألقت ريحانة باللحم... وانطلقت جهة البيضة الأخيرة... سوف تأكلها الآن... وضعتها على النار وجلست تنتظر.

حياة غزالة

أصبح الصباح مبكراً في اليوم الثاني... هكذا خيل لريحانة... لذا فقد قامت باستعجال... وتوضأت من المزودة... إنها سعيدة جداً بهذه المزودة... سوف توفر عليها كثيراً من خطوات الذهاب والإياب جهة الماء... وبعد ذلك اتجهت للجلود المدبوغة... إنها هناك تبدو بأحسن حال... والنار في مكانها المخصص... وريحانة تعاود وضع الأخشاب فيها بانتظام.

ولكنها الآن مشغولة بالجلود... لقد رشَّت الجلود بالماء حتى أصبحت طرية... ثم أعادت فردها وضربها بالعصا... وأخذت السكين وأمسكت بأحدها ثم قطعته قطعتين... إحدى القطعتين قطعتها على شكل سيور طويلة، والأخرى ستصنع منها قفاً تخيطه لتحمل فيه الأشياء... أما الجلدان الآخران فقد عزمت على استخدامهما كفُرشٍ داخل حجرتها الصغيرة... وبعد كل هذا الجهد قررت ريحانة أن تأكل بيضاً مشوياً... أوه بيض الدجاجة الطيارة.

لقد انطلقت الفتاة جهة الجبل الذي يحوي جحر الحجل... وما إن وصلت إليه حتى صفقت بيدها ثم اختفت... خرجت حجلتين كبيرتين من الجحر... يبدو أنهما ذكر وأنثى... ولكن ريحانة حملت حصاة وألقت بها عليهما... تلفتت الحجلتان ثم طارتا... أسرعت ريحانة والعصا في يدها... ثم أخرجت بيضتين وتركت بيضة... وحملتهما وانطلقت جهة منزلها ... ولكنها قبل أن تصل للمنزل قررت أن تلقي نظرة

على النمر... وبالفعل سارت وألقت من بعيد نظرة سريعة عليه... تبدو صحته متدهورة... ولكنه نائم بجوار كهفه... عادت ريحانة لتكمل أعمالها اليومية... كل الأمور تسير على ما يرام... ولا يوجد جديد... سوى أن ريحانة فرشت غرفتها... وصنعت قفاً كبيراً بعض الشيء... لقد خاطته بسير صغير من الجلد... باستخدام شوكة كبيرة قد ثقبتها من آخرها.

مر الزمن... لا شيء يذكر سوى الروتين... وحتى صباح اليوم الرابع عشر... استيقظت ريحانة فزعة على صوت ثغاء... أحست في البداية أنه ثغاء ماعز... ولكنه يبدو مختلفاً هذه المرة... كان نور النهار قد تشقق... ولكن الشمس لم تطلع بعد... توضأت ريحانة من مزودتها وصلت ركعتين... ثم انطلقت لتعرف مصدر هذا الثغاء... كانت تتبع مصدر الصوت بحذر... وعندما جاوزت إحدى التلال الصغيرة عرفت مصدر الصوت... بالتأكيد إنه قطيع من الوعول... ولكن ماذا حصل له.

الوعول هناك في أعلى الصخرة... وجميعهم يسيرون على حافة المنحدر الحاد... والطريق الذي يسيرون عليه لا يجاوز موضع أقدام واحد منهم... إنهم يسيرون صفاً واحداً... هم يبحثون عن أوراق السمر... الذي ينبت دائماً على المنزلقات الوعرة... سمعت ريحانة الصوت مرة أخرى.

إنه هناك... ولكن يبدو أن أحد غزلان القطيع قد سقط... وقدمه الآن معلقة بين صخرتين... ويبدو جسمه ثقيلاً جداً... وربما كسرت قدمه... انطلقت ريحانة في اتجاهه بسرعة وحذر.

- "أوه مسكينة... إنها أنثى حامل... بل هي أنثى تلد... لقد سقطت وهي تلد".

ماذا تستطيع ريحانة أن تفعل لها... شعرت ريحانة بحزن شديد وهي ترى المولود الصغير يتدلى وينازع الموت... حتماً ستموت الغزالة وسيموت مولودها... فكرت ريحانة... قليلاً ثم تأملت الموقع جيداً... من الأعلى ومن الأسفل... ولفت

نظرها شجرة السرو التي في أعلى المنحدر... الغزالة تبعد عن الأرض ست خطوات... وهذا يجعل الوصول إليها من الأرض أمراً صعباً للغاية ... انطلقت ريحانة جهة منزلها... ثم أحضرت الحبل الطويل الذي وجدته ملقى بجوار الحطاب من قبل... وأخذت بعض السيور الصغيرة التي صنعتها من جلد الذئب... وبدأت من الخلف تصعد فوق المنحدر... وأخيراً وصلت لأعلاه... ريحانة تفكر بسرعة في تنفيذ كل ما تفكر فيه... وبسرعة مذهلة ربطت الفتاه حبلها في تلك الشجرة وبدأت تنزل خطوة... وأخيراً وصلت للغزالة... الغزالة خائفة جداً... ولكنها فقدت قدرتها على المقاومة... رجلها مكسورة... وإحدى يديها أيضاً مكسورة... ورأسها متجه لأعلى... جهة ريحانة... وقدماها لأسفل... والوضع أسوأ مما تصورت الفتاة... وهناك مشكلة أخرى... أن يد الغزالة محجوزة في شق بين صخرتين... اقتربت ريحانة لتربط الحبل في رقبة الغزالة... ولكن الغزالة بدأت تتحرك حركات عنيفة... ألقت ريحانة بالحبل على رأس الغزالة ... ثم لفته من بعيد... يبدو أن الغزالة قد استسلمت تماماً... لذا اقتربت ريحانة وربطت الحبل جيداً... ثم نزلت معتمدة على بقية الحبل... الذي لا زال طويلاً... فكرت ريحانة قليلاً ماذا يمكنها أن تصنع... لا فائدة من عملها هذا... نظرت ريحانة بجوار الغزالة... رأت على بعد خطوة من قدم الغزالة السليمة صخرة بارزة... عادت ريحانة لأعلى و أحضرت عوداً بطول ذراع واحد... ثم نزلت... وبعد أن وصلت إلى تلك الصخرة البارزة... وضعت العود عليها... وحاولت تثبيته... ثم وضعت طرفه الآخر الأعلى... تحت قدم الغزالة مباشرة.

بدأت الغزالة تعتمد على ذلك العود... وريحانة تسلقت لأعلى بسرعة... وعندما وصلت للشجرة شدت الحبل من طرف الشجرة الآخر... كي يلتف الحبل من خلف ساق الشجرة ويعطي قوة أكبر.

الغزالة المنهكة تستند برجلها على العود... وريحانة تسحب من أعلى... وأخيراً خرجت قدم الغزالة ويدها... ولكنها سقطت مكانها من التعب، وبمجرد سقوطها

زاد انشداد الحبل... أحست ريحانة بثقل كبير... لذا لفت الحبل لفة أخرى خلف ساق الشجرة... ثم بدأت تفلته قليلاً... قليلاً... والغزالة ساعتها تنزل قليلاً... قليلاً.

عندما أوشكت الغزالة الوصول للأرض... ربطت ريحانة الحبل في الشجرة... ثم نزلت بسرعة جهة الغزالة... كانت تحمل في يديها سَيْرَين صغيرين من جلد الذئب... وعندما وصلت للأسفل ربطت قدم الغزالة السليمة بيدها السليمة... ثم عادت لأعلى وأكملت إنزال الغزالة على الأرض... تنفست ريحانة الصعداء... وتنفسته الغزالة أيضاً... نظرت ريحانة للسماء وهي تقول.

- "الحمد لله".

ثم نزلت مرة أخرى لأسفل... عندما وصلت... كان هناك مخلوق جديد يتنفس الصعداء... إنه المولود الصغير للغزالة... لقد نزل من بطن أمه وأصبح الآن يتحرك على الأرض... نظرت الغزالة لريحانة... كانت هناك مشاعر متبادلة... وكانت النظرات أشبه بنظرات الشكر... لم تكن الغزالة قادرة على الحركة... لذا فكت ريحانة السير الذي ربطتها به خشية هربها... لقد أصبحت ريحانة تضرب الحساب لكل الاحتمالات... حملت ريحانة المولود الصغير ووضعته أمام رأس أمه... وبدأت تتفقد إصابات الأم.

إنها تحتاج إلى تضميد سريع ليدها ولرجلها... ريحانة لا تدري هل رجل الغزالة كانت بالفعل مكسورة... أو ربما كانت مجروحة فقط... أحضرت الفتاة أغصان أشجار دقيقة... ووضعت الأغصان الصغيرة على اليد... من كل الجهات التي تحيط بالجرح... ثم ربطتها جيداً بأحد السيور... ثم أضافت سيراً آخر... وهكذا فعلت بالرجل الأخرى... حاولت ريحانة أن تساعد الغزالة الأم على الوقوف... ولكن دون فائدة...؛ لذا ربطتها في حجرة صغيرة مجاورة... وانطلقت لتحضر لها ماء بمزودتها... وعندما رجعت بالماء وضعته أمام رأس الغزالة... نظرت الغزالة بعين عميقة ثم شربت.

وبعد أن رفعت رأسها بدأت تقاوم من أجل النهوض... بدا وكأنه سُرِّي عنها الألم... ذهبت ريحانة بعد ذلك جهة كهف النمر... إنها تريد معرفة آخر تفاصيل حياته... كانت خطواتها سريعة ونظراتها متجهة لكل صوب... وبعد أن وصلت إليه ألقت بنظرة سريعة... إنه لا زال رابضاً في مكانة... لم يتغير شيء... عادت ريحانة... ولكن الذي تفاجأت له الآن... أن رأت الغزالة الأم واقفة... يبدو أن صحة يدها ورجلها تحسنت بفضل الضماد... وربما لم تكونا مكسورتين... لقد أحست ريحانة بسعادة كبيرة... لذا تقدمت... وسحبت الغزالة بالحبل... كانت الغزالة تعرج... ولكنها قادرة على المشي... حملت ريحانة الصغير في يدها... وسارت حتى أدخلتهم جميعاً داخل منزلها الصغير... لقد خالج مشاعر ريحانة كثير من الأمن والطمأنينة... بوجود هذا المخلوق بجوارها... فكرت ريحانة كيف ستنام الليلة... بالطبع لن تشعر بأي قلق... مسحت ريحانة على رأس الصغير ثم قدمته نحو أمه... لقد بدأ في الرضاعة... نظرت ريحانة للأم وبدأت تبتسم لها... قريباً سيكون لبن الغزالة...أحد أصناف طعام الفتاة الوحيدة.

حياة النمر الأم

مر يومان آخران على دخول الغزالة وولدها لحياة ريحانة... الحليب الآن يجد طريقه لجوف ريحانة... والغزالة الجريحة تشعر هنا بالكثير من الاستقرار والأمان... والوقت السعيد يمر على ريحانة وهي تلاعب غزالها الرشيق ... وعندما انبلجت أشعة شمس اليوم الثالث... كانت ريحانة تراقب عن كثب آخر التطورات في حياة النمر... ومن خلف التل الصغير... ربما رأت شيئاً غريباً... يال دهشتها... شيء ما عند بوابة الكهف... الأمر يحتاج إلى تقصٍ كامل لآخر الأحداث ... أخذت ريحانة سكينها وفأسها... وسارت بحذر شديد... كانت تتنقل خلف الصخور وترقب كل ما حولها... وأخيراً اقتربت من الكهف... إن وضعها الآن خطر جداً... ولكن الفأس معها... رفعت الصغيرة رأسها من خلف صخرة مطلة على الكهف... يا الله... ما هذا المنظر المرعب... النمر الأم... إنه مسجى على الأرض... حتماً لقد

فارقت النمرة الحياة... إنها ميتة... ولكن بجوارها تكمن المفاجأة... إنه نمر صغير جداً... ربما كان ميتاً أيضاً... انطلقت ريحانة... وتأكدت من موت النمرة الأم... عندما دققت النظر في عينيها... ثم حملت النمر الصغير... لا زال الصغير حياً... النمرة الأم منذ أن أصيبت لم تستطع الحصول على الطعام... من المؤكد أنها ماتت جوعاً... وصغيرها لم يجد الحليب الكافي... انطلقت ريحانة على عجل جهة غزالتها.

من هنا ستبدأ حياة جديدة... أمسكت ريحانة الثدي وبدأت تحلب في يدها... ثم ألقمت إصبعها للنمر... وبدأ الحليب يتسلل من اليد إلى الإصبع... ومن الإصبع إلى جوف النمر الصغير... كررت ريحانة عملها ذاك مرتين... أوه الأمر هكذا يبدو سهلاً... لقد ارتوى النمر الصغير... انطلقت ريحانة بعدها جهة النمر الأم... وهي تحمل سكينها... مر وقت طويل... وبعده جاءت ريحانة وهي تحمل جلد النمر... كان منظرها وهي تحمله على رأسها مذهلاً... أي فتاة هذه... إنه جلد كبير وجميل... لقد سلخته ريحانة بعناية فائقة... لذا تأخرت في عمليه السلخ... وهي تفكر الآن في أن تجعله ثوباً لها... منظر مهيب... بالتأكيد ستكون يداها بدل يدي النمر... ورقبتها بدل رقبة النمر... وستقوم بتعديل اللازم... باستخدام السيور الصغيرة... وإبرة من الشوك... وبعد أن وصلت الفتاة لمنزلها أعدت أوراق الشّث لدبغ الجلد... إنها حتماً سعيدة.

الفصل الثامن

داود شاع... يحط قدمه بسلام

وفقت السفينة ذات المحرك البخاري على الشاطئ... وقام العمال مسرعين ليضعوا المرساة... وفُتح الباب الجانبي للسفينة لأسفل... حتى اصطك طرفه بحافة الجسر الممتد من الشاطئ إلى اليابسة... واجتمع العمال من سكان قرية (البرك) كي يساعدوا في نقل الأمتعة والبضائع... غالب البضائع تخص الحاميات العثمانية المنتشرة على جبل عسير... بيد أن أجور أولئك العمال زهيدة جداً... فالبؤس الصارخ وحده يرتسم على وجوهٍ شاحبة وثياب رثة... تُبدي مدى فقرهم وتدل على أن أجورهم زهيدة إلى أقصى غاية... في الغالب ليست أجورهم سوى حفنة من قمح أو زبيب.

وعلى مقربة من الشاطئ... يتجمع باعة السمك... وهم أشد بؤساً من مياه البحر المالحة التي تغرق وجوههم كل يوم... مع كل مرة ينزلون فيها للبحر... وعندما تنعكس أشعة الشمس على وجوههم تبدو بشرتهم العلوية سوداء محروقة... كل ذلك لا يهم... المهم كيف يبيعون ما لديهم من أسماك.

وخلف باعة السمك يجتمع نسوة في أوساط أعمارهن... وكل واحدة منهن لديها (تنور) صغير من الفخار... تخبز فيه أقراصاً صغيرة من الذرة... وتضع معها قدح لبن.

البـرك هـي الميناء الـرئيس لجنوب الجـزيرة... وقـبل أن تقـفل السـفـينة بـابهـا الخلفي... يـرفع داود شـاع قبـعتـه الصـغيـرة... إيذاناً بـالـنزول الميـمـون... وفـي أثناء نزوله يسحب أنفه الطويل المحدب... وعندما يصل إلى الجسـر الخشبي يملأ رئته بالهواء النقي... وحينها ينظر يمينة ويسـرة... لقد عزم على تناول بعض الطعام... اتجه فوراً إلى إحدى النسـاء و سـألها بلهجته السورية الأصيلة:

- "بكم هذا الخبز مع اللبن".

لقد كانت المرأة تعرف اللهجـة السـورية جيداً... لاحتكاكهـا الكبيـر مع زبائنهـا الأتراك... لذا لم يكن من الصـعب عليهـا أن تقـول بلهجـة تـركيـة ممزوجـة بلهـجتهـا السـاحلية.

- "ثلاث مجيديات".

رد داود... بنفس الطبع اليهودي... المليء بالكبر والبخل... وقال:

- "أوه... كثير كثير... تكفي نصف مجدية".

ولكن المرأة نظرت إليه بإشفاق... ثم قالت:

- "يبـدو أنك رجل مـسكين... خـذ هـذا الـطعـام بلا شيء... إنـه صـدقـة لوجـه الله... ولأجل روح والدتي الميتة منذ أسبوع".

حك الرجل الواقف رأسه في سعادة... ثم قال في مماطلة:

- "لا لا... يجب أن تأخذي نصف مجيدية...".

- "كلا لن آخذها... فهذا الطعام صدقة عليك...".

- "وأنت... خذي نصف المجيدية صدقة أيضاً مني لك...".

ثم ألقى الرجل عليها بـالعملة البخسـة... لم تشـأ أن ترده... لذا وضعت العملة بجوارها على حجـرة صغيـرة... أما داود فـقـد انطلق ليتناول طعامـه والألم يعتصـر

قلبه... على نصف مجيديته... التي لم ير أي مبرر لصناعة الكرم... والإلقاء بها إلى مكان لا رجعة لها منه... جلس داود هناك تحت سدرة كبيرة... في طرف السوق... إنه يأكل بروية... وبعد أن أنهى طعامه عاد للمرأة بقلق... ثم قال:

- "أعطيني الباقي".

- "أي باقي... لم يبق لك شيء".

- أوه يا خالة... بقي مجدية كاملة".

رمت المرأة له بنصف مجيديتة... وهي تهز رأسها... في حين أخذها في سعادة وانصرف.

انطلق داود جهة سوق الجمال... إنه يريد أن يبحث لنفسه عن جمل مناسب... يمتطيه كي يصل إلى هدفه... ولكنه غير مستعد لإنفاق المال... هنا لا توجد أي وسائل للنقل... ما يتكفل بنقل كل شيء... هو وحده الجمل... وربما كان الحمار في عونه... لا توجد عربات خيول ولا قطارات.

داود يحمل حقيبته الكبيرة... العمال يسيرون بجواره... ويعرضون عليه خدماتهم... ولكنه ينتهرهم بقسوة... لقد شعر أن ظهره ينكسر أو كاد... ولكنه يواصل السير... فالموت عنده أهون من إنفاق المجيديات... سوق الجمال لم يكن بعيداً... قرابة المئتي خطوة... وبعدها وصل داود... إنه يدور ويسحب أنفه الطويل... وأخيراً حصل على جمل مناسب... ولكن المشكلة ليست في الحصول على جمل هنا... المشكلة تكمن في السعر... سعر الجمل غير مناسب لرجل يحسب حساب مجيدية واحدة... فكيف بثلاثين ريال فضة.

كاد ظهره ينفصل من حملة لحقيبته... وبقي الرجل يسحب أنفه بعنف بالغ... ويتردد على صاحب الجمل طيلة اليوم حتى ضاق الجمَّال بداود وبالجمل... وكان الحل الأمثل الذي اهتدى له الجمَّال هو أن باع الجمل... فقط بخمسة وعشرين ريالاً... أخرج داود نقوده من حقيبته الكبيرة... ودفع السعر... ثم طلب من الجمّال

أن يحمل له أحماله على الجمل... نظر إليه الجمال شزراً... وعندها كان داود مضطراً لحمل متاعه بنفسه... حمل داود متاعه وربطه جيداً على ظهر الجمل... ثم ركب فوق أحماله... وبدأ يسير.

إمام خاشع

داود يسير راكباً على جمله... ويقطع البيد وراء البيد... ولكن طموحه الكبير يجعل كل أتعابه سهلة... لقد ولى وجهة جهة محايل... إنها الحاضرة الصغيرة لكل تلك البقاع البدائية... وبين كل حين وآخر... يُخرج داود خارطته ويتأملها جيداً... ثم يخرج دفتر مذكراته ويكتب ملاحظاته... وكلما سار أكثر أخرج خبزاً ناشفاً معجوناً بالسكر... وبدأ يقرمش منه... ثم يسحب أنفه الطويل.

كان داود قلقاً بادئ الأمر... لذا كانت يده على مقبض مسدسه ذي المقبض الخشبي... ولكنه بعد أن سار لمسافة طويلة... ودخل إحدى القرى على جنبات الطريق... وسقى جمله... وشرب هو... وتزود لنفسه ببعض الطعام المجاني... أصبح أكثر أمناً... وفي الوقت ذاته أكثر اعتداداً بنفسه... وبذكائه المفرط... وحسن تصرفاته... واحتقاراً لهؤلاء الجهلة... الذين ينفقون أقواتهم دون مقابل... وبعد طول عناء... وصل داود شاع إلى سوق محايل.

هاهم الباعة ذوو الوجوه القرمزية اللون... وتلك هي أشجار السدر العملاقة تجلس تحتها النسوة اللواتي يخبزن الخمير مع اللبن... وهناك قطعان المعز... ودبيب الناس أشبه بدبيب النمل... أهل السراة يشترون الثيران ويقتادونها... ومع خروجهم من السوق تبدأ مواويلهم... لازالت أمامهم مسافات طويلة حتى يصلوا بهذه الثيران إلى ديارهم... إنهم لا يستغنون عن ثيران تهامة القوية... في حرث مزارعهم أو سقيها... أوقف داود جمله ثم نزل عنه... وربطه بإحكام في إحدى أشجار السدر... وتأكد بالطبع من إحكام ربط الأمتعة على ظهر الجمل... ثم دخل إلى السوق، لقد تعمد داود أن يدخل مع المكان القذر الذي تدخل معه الماشية... لا أحد يدري لماذا... ولكن ربما كان يسير في حي اليهود بهذه الطريقة.

أتجه داود جهة دكاكين القماش والملبوسات... واشترى لنفسه زياً بلدياً... ولكن عملية الشراء لم تتم إلا بعد جدال طويل... بالطبع حول السعر... وبعد ذلك الجدال استطاع داود شراء الملابس بسعر أقل من رأس المال... حمل داود ملابسه وأجال بصره في الوجوه الغادية والرائحة.

داود يشعر أن الناس هنا أغبياء... وأن عليه أن يستغل غباءهم... لأن التسامح الذي يفكرون به... لم ينقدح في ذهنه في تلك الساعة... كذلك كان داود يفسر كل ما يصدر عن أولئك الفقراء... لقد كان الأمر كذلك بالنسبة له... أما الأمر بالنسبة لهم فهو مختلف تماماً... إن الدنيا عندهم لا تعني الكثير... إنها لا تغني لهم أكثر من أقواتهم... أما أمر الغريب فإنه يهمهم كثيراً... إنهم يعتبرونه ضيفاً يجب عليهم إكرامه... لذا فإنهم لا يحاسبونه حساباً عسيراً في تعاملاتهم التجارية... لأنهم أيسر من ذلك بكثير...

خرج داود من السوق وهو محمل بالأعطيات... والأشياء التي اشتراها بثمن بخس... ولكنه الآن في زي رجل عربي... إنه أشبه ببدوي قح... ولولا أنه سحب أنفه الطويل المعكوف... لما عرفت أبداً أنه صديقنا داود شاع.

الجمل الآن أكثر أحمالاً... إنه محمل بقرب الماء والتمر والزبيب... وأيضاً بعكاك العسل والسمن... ودقيق... وكيروسين... وشيء من البارود... ترك داود جلبة السوق وراءه... وانطلق للجنوب الشرقي... حيث أمله الكبير... وكلما سار الجمل مسافة معينة يرفع داود غطاء خرج الجمل... ويخرج الخارطة... ويتأملها جيداً... ثم يقرأ الملاحظات الهامة ... كالملاحظة التي تقول:

- "إن على المسافر أن لا يدخل وادي تية من جهة الغال إلا في الصباح... لأنه واد موحش ... وهو كثير السباع".

الوقت الآن يقارب الغروب... وداود في الوقت ذاته يدخل قرية العيدة... حتماً عليه أن يبقى هنا حتى الصباح... ولكنه في حيرة من أمره... أين سينام... وكيف

سيقضي الليلة المقبلة بأقل الخسائر... مر وقت قصير... ومن هناك أقبل رجل طاعن في السن وابتسم لداود وقال:

- "مرحباً بالضيف".

- "مرحباً بك".

- "أنت عندنا الليلة".

- "هه... بالطبع... بالطبع".

- "هل أنت متوضئ لصلاة المغرب أم أنك تريد الوضوء".

- " أوه... الصلاة ... نعم نعم... أنا على وضوء".

تعانق الرجلان بكل عفوية... ودخل الشيخ للمسجد... وتبعه داود... لا مانع من أن يصلي مع هؤلاء... كي تكون الصلاة أُجرةً لما سيقتات به... بدأ الشيخ يؤذن... وبدأ داود يسحب أنفه الطويل... وعندما صلى المؤذن ركعتين تحية للمسجد... لم يجد داود حرجاً في أن يقوم بتمارين رياضية من جنس الصلاة... مع أنه أبعد ما يكون حاجة للتمارين... خاصة بعد حمله لحقيبته الكبيرة... وبعد مشواره الطويل... وعندما أقيمت الصلاة... ابتسم الإمام لداود وقال له.

- "تقدم وصل بنا... تبدو متعلماً".

أصاب الذهول صاحبنا داود... فمن غير المعقول أن يدخل في الإسلام بكل هذه السهولة ويصبح إماماً... هذا شيء مضحك... ولكن الأكثر إضحاكاً أن داود تقدم للصلاة... بالطبع هو يعرف الفاتحة... ويحفظ المعوذات... من كثرة ما سمعها من المسلمين في دمشق... ويعرف أيضاً أن عدد ركعات المغرب أربع ركعات... وأن عدد ركعات العشاء ثلاث ... لقد بدأ في الصلاة وكان قادراً على إطراب المصلين بصوته... لقد سار في الصلاة على ما يرام... إلا أن داود بعد أن سلم انقلب جهة المصلين بسرعة... وفاجأه أن المؤذن قد نظر لجاره وقال:

- "العلم نور... كنا نظن المغرب ثلاث ركعات... وإذا بها أربع!!".

ثم نظر المؤذن إلى داود... كان داود حينها يتصنع الاستغفار في محرابه... قال له المؤذن مبتسماً:

- "جزاك الله خيراً يا ولدي... سبحان الله... يؤتي العلم من يشاء".

وبعدها تفرق الناس وذهب المؤذن لمنزله... ثم عاد سريعاً بالطعام... أما الإمام فقد بقي في المسجد ينظر إلى أصابعه.

وبعد أن وصل الطعام إليه بدأ في الالتهام... الفروق المصنوع من الدقيق المطبوخ في اللبن... أكل الإمام داود ما بدا له من الفروق... وشرب اللبن... وتذكر حينها كلمة دارجة تقول (مطوع اللبن)... أحس أنه قد عرف معناها جيداً... ثم مد يده نحو الخبز الأحمر... وبدأ يأكل منه بعد تنديته بالسمن... وبعد أن شبع... بدأ في لعق أصابعه.

قليل من الوقت... أوه لقد دخل وقت العشاء... وحضرت الصلاة... اجتمع الناس في المسجد فجأة... كان كل منهم يحدث صاحبه عن هذا الضيف الجديد... الذي يحفظ العلم والقرآن... الجميع حريصون على مقابلته والتعرف عليه... أقيمت الصلاة... وصلى داود أيضاً إماماً للناس... وكانت صلاته ثلاث ركعات... أعجب الناس بعلمه الفذ... ومنذ تلك الزيارة الميمونة... لرجل يهودي ميمون... مثل داود... وحتى زمن قريب... كان الناس يصلون في ذلك المسجد بالذات... صلاة المغرب أربع ركعات... وصلاة العشاء ثلاث ركعات... ظناً منهم أن هذا العدد هو العدد الصحيح... ولم يكونوا ليعلموا أن ذلك الزائر أبعد ما يكون عن الإسلام... وأقرب ما يكون لمطوع اللبن... صاحب القصة المشهورة.

لقد سار الليل بهيماً... وعندما حلت صلاة الفجر لم يصل داود بهم الصلاة... ربما لأنه تأخر كثيراً في الوضوء... وربما كان ذلك بسبب عسر الهضم الذي أصابه من إفراطه في الأكل... مما حدا الإمام الحقيقي أن يطلب من المؤذن أن يقيم الصلاة... أقام المؤذن في حسرة وكمد... على أن لا يؤمهم قارئ القرآن... واصطفوا للصلاة.

الحقيقة أن المؤذن قد قضى أكثر وقته في الصلاة وهو يفكر... وبعد انتهاء الصلاة... أمال رأسه لمن بجواره ثم قال له:

- "ليتنا انتظرنا العالم حتى يأتي... ربما كانت صلاة الفجر ركعة واحدة".

ولكن جاره قال له:

- "إذا دخل الوقت يجب أن لا تؤخر الصلاة".

- "صدقت".

غار هيروس

رحل داود في الصباح بعد أن تزود بعدد كبير من أقراص الذرة والدخن التي توافد بها أهل القرية... تبركاً بهذا العالم الكبير... وشيعوه حتى خرج من القرية.

مرت الساعات وداود يتهدج على جمله ... وأخيراً دخل الوادي الذي سمع عنه كثيراً... إنه ينظر بلهفة ناحية جبل الغال المشقوق... أوه كم كتب عنه المؤرخون الأجانب... فتح داود الجراب تحته و أخرج كتاباً وبدأ يدقق فيه... عليه أن يتجه أولاً لغار (هوريس)... إنه مكان مناسب للسكن وللمبيت... كما ذكر عنه الباحث الفرنسي هوريس... حدد داود مكان الكهف على الخارطة بدقة... ثم ضرب جمله براحة يده... واستمر الجمل في المسير... داود ينظر إلى تلك الجبال الشاهقة... وإلى أشجار السدر العملاقة... ويفكر في مدى وعورة الحياة هنا... وأخيراً بدا الجبل المشقوق... تماماً كقرني ثور أميركي... إنه منظر مهيب ورائع... أخرج داود ورقة وقلماً... وبدأ يرسم ذلك المشهد... ومع أن داود يعترف أن رسمه في جميع الأحيان... كان أشبه بطبعة قدم القرد على الرمال... إلا أنه الآن أبدع كثيراً في الرسم... وكل ذلك يرجع لصفاء نفسه.

ربما كان ذلك الصفاء... بسبب أنه قد توضأ لصلاة الفجر بعد نظافة بطنه... داود متأكد أنه لا يوجد أحد من البشر داخل هذا الوادي... حتماً سيسكن

في غار هوريس لأنه نزل مجاني... وغداً سيبدأ أبحاثه التي قد تطول... حول إمكانية وجود عناصر مشعة... أو ألماس في هذه الجبال... الوضع الآن مطمئن... والجبال بالفعل تبدو ثرية.

وأخيراً وصل داود إلى الكهف... إنه كهف معقول للسكن... نزل داود من فوق جمله... وربط الجمل في شجرة قريبة ثم اتجه جهة الكهف... مدخل الكهف مبني بالحجر والخلب... له فتحة عرضها نصف خطوة وطولها لأعلى خطوة... وعلى الداخل أن ينحني كي يدخل... لحسن الحظ استطاع داود أن يدخل... لأنه رشيق بالفطرة... وأيضاً بسبب سوء التغذية... الناتج من البخل المتأصل فيه... كيهودي أصيل... الكهف من الداخل قذر مظلم... وهذه ميزة أخرى... وفي الطرف الأيمن من الكهف جذع شجرة غليظ... وعندما يوضع الجذع على الباب يسده بأكمله... مساحة الكهف الإجمالية لا تتجاوز ثلاثة أمتار في مترين... وفي جدرانه توجد عيدان صغيرة مغروسة لتعليق الملابس... وفي أحد الأركان حجرة بارزه يوضع عليها مصباح الإنارة... ومن الداخل يوجد سرير مبني من الخلب بارتفاع شبرين... وفي النهاية وسادة أيضاً من الخلب بارتفاع نصف شبر... وقريباً من الباب يوجد الصلل... وهو مكان مبني من الخلب... على شكل مربع يوضع الجمر بداخله بعد إشعاله في الخارج.

بحث داود عن أشياء أخرى كي يتملّكها... ولكنه لم يجد شيئاً... هذا لا يضير... لقد خرج داود وبدأ يُنزل متاعه من فوق الجمل... وأول شيء أدخله للداخل... هو مكنسة صغيرة... النظافة هي الشيء الأهم لكهف مهجور... ربما سكنته كل الهوام... حيث بدأ داود لتوه في الكنس... فلا يليق بيهودي مثله أن يعيش في القاذورات والأتربة أكثر مما عاش... لأنه الآن في عسير... وبعد الانتهاء من عمليه الكنس... حمل داود المصباح الصغير... وأناره... ووضعه في المكان المناسب... وأكمل ترتيب بقية مفردات الغرفة... المكتبة والمنظار ومجموعة العدسات وقوارير مليئة بالمواد الكيميائية... ومِبْرد ومنشار مزود بيد خشبية

طويلة... داود يبدو عازماً على النجاح... وطيلة الليل كان بجوار المصباح الزيتي... إنه يدرس في أوراق مكتبه... ومع الصباح سيبدأ العمل.

الفصل التاسع

الوادي بعد عام

أشرقت الشمس بدلال أخاذ... ريحانة هناك توقد الحطب... إنها أشبه بنمر رشيق... بسبب ثوبها المصنوع من جلد النمر... والذي يغطي كامل جسدها... حتى خمار رأسها كان من جلد رأس النمر... منظرها مهيب ورهيب... ولكنها الآن أكبر بقليل من ذي قبل... لقد مر عام كامل على وجودها هنا... في هذا الوادي الرهيب.

إنها الآن عارفة وخبيرة... بكل دقائق واديها... وبجوارها يتحرك النمر ذو العام الواحد... إنه الحارس الشخصي الأمين... لمن يحسبها أمه... وهو وفيٌّ لها... لأقصى درجات الوفاء.

وفي الحضيرة... تركض الظباء الثلاثة... ويتطارد الحجل البري... الذي نزع الريش من أجنحته... لم يعد فناء ريحانة صغيراً... لقد أصبح يحيط منطقة واسعة... وهو مسور بالأشواك والأحجار.

ومنزل ريحانة لم يعد هو منزلها الأول... ذلك الشق في داخل الصخرة... لقد تغير كثيراً... لقد أصبح المنزل الآن فوق الصخرة الكبيرة... إنه مبنى واسع... إذا ما قيس بالمبنى الأول... ولكنه مع كل ذلك... لا يجاوز الحُجرتين... وهو مبني من الحجر والخلب.

الصخرة العملاقة... التي بنت عليها ريحانة منزلها الجديد... تبدو مختلفة عن كل الصخور... وذلك يدعو للاستغراب والاندهاش... في آن واحد... فعوضاً عن لونها الأخضر المائل للسواد... فهي تعكس أشعة الشمس وكأنها قطعة من أحجار ثمينة.

محيط الصخرة من الأسفل ربما جاوز الخمسين ذراعاً... ومع التقائها بالأرض يتغير لونها إلى الأسود الداكن... أما ارتفاعها فربما قارب العشر خطوات... لقد أصبحت أشجار السدر مزروعة داخل الفناء الشوكي المحيط بالصخرة... وكان محيط الفناء يزيد عن مئتي ذراع... والمواشي تروح وتجيء.

ريحانة تسمح للنمر أن يصيد لها الوبران... وتسمح للغزلان أن ترعى في السهل المجاور... بعد أن تربط إحدى قدميها بحبل صغير مع إحدى يديها.

ريحانة كلما سارت إلى أي مكان... فإنها تصطحب النمر... وهي تشعر بالفخر كلما اصطحبته... إنها تتذكر الأيام الخوالي... عندما أحضرت هذا النمر من الجبل بعد موت أمه... لقد كان حينها أكثر شبهاً بقطة صغيرة... عام كامل... لقد مر سريعاً... وكلما حلبت ريحانة تلك الغزالة الأم... يعود في ذهنها ذلك المنظر القديم... عندما نشبت يد الغزالة بين الحجرتين.

ها هي حياة ريحانة بعد عام كامل... تجد باب الاستقرار والهدوء... بعد أن تكاملت الأشياء الضرورية فيها... لم تعد ريحانة بحاجة لأحد... لقد أَنِست الفتاة بحياتها هذه... وأصبحت تعشقها أشد العشق... وأخذت من الوحوش أهلاً و سكناً لها... وربما كان عالم ريحانة الجديد كفيلاً بأن ينسيها البشر... والحياة المعقدة التي يعشونها... ولكنها بين الفينة والأخرى تجد في عقلها لمحة للرجل الذي أبت الأيام أن تنسيها إياه... إنه عين الدين... وربما تراءى لها أخوها الهارب... الذي لا تعلم في أي أرض الله هو... وقليلاً ما تجد نفسها راغبة في الترحم على أخيها شداد... الذي كان سبباً لكل تعاستها هذه... أو كل سعادتها هذه... بعد أن جاء بها إلى هنا وهلك.

داود في حذر

ومن الجهة المقابلة في الوادي... يتجه داود... الرجل الأكثر ثقة في نفسه... إنه يبحث عن صخرة كبيرة... تلتمع عليها أشعة الشمس... وهو متأكد من أنها هي الكنز الكبير... الذي سيقلب حياته... وحياة يهود العالم.

المال هو الشريان الرئيس... الذي ستقوم عليه دولة إسرائيل في المستقبل... والأموال سوف تجمع ثم تعرض على السلطان العثماني... كي تكون ثمناً لأرض فلسطين.

حتماً سيكون داود هو المتبرع الأكبر في هذا العمل اليهودي التاريخي... وسيكون رئيساً للدولة القادمة... دولة إسرائيل... أمامه المجد والشهرة... ساعات قليلة... أوه... إنها لا تبعد عنه سوى خطوات.

أسرع داود في المشي... الخارطة تحدد كل شيء... وبدقة... توقف فجأة ثم ابتلع ريقه... وبدأ ينظر يمنة ويسرة... لقد كاد قلبه أن يتحول إلى خرقة بالية... بمجرد سماعه لزئير النمر... إنها النهاية التي لم يكن ليتوقعها... وفي حالة من ذهوله أسرع داود بيده جهة جيبه... وأخرج المسدس... وتأكد من الطلقات بداخله... ثم تنفس بعمق... إنه الآن أكثر أمناً... وبعد ذلك تابع المسير.

كان داود يتنقل بين الشعاب... وفي كل حين ينظر إلى الخارطة في يده... وأخيراً شارف على الصخرة... إنها خلف هذا التل... صعد داود إلى أعلى التل... ثم أطل برأسه.

نظر قليلاً... ثم صوب نظره... ثم عاد إلى الوراء وجلس... يبدو أن قبيلة من الجن قد سبقت إلى الصخرة... يال خيبة الأمل... الكتب تقول: إن الجن يلتفون حول الأحجار الكريمة... كيف فاته هذا... يا لها من كارثة.

دخل داود في تفكير عميق بعد أن أمال ظهره على صخرة صغيرة مائلة... ولكن... قطع أفكاره تلك... صوت بديع ناعم... يترنم بما حسب داود أن لا يسمعه

هنا... إنه أذان الظهر... فزع داود... وأرخى سمعه للصوت الندي... لقد بدأ... يتسلل بهدوء... لأعماقه الظامئة... بكل معاني الأمان والسكينة... إنه صوت فتاة... جنية بالطبع... دخل داود في تأمل غريب.

- "هؤلاء جن مختلفون تماماً... و لم يكفهم أنهم جن منقطعون في هذا الوادي الموحش... بل زادوا الطين بلة... فهم أيضاً جن مسلمون... يال تعاستهم... بل يال تعاسة حظي وخيبة أملي... لو كانوا من الجن اليهود... أو على الأقل... من الجن الملحدين... لأمكنني التفاوض معهم... ولكن هؤلاء... لا ... لا... إنها مشكلة حقيقية".

انقدحت لداود فكرة جهنمية...

- "لماذا لا يكون إماماً لهم... سيصلي بهم... وسيعلمهم عدد ركعات المغرب والعشاء... ربما كانوا يصلون المغرب ثلاث والعشاء أربع... ولكن هذه العفريتة المؤذنة... صوتها رائع... إنه بالفعل صوت ساحر... أشبه بأذان المسلمين في إسلام بول... في قلب الخلافة العثمانية... كيف تعلمت هذا اللحن العثماني... الناس هنا يُلحّنون الأذان بطريقة بسيطة... ولكن... يال غبائي... الجن يطيرون بسرعة... ربما ذهبت وتعلمت الأذان هناك... أو ربما كانت جنية تركية... أوه... حتماً ستكون جميلة".

داود وريحانة

بعد أن صلت ريحانة صلاتها... دخلت لمنزلها كي تعد الغداء... لتوها أنهت عملاً مضنياً... قضته في تقسيم خلايا النحل الجديدة... إلى أماكن متفرقة في الوادي...

أما داود... فقد عاد مرة أخرى لينظر إلى ما حسبها أحياء للجن... ولكن النمر الرابض على الصخرة العملاقة بجوار الحجرتين يوحي بالرهبة والخوف... هذا النمر الخبيث... نائم على الصخرة التي يهمه أمرها كثيراً.

وبعد تأمل طويل... بدأ اليأس يدخل لنفس داود... ولكنه لم ينفك من إلقاء النظر... والتوغل داخل أحلام المستقبل... ولم يلبث الوقت طويلاً.

وبينما داود في جلسته تلك... إذ تسورت عليه رائحة الشواء... وبدت تنفخ في منخريه... الكبيرين أصلاً بما فيه كفاية... ولكنه سارع إثر ذلك في سحب أنفه بشدة... إنها رائحة لحم الوبران المشوية.

داود ليس لديه طموح في أكل اللحم... لأن منظر النمر الرابض هناك... يوحي بأن اللحم المشوي... ربما سيكون لحم يهودي كهل... عندما يقرر هذا النمر مهاجمة داود كي يقدمه لأسياده الجن... لذا عزم داود على الرحيل من مكانه... وبعد قيامه من مكانه... واتجاهه خطوة للأمام... بدا من هناك وجه الفتاة الصبوح... إنها آية في القدسية... كما أنها آية في الهيبة والسكينة ...

الفتاه الجنية... ملكة هذا الوادي... إنها بالضبط... كما انقدحت صورتها من قبل... في ذهن داود... فتاة لها جسم نمر... ورأس فتاة صارخة في الجمال... انبهر داود... وفغر فاه... وجحظت عيناه ... ولم ينس أن يسحب أنفه ... ثم جلس مكانه...

كانت الفتاه النمر تحمل في يدها عصى طويلة... تمسكها مع منتصفها... وسرعان ما خضع النمر الحقيقي... أمام سطوتها... فقط عندما أشارت إليه بيدها... لقد بدا مستكيناً خائفاً... رفعت الفتاة رأسها لأعلى... أشبه بعملاق يتطاول... ثم أشارت إلى داود المختبئ هناك... والذي لا يظهر منه سوى طرف رأسه.

أيقن داود أنها عازمة على أسره... كي تُصيِّره عبداً لأطماعها... لا بد وأنها تعرف خبايا كل شيء في الوادي... هرب داود ساعتها وهو موقن بالهلاك... لم تكن خطواته المتسارعة إلا قوة مضاعفة من الخوف الذي حل في فؤاده...

الحقيقة أن ريحانة لم تعلم عنه شيئاً... ولكنها أشارت للمكان الجديد الذي ستضع فيه خلية النحل الجديدة... بيد أن الأقدار... هي وحدها... من جعل داود هناك... وصل داود لكهفه المظلم... بعد عناء كبير من الركض... ودخل وهو يرتجف... لم يكلف نفسه جهد نزع الحذاء... ولكن رأسه لازال يلتفت يمنة ويسرة... دون شعور... إنه سر رهيب من الخوف والتساؤل... ولكنه ألقى بنفسه

على الأرض في صمت وهدوء ... وعندما سُرِّي عنه بعض خوفه... قام بسرعة والقلق يكاد يُقطِّعه... ماذا جرى لعقله يا ترى... إنه عندما جاء... لم يشاهد جمله... تذكر شيئاً رهيباً... وفي الحال هب كالإعصار... كان يحدث نفسه!

- "الجنية... بالتأكيد... لقد أخذته... نعم لقد نقلته في الهواء... يال نهايتك التعيسة يا داود... ويال نهاية دولة إسرائيل".

عاد القلق إلى قلب داود مستأسداً.

- "هذه الجنية... لقد رفعت الجمل... وبعد قليل سترفعني أنا بذاتي... وستنقلني عبر الهواء إلى حيث تريد".

انكفأ داود على ركبتيه... ووضع وجهه على الأرض أشبه بساجد... واستمر جسمه في الارتجاف... كانت عيناه تذرفان الدمع ندماً على الجمل.

- "لماذا لم يستجب الله دعاء أولئك المسلمين... الذين صليت بهم المغرب والعشاء... لقد قالوا أحسن الله إليك... ويلك يا داود وويل أمك".

أين الجمل

انقضى اليوم على قلب داود كأثقل جبل على صدر حشرة صغيرة... وفي صباح اليوم التالي... أقفل داود باب كهفه وهو يتلفت يمنة ويسرة... ثم انطلق خارجاً نحو لا شيء... أو نحو الهروب من ملكة الوادي... الجنية النمرة... ومع الظهيرة دخل داود إلى الطريق الواصل ما بين عسير ومحايل من جهة بني مالك... إنه الطريق الأقصر للوصول إلى وادي بن هشبل... أما طريق الغال فهو الطريق الأقرب للوصول إلى ربيعة... وهما طريقان متوازيان وكل منهما يخدم جهة من جبال السراة الطويلة... سار داود حثيثاً... وعندما وصل لمنتصف الطريق سمع صوت الجمال التي توقفت لتقَيل وليقيل أهلها.

ناخت الإبل... وانطلق أصحاب القافلة... كل إلى شجرة قريبة... كي يغطي وجهه بطرف عمامته البالية وينام نومة الهانئ بأحلامه... رأى داود رقدة أصحاب القافلة... وهاجت في قلبه مع منظرهم ذاك... هواجس الشر... وعزم على شيء في نفسه... ربما سيعوض به جمله المسروق... لقد قرر سرقة أحد الجمال... والله يعوض على صاحبه.

وبعد مراقبة دقيقة لحال النائمين... تسلل داود في هدوء... وفك عقال آخر الجمال... وسحبه خلفه... وفي اللحظات الأخيرة وقبل اختفاء داود وراء تلة صغيرة أخرج الجمل صوتاً صغيراً... لقد كان ذلك الصوت بمثابة النعمة الكبيرة على الجمل... الذي لن يكون سعيداً أبداً بصحبته ليهودي متطرف جشع... انفلت النوم من بين أهداب أهل القافلة... وقفزوا بعد أن صاح أحد الحراس.

- "قاطع طريق... قاطع طريق".

واتجهوا جهة مصدر الصوت... وما هي إلا لحظات حتى أحاطوا بداود إحاطة السوار بالمعصم... وأصبح بعد قليل من الوقت مقيداً بينهم.

نظر داود بقلق إلى أعينهم... قرأ فيها تفكيرهم في قطع يده... ولكن الذي أذهله هو سماعه لكلمات بينهم توحي بإصرارهم على ذلك... لقد توقف الريق في حلقة... ثم نظر إليهم نظرة توسل... وبعدها قال في حزن:

- "دعوا ملكة هذا الوادي تحكم بيننا".

أجابه دبشي... الشيخ... ذو الخمسة والستين عاماً.

- "ربما كنت تهذي أيها السارق... أو ربما كنت تريد كسب الوقت لتهرب... ومن هي يا ترى ملكة هذا الوادي... أنت لا شك من أكذب الكاذبين".

قال داود وهو يشعر بأنه صادق فيما سيقوله.

- " إنها الفتاه النمرة... أو هي الجنية النمرة... إنها تبطش بكل من يظلم... وأي إنسان يظلم أنساناً في هذا الوادي... أو يقيم عليه أي عقوبة دون علمها... سوف تعاقبه... ولو علمت أنكم قطعتم يدي دون علمها فسترفعكم عبر الهواء... وتسجنكم جميعاً".

تضاحك الواقفون... ولكن داود أقسم أنه رآها بأم عينه... وأقسم عليهم أن يسيروا معه... كي يريهم جمله الذي رفعته في الهواء وهو يراه أمامه... ثم غاب عن ناظريه... إنها ملكة جبارة مهيبة... وليس في قلبها خردلة من رحمة ... نظر دبشي زعيم القافلة إلى أتباعه... ثم نظر إلى داود وقال:

- "وماذا إن كذبت علينا".

- "اقتلوني... وخذوا كل ما أملك".

هز دبشي رأسه متعجباً ثم قال:

- "كل ما تملك... إذن أنت ثري... ولديك ممتلكات ".

وقف شعر رأس داود... لقد اعترف بما لم يكن من الواجب أن يعترف به... ولكن دبشي لم يهتم لذلك كثيراً؛ لذا قال لأتباعه:

- "هيا... جميعنا نسير مع جمالنا... وهذا السارق ضعوه مكتوفاً على آخر جمل... ضعوه على الجمل الذي سرقه".

سارت الجمال بين شعاب الوادي سيرًا ثقيلاً... كان الرجال يبدون من فوقها ككثبان رمل متحرك... والشمس حارة حارقة... وبعد وقت قصير أطلوا على ما لم يكن بحسبانهم... إنها القرية المبنية على الصخرة السوداء... إنها مملكة الجنية النمرة... والجنية هناك بجوار نمرها... تبدو كأسطورة من الإباء والشموخ والمكانة... أشار دبشي بيده... وتوقفت قافلتهم رويداً رويداً... في حضرة الملكة الفتاة.

اقترب دبشي من الفتاه... وألقى السلام... ثم ألقى بصره على ملامح وجهها المضيء... وتذكر دون سابق نذير وجه زوجته رديفة... إنها تتقاسم مع هذه الفتاة كثيراً من ملامح الصبر والسماحة... رديفة تجول أمامه بكل تقاسيمها... المرأة التي قاسمته سنين حياته الطويلة... لقد تركها دبشي مع أبنائها... هناك في قرية آل قران...

أعاد دبشي النظر إلى الفتاة النمرة... ثم أحس بشوق رهيب لمن أحبها حباً كبيراً... وأصبح لا يستطيع مفارقتها لوقت طويل... ولكن... هكذا هي التجارة... وتلك هي اللقمة التي تفرض الفراق عن الأحباب... وتجارة دبشي الطويلة التي تنمو بسرعة تحتم عليه الرحيل الدائم بين الحجاز وأسواق عسير... إنه عمل مضن وخطير... ولكن لا مناص... تذكر دبشي وهو واقف أمام الفتاه المهيبة مئات الأفكار... تذكر العبيد والجمال التي يملكها والقوة والسيطرة... وأتباعه الكثر في القرية... إنهم يعملون جاهدين في الزراعة والرعي... وإصلاح المزارع... كل ذلك بفضل الله ثم بفضل رديفة زوجته الحبيبة... لقد عادت عليهم البئر الهلالية بكل خير... لقد جاء بعد انتظار طويل... قطعت أفكار دبشي تلك... صرخة داود وهو يقول:

- "انظروا... ها هو جملي... إنه في حظيرتها".

نظر الحضور... وشاهدوا الجمل... ثم تقدم دبشي بهدوء... وشد عمامته بوقار... واتجه نحو ريحانة التي لم تبد مهتمة بهؤلاء... ولكنها نظرت إليهم بتمعن ثم شدت... جلدها على رأسها... ثم قامت من مكانها... ومع وقوفها بدت مهابتها وجلالها... الجميع ينظر بذهول... ومع اعتدال قوام تلك الجنية النمرة... مسحت على ثوبها المرقط... وتقدمت نحو دبشي... لم يُخفِ دبشي مشاعر الإجلال لها... ولكنه قال بهدوء الواثق:

- "السلام عليكم يا بنتي".

- "وعليكم السلام".

- "إنسية أنت أم جنية".

ابتسمت ريحانة وقالت:

- "وهل يستطيع الأنس من أمثالكم أن يعيشوا لوحدهم هنا".

ابتسم داود وهو ينظر إليهم... ابتسامة المعتد بنفسه... ثم بدأ دبشي يتكلم.

- "إذن كلام الرجل صحيح... وأنت جنية".

لم ترد عليه ريحانة... وإنما أدارت ظهرها ورفعت بصرها لأعلى الجبل... في حين أكمل دبشي:

- "هذا الرجل... أخبرنا أنك أنت ملكة هذا الوادي... وأخبرنا أنه لا أحد يحكم فيه إلا أنت... وقال: إن من يتعدى طاعتك ترفعينه للسماء ثم تهوين به للأرض... وقال: إنك رفعت جمله ذاك... ثم وضعته في حضيرتك... ونحن أتيناك لتحكمي بيننا بالعدل والشرع... إن كنت من الجن المسلمين... والله يأمر بالعدل والشرع".

ألقت ريحانة طرفها للبعيد... ثم لم تلبث أن نظرت إليهم وهي تعزم على القعود... وقالت في أثناء ذلك.

- "وما هي شكايتكم".

رد دبشي في اهتمام:

- "لقد سطا هذا الرجل على جمالنا... وسرق واحداً منها... ولكننا قبضنا عليه... وقد اعترف الآن بجرمه... فما حكم الله فيه".

حملت ريحانة عصاها الطويلة ثم وقفت... وبعدها صعدت بهدوء واتزان على صخرة مقابلة لمنزلها... كانت هيئتها مثيرة لكل عوالج الرهبة... وكان نمرها يتبعها في خضوع وإذعان... ولما اتزنت واقفة أشارت بيدها للأفق... وبجوارها النمر الذي ربض عند قدميها ذليلاً... وقالت بصوت جهوري:

- ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾... صدق الله العظيم... أنا ريحانة... الفتاة الضعيفة... وأنا إنسيه مثلكم... ولكن الأقدار قذفتني في هذا المكان الموحش... لقد كنت يتيمة... وكنت فقيرة... لكن الله لطف بي... ورحمني ورعاني أعظم رعاية... منذ عام كامل وأنا أكدح في هذا الوادي... وها أنا ذي... أتوج ملكة عليه... أي نعمة أنعم الله بها علي".

لم يفهم الحاضرون معنى كلامها ... وشعرت هي بذلك؛ لذا أردفت:

- "إذا كان هذا الجمل لك يا رجل... فادخل واسحبه مع خطامه... واحرص عليه... وأحسن إليه".

ثم نظرت ريحانة إلى دبشي وأردفت.

- "وإن كان هذا الرجل قد سرق جملكم فاعفوا عنه... واصفحوا ... إن الله يحب المحسنين".

خشعت قلوب الحاضرين لهذا الكلام... الأكثر مناسبة أن يخرج من فم عارف مجرب... لا من فم فتاة صغيرة... وطأطؤوا برؤوسهم للأرض... ولم يكن لداود أن يفعل ذلك معهم... لأنه قد انطلق للحضيرة بسرعة ... وأخرج جمله... وعند الباب سحب أنفه الطويل... في حين رفع دبشي رأسه وقال:

- "إذن تأتين معنا يا فتاة... سنكون لك أهلاً... لا يمكن أن تبقى فتاة في سنك... في مثل هذا المكان الموحش".

ابتسمت ريحانة بهدوء وهي تشعر بما يشعر به دبشي... ثم قالت في صرامة:

- "أنا لست لوحدي هنا... أنا معي الله... ومعي مخلوقات هي أشد وفاء من الأخوة".

نظر دبشي إلى النمر ثم إلى الغزلان... ثم نظر إلى من حوله... وتقدم قليلاً جهة ريحانة... وبعد أن تأملها طويلاً قال:

- "اعذريني يا ابنتي... لم أقصد الإقلال من قدرك... صدق الله إذ يقول... ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾... قد تكون الأنثى أفضل من عشرات الرجال... ولو لم تكوني شجاعة قوية... لما انكسر أمامك هذا النمر الموحش... الذي يهابه أهل تهامة وأهل السراة".

ابتسمت ريحانة وهي تنزل من فوق الصخرة... وتقدمت جهة دبشي... وبعد أن وقفت أمامه نظرت له بعين حزينة... ثم نظرت لنمرها الذي يتبعها بإخلاص... وسرعان ما انتقش جرحها الغائر في أعماقها... حيث لم تطالع رجلاً حليماً بعد أن خرج عين الدين من حياتها... ثم قالت بكل عفوية وبراءة:

- "ما أعظم أن تكون أباً... وما أعظم أن تعيش فتاة مع والدها... إنها حتماً ستشعر بالأمان والدفء".

ولكن ريحانة بعد ذلك رفعت رأسها بهدوء... ثم أردفت:

- "علينا أن لا نستسلم للحياة القاسية... ويجب أن نكون أكثر قسوة منها... وعلى فؤاد فتاة تعيش في هذا المكان أن يكون صلباً كالحجارة".

ابتسم دبشي من أعماقه... ثم ألقى نظره جهة أتباعه وقال:

- "هذا درس كبير... علينا أن لا ننساه أبداً... هيا يا رجال... الطريق أمامنا ينتظر".

وجبة كبيرة

ألقت ريحانة بطرفها نحو ضيوفها... ثم قالت:

- "وهل يجدر بملكة الوادي أن تترك أضيافها يرحلون دون أن تكرمهم بما يليق بهم كضيوف... وبما يليق بها كملكة".

نظر دبشي إلى من حوله... ثم نظر للفتاه وللصخرة... ثم أجال بصره في المنزل الصغير... وشعر أن شيئاً هنا لا يصلح أن يقدم للضيف... وشعر أيضاً أن من الواجب عليه هو أن يعطي هذه الفتاه شيئاً تسد به جوعتها... إنه لا يدري كيف استمر حديثة معها دون أن يفكر بشيء كذلك... ولكن قافلته المكونة من ستة جمال

لا تحمل إلا حبالها وشيئاً من السعف والأحذية الجلدية التي سيبيعها في محايل... ولن تكون محملة بالحبوب إلا في طريق الرجعة... قال بعدها في حسرة.

- "سوف نذهب يا ابنتي".

نظرت ريحانة لدبشي بعينين غاضبتين... ثم قالت:

- "أنت أعقل بكثير من أن تجعلني أدخل في دائرة الخزي والعار... لن أسمح لكم بالذهاب حتى أكرمكم... هيا اجلس أنت ومن معك تحت السدرة العملاقة... هناك مكان معد للجلوس".

نظرات ريحانة لم تكن نظرات كاذبة... ولم يستطع دبشي إلا أن يهز رأسه موافقاً... ولكنه في أثناء ذلك كان يتساءل... هل ستقدم لنا الفتاه شيئاً نأكله... كانت ريحانة حينها قد وقفت تحت ظل السدرة... وأزالت بعض الأشواك الصغيرة من مجلسها الصغير ذاك... ثم سحبت بفأسها قليلاً من الرمل المتكوم في منتصفه... ثم نفضت الغبار عن حجرتين أو ثلاث... هي أشبه بالأرائك... وقالت بصوت مرتفع:

" هيا تفضلوا".

تقدم دبشي ومن معه حتى وقفوا تحت الشجرة... إنها مناسبة جداً للجلوس... لقد قُصت أغصانها السفلى بطريقة منظمة... والأوراق في أعلاها متشابكة أشبه بعريش من القصب... ولونها الأخضر يوحي بجمال ساحر... وبين الفينة والأخرى تسقط ثمرة أو ثمرتين من الثمار الصفراء الصغيرة... على الأرض ذات الرمال الناعمة... ولا يمر وقت قصير إلا وينبعث من حناجر العصافير الصفراء صوت شجي... وهي تنقر في حبات السدر.

كان دبشي جالساً قد أسند ظهره لجذع الشجرة الغليظ... وتحت مرفقة الأيسر حجرة بيضاء مستوية يتكئ عليها... والرجال من حوله جالسون بعضهم قد ربع قدميه وبعضهم الآخر قد مدها... أما ريحانة فقد وقفت قليلاً أمام الضيوف وهي تعرب عن ترحابها بألفاظ مسجوعة... ثم انطلقت بعد أن أشارت للنمر بأن يتبعها...

كانت ملكة الوادي تفكر في أفضل طريقة لإكرام أول زوار لها في هذا الوادي... لقد جاشت مشاعرها بأحاسيس غريبة عندما رأتهم... إن بذرة الحنين إلى حياةٍ آنسة... تلاعب بعفوية عواطفها... صورة الوحدة القاسية انكشفت لها وهي تنظر إلى وجه دبشي الرجل الشهم... ولكنها غير قادرة على إجراء مقارنة بين حياة هادئة مع الوحوش... وحياة مليئة بالصخب مع بني البشر... لقد أحست الفتاة أنها تريد إكرام هؤلاء الرجال بكل طاقتها... إنها لا تعلم لماذا... ولكن مشاعر الإنسان التي حسبت ريحانة أنها نسيتها منذ مدة بدأت تعود لتلامس كيانها من جديد... كانت ريحانة تسير بهدوء... ثم انتبهت لنمرها الذي يسير خلفها... وبعد تفكير قصير أشارت إلى الجبل... ثم لعيني النمر... ثم حركت يدها بحركة صغيرة... بعدها انطلق النمر.

عادت ريحانة لمنزلها... وتناولت عدداً من الأخشاب المتراصة في زاوية الفناء... ووضعتها في التنور ... ثم أوقدت النار... وبعد ذلك اتجهت جهة حظيرة الغزلان... وحلبت الغزالة الأم... ثم عادت ووضعت الحليب في إحدى الحَجَرتين المنقوبتين... والتي تصل سعتها إلى قرابة اللتر والنصف تقريباً... ثم وضعتها على النار ودخلت للداخل... وأخرجت الجلد الذي يحوي العسل... وسكبت منه قليلاً مع فتحة صغيرة داخل إناء الحليب... وتركته للنار كي يسيح بهدوء.

الحجرة المنقوبة حظيت بالكثير من العناية حين صنعتها ريحانة... لقد استغرقت عشرة أيام من الجهد الشاق باستخدام الفأس... وهي حجرة من نوع خاص... إنها صلبة... وفي الوقت ذاته قادرة على تحمل النار.

نظرت ريحانة للحليب... كانت السخونة تدخله شيئاً فشيئاً... وفي أثناء ذلك كانت ترخي سمعها للجلبة التي تحدثها خطوات النمر وهو قادم من بعيد... لم تلبث ملياً على حالها ذاك... إذ سرعان ما ابتسمت عندما رأت في فمه وبراً كبيراً... تقدم النمر وتناولت ريحانة الوبر... ثم ربتت على ظهر النمر وأرسلته مرة أخرى... كانت السكين الحادة تعمل في قطع رأس الوبر حين بدأ الحليب في الغليان...

أزاحت ريحانة الحليب قليلاً... وأكملت فتح بطن الوبر... ثم أزالت أمعاءه ووضعته على النار دون سلخ جلدة... إنها طريقة ريحانة الأفضل لكي لا يحترق اللحم... وبعد أن ينضج اللحم سيكون من السهل إزالة الجلد.

لم يدم الوقت طويلاً... لقد أحضر النمر وبراً آخر... فكرت ريحانة في الدقيق... لو كان لديها شيء من الدقيق لكانت الوجبة ذات طابع آخر... ولكن لا مشكلة... أكملت ريحانة إعداد الوجبة... وبدأت في تقديمها بين يدي الضيوف... وبعد أن وضعت سفرتها المكونة من مجموعة من الأغصان الصغيرة والمتراصة بنظام بجوار بعضها... ثم المربوطة بسير صغير من الجلد... بدأت ريحانة في تقديم أصناف الطعام ... اللحم... الحليب... السمن... العسل... وشيء من البيض المشوي ... كانت ريحانة تضع أصناف الطعام في حين كان دبشي ومن معه مأسورين لما يشاهدون أمامهم... وبعد أن اكتمل عرض أطباق المائدة ابتسمت ريحانة وقالت:

-" تفضلوا ... أهلاً وسهلاً ".

قام الرجال الثمانية بهدوء... وجلسوا بعد أن جلس كبيرهم دبشي... حينها كان داود قد ذهب... ولكن شيئاً ما جعله فجأة يعاود سحب أنفه الذي يشتم رائحة كل شيء مجاني... لقد اشتم رائحة الشواء... وما كان لمثله أن يُفوّت هذه الفرصة... لذا ربط جمله وعاد نحو الوليمة... كأحد الضيوف المحترمين... وشارك الجميع في طعامهم.

الجميع بمن فيهم الضيف المحترم الجديد داود... كانوا يضعون قطعاً من أبيات العسل داخل السمن... ثم يرفعونها إلى أفواههم... وبعدها يشربون الحليب الذي يُسمع رشيف صوته بين شفاههم كصوت موسيقى الجاز مع بداياتها في أوائل القرن ما قبل الماضي... انتهى الطعام وربما لم ينته الجوع... ولكن أحداً هنا لا ينتهي جوعه... المسألة دائماً تنتهي عند حد اللقيمات القليلة التي تشعر بالشبع أو توهم به... مسح دبشي فمه وقام وهو ينظر إلى رجاله ثم قال:

"رحم الله والديك... وجاد الله عليك".

قام الجميع بعده وهم يرددون الكلمة ذاتها... وبعد أن تبادل دبشي وريحانة نظرة شكر صامتة... قال دبشي في هدوء وهو ينظر بتفكير إلى آخر الوادي:

"تأذنين بأن نجعل درب القوافل يمر من هنا... كي يتزود المسافرون بالماء... أظنك لن تمانعي يا ابنتي".

أجابت ريحانة وهي تهز رأسها:

- " نعم".

- "أنت بهذا تفعلين الخير الكثير... لم يكن أحد من المسافرين يستطيع دخول هذا الوادي إلا ويده على قلبه... كانوا يعرفون أن في هذه الجهة بركة ماء... ولكنهم كانوا يؤثرون حمل قرب الماء من ديارهم على تعريض أنفسهم للموت... أنت ملكة هذا الوادي".

قالت ريحانة وهي تفرد ابتسامة صادقة على فمها:

- "أنا سعيدة بذلك... سأصنع الخير طاقتي لكل إنسان... المسلم هو إنسان الخير... وهو الذي يصنع المعروف... ولا يريد من أحد جزاءً ولا شكوراً".

نظرت ريحانة إلى الرجال الملتفّين حول دبشي ثم أكملت.

- " أنتم كذلك... اصنعوا المعروف ثم ارموا به خلف ظهوركم... حتماً ستجدونه يوماً ما أمامكم... إن هذا هو حال المعروف... دائماً يتقدم للأمام... ألم تسمعوا نبأ الرجل الغليظ الذي تبع الرسول محمداً ﷺ ذات يوم... كان رسول الله يسير بهدوئه... المعهود... أما الرجل... فكان يسير ويدك الأرض من تحته... لقد سار خلف رسول الله حتى أدركه... لم يكن الرسول يدرك أن بشراً يسير وراءه... ولكنه عرف ذلك عندما شعر بيد جلفة غليظة تمسك بطرف قميصه... ثم تسحبه بكل عنف للوراء... ارتد رسول الله للخلف... لقد أوشك على السقوط... وكادت حروف

رقبة القميص تخنقه... وبعدها اعتدل واقفاً... ثم استدار للخلف وأجال نظره في وجه الأعرابي الذي يتقاطر جهلاً وحماقة... أصحاب الرسول يرون ذلك المنظر... لقد كادوا يتفطرون ألماً... فليس مثل رسول الله من يُسحب بطرف قميصه... وما هي إلا لحظات وتهب عاصفة من الرجال... المتقلدين سيوفهم... لم يكن لينزع حنقهم أن يقتلوا الأعرابي ويقطعوه إرباً ويرموا بلحمه لكلاب الصحراء البعيدة... لقد كانوا يريدون به نكاية أشد... وضع رسول الله يده على رقبته بهدوء... ثم سحبها وعينان تنظران للسماء... ثم عاود النظر في الدم الذي خرج من جرح غائر في رقبته الشريفة... ضم الرسول أصابع يده... وتقاطر دمٌ شريف خالد تتعطش الأرض لتشربه... وبعد لحظات قصيرة بدا وأن الأرض ترتوي من تلك القطرات الزاكية... إنها قطرات من دم رسول الله الأكرم... وبعدها يعيد الرسول نظره في وجه الأعرابي الجلف... ثم لم يملك وجهه السمح إلا أن يبتسم... وتستدير ابتسامته حتى يشرق وجهه بها شمساً مضيئة... إنه الرحيم بالمؤمنين... والرحيم أيضاً بالكافرين... وحينها يخجل بريق السيوف... الذي التمع آنفاً في أيدي حامليها... وبدا وكأنها تطالب على خجل بالقصاص من رجل أدمى رسول الله... ولكن رسول الله يرفع يده لهم... ليكتب للدنيا قصة خالدة من الصفح والعفو... لم يكتف الأعرابي برؤيته لبشاعة خُلقُه عندما رأى الدم... لقد كان حرياً به أن يعتذر... ولكن قصة الرحمة لم تنته بعد... لقد تمادى الأعرابي في نكوص فطرته وأخلاقه... حيث امتدت يده مرة أخرى نحو رسول الله... كي يجر رسول الله أخرى... ورسول الله لم يتكلم... ولكنه ابتسم للأعرابي ابتسامة أخرى... هناك وقفت الدنيا أو كادت تقف... لترقص طرباً في استراحة قصيرة لها على أنغام العفو والسماحة... وتغنت جبالها وبحارها وذرات ترابها على أنغام كلمات مسجوعة حفظها الكون... وربما كانت تقول... ما أعظمك... ولم يتوقف المشهد بعد... لقد أعادت الدنيا دورتها ليقول الأعرابي:

- " أعطني من المال الذي عندك... إنه ليس بمال أبيك... ولا جدك".

وعندها توشك السيوف أن تهوي... ولكن توقفها بسمة هي أجمل من طلعة البدر... ويقول رسول الله متحدياً بعدها كل شيء:

- "سنعطيك حتى ترضى".

جلست ريحانة وطأطأت برأسها... وهناك... يبدو داود... قد فغر فاه في دهشة... وربما كان يفكر في مدى مكسبه لو عاش في عهد الرسول... إذن لأمكنه أن ينهب كل شي... وربما كان يفكر في شيء آخر... ربما كانت بذرة صالحة بذرتها ملكة هذا الوادي... أكملت ريحانة:

- "اذهبوا في رعاية الله... وكل من مرَّ على هذا الوادي فهو ضيف لله... ثم ضيف لي... ولكن ليحظر معه دقيقه وسمنه... وإنا سأخبز له... أو ليحظر معه زاده... فأنا سأطبخه له".

القلوب الخاشعة تنظر إلى السماء في ثقة... ثم سبَّحت الألسن ربها... وبعدها قال دبشي:

- "هيا للرحيل".

كنز بني مالك

دبشي عائد إلى قريته بعد طول العناء... لقد قفل أخيراً من رحلته إلى محايل... ولكن عودته هذه تختلف عن عوداته السابقة... لقد عاد بمكسب كبير... حيث تمكن من تأمين محطة آمنه لأفراد قبيلته... يستريحون فيها ويتزودون... اقترب دبشي من باب منزله... بدأ قلبه يرف عندما تذكر زوجته وأطفاله... كانوا في استقباله أمام الباب... لقد أخرج من جيبه قطعة من المشبك التي اعتاد إحضارها كل من يزور محايل... كانت ذات لون برتقالي رائع... وناولها أطفاله في حب... ثم اقترب من زوجته وهو يقول:

- "أنت دائماً تدعين لي بالتوفيق... لقد حصلنا في رحلتنا هذه على ما هو أثمن من الكنز".

دخل دبشي مع زوجته... وبدأ يقص عليها كامل أحداث قصته العجيبة... كان ذلك اليوم هو يوم الأربعاء.

مع ظهيرة يوم الجمعة صلى دبشي بالناس إماماً... وبعد أن انتهى من صلاة قال:

- "لا يذهب منكم أحد... اجتمعوا في السقيفة الخارجية... هناك أمر هام".

اجتمع أهل القرية... وأخبرهم دبشي بجميع ترتيباته الجديدة في سفره جهة محايل... ثم طلب ورقة ودواة... وأرسل رسائله لكل قرى بني مالك... وفيها أخبرهم بضرورة أن يتغير طريق السير من الطريق القديمة إلى جهة ملكة الوادي... فهناك يضمن لهم الماء... ويضمن لهم الطعام... بشرط أن يحمل كل رجل دقيقه وسمنه معه... ولا بأس في أن تمنحوا ملكة الوادي رغيفاً عن كل عشرة أرغفة تخبزها لكم... ومن أراد أن يعطي أجرته بُنّاً أو تمراً أو زبيباً أو حباً فله ذلك.

الغزالة

هكذا تغير حال ريحانة بشكل مفاجئ... فقد فتح الله لها باب رزق جديد... وأصبحت القوافل تقف عندها للراحة والتزود... مما جعلها تبني حجرات إضافية ليقيل فيها المسافرون أو ليناموا... أما جارها داود فهو غارق في أبحاثه... إنه يروح ويجيء مثل العفريت... لقد أصبحت حُجرته القذرة معرضاً لأصناف كثيرة من الأحجار... ولا تكاد تراه إلا وهو يحمل عدساته ويدقق في أيما حجر يصادفه... وفي أوقات الطعام لا يحرم نفسه من رحلة استجمام ينطلق فيها إلى ملكة الوادي... فهو يعتبر نفسه صاحب دار.

الغريب في الأمر أنه هنا لا يمثل دور الأستاذ... ولا دور إمام المسجد... إنه لا يكاد ينبس ببنت شفة في حضور من يعتبرها سيدته... بل ربما مثَّل دور التلميذ

النجيب المنصت لما تقوله... وسرعان ما يؤكد أن نصائحها نصائح ذات قيمة... وكلما أشبع بطنه سحب أنفه وانصرف.

شيء واحد لم يجرؤ داود على فعله حتى الآن... لأنه يخاف كثيراً من النمر... إنه يحدث نفسه بأن يأخذ بعض أجزاء الصخرة التي تربض عليها حُجرات ريحانة... ولكنه يشعر بقلق شديد من عمل كهذا.

ريحانة دخلت عامها الحادي عشر... لقد أصبحت شابة ذات قوة وشكيمة... ولها هيبتها وسمعتها المذهلة... وداود طيلة عام كامل لم يكل ولم يمل من السير لتحقيق أمله الكبير... ومع ذلك فهو يفغر فاه كلما تحدثت ريحانة بمواعظها الأكثر شبهاً بالموسيقى الموزونة.

حسابات داود بدأت في الحقيقة تتغير... بعد أن ملأ بطنه ذات مرة من الخبز والعسل... ثم اعتدل بظهره لينظر إلى ملكة الوادي وهي تخرج من حظيرة الغزلان... لقد قالت في حزن.

- "يعز علي أن أذبح الغزالة الأم... كانت أنيستي عندما كنت وحيدة هنا... لقد تقدم بها السن وعميت... كم يهولني فراقها لو ماتت... أما لو ذبحتها وأكلت لحمها فإني عندها سأكون غادرة... الغدر هو أسوأ صفة يمكن للإنسان أن يتصف بها... وحدهم اليهود من يغدر... ويربي ولده على الغدر... المسلم يهرب من عمل أي عمل يمارسه اليهودي... لأن اليهود غدروا برسل الله الذين أرسلوا إليهم... لن ينسى التاريخ عملهم مع عيسى عليه السلام... ولن ينس غدرهم حين غدروا أيضاً بمحمد... هل تقتل ضيفك يا داود... هل يمكن أن تقتله بعد أن تقدم له الطعام... البشر لا يستطيعون فعل ذلك... واليهود غدروا بالرسول مراراً... وأخيراً حاولوا قتله بالسم الذي وضعوه في الطعام ثم قدموه له... ألا تذكر يا صديقي... لقد عاهدوا رسول الله على أن لا يساعدوا المشركين في حربهم معه... في مقابل أن يحميهم ويمنحهم السلام والأمان الذي يمنحه لكل مسلم تحت رايته... وبعد أن

حماهم الرسول ذهبوا فزعين إلى قريش... ومنحوهم الخطة التي يقضون بها على رسول الله... إنهم أقذر من قدميك هاتين يا صديقي داود".

سحب داود أنفه ممتعضاً في حين أكملت ريحانة:

-"علينا أن نحمد الله كثيراً لأننا لم نكن يهوداً... إذن لكنا ساعتها أبعد ما يكون عن شعور الإنسان... وأقرب ما يكون من شعور الشيطان".

وضعت ريحانة يدها تحت خدها ثم قالت:

- "وربما كان من اليهود أناس لهم قلوب حسنة... ربما... لقد كان لرسول الله جيران من اليهود... وكان يحسن إليهم... بالتأكيد لا يزال بأعماق كل يهودي بذرة حسنة ستنبت إن أرادوا هم رعايتها ".

بدأ جسم داود يتصبب عرقاً... وبدأت نظرات ريحانة الصارمة تدق في كل شبر من جسمه... وبدأ يحس بوخز الإبر يجرح مشاعره... ومع أنه يهودي إلا أنه ليس عديم الإحساس لدرجة أن لا يشعر... سحب داود أنفه ثانية وقام... وبدأ يتراجع للوراء... وأخيراً رفع يده بالتحية وانصرف.

مر وقت قصير... وبعده وصل داود لمنزله وهو أشبه بالمعتوه... إنه يفكر في كلام ريحانة... الذي تمنحه ملامحها الصارمة رهبة أكثر... لربما أحس بوخز شيء في قلبه... لربما كان الضمير... ولربما كان الجبن والخوف... ولربما كان شيئاً آخر... انكفأ داود على أحجاره... وبدأ يتفحصها ليخفي عن نفسه حقيقة مشاعره تجاه الشابة الملكة.

وفي اليوم التالي عزم داود على البقاء في المنزل... وعزم على عدم الذهاب لجارته... لقد بدأ يخاف من لقائه بها مع أنه يحس بشوق عارم لرؤيتها... وهو كثيراً ما يتساءل... ما هذا الشعور المتناقض في قلبه... ولماذا لم يعد قادراً على مواصلة أبحاثه... صورة الفتاة ترتسم له في كل مكان... وكلماتها البليغة تصيبه بأمثال وخز الإبر.

ومع وقت الظهيرة هام قلبه في سبحات بحر قدسي... بعد أن سمع صوت ريحانة وهو يشق أطراف الوادي بأذان عذب... لقد خارت جميع القوى التي تكنزها أعضاؤه الولهانة وعظامه المكدودة ... إنه أشبه بالمعتوه... أو النائم اليقظان... ألقى بنفسه في وسط كهفه وبدأ يهز رأسه ويردد مع الأذان... وبعدها شعر أنه ينفجر بالبكاء المرير... ولكنّ طرقاً على بابه جعله يفيق... نظر جهة الباب... وعادت إليه دهشته ووخز الإبر الذي يحيل جسده ناراً... إنها ريحانة... ها هي واقفة أمامه... ونظراتها تكاد تكسوه بالأمان... قام جزعاً نحوها... ولكن سرعان ما ابتسمت وقالت:

- "لقد ذبحت الغزالة الأم... كان ذبحي لها رحمة لها... لقد بدأ الدود يهرش عينيها... لقد فعلتُ ذلك وهي تتألم... وأنا أيضاً أتألم... لذا أرحتها من الحياة... عندما يموت الحيوان فإنه يرتاح... لأنه لم يكذب يوماً... ولم ينافق ولم يخادع الناس... وحده الإنسان... عندما يموت يجد أمامه الحساب والعقاب... ويجد جزاء الحسد والحقد والكبر والتسلط... وكذلك الخيانة... إنها جميعاً من أعمال البشر... الغزالة ارتاحت الآن... خذ هذا شيء من لحم الغزالة... إنه طازج... عليك أن تطبخه... والباقي ضع عليه شيئاً من الملح... الملح يساعد في حفظه... لقد جلب لنا المسافرون كل شيء حتى الملح... وهذا شيء من الملح".

نسي داود مشاعر الروحانية وبدأ يفكر في اللحم....

اجتماع سري

المساء بدأ يخيم على الدنيا... وداود في كهفه منهك... إنه يكتب بقلمه السائل على أوراق صفراء... لكن أحرفه المدونة ليست عربية... لقد كان داود يكتب باللغة العبرية... لم يكن أحد يستخدم اللغة العبرية... ولكن أحياها بعض اليهود أملاً في إحياء دولة لهم... لم يكن داود متقناً للعبرية إتقانه للعربية... لذا كان يعاني بعض

الشيء من التدوين... ولكن سرعان ما تدركه السعادة كلما تذكر قضيته الكبرى... ومع كل الجهد الذي يبذله داود إلا أنه لا يبدو دقيقاً في تدوين كل حرف.

ومع صباح اليوم التالي ذهب داود إلى جهة الطريق القديم الذي يربط بني مالك مع محايل... وبقي ينتظر هناك حتى الظهر... ومع اشتداد حرارة الجو في الظهيرة جاءت قافلة عثمانية قادمة من جهة قرى بني مالك... ومتجهة جهة محايل... وربما كانت قصدت بعد محايل ميناء القنفذة... نزل من القافلة رجل تركي... ولكن يبدو من ملامحه أنه يحمل نفس الدم الذي يجري في عروق داود... تبادلا تحيتهم ثم استلم داود أشياء من الرجل وسلمه أشياء بدوره... وعاد كل منهم في حال سبيله.

هذا العمل بدا وأنه عمل اعتيادي بالنسبة لداود... إنه يعيد عمله هذا كل شهرين تقريباً... ويبدو أن آماله تزداد يوماً بعد يوم... وبمجرد حصوله على الأحجار الثمينة أو حتى على العناصر المشعة سيكون من أهم ممولي الحركة الصهيونية... ولا شك عندها أنه سيصبح رجلاً بارزاً... وسيكون من السهل عليه أن يلعب دوراً سياسياً كبيراً.

- "آه لو تسمح ريحانة لي بدراسة الصخرة التي تحت منزلها جيداً... هذه الجنية المأفونة... التي تزعم أنها إنسية مسلمة... ويصدقها العرب الأغبياء على شاكلة دبشي ومن معه... أوه... يجب علي أن أفلق الصخرة إلى فلقتين وأبحث في أعماقها... ولكني سأتدبر الأمر... حتماً سأتدبر الأمر".

الفصل العاشر

الضرس

دبشي يدخل على رديفة وهو يبتسم... لقد أصبح تاجراً ذا قيمة... ومخازنه مليئة بالحبوب بجميع أنواعها... ولكن بسمته تلك لم يطل بقاؤها على ثغره... لقد اصفر وجهه عن حسرة كبيرة عندما رأى رديفة منكسة رأسها ودموعها تذرف... ماذا دهاها يا ترى... قال لها مهتماً وهو يقترب منها أكثر ويوشك على وضع يده على رأسها.

- "ماذا أصابك يا رديفة".

نظرت له رديفة بألم تخالطه الفرحة ثم قالت:

- " ضرسي... ضرسي يا دبشي... إنه يكاد يخرق عقلي ".

- " لا حول ولا قوة إلا بالله... هذه السوسة اللعينة... عليك أن تصبري... ولكن... هل وضعت شيئاً من الضِّرْسَةِ... إنها الورقة التي ينصح المجربون بوضعها على الضرس ".

- "إنهم يوصون بذلك ما لم تتمكن السوسة من الضرس... أما أنا فإنني أضع الضرسة ولا تنفعني".

فكر دبشي قليلاً ثم قال:

"عليك أن تصبري... سوف أحضر الحجام".

هزت رديفة رأسها في تسليم... وانصرف دبشي... وفي غضون ساعة كان الحجام واقفاً على الباب... وأمامه يدخل دبشي... ثم دخل الحجام وجلس... وبدأ يفتح قفه الجلدي الذي يحوي جميع أدواته الطبية.

أخرج الحجام قطعة الحديد المخصصة بقلع الأضراس... إنها الكلابة... وهي عبارة عن حديتين نحيفتين وطويلتين ومتقاطعتين من وسطهما... ومع شد الحديتين لبعضها ينشد تلقائياً الطرف الآخر... قال الحجام بعدها:

- " سخن الماء يا دبشي... يجب أن تتطهر الكلابة".

مر الوقت سريعاً وأصبح... الحجام بعد ذلك واقفًا على رأس رديفة يستعرض مهاراته البارعة في قلع الضرس... الألم يستولي على رديفة والحجام يريد إنهاء عمله بسرعة... فتح الحجام فمها... ثم سأل عن مكان الضرس... وبعد أن أشارت إليه بدأ الحجام يسابق الزمن... كي ينجز عمله دون صراخ من الضحية... ودبشي يقول:

- "هون يا رجل إنك ستقتلها ".

وبعد لحظات أصبح الضرس في خبر كان... أما رديفة فهي تحرك رأسها بهدوء فاغرة فاها... وتشعر أن لحييها ليسا مكانهما... استأذن الحجام بعد أن أخذ أجرته من حبوب الشعير... ولم ينس أن يصنع لنفسه دعاية كبيرة... يعرض فيها قدرته على علاج الصداع بالكي... وأيضاً بالحجامة... وأمراض البطن بالكي... ثم أقسم أن تجبير الكسور شيء سهل بالنسبة لخبراته... خاصة وأنه يستخدم عيدان اليراع الخضراء ويكرر قراءة الفاتحة... انتهت الدعاية وانصرف بعدها ذلك الطبيب.

الفصل الحادي عشر

الوجبات

الحياة في وادي ريحانة تسير في وضعها الطبيعي... ووفود الضيوف يُقبلون عليها... ثم يفيضون عليها بشيء من الحَب و شيء من الأنس... وعندما ترتسم بسماتهم على وجوههم المكدودة تنبعث روح جديدة من المشاعر في أعماق ريحانة... وبعد أن يجلسوا يُخرج كل منهم صرته المليئة بحبوب الشعير ثم يحفن منها حفنة أو حفنتين... ويضعها على ذلك الجلد المهيمن على وسط غرفة الضيوف... والذي يبدو بلونه البني الداكن كقطعة أثاث راقية... تشعر جميع الأعين الناضرة إليه بشيء من (الأتكيت).

جميع الأعين تنظر إلى حجرتي الرحا الراقدة حتى الآن في طرف الغرفة... وبعد أن تسمع ريحانة صوت ارتطام الحبوب بالجلد تبدأ في دحرجة حجرتي الرحا حتى تضعهما في منتصف الجلد... ولا تلبث تلك الحبوب كثيراً حتى تتحول إلى دقيق ناعم تحت حجرتي الرحا... ومع انتهاء ريحانة من الطحن تبدأ رائحة الحطب خارج الغرفة تتسلل إلى أنوف أولئك الجالسين في الانتظار... يد ريحانة تدخل وتخرج في الإناء الذي يحوي الطحين والماء... ثم يتحول العجين تحت يدها إلى كور صغيرة ...

أعين الحاضرين تنتظر بلهفة... وبطونهم تتآكل من الجوع... وفي أثناء ذلك تطيل ريحانة أسئلتها الكثيرة عن أمور تجهلها... ويقومون هم بالإجابة عنها...

وعند ما تكون النار جاهزة... ويصبح العجين جاهزاً... تبدأ ريحانة في وضعه على النار... وربما خبزته في طرف الميفا... أو ربما وضعته على الجمر الملتهب.

وبعد أن ينضج الخبز قد يطلب صاحبه شيئاً من الحليب... أو اللبن... أو ربما طلب شيئاً من السمن والعسل... وكل شيء بأجره... وعند انتهاء الجميع من طعامهم تتقاضى ريحانة أجرتها على كل ذلك... ليس ثمة أجرة غير الحبوب... أو خدمة يقدمها لها ذلك الرجل المسافر... ربما ساعدها في حمل شيء من الأخشاب... أو دحرج معها حجرة... أو شيئاً من ذلك... ريحانة قادرة على شراء كثير مما تحتاجه... لأن الحبوب عندما تزيد عن حاجتها فإنها تبيعها.

ضابط عثماني... يهودي

ريحانة أصبحت مشهورة جداً... وتحول بفضلها ذلك الوادي المقفر إلى استراحة تهدأ فيها النفوس... ونمرها المطيع يعطي واديها هيبة وأمناً... فما دام النمر موجوداً فلا يمكن لأي سبع أن يتقدم للهجوم على أولئك المتكئين على الأحجار الملساء... ولكن داود يضمر في نفسه شراً... خاصة بعد مقابلته الأخيرة لأحد الضباط المغادرين إلى الأستانة... لقد تناول الضابط منه تقارير... وأمده ببعض أدوات البحث... وطلب منه طلباً غريباً... ثم أكد عليه أن تحقيقه لهذا الطلب سيدر عليه أموالاً طائلة... خاصة وأن أبحاثه عن الماس لم تحقق إلى الآن أي نجاح... لم يستطع داود أن يستوعب بدقة مدى خطورة تنفيذه لهذا الطلب... ولكنه يفكر في المكسب... وفي سنين عمره التي قضاها في الوادي دون فائدة.

ومع ذلك... فداود لا يدري ما حقيقة مشاعره تجاه ملكة هذا الوادي... وهو لا يستطيع أن يصارح نفسه بأن سنوات غربته هنا مرت عليه خفيفة سهلة بسبب وجودها إلى جانبه... إنه يحس أنه جزء من حياتها وهي جزء من حياته... لقد منحت روحه العفنة شيئاً من الصفاء... وهي إضافة إلى كل ذلك آية في الجمال... ولكنه يخافها أشد الخوف... ويخاف أن يلطخ سمعتها بشيء من ترهاته... إنه يفكر

بجد فيما لو طلبت منه أن يكون خادماً مخلصاً لها... هو يشعر أنها تستحق أن يخدمها... ولكن سرعان ما تتبدد أوهامه أمام قضيته الكبيرة... دولة إسرائيل... الآن بدأت نزعات متعددة الأبعاد تتصارع مع كثير من مشاعره... تجاه من اعتبرها أماً له... إنه كذلك اعتبرها... لقد أحس أن ريحانة أشبه بأمه التي لا يستغني عنها أبداً... مع أنه يكبرها بعقود... هل يا ترى سيسير على خطواته التي اعتاد السير عليها طول عمره... والتي لم يتعود السير بخطوات غيرها... أم أن شيئاً من انطباعاته عن الحياة قد تغير بسبب استفادته من دروس ريحانة التي تهزه كلما سمعها.

ما طلبه منه الضابط ذو الأصل اليهودي والذي يعمل في الحامية العثمانية في عسير شيء خطير... وهو أيضاً يتعلق بريحانة... ولكن الأموال التي تتمثل أمام عينيه دائماً... والأفكار في ذهنه تصعد وتهبط... والمشاعر في قلبه تقوم بالحركة ذاتها.

خرج مع الغروب من كهفه... ثم سمح لنفسه بخلوة مع الوجود... لقد ألقى بيديه خلفه... واستمر في إلقاء خطواته أمامه... وفي هدوء وتأمل كان ينظر للسماء التي صبغها الغروب بلون أنيق جذاب، ثم ينزل بنظره إلى تلك الصخور العالقة في جنبات الجبال الشاهقة أشبه بثمار شجرة الجار... ولكن داود يحفر حينها في أعماق نفسه... ويبحر في بحار لم يجاوز قاربه شواطئها من قبل... وصل داود إلى شجرة السدر... وبدأ يدور حواليها... وبين الفينة والأخرى يمد يده جهة أحد الأغصان المتدلية ثم يقطف حبة صغيرة... ويلقي بها في فمه... يمر وقت قصير... وتبقى الحبة قليلاً على لسانه... ثم تنتقل إلى ضرسين قويين يحيلانها إلى حلوى صغيرة.

وداود في أثناء ذلك يحسب حسابات المستقبل... بعد ذلك اتجه الرجل مع أنفه جهة منزل الفتاه النمرة... وعندما وصل لباب الفناء تردد قليلاً قبل أن يطرقه... ولكن ريحانة رأته... بعدها قالت:

"هل جئت من أجل الحليب... تفضل يا جار... لقد ملأت إناءك قبل صلاة العصر".

دخل داود مسرعاً... وحمل الإناء المعدني الذي يستوعب قرابة لتر ونصف... وعاد إلى منزله.

الجريمة

ألقت الشمس بنفسها في البحر... أو هكذا كان يُخيل للناس... وبقي داود أسبوعاً وهو يفكر ويقرر... وأخيراً اتخذ قراره... بالطبع كان قراره منسجماً مع نفسيته المتوترة... كلما لاح له المال.

طيلة تفكيره خلال الأسبوع الفائت كان المال يتراءى أمام عينيه... صحيح أن بعضاً من المبادئ كانت تلوح له... ولكن الصراع حسم لصالح المال... وبكل سهولة.

وبعد منتصف الليل... كان داود يعد نفسه لعمل ما... حمل الرجل المتحفز البندقية ذات السهم وخرج... إنه حريص على أن لا يصدر صوتاً من البارود... فربما احتاج العمل لسرية كاملة... وبعد أن أخفى بندقيته تحت قميصه القديم انطلق جهة ريحانة.

كانت قدما داود تتنقل... ولكن الخوف يتسور قلبه... صراع ما يُدخله في صراع آخر... شيء رهيب... إنه يشعر أن جميع عروقه تنبض بشبه انفجار... ولكن نار الشر القديمة... ونوازع الطمع المتأصل في المال... يكادان يعميان بصره... ظلام الليل يبث ستره... وداود يتنقل بين الأحجار... ورائحة الجريمة تفوح مع كل حركاته... وعندما اقترب من منزل ريحانة أحس أن شيئاً يعيده للخلف... وأحس أنه يتذكر كلماتها الذهبية وهي تتكلم عن الخيانة والغدر... بدأ قلبه يرتجف بدرجة لا تطاق... كاد أن يرجع القهقرى.

ولكن تراءى له الوهم الذي حسبه حقيقة... الوهم الصهيوني القديم... في دولة معاصرة اسمها إسرائيل... سكّن داود من روع قلبه وواصل تقدمه للأمام... ومن إحدى الفرج الصغيرة في الفناء الشوكي لمنزل ريحانة أدخل داود مسدسه... ومع شهيقه وزفيره المتسارع بدأ يصوب فوهة المسدس... وفي أثناء ذلك بدأت

الرعشة من جديد تسري في بدنه... إنه يريد أن يتمالك نفسه... ولكنها الرعشة... الرعشة المهيمنة على أطرافه... وماذا عساه يفعل.

لقد تراجع داود شيئاً فشيئاً للوراء... ومع ذهوله وحيرته سقط على الأرض... بقي فتره قصيرة كانت كفيلة بإنضاج الصراع في داخله... وأخيراً انتصر الشر الذي انفجر بركانه... وقام داود ورفع بندقيته بتجلد... وصوبها... ثم انطلق السهم... كان الصوت خافتاً لا يشعر بجريمة... ولكن الجريمة حصلت بالفعل... لقد دخل السهم في الرأس... وتناثر المخ... وسقطت الضحية... لم تعد ضربات قلب داود لتجعله قادراً على تحمل صدره... ولم تعد الشفة السفلى قادرة على تحمل اهتزاز أسنانه... ولكن كمية الريق التي ابتلعها حلقه كانت كفيلة بأن تحفز شيئاً من طاقته... لذا تمالك نفسه وتقدم.

ودخل لمنزل الفتاة النمرة... التي لم تكن رهبته لتسمح له بدخول هذا المكان في وقت سابق... حمل داود الضحية على كتفيه أشبه بعتل جبار... ولا أحد يدري كيف انبعثت كل تلك القوة في عضلاته... مع أن داود موقن بأنها القوة الناتجة عن الخوف... وسار الرجل الأكثر ذعراً من جريمته... كانت يدا ضحيته تتدلى على كتفيه ورأسها متدل إلى أسفل من الخلف... وكانت قدماها تخطان في الأرض... إنها ثقيلة جداً ولكن عزيمة داود أقوى من أن تمنعه من المواصلة... وما هي إلا لحظات حتى أخذ داود دوره في الظلام الحالك.

هدوء أخاذ يتمطى في الوادي الطويل ويحركه كي يستيقظ... وبصيص من الحركة تروح وتجيء بفضل الطيور الملهوفة لإطراب الدنيا بأصواتها... وقتام باهت تترنم بزعيقه شرفات المنزل المبني على الصخرة... وربما كانت رائحة مفجعة للدم تتسلل لأرجاء الغرفات المبنية على الصخرة... إلا أن البقعة الراقدة من الدم في وسط الفناء لا زالت هي الحدث الأكثر إثارة من تلك البقع الصغيرة التي يتبعها خطان إلى بطن الوادي.

وعندما قامت ريحانة في الصباح... وخرجت للفناء... لم تجد نمرها العزيز... وإنما رأت آثار الدم وقطعاً من المخ المتناثر... ورأت الخطين الذين يهبطان الوادي... لقد خلفتهما قدما نمرها بالطبع... هذا هو المفصل الأكبر في حياة الوادي... لم تستطع ريحانة أن تتمالك أعصابها... أوشكت على الانهيار... هل بالفعل مات النمر ثم سرق... النمر أصبح كل شيء بالنسبة لها في هذه الحياة... إنه أعز عليها من الأخ والصديق... هل قتلته يد الغدر... ولماذا قتلته... أسئلة دون إجابة.

اقتربت ريحانة من بقعة الدم... ثم لم تملك إلا أن سقطت على بقايا دمه... وبدأت تمرغ وجهها في مزيج التراب والدم... من هو الغادر الذي فعل كل هذا بها... من هو يا ترى... لقد مات النمر.

لم تكن ريحانة لتشك في داود... لأنها لا تعرف أنه يهودي... ولأنها لا تعرف أن الحقد والطمع يحولان دون الإنسان ودون أن يتمتع بصفاته الإنسانية... بقيت ريحانة تبكي صديق دربها فترة من الزمن... حتى أحست بحرارة الشمس تسلق جلدها... ثم قامت وتوضأت وصلت... كانت حسرتها تتضاعف مع دقات قلبها الجريح.

داود راقد داخل كهفه قد أضناه سهر الليلة الغائبة في جريمته... ولكنه استطاع نقل جثة النمر بنجاح... ثم عاد ومسح جميع ما يمكن أن يدل عليه من الآثار... إن شهيته للمال تزداد... وأفكاره تتضارب هنا وهناك بعد أن شعر أن جميع محاولاته للحصول على الماس أو على اليورانيوم شيء غاية في الصعوبة... وهذه الليلة سينتظره العمل الكثير من أجل نزع جلد النمر... وأيضاً سيبدأ في غلي اللحم كي يفصله عن الشحم... حتماً سيحظى بكمية كبيرة من شحم النمر... وستكون قيمتها غالية جداً... استطاع قلب داود القاسي أن يمده بكمية كبير من الهدوء كي يتم نومته حتى غروب الشمس..

العـزاء

في الوقت ذاته بقيت ريحانة تعتصر قلبها بألمها... إنها أشبه بالطفل الذي فقد أمه... ونظراتها لم تعد هي ذاتها نظرات الواثق من نفسه... إنها الآن تشعر أنها

فقدت كل شيء... ولكنها بين الفينة والأخرى تسأل نفسها... من يا ترى سيكون المستفيد من هذه الجريمة... وسرعان ما يخطر على بالها داود... فتقول في ألم وخزن:

- "مسكين أنت يا داود... ماذا لو علمت أن النمر مات... لقد كان النمر يُكسبك الكثير من القوة... ويطرد عنك شبح الخوف... ما حالك لو علمت بالجريمة... حتماً سيتقطع قلبك خوفاً... الله... كلنا مساكين...

دخلت ريحانة حجرتها... ثم ألقت بنفسها على قطعة من الجلد... وبدأت تتذكر.

إنها تغمض عينيها ثم تفتحهما... ذاكرتها تعود لأعوام سحيقة في عمرها القصير... ظهرت أمامها صورة عين الدين... الله... عين الدين... الرجل المُلهِم لها في كرباتها... لقد غاب عنها كثيراً... لم تكن بحاجة له في الفترة الأخيرة... ولكن جزعها اليوم جعلها تبحث في كلماته المنقوشة في صدرها... ها هو ذاك... لقد جاء عين الدين... أو ها هي تلك... تتجلى صورته الحية في أعماق قلب الفتاة اليتيمة.

وبشيء من السكينة واليقين تذكرت ريحانة يدها المتشقّقِ ظهرها... بأسباب الجفاف والبرد... تتذكر عندما رفعتها جهة وجه صبرة وهي تحمل أحد أسنان ثنيتها... لقد قالت ودموعها تُغرق جفنيها:

- "انظري... لقد أصبحت عجوزاً... بدأت أسناني تسقط".

كان عين الدين هناك يُصلح قربة صبرة... ويرتق فتقاً صغيراً فيها... ابتسم ساعتها بسمة عريضة... وقال:

- "هاتي سنك يا ريحانة".

انطلقت ريحانة نحوه في فرحة... وهي تجفف دمعتها... وناولته السن... ولكنه ابتسم وقال:

- "يجب أن لا تبكي يا صغيرتي... واعلمي أن سنك إذا سقط فهذا معناه أن سناً أفضل سوف يخرج عوضاً عنه... إياك أن تحزني على شيء فاتك في الحياة... وثقي أن شيئاً أفضل منه سوف يأتي بدلاً عنه... هل سمعت بقصه اليهودي ذي الرقبة الطويلة مع الرجل المؤمن... الذي امتلأت حياته باليقين بالله... لقد كان المؤمن راضياً بقضاء الله... وكانت المصائب لا تعني له شيئاً... لأنه واثق من الله... وواثق أن ما أصابه لم يكن ليخطئه... ودائماً يعزي نفسه كلما حلت عليه مصيبة من مصائب الدنيا... ويقول في ثقة بالله:

- "لو لم يأت هذا لجاء شر منه".

أقبلت صبرة من هناك... وجلست أمام عين الدين... وشخصت ببصرها في وجهه وهو يتكلم... ابتسم عين الدين ثم أكمل:

- "بالطبع تريدان معرفة قصة ذلك المؤمن... لقد اشتهر ذلك المؤمن يا بُنيّاني بهذه الكلمة (لو لم يأت هذا لجاء شر منه)... وأصبح كثيرٌ من أهل مدينته يقتدون به في هذه الكلمات كلما حلت عليهم المصائب... وعندما وصل نبأ هذا المؤمن إلى اليهودي ذي العصا المذهبة من أعلاها... وكان اليهودي من أشهر أهل الحي في التجارة... ضحك ساخراً... وبدت أنيابه من الضحك... ثم قال في مكر وهو يكلم زوجته:

- "سوف أصنع حيلة متقنة... كي أُسقط هذا الرجل من أعين الناس... سوف أجعلهم يشكون فيه... وأجعله هو يشك في نفسه وفي دينه... إنه يُحرِّم الربا على الناس... ويحاول صرف زبائني... الذين أقرضهم بالربا المضاعف... زعماً منه أن الربا أمر محرم... لن يهنأ لي بال حتى أراهم جميعاً يتخبطون في شكوكهم بما يقوله".

وبعد ذلك يا بناتي بدأ اليهودي يتقرب من الرجل المؤمن... وأخبره ذات مساء أنه عازم على زيارته في منزله... فرح الرجل المؤمن لهذه الزيارة... لأن إكرام الضيف من أخلاق المؤمنين... أما اليهودي... فقد بقي يعد الخطة جيداً... لقد صنع قطعة من الحلوى... ثم حشاها بالسم... ثم وضع عليها غلافاً من القماش... ثم وضعها في جيبه... وذهب إلى الرجل المؤمن.

وعندما دخل اليهودي على المؤمن استقبله المؤمن أفضل استقبال... وهش في وجهه وبش... وسار أمامه حتى أجلسه في صدر مجلسه... بقي الرجلان قليلاً يتحادثان... واليهودي ينظر يمنة ويسرة... وبين الفينة والأخرى يبحث عن الولد النجيب أحمد... أحمد هو ابن الرجل المؤمن... لقد رباه والده أفضل تربية... إنه أكبر أولاد الرجل المؤمن... لقد سهر معه حتى علمه القرآن... وهو لا يزال ابن ثمان سنين... لم يدم انتظار اليهودي كثيراً... لقد جاء الولد أحمد... وكان ولداً لطيفاً نشيطاً ... لمعت عينا اليهودي وقال في مكر:

- "تعال يا أحمد... لقد صنعت لك حلوى... تعال وخذها".

فرح الولد فرحاً شديداً... لم يكن يعلم أن الحلوى مسمومة... وأن أكلها هو الخطوة الأولى جهة الدار الآخرة... كان قلب اليهودي يرقص طرباً... لقد حان مجيء الموقف القاسي... الذي لن يستطيع معه والد الطفل أن يقول:

- "الحمد لله لو لم يأت هذا لجاء شر منه".

لأن موت الابن أعظم المصائب التي يصاب بها المؤمن... جاء أحمد سريعاً... إنه يقترب من اليهودي ويقترب أيضاً من موته... ولم يبق إلا ثلاث خطوات... ثم يتناول أحمد تلك الحلوى... ولكن شيئاً ما حصل... لقد التفّت قدم أحمد فجأة وتعثرت قدمه الأخرى... وبدأ جسمه في السقوط... وارتطم بدن الطفل بالأرض المفروشة بقطعة قديمة من الحصير... لم يصل أحمد للحلوى... ولكنه الآن يصرخ من الألم... وفي تلك الأثناء قام والد الطفل... ذلك الرجل المؤمن... وحمل ولده... وقال بصوت خاشع:

- "الحمد لله لو لم يأت هذا لجاء شر منه".

ارتعش قلب اليهودي مكانه... وتراجعت تلك اليد التي حملت الحلوى المسمومة... وبدأ اليهودي يفكر في كل ما حوله... ثم قال مردداً لما سمعه:

- "لو لم يأت هذا لجاء شر منه".

ثم لم يملك اليهودي إلا أن نكس رأسه... وعلم أنه كان على خطأ كبير... وأن الرجل المؤمن كان على صواب... وبعد ذلك الموقف... مكث اليهودي ملياً يتأمل... ثم هدته تلك الكلمات إلى قراءة القرآن الكريم... قرأ القرآن وتعلم الأخلاق النبوية المليئة بالحب والرحمة لكل الناس... وترك الربا، لأنه أيقن أن في الربا استغلال لحقوق الغير... وبعد فترة قصيرة أسلم اليهودي وأصبح داعياً للخير والرحمة والعدل والمساواة... وداعياً للحرية... إنها دعوة الإسلام الخالدة.

وأنتن يا بناتي... حذار أن تجزعن... وإذا أصابتكم المصيبة... فقلن الحمد الله... لو لم يأت هذا لجاء شر منه".

انتهى المشهد في عقل ريحانة... وعادت لواقعها... ومسحت دموعها... ثم ابتسمت وبدأت تحمد الله... لاحت لها فجأة صورة داود جارها الوحيد في هذا الوادي... عليها أن تقف بجواره الآن... إنه جارها... والرسول أوصى بسابع جار.

الطبخ المتقن

مع غروب الشمس بدأ داود في جمع الحطب... لقد قرر القيام بعمله في كتمان وسرية... وها هو الحطب يجتمع أمام كهف داود حتى صار كوماً كبيراً... أوقد داود أخشابه تلك... ووضعها تحت القدر الملي بالماء... واختار خشبتين صغيرتين ثم أوقد فيهما النار... ثم وضعهما تحت القدر المليء بالماء... وفي أثناء ذلك دخل داخل كهفه... وأشعل السراج الصغير... وسحب جثة النمر وبدأ في سلخها... داود يبدو ماهراً في السلخ... مع أن الجثة قد مر عليها قرابة اليوم... ولكنه حريص بالطبع على أن لا يثقب الجلد... لقد سلخه بمهارة وجعله متصلاً... حتى الرأس لم يفصله ولم يقطع الأرجل... سكين داود الماهرة تتحرك كالأفعى... لم يطل الوقت... لقد أصبح الجلد منفصلاً بأكمله عن اللحم.

وضع داود جلد النمر جانباً... ثم بدأ في تقطيع اللحم لقطع كبيرة... ووضعها في الماء الحار... الدهن سينفصل عن اللحم... هذه هي الخطوة الأولى... أضاف

داود عدداً من الأخشاب تحت القدر... وبدأ الماء الحار يعمل عمله في فصل الدهن... ثم حمل داود جلد النمر ووضعه على صخرة كبيرة كي ينفرد بشكل أفضل... ثم دخل كهفه... ليرتاح قليلاً... ولينتظر نضج اللحم في الخارج.

كان حذاء داود بجواره... وكان يعبث فيه بإحدى يديه... رائحة اللحم تفوح لتعم الوادي... وداود يتعمق في أفكاره وطموحاته... لقد أغمض عينيه وبدأ يبتسم... شعر بالهدوء والراحة لما أنجزه... فتح عينيه قليلاً ثم عاود إغماضهما... لكنه سرعان ما فتحها بقوة... إنه الآن يصوب نظره جهة باب الكهف... لقد كان الباب مفتوحاً... وأشعة المصباح تنعكس في العملاق الواقف على باب الكهف... بقيت عينا داود جاحظة... إنه أشبه بالمعتوه... ثم صرخ بكل خوف:

- "الجنية النمرة... الجنية النمرة".

ما الذي حصل

منذ مدة قصيرة كانت ريحانة تجفف آخر دموعها على النمر... لقد أيقنت بأن حزنها لن يعيد لها النمر... ازداد يقينها بالله... ومصيبتها في موت النمر قد بدأ في الاضمحلال... ولكن قلقها على داود يتزايد... لذا قررت زيارته في كهفه... كي تخبره بفاجعة النمر... ولكي تحذره من سطو الوحوش... الآن لم يعد هنا من يحميهم.

سارت ريحانة جهة كهف داود وعندما اقتربت من الكهف بدأت تشم رائحة الطبخ... استغربت لذلك... ولكن الدهشة تمالكتها عندما رأت جلد النمر ممطوطاً على الصخرة... بدأ قلبها يرتجف... ثم أمسكت بالجلد... ودون شعور بدأ قلبها ينبض بحنين كبير لمن حسبته ابناً لها ... لقد كان حنينها له أقرب لحنين الأم على ولدها... رفعت ريحانة الجلد... إنه يبدو مهيباً وأصيلاً... طأطأت ريحانة رأسها... ونظرت في ملابسها... إنها شيء من القماش البالي... لقد شعرت بحنين جارف يتمالك قلبها جهة النمر... وجهة حياتها قبل أن تقابل دبشي... وتقابل الرجال

الرحل إلى محايل... حياتها الأولى قبل أن تخلع جلد النمر الأم... وتستبدله بهذه الأسمال من القماش... لقد عادت تجري في داخلها روحها السابقة... التي تنفر فيها من البشر وتندمج فيها مع الوحوش... لذا حملت الجلد ولبسته... ثم نظرت في أطرافه وبدأت تلفه على جسمها... وعادت صورتها الرهيبة المرعبة... كما كانت عندما شاهدها داود لأول مرة.

لم تكن ريحانة جازمة بأن المقترف الحقيقي للجريمة هو داود... ولكنها رأت كل الشواهد تشير إليه... لذا دخلت لتسأله... وعندما وقفت على الباب بقيت لحظات وهي تنظر هنا وهناك... منظرها مذهل لداود لحد الموت... الفتاة النمرة من جديد... لقد رأت السكين... ورأت المسدس... وتأكد لها كل شيء... وفي تلك الأثناء فتح داود عينيه... واستمر يصرخ.

- "الجنية النمر".

لم تبال ريحانة بصرخاته كثيراً... لقد بدت صورته بالنسبة لها على أبشع وجه... تقدمت نحوه كأسد غاضب... داود بدأ يشعر أنه يتقزم... ويحس أن جسمه ينكمش حتى إن رأسه يدخل في ظهره من أعلى... وبدأت نظراتها النارية تجلده وتثير إحساسه بحقارته وغدره... أحس أن خطواتها المتقدمة نحوه ثقيلة... وأنها تكاد تطأه... كاد يتجمد مكانه... إنه متأكد من أن هذه المخلوقة ليست ريحانة... إنها بالطبع ذاتها الجنية... جنية الوادي ذات الجلد المرقط... أوه كيف لبّس عليه غباؤه حين صدقها عندما قالت إنها إنسية... ألم يكفه حملها لجمله من قبل... كم هو غبي... إنها جنية بارعة في التمثيل... كيف تجرأ من جديد وخاض معركة خاسرة معها... أين هو ذكاؤه وحرصه... راودته فكرة مخيفة في الحال... لقد قرأها في عيني ريحانة الملتهبتين بالشرر... إنها حتماً ستقتله وستطبخه... وفي القدر ذاته مع نمرها... لكن لا... إنها ترى بأنه أحقر من أن يجتمع مع نمرها في إناء واحد... أصبحت ريحانة عند رأسه المتلاطم بالأفكار والمعاني الرهيبة... ثم قالت بعنف:

- " لماذا؟".

شعر داود أنه يريد الموت ولكن ريحانة أردفت:

- "قم... أنزل القدر من فوق النار".

أراد داود أن يقف ولكنه لم يستطع... كل عضلاته خانته... ولكنها زمجرت في غضب.

- "قم... يا غادر...".

لدغته تلك الكلمة في أعماقه... ثم قام في ذهول... واتجه جهة القدر... وأنزله من فوق النار... وشعر بحرارة القدر في يديه... لذا انتبه لكل ما حوله... إنه الآن في الخلاء... وهو أقرب للهرب... الهرب.

قرر داود بعد أن سحب أنفه أن يسلم قدميه للريح ويهرب ... الهرب من هذه الجنية النمرة... لم تمر لحظات إلا وداود يقفز هنا وهناك... إنه أشبه بغزالة يطردها سبع... وبعد لحظات دخل في الظلام... وأصبح أشبه بالعدم.

في تلك الأثناء خرجت ريحانة من الكهف... لم تجد أي أثر لداود ولكنها لم تلق لذلك بالاً... لقد اتجهت جهة القدر الموضوع على النار... رفعته مع أحد أطرفه ثم أراقت كل الماء الذي بداخلة... وبعد ذلك أخرجت القف الملفوف بعناية الموضوع في صدريتها... فتحته بحزن بالغ وبدأت تضع لحم النمر الذي قارب على الاستواء... بداخل القف... لم يستطع القف استيعاب كامل اللحم... ولكنها اكتفت بما استوعبه ذلك القف... ألقت بنظرة أخيرة... ثم انصرفت جهة منزلها.

وبعد لحظات عادت وقفها فارغ... ملأته مرة أخرى من اللحم... وذهبت لمنزلها... وصنعت ذلك مرة ثالثة... وبعدها انتهى اللحم من القدر... وعادت ريحانة إلى منزلها والأفكار تعتمل في عقلها المنهك... إنها تفكر في شيء ما... لقد دخلت لمنزلها وهي مثقلة بهمومها... وهناك أكوام من اللحم المطبوخ والعظام... ليست تلك الأكوام سوى شيء من النمر الذي كان جزءاً من حياتها.

بدأت ريحانة تحدث نفسها وهي تنظر في اللحم الذي فقد قيمته في حياتها...

«لماذا يا داود... لماذا تفعل ذلك كله... أنت مسلم... مسلم... والمسلم لا يفعل ذلك أبداً... بإخوانه من البشر... إيه يا داود... لقد ضربتني ضربة نجلاء»...

أخذت ريحانة فأسها... وفي إحدى الزوايا داخل غرفتها بدأت تحفر... إنها تحفر في الطين ودموعها سرعان ما تسقط من عينيها... ثم يبتلعها الطين... ثم يسحب الفأس تلك الدموع الحرّى... ثم تسقط دموع أخرى... ويتقدم الفأس جهة الطين المبتل لسحبه للخلف... استمر الوضع ساعة... واستمر الحزن ساعة... وهكذا حفرت ريحانة حفرة بعمق ذراع واحد... وبعدها أبدت الأرض صخرة صلبه يصعب على الفأس حفرها... توقفت ريحانة عن الحفر في شيء من اليأس... ثم قامت جهة اللحم وبدأت تحمله قطعة قطعة... وتضعه في تلك الحفرة... لقد اجتهدت على أن تبني هيكله العظمي بما يقارب وضعه الطبيعي عندما كان حياً... وضعت الرأس... ثم الصدور والذراع... ثم الرجل... ثم وضعت جهة الصدر الأخرى مع الذراع... ثم الرجل الأخرى... وبعد ذلك وضعت أحجاراً مسطحة... بعدها وضعت التراب.

لقد انتهى النمر... ولكنها حاولت أن تكون نهايته أقرب لنهاية حياه البشر... مع أنها تعتقد أن نمرها هذا كان أشرف من كثير من البشر... الذين لا تعني لهم الحياة سوى الطمع والجشع والتهام كل شيء... غسلت ريحانة يديها ثم صبت بقية الماء على قبر صاحبها الراقد بجوارها رقدة من لا يقوم.

قضت ريحانة قليلاً من الوقت بجوار القبر أشبه بوقفة المأتم... ثم قامت منتصبة للصلاة... مسحت ريحانة دموعها وعادت إلى فراشها... وبجوار الفراش كان قدح اللبن... إنها جائعة لأنها لم تذق طعاماً منذ أن دهتها المصيبة... شربت ريحانة اللبن ثم حملت جلد النمر ووضعته بجوارها... فكرت في النوم... ولكنها فكرت أيضاً في عمل

أهم... الجلد سوف يفسد... قامت ريحانة وفردت جلد النمر... ثم وضعت عليه أوراق الشث اليابسة... ثم بللتها بقليل من الماء... ولفّته إعداداً لدباغته.

في اليوم التالي أصبح الجلد جاهزاً للدباغة... أحظرت ريحانة خشبة مسطحة وبدأت تضرب الجلد... ثم رفعته على عود قائم في منتصف فنائها وبقيت تنتظر... إنها عازمة على أن تنام داخله الليلة... وحدتها ستقضي عليها عندما لا تجد ما يذكرها بالنمر... ومع المساء... وسكون الليل في هذا الوادي ألقت ريحانة بجسمها النحيل على فراشها الجلدي الجديد... وبدأت تستعد للنوم..

اليد الملدوغة

مر الليل هادئاً... ولم تكد الدنيا تدخلُ في ثلث الليل الأخير إلا وريحانة تفزع من فراشها على دوي شديد في الخارج... وصراخ رهيب يكاد يعم كل أنحاء الوادي... إنه صوت طارد ومطرود... أو صوت وحش وضحية... قامت ريحانة من فراشها وخرجت... وسرعان ما اتضح لها الصوت... إنه صراخ إنسان وهو ينادي باسمها.

يا «ريحانة... يا ريحانة».

اتجهت ريحانة مسرعة جهة باب الفناء... فتحته بسرعة... وقعت عيناها على جسم داود المرتجف وهو يتقدم مسرعاً نحوها... لم تكد تفتح كامل الباب إلا وهو يلقي بنفسه في الداخل... وما هي إلا لحظات... وإذا بقفزات نمر جبلي بالغ تلتهم الأرض لتصل للباب... لم تكد ريحانة ترى النمر الهائج حتى دفعت الباب بأقصى سرعة للأمام... ثم وضعت الخشبة التي تسنده... مرت لحظة وإذا بالنمر يغرس مخالبه في الباب ثم يحاول قلعه... ثم يدفعه برأسه بكل حنق... ولكن لا فائدة.

ذهبت ريحانة إلى الداخل وأحضرت الماء واقتربت من داود... رفع الرجل أنفه ثم رفع رأسه... نظر فيها بفتور... إنها الجنية النمر... وجلدها المرقط يوحي له بالنهاية... ألقى داود بنفسه على الأرض وقال:

- "هيا اقتليني... يجب أن أموت... أنا يجب أن أموت... الموت بين يدي جنية عظيمة مثلك... شرف كبير ليهودي حقير مثلي... لا تلوميني في أي شيء مما صنعت... فمنذ عرفت نفسي لم يكن لي من دور في الحياة سوى صناعة الحيل واللعب بالأدوات القذرة... أنا أعرف أن المسلمين يكرهون اليهود... وأعرف أن القرآن يقول عن اليهود أشياء كثيرة... عليك أن تعلمي أيتها المرأة القديسة العذراء... أنني أمثِّل دوراً حقيراً ومخادعاً... في حقكم أيها العرب... وعليك أن تعلمي أنني يهودي... نعم... أنا يهودي... أخطط لأطماع لا تخطر لك على بال... ولكن عليك أن تعلمي أيضاً أنني سأموت حتماً في هذا الوادي... هكذا قدري... ولكنّ موتي لن يكون ذا قيمة أتشرف بها إلا عندما تقتليني بيديك الشريفتين".

كشف داود عن ذراعه ثم أشار إلى جرح عميق فيها... ثم قال وهو يبكي:

- "هذه لدغة أفعى... نعم أفعى... لقد لدغتني قبل أن يهاجمني النمر... كنت خائفاً منك... لم أعلم أن خوفي منك سيجعلني أهرب لحتفي... إنك أرحم بي من سباع الوادي ومن هوامه... ولكني لم أكن قادراً على الصمود أمام نظراتك المهيبة... خرجت تائهاً وقلبي يرتجف... كنت خائفاً من الموت... سرت حتى تعبت... ثم وقفت... كان الظلام يحيط بي... لم أدر ماذا أفعل... كنت أفكر... وأشعر أن كل غباء الدنيا قد حل رأسي... نزلت بيدي على صخرة ملساء لعينة... وكانت الأفعى بجوار تلك الصخرة... وبعدها شعرت بأنياب حادة... ثم بالسم يدخل جسدي... سحبت يدي بعد فوات الأوان... كنت خائفاً... ولكن خوفي تبدد عندما سمعت زئير النمر... هربت منه وأنا أرى الموت يحيط بي من كل صوب... الموت هو النهاية الحتمية لي... باب واحد رأيته مفتوحاً أمامي... إنه الباب إليك... انطلقت نحو الباب... فقط لأطلب منك أن تدفنيني بعد الموت... لقد انطلقت فزعاً إليك... وهرباً من الحياة... ومن نفسي ومن النمر... ولكن النمر أحس بي... وبدأ يطاردني

بكل طاقته... ازدادت سرعتي وازدادت سرعته... وأخيراً وصلت إليك... أريدك فقط أن تقتليني وأن تخلصيني من الإنسان الحاقد الذي يعيش بداخلي... لقد قارنت بيني وبينك ذات يوم... فعلمت ما معنى أن يكون الإنسان مسلماً... وما معنى أن يكون اليهودي حاقداً".

- "بدأ داود يثرثر بكلام كثير... ولكن ريحانة لم تكن بجواره... لقد دخلت للداخل... وسرعان ما خرجت إليه وبدأت تربط يده بقوة... ثم أحضرت السكين الحادة... كان داود ينظر لها بتسليم ويمد رقبته للأمام كي يتسنى لها قطعها... وكانت ابتسامة صادقة قد ارتسمت على محياه كأروع ابتسامه يحظى بها وجهه... طيلة حياته العابسة.

وفي تلك الأثناء كان يبتلع ريقه ليُلين به أوداجه وحنجرته... التي أعدها للقطع... ولكن السكين لم تنزل على الأوداج والحنجرة... ولكنها جرحت بكل رفق... جرحاً غائراً مكان أنياب الأفعى... وبعدها بدأت شفتا ريحانة تمصان ذلك الجرح.

امتلأ فم الفتاة بالدم.... ثم أمالت رأسها كي تتفله... أعادت ريحانة الكرَّة مرة أخرى... داود يهذي بجوارها وهي منهمكة في مص دمه الصدئ... بعدها قامت ريحانة وحملت السكين... ثم اتجهت جهة الجمر... ووضعت السكين بين اللهب... وبقيت تنتظر برهة وتنظر بعمق وتتأمل في تقاطيع النار التي تنبعث من بين الأخشاب... ثم تتقطع في الهواء... حركت ريحانة السكين قليلاً حتى التهبت وصارت كالجمر... ثم ألقت بنظرة طويلة على وجه داود المسجى أمامها... ثم أنفه الذي برز باقتدار هناك... بعدها حملت السكين.

نظر داود إليها بعجز... ودق قلبه الذي دخل في إغماءة قصيرة... ثم عاود النظر للسكين... وبدأ عرقه يتصبب... ولكنها ابتسمت في وجهه الذي كان أحوج ما يكون لبسمة وداع مخلصة... ثم وضعت يدها على الجرح... نظر داود لها مجدداً... ابتسمت

وهي تهوي بالسكين الحارة على موقع اللدغة... تصاعد الدخان من تحت السكين... لم يدرك داود شيئاً مما يحصل... ولكنه أغمض عينيه من الألم ثم قال:

-"هل أنت الآن تقتلينني... هل هذا هو طعم الموت... هل أنا الآن أموت".

نظرت ريحانة له بشفقة... ثم قالت:

- "بل ستعيش إن شاء الله... أنا الآن أداويك... ستشفى يا داود... اطمئن... لن تموت".

- "ماذا... لن أموت... بل يجب أن أموت... ويجب أن تكوني أنت من يقتلني ويدفنني....

- "دعك من الهذيان يا داود... أنت مسلم... ولكنك محموم".

- "بل يهودي... أنا يهودي... أقسم على ذلك... أنا يهودي يا سيدة الوادي... هل سمعت بيهود دمشق... أنا من يهود دمشق... أنا لست عربياً... ولكني يهودي أتكلم العربية... اليهودي لا يفتخر بأن يكون عربياً... لقد بقي أجدادنا طيلة حكم المسلمين على الشام يمتازون بجميع حقوقهم... لذلك أنا أشبه بالمسلمين مني باليهود... لست أدري ما أقول... ولكن المسلمين عندما جاورونا احتضنونا كما تحضن الأم ولدها... ولكننا بقينا نكن لهم الأحقاد والغدر... لأن ديننا يؤكد لنا أننا شعب الله المختار".

نظرت ريحانة في عيني داود باهتمام... ثم قالت:

- "هل أنت واثق مما تقول".

- "نعم... أقسم على ذلك".

أمسكت ريحانة بخصلة في رأسها... وبدأت تفتلها بريبة... تم أردفت.

- "ولماذا يا داود... لماذا تكرهون العرب".

- "ديننا يؤكد لنا أننا أحباب الله الذين فضلهم على العالمين... نحن اليهود شيء من الدين، والدين شيء منا... نحن لا ننفصل أبداً عن النظر إلى ملكوت الرب... ولكن الرب أضاعنا في التيه... ثم وعدنا بأن يعيدنا لحكم العالم والسيطرة عليه... لأننا نمتلك عقولاً إلهية لا يملكها بقية البشر... ولكن الرب لم يف بوعده إلى الآن... لقد منح أبناء هاجر كل ما وعدنا به... العرب هم الذين سيطروا على اليهود... ونحن بقينا أشبه بالأغنام الضائعة".

- "وما دخلي أنا بما تقول... ما لك يا داود... أنا مؤمنة كبقية المسلمين... مؤمنة بأن الناس سواسية يعيشون بحرية وأمان... ويعبدون الله كما يشاؤون... هل تريد إلزام العرب على ترك دينهم".

- "أنا لا أفكر بذلك... ولكني أفكر في أمر آخر... لماذا يعاملنا العرب بطريقة غير الطريقة التي نعاملهم بها... لو حكمنا ديار العرب لما تركنا فيها عربي... لماذا تعاملينني أنت بكل هذه الرحمة... لو تسلطتُ أنا عليك ربما كنت ضحية لمصالحي... لست أفهم... لست أفهم".

طأطأت ريحانة برأسها قليلاً... ثم واصلت نقش بقعة داكنة في يد داود الملدوغة... لم يدم التفكير... لقد وضعت السكين في النار مرة أخرى وبدأت تقلبها... وبعد أن احمرت حملتها من جديد ثم شخصت بنظرها في وجه داود وقالت:

- "عليك أن تتحمل... بسم الله الرحمن الرحيم".

بدأت رائحة اللحم المحروق تنتشر في المكان من جديد... أغمض داود عينيه من شدة الألم... و بدأ يعتصر يده بقوة... وريحانة لا تزال تمسك السكين الحادة وتضغط بها على مكان اللدغة... وتردد:

- "بسم الله... بسم الله ".

قال داود دون شعور:

- "بسم الله الرحمن الرحيم".

ثم أحس أن الإغماء قد أدرك عقله... لذا أسلم جسمه لهدوء عميق... رفعت ريحانة شفرتها من جسده... ونظرت إليه وهو متصلب أمامها... ثم هزت رأسها في شفقة وقامت للداخل.

لم يطل الوقت... لقد أحضرت قليلاً من الماء وقطعة قماش... بدأت بغسيل قطعة القماش ثم وضعتها على المكان الملدوغ... لم تفكر كثيراً لقد حملت بقية الماء ونضحت قليلاً منه في وجه داود... شهق داود فجأة... وفتح عينيه في ذعر... ولكنها قالت:

- " لا عليك... لقد قمنا بكل ما نستطيع لإنقاذ يدك... أرجو من الله أن يمتعك بصحة وعافية".

و لكنه طأطأ رأسه ثم قال:

- "اقتليني أرجوك... سيكون الموت أفضل جزاء في حياتي النكدة ".

- "ألست تصلي يا داود".

- "أنا... كلا... أنا لا أعرف الصلاة".

- "كنت أراك تصلي".

- "صحيح... كنت أفعل ذلك... ولكني كنت أنافق أمامك... أصلي في بعض الأوقات... أنا يهودي أسعى لجمع المال والشهرة بأي شكل... أنا لا أفكر في الدين... صدقيني... ولكني أفكر في مصلحتي... وربما فكرت في الإساءة للآخرين... وفي التهام أموالهم".

قامت ريحانة حتى أصبحت أشبه بالطود... ثم صمتت قليلاً... وقالت بعدها:

- "داود".

نظر داود... ودقق النظر في صورتها المهيبة وهي ترتدي زي النمر... نظر إلى عينيها القويتين الصادقتين... نظر إلى وجهها المضيء... أحس بنور عظيم يتصاعد من وجهها... وأحس بخنوعه وخضوعه... طأطأ رأسه حتى وصل إلى قدمها... أراد أن يُقبِّل قدمها وهو شبه مسحور بقدسيتها وطهرها... ولكنها فاجأته قائلة:

- "داود... انتبه لما سأقوله لك".

رفع داود رأسه قائلاً.

- "لبيك يا سيدتي".

- "عليك أن تسلم... تسلم لله... وعليك أن تكون مسالماً كأي مسلم صادق... وعليك أن تفتح الصفحات البيضاء مع الله... عليك أن تشهد بأن الله هو الخالق لهذا الكون وهو مدبر أموره... عليك أن تشهد بأن خالق الكون هو خالقنا جميعاً... وهو الذي منح أجسادنا سر الحياة وسر الحركة والإدراك... نحن أكوام من لحم... لولا أن الله نفخ فينا الحياة وحبانا العيش... وعليك أن تؤمن بالنبي محمد... الذي نزل عليه القرآن... وأوصانا بالصلاة والصدقة... والرحمة... والإحساس بهموم الآخرين... عليك أن تؤمن بالجنة والنار... وبأن الموت هو أول منازل الدار الآخرة... بعدها ستكون بخير... نعم بخير حتى ولو فارقت الحياة و كنت في عداد الأموات".

هز داود رأسه في حسرة واضحة... واهتزت شفتاه... ثم قال بصوت هادئ.

- " أنا يهودي... لن أكون مسلماً سيدتي".

- "أنت إنسان... إنسان يا داود... ولكنك مخدوع... الإنسان هو الإنسان... لا فرق بين إنسان وإنسان إلا بما رباه أبواه عليه... أنت مسكين يا داود... وأنت ضحية لتربية مجتمعك وأهلك... حتماً كان معدنك حين ولدت صافياً كالذهب... ولكن

الذين ربوك علموك الغدر والخيانة... وعلموك الطمع والبخل... وعلموك حب الإساءة للآخرين... لقد أصبح معدنك صدئاً... وأصبح مطلياً بالقطران.

الإنسان يستطيع أن يصلح نفسه... ولكن ذلك يكون فقط... إذا عرف أنه مخطئ؛ واعترف أنه ليس سوياً باستمراره على الخطأ... وعزم على إصلاح خطئه... عندها سيدخل معدنه في تنور حار من تأنيب النفس... ومن جلدها بسياط اللوم والعتاب... وبعد ذلك يسيل القطران ويبدو المعدن صافياً".

نظر داود نظرة حالمة لوجه ريحانة ثم قال:

- "سيدتي... آه كم أنت عذراء بتول... آه كم هو آسر كلامك... ولكن القرآن يسبنا ويصفنا بأبشع الصفات... القرآن يخبر عن اليهود بأنهم باؤوا بغضب من الله".

ابتسمت ريحانة بسمة صافية... سُكبت على فؤاد داود الجزع كما يسكب الماء على النبتة الصحراوية الصفراء... ثم جلست أمامه في هدوء واقتربت بوجهها من وجهه الذليل... وفتحت عينيها بتركيز... وألقت بصرها على وجهه... في حين حملق في عينيها ثم قال وهو يرتجف:

- "ما أنت بشر... ما أنت بشر".

ابتسمت ساخرة ثم قالت:

- "بل أنا ريحانة... ولكن القرآن لم يشنعكم يا داود... ولم يجرح مشاعركم... وإنما حذركم وأنذركم".

- "يا سيدتي... أنا أحفظ آية منذ الصغر... قالها لي أبي... لقد ثبت لي حينها تلك الحقيقة العظيمة... إننا شيء وأنتم المسلمون شيء آخر".

- "و ما هي الآية يا داود".

دارت عينا داود بخفة ثم قال:

- "الآية هي ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ إنها آية واضحة... أليس كذلك... إنها تشير إلى اليهود... أليس المسلمون يعتقدون بأن المغضوب عليهم هم اليهود... أليس القرآن يخبر أيضاً بأن الله قد غضب على اليهود... لأنهم يقتلون الأنبياء... القرآن يُدخل في نفوس المسلمين بغض اليهود... لذلك لن يتعايش اليهودي مع المسلم... عليك يا سيدتي أن تُطبّقي الآن ما يأمر به كتابك... وعليك أن تريحيني من الحياة".

دخل داود في نوبة حادة من السعال الجاف مع صوت متقطع من البكاء... وقفت حينها ريحانة في تأثر... ونزعت جلد النمر من فوق ظهرها... ثم وضعته على كتفي داود... وبعدها ربتت على ظهره وهي تقول:

- "بل لقد قال الله سبحانه وتعالى للمسلمين: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ وأنت يا داود حتماً ستكون من المؤمنين".

- "هل أنت عالمة في الإسلام يا سيدتي".

- "أنا عالمة؟... لا... لا... أنا مسكينة يا داود... ولكن العالم شخص آخر غيري... هو الذي علمني ورباني... إنه والدي عين الدين... أو هو في منزلة والدي... لأني كنت يتيمة فقيرة معدمة... ولكنه اعتنى بي كثيراً... وقد أخبرني بالكثير عن اليهود... وأيضاً علمني بعض الآيات... لقد كان يقرؤها وأنا أحفظها منه".

قال داود وهو ساه ينظر بتأمل للسماء:

- "وهل يقبل الله إسلامنا... لا أظن ذلك... نحن نسعى للسيطرة على بلادكم".

- "قال تعالى: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ**﴾".

- "ولكن النصارى يا سيدتي انتصروا عليكم في الحروب الصليبية... والإنجليز سيطروا على أغلب مناطق الدولة العثمانية".

- "كلا لم ينتصروا علينا من عند أنفسهم... لا أحد ينتصر على المسلم الصادق... ولكن ربما كان من المسلمين أناس خانوا الأمانة وقدموا مصالحهم على مصالح دينهم... وقدموا بلادهم للعدو... من أجل تحصيل متاع قليل... إن أعداءنا لن ينتصروا علينا أبداً... إلا إذا أمددناهم بحبل من أيدي الغادرين... قال تعالى **﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾**.

قال داود وهو ينظر بإذعان لعيني ريحانة:

- "إذن أنا في جهنم... يا ويلي ليتني كنت مسلماً".

- "لا يا داود... قال تعالى: **﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾**.

بدأت عينا داود تذرفان... وبدأت السكينة تغشى قلب الفتاة النمرة... ثم طأطأت رأسها وقالت:

- "رحمك الله يا عين الدين... أنت من علمني هذه الآيات من سورة آل عمران".

نظر داود إلى ريحانة في دهشة ولكنها أردفت:

- "لقد أخبرني عين الدين ذات يوم... شيئاً عن خططكم معشر اليهود... لغرس دولة ظلم في ربا المسجد الأقصى... وعندما قرأ هذه الآيات حفظتها من تلك الساعة... آه لو كنت أحفظ القرآن... آه يا داود".

طأطأ داود رأسه... ثم حركه بسرعة... ثم قبلَّ قدم ريحانة وهي غافلة... ثم قال:

- "سامحيني يا سيدتي... أنا عبدك... أنا عبدك".

تراجعت ريحانة قليلاً للوراء... ثم قالت:

- "كن عبداً لله... وعندها سنكون إخوة في الله... ولن تكون عبداً لأحد".

انهمرت عينا داود... ونظر ليده التي بدأ الألم يسري فيها... وقلّبها ثم شدها لصدره وهي ترتجف... ثم قال:

- "هل سيغفر الله لي؟".

- "إذا صدقت في التوبة والإيمان".

بدأ داود يرفع رأسه للسماء... ثم فتح عينيه في خشوع وهو يشعر أن الموت بدأ يسري في عروقه الهوينا... ثم زفر زفرة طويلة ضمنها كل همومه وآلامه... كان يُقلب عينيه في ذعر... ويسترد شريط ذكرياته البعيدة... إنه يشعر بأن نهايته قد اقتربت... ويشعر بأن الفرصة أمامه بدأت تتضاءل... ويتمنى من كل قلبه لو منحته هذه الإنسانة العظيمة كلمة العفو والصفح والرضا... لأنه متيقن بأن كل ما أصابه إنما هو بسبب إساءته لها.

وفي المقابل... كانت عينا ريحانة تترقرق بالدموع... وكانت شفتاها تهتز...

اشتد الألم على داود... ثم وضعت ريحانة يدها في الماء، وبعد ذلك وضعتها على جبينه... وبدأت دقات قلبه تزداد... عندها قالت ريحانة:

- "أشهد أن لا إله إلا الله".

نظر داود لريحانة ثم أردف.

- "أشهد أن لا إله إلا الله ... و أشهد أن محمداً رسول الله ...".

ابتسمت ريحانة... ونظرت لداود بنظرة حانية... لكن تلك النظرة ألهبت في وجدانه بشيء رهيب... كاد قلبه يذوب... تساءل داود حينها... هل تراه الحب... هل وقع هذا اليهودي في شرك حب الفتاة الساحرة... وهو في طريقه للموت.

طأطأ داود رأسه متنبهاً لآلام ذراعه... كي تنسيه كل مشاعره... ثم قال في نفسه مستحياً:

- " إنها... البتول ريحانة... يكفيني أن أبقى عبداً لها".

بدأ داود يتحرك... لقد أسند يديه على الأرض بتثاقل... ثم رفع نفسه ليقف... ساعدته ريحانة قليلاً حتى وقف... وبعد أن وقف... بدأ يسير بتثاقل جهة الماء... وعندما وصل للقربة أمالها وهو يجلس... وقال لريحانة.

- "إني سأتوضأ".

ابتسمت له وقالت.

- "بل أنت في حاجة لتغتسل... سوف تنخفض حرارتك... وسوف تدخل في الإسلام... ومن يدخل في الإسلام فعليه أن يغتسل... وسوف يشفيك الله".

قال داود وهو يبتسم.

- "نعم... أنا سأغتسل".

حمل داود المزودة الصغيرة... وبدأ يسكب من القربة في مزودته... ثم ابتعد قليلاً... وجلس وبدأ يسكب من المزودة على جسمه ليغتسل... لم يطل الوقت... لقد عاد الرجل وملابسه مبللة بالماء... ولكن هناك أشياء كثيرة قد تغيرت بعد انتهاء داود من إراقة آخر قطرة ماء على جسده... لقد كانت الدنيا تشعره بأنه داخل في عالم جديد... إنه بالفعل ينظر للأشياء بعين أخرى ... ولكنه لم يتمالك نفسه من الفرحة... وجهه الذي كان مكفهراً بدا سمحاً وبشوشاً... بالرغم من الآلام التي تباغت يده بين الفينة والأخرى.

القبلة

نظر داود إلى السماء... يبدو أن الفجر قد طلع... تقدم قليلاً حتى صعد على حجرة في طرف الفناء... قلبه يدق بنبضات ولهانة... لقد ارتفعت نفسه وكأنها عصفور يطير... إنه يشعر بسعادة غامرة تحل جوانب قلبه... وبدأ يشعر بشيء من القدسية تتسور عليه حياته... رفع داود يده السليمة حتى وضعها على أذنه... ثم اتجه في قدسية أخاذة جهة القبلة... وبدأ في الأذن... الله أكبر الله أكبر... إنها ألحان عذبة تنبعث ندية من الحنجرة المؤمنة... التي شهدت للتو أنه لا إله إلا الله... وأن محمداً رسول الله.

جلست ريحانة في خشوع وهي تتأمل الصوت العميق الذي ينساب داخل نفسها... ويسقي في أعماقها أوراق الفرحة الأخاذة... بما عدته نعمة عظمى... إنه المسلم الجديد داود... لقد هداه الله للإسلام... ومع سيمفونية السعادة التي عزفها قلب ريحانة... كانت تهز رأسها مع ألحان داود وهو يؤذن... وفي عالمها الحالم ذاك تذكرت صوت عين الدين... لقد رق قلبها لسماع الصوت الأقرب لصوت أذان الأتراك في إسلام بول... عاصمة الخلافة... دق قلبها ودقت مشاعرها... فهل ترى زُرعت شجرة حب صغيرة في قلب الفتاة النمرة... وهل سيكون المسلم الجديد هو فصل رائع من فصول حياتها الصعبة... لا أحد يدري.

الحرمل

الصباح الجميل يسفر... ويسفر وجه داود فيه... عن مدى فظاعة الألم الذي يعصر يده... إلا أن جسمه الملدوغ بدا شاحباً ضامراً... إنه الآن نائم داخل منزل ريحانة... وريحانة بجواره تضع كمادات الماء على جبينه الساخن؛ لقد أحضرت شيئاً من نبات (الحرمل) وسحقته ثم وضعته على مكان اللدغة... وبعدها قالت:

- "ستصبح بخير يا داود... عليك أن تتجلد".

- "سأموت سعيداً... لو مت وأنت راضية عني... يا سيدتي".

- "تصبَّر يا داود... بقي أمامك متسع من الوقت... أرجو من الله أن يكون في عونك... هذه الأفعى وضعت سمها في بدنك... كم هو قلقي... ربما انتشر في يدك... لست أدري... ولكن الخيار صعب... صعب جداً".

مد داود يده وهو يقول:

- "ناولني شيئاً من الماء يا سيدتي".

حملت ريحانة المزودة من جوارها... ثم قربتها من فم داود... بدأ داود يرتشف بهدوء... شرب قليلاً ثم نكس رأسه... نظرت ريحانة إليه بشفقة ولكن عينيه بدأتا تذرفان الدمع... وبدأ أيضاً ذلك الأنين المتواصل من حنجرته... وربما بدا وكأنه يودع دنياه.

رفعت ريحانة يده الملدوغة... إنها في حيرة من أمرها... لا زال اللون الأزرق يحيط بمكان اللدغة... وبقية أجزاء اليد لم تسلم من تورم قليل... قالت ريحانة وهي تمسح دمعة علقت في أهداب داود:

- "تصبر يا رجل... بقي أمامك يومان... أرجو الله أن يقدر شفاءك... ولكن".

- "ماذا يا سيدتي".

- "إن لم تُشف... فعليك أن تتحمل العلاج النهائي... ربما كنا مضطرين لقطع مكان اللدغة".

طأطأ داود برأسه في حزن... ولم يُحرز قول أي كلمة... ريحانة حزينة على موت النمر... ولكنها الآن أشد حزناً على هذا المخلوق الراقد بجوارها... إن صحته تتراجع.

الدواء

مر الوقت سريعاً حزيناً... ومع مروره بدأت يد داود المربوطة من نصف الذراع تتعفن شيئاً فشيئاً... ريحانة كلما نظرت إليه تشعر أنها السبب فيما أصابه... ليس هناك ما يدعوها لذلك... ولكنها هكذا أحست.

وفي الليلة التالية... لم يستطع داود أن ينام... لقد بدت صورة الإعياء مرتسمة في عينيه... وأنفه الطويل أصبح مائلاً.

وعندما أصبح صباح اليوم التالي كانت الأمور جميعاً تدل على أن السم سيسير للبدن المهزول... لا خيار... سوى الخيار الأصعب... يجب أن تُبتر اليد... ريحانة لم تترك داود أبداً... لقد كان تحت الرقابة المتواصلة... إنها تتابع حال يده لحظة بلحظة... ولكن الأمور الآن على أسوأ حال... لذا قالت ريحانة في أسف:

- "ما رأيك يا داود... العلاج الأخير... ربما كان علينا أن نبتر يدك... من المرفق".

شهق داود شهقة حزينة... وسبح قليلاً في همومه... ثم أحس بوخز الألم الشديد... بعدها نظر لريحانة وهو يقول:

- "الموت... الموت... أهون... لم أعد حزيناً بعد أن دخلت في الإسلام... حتماً سيكون الله بي رحيماً... قلبي مليء بحب الله وبحب الخير للناس... هذا يكفيني... لقد كان كل ذلك بفضلك أنت يا سيدتي... دعيني للموت... فالموت أهون... لا تشقي نفسك بي كثيراً... يا سيدتي".

مسحت ريحانة سلسلة من الدموع... نشرتها عيناها في صمت... ثم نظرت لعينين خاشعتين في محجري داود... بعدها قالت.

- "كلا يا داود... عليك أن تعيش... وعليك أن تفتح صفحة جديدة مع حياتك... وربما كان عليك أن تخدم الخير والإسلام... وربما كان عليك أن تنشر النور في الدنيا... كما سعيت من قبل في ممارسة أعمال لا تمت لمعدنك الطيب... أنت الآن نور من نور الله... ويجب أن تُشع في الأرض".

طأطأ داود برأسه... وقالت ريحانة في تلك الأثناء.

- " ربما عليك أن تشعر بالهدوء".

أمسكت يده بلطف... ثم تفحصتها... بدأت تتذكر شيئاً مما حدثها به عين الدين عن لدغات الأفاعي... عندما تتسمم اليد الملدوغة... هزت رأسها ثم قالت:

- "الليلة عليك أن تتحمل... ستعيش بإذن الله يا داود... لكن... الوقت ضدنا".

مر الوقت... ومع غروب الشمس كانت ريحانة تحد الشفرة... وتغلي السمن... إنها أشبه بنحلة سريعة أو بممرضة تقدس عملها... كل شيء تضعه في نظام وتحسب الحساب لكل طارئ... لقد وضعت السكين في الزيت كي تتعقم... إنها تفكر في أفضل طريقة لقطع اليد... وهي التجربة الأولى لها بالطبع... ومن قبل لم تر أحداً يفعل ذلك... وهي تفكر... هل تقطعها من المرفق أم من نصف الذراع... وبعد تفكير طويل توصلت لفكرة:

«ولكن... اللحم الذي على العضد... ربما سينسحب لأعلى بعد قطع الذراع... عندها لن يلتئم الجرح... وسيبدو عظم العضد بارزا... يجب أن تقطع الذراع من الثلث الأعلى في الساعد... وسيكون القطع مائلاً للداخل... والعظم سيكون أقصر بقليل من اللحم... عندها سنجمع اللحم على بعضه ونغلق الجرح... وبعدها نضعه في الزيت.

ريحانة تتأمل بكل عمق تلك العملية الجراحية... التي ستقوم بها... غربت الشمس... كل شيء جاهز... وأمامها يبدو المريض داود... إنه مسجى ينتظر اللحظة الحاسمة... لم يعد ثمَّة خيار... بدأت ريحانة في إحضار الزيت الساخن... والماء والسكين وبعض الخرق النظيفة... ثم رفعت يد داود ونظرت إليه نظرة عميقة... ثم ألقت على وجهه ابتسامه صادقة... وبدأت تذكر الله... داود فاغرٌ فاه وهو ينظر إليها... مرت لحظة حاسمة... مشاعر ريحانة تتنازعها حبال الخوف وحبال الرجاء... إنها قادمة على فصل عضو عن إنسان... إنها ستحكم على ذلك العنصر بالموت وبالتحول إلى تراب... إنها تشعر بدقات قلب داود الذي أسلم نفسه بكل هدوء كي تعمل فيه ما تشاء... وهي تشعر من أعماقها أن بحراً هادراً من اللوم سيلاحقها... لو لم تنجح هذه العملية... فقط هي لحظات ويقطع اللحم... ولكن هل ستكون هذه اللحظات هي المنقذة أم ستكون القاتلة... بدأت شفة ريحانة ترتجف والسكين في يدها ترتجف.

ولكن داود دخل في تمتمات طويلة يذكر فيها ربه... إنه يسبِّح ويستغفر... نظرت ريحانة لشفرتها... عليها أن تتجلد... ابتلعت ريقها... وفي هدوء أنزلت السكين على الموضع الذي حددته من قبل.

وفي لحظة قوة من لحظات القوة التي تحل فؤاد ملكة الوادي سحبت ريحانة سكينها على اللحم... بشكل سريع جعل اللحم يُقطع بسرعة... ازدادت الفتاة عزيمة ثم أجرت السكين على جميع اللحم المحيط بالعظم... وعندها صرخ داود... ولكنها لم تبال بصراخه... وضعت رجلها بقوة على صدره... كي يساعدها ذاك على تثبيته ثم رفعت السكين ثم أهوت بها على العظم بكل قوتها وجبروتها كنمرة مزمجره... انكسر العظم الكبير... ثم الصغير... لم تعد صورة اللحم لتحرك مشاعرها... لقد قطعت بسرعة بقية اللحم أشبه بأمهر جزار... داود يتألم ويصرخ... ولكنها أنهت نصف عملها... وتفكيرها منصب على هذا الدم النازف... جمعت ريحانة اللحم الذي في الساعد حتى غطت به الجرح... ثم ربطته بخِرقه نظيفة... ثم وضعت اليد مع الخرقة في الزيت الحار... كان قلبها أشبه بصخرة صلبة... صاح داود صرخة مدوية... وأخيراً أغمي عليه... وبسرعة كبيرة رفعت ريحانة يد داود من الزيت... ونظرت إلى اليد المبتورة... لقد انتهت العملية بنجاح... أزالت ريحانة الخرقة من على الجرح... لقد انكمش الدم.

تركت ريحانة الجرح ليبرد في الهواء... وتركت داود داخل إغماءته الأليمة... لم تمض ساعة إلا وداود يفتح عينيه... وبهدوء يراقب يده المبتورة... لم يكن يشعر أنه الآن قد أصبح في حال أفضل... بالتأكيد لم تعد آلام اللدغة موجودة الآن... ولكن الآم الزيت الحار هي التي تكويه... وهي كفيلة بصناعة ما يشبه الموت... نظر داود لوجه ريحانة الماثل أمامه... في حين نظرت هي إليه... وهزت رأسها... وناولته قدحاً.

شرب داود قليلاً من ماء العسل الذي صنعته له ريحانة وناولته إياه... ثم عاد لإغفاءة طويلة.

القلم والمال

الوقت يمر... والوادي الطويل هادئ كعادته... لقد مر أسبوع كامل على ذلك اليوم الحزين الذي ذاقت فيه يد داود... طعم سم الأفعى... وها هو الآن يتماثل كلياً للشفاء... والجديد في الأمر أنه أصبح أحد سكان منزل ريحانة... ولكنه قال لها في المساء الفائت:

- "يا سيدتي أنا لا أدري كيف أرجع لك شيئاً من أفضالك التي غمرتني بها".

- "لم أقم تجاهك بشيء... إنه فضل الله".

- " ولكني مدين لك بحياتي".

- "تريد أن ترد لي الجميل".

- "نعم... أقسم لو طلبت حياتي لما كان طلبك غالياً".

- "سأطلب منك أقل من ذلك... أريد أن تعلمني القراءة والكتابة... وبعدها نحفظ القرآن سوياً".

ابتسم داود وطأطأ رأسه... وقال:

- "كم أنت عذراء بتول يا سيدتي... ولكن أين المصحف".

- "وفود الحجاج القادمين من اليمن... سيمرون بالساحل خلال هذا الشهر... سأعطيك النقود وستقابلهم أنت... وستشتري منهم كل ما نريد".

لم يتكلم داود... لقد قام فزعاً وهرب... استغربت ريحانة... ماذا دهاه... كادت أن تلحق به... ولكنها لم تفعل... وبعد قليل أقبل داود وهو يحمل في يمناه حقيبة كبيرة... وعندما وقف أمامها قال:

- "هذه أموالي يا سيدتي... لقد نسيت... أنا لم أعد يهودياً... أنا مسلم... كنت أجمعها للشر... الآن سأنفقها في سبيل الله".

- "الآن أصبحت مسلماً حقاً".

الفصل الثاني عشر

يهوديتان وثري

شاب في السابعة والعشرين من عمره... يبدو على هيئته جميع سمات الأثرياء... ونظّارته الشمسية لا يكاد ينزعها إلا عندما يتكلم بالمانية البطيئة ثم يُشيح بوجهه عن محدثيه... ربما ليحتقرهم أو ليوهمهم أنه أفضل منهم... أو ربما لأمر ثالث...

في كل صباح يتعمد الذهاب إلى أحد محلات الحلاقة الراقية ويبقى فيه مدة نصف الساعة... ليحلق شاربه وذقنه... ثم ليتأكد من جمال هندامه... وربما كان ذهابه لمحل الحلاقة كي يعيد صبغ شعره باللون الذهبي.

هذا الشاب النشيط يذهب نحو مصنعه باكراً... ويبدو على ملامحه أنه صارم وجاد... وتبدو خبراته التجارية غير متناسبة مع عمره... فهو يمتلك الكثير من الحنكة والقدرة على الكسب... ومصنع (المطاط الصناعي) الذي يمتلكه يُدرُّ عليه مكاسب كبيرة... وإدارته له أشبه بإدارة مدير متمرس قد قضى عمراً طويلاً في إدارة المصانع... إن هذا العام هو العام (١٩٠٥م)... وألمانيا دولة عظيمة تسابق الريح لتفرض ثقافتها على الجميع... الاقتصاد يبدو قوياً... والصناعات تفيض مع أبواب المصانع... والدول المنافسة لألمانيا تكاد تموت غيضاً... روسيا وبريطانيا وفرنسا... جميع قراء الوقائع السياسية يتصور أن هؤلاء هم ألد أعداء

الإمبـراطورية الألمانيـة... والجـميـع يقـرؤون فـي الأفق لائحـة حـرب قـادمـة... قـد يتقاسم فيها الجميع مائدة الموت.

أمـا ذلك الشـاب الفتـيّ فـإنه الآن يدخل قـدمـه فـي حـذائه اللمـاع... ويعـتـزم الذهاب نحو عـائله (ريؤل)... إنه و بجد يفكر في البحث عن طريقة جديدة لتوزيع المواد الخام التي ينتجـها مصنعـه... وهو يفكر في صناعة نوع جديد من الأحذية يستخدم فيها المطاط الصناعي بدل الجلد... أما عائلة "ريؤل" فهي عائلة يهودية قد اشتهرت في مدينة (براغ) في ألمانيا الغربية بصناعة الأحذية الجلدية الأنيقة... ولكن الفكرة التي بدأت تدور في ذهن الشاب هي كيفية صناعة الأحذية باستخدام المطاط الصناعي... وقد هداه تفكيره إلى التعاون مع هذه العائلة.

عائلة ريؤل اليهودية عائلة محافظة... ومحترمة من وجهه نظر الجميع... ومنزل العائلة اليهودية لا يسكنه سوى ريؤل وأختيه العانستين والأم العجوز... وريؤل الصغير ذو الثمانية أعوام... إنه بالتأكيد يدعى ريؤل... وهو أخو ريؤل الكبير!!! ولا أحد يدري من هي والدة هذا الصبي... ولكن العجوز أخذته ابناً... كانت الأسرة اليهودية في أتم الاستعداد لاستقبال الشاب الزائر... وكانت كل فتاة من هاتين العانستين تحلم وطيلة ثلاث ليال... في أن يفكر الشاب في الزواج منها.

أعدت القهوة والبسكويت... ووضعت باقة جميلة من الزهور بجوار المدخل... وبعد لحظات بدأ الباب يستسلم لطرقات الشاب الثري.

منزل الأسرة اليهودية من الخارج يبدو أبيض ناصعاً... وحديقة صغيره تحيط به... ومع دخـول الشـاب بدا الأثاث بالداخل في صـورة راقـيـة ورائعـة... وبدت الفتاتان واقفتان في أجمل حله... أشبه بعروستين من القماش البالي!!!

قطب الشاب جبينه ليُظهر على وجهه بعض ملامح الانزعاج... وبدأ ريؤل يقدم موسوعة ضخمة من الكلام الجميل... وتقدمت الفتاتان لتقدما التحية... وسرعان ما ابتسم الشاب وتقدم مسرعاً ليجلس على أحد الكراسي الخشبية المذهبة... يبدو

الشـاب واثقـاً من نفسـه... ومع أول الدقـائق لجلوسـه بدا قـادراً على الحـوار والنقاش... لقد قدم نفسه كشاب تقدمي... وأدخل أنفه في أحاديث كثيرة يشرح فيها أبعاد نظرية داروين بشقيها... ثم يركز على الداروينية الطبيعية وعلاقتها بالداروينية الاجتماعية... ولكنه بين الفينة والأخرى يُلقي الكلمات الساخرة بالنظرية ذاتها... لافتاً النظر إلى ما يعتبره صدعاً عميقاً في جدرانها.

سخريتة تلك سلبت لباب الجميع نحوه... إنه يبدو قادراً على المراوغة وقادراً أيضاً على طرح الفكرة بطريقة مقنعة... ثم نسف الفكرة ذاتها بطريقة مقنعة أيضاً... إنها طريقة مقنعة في نسف الأفكار... هكذا قال ريؤل... وضع الشاب إحدى رجليه على الأخرى... وقال في تبختر:

- "قرأت كتاب داروين... (أصل الأنواع)... عدة مرات... لقد أعجبني داروين في كونه باحثاً جاب كل بقاع الدنيا للبحث عن الأحافير... وأعجبني أيضاً عندما أكد أن الحقيقة لا تتفق مع الإنجيل... إنه يقول بكل جرأه (اليهودية والنصرانية شيء من الهرطقة)... أنا أحترم له ذلك... ولكني لا أدري لماذا لم يتحدث داروين عن أديان وعقائد أخرى... أديان لها وزن بالقياس الديموغرافي... ولعلي أمثل لذلك بالكونفوشية وبدين النبي العربي... وأطروحة العرب الحضارية... ربما لأن داروين لم يدرس شيئاً عن ذلك... إنه أستاذ في اللاهوت ولكن حتماً ليس لديه خبرة في جميع الأديان... وإلا لما تجاهل ذكرها هنا... نعم نعم... إن داروين يقول (بأن أصل الإنسان قرد) أنا لم أقتنع بذلك... لأن نظرية التطور أصلاً تفترض أن كل الارتقاءات كانت مصادفة".

عدل الشاب من جلسته ورفع رأسه قليلاً وهو يلقي ابتسامة للفتاة الكبيرة ثم أكمل.

- "لاحظوا يا سادة... النظرية... إنها تفترض... تفترض ذلك افتراضاً لا إثباتاً... وهي أيضاً لا تملك إثبات ما تدعو إليه... ذلك لأنها دائماً تعيد الاستدلال إلى أزمنة بعيدة تقدر بملايين السنين... لذا فإنه لا يمكن لأحد أن يجزم

بصحتها... ثم إن نظرية داروين الاجتماعية حظيت بكثير من الاحترام؟... أنا أيضاً أحترمها... إنه يقول فيها: «إن الأفراد داخل أي مجتمع يتنافسون... وإنهم يجرون ويلهثون... وكل منهم يريد تحقيق ذاته ومصالحه»... ليس هذا المهم... المهم قوله: «إن القادرين على تحقيق أهدافهم قلة... إنهم المتفوقون في القدرات والمهارات... وإن سلالتهم هي نخبة السلالات... وهكذا يتطور المجتمع... وهكذا ينمو... البقاء للأقوى والسيطرة والنفوذ للأقوى» هذا ما يقوله داروين أنا مقتنع بأن البقاء للأقوى... ولكني أتسائل دائماً... لماذا استطاع كثير من الفقراء والمعوزين صناعة انقلابات رائعة في الحياة... ثم لماذا لم يُدخل داروين، في اعتباره أولئك الأباطرة الذين أخذوا ثرواتهم بالإرث لا بالجهد... ثم ورثوا سلطانهم وأموالهم لمن بعدهم".

هكذا كان الشاب ذو الشعر الأشقر يطرح أفكاره بثقة... وهكذا كان الجو من حواليه مذعن تمام الإذعان لما يدور في ذهنه... ثم ينتقل على لسانه كلام ساحر.

الفتاتان مندهشتان... وكل منهما تفكر في الطريقة الأقصر للإيغال في قلب شاب وسيم ومثقف... وثري أيضاً.

تنحنحت الفتاة الكبرى... وقدمت نفسها على أنها فتاة تقدمية... تؤمن بجميع مبادئ داروين... وبدأت تعيد وتكرر الكثير مما قاله الشباب... ثم انهالت بذكر كم كبير من نظريات الفلسفة المادية... وانهالت أيضاً بانتقادات متتالية على الديانات السماوية... وخاصة اليهودية والنصرانية... وكيف أنها تعود بالإنسان إلى الميتافيزيقا... بعيداً عن التجربة والواقع... وعلى العاقل أن لا يصدق ما فيها أبداً.

وفي حالة انسجام كامل بين الفتاة وبين أفكارها... أراد الشاب الثري وضعها بين المطرقة وسندان الامتحان... إنه يريد أن يتقصى حقيقة ما تدين به وما يعتمل في أعماق نفسها... وحقيقة إيمانها بالديانات السماوية خاصة... وإيمانها بالنظريات المادية... لذا قال:

- "لقد رأيت ليلة البارحة مناماً... المنامات تأتيني كثيراً هذه الأيام... لقد رأيت أنني أصعد نحو النجوم... لقد صعدت حتى بدأت ألامسها...".

انتشت العانس الكبرى... وأحست أنها حققت مكاسب كبيرة من كلامها الأول... لقد بدأ الشاب يستشيرها حتى في مناماته... لذا قالت.

- "إنك ستصبح رجلاً مشهوراً".

كانت هذه الكلمات التي قالتها الفتاة أشبه بمفتاح شفرة سرية... إن عقل الشاب يحلل كل شيء بسرعة مذهلة... سرعان ما عرف أن الفتاة تؤمن بالعهد القديم أكثر من إيمانها بمبادئ فرويد... ولكن لا زال القليل من الشك يراوده حول حقيقة ما يعتقده اليهود تجاه غيرهم.

كانت هذه الجلسة بين الشاب وبين أسرة "ريؤل" أول جلسة عائلية... الكل أراد أخذ انطباعات صادقة عن الآخر... وعندما قام ريؤل وأختاه والأم نحو المطبخ... للتأكد من أن المائدة الصغيرة قد اكتملت... نظر الشاب الثري إلى الطفل الصغير الذي يجلس أمامه... ولكن سرعان ما ابتسم الطفل ابتسامه عريضة للشاب... لكن الشاب المتيقظ سأله بسرعة:

- "لماذا تبتسم لي؟".

- "لأن أمي تقول لي دائماً عليك أن تبتسم لكل الناس حتى ولو كرهتهم".

ابتسم الشاب أيضاً... واطّلع على حقيقة صريحة سمع عن وجودها كثيراً في اليهود... وتساءل في نفسه... لماذا لا يَصْدُق هؤلاء في عرض مشاعرهم وأفكارهم... ولماذا لا يعبرون عن ذواتهم مثلنا [١].

يوم من أيام الصهيونية

لا زال عقل الشاب الثري يعمل أشبه بمحرك طاقة... ولا زالت عيناه اليقظتان تبحثان في كل اتجاه عن طريقة أخرى لزيادة المال... المهم في الأمر ادعاءه بأنه

(١) مذكرات شاهد القرن، مالك بن نبي ص ٤٠ استنباط من فكرته عن اليهود.

يهودي... ولكن فقط عندما يجلس مع اليهود... وسرعان ما يتنصَل من يهوديته تلك ويلقي عليها أقذع الأوصاف كلما جلس مع مسيحيين أو بوذيين... آمال الشاب تبدو وكأنها بلا حدود... وكلما سمع عن حصول شخص ما على جائزة نوبل يتفطر قلبه حسداً وحقداً... ويجدد العزم مع نفسه بالسير في الطريق الصعب للوصول إلى جائزة نوبل... كثير هم الألمان الذين حصلوا على الجائزة... بل ربما كان الألمان هم أكثر العلماء الحاصلين على جائزة نوبل منذ عام ١٩٠٠ .

القراءة ثم التجربة هي الطريق الأقصر الذي عزم الشاب على السير فيه ... إنه يحسد الكاتب الذي اسمه "فريدريش هيجل "وهو الآن مهتم بكتابه الصادر حديثاً (فلسفة التاريخ) ويكاد يلتهم أوراقه التهاماً.

وفي هذه الأيام بدا نجم شاب يهودي يلمع في الأفق... وبدت بوادر ثورة جديدة قد يحدثها هذا اليهودي... ومدينة براغ ينتشر فيها خبر غريب عن أن اليهود سيدعمون ما يسمى بالحركة الصهيونية العالمية... وسيمهدون لها الطريق بكل ما أُعطوا من قوة ومكر... كي تبني لنفسها دولة في أي مكان من العالم.

هناك إمكانية قيامها في الأرجنتين... أو في أوغندا... أو قبرص أو سيناء... ولكن المكان الأنسب من وجهة نظر هرتزل... المؤسس الحقيقي للصهيونية هو فلسطين.

المبادئ الأساسية لفكرة الدولة الصهيونية تسري سريان النار في الهشيم... وأكثر اليهود بدؤوا يدعمون هذه الفكرة... إنهم في أغلب اجتماعاتهم يتحدثون... حيناً بهمس وحيناً آخر بجهر... ولكنهم كثيراً ما يستشهدون بمقاطع من كتاب بثيودور هرتزل الذي يكرس فيه الفكرة الرافضة لذوبان اليهود في الثقافات التي يعيشون فيها... ويكرس فكرته المدعومة بالأدلة والبراهين... بأن أنسب مكان لجميع اليهود هو فلسطين.

الفكرة الرئيسة هي أن اختيارهم لفلسطين سيمكنهم من اختلاق ادعاءات وروابط دينية... بين تاريخ اليهود وتاريخ فلسطين... وحتماً ستُقصِّر تلك الادعاءات طريقهم لتحقيق هدفهم.

لم تكن أفكار هرتزل ساذجة أو غبية... ولم تكن مخططاته لتذهب أدراج الرياح دون أن تهز في عقل كل يهودي... أو في قلبه الشره... أطماعاً عظيمة... لأن اليهود وعلى مدى عمرهم التاريخي لم يرتبطوا بشيء ارتباطهم بالمال والتجارة... ولم يكن لهم أي ارتباط بالأرض أو الزراعة... وعبقرية هرتزل تكمن في تحويلهم من الاهتمام بالتجارة إلى الاهتمام بالزراعة والأرض... ومن ثم إنشاء حضارة مجيدة لهم ولأبنائهم من بعدهم.

لقد كانت مبادئ فكرة هرتزل التي طُرحت في المؤتمر الصهيوني في بال (١٨٩٧م) تتلخص في محاور هامة اقتنع بفحواها الجميع... فنّدها هرتزل بثقة وهو واقف على المنصة... كان يشير بيده بثقة وهو يقول:

- "أولاً... علينا أن نفكر بطريقة عملية... ويجب تشكيل شركة يهودية لشراء الأراضي الفلسطينية... ومن ثم الإشراف على زراعتها... وعلى هذه الشركة أن تحاول إقناع الدول الأوروبية بالإستراتيجية التي يمكن أن تقدمها الدولة الصهيونية المستقبلية للأوروبيين.

ثانياً... يجب أن يكون الممولون لهذا المشروع من الأثرياء اليهود... أولئك الذين يريدون دعم المشروع الصهيوني ولا يريدون الهجرة إلى فلسطين بعائلاتهم.

ثالثاً... سوف يكون المهاجرون إلى فلسطين من أولئك اليهود الفقراء الذين لا يملكون ما يخسرونه أو يهابون عليه من الضياع... ومن هنا يخلق مناخ يغري الطبقات اليهودية للاستيطان".

آينشتاين

مصنع المطاط يبدو مهيباً... والبوابة الحديدية تُبرز صورة الحرص والصرامة... التي يفكر بها صاحب المصنع... وهناك... ها هو حارس المصنع يتجول بجوار البوابة جيئة وذهاباً... وسوطه الأسود الخشبي يضفي عليه مسحة من كبرياء... ربما من وجهة نظره هو فقط.

ولكن سرعان ما اضطرب الحارس... وأسرع في إعداد قبعته الزرقاء وقميصه الأزرق... في أجمل صوره... ولعل ذلك يرجع إلى أن صاحب المصنع قد أقبل في عربته الجميلة... ذات الحصانين... وبمجرد وصول صاحب المصنع انحنى الحارس قائلاً:

- "أهلاً يا سيدي لوك".

ابتسم لوك الشاب صاحب المصنع... واستمر في المشي.

هكذا كان يحلو للشاب أن يدعو نفسه... ولكنه طلب من الحارس فجأة أن يأتي نحوه... كانت دقات قلب الحارس تزداد... وعندما وقف الحارس أمام الشاب لوك... قال لوك:

- "ما أخبار زوجتك... هل لا زالت مريضة".

- "إنها تحتاج إلى رعاية أكثر".

- "عليك أن تبقى بجوارها طيلة الأسبوع القادم... وراتبك لن يخصم منه شيء... أنت حارس طيب... وسيقوم مقامك حارس آخر... لا عليك".

بدت الحياة جميلة في عين الحارس... إنه يعرف أن سيده لوك لا يصلح أن يكون يهودياً أبداً... إن قلبه صارم مع كل الناس... إلا أنه مع الفقراء يبدو في غاية السماحة...ابتسم لوك وربت على كتف الحارس... ثم أدار ظهره واتجه نحو الباب.

كان لوك يحمل في يده دورية علمية... إنه في غاية العجلة كي يقرأ ما فيها من مقالات الشاب اليهودي اللامع المسمى "إلبرت آينشتاين"... وسرعان ما دخل لوك مكتبه الخاص... وطلب القهوة وجميع الأوراق التي تحتاج إلى توقيع أو دراسة... وبسرعة تصفح الأوراق ووقع على ما يحتاج لتوقيع منها... ثم أمال ظهره على المقعد... ورفع كوب القهوة... ورفع أيضاً مجلة "أناليه دير فيزيك" وبدأ يقرأ ويحاول الاستيعاب... وعيناه مركزتان في كل كلمة... وبعد ساعة كاملة من التركيز قام لوك من مقعده وانصرف.

محاضرة آينشتاين

القاعة الكبرى في جامعة براغ تكتظ بالعلماء والمختصين... والجميع ينتظرون بفارغ الصبر دخول الشاب ذي الخمسة والعشرين عاماً... كي يسمعوا ما سيفسر به نظرياته.

لوك يجلس في أحد المقاعد الأمامية... وبجواره من اليمين فتاة... وعن شماله فتاة أخرى... وسرعان ما دخل آينشتاين... واعتلى المنصة... واتجه جهة الطاولة الصغيرة ذات القائم الواحد... ثم وضع أوراقاً بيضاء ذات برواز أسود... وبدأ يقول:

- "العلم هو المحيط... لا أحد يستطيع الإلمام بعدد قطرات ماء المحيط... ولكني سآخذ قطرة واحدة من ماء المحيط... وسأحاول تعريفكم على ما بداخلها.

في مقالاتي الثلاث حاولت وضع أطر جديدة لنظريات جديدة في الفيزياء... الناس يقولون:

- "الفيزيائون لصوص... يسرقون بخفة ومهارة... ما يتوصل له علماء الرياضيات... ثم يحولونه إلى نتاج مفيد... يربحون من ورائه الملايين من الجنيهات... ويبقى علماء الرياضيات فقراء إلى الأبد.

ولكني هنا سأثبت العكس... وسأثبت أن علماء الفيزياء هم من يقدم للناس كل شيء".

بقي آينشتاين يتحدر بكلام سهل... ثم انتقل إلى كلام أشبه بالألغاز... الجميع يدونون ملاحظاتهم واستفساراتهم... ولوك ينظر إلى الفتاتين... بين الفينة والأخرى... ويسألهما:

- "هل من الممكن الاستفادة من هذا الكلام في صناعة المطاط أو صناعة الأحذية".

ثم يعود الشاب ليكتب كل مصطلح جديد يسمعه... ويضع تحته خطاً واضحاً... ثم ينظر إلى الفتاة عن يمينه و يقول:

- "سجلي كلمة (فوتونات) واكتبي أمامها كلمة "جسيمات صغيرة".

ثم ينظر إلى الفتاة التي عن يساره ويقول:-.

- "دوني كلمة (ميكانيكا الكم) وأيضاً دوني كلمة (اصطدام شعاع ضوئي بسطح معدن أو سطح فلز)".

نظر لوك إلى الفتاة عن يمينه وقال:

- "دوني هذه الجملة... تحرير الإلكترون من مدار الذرة الأخير... واكتبي ظاهرة التأثير الكهروضوئي".

نظرت إليه الفتاة الأصغر وقالت:

- "لماذا لا نرسم ذلك ثم نلخص النظرية".

نظر لوك إليها بإعجاب وقال موافقاً.

- "نعم".

رسمت الفتاة الصغرى رسمتها في حين شاطت الغيرة في قلب الفتاة الكبرى...

نظر لوك إلى الفتاة عن يساره وقال:

- "اكتبي عنوان (مقالة آينشتاين الثانية) ثم اكتبي كهروديناميكا الأجسام المتحركة... وبين قوسين اكتبي (نظرية النسبية).

واكتبي قانونها (ط= ك×س٢) الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء".

نظر لوك إلى الفتاة عن يمينه... أعجب برسمها التوضيحي كثيراً... و قال لها بعد ذلك:

- "اكتبي (مقالة آينشتاين الثالثة) ثم اكتبي (الحركة البراونييه: هي حركة الإلكترونات المتحررة من الذرة... وحركتها هي حركة عشوائية سريعة)".

انتـهى آينشـتـاين من شـرحـه... وقـام الكثـيـر من الحـضـور لإلقـاء أسـئلة أو استفسـارات... لكن لوك والفتاتين قاموا منصـرفين... لأنهم قد عـزموا على تناول العشاء في أحد المطاعم الراقية المنتشرة على ضفاف أحدالأنهار.

الفصل الثالث عشر

داود... الرجل المدلل

مرت الأيام سريعة... وداود يثبت في كل يوم أنه أحسن إسلاماً... وعندما قارب الشهر على الانقضاء كان داود يعد نفسه للسفر كي يقابل الحجيج... إن صحته ممتازة... ونفسه أصبحت شفافة لطيفة... وهو يجيد أن يبتسم طول الوقت.

ومع شروق الشمس كان يودع سيدته ريحانة... ويلوح بيده الوحيدة... ثم يمشي من بين الصخور كي يختفي وهي تبتسم له بسمة لطيفة... لقد أصبحا شيئاً واحداً في بطن هذا الوادي... وعليه أن يحضر المصحف الشريف... وبعدها ستبدأ رحلة جميلة مع آيات كلام الله.

مرت سبعة أيام... ومع غروب الشمس في اليوم الثامن كانت ريحانة تحمل قربتها عائدة إلى منزلها... ولكنها سمعت صوت أقدام من خلفها... وعندما استدارت... كانت تشاهد وجه داود الصبوح... لا تدري لماذا شعرت بالدهشة ولا تدري لماذا سقطت القربة من على ظهرها... ولكنها ابتسمت وشعرت أن قلبها رقص... أسرع داود و هو يقول:

- " يا سيدتي... أوه لقد سكب الماء في الأرض".

- "لا عليك يا داود... هل حصلت على مصحف".

- "نعم... لقد حصلت عليه... ومن الآن سيبدأ وقت الجد".

انفرد وجه ريحانة بابتسامة بديعة... جعلت داود يسبح في أحلام وردية... ثم قالت:

- "أرني المصحف يا داود".

أنزل داود تلك القفة الجلدية من على ظهره... بعد أن فك حبلين كانا يمسكانها... ثم فتحها بهدوء... وريحانة تنظر إليه... إنه يستخدم يده الوحيدة بخفة ومهارة ... وبعد أن أخرج مصحفاً جديداً يحيطه كرتون أحمر... قد رسم عليه قبة لمسجد الأمويين بدمشق... ابتسم وهو يقول:

- "هذا هو كتاب الله يا سيدتي".

لم ترد ريحانة بكلمة واحدة... لقد سمحت لصورة المصحف أن تنطبع في ذاكرتها بروحانية كبيرة... ربما كي تستمر للأبد... هزت ريحانة رأسها ثم مدت يدها وهي تقول.

- "هذا هو كتاب الله... وهذا هو كلام الله".

أمسكت الفتاة المصحف... وأحست برعشة كبيرة... لم تخف قسماتها على عيني داود... ثم رفعت المصحف لصدرها وضمته وهي مغمضة لعينيها وتسبح في ملكوت ساحر بديع... تقدمت ريحانة وهي على حالها ذاك... ثم فتحت عينيها... وقصدت حجَرة مدحرجه... ثم جلست عليها.

وفي تلك الأثناء... لم تبخل عينا ريحانة الياقوتيتان... في أبداء الخشوع والوجل... على شكل دموع لؤلئية تحدرت على الخدين الخمريين... بهدوء أقرب إلى هدوء الأيمان... الذي يتغلغل شيئاً فشيئاً في نفس داود... وهو ينظر إلى وجهٍ ملائكي الطهر... ودون شعور ملحوظ... تقدم داود وهو أشبه بالحالم... أو بمن غشيته سنة من نوم أو نعاس... وقد فرد يده الوحيدة... كي يمسك الدمعة التي غادرت خدَّ ريحانة للتو... متجة جهة الأرض.

إنه لا يدري لماذا مد يده... ولا يدري لماذا يريد الإمساك بالدمعة... ولكن شيئاً أوحى له بأن اللؤلؤة ستدفن عما قريب في التراب.

ومن بين أصابع داود... انفلتت الدمعة... لتنطبع قطرة كبيرة على غلاف المصحف ... أشبه بقطرة مطر من مزنة بيضاء.

رجع داود للوراء... وابتلع بهدوء ريقه... ماذا حصل لعقله... ليس ثمة لآلئ... إنما هي دموع التقوى والإيمان... ومصحف طاهر... وعبق زاكي... ينبعث من روح ريحانة.

انتبهت ريحانة لما حولها... وفتحت المصحف... ثم حركت جسمها إلى أحد أطراف الصخرة... كي تفسح مكاناً بجوارها... وقالت في همس:

- "اجلس هنا يا داود... واقرأ لي من القرآن".

جلس داود دون أن يمس جسمه جسمها... ثم تناول المصحف... وبدأ يقرأ بصوت بديع التقاطيع:

- "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم... **﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ﴾**.

توقف داود قليلاً عن القراءة... ثم شهق بعد أن قرأ هذه الآيات... ثم مال برأسه وهو يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله... وأن محمداً رسول الله).

- "ماذا لديك يا داود".

- "الإيمان... شيء رهيب... أشعر أن شجرة عملاقة من الأمن... تنبت في صدري... وتتغلغل في عروقي".

- "ألأمن هو الإيمان... الأمن هو الإيمان".

قامت ريحانة... واتجهت جهة منزلها... ثم أحضرت شيئاً من العسل الجبلي... وكرة كبيرة من خبز الشعير... تقدمت جهة داود ثم ناولته ما في يدها وهي تقول:

- " هذا عشاؤك الليلة... أنت متعب... ووددت لو أن عندي شيئاً من اللحم".

- "كلا يا سيدتي... لا حاجة".

فتح داود القف الذي معه... وأخرج صرة مربوطة من القماش... ثم ابتسم في وجه ريحانة وهو يقول:-.

- "اقبلي هديتي لك يا سيدتي... ربما كانت هذه الهدية هي أول هدية أقدمها في حياتي... إنها قطعة من المشبك المصنوع بأيدي صبايا محايل... أوه... جميلة هي مدينة الكادي والمشبك".

ابتسمت ريحانة... وتقدمت لتأخذ المشبك... وفي أعماقها خلجات كثيرة تذكرها بعين الدين.

البيض لم تتكسر

مرت الأيام سريعة كالرياح... والشيء المهم في حياة الفتاة هو درسها الذي يلقنها إياه الأستاذ... صاحب اليد الوحيدة... لا أحد يصدق أن داود يعطي دروساً في القرآن... ولكنه يفعل ذلك... وقلبه مليء بالخشوع والأمان... إنه يرتاد منزل ريحانة في كل يوم مرتين... وهو سعيد بما تقدمه له من طعام... ولكنه يحضر معه طعاماً كلما جاء إليها... البيض المسلوق... لقد اشترى من محايل كيساً من البيض... وهو يسلق كل يوم أربع بيضات... ويحضرها معه... ويعطي ريحانة

بيضتين ويلتهم بيضتين... ولكن لماذا لم يتكسر البيض... مع تلك المسافة الطويلة... هكذا سألت ريحانة... المسألة سهلة حلها داود بقوله:

- " لقد صنعت صندوقا مكعباً من الخشب... ووضعت فيه مئة وعشرين بيضة صغيرة... وأحطته بشيء من العلف... ثم أقفلته... لذا لم يتكسر البيض".

ومع الدراسة الجادة... يُرى كل من داود ريحانة... وهما يلتهمان البيض مع الخبز والعسل... وتحمل ريحانة قلم الجراع وتغمسه في ماء الفحم... ثم تكتب على جلد نظيف (أ، ب، ت).

داود يعلِّم ريحانة القراءة والكتابة... وهي لا تكاد تنسى شيئاً مما تتعلمه... لقد كانت طالبة جادة... وكان عقلها حاضراً مع كل ما تسمعه.

شجاعة

مرت ثلاثة أشهر... وأصبح داود بعمامة بيضاء ولحية سوداء طويلة... ووجه صبوح سمح... ودروس القرآن تزداد حيوية ونشاطاً... وكلما عاد داود لمنزله راجع ما حفظه... لقد حفظ عشرة أجزاء... ولكن ريحانة أذهلته... إنه لا يدرى كيف حفظت خمسة وعشرين جزءاً... وهي تفكر بجد في تعلم شيء آخر بعد إنهاء حفظ القرآن... شيء مهم يدور في ذهنها... إنها أحاديث الرسول ﷺ.

هل ستحصل على كتاب يجمع لها أحاديث الرسول... ربما سيكون لها ذلك... إن أرسلت داود لوفود الحجيج القادمة من اليمن جهة مكة.

مرت الأيام متسارعة... وكل يقوم بعمله اللازم... حياة ريحانة مستقرة جداً... وعلمها يزداد... كلما تأملت ما حفظته من كلام الله... إلا أن داود أصبح الآن شيئاً آخر... لقد بدت الهيبة والسكينة مرتسمة على محياه... ونظراته الخاشعة توحي بعميق تأمله... ولكن الأمور لا تسير بطريقة مناسبة في الجهة الأخرى... لقد حصل لداود شيء آخر... وهو في حيرة من أمره... بسبب هذا الشيء.

الحقيقة أن داود متأخر عن إرسال التقارير التي كان معتاداً على إرسالها... وعندما جاءه الوفد المسافر إلى إسطنبول لم يستقبله داود... لقد تركه في العراء... وقال لهم بالحرف الواحد:

- "أنا لم أعد معكم... أنتم في طريق وأنا في طريق آخر".

ولكن رئيس الوفد ابتسم وصفق بيده... ثم تقدم جهة داود وقد فرد يديه وقال في ازدهاء:

- "بل أنت بهذه الطريقة أكثر ملاءمة... أنت رجل ناجح يا داود... كم أنا مقتنع بك... لقد أجدت يا عزيزي التنكر... أنت تبدو مسلماً ومتديناً أيضاً... الآن نستطيع التغلغل في كل شيء".

نظر داود إليهم نظرة تأمل وقال:

- "عليكم أن تنسوا شيئاً اسمه داود... وإن كنتم تقبلون نصيحتي... فاخلعوا عن أعناقكم أثقال الضغائن والأحقاد... وادخلوا في دين الإسلام".

مص رئيس الوفد شفتيه باستغراب ثم قال:

- "أنت تمزح يا داود... أليس كذلك؟".

نظر داود بثقة كاملة... وشمخ برأسه بطريقة لم تعتدها عنقه من قبل... وقال في كل اعتزاز:

- "لم أكن جاداً في أي يوم من الأيام... جدِّيتي معكم اليوم".

- "إذن أنت ترسم حتفك بدقة يا داود".

- "أنا أطلب الشهادة".

رفع داود يده المقطوعة ثم نظر فيها بتسليم وقال:

- "ما الفائدة من السعي وراء السراب... لقد خسرت معكم كل شيء... أما مع ديني الجديد فأنا أكثر سعادة واستقراراً".

قال أحدهم:

- "لقد سحرته الجنية".

رد داود:

- "أنتم والله السحرة... وأنتم المشعوذون".

قال رئيس الوفد في غيظ:

- "ما دمت جاداً فيما تقول فسوف تدفع الثمن".

زواج

انصرف ذلك الوفد المأفون... وبعد انصرافهم عاد داود مهموماً... ولأن الطريق كان ممهداً له نحو ريحانة... اتجه لمنزلها... وعندما شارف على الصخرة رآها هناك... نظر إليها بحزن... ولكنها سرت عنه بابتسامتها الصادقة.

سار داود حتى وقف أمامها... لم يكن لديه ما يقول... ولكنه ابتسم وجلس... جلست ريحانة أيضاً... ثم بدأت في سرد أحاديث كثيرة ذكرتها عن أيام طفولتها... قال داود بعد ذلك:

"إيه يا سيدتي... لا أعلم لو لم تكوني بجواري... ولكني أفكر في الذهاب للحج... أنا أشعر أنني لا أستطيع العيش من دونك... ولست أدري كيف سأذهب للحج... حتماً سأفتقدك".

ثم خفض داود صوته قليلاً وبدأ يكلم نفسه:

- "كم يحتاج الرجل إلى المرأة... ولكن هيه... أين الثرا من الثريا".

- "ماذا يا داود ماذا قلت؟".

- "لا شيء يا سيدتي... لا شيء".

نظرت ريحانة بطرف عينها ثم قالت:

- "المؤمن لا يكذب".

شعر داود بشيء من الخجل ثم قال:

- "أوه يا سيدتي.... الرجل يحتاج للمرأة... ولكن من هي التي ستقبلني زوجاً... أنا داود".

ثم أكمل في غصة وهو يطالع نفسه:

- "دون يد... دون أهل أو وطن... وأصلي يهودي... أوه سيدتي... لو لم تقبليني خادماً هنا... لست أدري كيف سيكون حالي".

تأملت ريحانة قليلاً... نظرت نظرة عميقة لأعلى... ثم قامت من مكانها... وبدأت تدور في دائرة مركزها داود... ونصف قطرها ثلاثة أمتار... ثم قالت فجأة:

- "هل تريد الزواج يا داود".

قال في تلعثم وخجل:

- "نعم يا سيدتي ريحانة... نعم أنا... أريد أن أعيش مؤمناً صالحاً ولي زوجة صالحة... ويكون لنا أولاد صالحون... ولكن قدري هكذا... ربما لن أتزوج ولن يكون لي أولاد... لا بأس يا سيدتي... أنا سعيد بقدري... بعد أن أنجاني الله... وأدخلني في الإسلام".

نظرت ريحانة إليه بعمق... ثم قالت:

- "لك عندي زوجة".

اندهش عقله لحظة... ثم ابتلع ريقه وقال:

- "أنت تمزحين يا سيدتي... ألستُ محقاً... من هي يا ترى... مع أن هذا الوادي ليس فيه نساء".

ريحانة تأملت وجه داود قليلاً... ثم قالت وهي تجلس بهدوء أمامه:

- "نعم يا داود... هناك امرأة ستقبل بك... نعم... امرأة ... إنها في هذا الوادي... وإنها أنا... أنا سأقبلك زوجاً".

نظر داود لعينيها... وبدأت الرعشة تعم جسده... ثم تراجع للوراء قليلاً... ثم قام مهتماً... وبدأ العرق يتفصد في جبينه... ثم بدأ يدور حول نفسه... وأخيراً جلس... لقد ألقى بنفسه كالنطع البالي.

كان الاضطراب يسري في كل أجزاء البدن الملهوف... لكن داود رفع بصره في وجه ريحانة... وعندما منحت قلبه المشدوه ابتسامة ساحرة... هز رأسه وقال بما يشبه الصمت:

- "مستحيل... مستحيل... أنت سيدتي... أنت ملكتي... أنت العذراء البتول... لا... لا... يجب أن لا تتزوجي أبداً يا قدِّيسة الوادي... ويجب ألا تعرفي الرجال... أنت أعز من الرجال جميعاً... وأنت أطهر من أن تتزوجي أي ملِك عظيم... فما بالك بي".

اقتربت ريحانة منه... ثم أمسكت بساعده المقطوعة... ثم ابتسمت... وقالت في هدوء:

- "صدقت... أنا لن أقبل الزواج... من أعظم الملوك... ولو سار على وجهه إلى هنا ثم انثنى على ركبتيه... ولكني في الوقت ذاته... سأتزوج الرجل المؤمن... الذي باع من الله حياته... أنت الآن مؤمن يا داود... وقد دفعت لي مهري عندما علمتني القرآن".

- "لا يا سيدتي... لا... مستحيل... أنا لا أستحق ذلك... هذا كثير على... كثير... كثير".

قامت ريحانة وهي تقول:

- "إلى أن توافق... سوف ننتظر... حتى يجيء... دبشي... وعندها سيكون شاهداً... ويتم الزواج... بالطبع إذا لم يكن لديك أي ممانعة".

طأطأ داود رأسه... وقال في نفسه وهو ينظر من تحت حاجبيه:

- "يكون لدي ممانعة!!".

ثم طأطأ برأسه للأرض... وتذكر قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ثم رفع نظره للسماء وحدث نفسه:

- "أعاهد الله... على أن أبقى طيلة حياتي شاكراً لله على هذه النعمة العظيمة... فلا أضن أحداً أسعد مني الآن... هكذا هو الإسلام... لقد ساوى بيني وبين سيدتي... وهكذا جعلها تنقذ حياتي... الإسلام هو الأمان... الإسلام هو الأمان".

عرفت ريحانة ما يعتمل في ذهنه لذا قالت:

- "قم يا داود... وإياك أن أراك حتى يأتي دبشي... لقد قرأت في الحديث أنه لا يجوز للمرأة أن تختلي برجل".

نظر إليها داود في حسرة وقال:

- "أنا خادمك... خادمك سيدتي... ولا أنظر لك بنظرة غير هذه النظرة... هل تخشين مني... أنت العذراء البتول... يا ويلي... يا ويلي... كيف تصبحين زوجة لي".

ابتسمت قائلة:

- "هيا اذهب يا داود".

- "لا أستطيع... إنني لا أقوى على فراقك... تماماً كحال الطفل الذي لا يقوى على فراق أمه".

- "قم يا داود... وإذا جاء دبشي... سيتم زواجنا إن شاء الله... وعندها سأكون كلي لك".

غمغم داود وجلس... ثم انحنى أشبه بالساجد... وبقي يبكي ويقول:

- "هذا كثير... هذا كثير... بل أنا كلي سأكون لك سيدتي... مستحيل أن أتزوجك... مستحيل... أنا لا أستحق ذلك... ولا أستحق حتى نظرة حانية منك".

- "داود... لماذا هذا الكلام... أنت مؤمن... وكلما زاد إيمانك زادت قيمتك".

قام داود وهو ينظر إليها في خشوع... ثم رجع أدراجه للوراء حتى اختفى.

هاجس عبر الزمن

أسبوع كامل يمر... وداود يقضيه في قنوت وتبتل... إنه صائم طيلة اليوم... وعندما يحل الليل... فهو قائم في محراب الصلاة... وكثيراً ما يخرج في خلوة داخل الظلام... ويبدأ في مناجاة الله.

لقد أصبح مخلوقاً آخر... لا شيء يمت بينه وبين داود الأول بأي صلة... ولكنه الآن يشعر بسكينة عظيمة ويشعر بهدوء وراحة بال... وكلما تذكر وهماً كان في رأسه اسمه دولة إسرائيل... يبتسم ويقول:

- "أصحاب هذه الأرض أقوياء... نعم بالتأكيد... المسلمون أقوياء... أقوياء... لن يتنازلوا لليهود عن شبر واحد... إنها ملكهم... وأرضهم... بالتأكيد... فهذه سيدتي ريحانة... أقسم أنها تساوي جيشاً كاملاً... حتماً يوجد في المسلمين الكثير... من أمثال السيدة ريحانة... إنهم أقوياء... شيء رهيب... وأنا يوماً سأكون أحدهم... علي فقط أن أكون مسلماً صادقاً... يجب أن ينتشر السلام والأمان... كي لا ينتشر الإرهاب يوما ما... يجب أن يكون الناس كلهم مثل سيدة هذا الوادي... ويجب أن يتغير كل يهودي... من حاقد في صورة إنسان... إلى ملك في صورة إنسان... ولا يكون ذلك إلا بالإسلام... آه... يا ربي... كم أنا سعيد الآن... وكم أنعمت علي عندما هديتني للصراط المستقيم... **﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾** غير المغضوب عليهم... والضالين... آه منكم يا معشر

اليهود... حين أنعم الله عليكم واصطفاكم... آثرتم قتل الأنبياء وتحريف الكتاب... وحملتم الحقد على جميع البشر... وزعمتم أنكم خير من جميع البشر... لقد كنتم أسياد التعصب والاستكبار... وأنتم الآن تريدون احتلال أرض المسلمين... ربما ساعدتكم بعض الدول الغربية في ذلك... كي تتخلص منكم... وتخرجكم من أرضها... ولو نجحتم يوماً ما... وسكنتم بلاد العرب... واحتللتموها... فلن يصبر عليكم المسلمون... ولن تبقوا في ديارهم للأبد حتماً سيخرج لكم... من أبناء المسلمين... من يذيقكم الويلات.

سيخرج لكم من يجعلكم كالمجانين... عندها ستخافون منهم... وسترهبونهم... وربما أسميتموهم الإرهابيين... ولكنكم أنتم في الواقع من زرع شجرة الإرهاب... لأن الحر لا يرضى أبداً بالذل... حتى ولو قتل نفسه تحت عتادكم.

القافلة والخطبة

مر أسبوع آخر... داود وحيد... لم تكتحل عيناه برؤية الإنسانة العظيمة... التي لا يدري... هل هو يقدسها... أم أنه يعشقها... أم يحبها كما يحب الطفل أمه... إن نيران شوقه لها تضطرم... ولكنه أبداً لا يتصورها زوجة له... إنه في الحقيقة يريد أن يرمي بنفسه في حضنها... ولكن ليس ذلك الارتماء... إلا ليلتمس منها حنان الأم على طفلها الرضيع... يريد أن يقبِّلها... نعم يريد ذلك... يريد أن يقبلها بين عينيها ... وفي وجهها... كما يقبل الطفل أمه... بكل براءة... ولكن الشيء الذي لا يستطيع داود تصوره... هو أن تكون ريحانة زوجته... التي يمتلك فيها كل شيء. أوه إنه شيء رهيب... لا يستطيع تصوره أبداً...

وأخيراً سمع داود صوت القافلة القادمة من بني مالك... صعد على صخرة صغيرة لينظر... يال سعادته... تلك هي القافلة... وذاك هو دبشي... إنه دبشي... راكب على جمله... وهو قادم ومعه الجمال والأتباع.

انطلق داود جهة القافلة... كان النور يشع من وجهه... وعندما وصل إليهم سلم... ولكن دبشي لم يكد يعرفه... دقق فيه النظر ثم عانقه وهو يقول:

- "من أنت أيها الشيخ الجليل كأني رأيتك من قبل... هل أنت من علماء اليمن... الشوافع".

- "أنا أخوك المسلم... لقد هداني الله وأسلمت... ألا تعرفني... أنا داود".

تراجع دبشي للوراء قليلاً... ثم دقق النظر في الرجل... لقد نظر ليده المقطوعة... ورفع كتفيه لأعلى في استغراب... ثم قال:

- "داود... مستحيل... سارق الجمل".

طأطأ داود برأسه... ثم رجع للوراء وهو يقول:

- "نعم... سارق الجمل... للأسف... كنت واهماً... كنت أظن أن توبتي إلى الله... تعني توبة الناس علي... ولكن هذا لم يحصل... لا زلتم تعيِّرونني بالسارق... البشر لا يغفرون الأخطاء... وإن غفرها الله".

رفع داود يده ليمسح بها لحيته الوقورة... في حين أطلق دبشي لعينه العنان كي يتأمل تقاسيم الوجه المتكدر... رفع داود عينه للسماء وهو يقول:-

- "الحمد لله على كل حال... ونعوذ بالله من حال أهل النار".

بعدها استدار داود وانصرف... لم يمض داود سبع خطوات من سيره الهادئ... إلا ويد دبشي تلامس كتفه... وهو يقول:-

- "سامحني... لقد قسوت عليك... ولكنها المفاجأة جعلتني أخطئ في تصرفي".

نظر داود إليه... وربت على يده وهو يبتسم... قال دبشي بعدها:

- "لا عليك... نحن هنا إخوة في الدين... لكن لو أذنت لي في التساؤل... ما الذي جعلك تتغير وتصبح هكذا... أليس أمراً غريباً".

- "الأمر الأغرب... أنت لا تعرفه... أنت لا تعرف الكثير عني... ولكني من قبل لم أكن مسلماً...".

- " لم تكن مسلماً... هل أنت كافر".

قالها دبشي وهو يستدير للخلف ليبحث عن حجرة صغير من أحجار الوادي المترامية هنا وهناك... كي يجلس عليها في أناة... وعندما ناسبته حجره مستديرة قال:

- "تعال إلى هنا... إلى جواري... وقل لي... هل أنت كافر من قبل".

طأطأ داود رأسه... وتقدم جهة دبشي ثم قال:

- "تعرف اليهود".

- " نعم أصحاب التوراة... أصحاب موسى".

- "نعم... لقد أسلمت... كنت ذات يوم واحداً منهم".

- "أنعم وأكرم... أصحاب النبي موسى... لقد أحسنت حين أسلمت".

قال داود في استغراب:

- "ألم تكن غاضباً علي عندما عرفت أنني يهودي".

- " أغضب عليك... لماذا... الأرض لله... والدين لله... والإنسان لله... ولكنكم كنتم تقتلون الأنبياء من قبل... ألم يقتل أجدادكم عيسى... لذا حرمكم الله من أكبر نعمه... لقد حرمكم من أن يكون خاتم الأنبياء منكم... لو كان منكم ربما قتلتموه... هـ هـ... لقد جعله الله من أبناء إسماعيل... وهذا من صالح البشر... وربما لو كان منكم لحرفتم كتابه... ولكن الله يقبل إسلام اليهودي... إن صدقت فهو خير لك... لقد سرني كثيراً ما سمعت منك".

مال دبشي بظهره جهة داود الجالس على الحجرة إلى جواره... ثم ضمه بهدوء إلى صدره... وقال:

- "الله يا داود... لقد أصبحت بهي الطلعة... ووجهك يشع بنور الإيمان".

نكس داود رأسه قليلاً ثم قال:

- "هناك أمر هام تريد أن تحدثك فيه عمتي... ريحانة".

- "عمتك ريحانة... هـ هـ هـ... ملكة الوادي... أنا عازم على زيارتها... إني أشعر أنها تماماً مثل ابنتي... الله كم هي صبورة قوية... وهي أكثر حكمة من الرجال... لله درها... وهل تعرف ماذا تريد مني... أو ماذا ستقول لي".

- "كلا يا عمي".

- "على كلٍ... اذهب وقل للرجال سننزل عند السيدة الشابة... ريحانة".

قام داود... وبعد قليل صاح في الرجال بقوله:

- "النزول عند سيدتي... ملكة الوادي... النزول عند ملكة الوادي».

بدأ كل من رجال القافلة يُعد الحَبَّ الذي سيقدمه لريحانة... كي تطحنه وتخبزه... وتأخذ أجرتها منه... وسارت القافلة جهة ريحانة التي لم يخف عليها حلول ضيوف كُثُر... يحتاجون لرعاية وراحة... بدأت في سرعة تعد أجزاء منزلها... وترتب قطع الأثاث الجلدية القليلة... وتعد أحجاراً مسندة للجلوس... وبعد لحظات... وصلت القافلة... في حين تقدم داود جهة ريحانة وهو يقول:

- "يا عمتي... دبشي وصل".

- "أوقد النار يا داود... أوقد النار".

العِجْل

ذهب داود لإيقاد النار... في حين تَوَزَّع أفراد القافلة مع زعيمهم على تلك الأماكن المعدة للجلوس غير المريح بالدرجة الكافية... عدا مفرش دبشي الذي كان مزوداً بجلد غزالة.

وبعد جلوس الجميع استقبلتهم ريحانة بالتحايا والترحيب... وتناولت الحبوب التي وضعوها في صرة كبيرة... لقد حَمَلت تلك الحبوب وذهبت لتطحنها.

مر الوقت سريعاً... وبدأت رائحة الخبز الذي وضع في التنور لتوه تنبعث لتبعث في ألوان الوجوه وميضاً يُذكِّر بالحياة... داود لم يتوقف عن تقديم المساعدة وإحضار الماء وحلب الغزالة... لقد انتهى كل شيء مبكراً... بفضل جهوده المخلصة... وبعدها تم توزيع كسر الخبز... وشيء من اللبن... كي يغمس فيه الضيوف خبزهم... وماء بارد... إنه من الأهمية بمكان... وكان هناك من يطلب قليلاً من السمن مع زيادة في الأجر... ومن طلب شيئاً من العسل فإن الأجر بالطبع سيكون أكثر من أجر السمن.

في الواقع أن الأجر شيء غير معقول... إنها حفنة من الشعير إزاء شيء من العسل... ولكن الغالبية بالطبع اكتفوا باللبن المجاني مع خبز الشعير... داود قام بترتيب المائدة حسب طلبات الضيوف... من يريد الخبز فقط مع اللبن على سفرة... ومن يريد الخبز واللبن مع السمن على سفرة... من يريد الخبز واللبن... والسمن والعسل على سفرة ثالثة... وقد جمع الأجر بهدوء ولطف.

وفي ظل شجرة السدر الصغيرة نوعاً ما... أعدت سفرة دبشي بطريقة أكثر رسمية من سفر من بالجوار... يبدو أن الحفاوة به تزداد... خاصة وأن هناك موضوعاً مهماً سيعرض عليه... لقد تأكدت ريحانة بنفسها من ترتيب سفرة دبشي... ثم قام الجميع لتناول وجبتهم من الغداء... حيث كان الوقت ساعتها قرابة العصر... ومع جلوس دبشي جلست ريحانة أمامه... وبجواره داود... ثم قالت:

- "سم الله... وهناك موضوع سأفاتحك فيه يا عمي دبشي... أنت شيخ هذه الديار... وأنت بمثابة والدي".

- "هـ هـ هـ... أنت تبالغين... فأنا شيخٌ في السراة... لا في تهامة... ولكن قولي... ما عندك".

نظرت ريحانة لداود... وأشارت بعينيها... ولكنه ابتلع ريقه في قلق... في حين أكملت قولها:

- "الزواج ستر للمرأة".

نظر لها دبشي في دهشة... ثم قال:

- "لم أفهم... ماذا تقصدين".

- "لقد أرادني داود للزواج... هذا الرجل أمامك... فما رأيك؟".

انتفض دبشي لسماعه هذا الكلام... ثم نظر إلى داود بازدراء... وقال:

- "ما هذا يا سيدة الوادي... مستحيل... أنت أشرف من هذا السارق الوضيع... ويجب ألا يتزوجك إلا مَلِكٌ أو سيد".

طأطأ داود رأسه وهو يشعر بطعنة نجلاء تفصل رأسه... لقد كان ينتظر هذا من قبل... هذا أمر متوقع... ليته لم يكن موجوداً الآن بينهم... رفع داود نظره فيما حوله بيأس... ثم نظر إلى ريحانة وقال:

- "أنت سيدتي... وأنا خادمك... وأنا لا أصلح أن أتزوجك... لقد صدق الشيخ دبشي... كان علي أن أفهم هذا من قبل... ولكنك كنت أكرم بكثير من الكرم نفسه... سيدتي أنت... ومليكتي".

تابع داود إلقاء نظرة الصفاء الصادقة في وجه ريحانة... ثم أردف ببسمة صغيرة... بعدها قام وولاهم ظهره... وانصرف... أما ريحانة... فقد شعرت بحلم عذب وهي تقرأ النظرات الأخيرة في عينيه... لقد أبحرت معه قليلاً... وقد شعرت بحزن عميق لما نال مشاعره... لكنها دعته قائلة:

- "قف يا داود".

ثم نظرت إلى دبشي قائلة:

- "لقد أخطأت التقرير يا عماه... أنا ريحانة... أعرف نفسي جيداً... لا يصلح لي إلا داود... وأنا لا أصلح إلا له... ألا ترى كم هي (القواسم المشتركة) بيني وبينه... إنه شريكي الوحيد في هذا الوادي... وهو أنيسي في كل الليالي الموحشة... لم أر منه طيلة ما عرفته أية ريبة أو نظرة سوء... لقد كان حافظاً للبصر عفيفاً طاهراً... لم ينظر إلي ذات يوم بنظرة ريبة... لقد خدمني كثيراً... وأخيراً هداه الله للإسلام... فأعطاني ما لم يكن ليعطيني إياه أحد... لقد علمني القرآن حتى حفظته... وعلمني القراءة... إني أعرفه جيداً وأعرف نفسي... هل سيتزوجني رجل من علية القوم... ويتركني هنا في الوادي... أنا لا أريد إلا البقاء هنا... داود هو أنسب رجل لي... فما قولك يا عم دبشي".

نظر دبشي حوله... ثم نظر في كسرة الخبز في يده... التي يتقاطر منها العسل... بعدها طأطأ رأسه وقال:

- "صدقت... والله لقد صدقت... إنه أنسب زوج لك... ولكن... ما أدراك أنه تاب فعلاً... وأن عمله هذا ليس عمل طامع فيك»؟".

نظرت ريحانة لداود وهي تبتسم... ثم قالت:

- "أنا عرفت ذلك من عينيه... ولكن أنت تعال معي لتعرف".

قامت ريحانة... وقام دبشي معها... واتجها جهة حجرة ريحانة التي سبقته إليها... ثم دخلت وبقي ينتظر بجوار الباب... وفي الداخل فتحت ريحانة جراباً كبيراً من الجلد وقالت:

- "تعال وانظر ما بداخله".

تقدم دبشي... يال دهشته... أنه مليء بالعملات النقدية... قالت ريحانة:

- "لقد أحضره لي داود... إنه صادق في توبته... إنه يؤكد إنه لم يعد في حاجة للمال... هذه كل ثروته... لقد أنفق منها في الأيام الماضية... إنه تائب صادق".

نظر دبشي إلى ريحانة وقال:

- بارك الله لك فيه".

دارت عينا ريحانة فيما حولها بشيء من الخجل... ثم قالت بتثاقل:

- "هل ترى أن نعلن الزواج الآن... يا عم دبشي".

طأطأ دبشي برأسه قليلاً... وبدا وكأنه يفكر... ثم ألقى بنظرة طويلة جهة داود... بعدها قال:

- "إذن ليعلن الزواج".

خرج دبشي إلى الخارج وقال بصوت عالٍ يخاطب أصحابه:

- "لقد زوجت ريحانة من داود... بارك الله لهما".

وفي الخارج... بدأ الرجال في الهرج واللغط... وبدا وأن الكثير منهم غير موافقين على هذا الزواج... إلا أن خروج داود... ووقوفه أمام الناس بكل بهاء طلعته وسمته... كان كفيلاً بإقناع الأكثرية منهم أنه رجل كفؤ... لم يستمر اللغط... لأن دبشي تقدم نحو داود وقال له مبتسماً:

- "اذهب واذبح لنا جملك... يا داود".

قال داود في تلعثم:

- "لم يعد عندي جمل... ولكن".

- "إذن سيكفينا الطعام الذي تناولناه منذ قليل...".

في تلك الأثناء... دخل داود للداخل... وأخذ نقوداً من حقيبة صغيرة كانت معلقة في عود مغروس في الجدار... وبعدها ذهب في هدوء جهة أحد أفراد القافلة... دار بينهما حديث قصير... ثم أشار داود بيده جهة عِجْلٍ صغير... كان يسير مع القطيع التابع للقافلة... قال داود في هدوء:

- "لمن ذاك العجل الصغير".

أشار الرجل إلى أحد أفراد القافلة... وبعدها ذهب داود إلى صاحب العجل... وبدأ يتفاوض معه.... قال داود:

- " هل تبيعني ذلك العجل يا رجل".

- "العجل... سأحرمه من أمه وأحرم أمه منه".

- "إذن بعني إياه هو وأمه".

- "بل سأبيعك العجل فقط".

- "أنت بذلك تحسن... كم تريد ثمنه".

- "لن أستغل حاجتك له... سأعطيك إياه بنفس قيمته... في السوق".

- "لقد فعلت البر بعينه... ولكن ما هي قيمته".

- "سأبيعه عليك بتسعة ريالات فضة".

- "ولكن يا أخي... ألم تقل إنك ستبيعه بقيمته في السوق... إنه لا يساوي خمسة ريالات".

حك صاحب العجل رأسه ثم قال بصلف.

- "أعلم ذلك... ولكن... عليك أن تتذكر أن إكرام الضيف واجب".

ذهب داود جهة العجل وهو يبتسم... وفي الوقت ذاته تبعه بعض أفراد القافلة... مسح داود على ظهر العجل والسعادة تغمره... ثم قال:

- "إنه وليمة جيدة في يوم عرسي".

لم يطل الوقت... لقد أُعدَّت الحبال والشفار... وذبح العجل وسرعان ما أُضرمت النار... وبدأ الجميع في تقطيع اللحم... ووضعه على النار... وارتفع الضجيج... الجميع سعداء... مر الوقت سريعاً... وبعد انتهاء تلك الحفلة استأذن دبشي ورفاقه... سوف يبيتون في مكان قريب... لأنهم يريدون ترك العروسين دون مضايقة.

الاختفاء

ريحانة جالسة في مخدعها... تنتظر داود الذي لم يأت إلى الآن... أوه هذا ممل... لقد مر الوقت بطيئاً وهي تنتظر... وداود لم يأت... وأخيراً قامت للبحث عنه... في الفناء... وهنا وهناك... ولكنه أشبه بالملح الذائب في الماء... بدأ قلبها يرف ويرف... أين ذهب يا ترى قسيم القلب... هل ستفقد الرجل الوحيد الذي وهبته قلبها الغض... هل ستفقده في ليلة عرسها.

لم يتوقف بحثها... لقد بحثت داخل الحظيرة... ولكنها لم تجده... خرجت لتبحث عنه خلف المنزل... لم تجده أيضاً... وعندما صعدت على السطح رأت هيئته هناك... أوه زوجها داود... أنه منطوٍ على نفسه أشبه بكومة من وحدة... ما هذا.

وعندما جاءت نحوه كانت مندهشة... وفي المقابل بدأ قلبه يرتجف... وقفت عند رأسه فازداد انكماشه... نظرت إليه في توجس... ولكنها ابتسمت... ثم أدخلت يدها بجوار رأسه من الخلف... وأمسكت بأنفه الطويل... ثم سحبته لأسفل... لم يتحرك داود... أمسكت بعدها بأذنه وسحبته لأعلى... عندها قام وهو يرتجف... وقعت عينها في عينه... لقد كان عرقه يتقاطر خجلاً... ابتسمت ريحانة في وجهه بسمة عذبة ثم قالت:

- "ستكون أنت حبي الوحيد".

جلس داود ثانية وانكمش... ولكنها أمسكت بأذنه ثانية وسحبته... ثم سارت للأمام... كان داود يتبعها حتى أنزلته من السطح عبر سلم صغير... وأخيراً أدخلته للغرفة... وبعدها كان صدى ضحكاته يملأ المكان... لقد وقع داود في العسل بعينه... كم كانت ليلته تلك كفيلة بأن تنسيه هموماً رسبتها سنوات عجاف مديدة.

الصخرة من جديد

مرت الأيام متتالية... ولم يكن ثم شهر عسل بين داود وريحانة... سوى ما ينبض به القلبان الفتيان من صبابة وحب... أصبح داود رجلاً كامل الشخصية...

وأصبح سيداً للمنزل الهادئ في تلك القفار الهادئة... وبدأ نشاطه يزداد... وإخلاصه لزوجته الحبيبة يكاد ينسيه نفسه... إنه بحق رجل المهمات... وهو يقوم بالكثير لخدمتها... وكذلك كانت الصبية الفتية ريحانة... لقد كان كل منهما يسابق الريح كي يقدم للآخر خدماته... لا أحد يشعر بالضجر أو الملل... لأنه سرعان ما يرى البسمة على وجه حبيبه مرتسمة.

ومع الصباح يستيقظ داود... ثم يبتسم ليوم مشرق جميل... بعدها يقوم قاصداً القرية... وبعد أن يتوضأ يسير على جناح السعادة حتى يرتقي الصخرة السوداء... ذاتها التي كان يطمع بأن تكون سبباً لسعادته في يوم ما... ولكنه يصعدها الآن لهدف آخر... بالطبع ليس للحصول على الأحجار الثمينة... إنما لشيء هو أثمن بالنسبة له... إنه أذان الفجر.

يؤذن داود أذان الفجر... بصوت شجي... وسرعان ما ينفجر باكياً مع كل ترديدٍ لكلمة (الصلاة خير من النوم)... وتطرب ريحانة في فراشها لأذانه... وتتبعث أصداء أذانه المنغَّم عبر الشعاب المنحدرة... في طيات الجبال الرهيبة... كي تُشعر كل شيء بالسكن والأمان... تم ينزل داود ويتجه نحو زاوية من زوايا المصلى الصغير... الذي بناه بعناية واهتمام.

يؤدي صلاته هناك وبجواره ريحانة... وتبقى التسابيح على الألسن الرطبة وقتاً... ومع التقاطيع المضيئة للصباح الباكر تطقطق أغصان السمر في الموقد... من حرارة اللهب... وريحانة تطحن هناك وتعجن... وصوت الظبية هناك يبدو حنوناً عندما يحلبها داود... بعد أن يقرب إلى أنفها صغيرها البكر... ولا يلبث الوقت حتى تعم رائحة السمن... وتنتشر في ذلك المكان.

العشُّ الهادئ

كل شيء يسر بعجلة مستديرة... لقد تغير الكثير من تقاسيم البيت... بعد أن أصبح داود رباً له... هناك غرفة جديدة... وعشة من الجريد مسقوفة للضيوف...

وأحجار جديدة للجلوس... قد تمت بنايتها بطريقة فريدة مع الخلب... ولم تحرم غرفة النوم من بعض الزينات اللطيفة.

وفي الفناء... هناك حوض صغير غرست فيه أشجار الريحان... التي تعشقها ريحانة... وأشجار أخرى صغيرة ذات رائحة عبقة... وشجرة السدر التي بداخل الفناء بدأت تكبر وتكبر... والأرضية من جهة الغرفتين رصفت بقطع مسطحة من أحجار المرو الأكثر شبهاً بالرخام الأبيض... هكذا أصبح عش ريحانة... إنه بديع جميل... جمال قلبها من الداخل... ويمتلك الكثير من الأناقة والهدوء.

لقد بدأ داود بعمل رحلات دورية... جهة سوق محايل... وهو يُحْضِر من هناك الكثير من الأشياء الجميلة... بما في ذلك تلك المسَكِ الفضية... إنها حلي جميلة وضعتها ريحانة في يدها... ومنحتها ثقة واعتداداً في أنوثتها... والشيء الأغرب... هو تلك الكتب التي بدأت تحتل رفاً صغيراً في غرفة ريحانة... وأقلام ومحبرة.

أما المسافرون الذين يمرون على منزل ريحانة فقد بدأ عددهم يزداد... لقد انتشر ذكر النُزّل الذي تعده للمسافرين في كل مكان في أنحاء السراة... داود لم يفته التفكير في شيء مهم... إنه المصلى... لقد ارتفع جدار المصلى... ووضعت فيه عيدان من العرين كي تحمل (قطعاً) من الخوض.

وفي المسجد كان داود يستعد للجلوس... إنه بعمامته البيضاء التي تفوح منها رائحة البخور... ومعه عصا معكوفة من الأعلى... وكلما اجتمع عدد من المصلين الضيوف في المسجد... لا ينسى داود أن يقدم دروساً في تفسير القرآن... إنه حريص على تعليم المسافرين الكثير من أمور دينهم...

لم يكتف داود الطموح بذلك... لقد بدأ في تنظيم أسفار قريبة للقرى المجاورة... إنه شغوف بتعليم الناس شيئاً مما علمته إياه الحياة... وبما علمته زوجته ريحانة... من الخلق والتقوى... الله يا داود... إنه سعيد بنشر السعادة على كل من عرفه أو قابله.

ولم يعد داود يخجل من زوجته ريحانة... ولكنه يحبها ويكاد يقوم بكل الأعمال التي كانت تقوم بها.

الأستاذ

الأيام وادعة جميلة... ومسكن آل داود الجميل بدا مرتباً نظيفاً... ولديهم الآن بعض الماشية التي أحظرها داود من محايل... ما أسرع الأيام... لقد مرت ستة أشهر على الزواج... وداود ذو اللحية السوداء الطويلة... والعمامة البيضاء ذات الطرف الطويل... يدخل مع غروب الشمس لفناء منزله... ثم يقول:

- "ما أجمل رائحة الخبز يا حبيبتي عندما يكون الإنسان صائماً".

ثم يسرع نحوها ليكشط الخبز من التنور بدلاً عنها... ولكنها تسبقه وتدخل يدها بسرعة... وتكشط قرصاً... فيقول داود:

- "هذا قرصك... وأنا سأكشط قرصي بنفسي".

يدخل داود يده... ثم لا يلبث أن يصرخ ويخرجها دون خبز... فتضحك ريحانة وتردد مثلاً قديماً من أمثال الأولين... ويقال هذا المثل في مثل هذه المناسبات:

- "النساء خلقن للنار فهن أصبر عليها".

ثم تكشط ريحانة الخبز... وبعدها يجلسان جلسة العصافير... يفطران ويتسامران في انتظار صلاة العشاء... وبمجرد انتهاء الصلاة يخلدان للنوم... لقد مرت الساعات هادئة.

وبعد منتصف الليل بقليل... وحين بسط الظلام وشاحه على الوادي الرهيب... سُمِعت حركة في الخارج... لا توحي بخير.

قلب ريحانة الذي ارتجف مكانه غير مطمئن... ونظرات الفتاة إلى جوارها متوجسة... داود المتعب يغط في نوم عميق... وفي هدوء قامت ريحانة... وأخذت جنبية داود الطويلة ذات الفصوص الفضية... ثم عادت لفراشها... ووضعت الجنبية بجوارها.

لم يمض وقت طويل... لقد سمعت بعض التمتمات في الخارج... حملت السراج وخرجت بهدوء إلى الفناء... بدأت تدور فيه بحذر... دخلت ريحانة حضيرة الماعز... لا شيء فيها... وعندما خرجت برأسها من الحظيرة وقفت بكل حذر وهدوء... ونظرت في زاوية الفناء الجنوبية... وتحسست الجنبية في يدها... وبدأت تدلك مقبضها بتوتر... وبدأت صورة في الظلام تتراءى كالظل.

لقد قفز ثلاثة رجال أشداء داخل الفناء... واتجهوا بسرعة جهة غرفة نوم داود... ريحانة ترقبهم عن كثب... وهم لم يلقوا لها بالاً... صرخت بصوت قوي:

- "يا داود".

ثم انقضت كلبؤة جامحة... داود فزع من نومه... كان الوقت متأخراً بعض الشيء... لقد أصبح يراهم أمامه... إنه أضعف بكثير من أن يقاومهم... بجواره عصاه التي يستند عليها... ولا يملك داود إلا يداً واحده... قام في ذعر... و بدأ يتراجع للوراء... ولكن أحدهم اقترب منه وهو يمسك بسراج الضوء الذي أشعله آنفاً... ريحانة ووصلت للتو... وهي واقفة على الباب... وفي يدها سراجها الصغير... وفي اليد الأخرى تتدلى الجنبية الطويلة... قالت بجبروت:

-"عليكم اللعنة يا جبناء".

وسرعان ما هزت جنبيتها الطويلة ولاحت بها... ثم قفزت قفزة طويلة باتجاههم... لحظةٌ واحدة مرت... وبعدها كانت ريحانة واقفة بطولها الفارع بين الثلاثة... قال أحدهم:

- "اذهبي يا امرأه".

قال الآخر في شبه سكر:

- "لا تقتلوها فهي جميلة... وستكون لنا الليلة... هنا".

و لكنها ردت عليهم في كبرياء:

- "أنا جنية هذا الوادي... أنا النمرة الشديدة... أنا ريحانة... اخرجوا الآن... وإلا أسقيت كل واحد منكم كأساً من دمه... لن يستعذبه أبداً".

كان صوتها غليظاً مهيباً... وبدأ الجميع ينظرون إليها بدهشة... أما داود فقد قفز قلبه لكلامها... لقد تذكر أيام رهبته منها قبل أن يتزوجها... إنها الآن أشبه بالطود العظيم... إنها بالفعل الجنية النمرة... رفعت ريحانة رقبتها للأعلى... لأعلى... ثم رفعت الخنجر وحدقت بعينيها... تقدم أحدهم نحوها في ارتباك... ثم قال في توتر:

- "سوف أخلع جميع ملابسك الآن... وسأقتل هذا الرجل أمامك بنفس السكين التي تحملينها... أيتها الفتاة الصغيرة".

تراجعت ريحانة للوراء قليلاً وهي تقول.

- "بل يبدو أنك عازم على منحي فرصة خلع رقبتك".

- "ليس من يقتلني امرأة".

بدا الخوف يجد طريقه لقلب داود... إنه مكانه هناك... وقد ألجم الذعر صوته... لقد أخرج الرجل المعتدي... الذي يريد الهجوم على ريحانة... سيفاً طويلاً... وبدأت المبارزة... وسرعان ما تحولت الفتاة النمرة... إلى نمر كاسر متوحش... إنها تصرخ وتبدي أنينها... وتضرب بجنبيتها يمنة ويسرة... لا أحد يدري ماذا حصل... ولكن رأساً هناك يتدحرج... وبعدها صرخت النمرة الفتاة.

داود ينظر للمشهد بدهشة... عبر نور السراج الباهت... وريحانة تقول بصوت رهيب:

- "اخرجوا وإلا ألحقتكم به".

سحب الرجل الثاني سيفه في ذعر... وتقدم نحو ريحانة... ولكن سرعان ما أدهشته صرختها... ثم قفزت أمامه كالعفريت... وتعلقت بإحدى أعمدة السقف... وأجالت جنبيتها بسرعة رهيبة... أتبعتها بصرخة قوية... وبعدها سقط الرجل الثاني.

الرجل الثالث لم يكن ليبقى متفرجاً... لقد حمل سيفه... ثم رمى به بأقصى قوته... جهة الفتاة... التي سرعان ما أحست بالسيف ينغرس في جسدها...

لم يدم الوقت طويلاً أمام ريحانة... لتسقط على إثره مضرجة بدمائها... ولم يملك ذلك الرجل أعصابه... لقد بدأ ينظر يمنة ويسرة... ثم آثر الهرب.

داود الذي يراقب المشهد عبر أشعة السراج... لم يصدق ما يراه... كاد قلبه يتفطر... بل تفطر بالفعل... لما رآه... هل انتهت حياة حبيبته... أوه... أمر مؤلم... صرخ في حزن وهو يتقدم... وعندما وصل إليها بدأ يضمها إلى صدره وهو يقول:

- "لا تموتي يا سيدتي... ريحانة... ريحانة... يا يهود يا ملاعين... حبيبتي لا تموتي ... يا ويلي... يا ويلي ... هؤلاء اليهود".

كانت عينا ريحانة الخاشعتين مصوبة جهة داود... نظر إليها نظرة وداع ثم أكمل:

- "ألم أقل لك من قبل... يجب أن يموت كل يهودي متعصب... لقد جاؤوا لقتلي... لأني أسلمت... ولكنهم قتلوك أنت... لا أحد يسلم من وجه اليهودي المنحوس... حتى ولو أسلم... ليتني هربت وتركتك... ليتني لم أتزوجك... لقد قتلوك من أجلي... قتلوك".

ولكن المشكلة كانت بالنسبة لداود أكبر من ذلك... عيناها مغمضتان... ورأسها مائل... ودمها الطاهر ينزف... وضع داود يده على رأسها وناداها.

- "ريحانة... ريحانة... لا تموتي".

و لكنها لم تجبه... صرخ داود صرخة مدوية... لأنه لم يملك ساعتها إلا ما جادت به حنجرته الشاهقة... وذهب بعدها للخلاء فزعاً... إنها لطمة قاسية... تلك التي وجهها له أصدقاؤه القدامى من اليهود الصهاينة... هكذا قرروا أن ينهوا حياته... بعد أن علموا بإسلامه... لقد ذهلوا أيما ذهول عندما التقوا به في المرة الأخيرة... وعرفوا ما آل له حاله... وقد علموا أن بقاءه في هذه المنطقة... خطر محدق بهم... خاصة لو قرر التعامل مع العثمانيين... لقد أرسلوا لقتله... يال تعاسة من ألقت بيده الأقدار في أيديهم.

هكذا انتهت الحبال التي ربطتها الصهيونية بداود... الذي عمل مخلصاً لها السنوات... لم تشفع له سنوات الغربة التي قضاها في هذا الوادي... من أجل وهم كبير... إنه أشبه بمن وضع يده في المياه النجسة... ثم أراد أن يطهرها فلم يستطع... يجب على المياه النجسة أن تبقى نجسة... ويجب أن يبقى كل من يتعامل مع اليهود قذرًا خائناً مخادعاً... وإلا فليس أمامه خيار آخر... سوى الموت... والخروج صفراً من هذه الحياة.

ولكن ماذا عليه أن يفعل بعد أن قتلت ريحانة... إنه الآن مهدد بالموت في كل لحظة... لقد خسر كل شيء... وربما خسر إيمانه من شدة الجزع... يال هذه المدلهمة.

عاد داود بظهره للخلف... إنه جالس بجوار الجثة الهادئة... جثة ملكة الوادي... الجنية النمرة... يال روعتها... أدار داود رأسه... وألقى عليها نظرة إجلال واعتذار... وجهها الملائكي يضيء كبلورة قدسية الطبع... ونسائم عبقة تحيط بالجسد الذابل... وتغرقه بزهور من الروعة... وتلك القسمات الزاكية ترتسم في الوجه الصامت... ونبضات قلب داود تكاد تطرق بصداها كل أحجار الوادي الهائل... ويلك يا داود... قُتلت ملكة الوادي بسبب حظك المنحوس.

بدأ قلب داود يفجر العبرات من بين جفنيه... إنه الوداع الأبدي... وفي هدوء أقرب للصمت مد داود يده الوحيدة... ثم وضعها على الشعر الأسود المنثور... يا الله... أي نهر منهمر من غمامة سوداء كان ذلك الشعر... هز داود رأسه في حسرة

تتقاطر لها عظام رقبته... حتى تقارب الانصهار... واقترب في إغماءة لذيذة كإغماءة واله... وتحت عينها اليمنى طبع قبلة... كانت قبلة آسرة الروعة... فقط لو لم تكن في خد حبيب ميت.

طُبعت قبلة المودع الولهان... وبدأ الفؤاد المعنَّى يتناغم بالبكاء... تماماً كما هو حال العينين الأكثر عناءً... وفي غفلة من عين السَّحَر... أو وسن لم يدم طويلاً... وجد داود نفسه قسراً... يدخل في عالم مليء بالأحلام... لقد تسلل إلى عقله المكدود آلاف الذكريات التي عاشها خلال حياته المتقلبة.

بدت الحياة بالنسبة له الآن واضحة بجميع أدوارها وجميع تناقضاتها... لقد بدت له أكثر شبهاً بخط طويل... طويل جداً... وقد اشتعلت النار في أوله... واستمرت مع الوقت تتجه نحو آخره... وكوب من الماء البارد يسعى... ويلاحق النار... هكذا بدت له صورة الحياة.

وبجواره... وبين الفينة والأخرى... يتأمل داود عيني ريحانة الصادقتين... ويتأمل أشياء أخرى لمعت له في حياته الطويلة.

لقد توغلت به ذكرياته بعيداً... بعيداً هناك... في شوارع دمشق... وفي أزقة الحي اليهودي... وبجوار التكايا القديمة المبنية من اللبِن... والمطلية بالجص الأبيض... ذكريات لا يمكن أن تنسى مهما طال تداول الأيام... ووجوه تتقافز أمامه في خفة... وتبدو مستعجلة تسعى نحو الكسب... وأطفال يخفون من الناس كل شيء... حتى أسماءهم... وتلك الضفائر المدلاة... والراقصة بخفة مع حامليها... وكنيس اليهود ذو القبة الرمادية... المال الثراء.... أرض الميعاد... دولة اليهود... أشياء وذكريات مبعثره... وعقل منهك مكدود... وحطب يلتهب ناراً... ويسير في اتجاه نهاية الخيط... وفي أعماق داود من الداخل... كوب ماء صاف يحاصر النار الملتهبة... الإخاء الإحسان البر... التقوى... القرآن... الحب... العدل... التسامح.

وريحانة!!! ريحانة... والحديث الشريف... الحج... البكاء من خشية الله... معاني كثيرة تسمو وتلوح في ذهن داود... الماء يطفئ النار الملتهبة... والتوبة تجب

ما قبلها... وذاك السراج الكبير يكاد ينطفئ... وريحانة المسجاة كانت منذ قليل قادرة على الحياة والإبداع... هل قامت القيامة في ذهن الرجل الوحيد هنا... والذي انقطعت كل حباله المتصلة بالحياة... عندما اختفت روح ريحانة من حياته.

ويلكِ يا دنيا... السراج الصغير بدأت ناره تتذبذب... وداود منطو على نفسه يطل من خلف أنفه الطويل... وعيناه تذرفان بدموع حزينة... وتدركان بخفة كل ما حولها.

ماذا خط القَدَرْ

داود... يلقي بنظرته على الوجه الصبوح بجواره... نظرات تتأجج بلهفة رهيبة... كان هناك موعد بين العينين الباكيتين... والعينين المغمضتين... وكان داود يتأمل عيني ريحانة في ذهول... وكأن شيئاً قد حدث... هو أقرب للخيال منه للحقيقة... إنها العينان المغمضتان... ولكن... هل آن لهما أن يبعثا بشيء من الأمل... وهل كان داود في حلم جميل عندما رآهما تتدهدهان في طريق انفراج صغير... داود ينظر بترقب... وتلك هي عينا ريحانة.

نظرة باهته راكدة... تلقى بإطلالة صغيرة على الدنيا... لم يتمالك داود نفسه... إنها الحياة من جديد لقطعة فؤاده... صرخ داود في لهفة وهو يقترب ليضم زوجته... ثم قال في ذعر:

- "هل أنت معنا هنا في عالم الأحياء".

أغمضت ريحانة عينيها مجدداً... وبدأ الألم يعتصرها... ومشاعر داود من حولها تجيش... ليسأل ثانية وهو يعانق بلطف ذلك الجسد الواهن... من بين ذراعه ومعصمه.

- "ماذا أفعل من أجلك يا ريحانة... هل أنت بخير".

فتحت ريحانة عينيها مجدداً ثم أردفت:

- "لقد قلقت عليك يا داود... الحمد لله... هل أنت بخير".

- "أوه... هؤلاء الملاعين... لم أكن أتوقع أبداً أن أسمع كلامك مجدداً".

- "اطمئن... أشعر أنني بخير".

بدأ داود يتأمل جسد ريحانة... ثم قال:

- "هل أحضر لك ماء...".

- "كلا يا داود ...".

مدت ريحانة يدها لتستند على داود... وبعد أن جلست بدأت تتحسس آثار الطعنة... وضعت يدها بجوار ثديها... هناك كان الجرح... قالت في هدوء:

- "أنا جريحة فقط... الحمد لله".

هكذا عادت ريحانة لحياة داود من جديد... لتكمل معه طريقاً ربما يطول... لقد كان هذا الاعتداء أمراً مكدراً لحياتهم السعيدة... ولكن... ربما تضمَّن درساً هاماً سيهتديان به في الحياة القادمة.

لقد نزف الكثير من دم ريحانة بسبب الطعنة... وتسبب سقوطها من السقف في إحداث إغماءة لها... لم تُدم إغماءتها طويلاً... أسندت ريحانة يدها على الأرض ثم بدأت في الجلوس... واتكأت على يد داود... وبعد أن استوت جالسة قال داود.

- "هل أنت بخير يا حبيبتي".

- "بخير... ولكن... أين ذهب الخونة... القتلة".

- "المهم أنك بخير... ولكن ماذا أصابك حبيبتي".

اقترب داود بالسراج... ثم حمل عمامته ووضعها على الماء حتى ابتلت... ثم وضعها على رأس ريحانة... ولكن ريحانة بدأت تتحسس جسمها... وتتحسس الطعنة... الكثير من الدم قد نزف من الجرح... قال داود في تأثر:

- "ماذا أفعل الآن لك يا سيدتي".

- "أحضر لي المزيد من الماء".

أحضر داود الماء... واستمر في غسل الدم... وأيضاً في تنظيف الجرح... الأمور يبدو وأنها تمضي بطريقة مطمئنة... لم يعد النزيف يوحي بالخطر... انقضت تلك الليلة ثقيلة... تعزف على أوتار القلق... نام فيها داود نوماً متقطعاً... أما ريحانة فقد نامت نوماً طويلاً بعد أن ضمد جرحها.

وفي الصباح قام داود مع الفجر... وبعد أن اطمأن على ريحانة... وشعر أنها تسير للأحسن... سحب الجثتين المرميتين... وألقاهما بعيداً... إعداداً لدفنهما... ثم عاد لريحانة النائمة... وعندما أحست به انتبهت... وجلس داود بجوارها... وألقى عليها التحية... وبعد أن ردت عليه التحية قالت:

- "لم تعد الحياة آمنة هنا يا داود".

- "هؤلاء اليهود حتماً سينجينا الله منهم... لقد خلعت طاعتهم عن رقبتي... وأصبحت مطيعاً لله وحده... إنهم وحوش... وهم لا يعرفون إلا الموت يوقعونه بكل من يتخلى عنهم... صدقيني... الموت لا يهمني... حياتي معك ليوم واحد تساوي الحياة تحت إمرتهم لقرون... حتى ولو مت... فلن أخسر إلا أياماً فائضة في حياتي بعد أن أنقذني الله من الموت المحقق... بعد لدغة الحية... الحياة كلها لا تساوي شيئاً... إذا لم يكن للإنسان قيمة ودين".

- "ماذا حدث بالضبط يا داود".

- "إننا نسير على الجمر... هناك الكثير من الأخطار تلاحقنا... لست أدري هل علينا أن نترقب أم".

"ابتسمت ريحانة ثم قالت:

ويلهم مني... سوف أبني بأجسادهم أطول قنطره يعرفها هذا الوادي".

طأطأ داود رأسه ثم قال.

- "أخشى عليك يا ريحانة... ربما كان الموت هو خيارنا الوحيد لو بقينا هنا... ولكن... سوف نصبر ونأخذ حيطتنا كاملة... نحن أعرف بالحياة هنا... سنعيش على الحليب و العسل".

- "ألم تعلم أنني مريضة".

وقف داود في دهشة وهو يقول:

- "و يلك يا داود".

ومع مرور ساعات النهار الأولى... كانت حالة ريحانة تسير للأحسن... لقد قامت من فراشها... وزالت تلك الأزمة.

الحاج

مرت الأيام سريعة... وحال ريحانة يجاوز الخطر... إنها على أحسن ما يرام... واليوم هو يوم البهجة... لقد مرت ثلاثة أشهر منذ الهجوم على منزلهم... ومع أن الحبيبان يحملان هم كل حدث يحدث في واديهم مَحْمَلَ الجد... إلا أنهما لا زالا يعيشان السعادة ذاتها... التي حلت عليهما بعد الزواج الميمون.

هذا العام هو عام ١٣٠٢هـ... وتلك هي وفود الحج القادمة من اليمن تتجه جهة مكة المكرمة... لقد انقضى شهر رمضان للتو... وهذا هو أول أيام عيد الفطر المبارك... كم هي سعيدة أيام الفطر... لكل من أكمل صيام رمضان وقيامه... إنها أيام بهيجة... قضاها داود في روحانية بالغة... شيء من الحلوى قررت ريحانة مع داود أن يصنعاه في يوم العيد... خاصة وأن السكر الأحمر قد دخل منزلهما أخيراً... بعد أن ذكر بعض الأطباء العابرين أهميته... وأهمية أن يتناول الصائم شيئاً من الحلوى... لقد عمل داود شيئاً من البقلاوة الشامية... استخدم لصنعها رقائق البر والسمن والعسل والسكر.

المسافرون يحرصون على الدخول في ضيافة ريحانة طيلة أيام العيد... لأن أفواههم تذوق هنا شيئاً من الحلوى المجانية... التي يصنعها داود... انقضت أيام العيد سريعة... ومن بين جبال الوادي تسمع أصوات الملبين الذين يرفعون أصواتهم بالتلبية والذكر.

ريحانة وزوجها داود يشعران بأتم السعادة... لقاء ما يقدمانه من خدمات لحجاج بيت الله... وتبدو وجوه الحجيج برونزية اللون من تقلب أدوار الشمس عليها... ومع غروب الشمس تأتي قافلة أخرى لتبيت حتى منتصف الليل... وفي الوقت ذاته ترحل القافلة التي أناخت مع صلاة العصر... لا يتجاوز عدد أفراد القافلة خمسة وعشرين شخصاً... والجمال لا تكاد تتجاوز العشرين... وقبل رحيل القافلة تجد الجميع مهتمين يستمعون الوصايا التي يقدمها أمير القافلة.

النساء الذاهبات للحج قلة... وهن لا يتجاوزن ثلاث نساء في كل قافلة... إنهن يحتسبن الأجر من الله في الجهد الذي يصيبهن... وبعد أن يرتاح الحجيج قليلاً ويدخل لبطونهم ذلك الزاد الذي تعده ريحانة وزوجها... ينشغل كل واحد منهم بإصلاح نعله أو قص شاربه أو ترجيل شعره... وربما رأيت أحدهم وهو ينظم الخيط في أبرته الطويلة كي يخيط مزقاً في ثوبه.

وبعد انتظارهم هذا تبدأ رائحة القهوة التي يحظرها في الغالب أهل القافلة... ثم (تحمسها) ريحانة وتطحنها بطريقة بدائية... بعد ذلك تقدم القهوة مع حلوى ريحانة المذهلة.

أبو خطوة

ذات مساء كانت الأمور سائرة كما هي عادتها... إلا أن شيئاً من الجلبة والضجيج دارت بين الحجاج الجالسين تحت السقيفة... حيث تنادت الأصوات:

- "صالح أبو الخطوة... صالح أبو خطوة".

قاموا جميعاً لينظروا... ومنهم من ألقى بفنجانه... ومنهم من ألقى بقطعة الحلوى... ماذا حصل يا ترى... لقد اجتمع الجميع أمام رجل له عمامة بيضاء... وله وجه حنطي... وقدمان خضبها الحناء... ومعه مسبحة طويلة... وهو لا يفتر عن الذكر... سلم هذا الرجل على الجميع وقال:

- "دعوني في خلوتي".

ثم تقدم جهة غرفة ريحانة... استقبلته ريحانة بحفاوة... وقدَّرت ما يبدو على وجهه من هيبة ووقار... داود حينها لم يكن موجوداً... إنه مشغول بجمع الحطب... وربما بأعمال أخرى... قالت ريحانة للشيخ:

- "ماذا تريد يا عمي؟".

- "أنا أريد شيئاً من الماء كي أجدد وضوئي".

أنزل الشيخ شيئاً خفيفاً كان على ظهره... ثم أخرج سجادة من حصير... ثم قال وهو ينظر لريحانة:

- "أين هي قبلتكم".

أخبرته ريحانة عن وجهة القبلة... وبعد أن فرش الرجل سجادته جلس عليها مستقبلاً القبلة... ثم أخرج مسبحته من جيبه واستمر في الذكر... أحضرت ريحانة له الماء... وبعد أن توضأ عاد لمكانه... وفي تلك الأثناء جاء داود... وأدهشه رؤية ذلك الشيخ... ولكنه لم يلق بالاً كبيراً لذلك... لقد عاد ليودِّع القافلة الراحلة وليزودوهم بالماء المجاني الذي أحضره للتو.

أنهى الشيخ تسبيحاته ثم قام من مقامة... وجلس على أحد المقاعد ونادى ريحانة باسمها قائلاً:

- "تعالي يا ريحانة".

جاءت ريحانة وجاء معها داود... وعندما جلسا... بدأ الرجل يتكلم بهدوء عن نفسه... أخبرهما أنه رجل من علماء اليمن... وأنه زاهد في هذه الدنيا... يقضي نهاره وليله في العبادة... وقال وهو خاشع:

- "إن الله أنعم علي بنعم كثيرة... لقد جعلني من أهل الخطوة... وأنا قادر بإذن الله على وضع قدمي في مكان... وترفعها إرادة الله حتى أضع قدمي الأخرى في مكان آخر... يبعد عن المكان الأول أميالاً".

وأخبرهما أنه يحج كل سنة... لم يكن يقضي من الوقت كثيراً حتى يصل لمكة إنها فقط خطوة واحدة... ولكنه سمع الكثير عن حلوى سيدة الوادي... لذا كانت خطوته الأولى في اليمن وخطوته الثانية قريباً من منزل ريحانة... فقط هو يريد السلام عليهما... ويريد أيضاً أكل شيء من حلواها الطيبة... والمشهورة...

ريحانة لم تسمع عن أهل الخطوة إلا في القصص التي كان يسردها كهول القرية... وهي الآن أمام من يقول إنه منهم... لقد رأت ريحانة على وجهه علامات الصلاح والتقوى... كانت جلسة الثلاثة جلسة ذكر لله وابتهالات بألفاظ مسجوعة... وقد عرض فيها الشيخ الحاج كثيراً من الآثار عن فضل الذكر والدعاء... والزهد وحب أهل البيت... وأحاديث عن فضل أصحاب رسول الله... خاصة الخلفاء الأربعة... وأشياء كثيرة لم يسمع عنها داود من قبل... كان أسلوب الشيخ البسيط ونظرته الهادئة كفيلة بأسر قلبي أولئك الجالسين أمامه... لقد أسرت أحاديثه العذبة قلب كلٍ من داود وزوجته ريحانة.

مر الوقت سريعاً... وبدأت دموع داود في التحدر... ثم لم تكد تجف... داود بكل ذرات عقله سابح في ملكوت الله... لقد أحس أنه ارتوى من معين المعاني الشفافة... التي يسردها الشيخ دون تكلف... ألا بذكر الله تطمئن القلوب... لم ينتبه داود إلا والشيخ يقول:

- "قم للأذان يا رجل ... لقد حان وقت الصلاة".

كفكف داود دموعه... وقام مؤذناً... كانت مقاطع النداء تعبر الوادي في هدوء... وكأنها تبث الروح والأمان... انتهى الأذان وقام الشيخ مصلياً... وقام بجواره داود وقام أناس خلفهم... وكانت ريحانة في الخلف... واقفة للصلاة... وتهز رأسها مستسلمة لخالقها العظيم... إنه شعور بخوف ما... وشعور بأمن ما... وشعور بسعادة عظيمة... ربما كانت هي بعينها حلاوة الإيمان... انقضت الصلاة... ولكن الصلة بالله لما تنقض بعد... لقد كانت الأرواح عالقة في قدسيةٍ أخاذة متجاهلة كل الوجود... وبعد أن أنهى الجميع تسابيحهم... تبادل داود مع ريحانة نظرات ذات معنى... لقد تذكروا شيئاً... اقترب داود من الشيخ وهو عازم على إطلاعه على ما كان يجول بخاطره... وعندما صار مواجهاً له قال:

- "لقد رأيت رؤيا... هل تعبرها لي".

- "قل يا بني".

- "هذا الوادي... لقد رأيت أنني أقطعه سيراً من أوله لآخره".

- "في الليل أم في النهار".

- "في الليل".

- "في الليل... ماذا وجدت في آخر الوادي".

- "لقد شربت في آخره من ماء زمزم".

- "عليك يا ولدي أن تحج هذه السنة... هذا الوادي لم يعد آمناً".

قام بعدها الرجل وسار قليلاً في الظلام المتشقق من شفة الأفق الغربي... ثم اختفى... نظر داود لآثار الرجل الذاهب... أراد أن يطلب منه البقاء... ولكن اختفاءه كان سريعاً... نكس داود رأسه في حزن وندم... اقتربت منه ريحانة بهدوء... نظر لها وقال بأسف:

- "ربما حان وقت الرحيل... وربما حان... حان وقت الفراق".

تحوَّل صوت داود إلى نحيب جاف متقطع.... ولكنه رفع رأسه وواصل الحديث وهو ينظر بلهفة لعيني ريحانة... أردف.

- "أنت سيدتي... كم يعز علي أن أعيش من دونك... أوه... لقد جعلتِ السعادة وشاحاً يغطيني... ولكن... ولكن الطُرُقَ أُقفلت جميعاً... أيدي الشر تحيك المؤامرات... وتحدد الأهداف... وأنا واحد من تلك الأهداف... إنها الصهيونية... ولكن الله معي... صدقيني... كم يطيب لي أن أعيش زاهداً ورعاً... طاهر النفس والبدن... ولكن فراقك يعز علي كثير".

ابتسم داود بسمة حزينة ثم أردف:

- "لا حيلة... سوف أصبر... وسوف أتحمل... وسوف... أُسلي نفسي بذكر الله".

تنهد داود بحزن ثم أكمل:

- "علي أن ألحق بركب الحجيج هذه السنة... ربما لن أراك يا ريحانة أبداً... ولكنك في قلبي... وبين ضلوعي".

تقدمت ريحانة نحو من اخترمت الهموم مهجته... ثم مدت يدها لتمسح شيئاً من دموعه... ثم هزت رأسها في شفقة... وقالت:

- "هل ستطلقني يا داود".

شعر داود بخجل شديد... وبدأت شفتاه وجفناه ترتعشان بقوة... ثم أدار لريحانة ظهره... ربتت ريحانة على ظهره وقالت:

- "لن تطلقني يا حبيبي... أليس كذلك".

أدار داود لها وجهه... ثم نكس رأسه وهو يقول:

- "(أو تسريح بإحسان)".

اقتربت ريحانة من داود حتى لاصقته... ثم ضمته بشفقة... وقالت:

- "لا تقل ذلك... أبداً... هذا مستحيل".

أدار داود يده المقطوعة مع يده السليمة ليضم زوجته ضمة الوداع... ولكنها همست في أذنه بهدوء:

- "اطمئن يا حبيبي... سوف نبقى سوياً للأبد".

سحب داود رأسه ثم بدنه... وقال في تأثر:

- "ماذا تقصدين... يا سيدتي".

اقتربت ريحانة من داود حتى لاصق فمها أذنه ثانية... ثم قالت في همس:

- "سأحج معك يا داود... لن تسعني الأرض... إلا الأرض التي تكون أنت فيها... إنها الأرض التي سأقدر على الحياة فيها... وسيبقى الإنسان ساعياً وراء قدره ورزقه... وأرض الله واسعة يا داود".

قال في دهشة:

- "وتتركين الوادي... أنت تضحين كثيراً يا سيدتي".

- "أنت وطني يا داود... لم يعد لي وطن إلا أنت".

دمعت عينا داود... ولكنه ابتسم وقال.

- "وأنا... لم يعد لي وطن إلا أنت".

الوداع

لم تمض أيام كثيرة... ها هما الزوجان يعدان نفسيهما للحج... لقد ذهب داود إلى محايل... واشترى جملين قويين... وعاد... ومع بطن وادي تيّه يدخل... إنه يلبي... ويتغنى أيضاً بأهازيج جميلة... ويمتد صوته عبر الوادي... ومع اقترابه من منزله تدق السعادة في قلبه طبولها... وعندما وصل إلى منزله... هناك ريحانة... تستقبله بكل لهفة... وسرعان ما أحضرت للجملين شيئاً من أغصان السدر... وفي

مساء تلك الليلة كان داود مع ريحانة يخططان لكل خطوة سيقدمان عليها... كي يتجنبا كل الصعوبات... ستكون الرحلة بعد غد إن شاء الله... قال داود:

- "سنودِّع هذا الوادي يا ريحانة... وسيكون مقفراً بعد أن عمرناه دهراً".

نكست ريحانة رأسها وهي تقول:

- "علني أتجلد وأصبر... هذا الوادي صار جزءاً مني وأنا جزء منه... سيكون خروجي منه أشبه بالخروج إلى العالم الآخر... ولكنَّ ذلك يهون عندما أكون معك".

- "أنت تضحين بالكثير من أجلي".

- "لم يعد لي بقاء هنا دونك".

- "نعم صدقت... فلم يعد لك بقاء في الوادي مع ما أضمره اليهود لك... علينا أن نعيش من جديد".

وفي صباح اليوم التالي اقتاد داود الماعز جهة أقرب طريق للحجاج... وهناك باعها على أول وفد... واعتذر عن استقبال ريحانة لهم... لأنها لم تعد قادرة على ذلك... إنه حريص على أن لا يعلم أحد عن عزمهم على الحج كي لا تلاحقهم أيادي الغدر.

عاد داود... يجب أن يكتمل كل شيء... أعد الخبز الكافي للرحلة ومعه السمن... والعسل... وعُبّئت قرب الماء... وتم تسريح الغزلان والحجل... لقد أطلقتهم ريحانة وقلبها ينبض حزناً وولهاً... لم تنفر الغزالة عندما رأت أبواب الحرية تفتح أمامها... ولكنها استدارت بوجهها لتلقي بنظرة حزينة على وجه ريحانة... عين الغزالة الواسعة سر كبير... قرأت فيه ريحانة علامات مذهلة... لما يعرفه الحيوان عن الإنسان... لم تكن نظرة الغزالة لريحانة مجرد نظرة عابرة... ينظرها حيوان لإنسان... ولكنها نظرة تشي بسر الحياة الثمين... الذي وضعه الله في خلجات الأنفس الحية... شيء ما في نفس ريحانة جعلها تتقدم نحو الغزالة... وجعلها تجلس أمامها لتقول لها شيئاً... ولكن لغة الأعين كانت أسرع بكثير... لقد

قالت عين ريحانة ما عجز لسانها عن قوله... لم تنته الكلمات... ولكن ريحانة وقفت ثم دخلت لداخل... لتطلق طيور الحجل... أطلقت الطيور وهي توزع نظرات الوداع هنا وهناك... القلب الحي قد يتحمل كل شيء إلا هذه اللحظات... صرخ داود من الداخل:

- "لقد اكتمل كل شيء... والخبز يجب أن يكون قاسياً كي لا يتعفن".

سمعت ريحانة صوته... وآثرت الذهاب لمساعدته... فالوقت لا يحتمل... ومع غروب الشمس كان كل شيء جاهزاً... داود في الخلاء يقلب طرفه هنا وهناك... إنه يشعر بشعور غريب... أقرب إلى الاعتذار من كل شيء هنا... لأنه السبب في حرمان الجميع من سيدة الوادي.

لقد كانت الأمور تسير في الطريق الصحيح... لم يعد ثمة شيء سوى تحميل الأمتعة المتراصة هناك... بالطبع على ظهري الجملين... وبعدها يستقبلون الوجهة التي هفا لها قلبه كثيراً.

دخل داود للداخل... كانت ريحانة جالسة تذكر الله... بعد انتهائها من صلاة المغرب... داود يدخر لها سراً سيخبرها به في الغد... لم يعد ثم شيء سوى الطريق الطويل... الذي ستشاركه في قطعه هذه الفتاة العظيمة... قال لها حين دخل:

- "الله أكبر حنت للملبينا   جبال مكة واصطفت تنادينا

حمائمٌ رفرفت بالحب وارتفعت   وفاح في ريشها بالعطر نسرينا"

ابتسمت ريحانة لهذين البيتين... ولم ترد عليهما... وعندما تقدم داود نحوها جلس أمامها... وعبثاً قام ينشدها أنغاماً لذيذه أنستها شيئاً من لوعتها على فراق واديها الذي ترعرعت على خيراته... وبنيت ملامح شخصيتها في قسماته.

أعين متشققة

مر الليل هادئاً متلفعاً ثوب السكون ومع تباشير الفجر الأولى كان داود سعيداً يؤذن أذانه الجميل... وبعد الصلاة كانت مفاجأته جاهزة كي يقدمها لريحانة... بدأ ينادي.

- "يا ريحانة... يا ريحانة".

- "لبيك".

مرت لحظات... وأصبحت ريحانة واقفة أمامه... ابتسم لها... وفي سرور كشف لها عن هودج فاخر من القماش الأحمر... سيكون هذا الهودج دارها في هذا السفر الطويل... ابتسمت ريحانة في وجه داود بسمة شكر وعرفان ثم قالت:

- "سلمت يداك... إنها مفاجأة رائعة".

ومع ابتسامة ريحانة تلك... انفلتت من عينيها دمعة يتيمة... سرعان ما تكورت على خدها... لم تبق طويلاً دمعتها... لقد سارعت في السقوط... لم يشأ داود أن يقول شيئاً... ولكن ريحانة اتجهت جهة الهودج... ثم حملته من إحدى الجهتين وطلبت من داود أن يرفع الجهة الأخرى... حمل داود الهودج... وتم تثبيت الهودج على ظهر البعير الرابض... وحملت الأغراض الأخرى ووضعت على ظهر البعير الآخر.

الوقت يمر... وبصيص من نور يدغدغ كل شيء في الوادي... وينبئ عن بداية يوم سعيد... كل شيء جاهز للرحيل... ركب داود على الجمل الذي يحمل الأمتعة... وريحانة دخلت في هودجها فوق الجمل الآخر... وأطلق داود للجمل كلمته بقوة:

- "أخ ... هوه... حي...".

قام بعدها الجمل الأول الذي يمتطيه داود ثم... تبعه الجمل الآخر الذي تمتطيه ريحانة... وبدأت القافلة الصغيرة في المسير... وفي تلك الأثناء... كشفت

ريحانة حجاب مخدعها... لتُلقي نظرتها الأخيرة على الوادي الذي صنعته بأنفاسها وبدقات قلبها... وترمي بطرفها هناك على الأحجار المتراصة... التي صنعتها منزلاً في يوم ما... أجالت ريحانة طرفها في الأشواك... وفي ركام التراب... وفي الأشجار الصغيرة المتناثرة.

ومع كل رمشة بعيني ريحانة... تتجدد آلاف المعاني المحفوظة في قلبها الذي بدأ يعزف سيمفونية اليتم والحرمان.

مع أول خطوة خطتها في هذا الوادي الموحش قبل سنين... وأي لغز تفهمه هذه الفتاة النمرة وهي تحفز قصة معاناتها على هذه الصخور طيلة أحد عشر عاماً... لقد خاطت الأيامَ وراء الأيام في ثوبٍ دافئ... وها هي في آخر المطاف تهديه لزوجها داود الذي جاء من بلاد الشام.

ريحانة تهتز وتهتز... ثم ترفع سترة الخباء من داخل الهودج... إنها تغمض عينيها لتُخرج ما اجتمع على الأهداب الوسنى من الدموع... ثم تستنشق هواء الحجاز البارد مع ما يحمله من رائحة أزهار السدر... ومن بين الدموع تتسلل النظرات لتخترق ضوء الصباح الخفيف... الذي يتسلل هو بدوره كي يدفئ كل شيء... الهدوء ورقصات الهودج تحفر في ورح ريحانة كل شي تقع نظراتها الأخيرة عليه... وخطوات الجمال تبتعد وتبتعد... عن الحُجرات... التي عاشت فيها الفتاة النمرة كل تفاصيل حياتها... كانت هنا.

وقلب ريحانة يهفو لكل شيء مع ابتعادها عنه... وكأنه يتمايل على إيقاعات أقدام الإبل... ويلقي داود عبر حنجرته المزمارية صوت موال طويل... يخرج حزيناً ثم يتشعب عبر شعاب الوادي المهيب... وريحانة تنساب مع هذا الصوت وكأنها ذائبة في تقاطيعه... وربما بدا وأن روحها تنتشر في كل مكان هنا... وفي لحظات حاسمة مختبئة عن السعادة... يختبئ منزل ريحانة الذي صنعت فيه حياتها... ومع اختبائه يدق قلبها... ثم تشيح الفتاة بوجهها للأسفل ... وتندمل مشاعر كثيرة مع انقطاع المشهد.

وقبل أن تُنزل ريحانة يدها التي كانت ترفع بها القماش المتدلي بإتقان على مؤخرة الهودج... يلوح لها شيء أشبه بالبحر الكبير... وليس بالبحر... بيد أن ريحانة تشعر أنه أعمق من البحر بكثير... إنها عينا غزالتها التي أطلقتا بالأمس... ها هي واقفة هناك تنتظر الوداع... وها هي تستجمع دموعاً كثيرة في عينيها كي تودع بها ريحانة... الذاهبة إلى السر البعيد... ألقت ريحانة بنظرة ملئها الألم والحرقة على ساعات الوداع الأليمة... ثم رفعت يدها لتودع الغزالة... كان هناك قطيع من الغزلان... ولكن الوقت يدق باحتراف... كل شيء يمضي للأمام... وقطيع الغزلان يبتعد ويبتعد... وريحانة تتراقص مع مواويل داود... وقلبها يكتب قصته الطويلة مع الوداع ... و يرفع داود صوته بالموال أكثر وأكثر... وتتمتم ريحانة بموال آخر طويل:

- "أبكي ويبكي الهوى والقلب مشغول يا ليتني في جيدها عقد وأكليل

النار تبرئ جرح الجسـم ملتهباً والقلب يلقى لنار البعد تنكيل"

استمر اللحن الطويل يرتد في جوانب الوادي... حتى اختفت المعالم الجميلة... هكذا انتهت قصة النمرة الفتاة في هذا الوادي الوعر... وبقي بيتها مفتوحاً لكل من أراد أن يقيل أو ينام فيه.

سار الجملان طريقهما... وكان داود يقودهما... وريحانة تتناسى مع طول الطريق شيئاً من فرقاها... إنها تارة تركب الجمل... وتارة تنزل... مر الوقت من بين أيديهم كما مر الطريق من تحت أقدامهم... حتى وصلوا للساحل... وهناك بقوا في إحدى القرى... إنهم ينتظرون مرور إحدى قوافل الحجاج... مر يومان فقط... وهاهي تلك قافلةٌ لحجاج اليمن... انضم الجملان للقافلة الذاهبة إلى بيت الله... وريحانة تعد نفسها للحج في كل لحظة... لقد سارت سعيدة في الطريق إلى الله... إنها تتناسى كل شيء... وهي مشغولة بالقرآن والذكر.

أيام في الطريق

مرت الأيام سريعة... عشرون يوماً ليس فيها شيء جديد... سوى ما تقطعه أكباد الإبل وأخفافها... ومع ظهيرة كل يوم تنوخ الإبل... وينزل أهلها في المكان

الأنسب... ربما كـان ذلك عند مـسـجـد... أو في وادي مـورق مـرتو... ويريحـون أنفسهم ودوابهم حتى العصر... وعندما يبرد لهب الشمس تعيد الإبل خطوات سيرها طيلة الليل... وفي بعض الأحيان يجلس داود وريحانة في هودجها... وربما تسامرا وضحكا... وفي أحيان أخرى يركب داود على جمله.

ولكن رحلتهم كانت هادئة سعيدة... وفي آخر الأيام وقفوا محرمين في الميقات... إنها قرية يلملم القديمة... وهي على حالها القديم... لم يتغير ثم شيء... وفي واديها القليل من الماء... أحرم الحجاج بعد أن لبسوا إحراماتهم... وسارت ركبانهم في الطريق إلى الله.

ثلاثة أيام أخرى... ومع طلوع الشمس في اليوم الرابع كانت الأنفس الملهوفة تتطلع من قريب لحرم الله... ها هو هناك حرم البيت... إنه يدور كحلقة جميلة بالبيت العتيق... الخطوات تسير خفيفة... والمنظر المهيب يرفع الأنفس للأعلى... وقف داود في محراب الإيمان الأبدي... كي يَعُدّ أوراق السعادة التي اختزنها قلبه... بعد أن كان يعد الورق من المال... فلا يجد فيه إلا ركام الأحقاد والطمع... ثم نظر إلى زوجته التي كان يجلس بجوار هودجها بعد أن وقفت القافلة... وقال في إخبات:

- "ها أنا ذا... مسلم لله بقلبي وقالبي... كم أنا سعيد... وكم هي سعيدة تلك اللحظات التي يرتبط فيها الإنسان بقدسية خالقه... إنني أتمنى أن أمرغ وجهي الآن في الوحل... عرفاناً لربي بنعمة عظيمة... لو كنت رأيتني يا ريحانة... وأنا ألهث كالكلاب الظامئة... وأجمع المال بجنون... آه يا سيدتي... وأحقد وأظلم... وأسير في الطرقات القذرة... لقلت دون تردد... هذا هو الشيطان... لقد كان الشيطان بحق يرتع في جوارحي كيفما شاء... ولكن بعد قليل سأرتوي من زمزم... زمزم الخالدة... كلي ثقة في ربي أنه سيمنحني السكينة... وأيضاً سيمنحني ما هو أعظم... نعم حبيبتي... إنها الشهادة في سبيله... أليس جميلاً يا حبيبتي أن يموت داود... ذلك الرجل المأفون... يموت شهيداً... تتلقى الملائكة روحه... أليس جميلاً أن يغمسني ربي في أنهار الجنة... أليس جميلاً أن يكون داود.... ذلك اليهودي...

يكون مع النبي محمد في أعلى درجات عليين... أوه كم أحب لقاء الله يا حبيبتي... وكم أتمناه... ولو لقيته الآن".

طأطأت ريحانة رأسها... بالطبع ليس في جعبتها ما تقوله... ولكنها حتماً سعيدة تحت ظل هذا الرجل... الذي يعيش وقلبه معلق بخالقه... أعادت ريحانة النظر إليه باهتمام... ثم قالت:

- "هل حان وقت دخول الحجيج لحرم الله".

تحرك داود... وشد مئزره باهتمام... و لكن دون فائدة... يده الوحيدة لم تكن قادرة على عمل اللازم...؛ لذا استعان بريحانة التي أمسكت المئزر ثم شدته وهي تضحك... وتحاول خلسة أن تتلصص على شيء ما... ابتسم داود وغمز بعينه.

وأمام البيت المهيب اصطف الناس صفين... لقد كانوا... متجهين جهة الكعبة وقلوبهم متجهة لأعلى.

لبيك اللهم لبيك... لبيك لا شريك لك... لبيك.

داود يعيش مع هذه المشاعر... ويهيم بروحه في أمنيات رحيبة... وسرعان ما بدا لهم بيت الله... وبدت لهم الحمائم هناك... وهي تدور في الفضاء ثم تهبط بسلام... وألئك الطائفون في خشوع ووجل... وبدت لهم أستار الكعبة المقدسة... أحس داود برغبة جامحة في البكاء... وعندما نظر إلى ريحانة رأى عينيها الشاخصتين في خشوع... ولكنها أمسكت بيده... وسارعت في المسير... لحظات قلائل... وينضم الحجاج الجدد في صفوف الطائفين.

وهناك... وجوه تنغمس في حلقة الحجر الأسود... ووجوه أخرى تتمرغ على أرضية المسجد... وهناك من يقف أمام المقام الإبراهيمي... ورجال يطوفون ومعهم آنية فيها مياه زمزم... ويسقون كل من يريد الشرب... الجميع سواسية كأسنان المشط... لبيك اللهم لبيك.

عرفات

تلك الخطوات الرتيبة تدق الحجارة المرصوفة بعناية... وتتجه من بين الأزقة القديمة... وتحمل الفتاة المنذهلة... ذات الزي العسيري المقصب... المصابيح المعلقة في الجدران... والدكاكين الصغيرة التي تحف بالطرقات... وملابس مطرزة... وتحف من الصين ومن الهند... وكتب صفراء... وباعة متجولون... ينادون بأصوات تبدو لهم مطربة... الفتاة تلاحظ بكل تأمل... وأخيراً ها هو البيت الصغير... إنه في منتصف الجبل... لا مشكلة.... الدرج كفيل بإيصال كل من يصعده بخفة... إنه درج من الحجارة وهو يوصل في النهاية إلى باب المنزل الصغير... صعدت ريحانة ودخلت لمنزلها الجديد... إنها الآن تمارس دورها كأنثى على أفضل وجه... وقد تركت لداود زمام القيادة في حياتها الجديدة... خاصة وأنها لا تعرف أبداً كيف تدار الحياة في مجتمع أكثر تمدناً... مرت أيام الحج سلسة جميلة... قد كانت مليئة بالطمأنينة والسكينة ... كانوا يتحرون يوم عرفة بفارغ الصبر... وعندما حل اليوم المبارك وقفوا فيه على أرض عرفات الطاهرة... وفي يوم العيد نحر داود هدياً عن نفسه... وأطعم به المساكين... ونحر هدايا عن ريحانة... إنه يتعلم الكثير من معاني الحج.

طيبة

الأيام كانت تمضي... سريعة... أشبه بلمح البصر... لم يكد الزوجان يقضيان مناسكهما حتى بدءا يسمعان التمتمات في أفواه الحجيج... الكل يتحدث عن العزم على زيارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام... لاحت خواطر كثيرة في أعماق داود... عن مسجد الرسول... كم سمع عن الرسول العربي عندما كان في دمشق... إنه لا ينكر أنه كان يشعر باعتزاز كبير بذلك الرجل العربي كإنسانٍ تتشرف بانتمائه لها كل البشرية... مع أن داود كان يهودياً صرفاً... ولكنه حينها لم يكن ليتوقع أن يزور ذات يوم تلك الحضرة الشريفة... الله ما أغرب الحياة وتقلباتها... مدينة الرسول الأعظم، لم يتمالك داود ما كان يعتمل بداخله... بدأ قلبه يرف شوقاً للبقاع

التي أقام فيها الرجل العظيم... دولته الأولى... وفي خيمة من خيام منى قال داود لريحانة:

- "إنه الرحيل... الرحيل يا لصيقة القلب".

- "إلى أين... يا رجل... لمّا ترو قلوبنا بعد".

- " إلى مسجد رسول الله... هناك حتماً سيرتوي الظمأ".

نكست الفتاة ذات التسعة عشر عاماً رأسها... وطقطق صوت دمعة انحدرت من عينها للتو... وهي ترتطم بإسوارة من فضة كانت في يدها... ولكنها رفعت رأسها وهي تبتسم ثم قالت:

- "سيرتوي الظمأ... يا ساكن القلب".

مدت ريحانة يدها جهة كوب صغير يحوي القليل من ماء زمزم... رفعت الكوب وهي تبتسم... وعندما حاذت به وجه داود رشت الماء فيه وهي تضحك... لقد تفاجأ داود بما فعلته ريحانة... مسح الماء ثم أشاح وجهه يميناً وهو يقول:

- "أنا غاضب عليك... لماذا بللتنني بالماء".

ضحكت ريحانة... ثم أخرجت من حقيبتها الصغيرة مرآة ثم ناولتها لداود... وعندما نظر داود لوجهه أحس بالخجل... ثم قام ليغسل وجهه... وعندما عاد قالت له:

- "كم أنت طيب يا داود... ولكن عليك أن تهتم بنظافة وجهك".

قال داود ليخرج من موضوع النظافة:

- "هل ستوافقين على ذهابنا للمدينة".

- "المدينة المنورة... الله كم أطربني اسمها يا داود... يبدو أن أمر الزيارة للمسجد النبوي قد راق لك... كنت أفكر فيه من قبل... ولكني أفكر بدرجة أكبر في أمر مطارديك يا داود... علينا أن لا نتناسى أن لنا أعداء... نحن في سباق مع الزمن".

- "هذه أرض مباركة... لن يكون لدعاة الشر قوة فيها أو سطوة".

- "زادك الله أيماناً... وزادك حرصاً... يا داود... أنا لم أعد قادرة على الاستغناء عنك".

رفع داود رأسه في عُجب... ثم ابتسم في دعابة وقال:

- "أحـ... أحـ... لقد أصبحتَ مهماً يا داود... وسيدة الوادي لم تعد قادرة على الاستغناء عنك".

ربتت ريحانة على يده الوحيدة وقالت:

- "يبدو أن رحلتنا إلى المدينة مهمة عسيرة... ولكنها رحلة مهمة... عسى أن يجعل الله لنا فيها مخرجاً".

وفي صباح رابع أيام التشريق كان داود يسير هنا وهناك... باحثاً عن قافلة مأمونة ليرحل معها إلى المدينة... لم يكن الأمر بالعسير... لقد وجد قافلة شامية... جميع أفرادها من حلب... كم رقص قلب داود طرباً وشوقاً للشام... عندما سمع لهجتهم الشامية... الله... سوف يضم جمليه مع جمالهم... كما اتفق مع رئيس القافلة... وبعد العصر سوف تنطلق القافلة مع أفرادها إلى مسجد رسول الله... انتهت صلاة العصر... كل شيء على أتم الاستعداد... بسم الله الرحمن الرحيم... وانطلقت القافلة والجميع يقول:

- "اللهم تقبل صالح العمل".

مر الوقت... وها هي تلك... الجمال... تقطع البيد وراء البيد... أيام ثمانية وليال ثمان... والسفر ينهك المسافرين... وأخيراً شارف الركب على المسجد الأبيض... مسجد رسول الله... كم هي حالمة سعيدة... لحظات اللقاء... بمن سمعت الدنيا عن كل أنوار الخير التي تلألأ ضوؤها في وجهه... الرسول العربي صاحب الخلق والعبقرية... ومع المعاني الجميلة تطوى الخطوات شوقاً... والنوق تمد أعناقها حباً... والقلوب تهفو هناك... للمسجد الذي أسس أركانه بيده خير

من وطئت قدمه الأرض... وخير من تنفست رئته الهواء... ريحانة تجهش في مخدعها ببكاء اللذة والأنس... هنا يصنع الإنس بكاء من نوع خاص... وداود يطرب لصوت بكائها... ويهز رأسه ثم ينظر للسماء وبعدها يقول:

- "ابك يا عوداً دحا قيثارة لم يعد فيها حبال تطرب

كلما تبكين غنى خاطري قصة الحب التي لا تكذب"

قالت ريحانة متصنعة الغضب.

- "وهل هذا وقت تغزل ببكاي".

- "يا حبيبتي... اعذريني... فهنا يصنع الإيمان لكل إنسان ثوباً جديداً".

طأطأ داود رأسه... وأحس أنه يريد أن يكمل:

- "يا روضة الشوق خطي في مآقينا مدامعاً رسمت كحل المليحينا

غارت خيولي على الأوهام فانكفأت واليوم أركب ظهرا الحق مأمونا

ويلي عليك فتاتي كلما دمعت عيني وويلي حين تبكنا

ريحانة الحب أنت الدرب في أملي وشمسنا طلعت والله يهدينا

واليوم لست أبالي إن بدا أجلي أو قيل عني الفتى قد كان مجنوناً

لحاكِ ربي إذا ما ارتد لي زمن يزيد همي بتذكاري له حينا

وتذكاري له حيناً تدغدغني أنامل طرقت قلب المحبينا"

تسابقت اللحظات الملهوفة مع القلوب الأشد لهفة... حتى وصل الركب إلى مسجد رسول الله... وهناك حطت الرحال جوار الجسد الشريف... ما أقرب الخطوات... وما أبعد اللحظات بين زمانين... زمن يدخل فيه داود للروضة الشريفة... وزمن بنى فيه النبي لبنات الروضة... وزمن يؤمن فيه داود... وزمن أذن فيه الرسول للناس بأن يؤمنوا ويكونوا مع المتقين.

نزلت ريحانة وغسلت عينها بدموع الفرح... هنا تسكب السكينة في قلوب المؤمنين.

ووقف الجميع أمام المسجد... بعد أن سلموا رواحلهم لرجل يرعاها لهم بأجر معلوم... ما أروع بيت الله... المآذن العالية ترتفع لتشق فضاءات من الهدى والنور... أمسكت ريحانة بيد داود... رفعت بصرها للأعلى... إنها لأول مرة ترى مبنى هائل الجمال... قالت له في دهشة:

- "من بنى هذه يا داود".

- "أنا... هـ هـ هـ... بيدي المقطوعة... كلا... كلا... أنا أمزح... إنهم خلفاء الدولة العثمانية... إن لهم أيادي بيضاء في إعمار مساجد الله".

طأطأت ريحانة رأسها وتقدمت في المسير يحدوها الشوق... الخطوات تطبع على الأرض المنبسطة... وأوجه الناس الخارجين من المسجد تكسوها مسحة من الأمان... والباب هناك يزدحم بالداخلين والخارجين... ومع الداخلين كان الجسدان الخاشعان يدلفان من عتبة المسجد النبوي... أطلقت ريحانة يد داود وبدأت تقلب نظرها في هذه الرحاب... ثم تقدمت قليلاً وتصلبت خاشعة.

ذاك هو محراب رسول الله... وذاك هو قبره... مضت سنوات طويلة والمكان هو المكان... والناس يروحون هنا ويجيئون... وهم أبداً لا يفترون... أحس داود بما يجول في أعماق ريحانة... لذا أمسكها بيدها وسارا سوياً حتى وصلا للروضة الشريفة... كل يرى الأنوار هناك... وكل تغشاه نفحات الإيمان... داود أطلق يد ريحانة... وشعر أنه يدخل في حلم جميل... الدنيا هنا تأخذ حجمها الطبيعي... وتجعل قلب الإنسان يوقن بأن لله نفحات وأماكن مقدسة... ليست ككل الأماكن... الدقائق تمر... والذكريات التي كانت في ذهن داود... وكانت تشي له بأنه رجل يهودي... محيت نهائياً... هذا الواقف في باحة الروضة قطعة من بقايا الإسلام الصالحة... قال داود:

- "أشهد أن لا إله إلا الله... وأن محمداً رسول الله".

وبعدها نظر لريحانة التي اغرورقت عيناها بالدمع... ثم ابتسم لها قائلاً.

- "نصلي ركعتين... ثم نذهب هناك... ذاك هو قبر رسول الله... وحري بمن زار هذا المسجد أن يسلم على رسول الله".

امرأة صالحة

طال الوقت أم قصر... ولكنها ساعات مليئة بالهدوء... لقد انتهى الناس من أداء صلاة العشاء منذ فترة... ويبدو أن أحداً من الجالسين ليس عازماً على الانصراف... تذكر داود الجالس في طائفة المسجد أنه الرجل الوحيد في أسرته المكونة من رجل وامرأة... وأن عليه أن يقوم بشؤون هذه الأسرة... لم يبق وقت طويل عن منتصف الليل... لقد فكر قليلاً فيما يجب أن يفعله... ولكنه قام جهة زوجته الجالسة في مكان النساء... وعندما أقبل عليها استقبلته بابتسامة صفاء وحب... وبعد أن جلس قالت له:

- "لست أدري كيف أشكر الله أن رزقني بك... لو لم أتزوجك لما كنت اليوم هنا".

... شعر داود بسعادة كبيرة... ولكنه قال متجاهلاً سعادته:

- "يجب أن نستأجر منزلاً للمبيت".

- "كما تشاء".

ثم اقتربت بفمها من أذنه... وقالت:

- "لقد تعرفت على امرأة صالحة... إنها تلك الجالسة على اليمين... تبدو محيطة بالكثير من علوم الدين... وتقول إن زوجها يُعلِّم الناس في المسجد... إنهم من أرض المغرب العربي... وقد سألتها عن كثير من أمور الدين... إنها تعلم الكثير... وجميع الوقت الذي أمضيته معها كان أشبه بوقت أجلس فيه أمام من يوزع الأعطيات والهدايا... ما رأيك لو سألتها عن زوجها أين يجلس... ربما تعرفت عليه

أنت... وربما جعل الله لنا في ذلك خيراً... وربما نكون جيراناً لهم... إنك لا تدري كم هي متواضعة عالمة.

وضع داود يده تحت لحيته وقال في تعجب:

شيخ من الجزائر... الله كم أنا في حاجة ماسة لسماع كلام العلماء... وسؤالهم عن أمور ديني... وكم سأكون سعيداً لو سألتِها أين يجلس زوجها... قامت ريحانة وجلست بجوار المرأة... ثم نظرت لها تلك المرأة ذات الأنف الصغير والجميل... وذات العينين الزرقاوين... وابتسمت وهي تقول:

- "قولي لي يا أختي... هل أقدم لك خدمة؟".

ابتسمت ريحانة ثم قالت:

- "زوجي حريص على معرفة زوجك... إنه يريد سؤاله عن أشياء تهمه... نحن هنا غرباء".

- "لستم غرباء... لأنكم في حضرة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام... يا حبيبتي... الغريب من ارتحل في دنياه... دون أن يتزود بزاد من التقوى... أنت هنا بين أهلك وإخوانك".

طأطأت ريحانة رأسها وكأنها تتذوق طعم السكر... مع هذا الكلام العذب الصافي... ولكن المرأة أكملت:

- "زوجي يا حبيبتي يتكئ دائماً على أول عمود من الجهة الشرقية للمسجد... ربما كان طلابه بجواره الآن... وربما كان وحيداً... ولكنه لا يتأخر أبداً عن فعل الخير".

ابتسمت ريحانة وهي تقول:

- "جزاك الله خيراً يا أختي".

منذ زمن لم تقل ريحانة كلمة أختي... منذ أن ماتت صاحبتها صبرة... صبرة هي الفتاة الوحيدة التي كانت ريحانة تشعر نحوها بمشاعر الأخوة... ولكن ها هي

تقول الكلمة ذاتها الآن... ما أجملها من كلمة... عادت ريحانة لداود وأخبرته عن حال الشيخ... وسرعان ما انطلق داود جهة الشيخ... وعندما رآه في ثيابه البيضاء... ولحيته الطويلة... ذات اللون الأحمر والوجه المستدير الأبيض والعينين الخاشعتين... أحس بإجلال له... و لكن الشيخ ركز النظر في داود وابتسم... تشجع داود في خطواته حتى وقف بين يدي الشيخ ثم قال:

- "السلام عليكم".

- "وعليكم السلام... أنا هنا لأقدم لك المساعدة... هل لك من حاجة".

جلس داود بهدوء ثم قال:

- "زوجتي... زوجتي يا شيخ".

- "ماذا بها يا رجل".

- "عرفت زوجتك بالداخل... وأنا مسلم أريد أن أتزود من علم الدين".

- "هل أنت من سكان المدينة".

- "كلا... ولكني قادم جديد".

- "هل عندك منزل".

- "كلا هل".

وضع الشيخ يده تحت خده في تفكير... ثم قال:

- "هل أنت مسلم جديد".

ارتبك داود قليلاً ثم قال بخجل:

- "نعم... يا سيدى".

- "يبدو لي ذلك".

- " كيف عرفت يا سيدي" .

- "أنت تمتلك سحنة وضاءة... لا يملكها إلا من ترك دين آبائه... بعد تأمل عميق... واختار دين الإسلام" .

- "لم أفهم" .

- "الذين يفضلون الإسلام على ما تربو عليه في سنوات عمرهم هم الأجدر بالإعجاب... لأنهم لم يدخلوا الإسلام إلا عن قناعة" .

أغمض داود عينيه في تأثر ثم قال:

- "جزاك الله خيراً... كنت أخجل من كوني كنت يهودياً ذات يوم... سبحان الله... كلامك هذا جعلني أفتخر بذلك" .

قال الشيخ باستغراب:

- "قلت إنك كنت يهودياً" .

اضطرب داود قليلاً ثم قال:

- "نعم يا سيدي... كنت يهودياً... هل ينطبق ما قلته على اليهود أيضاً؟" .

ابتسم الشيخ... ودقق النظر ملياً في داود ثم قال:

-"ما شاء الله... لا قوة إلا بالله... أسأل الله أن يربط على قلبك... لقد ارتاح قلبي من كلامك... هل تحتاج لمال أو مساعدة" .

- "كلا... وجزاك الله خيراً... فقط أريد أن أعرف مكاناً مناسباً هنا... يكون قريباً من بيتكم تشرفني جيرتكم" .

ابتسم الشيخ... ثم بدأ يصف له طرقاً وأزقة... ذات اليمن وذات الشمال.. ثم منزلاً صغيراً من ثلاث حجرات وهو قريب من دار الشيخ... عرف داود الوصف جيداً... وبعد ذلك استأذن... على أمل لقاء جديد.

الشيخ رابح

الدار جميلة وصغيرة... وحجراتها الثلاث مبنية من الحجارة المقطوعة... والمنزل منفرد لوحده... إن الدنيا هنا خالية إلا من أمثال هذه المنازل... ذات الطابق والطابقين في هذا الحي الهادئ... هذا المنزل يبعد مسافة ٥٠٠ متر عن المسجد... لقد استأجره داود مع جميع أثاثه... من رجل اسمه عبد الواحد غادق... أنوار الحي خافته عدا أنوار السُّرُج الصغيرة التي تُثَبَّت على جدران البيوت... ولا أحد في الخلاء.

دخل داود وزوجته لمنزلهم... كانت ريحانة في أمس الحاجة للنوم والراحة... وما إن أقفلوا الباب من الداخل حتى ألقوا بأجسادهم بين يدي نوم عميق... ومع أذان الفجر انتبه داود من نومه... ثم قام جهة الكوز الموضوع هناك... ملأ إناءً حديدياً بالماء ثم خرج للوضوء في الخارج.

في الظلام يخرج الناس... ويحاولون أن يبتعدوا قدر المستطاع من أجل قضاء الحاجة... الرجال والنساء يفعلون ذلك على حد سواء... وهم يعتبرون الأمر طبيعياً جداً... المهم أن لا تكشف العورات... وربما سمع من يجلس لقضاء حاجته... وهو يتنحنح بين الفينة والأخرى... كلما سمع أقدام غاد أو رائح... كي لا يقع في حرج ما... هكذا هي الحياة... عاد داود من رحلته الاستجمامية تلك... وما إن دخل بيته حتى وجد ريحانة لتوها استيقظت... إنها تنتظر... لا زالت عيناها مليئتان بالنوم... قامت... وأخذت منه الإناء وخرجت من جديد... وبعد عودتها لبست ملابس تليق بالمسجد... ثم اتجهت هي وزوجها نحو بيت الله... وبعد انتهاء الصلاة جلس داود في محرابه للذكر والدعاء... وكذلك حال ريحانة.

مر القليل من الوقت... وهناك... بدأت حلقة الشيخ رابح الجزائري تتسع بقدوم طلاب العلم للدراسة... انتظم في صفوف طلاب العلم ذلك الرجل ذو اليد الواحدة وزوجته ريحانة... استفاض العلم بما وسَّع الله به على الشيخ رابح... كان يفسر قول الله تعالى ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ**﴾... داود يسمع كل كلمة يقولها الشيخ ولا يدري لماذا يراها منطبقة على حياته ذات الأدوار المتعددة... وريحانة هي

الأخرى كذلك... الثنائي الأكثر توافقاً في تلك الحلقة... داود وريحانة... إنها قصة من معاناة وكبد... قال الشيخ:

- «لقد أقسم الله بالوالد... وأقسم بالولد... لأهمية العلاقة القائمة بينهما... فعلاقة الأبوة وعلاقة البنوة من أعظم العلاقات بين البشر... ومن أقواها... ويعلم ذلك جيداً كل والد يفقد ولده... أو كل ولد يفقد والده... والوالد لا يقصد به هنا الأب وإنما يقصد به الأب والأم... فالله أقسم بالعلاقة... علاقة الأبوية لعظمها... وأقسم على أن الإنسان خُلق في هذه الحياة لتلذعه نيرانها بجمر الأتعاب والمكابدة... لقد كان قَسَمُ الله بالوالد والولد في غاية المناسبة لهذا الموضع...؛ لأن كبد الإنسان يبدأ من ولادته... فهو يبكي ويبكي بمجرد أن يولد... وكذلك تعب الأم... إنه أقصى ما يكون في حالة حملها وولادتها... فالكبد عام ولكنه أغلب ما يكون في حالة الولادة... خاصة للأم... ولكن ليس معنى ذلك أن الله خلق الإنسان في الدنيا ليذيقه ويلات الكبد والعناء... كلا... وإنما قد أعطاه في مقابل الكبد والعناء نعائم جمة... اسمع قوله تعالى... في الآية التالية: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾".

نظر داود ساعتها ليده المقطوعة وقال في نفسه:

- "وجعل لي يدين... ورجلين... ولكنه أخذ واحدة منها".

استمر حديث الشيخ العذب حتى ارتفعت الشمس قليلاً... ثم ختم حديثه وانصرف الناس عنه... سوى داود... لاحظ الشيخ مكان داود... وقام من مقامه واتجه إليه وعندما جلس بجواره ألقى السلام... أحس داود بحرج شديد لتواضع الشيخ... ولكن الشيخ ربت على ظهره... ومن هناك أقبلت ريحانة تلف حجابها وتسرع في خطاتها حتى جلست ثالث الثلاثة... قالت ريحانة:

- "كتب الله لك الثواب يا إمام... أنا ريحانة وهذا داود... إنه زوجي ولكنه كما ترى لا يطيعني... ولا يجيد الطبخ ولا غسل الثياب... وهو عندما يمسك الإبرة ليخيط ملابسه لا ينجح في ذلك... لقد أتعبني هذا الرجل كثيراً".

كان الشيخ رابح ينظر باستغراب لريحانة... ثم إلى داود الذي لزم جدار الصمت... وما لبث الشيخ أن انفجر بضحكة متواصلة... قال بعدها لداود:

- "هل هذه زوجتك؟".

قالت ريحانة في غضب مصطنع:

- "لا بل هو زوجي يا شيخ... لقد تزوجته غصباً عنه... لم يكن موافقاً في البداية على الزواج... إلا أن الشيخ دبشي أجبره عليه... لذلك فهو لا يطيعني".

ضحك الشيخ رابح ضحكة أخرى هي أطول من سابقتها... وضحكت ريحانة... وضحك داود وهو يقول:

- "صَدَقَتْ... صَدَقَتْ".

لم يكن لريحانة من هدف لأفعالها هذه إلا إن تفرض شخصيتها على الشيخ... إنها عازمة على الاستفادة منه... ولكن بطريقتها الخاصة.

وبعد ثرثرة في موضوعات كثيرة عاد داود وزوجته لمنزلهم... لقد كانت السعادة تعم كل حجرات القلوب كما كانت تعم كل حجرات الدار..

غادران

مرت ثلاثة أيام بكل هدوء... كانت تحمل الطابع نفسه لأعمال ريحانة وداود... وفي المساء من اليوم الرابع لم تسر الأمور على الوتيرة نفسها... فقد عاد داود من السوق بعد أن اشترى بعض الحاجيات... الوقت حينها قارب وقت صلاة العشاء... وكان داود يحمل معه بعض أرغفة الخبز وقليلاً من الجبن الأبيض... وشيئاً من السكر... والشاي الذي لا تعرفه ريحانة حتى الآن... وعندما كان داود يغذ السير عائداً للمنزل أحس أن ثمة من يراقبه... نظر للخلف ولكن شخصاً توارى خلف جدار بعيد... وعندما وصل داود لمنزله التفت خلفه فجأة... وابتلع ريقه... لأنه رأى الرجل نفسه.

دخل داود وأغلق الباب جيداً وتأكد من إغلاق النوافذ... ولم يخبر ريحانة بشيء مما أحس به... ولكنه لم ينم طيلة الليل... وبعد نوم ريحانة... ومع منتصف الليل... طلع داود على سطح المنزل عن طريق سلم صغير... وبدأ ينظر لمحيط البيت من أسفل... لم يكن ثمة أحد... إلا أن داود لم يكن مرتاحاً... لذا بقي في المراقبة... مر الوقت... ومع اقتراب الفجر كان هناك صوت في الخارج... عاد داود للمراقبة... رأى رجلين يدوران حول المنزل... ثم يقفان بهدوء بجوار الباب... التفتا يمنة ويسرة في حين أخفى داود رأسه بسرعة... وبدءا في إخراج حديدة طويلة من تحت ثياب أحدهما... ثم وضعاها في الباب.

بالتأكيد هما يريدان خلعه... لم يكن داود خائفاً على نفسه بقدر خوفه على ريحانة... قرر أن يعود إلى جوارها... ولكنه لم يلتفت للوراء إلا وريحانة بجواره تنظر وتراقب... وعندما رأت الرجلين قالت بصوت جهوري جريء أشبه بجرأتها أيام سيادتها على الوادي وهي تنظر إليهم:

- "أقسم أنكم ستكونون صيداً سهلاً لي".

نظر أحدهما للآخر ذعراً ثم قال:

- "أوه... إنها جنية الوادي... لم تمت حتى الآن".

مرت لحظات... وانصرفت ريحانة خلالها للداخل... ثم فتحت الباب الخارجي فلم تجد أحداً... قالت بغضب:

- "يا جبناء".

وبعدها دخلت... وحين وجدت داود أمامها... أمسكت بيده ثم اتجها للجلوس على مقعدين متجاورين... قال في أسف وهو يستعد للجلوس:

- "كان الأولى أن أحميك... ولكنني ضعيف... ستبقين سيدتي للأبد... كم أحسد نفسي عليك".

قالت ريحانة في هدوء تحسد عليه:

- "هؤلاء الأوغاد لا يريدون تركنا... هل هذا كله حسد يا ترى".

- "عند اليهود يجوز الحسد... وتجوز كل الضغائن والأحقاد... لمن لم يكن يهودياً... حتى الخمر... يجوز بيع الخمر على غير اليهودي... والآن هناك من ينادي من اليهود بنشر الرذائل بين الناس... ولأني أنا يهودي مسلم فأنا يهودي أحسد اليهود ولكنني لا أحسد المسلمين".

- "إيه يا داود... كم أنا خائفة عليك من هؤلاء... مثلك يجب أن لا يموت... يجب أن تبقى نبراساً للخير... الله يا داود ما أعظم ديناً يفعل بيهودي كل ما فعله الإسلام بك".

- "صدقت والله يا سيدتي... صدقت".

- "هل سيبقى الأوغاد يطاردوننا".

- "نعم حتى يقتلونني".

- "كلا لا تقل هذا الكلام... كيف أعيش دونك".

- "إذا قتلوني فإني شهيد إن شاء الله... ولكن عليك أن تعيشي... أنت يجب... يجب أن لا تموت امرأة مثلك".

- "لن يكون للحياة طعم من دونك... حتماً سيكون يومي قبل يومك... ولكن يجب أن نتدبر الأمر... إنهم غادرون... قد يتربصون بنا في أي مكان... أني أفكر دائماً في إبقاء السلاح معي... الجنبية مفيدة... ولكني لا أستطيع حملها في كل مكان".

حك داود رأسه بهدوء ثم نظر لريحانة وقال بصوت عميق:

- "ما رأيك يا ريحانة في الرحيل".

لم تجب ريحانة مباشرة... ولكنها ضمت شفتيها قليلاً ثم قالت:

- "الرحيل... الرحيل خيار صعب... ولكن لا حيلة لمن كانت الخيانة تطارده في رحلة طويلة... الموت يجبر الإنسان على أن يكافح من أجل الحياة... لقد وجدت في قلبي رغبة جامحة للبقاء هنا... في مدينة رسول الله... ولكن ماذا عساه يفعل من لا تقيل الدنيا لمقيله... ربما كان عليه أن يرحل".

- "تنهد داود بعمق... وأحس قلبه عميق معاناة ريحانة... لم ينس أبداً أنها ضحت بحياتها الهادئة في الوادي من أجله... والآن هي تضرب أكباد الطرق الطويلة من أجل أن يبقى سليماً معافى... أي تضحية قامت بها من أجل سعادته... طأطأ داود رأسه في عرفان... ودخل في نحيب مرير... لم يوقفه إلا يد ريحانة عندما جرت على خديه... رفع داود يده بهدوء... وأمسك يد ريحانة... ثم سحبها وضمها لصدره... إنها مشاعر الإخلاص ومشاعر الخوف من الفراق.

رفع داود يد ريحانة إلى فمه... وطبع قبلة صادقة هناك... كم سرت تلك القبلة في أعماقه برداً وسلاماً... كم ارتوت نفسه بعد أن رشف من يدها ما حسبه الدفء في الحياة الباردة... أو البارد في الحياة الحارقة.

رفع داود طرفه الذابل... وركز نظره في الوجه المستدير أمامه... لم يكن الوجه إلا قطعة من كوكب دري... أو مصباحاً في زجاجة... ارتجفت شفتا داود كما يرتجف قلبه الولهان... ولكن عينيه واصلتا طريقهما بين تقاسيم الوجه المضيء... إنها تنساب في كل خليه بيضاء نقية... نُسجت على وجه ريحانة القرمزي.

دخل داود في شبه سبات عميق وعيناه المنفرجتان تنتقل بين أهداب ريحانة بلحَظَات وئيدة... وكأنها تقف على كل شعرة من شعرات أهدابها... كتب داود بنظرته تلك... ملحمة في حب صادق... ثم ألقى بنظرة أخرى... قفزت من فوق أنفه الطويل... نحو أنف ريحانة الأشبه بأنف مهرة عربية... وَرَقٌ من الصفاء يتساقط أمام وجه ريحانة... ثم يميل الرجل الخاشع برأسه كي يلقيه في براءة طفولية بين ذراعي ملكة قلبه... وقال بكل لهفة:

– "ليس من العدل أن أتزوج ملكة الوادي... ليس من العدل... كم كنت سعيداً بموتي لو قُتلت في مملكتك العملاقة... بين جبال تيّة الشاهقة... ودَفَنْتِني بيديك... وحزنت علي قليلاً... كم سأكون حينها سعيداً بموتي... لو كان قبري بجوار بيتك الطيني هناك... تُطلين علي بالسلام في كل مرة... آه يا ريحانة كم جنيت عليك بتحمل أعباء ثقيلة".

رفعت ريحانة رأسه الثقيل... ثم ألقت بابتسامة صادقة... وانطلق من عينيها الواسعتين حنان جليل القدر... وهي تقول:

– "أنتَ مملكتي يا داود... أنت أرضي وسمائي وأنا... أنا خادمتك في الحياة".

انتفض داود في وجل... أحس أنها قد قالت كلمة رهيبة... لم يسمع هذه الكلمة منها من قبل... وهو يشعر أنه لا يليق بها أبداً أن تقولها... قال مستجدياً:

– "بل سيدتي وتاج رأسي... أنت ملكتي وسيدتي".

قالت ريحانة بشيء من الحزم:

– "إنه الرحيل... الرحيل هو الطريق... لا خيار".

نظر داود إلى ريحانة وقال:

– "إلى أين يا ريحانة".

– "لست أدري... علينا أن نتدبر الأمر".

عين الصواب

الهدوء يعم الحي الصغير... لقد بدا أن داود يشعر بعدم الأمان... والجلبة تحيط ببيت الشيخ رابح... هناك داخلون وخارجون... ومع خروج داود وزوجته من منزلهما بدت الحياة آمنة... إلى الآن لم يتعرضا لمكروه... ولكن ماذا عساه يخبئ لهم المستقبل... مر داود وزوجته من جوار بيت الشيخ رابح... وقفوا فجأة... لقد

أدهشهم ما رأوا... ولكن أذان المغرب ارتفع على إحدى مآذن المسجد... أسرع داود وزوجته السير... قريباً ستقام الصلاة... ليس لهم من إدراك الصلاة في المسجد بد... إنها أنوار وسكينة... حري بمن عرفها أن لا يحرم نفسه منها.

وصل الزوجان للمسجد... وأقاما الصلاة مع عباد الله... وذهب داود للجهة التي يجلس فيها الشيخ رابح... كان الشيخ جالساً يدعو قد استقبل القبلة... انتظر داود قليلاً حتى فرغ الشيخ... ثم سلم عليه... رد الشيخ على سلام داود... ثم أمسك بيده قائلاً:

- "هل أنت ذاهب لبيتك الآن؟".

- "نعم يا شيخ".

- "إذن سنذهب سوياً".

- "هل أنت على عجل من أمرك يا شيخ رابح؟".

- "نعم... فأنا على باب سفر... سفر إلى المسجد الأقصى... مسرى رسول الله... كم يهفو قلبي لذلك المكان الطاهر".

جالت في خلجات داود مشاعر كثيرة... لماذا لم يفكر في ذلك من قبل.

- "الله... المسجد الأقصى".

قال الشيخ رابح:

- "ماذا بك يا داود".

- "لقد لاحظت الجلبة والعمل بجوار منزلك".

- "إنهم أبنائي... يجهزون للرحيل... لا بد وأنهم تركوا العمل عند سماعهم للأذان... وجاؤوا للصلاة في المسجد... أسأل الله لهم الصلاح".

سار داود مع الشيخ قليلاً... ولكنه تذكر شيئاً تركه في المسجد... إنها ريحانة... كيف نسيها.

- "يا ويلي ...".

لذا اعتذر داود من الشيخ قائلاً:

- "سألحق بك".

وبعد لحظات كان داود وريحانة يخرجان من المسجد... لقد كان رأس داود يحمل القرار الأخير... قال لها.

- "لقد عرفنا أين ستكون الوجهة".

- "وجهة ماذا".

- "رحيلنا يا ريحانة... لا أدري لماذا لم أفكر في ذلك من قبل... هل تعلمين أن الشيخ رابح سيزور المسجد الأقصى؟".

- "لا".

- "وهل تعلمين أننا سنكون في أصحابه... في رحلته تلك".

صمتت ريحانة... ثم قالت في تأمل:

- "المسجد الأقصى... مسرى الرسول ﷺ".

- "إلى الأقصى... سنذهب مع الحجاج العائدين إلى الآستانة... قوافلهم كثيرة... ولن نعدم الحيلة... ولازال من نقودنا الكثير".

- "إنه عين الصواب... ولكن الأمر سيبقى طي الكتمان... أليس كذلك يا داود".

- "في طي الكتمان".

إلى الشام

لم يطل الوقت حتى كان أمر الرحيل للشام رهن التنفيذ... وانتظم داود وريحانة في قافلة الشام... الجمال والخيول والحمير تصدر أصواتاً تعم المكان...

والعرب ذوو العمائم البيضاء والقمصان الصفراء يتجولون في أسواق المدينة... نظراتهم الثاقبة تدل على معاناة حياتهم في بطن صحرائهم الممتدة... أو في أعالي جبالهم الوعرة... إنهم هنا كي يبيعوا للحجاج القادمين للمدينة كل ما يحتاجون إليه... لمواصلة رحيلهم نحو ديارهم... تلك الوجوه الغبراء الطويلة التي يحملها أصحابها وهم يتتبعون بنظراتهم ملامح الحجيج... إنهم يبحثون عمن هو قادر على الدفع... وتبدو على ظهور إبلهم أكياس من تمر أو إقط... أو زبيب أو سويق... هذا هو سوق الحجاج.

وهناك يسير رجل له يد واحدة... يبحث عن شيء ما... وعلى ملامحه هدوء أخاذ... إنه داود... لم يطل الوقت... لقد استطاع اليهودي القديم أن يتمم عمليات المبايعة بنجاح... خبراته في البيع تفيده هنا... وها هو الآن يسحب جملين وعلى ظهر أحدهما أكياس من الزبيب والتمر.

ومع فجر اليوم التالي انطلقت القافلة المتجهة جهة مسرى رسول الله... إلى المسجد الأقصى.

شهر وعشرة أيام... ليست قصيرة تلك الأيام... على القافلة المتراقصة مع رمال الصحراء... أو بين مزارع الليمون والعنب... ولكن لا شيء يتحدى الزمن... ها هي القافلة الآن... تصل إلى دمشق.

هكذا قررت القافلة أن تسير... الرحلة لا زالت مستمرة إلى الأستانة... وبعض من الحجاج يحطون رحالهم في دمشق... ومن عزم على الذهاب للأقصى فالطريق آمن.

نزل داود عن جمله... برودٌ رهيب دب في أطرافه... لقد اغرورقت عيناه بالدمع وهو يجيل نظره من جديد في هذه الأرض... إنها دمشق... وطن مولده... كم بدت الحياة طويلة... لقد عاد إليها بوجه آخر.

وتلك هي الوجوه... والهواء والمساكن... لم يتغير شيء... وتلك الأزقة التي يحييها الأطفال بلعبهم... والفتيات الملفعات بخُمُرهن... وهن يحملن قرب الماء... أو ينادين الزبائن لشراء البيض أو زيت الزيتون... والطرابيش... والشوارب المفتولة... وضجيج ساحر... يعيد داود إلى الأعوام الماضية.

لم يتغير شيء... سوى قلب داود بين جنبيه... طأطأ داود رأسه وهو يجيل في ذاكرته شريطاً طويلاً من الأحداث... لم يعد داود يهودياً... وإنما هو من المسلمين... من كان يصدق... اقتربت ريحانة ودهشتها تغمرها... ثم قالت:

- "يا داود... ما أجمل دمشق".

قال داود بتأثر:

- "ما أجمل الإسلام... أنا الآن أدخل دمشق مسلماً... وقد تركتها يهودياً".

ابتسمت ريحانة وهي تهز رأسها... ثم قالت:

- "أين سنتجه الآن؟".

فكر داود قليلاً... بالطبع لن يتجه إلى منزله... لأن منزله في حي اليهود.

- "ليس لدينا خيار... سنبقى في دمشق وقتاً... وبعدها سنرافق قافلة توصلنا للقدس".

استأجر داود نزلاً قريباً... إنه ملحق صغير فوق سطح إحدى المباني... وهو يتكون من غرفتين... لا يوجد حمام ولا مطبخ... وعلى السطح يوجد فرن صغير... يمكن إشعال النار بداخله... ومرحاض حديدي صغير يفرغ يدوياً في الخارج بعد امتلائه... الغرفة تحوي قطعة من السجاد وسريراً وجرة صغيرة لتبريد الماء... وأواني قديمة.

سعدت ريحانة بهذه الحياة الجديدة... وبدأت في تكنيس المنزل وشطفه... إنها كما يبدو على استعداد لتعيش بنجاح في أي مكان... خاصة بعد شعورها بالمكسب

الكبير الذي استطاعت تحصيله... إنه هذا الزوج المخلص الذي يحبها من كل قلبه... إنها كلما تذكرت نجاحها في هداية هذا اليهودي المتعصب... وقارنته مع نجاحاتها السابقة الصعبة... داخل الوادي... تشعر أن تغيير الإنسان أصعب بكثير من تغيير البيئة... ولكن مع كل ذلك... فقد نجحت الفتاة في كلا التغييرين... وعليها الآن أن تنجح في صناعة حياتها الجديدة... بالإعجاز ذاته الذي صنعت به حياتها السابقة..

فيلسوفان

بدأت عقارب الزمن تمتطي ذاتها... والهدوء المشوب بالحذر يعم منزل داود الجديد... وفي الصباح يخرج داود ليحظر الخبز والفول... أما ريحانة فإنها تعد الشاي... وعند الغداء تطبخ ريحانة أصنافاً من الخضار لم تعرفها من قبل... الكوسة... الفاصوليا... وهي أيضاً تقلي البطاطس والباذنجان... ريحانة لم تعد نمرة بقدر ما هي ربة منزل صالحة.

وفي مساء تلك الليلة الجميلة كان داود قد وضع يده في يد ريحانة... إنهما يسيران الهوينا ويشتمان رائحة الزهور التي تفوح من زهور بساتين الغوطة... بجوار امتداد صغير لنهر بردى... المياه تعزف لحناً جميلاً تطرب على تقاطيعه دقات قلب ريحانة... الفتاة البرِّية... ولا تلبث الفتاة حتى تحمل حجرة صغيرة... ثم تلقي بها في الماء... قال داود.

- "عما قليل... ستذوقين اللحم المشوي... من أيدي أمهر الشوائين... هناك لحم العجل... ولحم الضأن... وأيضاً لحم الديك الرومي".

- "وأنا عليَّ أن أختار فقط... أليس كذلك".

- "بالتأكيد".

- "هذا جيد".

وبجوار الشاطئ الهادي رأت ريحانة حجرتين متجاورتين... نظرت لداود ثم قالت:

"هنا مكان جيد للجلوس".

- "كما تشائين".

جلست ريحانة... لقد ربعت قدميها... ثم نظرت لداود وقالت:

- "المال يا داود يكاد ينفد... علينا أن نتدبر الأمر... وعلينا أن نجد مصدراً جديداً للرزق".

ابتسم داود... ونظر إلى يده المقطوعة... وقال:

- "وماذا يصنع رجل قطعت زوجته يده".

- "كنت حينها طبيبة بارعة... هل توافق".

- "آه يا ريحانة... لو تعلمت في الجامعات المعاصرة... ماذا كنت ستصبحين".

- "كما ترى... خياطة!!...".

- "لقد صنعت كل شيء... كل شيء في حياتي... ليس لحياتي طعم دونك... ولكن أشعر أنك كثيرة علي".

- "أوه... هذا جيد... هل تريدني مثلاً أن أعدد في الرجال ... وأتزوج أربعة رجال هـ... هـ...".

- "تصدقين... يكفيني أن أكون خادماً لك... لا زوجاً".

- "أنت يا داود متواضع... الله يجزي المتواضعين خير الجزاء... في الدنيا والآخرة... وللحقيقة إنك أنت من يخدمني... بكل ما تملك... لم تقصر ذات يوم... ولكن المال يقصر".

- "لو لم أكن يهودياً أصيلاً لما جمعت كل ذلك المال... نحن الآن نعيش منه... بفضل الله".

فكر داود قليلاً ثم قال:

- "هل هو حلال يا ريحانة".

- "لقد تصدقنا بالكثير... ها هو المال يقارب على الانتهاء... لأننا نهلكه في الصدقة... وفي عمل الخير... ولكن علينا أن نعمل".

- " ما رأيك يا ريحانة... ما رأيك يا ريحانة... لالا لست واثقاً من موافقتك".

- "موافقتي... هل ستتزوج علي... أنا لا أوافق".

- "ما هذا يا سيدتي... هل أنا مجنون كي أتزوج عليك... ثم تتحولين بعدها إلى نمرة... لست مجنوناً بما فيه الكفاية... ولكن ما رأيك في أن تدرسي... تدرسي في الجامعة".

- "هـ... هـ... الزواج إذن أهون...".

- "أنا لا أمزح يا سيدتي".

- "لم أفهم... أي جامعة... أنا الآن بالكاد أجيد القراءة والكتابة".

- "هل ستقبلين السفر إلى ألمانيا... ألمانيا والخلافة العثمانية أشبه بإصبعين في يد... هناك ستدخلين جامعة عريقة... حتماً يا سيدتي سيكون لك شأن كبير... اسمحي لي أن أراك علماً على الدنيا كما يجب لك أن تكوني".

- "داود... هل أنت تهذي... بل سنبقى هنا بين المسلمين... يكفيني أن حفظت القرآن... وشيئاً من علوم الدين".

- "هذا يعني أنك سعيدة هنا... ألم تشتاقي للوادي... وللحيوانات... ولمنزلك القديم".

- "هيه يا داود... الإنسان سيعيش على أي أرض... المهم أن يقرر هو أن يعيش... وأن يبحث عن شيء يشغل به نفسه... يبحث عن أي عمل شريف... الأرض لا تعني للإنسان شيئاً إذا كان وطنه في قلبه".

- "هل يعني هذا أن السفر إلى ألمانيا ليس بالأمر المستحيل... قولي لي يا ريحانة".

- "هـ... هـ... في الحقيقة... لست أدري... ولكن إذا عشنا بأمان هنا فلا داعي لسفر".

- "أرجو من الله أن لا يكشفنا اليهود".

- "قل لي يا داود... أنا أريد أن أسألك سؤالاً يرن في رأسي منذ مدة... ما هي الصهيونية؟".

- "ألم أقل لك من قبل... إنها منظمة سرية أنشأها هرتزل اليهودي... لكي يجعل اليهود قادرين على السيطرة على العالم".

- "أوه... اليهود... إنهم يريدون قتلك... وهل أنت خطير إلى هذا الحد... لماذا يريدون قتلك؟".

- "أنا لست خطيراً... حتماً سأكون خطيراً لو استطعت جلب الأحجار الثمينة... أو المعادن المشعة... ولكني جلست معهم في اجتماعاتهم... وأديت القسم... وعرفت الكثير من أسرارهم".

- "من أسرارهم ؟ مثل ماذا يا داود".

- "إنهم يريدون إقامة دولة يهودية على أرض فلسطين... إنهم في البداية سيشترون أراض ومزارع من أهل القدس... وسيحرصون على أن تكون مزارعهم وأراضيهم متقاربة ومتجاورة... وبعد أن تكون لهم الأرض سيبدؤون في امتلاك الأسلحة والانطلاق من هذه الأرض... إنهم يطمعون في دولة عظمى لليهود... ستكون من النيل للفرات... وبعدها سيدمرون العالم".

- "ماذا... يدمرون العالم... لن يسمح لهم العرب يا داود".

- "كلا يا سيدتي... العرب سيسمحون... ولكن الأتراك لن يسمحوا لهم... لقد رفض عبد الحميد عروضاً مغرية ثمناً لقطعة أرض من القدس... آه يا ريحانة... أعتقد أن المشروع الصهيوني سينجح... كم أتقزز كلما تذكرت أني كنت يهودياً... رتلٌ مجتمع من الأحقاد... إنهم ذئاب".

- "غريب كلامك... غريب... كيف سيسمح لهم العرب؟!".

- "عفواً يا سيدتي... أقصد بعض المتسلطين من العرب... هناك مصالح وأمور تدور في الخفاء... لقد شعر العرب ببعض ظلم الدولة التركية... لذا حقدوا عليها... وكثير منهم يسعى الآن لعمل ثورات داخل الخلافة... واليهود استغلوا هذا الأمر... إنهم ينفخون في النار".

- "هذا مستحيل".

- "ألم أقل لك يا ريحانة... هناك أشياء كثيرة يجب أن يقوم بها العرب... إنهم يجهلون الكثير مما حولهم... هم في الحقيقة غير قادرين على تحديد عدوهم وصديقهم... ولكن الأمور على كل حال سائرة إلى الأسوأ".

وضعت ريحانة يدها تحت ذقنها ودخلت في تفكير عميق... ثم فاجأها داود بقوله:

- "بم تفكرين يا حبيبتي".

رفعت ريحانة رأسها نحوه في هدوء... وعندما ركزت نظراتها في وجهه قالت وهي تهز رأسها:

- "لقد سمعنا الشيخ رابح يقول كلاماً غريباً... وإن أخذنا بكلامه... ربما... لم يكن هنالك مشكلة... ولكن... لي نظرة أخرى في الموضوع... ربما كانت لا تختلف كثيراً".

- "كنت أعرف ذلك... أنت كنت تدعين الجهل... فقط لتعرفي رأيي".

- "لا تقل ذلك يا داود... كلنا أطفال في محراب الحقيقة".

- "هل هناك حل يا ترى لمشكلتنا".

– "لا توجد مشكلة دون حل... ولكن المهم... كيف يمكن أن نثق في أنفسنا... ونكون مخلصين في البحث عن الحل".

ابتسم داود وقال:

– "أنت تتوقعين وجود حل... بالطبع لأنك قادرة على التفكير... ولكن الذين يفكرون فيما حولهم قلة قليلة... وهم في الغالب لا يصلون لسدة الأمور... ولا للحكم... الذين يصلون للحكم هم أولئك الذين لا يفكرون... ولكنهم يغتنمون الفرص ويبحثون عن مصالح قريبة لهم... حتى ولو دهوروا مستقبل الملايين ... من أجل صلاح حاضرهم القريب... صدقيني يا حبيبتي... الذين يفكرون ويطيلون التفكير لا يتقدمون في الغالب... لأنهم يدركون عواقب بعيدة ويخشون منها... أما المتسلطون فهم دائماً يتقدمون؛ لأن نظرتهم المستقبلية لا تعدو حدود حواجبهم".

– "أوه... ما هذا يا رجل... صرت فيلسوفاً يا داود... من أين لك كل هذا".

– "أوه يا حبيبتي... ألم أقل لك... هذا في الحقيقة هو كلام الشيخ رابح... ولكنني... ولكني مع ذلك أستطيع أن أفكر... الآن... وربما كنت في الغد القريب فيلسوفاً".

– "نحن يا داود لسنا في حاجة للتفكير بقدر حاجتنا لما هو أهم منه".

– "أهم من التفكير".

– "نعم... العلم... العلم والمعرفة... أنا لا أقول إن العلم أهم من التفكير، ولكنه حتماً خطوة أولى قبل التفكير... نحن العرب ينقصنا العلم... وتنقصنا المعرفة... وربما ينقصنا التفكير... أنا لا أوافق القول القائل بأننا غير قادرين على التفكير... نحن قادرون على التفكير... ولكن تفكيرنا مغلوط... لأن معلوماتنا عن الأمور التي نفكر فيها مغلوطة... التفكير لا يوصل للحقائق إذا لم يبن على الحقائق".

هز داود رأسه في دهشة وقال:

– "نعم أنت على حق يا سيدتي".

ثم أردف:

- "أنت يا ريحانة لم تتعلمي العلوم العصرية".

"هل هي عصرية بالفعل... أم أن هناك مخزوناً كبيراً من المعارف تراكمت على مدار تجربة الإنسان ثم جمعها إنسان هذا العصر... وعندما تمكن من ترتيبها تمكن من الاستفادة منها".

- "بالطبع هو ما تقولين يا ريحانة".

- "والعلوم الإسلامية... أليست حافظة أمينة للعلوم؟!".

- "كأنك تريدين أن تقولي إن الإسلام كاف عن هذه المعارف".

- "كلا لم أقل ذلك... أنا فقط أتساءل".

- "ربما كان هذا الأمر في حاجة لأن نطرحه على عالم من علماء الشرع".

الفصل الرابع عشر

صفحة قديمة

داود يرمي بقدميه أمامه... ثم يتكئ بهدوء... عقله منهمك ونظراته لما حوله ساهية... إنه يفكر في شيء ولا يريد أن يفكر فيه.

عائلة العم شمعون... العائلة اليهودية الدمشقية الأصيلة... وتلك المزرعة المفعمة بالهدوء والسكينة... والمنزل الحجري الصغير الذي تحيطه أشجار الليمون والتين من كل جهة... والفتاة العذراء هدية... ذات الملامح الصافية... والست أم هدية التي انتقلت للدار الآخرة في ذلك اليوم الحزين... وملامح جميلة في البيت اليهودي المحافظ.

الحنين إلى الماضي أقوى بكثير من أن يستطيع الإنسان مقاومته... داود يسير في طريقه الطويل ويدحرج حبات مسبحته بين أصابعه... ثم يمسح لحيته الطويلة بيده الوحيدة ويقول:

- "ترى ماذا حصل لكم يا عم شمعون... وترى ماذا ستفعل لو علمت ماذا حصل لي".

وقف داود فجأة وقال بحزم:

- "سوف أخبر ريحانة بكل شيء... وسوف آخذ رأيها في زيارة شمعون".

ثم قام من مجلسه بجوار شجرة تفاح قديمة... واتجه نحو منزله.

هجوم الأفكار

وعلى مائدة العشاء المتواضعة... يلقي داود بحبات الزيتون داخل جوفه... ثم يندّي الخبز في صحن زيت الزيتون... ثم يمسحها في وريقات الزعتر الخضراء الناشفة المدقوقة... أفكار كثيرة تدور في خلجاته... ولكنه يشعر بالخوف من ريحانة... لا يدري أي خوف كان يشعر به... ولكنه يشعر بالإثم لأنه تذكر أيامه الخوالي... أيام سوداء... كان يعيشها كلما ذهب مع رفاقه بعد منتصف الليل... كم هو جميل هذا الإسلام.

خطر في ذهن داود ذلك الدهليز الطويل... بجوار سوق التبغ في حي اليهود... والروائح المنتنة... والشباب والفتيات وهم يتوافدون في خلسة... وتلك الشموع الشاحبة وهي تخترق ظلام الدهليز... والمسامير المثبتة على الجدار المتسخ والتي سرعان ما تعلق عليها الملابس... وضحكات فاسقة يضج بها المكان... وطرق (مجران)... صاحب الكوز الخمري المعتق ... عندما كان يطرق الباب المتهالك... وتلك الفناجين الصغيرة التي يديرها على الجميع ليأخذ أجرته مضاعفة... والمهاترات التي تحصل بسبب الدفع.

توقف داود عن الأكل وطأطأ رأسه... رائحة التبغ... لقد شعر أنها تدخل في أنفه... ريحانة بجواره تتحدث في أشياء كثيرة... ولكن عقله يتآكل... إنه في واد بعيد عن هذه المائدة... أدركت ريحانة أن داود يفكر... ولكنها ابتسمت ولم تشأ أن تقطع عليه حبل أفكاره... لذا بدأت في جمع أطباق العشاء وذهبت للمطبخ.

رنين الضحكات يرتفع في ذهن داود... وصورة الفناجين القذرة ترتسم بوضوح... وصراخ الفتيات يرتفع... والمجون والدعارة.

- "أنت الليلة معي... وأنت لتذهب مع هدية".

هذا هو كل ما في الأمر... إنه أشبه بكابوس رهيب... ولكن... تلك هي صورة العم شمعون... إنها ناصعة كالثلج... وهو يدخل مع الباب... ويضع يده على عينيه ثم يصرخ:

- "ما هذا بحق السماء... عليكم لعنة الله يا أبالسة... يا كفرة".

وذلك الهدوء الذي استوعب كلمات العم شمعون... وبدا وكأنه يعيد ترديدها... والوجوه المستديرة التي بدت شاحبة وهي شاخصة في وجه شمعون القوي... وسرعان ما قام العراة في ذلك المكان الكئيب... باحثين عن ثيابهم المعلقة:

- "وأنتِ... أنت يا بنتي يا هدية... لماذا تلطخين سمعة والدك... شيخ جاوز الستين... عليك اللعنة... أنت فاجرة لا تستحقين إلا الموت".

وهدية... التفاحة اليانعة... وهي تنفجر بالبكاء... وتقول:

- "والله لم يمسسني منهم أحد... والله لم يمسسني أحد".

- "أنتم عبء على الله... وعلى دين الله... آه... ليت أولادنا مثل أولاد المسلمين... ليت أولادنا مثل أولاد المسلمين".

وينصرف العم شمعون وهو يطيل الترديد:

- "ليت أولادنا مثل المسلمين".

ويخبو الصوت حتى ينقطع... وتصرخ هدية ثم تلبس ملابسها... وتلحق بوالدها...

داود يعيد ذكرياته القاتمة... ثم لا يلبث أن يخرج ذهنه لنافذة صغيرة من نور... سرعان ما تلتهب لتصبح كالشمس... تضيء ما حولها... الحاخام هيلا الهيلي... بابتسامته الساحرة...التي يلقيها لكل الناس في حي اليهود... إنه الأب الروحي القادر على إقناعهم بالطمأنينة تجاه ما حولهم... لم يكن هيلا عربياً أو شرقياً ولكنه أصبح أقرب للعرب منه لبني جنسه الأيرلنديين... إنه مستشرق حل بلاد العرب منذ كان عمره ٢٥ عاماً... كان مبتعثاً لإعداد أبحاث عن الموارد البشرية

في بلاد الرافدين... لقد سار على قدميه أياماً طويلة وهو ينتقل من مدينة لمدينة... عمره الآن يقارب السبعين عاماً... كل شيء من صفاته يدعو لحبه والتعلق به... إلا شيئاً واحداً... إنه غموضه وإخفاؤه لشيء ما بداخل نفسه... لا أحد يشك في أنه يحب مساعدة الناس... ولكن ما هو هدفه ومصلحته.

وشيء آخر تطفح به ذكرة داود المكدودة... لا يمكن أن ينسى أبداً... ذلك الموقف الرهيب... عندما جاءه (سنوم) الغلام النشيط الذي يعمل في مزرعة العم شمعون... لقد طرق باب المنزل على داود بعنف... شيء مزعج... وعندما فتح داود... رأى وجهاً كالحاً يوحي بالشؤم.

- "ماذا تريد يا وجه النحس".

- "هل أنت داود الخبيث؟".

- "أنت الخبيث ومن بعثك؟... وماذا تريد؟".

- "سوف تنال عقابك كاملاً من العم شمعون... لعلاقاتك الوضيعة مع ابنته".

- "وما دخلك أنت... ثم أنا حر في علاقتي".

- "العم شمعون أرسلني... يقول إن عليك أن تحضر الليلة لمنزله... إنه يريد أن يصفي حساباته معك".

رجع داود ساعتها الهوينا إلى الخلف... بعد أن ألقى بالباب للأمام في وجه سنوم... ومكث يفكر... ومع انكفاء الظلام على الدنيا كان داود يمشي بخطوات متسارعة جهة الحاخام هيلا الهيلي... طرق عليه باب منزله المتواضع... وعندما دخل للداخل كان يشعر بكل أصناف القلق... ابتسم هيلا في وجهه ابتسامة هادئة كانت كفيله بإطفاء كل آلامه، وأجلسه على أحد المقاعد الخيزرانية... ثم دخل للمطبخ وأحضر صحن الفستق الحلبي الملبس... هيلا يعيش لوحده هنا... ومكتبته مذهلة تحوي مئات الكتب.

- "ماذا بك يا بني... هل أستطيع مساعدتك؟".

- "أوه يا عمي... أنا في ورطة... العم شمعون".

- "صاحب المزرعة".

- "نعم إنه هو".

- "هل... هل أصابه مكروه".

- "كنت أتمنى ذلك".

- "أنت أغضبته إذن؟".

- "إنه غاضب مني".

- "حذار يا بني... إياك أن تغضبه... إنه رجل صالح... عليك أن تعتذر منه".

- "ولكن المشكلة أكبر من الاعتذار".

- "ماذا عساها تكون المشكلة".

- "إنها...".

طأطأ داود رأسه... في حين قال هيلا في حيرة:

- "لا تقل ذلك... هل هو... من أجل...".

- "نعم هو كذلك".

أعاد هيلا ظهره للخلف قليلاً... وانكمشت ابتسامته أشبه بزهرة الصبار الظامئة، ثم قال بصوت متقطع:

- "نادي العراة من جديد... كم تطاردني هذه الفرقة الخبيثة... يا للهول... كم هو قبيح أن ينحرف أبناء اليهود إلى أسفل درك".

رفع هيلا رأسه نحو السماء ثم صوب نظراً خاشعاً وهو يقول:

- "يا رب... ماذا أقول... لا أقول إلا كما يقول المسلمون (لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا).

تدحرجت دمعة من عين هيلا... وقام في هدوء وصمت... وغاب قليلاً... ثم جاء وهو يحمل كتاباً قديماً له لون عودي داكن... كان يحمله باحترام... كان في اهتمام شديد... وتبدو عزيمته قوية... وعيناه تلمعان بالثقة... جلس مقابلاً لداود... ثم اقترب برأسه منه وهو يقول:

- "لن أقسو عليكم أبداً... أنتم تماماً كأولادي... يكفيكم أن الرب يغضب على كل من يمارس الحرام... ولكنكم في الحقيقة زبانية الشيطان".

تلكأ داود قليلاً ثم قال:

- "ما هذا الكتاب الذي معك يا عم".

- "إنك تعرفه جيداً... إيه يا بني... كم هي حماقة بالغة أن أحضره إليك... ولكني مضطر لذلك".

أحس داود بسكينه وبثقة... ثم قال:

- "أهو العهد الأول".

- "كلا إنه العهد الأخير".

قال داود باستغراب:

- "كتاب النصارى".

- "بل... إنه كتاب المسلمين... إنه (القرآن)... بالطبع لن أقول (القرآن الكريم) ولكن انظر".

فتح هيلا بعض صفحات القرآن وقال في أثناء ذلك:

- "إيه... حـقـاً... إنه كـريم رغم أنفي... ورغم أنفك... هذا الأنف الطويل المعقوف".

تنهد هيلا بشهيق عميق... في حين صمت داود حائراً... ثم أعاد هيلا النظر لوجه داود... كي يكمل وهو ينظر للمصحف... ثم يقرأ:

- **﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٣٥﴾ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴿٣٦﴾ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾**.

رفع هيلا رأسه بهدوء وركز نظراته جهة داود وهو يردد:

- "فتلقى في جهنم... ملوماً... مدحوراً... فتلقى في جهنم... ملوماً... مدحوراً".

قال داود بكل دهشة:

- "هل أصبحت من المسلمين يا عم هيلا".

ابتسم هيلا بسمة خفيفة وقال:

- "كلا يا داود... ولكن ربما سأكون كذلك لو فكرت بطريقة أكثر عمقاً... عندما أخلو بنفسي في بعض الأحايين أفكر... ثم أجد أن التفكير لا يمكن أن يقودني في النهاية إلا لأن أكون... مسلماً... قل لي: ما رأيك في الكلام الذي سمعته للتو؟".

- "يجب ألا تسلم يا سيدي... نحن نحبك".

– "أوه يا داود... أنا لم أسلم... ولكنكم كفرتم يا معاشر العراة".

أحس داود بشيء من الوجل... وبدأ الخجل يصبغ وجهه بالصباغ الأحمر... أردف هيلا:

– "اطمئن... وثق... أنا لست مسلماً... أعرف ماذا يعني لكم أن يترك الحاخام دينه... ولكني دائماً أحب أن أحكِّم عقلي في الأشياء... وأريد أن تحكم أنت بعقلك... في الآيات التي قرأتها عليك للتو".

– "سيدي... أرجوك... دعني وشأني... لم آت إليك لأهدم يقيني... أنا مؤمن بديني... ولن أومن بهذه الآيات... لقد جئت لك كي تحل مشكلتي".

– "عليك اللعنة... يا لك من بليد أحمق... قم هيا".

أغلق هيلا مصحفه... ثم قام من مقامه... وأدخل المصحف بداخل معطفه الصوفي الأسود من الداخل... ثم أردف:

– "هيا بنا".

– "إلى أين ؟".

– "إلى العم شمعون... لقد أسأتم في حق أمتكم... ها هي خلايا العراة تنتشر هنا في كل زاوية... كم هي قاسية تلك اللطمة التي طبعتموها على وجنة شمعون... والد هدية المسكين... إنه يهودي محافظ... ولكن لن أقول ثانية (عليكم اللعنة) ولكن سأقول كما يقول المسلمون (أسأل الله أن يهديكم)".

قام داود وهو يشعر أن شيئاً من الثقة قد بدأت تعود إلى نفسه... وسار مع العم هيلا الهيلي... وانطوى الطريق في تلك الليلة المقمرة إلى مزرعة شمعون..

أعوذ بالله من الشيطان

لم يطل غياب داود في أعماق تاريخه الحافل بأشياء كثيرة... لقد أقبلت من هناك ريحانة كانت تترنم بيت شعر يقول:

- "ثوب النفاق يشف عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عارٍ".

انتبه داود... نظر نظرات متسارعة لما حوله... انعكس بصره على وجه ريحانة المضيء... تداخلت الأفكار ببعضها... صرخ داود وهو يقف في ذعر:

- "زوجتي الطاهرة... سيدتي".

رفع داود يده في شيء أشبه بالجنون... ثم تقدم نحو ريحانة... وسرعان ما التهمها بين ذراعه وعضده... وبدأ يبكي بكاء مراً... ويمسح دموع عينيه على صدرها الرحب... استغربت ريحانة قليلاً... ولكنها معتادة هذه الأيام على تقبل كل غريب... لذا ابتسمت وربتت على ظهره وهي تقول:

- "لا عليك... لن يصيبك إلا ما كتب الله لك".

سرى صوتها الحنون في خلجات داود برداً وسلاماً... وهدأت نفسه... ثم انفلت من بين ذراعيها... ونظر إليها وهو يقول:

- "أوه الموت... أنا لا أخاف الموت يا ملكتي... ولكني أخاف الكفر... الكفر... لقد تذكرت الوحل عندما سبحت فيه أعواماً مديدة... وها أنا ذا أشرب من نهر رقراق... أخشى يا ريحانة أن أعود للماء الآسن... لا أدري... كثيرة هي الأشياء هنا... تذكرني بداود اليهودي".

سحبت ريحانة داود وسارت قليلاً حتى أجلسته... ثم انصرفت وأحضرت الماء بسرعة... وقربته من فمه حتى شرب... قالت في أثناء ذلك:

"كن واثقاً بربك... لقد اختارك الله لتحمل الخير للناس... أنت مسلم... مسلم يا داود... استعذ بالله من الشيطان... ومن وساوسه".

ردد داود وصية زوجته... واستعاذ من الشيطان.

العلم

في صباح اليوم التالي كان داود أكثر استقراراً... خاصة بعد أن صلى صلاة الفجر في المسجد المجاور وعاد إلى منزله... أوه رائحة البيض المقلي والقهوة العربية الخضراء.

تنفس داود بملء رئته... عليه أن يكون واثقاً بربه... وبعد أن جلس أقبلت ريحانة وهي تحمل الصحن الذي يحوي الفطور... لقد كانت تلك الابتسامة التي ارتسمت على وجه ريحانة كافية لبث الثقة داخل كيان داود... بأن هذا النهار نهار جميل... بدأت اللقم تجد طريقها سالكاً إلى المعدة التي يعلقها داود في أعلى بطنه... وكذلك إلى معدة ريحانة... (بسم الله الرحمن الرحيم... في أوله وآخره) قال داود:

- "ريحانة".

- " نعم يا حبيبي".

- "هل فكرت بجد... في المستقبل الذي ينتظرك؟".

- "لا أفهم ما تقصد".

- "أنا خائف على هذه المنطقة... الأمة العربية... لو تعلمين مدى ما يكنه الأوربيون لها من العداء لما غمضت لك عين".

- "هل هو عداء... أم طمع في مقدراتنا؟".

- "هو طمع في مقدراتنا وفي مقدساتنا... نحن شيء وهم شيء آخر... ثقافتنا تناقض ثقافتهم... النقيضان لا يجتمعان".

- "أنا أدرك تماماً ما تريد قوله... ولكن".

- "أنت قلتيها من قبل يا حبيبتي... ينقصنا العلم والمعرفة".

"نعم".

- "أنا واثق من أنك قادرة على التعلم... لقد تعلمت الكثير من أمور الدين... وما أقصده هو أن تتعلمي علوم العصر".

- "أوه يا داود... وهل ستكون ريحانة ذات يوم خليفة للمسلمين؟!".

- "حقاً... آه يا ريحانة... وددت لو أنني كنت امرأة وأنت كنت رجلاً".

انفجرت ريحانة بضحكة مدوية... لم يدرك كنهها داود... ولكنها قالت:

- "إذن لم أكن لأتزوجك أبداً هـ... هـ...".

أدرك داود أخيراً ذلك المبرر وراء هذه الضحكة... إنها على حق... ولكنها أردفت:

- "كنت فقط أمزح... أنت يا داود جاد في كلامك... ولكن ماذا عساها تفعل... امرأة مثلي؟!".

- "أنت امرأة نادرة... كلما تذكرت مملكتك في الوادي... وتلك الوحوش التي روضتيها... أجزم أنك عبقرية".

- "يكفي... لن أغتر كثيراً بمديحك... ولكنني أشعر من داخلي بأن هناك حلاً لجميع مشاكلنا... فقط لو أردنا حلها".

- "ماذا تقصدين؟".

- "أقصد العلم... العلم يا داود... إنه الطريق... لن يتاح لأحد موضع قدم في هذا الزمن ما لم يكن مالكاً للعلم... بطن الأرض أوسع من ظهرها للجهلة يا داود".

- "كأنك تفكرين في شيء ما... هل أنت عازمة على التعلم".

- "أنا أجد سياط الخزي والعار تجلد ظهري... كلما علمت أن الدولة العثمانية تطأطئ رأسها... علي أن أبدأ بنفسي... يجب أن أسلك طريق العلم... إنها الخطوة الأولى".

اقتربت ريحانة أكثر من داود... ثم أمسكت بشعرة طويلة في لحيته وسحبتها ثم أكملت حديثها:

- "العلم يقتل الحب يا داود... أليس كذلك؟".

- "ماذا تقصدين؟".

- "ألا ترى يا داود أن الإنسان كلما زاد علمه قل تأجج العواطف بداخله".

فكر داود قليلاً وقال:

- "ربما... لست أدري".

ابتسمت ريحانة وقالت:

- "علينا أن نفكر الآن في أشياء هي أكثر مساساً بحياتنا... نحن نفكر في حقل أكبر من عقولنا... لسنا ملزمين الآن بطرح حلول لمشاكل لم تصنعها أيدينا".

تنهد داود بعمق ثم قال:-

- "أعلم يا حبيبتي... أنت تريدين الاستقرار... كما كانت حياتك في الوادي مستقرة... لا أحد يهتم بشيء اهتمامه بالاستقرار".

- "لقد انفتح ذهني على حياة تغلي وتكاد تفجِّر الرأس... لم أكن أعلم أن الحياة بكل هذا التعقيد... غالباً ما يكون الإنسان عدواً لدوداً لنفسه... ولكنها مقامرة خاسره... أن يخرج المرء من محيط ضيق لمحيط أوسع... بدعوى أنه يريد أن يؤثر فيه... إنني أحسد نفسي على تلك الأيام التي كنت أجهل فيها كل هذا التعقيد للحياة... كانت الحياة بالنسبة لي معادلة سهلة... كانت لا تزيد عن لقمة هنية... ونومة هادئة... الآن صارت الحياة قطعة منزوعة من قلب إبليس... إنها وجه كالح لبدن أشد كلاحة... ولكن ليس للمرأة بد من أن تتابع خطوات زوجها".

كان داود ينظر بدهشة لريحانة... ولكنه تحدث في حزن:

- "لقد صنعت لك أصناف المعاناة".

ابتسمت ريحانة... واقتربت من داود أكثر... وطبعت على أنفه الطويل قبلة حب صادقة... ثم قالت:

- "أنت البسمة الأطول في حياتي المرصعة بأحجار ثقيلة من المعاناة".

- "لا تقولي ذلك".

نافذة للماضي

لا يبدو الطريق طويلاً إلا عندما يتوقع المرء أن يقابل الأسوأ في نهايته... وكذلك كانت الحالة بالنسبة لداود... الذي قرر أن يحمل نفسه جهة حياته القديمة... وجهة ماضيه المقبور في ذاكرة يهودي متعصب.

داود لم يعد يحمل من يهوديته تلك سوى الذكريات... ولكن ماذا عساها تصنع تلك الذكريات بعد أن بدأت ذاكرة داود تعيدها الساعة تلو الأخرى... ها هو داود يركب العربة ذات الحصان الواحد... ويسير سيراً سريعاً... ومحيط عجلاتها يرسم الخط الطويل... على الرمل الدقيق... ومع كل حجرة صغيرة ترتقيها العجلة يخفق قلب داود... إنها قصة موجعة تحكيها تلك الذكريات... وبعد مرور الوقت بدت المزرعة الكبيرة... وقد تغيرت جل ملامحها... وأشجار الليمون والتفاح تحيط بأطرافها... ولوحة مكتوبة بخط كوفي جميل (مزرعة شمعون)... وأصوات الأبقار والأغنام... ومنظر صادق للريف البسيط بكل ما تعنيه البساطة.

انحدرت أخيراً دمعة داود... ولكن مشاعره لم تكن لتشعره بالحزن الذي يصاحب الدموع غالباً... إنها في الحقيقة تشعر بشيء آخر... الحنين... إنه الحنين لشيء دفين... لا يمكن التعبير عنه... أو نزع المسامير من صندوق تابوته المحكم.

تنهد داود... واستمرت العربة والحصان في مواصلة السير... وأخيراً وقفت العربة... ونزل داود... وانتقل بقدميه... يطأ بهما على أرض مرصوفة بالحجارة البيضاء الصغيرة... وفي تلك الأثناء سمع صوتاً سريعاً:

- "من أنت ؟... قف".

انتبه داود جهة الصوت... أوه أنه سنوم.

- "عليك اللعنة يا أخبث الأصدقاء... لم يكن لي أن ألقاك هنا وأكون سعيداً".

هكذا حدث داود نفسه... ولكنه لم يجد غضاضة في أن يلقي بابتسامته جهة هذا المخلوق القديم... والذي يمثل له ذكريات من نوع ما... تقدمت خطوات سنوم... وتقدمت أيضاً نظراته المليئة بالريبة... حتى وصل إلى داود الذي لم يعرفه... وعندما وقف أمامه لم يجد بداً من أن ينحني لهيبته وجلاله... قال داود:

- "أريد مقابلة العم شمعون".

- "أوه أنت زائر له".

- "بل صديق قديم".

- "أهلاً سيدي".

وفي غضون لحظات اختفى سنوم... ثم عاد وهو يقول:

- "تفضل".

مشاعر داود لم تكن متوترة... كأن كوباً من الماء البارد خالط دمه... أو بدا الأمر كذلك... سارت الخطوات جهة المنزل الكبير... لقد كان الباب مفتوحاً... دخل داود... وألقى بنظرات عجلى... ثم سمع سنوم وهو يقول:

- "هناك... تفضل".

تقدم داود جهة الأرائك الحمراء المخملية... وجلس... لا يدري لماذا انقدح في ذهنه اسم (هيلا الهيلي)... ولكنه تجاهل الاسم... واستمر ينظر في اللوحة المرسومة بألوان الزيت الغامقة... والتي يتسلل فيها لون أصفر فاقع يعطي للحياة السوداء وميضاً من أمل... ومن هناك كانت الخطوات تتقدم... وقف داود... إنه

ينتظر وصول شمعون الذي بدا وجهه سمحاً منسجماً مع أناقة المنزل... وعندما وصل شمعون قال:

- "مرحباً".

تقدم داود ومد يده مصافحاً وهو يُعِّرف بنفسه ويقول:

- "داود".

لم يلق شمعون بالاً لهذه الكلمة... ولكنه أردف: مرحباً

«نحن سعداء»... تفضل بالجلوس.

جلس داود... ولم يكن قادراً على تحديد البداية... ولكن هدوءه كان مكتملاً... لذا قال:

- "لقد أتيت للسلام عليك... والاطمئنان على صحتك... وقد سعدت لرؤيتك على هذه الحال".

لم تخف علامات الاستغراب التي بدت على وجه شمعون... ثم أردف داود:

- "أنت رجل طيب... وسمعتك ناصعة كالثلج... وكل الناس يذكرون أياديك البيضاء... أنت رجل خير".

- "شكراً يا بني... ولكن لم أتعرف على شخصك".

أجال داود نظراته في أنحاء الصالة الفسيحة... ثم ركز نظره جهة الأرض وقال بثقة:

- "ما أخبار ابنتك هدية؟".

قال شمعون باهتمام:

- "هل تعرف هدية؟".

- "بالتأكيد".

- "أوه... هدية... لقد أرسلتها للدراسة... إنها تدرس التاريخ في إنجلترا... أوه كم اشتقت لها... ولكن لم تقل لي... من تكون أنت؟".

- "أنا صديق قديم".

فكر شمعون قليلاً في محاولة لحل هذا اللغز ثم قال:

"هل أنت هل أنت يهودي؟".

- "ماذا تقول لك ملامحي".

- "هـ... هـ... هـ... أنفك ينطق بذلك".

- "إذن أنا من أصل يهودي... سيدور إذن نقاش ثري... ماذا عن هيلا الهيلي؟".

ابتسم شمعون.

- "أوه الفيلسوف المخضرم... ماذا تعرف من أخباره؟".

- "أنا لا أعرف عنه شيئاً منذ أكثر من (١٥) عاماً".

- "خمسة عشر عاماً... زمن سحيق... إذن أنت لا تعرف ماذا حصل لفيلسوف جاب الدنيا بقدميه؟".

- "هل حصل له مكروه ....".

-"مكروه ؟ وأي مكروه... لقد وقعت الطامة".

تنهد بعدها شمعون من رئة صدئة... ثم أردف:

- "لقد وصل لقمة الطريق... ثم انخرط إلى الهاوية... نعم إلى الهاوية... وليته مات قبل ذلك... أو ليته قتل... أو ليته لم يولد من الأصل... ولكن من حقه أن يقوم بذلك... فهو حر...".

بدا الاهتمام واضحاً على ملامح داود... وابتلع ريقه في غصة... ثم قال:

- "ما الذي حصل؟".

صمت شمعون قليلاً ثم قال:

- "أنت لا تدري... لقد كفر... كفر بمبادئ التلمود المقدس... وصار ألعوبة في يد الشيطان... يا إلهي... أي شيطان استطاع أن يلعب برأس الحاخام هيلا الهيلي".

- "هل أصبح ملحداً؟".

- "ملحداً... ليته كان كذلك... ولكنه للأسف... أسلم... لقد دخل في دين العرب... أمر محير... الخواجة هيلا يترك كل حصيلته من الأفكار والفلسفة... وينتهي به المطاف إلى هذا المنعطف".

مشاعر متضاربة التهبت في داخل وجدان داود... آخر ما تقنَّعت به الحياة... إنها صورة جديدة... ذات ملامح وذات تقاسيم... الإسلام قوي... قوي... أقوى من كل هؤلاء... انقدحت في ذهن داود فكرة... لذا قال:

- "ما هو الشيء الذي يجعل هيلا يسلم... أي سر يا ترى في ذلك الدين؟".

- "ليس ثمة سر أو جهر... إنه الجنون... محض الجنون... الجنون وحسب... عندما يدخل الفيلسوف في دائرة الجنون فأنت قادر على تخيل كم هائل من الحماقات مجتمعة بين أذنيه".

في تلك الأثناء جاءت كاسات القهوة مع عودين من السيجار الفاخر... وولاعة ذهبية... تناول داود القدح الذي قدمه له الخادم... واعتذر عن السيجار... في حين تناول شمعون كأسه وهو يقول:

- "لقد سرقنا الحديث يا رجل... لم أعرف من تكون حتى الآن... ولكنك حتماً لن تُخْفي عليّ شخصيتك... لقد انشرح صدري لرؤيتك".

- "أنا داود... ولكني تفاجأت جداً بإسلام هيلا... أي إسلام دخل فيه؟".

"أنت داود... أنت داود !! داود من... هذا الاسم لا يبدو معروفاً لدي... ولا يبدو منكراً".

صمت داود قليلاً ثم قال:

"ماذا عن نوادي العراة التي فشت في شبابنا... ألا يوجد حل لهذه المتاهة".

ابتلع شمعون ريقه... ثم زفر زفرة طويلة... وقال بعدها:

- "نوادي العراة... إنها اللعنة التي حلت على الوجه الناصع لأبناء الله... أوه".

- "كم نحسد أبناء المسلمين".

بحلق شمعون بعينه جهة داود... وكأنه يتذكر شيئاً... ثم قال وهو يبتسم:

- "نعم... كم نحسد أبناء المسلمين... إنهم يحملون وجوهاً مبغوضة لدي... ولكنها تبدو سمحة لغيري... وكثيراً ما أقول (لقد كان هيلا يحمل شيئاً من المنطق عندما اختار دينه الجديد)... ولكني سرعان ما أنقم عليه من أعماقي... لا يصح ليهودي شرفه الإله بأن يكون أباً له... أن يتشبث بالإسلام... وهو في غنى عنه".

- "وهل تظن أن الإنسان العاقل لا يحتاج للإسلام".

- "ماذا تقصد؟".

- "أقصد أن الرذائل تثقل أصحابها... والمسلمون أشد الناس صموداً في طريق الرذائل.... ربما كانوا أحق بالبقاء".

- "الأخلاق ليست كل شيء في الحياة".

- "أعلم... تقصد المصلحة... المصلحة مقدمة على الأخلاق".

- "إن شئت فقل ذلك... المسلمون يعرفون كثيراً عن أخلاقهم... ولكنهم لا يعرفون المكامن التي تكمن فيها مصالحهم... لا يصلحون أبداً للحياة... هم سائرون في طريق الفناء".

- "لو غيَّر كل اليهود دينهم للإسلام ماذا ستفعل".

- "سؤال غريب... ولكني سوف أجيب عنه... أنا لن أغير ديني حتى أجد في الإسلام مصلحتي".

- "تقصد المال؟".

"المال والسعادة والمكانة والإحساس بالكبرياء... الكبرياء هي أهم شيء يبحث عنه الإنسان... إنها الفطرة المغروسة في أنفس البشر".

- "هل تعلم أن التكبر محرم عند المسلمين".

- "التكبر غير الكبرياء... الكبرياء هي أحساس الإنسان بقيمته".

- "إذا كنت تقصد ذلك فالمسلمون يحسون بقيمتهم".

- "فقط لو يدعمنا البريطانيون... لن تتحني جباهنا بعدها أبداً... سوف نشبع جوعاً طال أمده لكبريائنا... إيه كم عانى اليهود وكم سيعانون... ولكنه أجل حان موعده".

- "هل يسلم الملاعين".

- "ليت نار الموقد تحرقهم جميعاً... جميع من أسلموا من اليهود".

تحرك داود مهتماً ثم حرك سبابته قائلاً:

- "كلنا مخطئون... أنا وقفت أمامك هنا في محاكمة طال الصمت فيها... أنا يهودي... ولكن الأيام تدور بالناس وهم يدورون بها... لقد كدت تقتلني ولكني دفعت لك الغرامة الثقيلة... جنيهات من الذهب تتبعها جنيهات... لم يحن بعد وقت الحساب... ولو لم أكن وقتها أجمع المال لكنت كلباً ألعق قدميك... وأستجدي العفو... وبعدها سوف أكون عبداً ذليلاً لك... ولكني دفعت الغرامة التي قررها هيلا الهيلي... هل تذكرني يا عم شمعون".

قطب شمعون حاجبيه... ثم وضع يده على فمه... وأطرق قليلاً في صمت... ثم قال منتبهاً:

- "ماذا تقول... هل أنت... هل أنت داود اللعين".

وبعدها طأطأ شمعون رأسه في توتر.

أحس داود بشيء يتفجر بداخله... إنها عواطف كثيرة يلهبها تذكر الماضي... ولكن هدوءه ازداد وهو ينظر في ملامح هذا اليهودي المتدين... إن عينيه أكثر براءة... ووجهه الهادئ يوحي بالرضا والتسليم... ولكن عقله المتحجر أشبه بمنحوته أثرية من المرمر... تمنعه من أن يتجاوز البوتقة ذاتها التي ولد فيها وترعرع.

إنها مسالة العقيدة المقدسة ذات المخزون الهائل من الإجلال والتقديس... ليس ثمة حدود تمنع الإنسان من التجاوز... إلا تلك الحدود التي تفرضها العقائد... ولكن داود يحدث نفسه في إمكانية كسر القيود أمام شمعون... وإدخاله في تجاوزاتٍ شجاعة ذات أبعاد فكرية... تميط اللثام عن كل عقائده.

هل يمكن ذلك... إنها مقامرة أمام المستحيل... ولكن هذا المستحيل قد تحوَّل للممكن عندما أسلم هيلا الهيلي... وتحول للممكن عندما أسلم داود ذاته... ليس ثمة مستحيل عندما تنقدح في العقل مفاجأة التحدي... التحدي وحده هو الذي يحول الإنسان لمقذوفة من الإبداع... وربما لمقذوفة من الجنون والانتحار... وداود يريد وضع شمعون على المحك... لذا سأله:

- "لماذا لا تدخل في الإسلام... كثير من اليهود يسلمون... في نظري ليس اليهود بأفضل من المسلمين... المسلمون يملكون القوة التي في القرآن".

تصلب شمعون قليلاً... أشبه بحال من جلده الصقيع فأصبح متجلداً... ثم بادر بقوله:

- "داود... الذي حمل على عاتقة خزي الانتماء إلى أندية العراة... يتكلم بهدوء وثقة... وعن الإسلام... هزلت حتى بدا من هزالها كلاها... وحتى سامها الملاعين من اليهود المنحرفين عن صراط الله المستقيم... ليس من حقك أن تتحدث عن الفضائل... يا ابن المنغمسة في الرذيلة".

أحس داود بتشنج... ليس من حق أحد أن يسب أم الآخر... لم يكن رد داود مدهشاً... لقد قال:

- "اسمع يا شمعون... لست أدري ما إذا كانت أمي طاهرة الذيل كأمك أم أن ذيلها تلطخ بالقاذورات... ولكني أعلم من نفسي أني أصبحت طاهراً طهر الأرض التي وطئها إبراهيم عندما سار جهة بكة... أنا أحترمك وأقدر سنين عمرك الطويل... ولكن عليك أن تعرف بأنك تسير في طريق طويل وشاق... ونهايته هي نار جهنم".

نظر شمعون بلذة لهذا الكلام الغريب... الذي يخرج من فم من حسبه منحرفاً شاذاً... ثم قال بأريحية:

- "لم أفهم".

- "أنا في الحقيقة لست يهودياً... أنت واهم لو ضننت أنني سأتحول من أندية العراة إلى يهودي متدين".

- "قل لي عليك اللعنة... ماذا تكون إذاً".

ابتسم داود ثم قال:

- "لقد سرت على الطريق ذاته الذي اختاره هيلا الهيلي".

- "ماذا تقصد".

- "لقد أسلمت... نعم لقد أسلمت".

صمت كل شيء... كمقطوعة صمتٍ قصيرة داخل سيمفونية حزن طويلة... قليل من الوقت الحالم... ثم رمشت عينا شمعون رمشات متتالية وقال بعدها:

- "عليك اللعنة... يا كافر... سوف تنزل عليك سياط العذاب".

وقف داود في قوة وهو يقول:

- "إن نصيحتي لك ليست في أن تسلم... ولكنها في قراءة المزيد عن الإسلام" وقف شمعون وهو يرغي ويزبد... ثم قال:

- "اغرب عن وجهي... هيا اغرب... يا أخس النعال... يا حذوة الحمار".

ابتسم داود في شعور غامر بالنصر... إنها لحظات حالمة تعزف أعذب الأنغام... كلما نظر إلى الوجه المرتبك الذي يحمله شمعون... ثم نرسم عليه عنوةً جميع تعابير الاضطراب.

قام داود في هدوء... واتجه جهة الباب.... وسار بخطوات وئيدة... لم تمض لحظات... إلا ويد من خلفه تمسك بقميصه... التف للخلف... وإذا به ينظر إلى شمعون... لم يكن وجه شمعون هو الوجه الذي تركه منذ قليل... ولكنه وجه غامر بانفعال الدهشة... مع خطوط لا تخفى من الفرحة... أو ربما شيء شبيه بالفرحة... ولكن كرة صغيرة من الدمع كانت تقاوم لتخرج من محجر اليهودي الطيب... إنها أصدق تعبير يمكن لداود أن يقرأه في وجه شمعون الذي كان يتهدده منذ لحظات... لا أحد يقاوم رؤية الدموع... إنها قطرات صغيرة من الماء المالح... ولكن لها سر قوة رهيبة... أشبه بقوة السياط... إنها تتغلغل في أفئدة كل من يشاهدها لكي تستعطفه... وتُلَيِّن قسوة قلبه... الدموع هي وحدها القوة القادرة على إذابة القلوب التي اتخذت من الأحجار مثالاً لها.

لم تغب المعاني التي حملتها الدموع المتكورة عن ذهن داود الصافي... ولم يجد داود طريقة لمخاطبة الدموع الصادقة إلا بدموع هي أصدق... وابتسم داود... ومد ذراعيه ليغيب وجهه في صدر الشيخ شمعون... إنها حرارة اللقاء وحرارة التجاذب الفطري... بين رمزين لديانتين سماويتين.

تبللت القمصان بالدموع... ودقت القلوب المقتربة بدقات تحمل رسائل ولهانة... ووقف كل شيء عندما انتهى العناق... ثم ابتسم شمعون وهو يقول:

- "سر على دربك... من حقك أن تسير... لن يقدر أحد على إجبارك... قد تكون مصيباً... وربما كنت مخطئاً... وربما كنا جميعاً مخطئين".

ابتسم شمعون وأكمل يقول:

- "سوف أزور الحاخام هيلا الهيلي... لقد قاطعته بعد أن علمت بإسلامه... الحقيقة إنه إنسان عظيم القدر... ولكن الدين يفرق ما اجتمع".

- "الدين!... كلا يا سيدي... بل هو يجمع ما تفرق... انظر لقد اجتمعنا بسبب الدين".

- "أنا و أنت ؟؟".

- "بالتأكيد... وأيضاً أنا الآن سأذهب للحاخام بسبب الدين".

-"لا أدري بماذا ينبض قلبي... ولكني أرجو لك النجاة... لقد اخترت طريقك وستكون مسؤولاً عنه يوم الحساب... كن على يقين بذلك".

ربت داود على كتف شمعون ثم انصرف.

وجبة ساخنة

وجهان لعملة واحدة... إنهما اللقاء والفراق... وهما يولِّدان المشاعر ذاتها... إلا أن تكون القلوب مقلوبة... داود يذهب ويجيء في شوارع دمشق القديمة... ويناظر المباني الحجرية ذات الحدائق الجميلة... لا زالت دمشق مع كل ما أوتيت من حضارة تحكي حال الريف الصادق... الريف الذي لم ينفك عنها ولا عن أهلها منذ الأزل... والعساكر العصمليون بطرابيشهم السوداء وبنادقهم النمساوية يتنقلون كأسواط ملتهبة.

وفي الباحة المرتفعة من دمشق يقطن الشعب الصامت... اليهود... إنهم قوم مسالمون... خاشعون خشوع المبيت... بيد أن أحدهم لم يعد كذلك الآن... داود

الرجل الذي أسلم... إنه يذهب ويجيء في نشاط منقطع النظير... وهو يفتش في أعماق نفسه عن تلك الصداقات القديمة... شيء ما يسحبه إليها سحباً.

ولكن شخصين اثنين... هما من نال الحظ الأوفر من مشاعر الحنين ... التي أَوْقَدَتْ أخشابَ الوله في قلب داود... أحدهما الحاخام هيلا الهيلي... والآخر هو فتاة حظيت بحب قديم معه... وحظيت بعلاقات أشبه بألوان الطيف... بكل ما تعنيه كلمة طيف من معان صارخة... إنها هدية بنت شمعون... الفتاة النضرة... التي عرف داود في صباها كل أوصاف الإغراء... وهي رأت فيه شاباً قادراً على منحها المتعة... والآن هي بعيدة عنه بعد الثريا... أو على الأقل كان بعدها ذلك بالنسبة له فقط... إنها تتعلم في بلاد الخواجات... داود لا يعني له التمام الشمل معها من جديد شيئاً ذا بال... إلا أن وميضاً باهتاً ينبض بهدوء... لمشاعر دفنت في رحم الذكريات.

لا أحد يدري... لعل تلك المشاعر الأقرب لمشاعر الميت تعود مرة أخرى... بعد أن تغير كل شيء.

دخل داود منزله بعد صلاة العشاء... وهناك كانت ريحانة تشد الشال على رأسها... استقبلته بابتسامة هادئة... وانصرفت لتحضر العشاء... وبين اللحظة والأخرى تترقرق دمعات داود في محجريه... وما إن جاءت ريحانة وهي تحمل العشاء حتى انتشرت رائحة الفاصوليا المطبوخة مع البصل والطماطم... وصدر دجاجة بدا جانحاً على طرف صحن صغير... قام داود وأحضر الطاولة الصغيرة... وبعد أن وضعها سحب كرسيي الخيزران... وكفكف دموعه بطرف يده المبتورة... قالت ريحانة:

- "اقتنعت بكل شيء في المدينة... إلا الأكل على هذه الطاولات... لا أدري كيف سولت لكم أنفسكم اختراع هذه الطريقة الحمقاء في الأكل".

ابتسم داود من قلبه ثم قال:

- "الأكل على الطاولة ليس بدعة... إنما البدعة ما يقوم به الخواجات... إنهم يأكلون بمعلقة ذات رؤوس ثلاثة... والسكاكين والأطباق الخاصة... أوه يا عزيزتي".

- "لقد جعل الله ملعقتي في يدي".

بدأ الطعام البسيط يجد طريقه إلى فم داود وريحانة... وكانت ريحانة في الوقت ذاته لا تحرم داود من لقيمات من الخبز ممتلئة بالفاصوليا... وبقطع مثلثة من البطاطا... تحملها بيدها إلى فمه... وسرعان ما تلحق شفتيه أناملها... لتمتص ما بقي من مرقة الفاصوليا... قالت ريحانة:

- "لنا هنا ثلاثة أسابيع... لم نذهب للقدس حتى الآن... ولم نصلّ في المسجد الأقصى... وبالنسبة لي فأنا غير قادرة على تنفيذ أي المهام... أنا هنا في مجتمع لم آلفه... لست أدري هل علينا أن نبقى طويلاً قبل شد الرحال إلى المسجد الأقصى".

الفصل الخامس عشر

استقبال ساخن

القصر الكبير تتدلى على جوانبه من الخارج تلك المصابيح الصغيرة... والزهور البيضاء نُظمت في خيوط طويلة... وصارت تُزين الغرف الداخلية والصالون... وخدم كثر يدورون في جنبات القصر... ورائحة الشواء تعم جو الحديقة المبتهج... بعد ساعات فقط ستصل هدية... أوه... ستكون لحظات اللقاء لحظات سعيدة... لقد عاش شمعون على أمل أن يدرك تلك اللحظات طيلة أيامه الأخيرة... هدية سوف تأتي وهي تحمل شهادة الدكتوراه في التاريخ اليهودي... أي شرف وتاج سوف تضعه على رأس والدها.

تنهد شمعون بكبرياء وألقى بنفسه بتؤدة على المقعد الوثير المنحاز يميناً في طرف الصالة الكبيرة... إنه يحاول الدخول في إغماءة طويلة كي يتسنى له عد الساعات المقبلة بهدوء... وبين الفينة والأخرى يستدعي أحد الخدم كي يسأله عن استكمال الاستعداد للحفلة... المعازيم يجب أن يشعروا بالانبهار لما سيشاهدونه.

مر الزمن سريعاً... ودق بوق العربة الصغيرة... التي يجرها الحصان الرمادي... لقد جاءت هدية... قام شمعون في سعادة وعجلة... واصطف هو ومجموعة من الخدم والخادمات في طابور موزون أمام البوابة الكبيرة... وفي وضع أشبه بوضع الاحتفالات الأميرية نزلت هدية... قطعة السجاد المفروشة في طريقها

تبدو زاهية بلونها الأحمر المنقط بالدوائر الصفراء... وأشجار الفناء تظلل تلك السجادة... وتكسبها ألواناً إضافية... وتمتد السجادة من طرف العربة إلى باب القصر... وأخيراً أشاحت هدية بوجهها الحنطي الذي أصبح مائلاً للبياض.

كانت الفتاة في قمة جمالها وشبابها... فستانها الزهري يُفصّل كثيراً من تقاطيع جسمها الممشوق... وطولها المفرط يجعل من حذائها ذي الكعب شيئاً لا طائل وراءه... وزهرة بيضاء... مثبته بأناقة... على طرف شعرها الذي أصبح ذهبياً... والقبعة الصفراء التي تعلو رأسها تبدو من مشغولات القرن الماضي... بيد أنها تبدو معتقه وثمينة... ابتسمت هدية بمجرد نزولها... ثم أعادت طرفها داخل العربة وقالت:

- "تفضلوا".

نزل للتو رجلان جاوز أحدهما الأربعين ويدعى كوهين... وجاوز الثاني الخمسين ويدعى جوني أبو التوت... أمالا رأسيهما في شكر... وبعد أن وقف الثلاثة أمام العربة وضعت هدية يدها اليمنى في يد كوهين اليسرى... ووضعت يدها اليسرى في يد جوني اليمنى... ثم سار ثلاثتهم في صف واحد.

الأب شمعون واقف ينظر للمشهد الذي لم يرقه كثيراً... ولكنه آثر أن لا يثير شيئاً يبرز عدم رضاه عما يشاهد... لذا تقدم مسافة قصيرة... كان شوقه لوحيدته يكاد يفجر قلبه... إنها الشريط الذي يعيد دوران سنوات العمر حتى البداية.

فرد شمعون ذراعيه... ثم تقدم مسافة أطول... واحتضن ابنته وهو يقول:

- "ها قد أصبحت الدكتور هدية... ها أنت ناجحة يا ابنتي".

ابتسمت هدية شاكرة... مع أنها (على ما يبدو) لم تكن متأثرة بمشاعر اللقاء تأثر والدها... كانت رسمية بعض الشيء... ولم تكن أيضاً على استعداد لاحتضان والدها بالطريقة التي احتضنها بها... لذا آثرت أن تبدأ في إصلاح ما أفسده العناق من ارتكاز ملابسها وشعرها... لم يلق شمعون بالاً لذلك... لقد مد يده مصافحاً الضيفين اللذين لم يتوقع قدومها... ثم قال:

- "تفضلوا... أهلاً وسهلاً".

سار موكب الضيوف... في حين بدأ عازف الناي يعزف مقطوعة ذات أنغام طويلة تذكر بالحنين واللقاء... انتهى سماع المقطوعة بمجرد دخولهم المنزل... وبدأت أنغام العود على يد عازف آخر بالداخل... ثم أوقدت الشموع الكبيرة التي بددت الظلام الخفيف الذي حل بالمنزل قبل غروب الشمس... ومع انتهاء إيقاد الشموع صفق الجميع... وابتسمت هدية.

وفي وسط البهو الكبير وضع الأربعة أجسادهم بكل عناية... على الكراسي الخشبية ذات اللون المعتق... وحضرت القهوة... تم مُدت الأقداح على يد فتى عربي اسمه يحيى... لقد قال بمجرد وقوفه أمامهم:

- "السلام عليكم".

قال شمعون.

- "وعليكم السلام... شكراً يا بني".

نظرت هدية لضيفيها... ثم ابتسمت.

مر الوقت سريعاً... وبدأ عدد من أصدقاء شمعون في الحضور... لزف التبريكات لهدية ولوالدها... ثم حضر العشاء... وتناول الضيوف ما سمحت به أمعاؤهم... وبعد ذلك انصرفوا.

بيد أن هناك قضية لم تغب عن ذهن شمعون... منذ اللحظة الأولى التي جاءت فيها هدية... ولكنها الآن صارت أكثر وضوحاً في ذهنه... الحقيقة أن تلك القضية تدور حول هذين الضيفين... الذين لم يكشفا سرهما... ثم أين سينامان؟... وماذا يريدان؟... تجاهل شمعون كل ذلك وقال مستأذناً:

- "أنا سأذهب للنوم... وأنت يا هدية اذهبي لغرفتك القديمة... لقد أعددناها جيداً... لقد أصبح جميع أثاثها جديداً".

ثم قال في حرج وهو ينظر للضيوف:

- "لست أدري عنكم يا سادة... هل ستبيتون معنا في القصر... أم".

قال جوني الذي يتحدث العربية بطلاقة:

- "بالطبع... فنحن ضيوفكم... والضيافة في الشرق... أظنها ثلاثة أيام".

ابتسم بعد هذه الكلمة وابتسمت هدية... وابتسم شمعون... ولكن مع شيء من الحنق... ومع ابتسامته تلك لاحت له صورة داود بلحيته الطويلة وسمته وهدوئه... ولاحت في ذاكرته كلمة ترنم بها كثيراً:

- "يا ليت أبناءنا مثل أبناء المسلمين".

ولكنه تجاهلها وألقى بابتسامة صادقة في وجه هدية... كانت مشاعر أبوته ملتهبة... وكان يود لو بقي مدة أطول مع ابنته ليحكي لها (حكايات زمان)... أو ليعرف أخبار غربتها الطويلة... ولكنه آثر الذهاب بعيداً داخل وحدته... لينبش في أوراق ماضيه القديم... ويخرج ما لاح له من الذكريات.

قلق رهيب

ألقى شمعون بنفسه على السرير الواسع... ومد يده بجواره ليمسك بفتيل الشمعة الوحيدة... التي كانت أشعتها تتوغل في الظلام... مات وميض الشمعة بين إصبعيه... ودخل العالم من حوله في هدوء خانق... وظلام يفرض رهبته على كل شيء... وبدأت الهواجس تأكل قلب الرجل الذي ظل طيلة سنيِّ عمره ينظر للدنيا من زاويته الخاصة... الزاوية التي يملؤها اللاهوت والإيمان بما وراء الدنيا... ويحيطها من أطرافها قَدرٌ من الإخلاص والفضائل القدسية... وشيء من الغيرة كسبه من حياته بين أحضان التراث المسلم.

والآن هاهي ابنته تُحضر رجلين لمنزل أبيها... ثم هي تمنحهم من التقدير ما لا تمنحه لوالدها... لم يغمض لشمعون جفن... ومع مرور الوقت كان تقلبه على

سريره يزداد... لقد أصبح نائماً على شيء أكثر شبهاً بالجمر الملتهب... وأخيراً قام وهو لا يدري ماذا سيفعل... ولكنه اتجه جهة الصالة الكبيرة... لم يجد فيها أحداً... نظر جهة غرفة هدية بقلق... وعندما رأى النور ينبعث من تحت بابها اتجه فوراً ليرى ما يحصل... وقف بجوار الباب وأطرق سمعه قليلاً... بدأ يسمع تمتمات خفيفة... كاد عقله يطيش... اقترب من ثقب الباب وبدأ يطالع... وعندما رأى ما يدور بالداخل أحس أن جبلاً كبيراً انزاح عن صدره.

هدية هناك جالسة على كرسيها... وكوهين واقف... واللعين جوني جالس على الطاولة مدلياً إحدى رجليه... وعلى الطاولة قد فُتحت خرائط وأوراق... هدية تمسك بقلمها وتشير لمواضع معينة... رجع شمعون أدراجه... وعندما وصل لسريره ألقى ببدنه المنهك لينام نومة عميقة.

ومع صباح اليوم التالي وقبل طلوع الشمس كان شمعون وضيفاه وابنته جالسين على الطاولة المطلة على الحديقة... في انتظار الإفطار... وكان جوني وكوهين على عجلة من أمرهما... كما زعم كوهين... وهناك الكثير من الأعمال تنتظرهما... قالت هدية:

- "نحن يا والدي في حاجة ماسة... إلى بعض الثقات... كي يقدموا لنا معوناتهم... نحن نخطط لمشروع مهم... وأنا هنا لا أعرف أحداً... خاصة وأن غيابي في الخارج قد طال... هل تذكر أحداً من أصدقائك القدامى".

قال شمعون في رضا وهو يتذكر الخرائط ويشعر براحة كبيرة تغمر قلبه تجاه شكوكه:

- "صديق قديم؟... صديق قديم.؟.. هل تريدين صديقاً قديماً لي أم لك".

- "لا يهم... المهم أن يكون يهودياً نبيهاً".

قال في مكر:

- "أوه... لقد تذكرت... إنه هو... نعم... صديقك العزيز... داود".

وقفت عينا هدية قليلاً عن الرمش... وتذكرت... داود... وبدأت دقات قلبها تزداد... وأحست أن جرس هذا الاسم يعزف على عروق قلبها سيمفونية الشوق الشرقية... قال والدها بخبث:

- "ما رأيك... هل يناسب".

انتبهت هدية... ثم ابتلعت ريقها على عجل... ثم قالت في دلال:

- "داود...؟ أين هو داود الآن".

ابتسم والدها من أعماق قلبه... وكاد ينفرط من الضحك وهو يتذكر صورة داود بلحيته ويده المقطوعة... ثم قال:

- "إنه موجود يا بنتي... وحاله يسرك... تماماً كما سرني".

تقدمت هدية جهة والدها... وأمسكت بيده وهي تقول.

- "أين هو داود... قل لي يا أبي".

- "استحي يا هدية... لم أعهدك جريئة هكذا".

ضحكت ثم قالت:

- "أوه يا والدي... إنه يذكرني بالماضي... يذكرني بالعبث".

نظرت إلى كوهين ثم قالت:

- "إنه رجل مناسب... مناسب جداً لما نريد".

لم يقل شمعون شيئاً.

الفصل السادس عشر

الرجل البهلول

العربات المزركشة التي تجرها الخيول تمر مر السحاب... والجمال التي تشمخ برؤوسها تبدو آية في القوة والكبرياء... وعشرات البغال ذوات الظهور المسطحة واقفة في انتظار عمل يوكل إليها... والرجال الواقفون... كل أولئك تضمهم القافلة المتجهة جهة ثالث المسجدين... إنها الرحلات المعتادة مساء كل أحد... وهي تتجه لتوصل من له رغبة في صلاة الجمعة في كنف قدس الأنبياء.

سارت المركبة بمن فيها... ومن بين ركابها كان داود... وبجواره زوجته ريحانة... إنهما يجلسان متجاورين... في عربة كبيرة نوعاً ما... وهي تحملهم وتهزهم أيضاً... وتهز بقية الركاب... ومع اهتزازاتها تلك تهتز المشاعر... إنها الرحلة إلى الله.

الطريق الطويل يتقطع مع تقطع الثواني والدقائق... والأُلفة بدأت تحط بين الركاب الستة... إنهم ثلاثة رجال مع زوجاتهم... لا أحد من هؤلاء الجالسين يعرف شيئاً عن حياة تلك الفتاة الصامتة... وهناك تجلس ريحانة... التي تقذف بصرها بهدوء... وتكاد تقرأ ما خلف الأشياء... إنها تاريخ وحاضر... يعرفه داود وحده، من بين هؤلاء... أيوب الحمصي وجه سمح ... ترتسم النكتة عليه كلما مال يمنة أو يسرة... وسرعان ما يلقي بالطرف البريئة على المواقف التي تحصل... أو على

الأشيـاء من حولهم... وعندمـا كـانت القـافلة تسـيـر في طريق نـزولهـا جهـة قـرية العـامرية... ذات الحـدائق المدرجة... طلب أيوب من سـائق العـربة أن يقف... لقد قال له:

- "هي.. هي... قف يا حصان... ويا سائق الحصان".

وعندما وقفت العربة قفز أيوب بسرعة وهو يضحك... ثم تقدم جهة المُزارع الذي يقطف ثمار الكمثرى... وقد وضع على الشجرة الكبيرة سلماً ربطت درجاته بحبل أخضر... أخذ أيوب عشر حبات من الكمثرى في ثوبه... ثم قفز صاعداً العربة وهو يقول:

- "الكمثرى هي نوع من الأرانب البرية... ومن أراد أن يتزوج فتاه صغيرة وهو امرؤ جاوز الخمسين فعليه أن يعاود أكل الكمثرى... انطلق يا صاحب العربة".

بدأ أيوب يوزع حبات الكمثرى على رفقائه في هذه العربة... بيد أن ريحانة عندما تناولت هذه الثمرة بدأت تقلبها في دهشته... ثم قالت لداود مداعبة:

- "هل تؤكل هذه الثمرة؟".

- "أوه عزيزتي... نعم... إنها طيبة".

- "لم أذقها في حياتي".

سمع أيوب المشاكس هذه الكلمات... ولكنه تجاهلها... وعندما أكلت ريحانة أول لقمة من الكمثرى لم تجدها مستساغة بالدرجة الكافية... لذا سعلت بعنف... ثم أخرجت ما بداخل فمها... لم يفوّت أيوب هذا الموقف... إنه يريد نبش خبايا هذه المرأة الصامتة... التي لا تعرف حتى الكمثرى... قال أيوب وهو يبتسم ويلقي ببصره جهة ريحانة:

- "يقال إن الملكة بلقيس كانت تأكل الكمثرى... لذا تزوجها سليمان... ويقال: إن امرأة أخرى لم تكن تأكل الكمثرى... لذا تزوجها رجل اسمه داود".

انفجر الموجودون بالضحك... وأراد داود أن يضحك... ولكنه رأى ريحانة متشاغلة بطقطقة أصابعها دون أن تضحك... أو تولي اهتماماً لذلك المازح... لذا آثر الصمت... لم يُرِدْ أيوب أن يشعر بأن صمت ريحانة هو هزيمة له... لذا قرر أن يكمل في نفس طريقه لذا قال:

- "يقال إن ملكة المصريين المسماة البتراء... وضعت ريحاناً على رأسها ذات يوم... وعندما رآها زوجها وضع هو من جهته ريحانة على رأسه".

انفجر أيوب بالضحك... وانفجر بقية الموجودين بضحك مماثل... إلا أن داود هذه المرة أحس أن عليه أن لا يضحك... في حين أن ريحانة لم تلق بالاً لما يحصل... وكأن الأمر لا يهمها... وبعد لحظات قليلة نظرت ريحانة للموجودين ثم قالت:

- "ألا يوجد فيكم من يأتي لنا بأشياء مفيدة".

كانت هذه الرسالة كافية لإلجام أيوب بلجام من حديد... إنها كلمات مختصرة... ولكن دلالتها واضحة... عم الصمت من جديد... وبدأ كل من الحاضرين يحادث زوجته محادثة خاصة... وعندما وقفت القافلة لأداء صلاة العصر كان أيوب يفكر في عمل شيء ما... لقد اتجه نحو ريحانة وزوجها... وقدم اعتذاراً صادقاً... ثم قدم نفسه لهم على أنه أحد أساتذة الجامعة ببيروت... وفي تلك الأثناء خلع أيوب خاتمه الفضي... ذا الفص الأحمر... ثم قدمه لريحانة... معبراً عن مدى أسفه... ولكنه أردف:

- "هذا أنا... أحب المزاح... وأحب الضحك... وفي بعض الأوقات تصدر مني بعض الألفاظ العفوية... وسرعان ما أفكر في فحواها... فأجدها غير ملائمة... أنا لا أتحمل نفسي عندما أكتشف أنني أخطأت في حق إنسان آخر... ربما تبادر لذهنكما أنني إنسان متسرع... أو مشاكس... أنا على العكس تماماً... أرجو قبول اعتذاري".

تناولت ريحانة الخاتم... نظرت إليه بتدقيق... ثم قالت:

- "هل يعني لك شيئاً ما... هذا الخاتم... أقصد إن للخاتم قيمة معنوية عند حامله... بالطبع تكون هذه القيمة أكثر عندما يكون الخاتم هدية من إنسان يقدرك وتقدره... أنا مثلاً... هذا الخاتم الذي قدمته لي... لا يعني لي شيئاً... ربما لأني لا أهتم كثيراً بشخص من قدمه لي".

ابتسمت ريحانة وهي تنظر لداود... وعندما صرفت نظرها للجهة الأخرى أقبلت سعدية... زوجة أيوب... لقد بدا من هيئتها أنها امرأة هادئة محتشمة... وقورة... قالت ريحانة وهي تنظر لأيوب:

- "ستقع في الفخ يا رجل... لو علمت زوجتك أنك أهديت لي خاتماً".

تلكأ أيوب قليلاً... ولكنه قال بصوت منخفض:

- "الحقيقة أنها هي من اقترح علي ذلك... لقد أقنعتني بخطئي في حقكم".

- "لقد علمت هذا من وجهك... أنتم معشر الرجال لا تستطيعون كشف الطريق أمامكم... إن لم تكن المرأة بجواركم".

في تلك الأثناء حضرت سعدية وهي تعرض بسمتها للجميع... مدت ريحانة يدها مصافحة... وعندما وضعت سعدية يدها في يد ريحانة أمسكت ريحانة بالإصبع السبابة في يد سعدية... وأدخلت الخاتم فيه... وقالت:

- "أنا لم أرد هديتك يا أستاذ أيوب... أنا أرجعت خاتم زوجتك لها... وأطلب منك أنت أن تقدم لي هدية مناسبة... تساعد في نسيان إهانتك لي".

أحس أيوب بحرج شديد... خاصة من زوجته... ولكنه قال:

- "أنا لا أملك شيئاً".

نظرت إليه ريحانة بتدقيق... ثم قالت في ثقة:

- "بل أنت تملك الكثير... أنت تملك العلم... نعم... العلم".

نظرت ريحانة لداود... في حين صرخ الرجل القائم على العربة... بأن وقت الرحيل قد حان... قال داود:

- "سنكمل في العربة حديثنا".

وبعد أن اكتمل استعداد العربة بدأت في الرحيل... وأفراد العربة الستة... جالسون في هدوء... لقد أصبح الجو بينهم أكثر وداعة... خاصة وأن ريحانة بدأت في استعراض شيء من قدرتها على إدارة الجماعة... ذلك أنها طرحت في البداية التساؤل التالي:

- "لماذا كان هناك ليل... ولماذا كان هناك نهار؟».

وبعد ذلك أكملت ريحانة... لماذا كان هناك ذَكَرٌ وكان هناك أنثى؟".

لم يجب أحد... ثم أكملت:

- "لماذا كان هناك يمين وكان هناك يسار؟؟... ولماذا كان هناك أول وكان هناك آخر؟".

في هذه الأثناء بدأت أسئلة ريحانة تشد الجميع شيئاً فشيئاً... لقد توقفوا مع هذه الثنائيات... أكملت ريحانة:

- "لماذا كان هناك وجه وكان هناك قفا... ولماذا كان هناك أم وكان هناك أب... ولماذا كان هناك قوي وكان هناك ضعيف... ولماذا كان هناك صحة وكان هناك مرض... ولماذا كان هناك موت وكانت هناك حياة".

أحس أيوب برغبة في الحديث... لذا قال:

- "لأن المسلّمة الحتمية تقتضي وجود الشيء وضده".

- "كلا يا سيد... السبب غير ذلك تماماً".

قال أيوب في شعور بأن تقدير ريحانة لكلماته كان خاطئاً:

- "وما هو السبب؟... يا ستي".

قالت ريحانة بثقة:

- "لأن هناك أيوباً... وهناك سعدية".

انفجر الحضور بالضحك... في حين نظر أيوب لزوجته... ثم انفجر بضحك أكثر ضجيجاً... قالت ريحانة تخاطب أيوب في جدية:

- "المسلّمات أكذوبة كبيرة... هل تعرف ذلك".

- "المسلّمات؟... كيف".

- "لأن الحياة تتغير... ولا يوجد شيء اسمه مسلَّمات... إلا ما نزعمه نحن... ثم نسلّم به".

قال أيوب بعد أن عدل من جلسته:

- "كلا يا ريحانة... أنت كما أعلم متدينة".

ابتسم بعد ذلك في إحساس بالرضا عن نفسه... بيد أن ريحانة أمالت رأسها نحوه ثم قالت:

- "ما ذا تقصد ؟".

- "الدين مسلَّمات... هـ هـ هـ... أليس كذلك".

- "كلا... يا أستاذ... الدين في الواقع ليس من المسلّمات... وإنما هو الحتميات... وهناك فرق كبير بين المسلَّمة والحتمية... المسلَّمة هي الشيء المقبول باعتبار غيره... أما الحتمية فهي الشيء المقبول باعتبار ذاته... الدين حتمية... لذا فهو مقبول سواء سلّمنا به أو لم نسلم... أما غير الدين فهو متعلِّق بنا... وعندما نقبل بالدين فإننا مسلمون أو مُسَلِّمون... ولكن الدين في حد ذاته قد لا يكون مُسَلَّماً به لدى أناس غيرنا... ومع ذلك فهو حتمي سواء سلّمنا به أو لم نسلم... أما

الموت مثلاً فهو مسلَّمة للجميع... وهنا يجب أن أؤكد أن الدين بالنسبة لنا يجب أن يكون حتمية؛ لأن وجودنا مرتبط به... هل فهمت... يا أستاذ".

بدت ريحانة كأستاذ كبير... أحس بأستاذيتها جميع الموجودين... بيد أن أيوب بهت... وهو يستمع لمنطقها... عم الصمت للحظات ثم قال أيوب:

- "هل درست من قبل في الجامعة؟".

- "نعم... بالتأكيد... في جامعة الوحدة... جامعة الخلوة... جامعة الحيوان... جامعة الوادي... جامعة النجوم... كل هذه الجامعات... إنها أسماء لجامعة واحدة... نظرت ريحانة لداود... وقالت:

- "إنها حقاً حكاية".

مكة... أم القدس

في نهاية الزقاق الضيق يرتفع صوت الملا مهدي... وهو ينادي بصوت مرتفع ويقول:

- "بلح الشام... بلح الشام".

وعلى طاولة خشبية مستديرة يجلس رجل وامرأة... يتجاذبان حديثاً عذباً... في حين تمتد يد أحدهما بهدوء جهة الفطائر... لتقطع قطعاً صغيرة سرعان ما تنغمس في زيت الزيتون المخلوط بالزعتر... وعلى طرف المائدة تجتمع حبات الزيتون في صحن صغير... وكأسان من الزجاج ممتلئين بالشاي المحلى... سوف يطول انتظار داود وريحانة هنا... حتى يجتمع الوفد... ليسيروا زمرة واحدة للمسجد الأقصى... لتوها وصلت القافلة... لقد حطت في أطراف المدينة... ثلاثة كيلومترات ثم يدلفون مع الساحة المقدسة... وهاهم الآن يتناولون شيئاً من الطعام... قالت ريحانة:

- "أشعر بالرهبة ذاتها التي انهالت على قلبي عندما اقتربت في أول مرة من البيت العتيق".

قال داود وهو يقلب قطعة صغيرة من فطيرته في الزيت:

- "هنا مهد الأنبياء".

- "فلماذا كان البيت العتيق... أعظم مكانة من القدس؟".

- "هل تجزمين بذلك... أنا لست أدري أيهما أعظم مكاناً".

- "أنا أيضاً لا أدري... ولكني أتصور أن مكة أعظم مكاناً".

وفي تلك الأثناء أقبلت زمرة من الناس... نظرت ريحانة وقالت:

- "ها هو أيوب... لماذا لا تسأله؟".

أشارت ريحانة بيدها جهة أيوب... وابتسمت لزوجته سعدية التي بدت عليها علامات السعادة... جاء أيوب... وسحب كرسياً جهة الطاولة... وقال لزوجته:

- "اجلسي هنا... بجوار ريحانة".

ثم سحب كرسياً آخر... وجلس عليه... وبهدوء مد يده ليقطع من الفطيرة المجاورة لداود... ثم غمسها في الزيت... واقترب بها من فم سعدية زوجته... التي بدا خجلها... قالت ريحانة:

- "لماذا كان بيت الله العتيق أعظم مكاناً من المسجد الأقصى... ترى كان ذلك لأن النبي محمداً ﷺ بعث فيه ؟".

قالت سعدية:

- "لا أظن ذلك... فمكانة البيت العتيق أعظم من مكانة المسجد الأقصى حتى قبل البعثة النبوية".

رفع أيوب حاجبيه وشفته السفلي في حيره... في حين قالت ريحانة:

- "البيت العتيق... كانت فيه البداية... وكانت فيه النهاية... أما المسجد الأقصى فكان هو ما بين البداية والنهاية".

قال داود مهتماً:

- "كيف ذلك".

.. أكملت ريحانة..

- "أول من بنى لله مسجداً هو إبراهيم... وهو أبو الأنبياء... وبناه في مكة... وهناك أعلن أن الإسلام هو صوت ندائه الأول... ثم مر الزمن... وفي مكة وضع آخر الأنبياء... محمد... بيديه ذلك الحجر الأسود في مكانه... إذن أبو الأنبياء وآخر الأنبياء أعلنا دعوتهما من مكة... ومهد الأنبياء كانت القدس... البذرة والثمرة كانت في مكة... أما القدس فقد كانت هي أرض الزراعة... إنها قصة النبوة العظيمة... بدأت في مكة وانتهت في مكة".

قال أيوب وهو يبتسم في دهاء:

- "ماذا عن نوح إذن... ألم يكن نوح قبل إبراهيم".

نظر داود جهة أيوب بشيء من الحقد... ثم وجّه نظره جهة زوجته ريحانة... وكان يستجدي منها جواباً شافياً... قالت ريحانة:

- "أقصد مراحل النبوة المتتابعة... منذ الزراعة وحتى حصد الثمرة... أظنك تفهم... نوح عليه السلام كان رسولاً بالطبع... ولكن رسالتة تكاد تكون منقطعة في تأثيرها عن الأجيال...؛ لأن الله أهلك أهل الأرض إلا نفراً قليلاً... نستطيع أن نقول: إن رسالة نوح كانت مرحلة من مراحل النبوة... وكانت نهايتها هي الهلاك لمن خالف نوحاً... والمرحلة الثانية هي المرحلة التي بدأت بالنبي إبراهيم... وانتهت بالنبي محمد... بعد أن أينعت كل ثمارها... لتكون مزرعة الأنبياء يانعة الثمر... إلى قيام الساعة".

قال أيوب مندهشاً:

- "هذا كلام فلسفي... ولكنه على كل حال مقبول إلى حد ما... أنت لم تدرسي التاريخ بشكل موسع... ولكن يبدو لي أنك قادرة على التنقل بشيء من التسلسل المنطقي... في حلقات كثيرة من التاريخ".

وضعت ريحانة يديها على ركبتيها وهي تستعد للنهوض... ثم قالت مقاطعة لكلام أيوب بشيء من اللامبالاة:

- "علينا أن نواصل السير... قلبي يتلهف لرؤية الجدار الذي وقف البراق بجواره... وهو يستعد للطيران... الرحلة الفضائية العظمى... إنها قصة التكريم الخالد... للإنسانية... هناك سُمِحَ للبشرية أن تعود ثانيه للسماء... بعد قصة طردهم منها إلى الأرض... البداية القديمة... وقصة صعود الرسول الأعظم للجنة هي...".

قال أيوب مشاركاً ومقاطعاً.

- "هي النهاية... الله أكبر".

نظرت ريحانة شزراً إلى أيوب ثم أكملت:

- "هي أيضاً البداية".

قال داود مهتماً... ويبدو منسجماً مع كلماتها أشد الانسجام:

-"كيف يا سيدة الوادي؟".

نظرت ريحانة إليه بابتسامه تأنيب... ربما لأنه ذكر هذا الاسم غير المناسب في هذا المقام... وعندما أدرك داود عدم مناسبة هذا الاسم أردف مصححاً خطأه بقوله:

- "أقصد يا سيدتي؟".

نظر أيوب وزوجته لداود... ثم لريحانة بنظرات استغراب وحيرة... لقد أحسا أن علاقة داود بريحانة ليست مجرد علاقة زوج وزوجته... هناك خلفيات

غامضة... سمح أيوب لنفسه بالتعمق فيها قليلاً... بيد أن ريحانة قطعت حبل أفكاره بقولها لداود:

- "نعم يا سيدي... ويا تاج رأسي داود... ويا سيد الوديان جميعاً... إنها قصة البداية... البداية لطريق العودة الطويلة نحو السماء... إسراء محمد لم يكن النهاية... ولكنه البداية... البداية لطريق الخلاص... فرضت الصلاة... وعرفت حقيقة المعجزة... وعاد محمد للأرض... كي يقطف الثمرة... ويوزعها على العالمين... لقد قابل الأنبياء لكي يستلم منهم لواءً بدؤوه... تلك هي الثمرة التي سيوزعها على الدنيا... طريق العودة للجنة... الطريق الطويل... وعلينا أن نسلكه بكل بصيرة".

وفي ثنايا الدهشة التي عمت الجميع... وقفت ريحانة وهي تقول:

- "إلى بيت الله الأقصى".

للمرة الأولى يشعر أيوب بما يشبه الانحناء... تقديراً لسيدة الوادي التي لا زال اسمها هذا يرن في خلده منذ سمعه من داود للتو... سيدة الوادي... إنها الكلمة الأجدر... وقفت العربة... ونزل الجميع... ووضع كل منهم يده في يد زوجته وانطلقوا..

القدم الأولى

الخطوات متقاربة... ويد ريحانة الممسكة بيد داود الوحيدة تشتد لتضغط على الأصابع الطويلة... والقلب يدق ويدق... ومع إيقاع الأقدام تتراقص طواويس الفرحة والافتخار... هذا هو المسجد الأقصى... أنشودة غناها الزمن طويلاً... ولا زال يغنيها... ولا زالت الدنيا تطرب لذلك الغناء... الذي يبعثه الناي القديم... ليس ثمة ما يحزن له القلب... لأن الله مع هؤلاء... ولكن الوجوه الوضاءة هي أصدق تعبيراً عن الفرحة باللقاء... وتدحرجت القطرات الساخنة على خدي ريحانة... وهي تلقي بطرفها إلى حيث قدسية المكان... إنها الأرض المباركة.

الكوفيات ذات اللون الأسود والملتفة على وجوه الرجال وعلى رؤوس النساء هي الدليل الأصدق على أن هؤلاء العرب المرابطين هنا هم أكثر التصاقاً بأرضهم... وربما رأيت المصري ذا الجلابية الفضفاضة والعمامة الصغيرة ذات الذؤابة القصيرة... وأصحاب العمائم السوداء والعباءات السوداء يسيرون بخطاهم الحثيثة... ليلتقوا إخوانهم القادمين من إيران... وسرعان ما يرتسم اللقاء على البسمات الصادقة... ووجوه سمراء يحملها أهلها القادمون من إفريقيا... ومن السودان تحديداً... وسرعان ما تلمع أسنانهم الناصعة حين يبتسمون لرؤية القبة الصفراء... إنها الأرض العربية... وهنا باعة متجولون في الحرم... يحملون في (بقشهم) أمتعة خفيفة الحمل... كثيرون هم الذين يعملون هنا ويكسبون... وترى نساء يهوديات متلفعات بالمروط الحمراء... وهن يحملن الماء في آنية صغيرة من النحاس... ويضربن بالكأس النحاسي على طرف المسقاة النحاسية... وينادين:

- "قدسية... قدسية... ميّة... قدسية".

ورجال يحملون السجاد الإيراني ذا الأحجام الصغيرة... ويفردونه أمام القادمين كي يغروهم بالشراء... وفي زقاق ضيق يخرج بعربته رجل مهيب عظيم اللحية... قد علق صليباً كبيراً على عربته... ووضع جرة فول وقطعاً من الخبز... وصحوناً صغيرة فيها القليل من حبات التوت... وعندما يجد المكان المكتظ بالناس يقف ويملأ الصحون بالفول... ويضع بجوارها قطع الخبز... ثم ينادي باللكنة الشامية:

- "والفولي فولك يا عبدالله... والفول فولك... يا عبدالله".

ويعاود تكرارها... ورجال يخنقون قبعات صغيره على رؤوسهم... تراهم ينصرفون جهة حائط البراق... ويهزون رؤوسهم في صلاة متناغمة... ثم يطأطئون رؤوسهم... وينصرفون خفية... رأت ريحانة كل ذلك... وسهت مع نفسها في عالم بعيد... إنها تتأمل الصورة المترنمة لهذا الخليط من الناس... وعندما دخلت المسجد الأقصى وقفت خاشعة.

- "بسم الله... هذا هو مسرى رسول الله ﷺ... وهنا محط النبوات".

لقد أعطت لمشاعرها كامل الحرية للتوغل في قِدم الزمان... وقدم المكان... نشيج خفي أحاط بقلبها الرطب... وربما رأت اللبن المصفى هناك... أو لاح لها أنها رأته... وفي فترة أنس ممتدة... كان المؤذن يؤذن للصلاة.

الفصل السابع عشر

نفحات القدس

تشير هدية بيدها مودعة والدها... ثم تلقي له بابتسامتها... إنها متجهة نحو القدس... وهي على أمل أن تلتقي داود هناك... وبجوارها في العربة يجلس كل من كوهين وجوني... إنها رحلة ستطول.

شمعون يحدث نفسه... إنه لم يشبع من الجلوس مع ابنته... يومان فقط بقيت لديه... وكان هذان الصديقان يقاسمانه الوقت معها... وعندما أخبرها أن داود ذهب للقدس خفّت للذهاب جهة القدس... أوه يا داود... ربما لقيته هدية هناك... وربما لن تلقاه.

ولكن والدها سيكون سعيداً بصدمتها لرؤيته وهو مسلم متدين... هذه المرَّة هي المرة الأولى التي يفرح فيها شمعون؛ لأن رجلاً من اليهود أسلم... إنه يتلذذ من داخله... لأن كبرياء هدية... واعتدادها بنفسها... وبصداقتها القديمة... سوف يتكسر... وربما اهتزت ثقتها بحاضرها... وربما عادت لطبيعتها السابقة بين أحضان والدها... آه كم يتمنى أن تنكسر نفسها المتعالية... وتعود كما كانت... فتاه وديعة... ولكن لا حيلة... إنها الآن أشبه برجل... طبيعة شمعون الشرقية تجعله يتقزز من المرأة الرجل.

مر الوقت على أنغام الساعة... والركب منطلق جهة القدس... وأحاديث كثيرة وعميقة تدور داخل العربة... ومراجع أجنبية تفتح... وتقرأ نقاط محددة منها...

وملاحظات صغيره تُدون على أوراق أصغر... ثم توضع في ملف خاص... وفي بعض الأوقات تقف العربة لينزل كوهين على عجل ويصافح أحد المارة... ويسأله أسئلة تاريخية أو جغرافية أو اجتماعية أو اقتصادية... كيف تحصلون على الغذاء؟ كيف تقتنون الأسلحة؟ كيف تربون أبناءكم؟ كم دخل كل واحد منكم؟ هل تحبون الدولة التركية؟ ما هو مستواكم التعليمي؟... الحدة والجدية تبدو سمة ملازمة لكل من كوهين وجوني... بيد أنها تقل لدى هدية كلما تذكرت داود... وتزداد كلما تعمقت في عملٍ ما مع خرائطها التي تدوِّن عليها الكثير... وأخيراً ها هي اللوحة التي كتب عليها (القدس)... قال كوهين.

- "القدس!!!!... حائط المبكى... هيكل الرب... آه كم نحن في حاجة ماسة لك يا الله".

قال جوني:

- "نحن نعمل بجد من أجل الله... لا أدري هل سيصدق الرب معنا في هذه المرة... إن للوعود أولاً وليس لها آخرا".

- "كن مؤمناً يا جوني... هكذا يقول الكتاب المقدس... العاقبة لنا... نحن الشعب المحبوب".

قالت هدية في شيء من اللامبالاة:

- "لو كنا محبوبين لما ضعنا في التيه... المسألة هي بسهولة... كما تعطي تأخذ... كما تخطط تحصل... تزرع تحصد".

ثم أكملت بسخرية:

- "لقد كان أبي يقول: «ليت أولادنا مثل أولاد المسلمين» نعم يقول ذلك؛ لأنه كان يراهم يعملون بجد... ولا يركنون للأماني... إن الهوان والذلة التي تعيشها أمتنا لم تدم إلا لأننا لم نعرف سر التوكل على الله قط... التوكل على الله لا ينفع من دون عمل... وقديماً قال محمد النبي العربي: «**اعقلها وتوكل**»".

قال كوهين:

- "أنا متدين بطبعي... وأنا أجزم أن ما أصابنا من خزي وعار على مدار سنوات طويلة... لم يكن إلا بسبب عدم التخطيط... إن أمتنا تخرج من تيه وتدخل في تيه آخر... أعداؤنا يخططون ويدرسون الأمور من حولهم بعمق وينشئون الجامعات الدينية والدنيوية... ونحن ساهون نائمون... وكأننا ولدنا من بطن الحوت... بحجة ماذا... بحجة أننا خير أمة خرجت في الناس... نحن نملك الدين الحق... ونملك الكتاب الحق".

قال جوني:

- "هاهم المسلمين يمتدون شرقاً وغرباً أشبه بالأخطبوط... إنهم يملكون أزمة الأمور... ولهم أياد خفية تتحكم في كل شيء".

قال كوهين:

- "أنت تفكر بعقلية تآمرية... وتحسب أن كل شيء يحصل إنما هو بسبب المسلمين... وأن للمسلمين يداً فيه".

ضحكت هدية وقالت:

- "قد ذكر هذا في القرآن... عند وصفه لنا ﴿**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ**﴾".

- "من هم ؟".

- "اليهود... اليهود كلما حصلت لهم مشكلة قالوا هذه مؤامرة... نحن ضعفاء... نحن مهزومون".

قال كوهين:

- "لا علينا من ذلك الآن... المهم هو داود... علينا أن نجده بأسرع وقت".

قالت هدية:

- "الرجل كما قلت لكم... لن يكون بعيداً عن الحائط... سنرصده عند الحائط... وحتماً سنلقاه".

قال جوني:

- "هل لا زلت تذكرين شكله".

صمتت هدية قليلاً ثم قالت:

- "إيه... داود... يبدو لي وكأني أراه الآن أمامي... بالطبع لقد تغير... وقد أصبح متديناً... وربما كان الآن حاخاماً كبيراً... أبي أوحى لي بشيء من ذلك لقد قال لي: «إنه ذهب للقدس ليكون أقرب إلى الله» ربما هو الآن يمسك بالتوراة... ثم يخرج قبعته السوداء المطوية... ثم يربطها على رأسه بهدوء... ثم يرفع التوراة جهة فمه... وبهدوء يقبلها كما يفعل المسلمون مع القرآن... ويفتح على سفر القرابين... ويقرأ: «إن الله ينتظركم كي تستعيدوا الهيكل... وتبنوا فيه الموقد... وتحرقوا القرابين لله... لأن الله لن يعيد لكم الأمجاد... حتى يشم رائحة الدخان الصادر من القرابين»... نعم".

أحلام... أوهام... أم يقين

من داخل العربة... بدأ الثلاثة يسمعون الأصوات المنبعثة من الخارج... نظرت هدية مع النافذة ورأت الوجوه الحنطية... ورأت الكوفية السوداء تلتف على رؤوس الرجال والنساء... وتلك السراويل الفضفاضة والقمصان المقلمة... وأناس يذهبون ويجيئون... قالت بهدوء:

- "إنها القدس... لقد وصلنا".

قال كوهين:

- "أهؤلاء هم العرب؟".

قال جوني:

- "حتماً سنكون قادرين على قلب التاريخ... وعلى رسم صورة جديدة للعالم... ويكون العرب فيها داخل شباك العنكبوت".

وقفت العربة... ونزل الثلاثة... وبدأ كل منهم يملأ رئته بالهواء النقي الذي يحيط بالأرض المباركة... لم يكلم أحد منهم الآخر... لقد سمح كل منهم لنفسه بإلقاء نظرات طويلة حول هذه الأجواء... وهناك... هاهي القباب العالية... إنها تنتصب كالشوك في حلق كل منهم... يا الله... متى يحين الوقت... وتُدكدك القباب على رؤوس المصلين... خفت الأقدام بالثلاثة نحو زقاق واسع إلى حد ما... وهناك سألوا عن أقرب مكان للسكن... لم يكن هناك مشكلة... أحد المارة أشار لهم نحو مبنى في الجوار... وبعد دقائق أصبحوا داخل الغرفة الحجرية... في الطابق الثالث من العمارة... إنها شقة من حجرتين ودورة مياه ومطبخ صغير... قال كوهين:

- "نحتاج لخادمة... إن وجود خادمة تطبخ وتغسل يوفر علينا الوقت والمال".

خصام

مر الوقت سريعاً... وهاهي الشمس تشرق بسحر أخاذ... ومع تلصص أشعتها مع الشق الصغير المجاور للنافذة... تبدو انعكاسات الضوء جذابة... وهي تفرض نفسها على أكواب ثلاثة... مصنوعة من الكريستال الحلبي الأخاذ... القهوة هي ما سيدخل أولاً لجوف كل واحد من الثلاثة الذين ينتظرهم يوم شاق... قالت هدية:

- "سوف تذوقون المخلل المقدسي... يا سلام... وشيئاً من البازلاء... بعد قليل... وربما وجدنا ورق العنب النابلسي".

قال كوهين:

- "وبعدها سنزور الحائط... ونصلي لله... وندعوه بالتوفيق".

قال جوني:

- "وبعدها سنقابل داود... ثم نبدأ العمل".

قال كوهين:

- "وإن لم نجد داود؟... ما العمل؟".

قالت هدية:

- "لا تقل ذلك... أنا متفائلة".

خرج الثلاثة بعد أن أنهوا كاسات القهوة... وانسابوا في ثنايا الزحام... وهناك بجوار الحائط وقفوا... إنها لحظات مهيبة... دقت لها قلوبهم الخاشعة... ودعت الله من الأعماق:

- "الله... كلمة (الله)... إنها الكلمة التي رددتها ألسنتهم وهم ينظرون للجدران المبكية... هنا خشعت آلاف القلوب... وقام أناس من أجل الله... ومن أجل الشعب المختار... الذي اجتباه ربه... ليكون سيداً على العالم... واجتباه... ليكون وصياً على الحياة... نعم... بكل تأكيد... إن للعالم سيداً واحداً... كما أن له رباً واحداً... إنه الإنسان الذي يجري في عروقه الدم اليهودي... وفي العالم مسوداً... ويجب أن يبقى مسوداً للأبد... إنهم أولئك الذين لم يولدوا من نسل إسرائيل... هكذا أرادت المشيئة الأزلية".

بهذه المعاني كان الثلاثة يحدثون أنفسهم في صلاتهم... ويبنون خطط المستقبل... انتهت الصلاة... وبدأت هدية تنظر يمنة ويسرة... لقد كانت تبحث عن داود... ولكن للأسف... ليس في الأفق بوادر لقاء بداود... شعور خفي بدأ يتسرب لقلب هدية الخاوي.

- "يال خيبة الأمل... لو لم نجد داود".

بعدها بدأ الناس يتوافدون... وبدأت رائحة الفول والبيض المقلي تعم الأماكن... قال جوني:

- "لقد حان وقت البازلاء... يا هدية".

قالت هدية:

- "لماذا لا ننتظر داود".

- "سنعود بعد الإفطار... وداود لن يطير".

هزت هدية رأسها وهي تقول باستخفاف.

- "داود لن يطير".

بعدها توجهوا ناحية السوق... وفي الركن الجنوبي للعربات كانت هناك عربة صغيرة... وكان صاحبها ينادي باهتمام:

- "بازاليا الشام... يا بازاليا الشام".

وقف ثلاثتهم أمام العربة في (طابور) قصير... ومشاعرهم تكسوها الغبطة والسرور... وسرعان ما أخذوا أطباقهم المعدنية مع قطع الخبز... ووضعوها على حافة العربة... وبدؤوا في تناول وجبتهم... وعندما انتهت البازلاء من الصحون تركوا الصحون مكانها... وانصرفوا.

في تلك الأثناء عادت هدية مسرعة جهة الحائط... كان المؤذن في المسجد الأقصى يؤذن لصلاة العصر... وكان لأذانه إيحاءات قوية تسري لأعماق الأجنبيان... كوهين وجوني... وتشعرهما أنهما غرباء عن المكان... ولكنهما أصرا على مواصلة عملهما... هدية لم تجد أثراً لداود... ولكن شيئاً ما لازال يضفي على قلبها قليلاً من السكينة... وبعد انتهاء الأذان... انصرف الثلاثة ومعهم الحقيبة الجلدية... كانوا يتناوبون حملها... وفي زقاق ضيق ينظرون للمباني ذات الشرفات الخشبية... ثم يجاوزونها لزقاق أضيق... وبين متاهات البيوت القديمة يتنقلون ويأخذون عينات صغيره من الأحجار ومن الطين المبني... ولم يتأخر كوهين في رسم صورة صغيرة لما يلفت نظره... وهناك أراض فارغة لم يقم عليها بنيان...

يضع جوني فيها علامات بمسحوق النورة البيضاء... بعد أن يخرجها من كيسه الصغير... وبيوت غير مأهولة يكتب كوهين وصفها... ويرسم خارطة الوصول لها... انتهى جزء من العمل... وغداً سيتم متابعته... يلزمهم الكثير من الوقت لتحليل كل هذه البيانات... وفي طريق الرجعة تدور عينا هدية في أرض الحائط المرصوفة بالحجارة.

لا أحد هنا سوى بعض الكهول يروحون ويجيئون... تباً لكم جميعاً أين هو داود... وبعد أن وصل الثلاثة لمنزلهم بدؤوا في تحليل المعلومات... ورسم جداول دقيقة... ووضع رسومات توضيحية... استمر العمل لوقت متأخر... وخلدوا للنوم... وفي صباح اليوم التالي لم يكن الحال مخالفاً عما كان عليه بالأمس... يبدو أن هدية لم تواصل سيرها معهم إلى حيث أزمعوا الذهاب... لقد وقفت ثم قالت:

- "علينا أن نلتقي داود أولاً... وفي أقرب وقت... لا يمكن مواصلة العمل دونه".

نظر إليها جوني بخبث ثم قال.

- "العمل نستطيع مواصلته دون داود... ولكن رفيق قلبك... هو الذي لا يمكنك مواصلته... أنت تفكرين في داود أكثر من العمل".

نظرت إليه بتوتر ثم قالت:

- "احترم احترامي لك... وقدر تقديري لك... وكن قادراً على الوقوف عند حدودك".

قال كوهين:

- "لعن الله داود وهذه الظروف التي جعلتنا في حاجة له... هل هذا هو وقت الخصام".

قال جوني في صلف:

- "الحب عذاب يا سيدي... وحبيب الصبا نار تلظى".

تركت هدية صاحبيها واتجهت إلى الساحة أمامها... وهما بدورهما تركاها وانطلقا للأمام... وعندما نظرت ثانية ولم ترهما ابتلعت ريقها في غصة... ثم

اتجهت نحو شجرة زيتون ضخمة... وجلست تحتها في تحد صارخ... لماذا هي مصرة على كل ذلك... ربما لا أحد يدري... حتى هدية نفسها.

عبر كوهين وجوني أحد شوارع الحي القديم... وعند إحدى النفايات وقف جوني ليأخذ خشبه مسطحة... واستمر يتكئ عليها دون حاجة... ولكنه يعتبر ذلك انتصاراً على المرأة... التي مهما بلغت من قوة وصلابة فهي تنهار بسرعة... قال كوهين:

- "أنت فض... وصاحب مزاج عكر... ونفس متسخة... عليك أن تكون أكثر تسامحاً... هناك ضغوط داخليه يمر بها أي إنسان... وهي تحتم على من يمر بها أن يستسلم... وينصاع لمشاعره... ولو لبعض الوقت... وإذا لم نكن قادرين على فهم بعضنا فلن نكون قادرين على فهم العالم... من حق هدية أن تسمح لنفسها بالرقص... عندما يعرض لها ما يذكرها بماض يتقاطر عسلاً".

رفع جيني خشبته وبدأ يتمتم بترانيم سمجة لم يستسغها سواه... واستمر السير ناحية المزارع.

وبجوار جدار مبني بطريقة عشوائية... ويسوّر إحدى مزارع الليمون الرومي... وقف كوهين وهو يقول:

- "هنا... هذه هي الأرض... يا الله... كم نحن نعد اللحظات لنصنع تاريخنا في هذه الأرض المجتباة".

استنشق جوني هواء مليئاً بعبق الليمون... ورائحة أخرى هي أشبه برائحة زيت الزيتون... تصدرها العصارات الصغيرة التي لا تبعد كثيراً... أكمل جوني:

- "انظر... تلك الفتيات... من هناك... من حيث تنبعث رائحة الزيت".

ابتسم كوهين... وأشار بعينيه... ثم واصلا سيرهما نزولاً بين المزارع... لم يحرما نفسيهما وهما يسيران بهدوء من التمتع بسماع أصوات الدجاج والبط... وسماع خوار الثيران البيضاء وهي تحرث بجد واجتهاد... شعرا أن للسعادة هنا معنى أصيل... وصل اليهوديان النشيطان إلى تلك السقيفة الصغيرة... ونظرا جهة

تلك الفتاه المشوقة الواقفة أمامهم... والتي قد كشفت عن ذراعها وهي تدخل يدها بلطف في المعصرة الخشبية... ثم تملأ كوباً صغيراً من الزيت الأخضر الطازج... سال لعاب جوني وقال لها وأنفه منتفخ من الرائحة القوية:

- "هل تبيعين لنا".

ابتسمت الفتاه وقالت:

- "وهل أنتما غرباء".

رد جوني بمكر:

- "غرباء... نعم غرباء... ولكن لفترة محدودة... بعدها لن نكون غرباء".

قالت في دهشة:

- "ماذا تقصد؟".

قال كوهين بتوتر:

- "لا شيء... نريد قليلاً من الزيت... كم قيمته".

ملأت الفتاه قدحاً وهي تقول:

- "هذه ضيافتكما".

ثم انزوت قليلاً... وملأت يديها بالزيتون المخلل الموضوع في جرة كبيرة... وقالت وهي تتجه نحوهما:

- "وهذا أيضاً".

انصرف اليهوديان ومعهما ما حملاه... لقد واصلا طريقهما بين المزارع... ليكملا عملهما... لقد كانت السمة الملازمة لعملهما تلك... الجدية الدؤوبة... والسرية التامة... وتلك الرسومات والخطوط... وبيانات أخرى... ودقة متناهية في العمل... مر الوقت سريعاً... وقاربت الشمس على أن تحل في ركن السماء الأسفل... بعدها قال جوني في دعابة:

- "هذه المساحات هي الأكثر دقة... حري باللجنة أن تعتمد شراءها... عندما نمتلك هذه المنطقة فسنكون قادرين على إنشاء مصانع للسلاح الخفيف... ومن ثم عمل مستوطنة حصينة... وبعد ذلك سيكون الانطلاق... الانطلاق من هنا إلى احتلال الباقي".

بدأ يدق على رأسه بكبرياء... ويضحك في هستيرية... ويقول:

- "هنا عقل يفكر".

قال كوهين:

- "ولكني أفكر في الغداء بجد".

- "ولم لا... تلك الخانات الصغيرة ستوفر لنا ما نريده... المسألة ليست أكثر من السير ناحيتها".

الفصل الثامن عشر

حوار داخل الأقصى

في زاوية من زوايا المسجد الأقصى يتكئ داود... وبجواره زوجته... وبجوارهما النافذة الطويلة ذات المقابض المذهبة... والتي يتسلل منها الضوء بهدوء... قامت ريحانة وفتحت النافذة الزجاجية... وبدأ الهواء الدقيق يدغدغ نسمات وجهها... وعبق أشجار الليمون كان يحمل نفسه مع جزيئات الهواء... لم يطل الوقت... إذا برجل يقول:

- "السلام عليكم".

نظرت ريحانة... إنه أيوب... وبجواره زوجته سعدية... ابتسمت ريحانة ومدت يدها لمصافحة سعدية... ثم جلست وجلس أيوب ومد يده مصافحاً لداود... وقال:

- " داود... أنت لا تبدو سعيداً كعادتك".

- "لا شيء ولكن العالم يغلي... هناك حروب ومطاحنات... أوربا صارت كالبركان".

قالت ريحانة:

- "ماذا عن اليهود هل لازالت علاقاتهم وطيدة مع أهدافهم... لقد عرضوا على عبد الحميد شراء أراض هنا في هذه الأرض المباركة... لست أدري... رائحة

الليمون والهواء النقي... لمن ستكون ذات يوم... وهذا المسجد... لا أدري هل ستستمر وفود المسلمين تصلي فيه للأبد؟!".

نظر داود مهتماً جهة ريحانة وقال:

- "اليهود... إنهم يعملون بجد".

قال أيوب وهو ينظر للأرض:

- "نحن في الحقيقة بحاجة لاستغلال قدراتنا".

قطبت ريحانة جبينها... ثم قامت... وألقت بطرفها ثانية عبر النافذة... ثم رفعت رأسها حتى رأت زرقة السماء... ثم تنفست برئة واسعة وأغمضت عينيها... أفاقت من سهوتها تلك عندما وضع داود يده على كتفها... نظرت نحوه ثم نظرت جهة النافذة الثانية... وهناك التمعت أمامها الألوان الذهبية لقبة الصخرة... ثم قالت:

- "يال الهول... هل يعقل أن يحتل اليهود كل هذا التاريخ".

طأطأ داود رأسه وهو يقول:

- "أعلم... قلبك يغلي".

قال أيوب وهو ينظر جهة ريحانة... التي انتبهت لكلامه:

- "عليك أن تدرسي يا ريحانة... أنت مبدعة وربما كنت قادرة على عمل شيء جديد".

رفعت ريحانة يدها لتعيد ترتيب حجابها الأبيض الملتف على رأسها، ثم وضعت يدها تحت خدها في سرحان بعيد... وبعد ذلك قالت:

- "سأدرس السياسة... ربما كنت محاربة ذات يوم... قد نضطر للدفاع عن مقدساتنا... لقد بدأ شبح اليهود يطاردني منذ شعرت بهم وهم يطاردونك يا داود... إنهم يعملون بجد... ويعملون بتخطيط... وهم أيضاً يدرسون الحياة من

حولهم... وعلينا أن ندرس ونتعلم... لقد أصبحت أجيد القراءة والكتابة... حتماً سأستطيع قراءة الكتب السياسية... إن الدولة العثمانية بدأت تحتضر... ولا أدري ماذا سيحصل لو سقطت لا قدر الله".

قال داود في انفعال:

- "سأكون في خدمتك يا حبيبتي... سأحاول توفير كل الكتب التي تحتاجينها".

قال أيوب بهدوء:

- "لا... لا... لا تكن متسرعاً... يكفيني كتاب واحد في السياسة... وربما كتاب في الاقتصاد الحديث".

قال داود وهو ينظر لريحانة بثقة:

- "لا يا سيد أيوب... عليك يا ريحانة أن تدرسي أمهات العلوم".

قال أيوب وهو ينظر لريحانة:

- "إذن عليك أن تحضر لها آخر نظريات علم النفس... وعلم الاجتماع... وأيضاً علم القانون... وكتباً في التاريخ الحديث... وأيضاً في التاريخ القديم... وربما كان عليك أن تحضر كتباً في الكيمياء... والطب".

قال داود ممتناً:

- "أنت تقول عين الصواب".

حك أيوب رأسه بتفكير... ثم أردف:

- "أنا لا أشك أنك يا ريحانة ستحفظين ذلك كله... أمثالك من العباقرة لا يولدون إلا نادراً... ربما ولد واحد كل ١٠٠ سنة... إنهم يولدون بفلتة من فلتات الزمن... قد يولدون في أدغال إفريقية... أو في الصين... أو في أوروبا... وربما عاشوا إلى أن يكبروا... وعند ذلك... هم قادرون على أن يحدثوا ثورات في

العالم... وربما قتل مواهبهم تلك بعدهم عن مجريات الحياة... أو انزواؤهم في الحياة البدائية".

قالت ريحانة وهي تبتسم وتستعد للجلوس:

- "أنت تبالغ في كلامك هذا يا أيوب... ربما كان الناس سواسية... ولكن الظروف التي نشؤوا فيها هي التي صاغتهم بدرجة معينة من الذكاء... الذكاء ليس شيئاً فطرياً... وإنما هو شيء مكتسب... أظن ذلك".

وضع أيوب يده على رأسه... ثم قال مظهراً دهشته:

- "أرأيت... كلامك هذا لوحده يعتبر إحدى أهم نظريات علم النفس الحديث... إنها النظرية التي تقوم عليها المدرسة الترابطية... التي أسسها لوك الإنجليزي... في نهاية القرن ما قبل الماضي".

ابتسمت ريحانة في مكر... ثم أردفت:

- "فلم تقول أني ذكية أو عبقرية... مع أن الظروف هي التي تصبغ الإنسان... لا مواهبه".

- "أوه يا أختي... لقد طرحت مدرسة التحليل النفسي التي أسسها فرويد شيئاً غير ذلك... إنها تزعم بأن الإنسان يولد باستعدادات وإمكانيات خاصة... وهذه الاستعدادات تجعله مختلفاً عن غيره... حتى إن الأذكياء يولدون ويكونون سليمي الأبدان... خالين من العلل... ويكونون قادرين على التكيف الاجتماعي... ويحالفهم الحظ دائماً".

قال داود:

- "لا علينا من ذلك... الذي يعنينا الآن هو تلك المخططات الرهيبة... التي تعد الآن لاستغلال ثرواتنا واحتلالنا... ماذا لو نجحت مخططاتهم".

قالت ريحانة:

- "آمال اليهود أشبه بالسراب".

ولكن أيوب أجاب بحزن:

- "ولكن الدولة العثمانية أصبحت صدئة... السوسة تنخر في عظامها".

قالت ريحانة في حسرة:

- "أليست خلافة مترامية الأطراف؟".

قال أيوب:

- "إنها خلافة... ولكن اليهود استطاعوا اختراقها... لقد نفذوا إلى أعلى الرتب... أصبح قرار الخليفة لا يخرج إلا من تحت قبعاتهم... إنهم يشعلون النار... ويفرقون الصف... وهم عازمون على الوصول لهدفهم... لقد أنشؤوا الجمعيات العصرية... لاحتواء الشباب... وبدؤوا بإقناعهم بأهمية أن تتخلى تركيا عن الخلافة... وتدخل تحت مظلة الدولة الطورانية التركية... إنهم يريدون تقسيم المسلمين على أنفسهم... وعندها سيسهل قيام دولة لليهود".

نظرت ريحانة جهة داود... ثم قالت بهمس:

- "هل كنت حريصاً على قيام إسرائيل ذات يوم يا داود".

أجابها بهمس بعد أن أمال رأسه جهتها:

- "أوه يا سيدتي... عندما نجلس في المحافل... أو الاجتماعات السرية... يصيبنا شيء أشبه بالسحر... إنهم يحدثوننا عن المال وعن الثراء الفاحش... ويحدثوننا عن فرص العمل التي ستتاح لكل يهودي... اليهودي بطبعه يستهويه المال... ويستهويه الحديث عن المال... لقد نفثوا في أعماقنا شيئاً رهيباً... أقنعونا بأن بقاءنا مرهون بقيام دولة خاصة لنا... تلم شتاتنا وتوحد صفنا... وبها سنسود العالم وسننتقم من المسلمين... وأيضاً من النصارى... ولكن... أنا متفائل جداً يا ريحانة... لأنك مسلمة صادقة... وأشعر أنك بعد دراسة العلوم المعاصرة... ستكونين قادرة على إنقاذ المسلمين".

قالت ريحانة بصوت مرتفع وهي تدير وجهها نحو أيوب:

- "أنت تشعر بالمستحيل... ولكن... ومع كل ذلك... فقد قررت أن أنزع عن ظهري ثياب الجبال الموحشة... التي عشت فيها... وقررت أن أدخل في أتون هذه الحضارة... سأدرسها بتفاصيلها".

قال أيوب:

- "أنا واثق منك... وستكونين قادرة بإذن الله على إخراج جميع خصال التناقض من طيات هذه المخططات... وربما تنبه المسلمون... وكانوا أشد حذراً".

قالت له ريحانة:

- "أنت... حدثتني عن ألمانيا من قبل... أنا في حاجة لمعرفة المزيد عن الحضارة الألمانية".

قال داود وهو ينظر لريحانة ثم يقلب طرفه جهة أيوب:

- "ستكون لنا رحلة قريبة... لبيروت هناك سنشتري الكثير من الكتب".

قال أيوب:

- "إنها فكرة جيدة... ولكن... إن كانت رحلتكم جهة بيروت بعد أسبوع... فلدي حل أفضل... أنا على استعداد تام... لإحضار مجموعة من الكتب الهامة... سأحضرها من هنا من القدس... إنها لدى صديق لي... سأحضرها خلال هذين اليومين... وسأقوم بدراستها مع ريحانة... هنا في المسجد... لا زال أمامنا وقت طويل... سنقضيه هنا في القدس... سوف أحضر الكتب... وسوف تقرؤها... وستكون في غاية الأهمية... صدقوني... لا أدري... لقد أصبحت متفائلاً من أجلك يا ريحانة".

قال داود:

- "فكرة أيوب رائعة".

استقبلت ريحانة وزوجها فكرة أيوب بترحيب كبير... وانفض المجلس... وفي غداة اليوم التالي... كان أيوب مقبلاً نحو المسجد... لقد رُفع للتو أذان الفجر... كان أيوب يتقدم ومعه مجموعة من الكتب.

وبعد انتهاء الصلاة... جلس الثلاثة... أيوب وداود وريحانة... في الزاوية التي جلسوا فيها بالأمس.

بدأت القراءة... واستمرت مدعمة بالشرح والتعليق... وحين حان وقت الفطور... خرج أيوب جهة السوق ليحضر الفطور... لم يطل الوقت... لقد حضر الفطور... وفي المكان نفسه تم تناول الطعام... مسح كل فمه بمنديل أخرجه من جيبه بعد أن أنهى طعامه... ثم عاد أيوب لمنزله... وكذلك عاد داود وزوجته...

وبعد صلاة المغرب... كان أيوب يحمل كتاباً آخر... وفي تلك اللحظات... بدأت الدراسة..

الطعام... ودموع اللقاء

أشعة الشمس تعم الساحة الكبيرة للمسجد... وداود يخرج من المسجد مسرعاً... ويتجه نحو السوق... إنه يفكر بعمق... إنه يريد اختيار أفضل أصناف الطعام من هذا الخان الصغير... أوقات الدراسة لذيذة للغاية... ولكنها تُشعر بالجوع... وعليه أن يعود بسرعة إلى المسجد... فهناك أيوب وزوجته سعدية... وهناك أيضاً ريحانة... الوقت الآن قد شارف على الظهيرة... وهذا هو اليوم السادس... منذ البداية الجادة... في تحصيل الدراسة... كتب عجيبة تلك الكتب التي يحضرها أيوب.

أوه ... ما هذا... هذا الخان أفقر من بيت الخنفساء... ولكن الخيارات قليلة... قال داود لصاحب الخان:

- "صحن فاصوليا... وصحن طعمية... وصحن حمص... أربع قطع كباب".

- " لا يوجد لدينا يا سيدي مما طلبت سوى الحمص".

- "آخ منك... ومن هذا المطعم".

أخذ داود صحن الحمص... وانتقل إلى عدد من المطاعم الصغيرة المجاورة... لقد استطاع أن يحصل على جميع طلباته... بعدها عاد مسرعاً... كل شيء يبدو هادئاً... والأمور مستتبة... وخطوات داود المتسارعة تقربه شيئاً فشيئاً من المسجد... إنه يغذ السير حاملاً معه الطعام... وهو ينظر يمنة ويسرة... يسأل نفسه:

- "هل سيأكلون هذا الطعام داخل المسجد... أم أن الأكل خارج المسجد أفضل؟ وهناك... تلك الشجرة... أوه... إن مكانها مناسب جداً... ولكن... يال الأسف... تلك المرأة جالسة... ربما قامت الآن".

اتجه داود جهة الشجرة ليراقب الوضع عن قرب... كانت الخطوات السريعة التي من شأنها أن توصل داود في وقت قصير هي ذاتها ما أخره... خطوة واحدة من تلك الخطوات لم تكن بالطريقة المناسبة... والطعام جميعاً محمول في يد واحدة... واقترب داود من الجالسة هناك... ولكنه عثر فجأة... كم هو قبيح أن يسقط الإنسان أمام من يراقبون خطواته... وكم هي مشاعر مؤلمة تلك المشاعر التي تسيطر على أعماقه وهو ينتقل من حال الخطوات السريعة الواثقة في الوصول... إلى حركات مضطربة تنتهي بكدمات على الوجه... لم يكن داود وحده من سقط... ولكن الطعام الذي يحمله داود قد حضي ببعثرة أكثر... منظر داود صاحب اليد الوحيدة مؤلم لمن شاهده... ولكنه كان أكثر إيلاماً للجالسة تحت الشجرة هناك... والتي بدا وأنها تنتظر مخلوقاً يسقط لتقيل عثرته... لقد قامت هدية لتعين هذا الرجل المتعثر... عليها أن تفعل خيراً في يومها ذاك... ينسيها تلك الحماقات التي صنعها جوني التافه... وتنسيها أيضاً كلمات السباب التي انطلقت من فمه كالسهام.

سارت هدية بسرعة... وعندما وقفت بجوار الرجل... انحنت بظهرها قليلاً... ثم أمسكت بيده... أوه لقد رق قلبها لحاله... رفعته حتى جلس... وعندما رأت منظر يده المقطوعة أغمضت عينيها في تأثر... ثم ربتت على ظهره وهي تقول:

- "لا عليك... أنت بخير".

بدأت هدية تجمع الطعام الذي تناثر... لم يعد أكثره صالحاً لأن يدخل جوف إنسان... ولكنها أرادت بفعلها ذاك أن تجبر قلب هذا الرجل... ابتسم داود لها شاكراً... قابلت هدية ابتسامة بابتسامة أخرى... بيد أن عينيها لم تكن قادرة على الانفكاك عمَّا أحسته تشبثاً بملامح وجهه الدقيقة... عينا هدية تنساب بين التقاسيم الهادئة... التي ارتسمت في وجهٍ هو أكثر نصاعة وصدقاً... بيد أن داود كان ثابتاً كالطود... عندما دقق ببصره للوجه المتدفق أمامه بكل أسئلة التعجب.

وقف البصر ليملي خطبة عصماء... لم يكن ليجيد سبكها أديب بليغ... يملك ألف لسان... ولولا أن العيون قادرة على الإفصاح عن كينونة الصدور أكثر من قدرة الألسن لما كان للمشاعر أي معنى... ذلك ما كانت تفعله عينا هدية... وهي تلج وتخرج... من عمق الذكريات... ولكنها فجأة وقفت عاجزة عن فهم ما أمامها.

ثم تراجعت في استسلام... من يكون هذا الملتحي صاحب السجدة على جبينه... أوه... يا الله».

خارت الذاكرة المكدودة عن أن تجد علاقة بين هذا الجالس أمامها وبين ما حسبته داود... لفرط جهلها... هزت هدية رأسها في تعجب... وصرف داود بصره... وأقبل من هناك كل من جوني وكوهين... وعندما وقفوا أمام هذا الرجل ابتسما... وقال كوهين مداعباً:

- "سلامات".

قال جوني.

- "عليك أن تنتبه في المرة القادمة".

وقف داود على قدميه... ثم نظر للمرأة أمامه... وقال:

- "أشكرك من أعماق قلبي... يا سيدة".

ثم صمت وكأنه يريد أن يتذكر لها اسماً... قالت:

- "هدية... يا سيدي".

ابتسم داود كمن يخطط لشيء ما... ثم أردفت هدية بقولها:

- "ومن تكون أنت".

- "أنا محمد بن عبد الله".

قالت في استغراب:

- "محمد بن عبد الله... من أي البلاد أنت؟".

- "من أرض الحجاز".

وضعت هدية يدها على فمها... وقالت بصوت خافت:

- "ياله من شبه دقيق... لولا هذه اللحية والعمامة الصغيرة... وعلامة السجود... وتلك اليد المقطوعة... أوه... يا لها من متاهة".

قال جوني:

- "أي شبه تقصدين".

- "لا عليك...".

-"... أ... م... هـ... صحيح...".

لملم داود حاجياته وحملها... ثم قال وهو ينظر لهدية:

- "من يكون هؤلاء يا سيدة هدية؟".

قالت وهي مندهشة:

- "يا إلهي... الصوت هو الصوت".

ثم هزت رأسها وأردفت:

- "هل تعرف داود؟".

- "أي داود... هذا الاسم نادر عندنا".

- "إنه يهودي... إنه صديق قديم".

- "وهل هذين الرجلين يهوديين".

- "نعم إنهما صديقاي".

قال داود وهو يدير طرفه فيهما:

- "جاءا للعمل... أليس كذلك... بالتأكيد... من أجل... من أجل المشروع الصهيوني".

بهت الجميع لهذه الكلمة... وكل منهم بدأ ينظر للآخر... أردف داود:

- "ولكن كتابكم المقدس يأمركم أن تبقوا كما أنتم... لأنه كتب عليكم التفرق إلى يوم القيامة... بسبب تلك الفظائع التي رددتم بها نعمه عليكم... وقد توعدكم الله في التوراة أن أي دولة تحدثونها لتجمعكم... لن تكون إلا الخطوة الأولى في طريق نهايتكم... لأن قوماً أولي بأس شديد سيسلطهم الله عليكم... لو قدر القدر واجتمعتم في مكان واحد".

اقترب جوني من داود حتى صار أنفه بأنفه... ثم أخرج هواء عكراً من رئته... وظهر معه أزيز أشبه بصفارة الليل... وهو يخرج من فتحتي منخريه... ويصدم بشاربه الأصفر... ثم قال.

- "نحن أسيادك... وأنت كالخادم... عند أقدام اليهود... لك يوم أيها العربي المرتمي على قارعة الحضارة... أنتم لم تخلقوا لتضعوا أيديكم على تاريخنا وحضارتنا".

اقترب كوهين من جوني وهو متوتر... ثم دفعه للخلف قليلاً وهو يقول:

- "عليك أن تلتزم الهدوء... يا أحمق".

سحب داود أنفه ثم قال:

- "نهينا أن نخاطب الجاهل".

ثم انصرف جهة المسجد... وبقي الثلاثة ينظرون لبعضهم... بيد أن الصورة التي سحب داود فيها أنفه... لم تزل عالقة بذهن هدية لبعض الوقت...

قال جوني:

- "سوف يأتي اليوم الذي يلعق فيه العرب أقدامنا... ويعملون عندنا مثل الخدم... هذه الأرض هي أرضنا... وترابها هو التراب الذي منحه الله لبنيه".

بدا كوهين غير مرتاح لهذه المهاترة... استغلت هدية هذه النقطة وقالت:

- "هناك أسرار يجب أن لا تخرج من جوف اليهودي حتى يخرج قلبه معها... ولكن الحمقى يستخفون بالقسم الذي قطعوه على أنفسهم".

قال جوني:

- "ليس الأحمق سوى المرأة التي تمد يدها لهذا المعتوه... أنا أعرف كيف أحفظ قسمي".

قال كوهين:

- "أقسم أن الحمق هو بقاءنا هنا... وراءنا الكثير من العمل... وهذا الغداء اللعين لم يعد لي من حاجة إليه... سأذهب جهة المزارع".

انتفض جوني ثم قال:

- "لا عليك... سوف أشتري الغداء... وآتي به نحوك".

قال كوهين:

- "إذن عليك أن تشتري غداء يكفي لثلاثة أفراد".

قالت هدية:

- "نعم عليك أن تحضر طعاماً يكفي لثلاثة... لأن كوهين سيأكل نصيبه... وأنت ستأكل مثل نصيبه مرتين... فالحمار دائماً يأكل مثلما يأكل الإنسان مرتين".

نظر جوني لهدية بغضب وبدأ يفرك أصابعه... ولكن كوهين دفعه للأمام قائلاً:

- "هيا... لا تكن سفيهاً".

اتجه جوني إلى أحد الحوانيت... وسارت هدية تجاه المزارع... في حين بقي كوهين ينتظر..

هدية ... محمد بن عبد الله

مع الصباح الباكر... وجهها الحزين تحمله هدية... لتتجه نحو الخان... هذا هو اليوم الخامس للمجيء للقدس... وأمامها هناك يجلس كل من جوني وكوهين... ليست مكترثة بالجلوس معهما... لقد رقص قلبها لرؤيتها ذلك الرجل المسلم... والمسمى محمد بن عبدالله.. إنه شيء يقترب من داود... ولكنه يبتعد عنه فجأة... صورته تتراءى فيه... ولكنها لا تكاد تنطبق عليه... جلست هدية على المقعد... وطلبت وجبتها من البيض المقلي والزيتون والحمص... وقطعاً من لحم الدجاج المشوي... وهي متجاهلة تماماً للجالسين في المقعد المجاور... قال جوني:

- "داود هذا يبدو أكذوبة من الأكاذيب".

قال كوهين:

- "علينا أن نتصرف... يجب أن نجد الرجل المناسب الذي يساعدنا في تملك بعض العقارات باسمه... كي يتسنى لنا فيما بعد نقلها باسم المنظمة... العرب هنا قد لا يبيعون إلا لمن يوحي شكله ولغته بأنه عربي صرف".

قال جوني:

- "عليك اللعنة يا داود... وعلى من أوهمنا بك".

زفرت هدية بغضب في حين وصل إلى طاولتها مناول الطعام في المطعم... وهو يحمل كوباً من الماء... قالت له وهي تشعر أن عيني جوني الفاسق تكاد تحرق خديها:

- "ألا تعرف شيئاً عن رجل اسمه داود".

قال الرجل.

- "داود يا سيدتي؟؟... داود الدمشقي؟؟".

قامت هدية وهي تقول:

-"نعم هل تعرفه؟".

- "أوه... ومن لا يعرف داود".

قالت في لهفة وهي تمد يدها لتمسك بكتف الرجل:

- "أين هو... أخبرني أرجوك؟".

- "أوه... داود... إنه حمامة مسجد".

قالت هدية مستغربة.

- "حمامة مسجد؟... ماذا تقصد".

- "نعم... لقد رسم الإيمان على وجهة قرصاً آخر للشمس".

- "أي إيمان... هل عرفت من أقصد؟".

في تلك الأثناء قام جوني وكوهين وجلسا على الطاولة التي تجلس فيها هدية... ربما كانا حريصين على المشاركة في الحديث... أو على الأقل معرفة ما يدور... قال خادم المطعم:

- "ألا تقصدين داود... زوج السيدة ريحانة".

قالت قي توتر:

- "ريحانة !!".

ثم جلست في شيء من خيبة الأمل... في حين واصل جوني أسئلته.

- " أين هو الآن؟".

-"لقد سافر... ذهب إلى بيروت".

ضحك الخادم بخفاء ثم أردف:

- "بالأمس... كان هنا... واشترى الغذاء... ثم عاد... واشترى الغذاء مرة ثانية... في الحقيقة لقد سقط الغذاء من يده في ساحة المسجد... مسكين... لديه يد واحدة... ولكنه على كل حال قوي جداً".

دارت الدنيا في عيني هدية ولم تقف حتى طأطأت رأسها... وقت قليل ولاصق رأسها الطاولة... ثم قالت تحدث نفسها بهدوء:

- "ذاك هو محمد بن عبد الله... ليس داود... ليس داود".

أحاسيس هدية ترمي بها شرقاً وغرباً... محمد بن عبد الله... صاحب اللحية الكثيفة والعمامة... واليد المقطوعة... وذلك الأنف الذي تتمثل فيه كل أوصاف داود... قال كوهين في اهتمام:

- "هل من الممكن أن يكون الرجل الذي لقيناه بالأمس يحادثك يا هدية... هو داود؟".

قال جوني في تشفي:

- "هل هي تكذب علينا... أوه يا إلهي... أخشى أن تكون ميالة للمسلمين... يال الهول... أصلها الشرقي يوحي لي بالشكوك".

قال كوهين وهو ينظر نحوها:

- "هل خرج شيء من أسرارنا يا هدية... تكلمي".

رفعت هدية رأسها من فوق المنضدة... قالت وهي تهز رأسها بالمعارضة:

- "مستحيل... مستحيل أن يسلم داود".

قال كوهين:

- "إذن أنت لا تعرفين هذا الرجل؟؟".

قال جوني في إحساس بالنصر:

- "أقسم أنها أفضت إليه بكل الأسرار".

قال كوهين مؤنباً:

- "اصمت أنت يا جوني".

جلس كوهين في المقعد المجاور لمقعد هدية... وجلس جوني مواجهاً لها... في حين مدت هدية يدها نحو كوب الماء... وشربت منه قليلاً وهي تشعر بعطش شديد ثم قالت:

- "داود... لماذا احتقرت دينك ورسالتك المقدسة... وتخليت عن مبادئك؟!".

قال جوني مستهتراً:

- "والأنف الطويل الذي منحك إياه الرب... لماذا سخرت منه؟".

ضحك كوهين في وقت لا يليق فيه الضحك... في حين لم تتأثر هدية بما سمعت... لذا أردف جوني:

- "علينا أن نتحرك بأقصى سرعة... تجاه هذا الرجل... لست على علم أي المعلومات يملكها... ولكنه بالتأكيد سيكون خطراً علينا جميعاً... هذا إن ثبت أن هدية بريئة من أي علاقة معه".

قال كوهين:

- "لست أنت من يحكم على هدية".

ثم اقترب من هدية أكثر وقال:

- "بل علينا أن نكون معها في هذه الظروف الصعبة... أنت مخلصة يا هدية... وحق لكل صهيوني أن يفخر بك".

قامت هدية متجاهلة من حولها... في حين قال جوني:

- "لن أصمت أبداً على هذا الوضع... سوف أرفع تقريراً بكل ما حصل... وذلك اليهودي المرتد... صاحب الأنف الأصيل... لن يكون له بقاء على وجه الدنيا... فليس في الدنيا مكان للخونة".

الفصل التاسع عشر

سبران

الطريق إلى بيـروت... إنهـا خطوات تطول لمن ينتظـر... والعـربـة التي يجـرهـا الحـصـان تسـيـر بحـفـظ الله... ليس ثمة مـا يخـيف... الطريق يسـيـر مع الناس... والقرى متواصلة.

ولكن الشيء الذي يشغل عقل داود... تلك الصورة... التي شاهد فيها هدية... وهي واقفة أمامه... وشاهد الذئبين اللذين يقفان بجوارها... بالطبع هي إصبع من أصابع الصهيونية... لا جدال في ذلك... كما أنهما أيضاً أصابع.

لم يكن داود ليظن... أن هداية الله ستـدله على تجـاهل هدية عند مـقـابلتـه لهـا... ولم يكن في تصوره أن قلبـه سـيطاوعـه على تجـاهلهـا... ولكنه تجـاهلهـا بالفعل... رغم أنها لا تعرفه... ولكن... لقد كانت نظراتها نحوه نظرات حالمة... إنه تغلب على كل ذلك... وهو يشعر الآن بقوته... ويشعر بانتصاره... وها هو يودِّع بيت المقدس في لحظات حزينة... ولا يدري ماذا يخفي له القدر.

ومع مرور الوقت... تختفي القرى... وتظهر قرى أخرى... ومع حلول الظهيرة وقفت العربة الصغيـرة بجوار تلك القرية... إنها قـرية هادئة... تنتشـر الأشجـار بجوارها... داود وزوجته ريحانة سيتوقفان هنا للصلاة... مع سائق العربة... وسوف يقضيان ساعة للراحة.

وتحت ظل شجرة الكينة الكبيرة... يمد داود رجله بهدوء... ثم يمد يده ليصف لريحانة كثيراً من الأشياء... بيد أنها لم تكن منتبهة معه.... إنها تراجع وريقات لها... قد دونت فيها بعض المعلومات... لم تعد الكتب الآن لتفارق ريحانة... المرأة التي أصبحت بشرتها طرية إلى حد ما... مع نسمات جو الشام الباردة.

وفي خضم هذا الجو الرائع سُمعت أصواتٌ متداخلة... لطقطقات أقدام حصان مع إطارات العجلات... ريحانة تقرأ شيئاً عن تاريخ أمريكا... وقد فصلت تلك الأصوات شيئاً من انسجامها مع ما تقرأ... وأخيراً بدا الغبار يتضح... ثم اقتربت العربة أكثر حتى صارت أمامهم... وضعت ريحانة يديها على أذنيها... كي يقل حجم الصوت... وعندما ولّت العربة ألقت عليها ريحانة نظرة حنق سريعة... ثم صرفت نظرها... بيد أنها تذكرت شيئاً... لذا أعادت النظر جهتها مرة أخرى... ثم ركزته أكثر.

طال الوقت أو قصر... ولكن اللحظات الأخيرة كانت كفيلة بأن تفتح باباً عريضاً في ذاكرة ريحانة... باب طال انغلاقه... وفي ذلك الباب ظهرت الصورة الناصعة التي ينبعث منها النور كلما لاح لريحانة أن تشاهدها ثانية... وجه عين الدين... الأب الحنون... الذي منح ريحانة لبن العطف في سني يتمها القاسية... وهي لم تجاوز عقدها الأول.

كانت حينها طفلة يتيمة بضفيرتين... تتراقصان بخفة كلما انطلقت الفتاة جرياً خلف غنيماتها... وذلك الثوب المسحوق تحت أقدام الزمن... والذي قطع مشواراً طويلاً حتى انتهى به المطاف غطاء لأضلاعها الناتئة من تحت الجلد... بعد أن كان عمامة لأحد عابري السبيل... ثم سروالاً لجارتهم دحيا... ولما ضاقت منه دحيا ذرعاً خاطته ثوباً للصغيرة اليتيمة... وكان أكثر مناسبة لتقاسيم معاناتها أكثر من مناسبته لستر بدنها ... وفي كنف تلك الحياة البائسة تمتد يد عين الدين لتمشيط رأس أشعث... شيدت فيه قطعان القمل مستعمرات وممالك... وبنت فيه الأتربة المتراصة كثباناً تصعب إزالتها... كانت يد عين الدين الحانية تمشط بلطف كي لا

يتقطع الشعر... أو ينكشط الجلد مع التراب... ولكنها لم تكن لتعلم حينها أن تحت غطاء هذا الرأس عقل عالمي... لا يؤمن بحدود الزمان والمكان... قادر على أن يسبح في ملكوت عالمي من الإبداع.

وهناك بدأت الحكاية... وهنا تتجدد الصورة ثانيةً... عند رؤية ريحانة لهذه العربة... (قرية الضافية... قضاء المونة)... هذه الكلمات الأربع هي ما قرأته ريحانة على ظهر العربة المولية... وكانت هذه الكلمات كفيلة بأن تقذف في أعماق عقل جهنمي أرتالاً هائلة من التفكير... لأن هذه الكلمات ذاتها قد خرجت من فم عين الدين وهو يبدد غربته... ويبدد وحدة الأطفال الثلاثة... سبران وصبرة... وريحانة الصغيرة... والجو الغائم... والعصافير التي تعود لأوكارها... مع التقاء الجبال الشامخة بشمس الغروب... قال ساعتها عين الدين:

– "أنا أحب بلدي تركيا... ولكن البحث عن الرزق جعلني انتقل إلى هنا... هناك قد تعلمت الكثير... عن الطب... وتعلمت الكثير من فنون الحياة".

انتفض سبران في دهشة وقال.

– "كيف يكون الإنسان طبيباً يا عمي".

مد عين الدين يده حتى وضعها على كتف سبران... ثم هزه بلطف وعيناه الخضراوان تلتمعان في صفاء... و وجهه المستدير يتلألأ... ثم قال:

– "وهل تريد أن تكون طبيباً إذا كبرت يا بني؟".

– "نعم أريد أن أعالج المرضى... وأن أكون مثلك تماماً".

– "أوه... مثلي تماماً... أنا قضيت أربعة أعوام في قرية الضافية... قضاء المونة... إنها بلد جميل في بلاد الشام... شمال مدينة القدس... ولكن الطبيب يجب أن يكون قلبه قوياً".

فتلت صبرة شاربها الأشقر الصغير ثم قالت:

- "قلب سبران لا يُخوّله إلا أن يكون راعياً... وعلى أحسن الأحوال طبيباً لجراحة الأغنام".

بدأ الغضب يرتسم على وجه سبران ثم قال بحنق:

- "بل سأكون طبيباً رغم أنفك... وسأتعلم كما تعلم عين الدين".

قالت صبرة ضاحكة وهي تمد يدها:

- "ستتعلم في ذلك الجبل... هناك... أمامك".

قال سبران متحدياً:

- "بل في قرية الضافية".

ابتسم عين الدين له وقال:

- "إذا أردت أن تذهب لدراسة الطب في قرية الضافية فعليك أن تعرف الطريق جيداً... وعندما تصل لها فاذهب إلى الطبيب (شاهين الزبيري) إنه رجل كريم طيب النفس... الله كم تحوي الدنيا من الناس الذين يذللون أنفسهم من أجل خدمة الآخرين".

قالت صبرة:

- "سبران سيبذل حياته في خدمة الآخرين... ولكن من الأغنام المريضة".

ثم أردفت بضحكة طويلة... قال سبران:

- "بل والله سوف أعالج حماقاتك وجنونك".

كانت ريحانة حينها تنظر بكل براءتها لمشهد الثلاثة وهم يتجاذبون حديثهم... ولم تكن لتعلم حينها أن تلك الأشياء ستنقش في ذاكرتها الملتهبة... لتبدو لها في يوم ما... كي تحدث في أعماقها صدمة قوية.

ريحانة الآن تنظر لمشهدهم المرسوم في ذاكرتها... ولكنها تنظر له بحنكة بالغة... أخوها سبران... كم طال المدى وطال الفراق... وكم هي قاسية تلك الحياة التي فرقت ما اجتمع في يوم ما... إنه أخوها... الذي قد طال غيابه... ولا تدري... أفي بر هو أم في بحر... هل هو في جوف سبع أم طير... أم أنه حي يرزق... أم تراها ابتسمت له الأقدار... وكان طبيباً بارعاً.

إنه ذكي... أبداً لا ينقصه الذكاء... طأطأت ريحانة رأسها في ذهول... هل يا ترى يكون مجرماً قد غاب في غياهب السجون... لم تحدث ريحانة نفسها بقتل سبران لعين الدين... ربما لأنها تحمل في ذهنها حقيقة ما... حقيقة أخرى... بيد أن ريحانة لا تحمل التناقض الذي يجتمع في حبها لعين الدين وحبها لأخيها... وفي كون أصابع الحقيقة تشير إلى أن أخاها كان قاتلاً مجترئا على حرمة دم عين الدين... نظرت ريحانة جهة داود ثم قالت:

- "داود".

- "لبيك".

- "علينا أن نتبع هذه العربة".

- "هذه العربة؟... لماذا يا عزيزتي".

- "ثمة قصة طويلة".

- "وما دخل القصة الطويلة بهذه العربة".

أقفلت ريحانة كتابها بهدوء... ثم نظرت في الأرض تتأمل قليلاً... ثم قالت.

- "داود... إنه أخي... نعم أخي سبران... قلبي يحدثني أني سأجد سبران في هذه القرية... قرية الضافية... نعم يا داود... نفسي تحدثني أن ذلك الحديث الذي دار بين عين الدين وبين سبران حول تعلم الطب لم يكن ليذهب أدراج الرياح... لابد وأن سبران قطع القفار والفيافي... ولا بد أن المسير قد أضناه حتى حطت به قدمه هنا... أشعر بذلك... ربما كان قدري أن أكون إلى جواره بعد سنوات طويلة من الفراق".

قال داود مهتماً:

- "أخوك يا ريحانة... آه كم سأكون سعيداً لو وجدت أخاك... كلما شعرت أن السعادة تحيط بقلبك أشعر أنني أغرق فيها".

- "بالتأكيد يا داود... كم هو أليم أن يحرم الإنسان ممن عرفهم في زمن طفولته... عين الدين ذهب إلى رحمة الله... وصبرة كذلك... وأخي الآن... ربما كان في حاجة ماسة إلي".

قال داود في اهتمام:

- "هيا بنا".

قرية الضافية

قرية الضافية... بأشجارها المتراصة في سفوح التلال الصغيرة... والمحيطة بالبيوت الحجرية ذات الطابع الشامي المميز... والرجال والنساء... والبهائم... وصوت حادي يحدو بأناشيد رخيمة... تقف عند سماعها الفتيات اللواتي يحملن الماء... وعربات قليلة تدخل للقرية لتحمل بعض الماعز... وأشياء أخرى... وعربة ريحانة وزوجها هي العربة الوحيدة الداخلة في تلك اللحظات... قالت ريحانة:

- "هل تظن أننا سنجد أخي... يا داود".

- "التفاؤل طيب... والتفاؤل يحبه الله".

- "ولكن السنوات طالت... يا داود... والفراق كان أكثر طولاً... لقد نسيت أخي من طول الفراق... وفجأة تفجر الشوق في نفسي كالبركان... لست أدري لماذا يا داود... ولكنه الدم... الدم يحن إلى الدم".

صاح داود منادياً صاحب العربة وهو يقول:

- "قف يا عبيد... قف هنا".

وقفت العربة... ونزل داود جهة أحد المزارعين... كان المزارع واقفاً بجانب جدار مزرعته... وفي يده مسحاة ذات نصل طويل... سأله داود:

- "أين هو منزل الطبيب شاهين".

في تلك اللحظة كانت ريحانة قد نزلت هي الأخرى... وعندما نظرت لملامح المزارع وهو يسمع اسم شاهين لم ترقها تلك الملامح... لأن شيئاً من الحزن بدا جلياً عليه... قالت ريحانة:

- "إياك أن تقول إنه قد أصيب بسوء".

- "أوه يا سيدتي... ربما هو يلفظ أنفاسه الأخيرة... إنه عجوز طاعن في السن... وربما قد انتقل إلى جوار الله... منذ مدةٍ زرته في منزله... كان مريضاً".

طأطأت ريحانة رأسها قليلاً... ولكنها رفعته فجأة ثم سألت:

- "هل تعرف شيئاً عن سبران".

حك المزارع رقبته من الخلف لتبدو أصوات الشعر وهو يتقصف بفعل أصابعه الحرشاء... ثم قال بتأمل.

- "سبران... لم يمر علي هذا الاسم".

أراد المزارع أن يوليهم ظهره... ولكن ريحانة أردفت بسؤال آخر:

- "إنه شاب دون العشرين... أو فوقها بقليل... قد جاء هنا ليتعلم الطب... منذ سنوات بالطبع جاء... لقد مكث فترة عند الطبيب شاهين".

- "أوه... إياك أن تقولي لي إنه صابر".

قالت في لهفة.

- "صابر؟... قل لي... ماذا عن صابر".

- "أوه صابر... لقد بقي أشهراً وهو يخدم عند الطبيب... بعدها اختفى... لست أدري ما قصته".

قالت ريحانة وهي تبتلع ريق القلق:

- "قل لي إذن يا سيدي... ما هي أوصافه".

- "أسئلتكم كثيرة... لست أدري... أنتم تضيعون الوقت علي... ها هو الماء فاض من الحوض... أنا مضطر للانصراف... أرجو أن تجدوا شاهين حياً... إذا أردتم لقاءه فاذهبوا بسرعة".

انصرف المزارع... ونظرت ريحانة لداود بخيبة... ثم قالت:

- "صابر... هل يمكن أن يكون سبران قد غير اسمه... المشكلة أنه رحل... يبدو أن صابراً هذا قد رحل من فتره طويلة... لعلنا نجد حل اللغز عند شاهين ولكن شاهين قد شارف على الموت... لست متفائلة من كون شاهين ما يزال حيًا".

- "كوني متفائلة".

مرَّ وقت سريع. وأخيراً تقف العربة أمام المنزل العتيق وتبدو ملامح الحزن كصوره زيتية ملازمة للجدران الطينية... ومع صوت عبيد وهو يوحي للحصان بالوقوف... انفرج الباب الخشبي... ذو اللون الأصفر الزاهي... بكل هدوء... لم يكن لريحانة إلا أن تبقى لحظات تنتظر ماذا سيسفر عنه انفراج الباب... لحظات ويسفر انفتاح الباب عن المنظر الرهيب... المنظر الذي أجبر داود الواقف بجوار الباب أن يطأطئ رأسه إلى الأرض... في حين نزلت ريحانة:

- "السلام عليكم".

قالتها ريحانة... في حين تجلت المرأة العجوز التي طعنت في سنوات عمرها بالقدر الذي طعنتها به تلك السنوات... وبعد أن رفعت حاجبين شائبين قد تدليا على العينين اللتين كانتا بالكاد قادرة على فك رموز الصور... قالت:

- "من أنتم... ماذا تريدون...".

قال داود:

- "نحن نبحث عن الطبيب شاهين".

نظرت العجوز بنظرات غير ذات معنى... ثم دخلت وأقفلت الباب خلفها... أدارت ريحانة وجهها جهة داود... ثم قالت:

- "ما الذي دهاها".

لم يطل الوقت حتى جاء شاب في العشرين من عمره... وعندما اقترب من داود وريحانة أبدى شيئاً من تعجبه... إلا أن داود قال في عجل:

- "نحن هنا... ونريد السؤال عن الطبيب شاهين".

أشاح الشاب بوجهه... وقال في حسرة وألم:

- "لتوها لم تأكل بدنه ديدان التربة... ولكنه انتقل إلى جوار الله... سيلقى رباً رحيماً... بإذن الله".

قالت ريحانة بأسف بالغ:-

- "شيء رهيب... أن يموت أناس لازالت الدنيا بحاجة إليهم".

قال الشاب في امتنان:

- "شكراً... أنتم لطفاء... هل من خدمة".

قال داود:

- "لو سمحت... من تكون العجوز بالداخل".

-"إنها جدتي... هي زوجة المرحوم... ولكنها في المنعطف الأخير من حياتها... لم تعد قادرة على استيعاب شيء من ترهات الدنيا... التي تفاجئنا بها بين الساعة والأخرى".

قالت ريحانة:

- "نعم... هذا هو الإنسان... إن عمره المديد يجعله في النهاية غير مطمئن للدنيا... لكثرة ما يشاهده من المتناقضات... الإنسان في آخر حياته أعقل ما يكون... وأكثر فهماً للدنيا... وعندما يصيبه الخرف فهو يصل لمرحلة الفهم المطلق لكثير من معاني الحياة... الخرف في تصوري هو شيء من رفض العقل للتناقضات".

ابتسم الشاب وقال مهتماً.

- "أرجوكم... كونوا في ضيافتنا الليلة".

قالت ريحانة:

- "أشكرك... ولكن نحن نبحث عن شاب اسمه سبران".

قال الشاب:

- "لم أسمع به من قبل".

- "ربما كان اسمه صابر... ويقال إنه عمل مع الطبيب فترة من الزمن".

- "صابر... نعم... نعم... سمعت عنه... ولكن لم أقابله".

قالت ريحانة:

- "يال خيبة الأمل... هل تعرف أين هو الآن".

- "يقال إنه سافر لتركيا... ولكن انتظري قليلا".

دخل الشاب للداخل... وبقي فترة من الزمن... ثم خرج ثانية وقال:-

- "تفضلوا للداخل... هناك أمر هام".

نظرت ريحانة لداود... ثم هزت رأسها... ودخلا للداخل... وسرعان ما مد الشاب يده قائلاً:

- "تفضلا".

كانت الكراسي الخيزرانية موضوعة في الفناء المفتوح... والذي تحيطه الغرف... وتنتشر في جنباته أشجار ورود صغيرة... وشجرة ليمون محملة بالثمار الخضراء...

جلست ريحانة وداود... وغاب الشاب قليلاً... في حين جاءت العجوز وألقت بنظرة هادئة على الضيفين... ثم عادت للداخل... لم يطل الوقت... لقد جاء الشاب ومعه صندوق صغير... وعندما جلس مقابلاً ضيفيه فتح الصندوق... وأخرج مجموعة من الأوراق... ومجموعة من الظروف البريدية... وقطعاً أثرية صغيرة... وقال:

- "أنتم محظوظون".

رفع يده لأعلى... ثم أكمل:

- "أنا واثق بكما... لم أسألكما من تكونان... ولكن سماتك أيها الشيخ تجعل قلب من يدقق في ملامحك يشعر بالطمأنينة... هل تتكرما وتخبراني من تكونا".

قالت ريحانة:

- "أنا ريحانة... وسبران هو أخي... وعين الدين هو طبيب كان في قريتنا... وذات مرة أخبرنا عين الدين عن رجل طيب... اسمه شاهين... ويسكن في قرية الضافية... وحينها قال أخي إنه عازم على تعلم الطب... وفي أحد الأيام حصلت مشكلة في القرية... وبعدها اختفى أخي... وقد كنت وقتها صغيرة... وبعد أن كبرت قذفت بي الأقدار... حتى رأيت لوحة فيها اسم القرية... عادت لي الذكريات... وأحسست بلهيب الشوق يحرق وجداني كي أقابل أخي... وها أنا الآن أسأل عند الطبيب".

- "أوه... صحيح... قصة مؤلمة".

أخرج الشاب الرسائل... وبدأ يفتحها الواحدة تلو الأخرى... وقد كانت الرسالة الرابعة مكتوبة بقلم الرصاص... وهي رسالة من صابر... قال الشاب:

- " هذه الرسالة من صابر".

وفي قلق واضح مدت ريحانة يدها وأخذت الرسالة... وفتحتها... ثم استنشقت الهواء بعمق... ثم أغمضت عينيها... لقد شعرت بشعور غريب... أحست

أنها قد شمت رائحة تشبه رائحة أخيها... هل يعقل أن يدرك الإنسان رائحة من أحبه... هكذا شعرت الفتاة ... فتحت عينيها... وبدأت تدقق في الرسالة... هل ترى يكون صاحب الرسالة هو أخوها... قرأت الرسالة بتدقيق... كانت الرسالة مختصرة وصغيرة... وفيها خبر عابر... بأن صابراً يعمل لدى بائع تفاح... طأطأت ريحانة رأسها... وضمت الرسالة لقلبها... قال الشاب في اهتمام:-

- "وهذه أيضاً... من صابر".

تناولتها ريحانة... ثم فتحتها... إنها مكتوبة بالحبر الأسود... قرأتها بسرعة... إنها أيضاً قصيرة... وكان فيها إن صابراً أصبح أحد طلاب المدرسة... قال الشاب:

- "وهذه رسالة ثالثة...".

تناولتها ريحانة... وقرأت فيها سطور البؤس والمعاناة... وأن صابراً أصبح في ألمانيا... قال الشاب:

- "هذه كل الرسائل التي جاءت من صابر".

قالت ريحانة:

- "وهل تعرف شيئاً عن ملامح صابر".

رفع الشاب كتفه وقال.

- "للأسف... أنا لم أشاهده في حياتي".

- "إذن... هل تعرف أحداً شاهده من قبل".

- "للأسف... كلا".

طأطأت ريحانة رأسها... لقد أسقط في يدها... مدت يدها ومسحت دموعها... في حين قال داود:

- "حتماً سيهدينا الله لطريقة ما".

قالت ريحانة:

- "هذه الرسالة الأخيرة... إنها توحي بأن صابراً يعاني أصنافاً متنوعة من المعاناة... ربما كان في حاجة لأخته... وربما كان لزاماً على أخته أن تقوم بواجب الأخوة... وتمد يدها له".

قامت ريحانة... وقام داود... وخرجا من المنزل... وركبا العربة... لقد ودعت العربة تلك القرية بعد أن ألقت ريحانة نظرة أخيرة... لم تعد لريحانة قضية واحدة تتبناها... ولكن القضية ولدت بقضية أخرى... لقد كانت ريحانة تطلب العلم لتقدم شيئاً للعالم الذي يحتاجها... والآن أصبحت أفكارها تلوك قضيه أخيها... الذي شعرت أنه يناديها... خيط واحد يوصل للحقيقة... ولكنه خيط باهت... أشبه بخيوط الفجر... في الليلة المقمرة... وداود يخرج وجهه مع النافذة الصغيرة.

قمر الدين

أشجار الليمون تبدو زاهية نضرة... ومن بين أوراقها تبرز أشجار الزيتون... الطريق لا زال يمر عبر المزارع المتراصة... وتحت عجلات العربة تطوى الأرض... والزمن يمر سريعاً... وبعدها تبدو الأرض جرداء عريانة.

مر يوم كامل على ذلك الحال... وبعده وصل داود وزوجته مع العريجي (عبيد) إلى بيروت... لا زال الوقت مبكراً على غروب الشمس... استأجر داود غرفة صغيرة بجوار أحد المنازل القديمة... ومن الداخل تبدو الغرفة متعرجة الجدران... ذات لون قاتم يميل للسواد أكثر من ميله لأي لون آخر... أجالت ريحانة بصرها في الغرفة... إنها حتماً تذكرها بالوادي... ولكن ذلك لا يهم... ألقى المسافرون بأمتعتهم في زاوية الغرفة... إنهم متعبون بالفعل.

لم يطل الوقت... لقد تناولوا ما تيسر لهم من طعام... ثم أسلموا أنفسهم لنوم عميق... وفي الصباح الباكر كان داود يسير في طرقات السوق ليحضر الخبز والزعتر... وقطعاً بحجم الكف من الجبنة البيضاء... اشترى داود ما أراد بخفته المعهودة... وعندما عاد للمنزل كانت ريحانة تنتظره... لقد أصابها قلق شديد... إنها لا تدري ما سببه... ولكنها أحست بذلك.

وضعت أصناف المائدة على سفرة من السعف المرصوف بكل عناية... ومدت ريحانة يدها وهي تقول:

- "الشام... أوه... إنه بلد المأكولات المذهلة".

- "هل أعجبك الطعام هنا".

- "يبدو لي وأن الناس هنا يظنون أنهم قد خلقوا للأكل".

ابتسم داود ثم قال:

- "أوه يا عزيزتي ... بالطبع الناس في الواقع خلقوا لمثل ذلك".

- "هل أنت جاد؟".

- "وبعض الأشياء الأخرى".

- "كم تعجبت من أحجام الكروش هنا... أوه يا محايل... لم أعهد أني رأيت رجلاً هناك يحمل أمامه كرشاً".

- "هناك يجوعون أكثر مما يشبعون".

- "البطنة تذهب الفطنة".

- "يقولون إن المستقبل مخيف".

- "من أي ناحية؟".

- "سوف يزيد عدد سكان العالم على الطعام الموجود فيه".

- "سيهلك الناس إذن".

- "يقولون".

- "لا مشكله... سنعود للوادي... هـ هـ هـ".

بعد أن تناول الزوجان فطورهما جمعت ريحانة تلك الآنية الصغيرة... وقامت وغسلتها... ثم وضعتها في السلة الحديدية الموضوعة بجوار الحنفية الصغيرة... ثم عادت لداود الجالس على أريكة حمراء قديمة... قالت وهي تقترب منه:

- "عليك أن تبقى في المنزل يا داود... أنا من سيذهب ويجيء... أشعر أن الوضع هنا غير آمن".

- "لا يا سيدتي... أنا لا أخاف من شيء... سنذهب بعد قليل جهة دار الكتب... وستطالعين الكثير هناك... أنا متفائل جداً".

- "أوه يا داود... كلنا متفائلون... ولكن الحذر واجب".

قام داود لتوه وهو يقول:

- "سوف أحضر لك مفاجأة".

غاب داود قليلاً... ثم عاد وهو يحمل كوبين من عصير قمر الدين... كان قد وضعها في الماء قبل أن يخرج ليحضر الفطور... ابتسم داود ثم ناول ريحانة قائلاً:

- "اشربي... هذا قمر الدين... أقدمه لأحلى قمر في الدنيا".

تناولت ريحانة الكوب وابتسمت وهي تقول.

- "أشكرك من أعماق قلبي كم أحبك يا داود... بالطبع... هذا مشروب جديد... كم يوجد هنا في الشام من الأشياء".

أحس داود بشيء من الحرج عند سماعه لكلمة الشام... وتجمع في وجهه دم قان وهو ينظر إلى وجه ريحانة ثم قال:

- "اعذريني يا حبيبتي".

-"ولكني أعلم كل ذلك... أنت تتشبث بالذكريات... لقد كنت منسجماً مع يهوديتك... عندما كانت تجري في دمائك... وأنت فرد من أفراد حي اليهود... وكنت منسجماً مع إسلامك عندما كنت في الوادي... أو عندما كنت في مكة والمدينة... ولكنك حين رجعت إلى حي اليهود... وأنت مسلم... لم تكن قادراً على الانسجام... أو لم تكن قادراً على التوفيق بين ذاتك المسلمة والحياة من حولك... أنا أقدر مشاعرك يا داود... وأقدر كل انفعالاتك".

كانت دهشة داود تتجاوز الخيال لسماعه ما قالت... لقد فغر فاه وفتح عينيه... إنه يشعر وكأن ريحانة فتحت الكتاب الذي في قلبه وقرأت تلك الأسطر الغامضة... التي عجز هو عن قراءتها... وعجز عن معرفة كنهها... لقد وضعت يدها على ما كان بحاجة ماسة لأن توضع يد حانية عليه... إنها مشاعر الإحساس بالغربة... أكملت ريحانة:

- "الغربة ليست مشكلة في حد ذاتها... ولكن المشكلة الحقيقة في أن يشعر الإنسان بالغربة... الغربة تتعلق في بعض الأحيان بالبعد عن الوطن... ولكنها ليست كذلك دائماً... لأنها في أحايين أخرى تتعلق بما يصنعه الوجدان من أحاسيس... ومن الناس من تكون غربته في أعماقه... وكلما انتقل انتقلت معه... ومن الناس من لا يشعر بالغربة حتى ولو كان في أدغال الغابات...".

طأطأ داود رأسه في حين داهمته يد ريحانة وهي تحمل قطعة الخبز المحملة بالفاصوليا... لم يجد فم داود... المنهك في تأمل ما سمعه للتو... بداً من أن ينفتح للقمة الجديدة... وفي أثناء مضغ اللقمة قال باهتمام:

- "ولكن بعد قليل سوف نذهب للقيام بعمل مهم".

- "وما هو يا ترى".

"دار الكتب... سوف نزور دار الكتب".

- "كلا يا داود... دعنا من الكتب الآن".

- "أرجو أن نقضي اليومين القادمين في بحث السبل الموصلة لأفضل طرق التخفي عن أعين المطاردين... أي كانوا".

"نعم... أنت على حق... ربما كان هناك مطاردون من نوع ما... ولكن... هل لديك أفكار جديدة يا ريحانة".

"ربما هناك الكثير من الأفكار... وسيكون للكتب وقتها".

- "ولكنك لن تخيبي رجائي في الذهاب بعد قليل لدار الكتب".

المكتبة

ريحانة وضعت يدها على فمها عندما دخلت المكتبة... إنها صورة مذهلة... تلك الكتب مليئة بالمعلومات والمعارف... وهي تُشعر ريحانة بمدى جهلها... داود يتابع نظرات ريحانة ويرصدها بدقة... ثم ينظر جهة رأسها ويقول في نفسه:

- "كم يحمل هذا الرأس من العلم ومن الخبرة ومن الذكاء المفرط... أنت عبقرية يا فتاتي".

أمسك داود بيد ريحانة وسار بها بين ممرات المكتبة... الكتب منظمة وتحمل عناوين كبيرة... ولكنها تحتاج لوقت طويل كي تنتقل معلوماتها لرأس ريحانة.

«أوه يا ريحانة... كم أنا متفائل... مكانك الطبيعي هنا ... هنا بالتحديد... بين الكتب... أكاد لا أصدق نفسي في أني نقلتك إلى هنا... ولو نجحت تصوراتي فستكونين بعد عام واحد من أبرز المفكرين".

كذلك كان يحدث داود نفسه... وهو يسير بجوار الفتاة التي لا زالت مندهشة لما ترى... إنه يسير ويتأمل رأسها ويتراقص قلبه طرباً كلما رأى الدهشة على عينيها... مر الوقت سريعاً... أمسك بيد ريحانة... وقال:

- "يمكنك أن تبقي هنا... تقرئين كما تشائين... ويمكن استعارة الكتب مقابل أجر قليل... ويمكن أيضاً شراء الكتب... وعليك أن تختاري الأنسب".

ألقت ريحانة لداود بطرفها الساحر ثم قالت:

- "أنا ممتنة لك... هذا فضل لن أنساه لك أبداً... يا حبيبي".

ابتسم داود وهو يبتلع ريقه... هذا ما كان يود سماعه... وبعد دقائق كانت ريحانة تحمل مجموعة من الكتب ذات العناوين الجذابة في عالم السياسة والحروب... قالت لداود:

- "سنستعير هذه".

ابتسم داود... وانطلقا جهة المسؤول عن الكتب.

ماذا بعد المكتبة

في منزلها... الوقت يمر سريعاً... وريحانة تقرأ وتبحث بين السطور المتراصة... وكثير من المعلومات تحتاج لمقارنة مع معلومات في مراجع أخرى... ولكن... هذه الطريقة في القراءة غير مجدية... لأن ريحانة تحتاج للرجوع للكثير من الكتب الأخرى مع قراءة كل كتاب... والتحقق من المراجع أشبه بالضرورة... خاصة مع ما وجدته ريحانة من التناقضات في النقل... قالت ريحانة لداود وهي متكئة على أريكة حمراء في غرفة الجلوس:

- "الأمانة العلمية... شيء مذهل... إنهم كتَّاب أقرب للصوص".

- "هل تقصدين ذلك بالفعل".

- "نعم... أكاد أجن".

مد داود لها كوب عصير الليمون المحلى... وابتسم وهو يقول:

- "لقد توقعت ذلك... أنت أصبحت ناقدة، هذا شيء مذهل".

– "ليس الأمر كذلك... ولكنك عندما تقرأ فأنت في حاجة لإدخال معلومات صائبة لعقلك... وإلا فإنك تجمع داخل عقلك شيئاً من الأوهام".

– "ما الحل إذاً".

– "أحتاج لزيارة المكتبة في اليوم الواحد أكثر من مرة... أو ربما البقاء فيها".

– "أمر سهل... في الصباح نذهب للمكتبة مرة وفي المساء مرة... نستعير الكتب المطلوبة... ثم نعود".

– "هذا رأي حسن... ولكن".

– "ماذا".

– "هل نحن في مأمن من المطاردين".

– "في الحقيقة... لست أدري... هنا الكثير من اليهود... وهم بالطبع يعاودون زيارة المكتبة... وقصتي لا تخفى على الكثير ممن يعرفونني من قبل... لست أدري... خاصة بعد قصتي مع الفتاه التي بجوار المسجد".

– "نعم... صدقت... هذا ما نخشاه".

– "لا عليك... لن يصيبنا إلا ما كتب لنا".

– "نعم".

عينٌ في عين

بدأت زيارات ريحانة للمكتبة تأخذ طابعاً دورياً... داود يسير معها دائماً... وربما تركها في المكتبة وذهب لبعض شؤونه... وربما بقي في المكتبة يقلب بعض الكتب... مرت سبعة أيام... جميع الأمور تسير على ما يرام... وفي مساء اليوم الثامن... كانت ريحانة جالسة تقرأ... وكان داود يقطع الوقت في تقليب بعض الكتب... وأمامه على الرف كتب عن الأديان... وذلك الكتاب عن اليهود... مد داود

يده للكتاب... أوه... إنها أيام... التفت داود برأسه يميناً... عليه أن يذهب الآن... ولكن بجواره رأى رأساً يحمل قبعة سوداء... قد تدلت منها ضفيرتين صغيرتين... حتماً هذا يهودي متعصب... أوه كم أنتم في حاجة للتفكير بتجرد... لم يُرِدْ داود أن يصرف المزيد من الوقت هنا... أراد أن يصرف بصره... ولكن سرعان ما نظر إليه اليهودي صاحب الضفائر... لقد بدا في أول الأمر أن هذا اليهودي مندهش عند رؤيته لرجل متعمم بعمامة بيضاء... ويطالع شيئاً من الكتب اليهودية... بيد أن الأمر لم يكن كذلك... لأن أنف داود الملفت للنظر لم يسمح للسحنة القديمة أن تذوب في السحنة الجديدة... التقت النظرات... وقرأ اليهودي تلك العلامات الغريبة... ولكن الريبة والتوجس وجدت طريقها لقلب داود... رجع داود للوراء... وبكل حذر انصرف اليهودي... كان متوتراً... وكان يسير متجهاً للخارج بخطوات متسارعة... أما داود فقد بقي في مكانه... لم يطل الوقت... لأن ريحانة قد افتقدت وجود داود بجوارها... وعادت تبحث عنه... وعندما جاءت إليه قالت:

- "أين أنت... هناك كتب مذهله... هذا المكان رائع".

قال لها داود وهو يشيح برأسه متجاهلاً كل ما قالت:

- "لقد رآني أحد اليهود... نعم... رآني بجوار الكتب".

- "ماذا تقول... رآك".

- "نعم... إنه من المتعصبين... لست أدري... شكله ونظراته أوحت إلي بالخوف... لا أدري... ربما سيكون حالنا في خطر".

تراجعت ريحانة للوراء... ثم أمسكت جبينها بيدها وهي تطأطئ برأسها... وتقول:

- "هذا ما كنت أخشاه... علينا أن نرحل الآن... هيا بنا".

سارت ريحانة أمام داود... وبقي يسير خلفها... وعندما خرجا من المكتبة كان هناك شابان ينتظران... لم تلق ريحانة لهما بالاً... لقد انصرفت مع داود جهة

المنزل... وعندما اقتربا أشارت لدود أن يواصلا السير بعيداً عن المنزل... في حين انفصلت هي عنه في طريق آخر... بدأ داود يسير في السكك... ومرة يأخذ يميناً... ومرة يأخذ يساراً... ولكن الشابين كانا يتبعانه... بدأ في السير بسرعة... وبنفس سرعته أسرع الشابان... داود يهرول والشبان يهرولان استطاع داود أن يختبئ خلف سور أحد المنازل... بدأت دقات قلبه تهدأ... لقد شعر أن المطاردة انتهت... أحس بشوق شديد لريحانة... وربما خوف عليها... قام من مخبئه وعاد متجهاً نحو بيته... ولكنه شعر أن الشابين لا زالا يلاحقانه... لم يعد مهتماً بهما... لقد وصل للمنزل... ودخل... كانت زفرات داود شديدة... وكان الإعياء بادياً على ملامحه... استقبلته ريحانة في شوق عارم... وخوف شديد من المجهول... أمسكت بيده و شعرت أنها ترتجف... تقدمت معه حتى أجلسته على الأريكة الحمراء... ثم أحضرت كوباً من اليانسون الساخن كانت قد أعدته منذ قليل... قالت له:

- "اهدأ يا داود... لا عليك".

- "لقد كشف أمرنا ...".

نظرت لعينيه برحمة وشفقه... آلمها ما أحسته من نبضات قلبه السريعة... لقد شعرت أن عليها أن تفعل شيئاً... وقفت الفتاة النمرة... ثم قالت بكبرياء:

- "سأتدبر الأمر... علينا أن نرحل الآن".

قطب داود جبينه ثم قال:

- "علينا أن نرحل؟ إلى أين يا سيدتي... أوه... لقد عذبتكِ معي كثيراً".

وضعت ريحانة يدها على فمها ثم رفعتها قليلاً جهة أنفها ثم قالت:

- "إلى ألمانيا... لقد اتخذت قراري... لم يعد لي بقاء في هذه الأرض... إن حال الدولة العثمانية لا يطمئن... إنها لم تعد قادرة على ضمان بقائها... مستقبلنا هناك... في ألمانيا".

نظر داود لعينيها بدهشة... ثم قال:

- "مستقبلنا في ألمانيا".

- "هناك القانون... اليهود في ألمانيا أقل نفوذاً... ولن يكون لهم قدرة على مطاردتك أو النيل منك... إنهم هنا يمتازون بكل حقوقهم... ولكنهم للأسف يستغلونها للغدر وصناعة الدسائس... وما دامت ألمانيا قادرة على إيقاف اليهود عند حد القانون... فلن تكون حياتنا آمنة إلا هناك".

- "نعم... نعم... صدقت... لقد سمعت عن تضجر الألمان من اليهود... ربما كانت شوكتهم هناك أضعف".

- "الدولة العثمانية أخطأت عندما وثقت في بشر من نوع اليهود... إنهم النوع الذين لا يوثق به... إنهم يضمرون الشر".

- «نعم داود.. كل من يُدخل اليهود في سياسة بلده.. حتماً سيجد الدمار... إنجلترا ستتخلى عن اليهود.. ولكن... ربما كانت أمريكا هي وريثة إنجلترا... هذا ما استوحيته من التاريخ.. حتماً سيدخل اليهود في سياسة أمريكا.. في المستقبل.. وسيدخلونها في حروب مذهلة... ربما كان أكثرها مع العرب».

فكر داود قليلاً ثم قال:

- "نعم... أنت على حق".

- "ما رأيك يا داود في أن نقوم بعمليه تمويه... ثم نرحل بعدها لألمانيا... سنجعلهم يظنون أننا سنعود إلى عسير".

- "كيف ذلك؟".

- "هل بقيت معك نقود كافية للسفر؟".

- "نعم".

- "إذن سوف نخرج من هنا إلى مكان حجز بطاقات السفر... وسوف نسأل عن الرحلات الذاهبة إلى دمشق... ثم الرحلات الذاهبة إلى الحجاز... وسنعاود الذهاب جهة عربات النقل تلك... وبعدها سنركب في خفاء تلك الباخرة المتجهة إلى ألمانيا".

- "هذا حسن".

- "إذن سأتدبر الأمر".

إلى أين

في صباح اليوم التالي ذهبت ريحانة إلى موقع العربات... وسألت عن أقرب موعد ستغادر فيه العربة جهة دمشق... ثم سألت عن أقرب قافلة ستسافر للحجاز... في تلك الأثناء كان قلب ريحانة متيقظاً... لقد عرفت أن رجلاً يتبعها بعد خروجها من المنزل... ولكنها أظهرت أنها لم تشعر به... وعندما خرجت من الكشك الصغير كانت تحمل أوراقاً صغيرة في يدها قد كتبت فيها موعد رحيل الرحلات إلى كل من دمشق والحجاز.

بعد ذلك رأت الرجل الذي يراقبها وهو يدخل للكشك... ثم رأته وهو يقرأ طريق الرحلة الذي حجزته... عادت بعد ذلك للمنزل وقابلت داود وأخبرته بما حصل... ثم زارت إحدى جاراتها في الليل وطلبت منها أن تحجز بطاقتين للرحيل في الباخرة السائرة إلى ألمانيا... مر الوقت هادئاً... لقد نجحت الخطة... أو هكذا بدا الأمر.

وبعد يومين كانت ريحانة تحمل مع داود حاجياتها الصغيرة والقليلة... ومن بينها مجموعة من الكتب... لقد كانا بارعين في التخفي... سارا عبر الممرات الضيقة ثم ركبا عربة يجرها حصان.

الباخرة

مر المزيد من القوت وبدأ داود وريحانة يسمعان صوت البوق الذي تصدره الباخرة... وأخيراً وصلا للباخرة، وأخرجت ريحانة تذكرة الصعود ثم صعدا

للباخرة... وعلى سطح الباخرة سارت ريحانة حتى وصلت لغرفة صغيرة مربعة المساحة... لا يجاوز طول ضلعها متراً ونصف المتر... وفي طرف الغرفة يوجد سرير من دورين... ونافذة صغيرة على بعد مترين من الأرض... وأرفف صغيرة لوضع الحاجيات.

كانت ريحانة تحس بشيء من السعادة... وكانت تمني نفسها بأمنيات كثيرة... تبعها داود جهة الغرفة... وعندما دخل ألقى إليها بنظرة عميقة... ثم أتبعها بزفرة طويلة... ثم قدم رجله اليمنى ودخل قائلاً:

- "بسم الله".

وبعدها أقفل الباب... وتقدم جهة ريحانة... أمسك بيدها... في حين استدارت هي ناحيته ومدت يدها الأخرى نحوه... ولكنه رفع يده المقطوعة... لقد تلكأ قليلاً في أن يضعها في يدها... ولكنها تناولتها وابتسمت قائلة:

- "أعرف... لا تريدني أن أشعر بذنبي... أنا التي قطعتها... ولكنك حتماً ستعذرني".

- "أوه حبيبتي... حينها لو قطّعتيني إرباً ما كنت لألومك".

- "ولكن... عليك أن تعذرني الآن".

- "وماذا عن أنفي".

- "أنفك طويل".

- "هذه ميزه ممتازة... الفلاسفة جميعاً لهم أنوف طويلة... ويقال إن الرجل ينظر للدنيا من وراء أنفه... فإذا كان أنفه طويلاً نظر إليها باحتقار وبتعالي... ولم ينغمس فيها... إنما يكتفي بمراقبتها... ومع استمرار مراقبته لها يصبح فيلسوفاً كبيراً".

- "وماذا عنك أنت يا داود؟".

- "كنت كأي يهودي أنظر للدنيا وللناس باحتقار... كنت أراهم من فوق أنفي فلا أجدهم إلا أقزاماً صغاراً... و كنت أرى أن من حقي أن أسحقهم".

- "والآن".

- "أوه... الآن... الآن أنا لا أرى الدنيا إلا من خلال عينيك فقط".

أغمضت ريحانة عينيها قليلاً ثم فتحتها فجأة... لأن بوق الباخرة بدأ في الزعيق الكئيب... الذي يشعر دائماً بالرحيل... لقد انطلق البخار قوياً من مزمار كبير في مؤخرة الباخرة... إيذاناً بانطلاق الرحلة... وعندما بدأت الرحلة اصطف المسافرون على حافة السفينة من الخلف... وبدؤوا يلوحون بأيديهم... ويقلبون أعينهم في السراب الأبيض الذي خلفته السفينة خلفها.

من يكون...

مرت الأيام هادئة... ومرت الرحلة سعيدة... لقد كانت أمواج البحر ترتطم بجوانب السفينة... وريحانة تهتز كلما اهتزت السفينة... وتقلب أوراقاً من كتاب (ميكافيللي) في السياسة... إنها تقرأ بتركيز وبفهم... ولكنها لا تلبث أن تشعر بالسأم... وسرعان ما تخرج لترى داود هناك جالساً... وكأنه يودع أمواج البحر من خلف السفينة.

السفينة مليئة بالركاب... وأكثرهم من اللبنانيين المهاجرين... وقليل منهم من الأتراك... وعدد أقل من الألمان والفرنسيين.

بدا داود هادئاً سعيداً... وبدت نظراته مطمئنة وادعة... وبين الفينة والأخرى يستنشق الهواء ليملأ به رئته... ثم يخرجه على دفعات متقطعة... وسرعان ما يدير إصبعه في عينه ليمسح دمعة السعادة... التي ساهم في إخراجها تذكره لماضيه المكفهر... وتذكره لقلبه الذي انقلب وأصبح يفيض بكل معاني الإيمان والحب والإخاء... ثم حدث نفسه:

- "المسلمون وحدهم يشعرون بما شعر به آدم... بعد أن خلقه الله ثم وهبه كل شيء".

وداود وحده الآن يشعر بما شعر به آدم عندما أخرجه الله من الجنة ثم تاب عليه وهداه... بدأ داود يتمتم بشفتيه في سهوة عميقة... ويذكر اسم الله... أقبلت ريحانة ثم وضعت يديها من الخلف على عيني داود وقالت مداعبه:

- "من أكون؟".

- "أوه... لا أدري يا حبيبتي... ربما كنت قبطان السفينة".

- "لا... لا... خطأ".

- "إذن أنت... أنت حورية البحر".

- "لا لست حورية البحر".

- "إذن أنت شيء من فؤادي... سقط مني قريباً... ثم عاد إلي".

- "لا... لا أنا جنية الوادي... هـ هـ هـ...".

- "أوه لقد عرفتك سيدتي".

سحبت ريحانة يدها بخفة... ثم قالت وهي تستدير ملتفتة نحوه.

- "هل سنقضي هنا وقتاً طويلا؟".

- "وهل ضجرت؟".

- "كلا... ولكني أسأل".

- " سنصل بعد أقل من أسبوع".

- "أوه... لا... لا... أقصد هل سنقضي وقتاً طويلاً ونحن واقفين هنا... هيا نذهب لحجرتنا".

هز داود رأسه مداعباً وهو يقول.

- "أنت تحرفين الكلم".

- "تماماً مثل بني جلدتك... من اليهود".

- "كفى إذن... أعترف بالهزيمة... وأرفع الراية البيضاء... لست نداً لكِ»".

- "إذن سنذهب للغرفة بعد أن نأخذ الطعام".

في تلك الأثناء دق جرس الطعام... وتسابق داود وريحانة كل منهما يريد خدمة الآخر... بعد برهة كان داود وبجواره ريحانة يحملان شيئاً من السمك المشوي مع خبز حار.

موعظة حسنة

مرَّ ذلك النهار سريعاً... كانت الأمنيات تزداد في نفس ريحانة سطوة... وداود غارق في تأملاته الروحانية... إنه يفرِّغ في نفسه صوراً من سحر هذا الكون... ثم يتبعها بتمتمات الذاكر الخاشع... وأخيراً... لقد عقد صفقة مع غروب الشمس... كي تلهمه شيئاً مما تتجوع له مشاعره... من الروعة والأحاسيس... في مقابل ما سيمنحه هو لهذا الكون من الدعاء الخاشع... أنهى داود صلواته عندما غربت الشمس... وبعدها سار متجهاً نحو منتصف السفينة... كان في أعماقه شعور غريب... أشبه بشعور المودع للدنيا... ولكنه وقف هناك خاشعاً... ونظر للسماء... ثم أخذ نفساً عميقاً ليرفع بأعلى صوته سبحات الأذان.

- "الله أكبر... الله أكبر".

كان الصوت عذباً ندياً... وكانت أمواج البحر الهادئة تعزف مع صوته الميَّال لحناً إيمانياً عميقاً بعمق الوجود الساحر... انعكست الألحان الصادقة على قلوب أفراد السفينة بنفحات ساحرة... حتى على قلوب أولئك المسافرين من غير المسلمين... إنها وقفة خاشعة في قلب البحر... أنهى داود أذانه... ثم تقدم قليلاً ورفع يديه... إنه يصلي... لقد صلى ركعتين... بعدها اجتمع نفر من أنحاء السفينة... قام داود... ثم أقام الصلاة ... وتقدم للإمامة بالمصلين... رفع يديه:

- "الله أكبر".

قرأ الفاتحة بصوت شجي... سرت تقاطيع صوته هنا وهناك... واجتمع حول الجماعة المصلية، نفر من الخواجات... كانوا ينظرون إلى الواقفين هناك بشيء من الاستغراب والدهشة... وعندما أنهى داود صلاته... ودار بجسمه جهة المأمومين... كانت نبضات قلبه ترف بشيء خفي... لقد أحس أنه يريد أن يقول شيئاً للناس... أحس بوخز في داخله... ثم لم يلبث أن قام... وبعدها قال:

- "أحبائي الكرام... لقد غربت شمس هذا اليوم الجميل... ومع غروبها انتهت الكتابة في صفحة أعمالنا اليومية... أعمالنا سنلقاها جميعاً عند الله... الخير سنلقاه والشر سنلقاه... علينا أن نعمل الصالحات وعلينا أن نتجنب الأعمال السيئة... إن إنسانيتنا مرهونة بأعمالنا المخلصة لله... والعبد الصالح هو الذي لا يصدر عنه السوء أبداً... والأديان السماوية أوصت البشر بعمل كل خير... وخاتم الأديان هو الإسلام... لقد جاء الإسلام بجميع صفات الخير... اسمه يدل على أنه دين السلام والأمن... ودين الحب والمساواة".

استمر حديث داود عذباً ينساب بين شفتيه... ريحانة مفعمة بفرحتها هناك... وتنصت لكلماته مأسورة بروعتها... وتقول في نفسها... إنه رائع بالفعل... والأروع منه قصته الطويلة.

جميع الحاضرين صامتون... لقد ارتبطت ملامح صدقه بدقات قلوبهم... والغربيون هناك... يتساءلون ماذا يقول هذا الرجل... إن له سحنات الرجل المهيب... عرف داود ما يجول برؤوس أولئك الخواجات... لذا نظر إليهم... وأعاد كلامه عليهم باللغة الإنجليزية التي يجيدها بدرجة متوسطة... وبقي المجلس الذي يتزعمه داود وقتاً...

الشيخ داود هو في الحقيقة شيء مما كان ممكناً أن يكون الحاخام داود... ولكنه الآن مبدع في كونه شيخاً مسلماً... أكثر مما كان عليه من قبل... وأخيراً حان وقت أذان

العشاء... وهناك أذن داود... ثم أقام الصلاة وصلى بالناس... وانتفض المجمع... والجميع يتحدثون عن هذا الرجل الصالح الذي يقال إنه كان يهودياً منغمساً في خلجان يهودية... ولكنه عرف عن الإسلام ما كان كفيلاً بتحويل ذرات جسمه كلها إلى الإسلام... انظروا دليل يهوديته... ذلك الأنف التي يحمله أمامه... أما داود فقد أمسك بيد ريحانة وانطلقا ليأخذا طعامهما ويذهبا لحجرتهما..

هل... هي... جريمة

بعد أن تناول الزوجان عشاءهما قاما للنوم... وما هي إلا لحظات حتى غرقت ريحانة في نوم عميق... وبقي داود يتذكر... نظرات جمهوره قبل قليل... وهم يدققون النظر فيه... لقد بدا أن بعضهم تغرورق عيناه بالدموع... ولكن هناك من انطوت نظراته على سر غامض.

لم يطل تفكير داود... لقد أسلم عينيه للنوم... ومع منتصف الليل استيقظت ريحانة على صوت خطوات هادئة... كانت تدق بخفاء أرضية الحجرة الخشبية.

لم يطل الوقت... لقد تُبعت تلك الخطوات بفتح للباب وإغلاق هادئ... كانت ريحانة تظن أن من فعل ذلك هو داود... ربما خرج لشيء ما... لم تكن مطمئنة لذلك... لذا قامت... وبدأت تجيل طرفها في الغرفة... شعرت بشيء غريب... صوت هادئ يشبه الأنين... أسرعت ريحانة في توتر نحو السراج الصغير... أوقدته بسرعة... ثم أجالت بصرها... لم يكن لها أن تعي ما رأت... ولكنها دققت النظر أكثر... إنها ترى داود... هناك... إنه مسجى على الأرض... وقد جحظت عيناه... وبجواره دمه يسيل... لقد صنعت بحيرة صغيرة على فراشه... وفم داود مكمم... إنه يصرخ دون أن يخرج صوتاً... وهو يجاهد كي يخرج نزعه الأخير... والسكين المغروسة في قلبه لا يكاد يبين منها سوى خشبة مقبضها.

أسرعت ريحانة نحوه في ذهول... إن جميع فرائصها تكاد تتقطع... وعيناها لم تستطع تحمل المنظر الرهيب... ولكنها أمسكت بالكمامة على فم داود... وحلتها

في حزن رهيب... وألقت نظرة حزينة على الوجه المستدير... وألقى عليها داود نظرة حسبها نظرة وداع... وبعدها ابتسم... ثم أغمض عينيه كمن انفلت من عقال.

لم يطل الوقت... سحب داود شهيقاً عميقاً تثقله الحشرجة... ثم فتح عينه وألقى بنظرات صامتة هادئة... ثم أغمض عينيه قليلاً... وبعدها قال:

- "أشهد أن لا إله... إلا الله".

ثم قال وهو يغمض عينيه بهدوء:

- "لقد استشهدت يا ريحانة... لقد قتلوني... أنا مؤمن... عليك أن تواصلي في طريق الجهاد والتضحية من أجل الخير والعدل... حتى تلحقي بي... أنا أنتظرك عند الله".

وفي ذهول مدت ريحانة يدها... وأمسكت بالسكين... كادت تنزعها... ولكن عيني داود كانت أسرع... لقد شخصت للأعلى... وهدأ كل شيء.

أمالت ريحانة رأسها... وبدأت تنتحب.

لم يطل نحيبها؛ لأنها سمعت وفي تلك الأثناء صوتاً في الخارج يقول:

- "لقد قتلت الشيخ... نعم قتلته... زوجته قتلته... إنها امرأة محرومة سفاحة... لقد قتلته".

انتبهت ريحانة... وابتلعت ريقها في غيظ... ثم جفت دموعها فجأة... ووقفت مكانها... وألقت بنظرة بعيدة على وجه داود... وألقت بيديها خلف ظهرها... وتقدمت نحو الباب... وبقيت تنتظر.

وفي غضون لحظات... اجتمع حرس السفينة بجوار الحجرة من الخارج... كانوا يتكلمون بهمس... وكانت ريحانة ترقب... تقدم أحدهم بسرعة ثم رفع رجله جهة الباب... وركله بقوة... لم يكن الباب ليصمد أمام تلك الركلة... لقد فتح الباب... وتقدم حراس السفينة... كانت خطواتهم بطيئة

وقلوبهم حذرة... وعندما أجالوا أبصارهم في الحجرة الصغيرة شعروا أن الأمور على ما يرام... تقدم المسؤول عن الحراسة الليلية في شيء من الاعتزاز بنفسه... ثم نظر إلى وجه الواقفة أمامه كتمثال جميل... دق برجله على الأرض ثم دقق النظر في وجه ريحانة المكفهر... ألقت هي بدورها نظرة مفاجئة... لم تكن نظرتها تلك تحمل أي معاني اللوم لهم... ولكنها تحمل معنى وحيداً... إنه الانتقام... ربما لم يفهموا ذلك على الشكل المطلوب... لذا تقدم أحدهم في تجهم و قال:

- "يا قاتلة... هيا ابتعدي عن الجثة".

أشاحت ريحانة دون شعور عن الحراس... ثم التفتت نحو داود... وانكفأت على وجهه الباسم... فقط تريد أن تقبله قبلة الوداع... الوداع الأبدي... وتضمه قليلاً إلى صدرها... وعندما كانت كذلك وهي تعالج مشاعر حرمانها... أحست بيد غليظة أمسكت بها من رقبتها... حاولت ريحانة أن تقاوم... كي تصل بشفتها لشفة المسجى أمامها في هدوء... بيد أن أيادٍ كثيرة اجتمعت... ثم سحبتها قبل أن تطبع قبلتها الأخيرة... جاهدت ريحانة وهي تتلوى أشبه بأفعى سامة... كي تصل بشفتها لصفحة الوجه البيضاء... ولكن دون فائدة... إنها تبتعد قليلاً... قليلاً... صرخت بأعلى صوتها... ثم صرخت... ولكن دون فائدة... لقد سحبتها أيدي الحراس بعيداً خارج الغرفة... وبدأ الناس يتوافدون من أنحاء السفينة نحو مصدر الجلبة... تماماً كما هي عادتهم دائماً في مواقف كهذه.

اجتمع الناس... وبدا أن الحراس يتحاشون الإجابة عن الأسئلة الكثيرة... بيد أن بعضاً منهم قد تبرعوا بالإجابة عن كل الأسئلة:

- "المسألة ببساطة... أن هذه المرأة النكدة... تجرأت وقتلت الشيخ... لقد قتلته دون رحمه... إنها زوجته... خائنة... قذرة... عليها اللعنة... عليها اللعنة... عليها اللعنة".

تسارعت اللعنات المتتالية لتجد لنفسها متاهة موغلة داخل عقل ريحانة المنهك... الذي تآكل أو أوشك على التآكل... صورة زوجها القديمة انقسمت لقسمين... قسم و داود يرتع في كنف الحياة... والقسم الآخر مطبوع بطابع جديد... طابع دموي مرعب... وتلك السكين تنال من روحه كل منال... هذا هو الموت... أو ربما كان هكذا... عندما نحسه في أحبابنا... إنه تداخل للصورة... تداخل مذهل... لذا نحن نرهبه ونقف أمامه حائرين.

لم تكن ريحانة تملك شيئاً غير الصراخ... ولكنها لا تدري على أي مصاب سوف تصرخ... لازالت لعنات الناس ودعواتهم تجلدها بقسوة... نظرت ريحانة يمنة... رأت وجه الحارس القاسي... ثم شاهدت يده وهي تمسك بمعصمها... نظرت يسرة... لقد كان المشهد عن يسارها مطابقاً للمشهد عن يمينها... حاولت أن تفلت... تحركت بعنف... ولكنها هدأت في نهاية المطاف... لأنها أحست أنها قد دخلت في سجنها الكبير... المرتمي في عرض هذا البحر الموحش... وماذا عساها تحصل من فائدة لو أفلتت من أيديهم... وأين تراها ستهرب... خرجت ريحانة من مشكلة القبض عليها لتدخل في مشكلتها الحقيقية... لقد قتل داود... ذلك الرجل الذي ربته وصنعته صناعة متقنة... حتى صار هكذا... بعون الله.

وها هو الآن ينفلت من بين يدها كالهباء... ويتلاشى من حياتها... وإلى الأبد... أي ناب قبيح هذا الذي كشرت عنه شفتي الدنيا... في هذا الخضم المتلاطم.

أحست ريحانة بهيجان مشاعرها... لذا بدأت في الصراخ... الصراخ القوي المرعب... الذي يشق أركان الوجود... إنه صراخ رهيب... ليس كصراخ أيما امرأة مظلومة تحتج... ولكنه صراخ الوحش الضاري يوضع في قفص، كان صراخاً متواصلاً مدوياً... وكانت وعضلاتها ترتعد كالبرق... ولا زالت أيدي الحراس تتضافر لتمسك بها... نظر لها الحارس المجاور ثم دقق النظر في عينيها... وابتلع ريقه في دهشة... وأصيب بصدمة رهيبة... لم تكن تلك التي رآها عيني فتاة... إنها عينا مارد مخيف... لم يتمالك الحارس نفسه... لقد سحب يده بهدوء... شعر أن قدميه لا تقويان على حمله... بعدها جلس... صرخ قائد الحراس:

- "ماذا بك يا حارس".

ثم أشار لحارس آخر أن يقف مكانه... تقدم الحارس الجديد وكله عزم وقوة... ولكن سرعان ما خارت قوته وهو ينظر لنمرة الوادي المهيبة... إنها رهيبة... رهيبة للغاية... تراجع قليلاً للوراء... تقدم حارس ثالث أمسكها بحزم... وعندما نظر في عينيها أحس برهبة عظيمة تكتنفه... ماذا دهاه وهو يعالج هذا الجسم الممشوق.... المتمرد بعنفوان... بدأ الخوف يسيطر على الحراس... وبدأت ريحانة في معالجة فتيل قوة كامنة... كانت منزوية بين جوانحها النافرة.

داخل القفص

يبدو من بعيدٍ بابُ القفص الحديدي... وهنا بدأ العراك بين الفتاة ومجموعة من الحراس الأشداء... ومع مرور وقت قصير ازداد العراك ضراوة... ريحانة تحاول بكل قوتها أن تفلت... ولكنها في النهاية أذعنت... أحست أن شوكتها تنكسر... كم آلمها أن تنكسر شوكتها... لقد خارت قوتها فجأة... وما هي إلا لحظات... ثم يلتهمها القفص الحديدي... لتغيب عن أعين الناس... وهناك تبقى وحيدة... محرومة من حريتها... بعد أن حرمت من داود.

رفعت ريحانة رأسها للأعلى... تلك النافذة الصغيرة المعلقة بجوار سقف القفص... باب صغير للحرية... هذه النافذة... ربما لم يكن لها أي قيمة من الخارج... ولكنها من داخل القفص الصغير تحوز قيمة عظمى... لأنها تطل بهذا المخلوق المحبوس على الحرية... الحرية المحبوسة في حبس آخر... إنه البحر... وتلك الأمواج المتلاطمة الهادرة.

طأطأت ريحانة رأسها قليلاً... وبدا شيء من الهدوء يحل مشاعرها... وعاد زفيرها لوضعه الطبيعي... إنها حقاً كئيبة... أجالت طرفها يمنة ويسرة... ثم رفعت يدها لتمسح شعرها الأشعث... الذي تدلى على وجهها... ثم سحبت قدميها الحافيتين نحوها... وانكمشت في هدوء تام... وفي وحدتها تلك بدأت تعيد شريط

الذكريات... الشريط الذي يعيده دائماً كل إنسان يصاب بفاجعة الموت... يعيده وهو منهمك في حزنه... عله أن يجد صورةً من صور الحياة القديمة... يفردها أمامه ويتسلى بها... أو يجعلها مصلاً لنسيان صورة الموت الحديثة.

مر الوقت المطبق بجفنه على هذه الليلة الصاخبة... تذكرت ريحانة أيام الوادي الشامخة... وتلك الملكة العظيمة المتوجة بقوتها وعزتها... وتذكرت النمر الذي أخذت منه ابناً... أكسبها مع الوقت الهيبة والمكانة... والموت... الموت... عندما مات نمرها... الذي كان قطعة منها... ولم تشأ أن تتذكر قاتل النمر؛ لأنها لا تريد ذلك... وسرت في يدها دماء واديها من جديد... وانزوت دماء المدينة والهدوء... لم تعد ريحانة هي زوجة داود... الأنثى المطيعة... شيء ما جعلها تعود لماضيها القديم... الفتاة النمر... الفتاة النمر... وكأن هاجساً من بعيد... ينبعث من وراء البحر... ويدخل مع كوة حبسها الصغيرة.

- "الفتاة النمرة".

- "الفتاة النمرة".

قامت ريحانة فجأة على قدميها... ثم بدأت تلقي بنفسها يمنة ويسرة... لم يعد حبسها الضيق يسع جموحها... وانطلق زئير رهيب من جوفها... زئير مذهل... تفجر قوياً وارتج على ظهر السفينة... ثمة شيء خاطئ.

وقفت ريحانة على قدميها ويديها... وقفزت جهة النافذة المطلة على البحر... أمسكت بقضيب حديدي صدئ... تعلقت في ذلك القضيب... وشدته بقوة... كان في قلبها بواعث قوية توهمها بأنها قادرة على خلعه... ولكن القضيب أقوى من هز ريحانة له... لم يطرأ على القضيب أي تغير... نزلت ريحانة... وتابعت الزئير... عيناها الحمراوان تقذفان بشرر كالجمر... وشعرات رأسها واقفة... ما أضيق الحبس على الفتاة الحرة... إنها تلقي بنفسها على الباب... ولكن دون فائدة... لم يطل الوقت ريحانة تتابع صدم الباب ببدنها... ولكن... أخيراً أصابها الإجهاد... تراجعت للوراء بحسرة... لقد خارت جميع قواها... لم تعد تشعر بكيانها... ترنحت قليلاً ثم سقطت في منظر محزن... وربما أسلمت نفسها لما باغتها فجأة من نعاس ثقيل.

قضت ريحانة ليلتها تلك على أسوأ حال... ومع تباشير الصباح الأولى... فتحت ريحانة عينيها على آثار وقع أقدام... إنه شخص قادم... وسرعان ما فتح ذلك القادم نافذة صغيرة في أعلى باب القفص الصغير... ونظر إلى ريحانة بعينين حادتين ... ثم قال لها وعيناه تتقاذفان المكر والشرر:

- "أيتها الفتاة... أيتها الفتاة... أيتها الفتاة النمرة".

نظرت ريحانة نحوه في ذهول... في حين نظر هو للخلف... وعندما تأكد أن أحداً لا يسمعه قال:

- "هل عرفتني... يا فتاة الوادي".

تأملته ريحانة... ثم نكست رأسها وهي تقول بصوت هادئ وتصر على أسنانها:

- "يا قتلة... يا مجرمون".

نظر لها بتشفي... ثم قال:

- "يا عزيزتي... عليك أن تذكريني جيداً... لأني لم أنسك طول الوقت".

أعادت ريحانة النظر فيه... ثم أشاحت بوجهها... في حين أكمل حديثه:

- "هذا اليوم هو يوم القصاص... لقد وقعت في المصيدة دون علم منك... هكذا قدرك".

نظرت ريحانة له شزراً... تلكأ الحارس قليلاً عن الكلام... ثم قال في عجلة.

- "عليك أن تعرفيني جيداً... أنا الآن أقتص منك... أنا الرجل بعينه الذي طعنك في الوادي قبل عام... لقد نجوتي من خنجري حينها... عليك اللعنة... بل أنا نجوت من سطوتك... يا نمرة الوادي... أوه... كم كنت قوية حينها... هـ هـ هـ ليس كحالك الآن".

ثم أكمل في استخفاف:

- "لقد كادت ضراوتك تقتلني... يا سفاحة... بعد أن قتلت صاحبي... والآن سوف أنتقم منك... يا حقيرة... يا كلبة... وسوف أسقيك كاسات الهوان... يوماً بيوم".

ثم أشار لرأسه وهو يقول:

- "هنا عقل يدبر... سوف أمتع نفسي بألوان تعذيبك... بالطبع قبل أن أغمد في قلبك خنجر الموت الحقيقي... هـ هـ هـ".

صوبت ريحانة بصرها ناحيته... وهزت رأسها في تأمل ثم قالت:

- "أنت القاتل إذن... أنت من قتل داود... لقد منحتني أكبر هدية بكشفك لهذا السر... لن أعيش بعد الآن في قلق البحث".

ثم أكملت وهي تصر بأسنانها:

- "أشكرك من أعماق قلبي... ولكن عليك أن تعلم جيداً أنك لن تفلت من يدي... يا... أعوذ بالله من الشيطان الرجيم".

قال في غيض:

- "أنت واهمة... وغبية... ومتكبرة... خمسة من الحراس شهدوا بأنك أنت القاتلة".

أكمل وهو يهز رأسه في تمايل وسخرية:

- "لقد أقسموا أنهم سمعوا تهديداتك له... وسمعوك وأنت تطعنينه... عزيزتي... إن مخططنا مدروس جيداً... سوف تكون التهمة مفصلة عليك كالقميص... القميص العسيري المطرز... لا مفر يا حيوانة الوادي... الحيوانة التي أصبحت أليفة الآن... لا مفر... هـ... هـ... هـ.... هـ...".

اعتدلت ريحانة في جلستها... بقيت قليلاً كذلك... ثم وقفت بهدوء... وسارت حتى اقتربت من ذلك الرجل... ثم ألقت إليه بنظرة رهيبة... لقد تمالك نفسه قدر الإمكان... ولكنه في النهاية رجع للخلف خطوة... وبعدها قالت له في حقد:

- "سوف أسحقك... بقدمي هذه... جميعكم ستنالون الجزاء الأوفى... جراء قتلكم الرجل الصالح... داود... يا صهاينة... يا أنجاس".

طأطأ الحارس رأسه... وابتلع ريقه في توتر... ودون أي مقدمات بدأ يرتجف... ولكنه نظر إليها ثانية وقال في اضطراب:

- "أنت مكبلة... نعم... مكبلة... لن تستطيعي فعل شيء".

وعندما بدأ ينصرف قالت له في شيء من اللامبالاة:

- "أحضر لي ماء... لو تكرمت... كي أتوضأ للصلاة... أنا في حاجة للتوجه لله".

القبطان

مرت ساعات اليوم التالي كئيبة على جميع ركاب السفينة... باستثناء خمسة من الركاب... إنهم يسيرون ويشعرون بشيء من السعادة التي خالطها خوف أسبابه غامضة... وكلما لقي أي منهم الآخر أسر له بكلمات خفية.

ربان السفينة يشعر بقلق شديد... لأول مرة تحصل جريمة كهذه على سفينته... إنه يريد أن يخفيها بأي شكل من الأشكال... ليس من مصلحته أن ينتشر خبر كهذا عن سفينته... حتماً ستتشوه سمعته وسمعة سفينته... وبالتأكيد سينتج عن ذلك نقص في عدد زبائنه.

تلك الدعاوى التي تسابقت إلى أذنه... وشهادات الشهود بأن المرأة هي من قتل زوجها... لم يجد بداً من تصديقها... إذا كانت الجريمة بهذا الشكل فلن تدنس سمعة السفينة... ولن يكون ثمة اختلال أمني... هكذا صدق القبطان بمجريات الجريمة... وهكذا يصدق الناس كل شيء يكون لهم مصلحة في تصديقه... لقد صدق كل ما قيل وهو حريص على تصديقه.

- "نعم... نعم... الخلل بالطبع ليس في الحراسة التي تقدم داخل السفينة... وإنما هو بسبب خيانة هذه الزوجة لزوجها... ما أبشعها من زوجة".

لقد قال القبطان هذا الكلام في ملأ من ركاب السفينة... وبهدوء... اقتنع الناس بما قيل:

- "إنها حقاً مجرمة... يال قسوتها".

وبسرعة الريح انتشرت الإشاعات داخل السفينة... وألسنة كثيرة تتحرك في غباء... وقائل يحترف السرد ويقول:

- "إن الرجل أجبر زوجته على الرحيل معه... مع أنها لا تريد ذلك... لقد قرر الهجرة إلى أوربا للدعوة إلى الله... أما هي فكانت تريد البقاء عند أهلها... وعندما أجبرها حقدت عليه... وقررت قتله... إنها مجرمة... سفاحة... وهو رجل مؤمن... لا يستحق ذلك".

وقائل يقول:

- "لقد ملت منه... إنه رجل معقد... إنه لا يعرف إلا الصلاة... ولا يمنحها حق الزوجة".

الاتهام

وداخل القفص تعالج ريحانة همومها... وتقضي وقتها في ذكر الله... وفي صلاتها الخاشعة... ويمر الوقت عليها كئيباً حزيناً... ولولا أنها تنظر من خلال النافذة المطلة على البحر... لألهبت الوحدة والحزن نيران قلبها المكلوم... ولكنها تسلي نفسها بمحاولة استرجاع آلامها ثم دفنها بين ثنايا موجات البحر التي تخلفها السفينة.

وبعد أن صلت ريحانة صلاة العصر في ذلك اليوم قامت متجهة نحو منفذها الوحيد الذي يطل بها على الحياة... قفزت نحو النافذة وتعلقت في أحد قضبانها... وبدأت تلقي بنظراتها المتوجعة... إنها تشاهد وتتأمل... وهناك... تبدو تلك الأسماك التي تتبع السفينة... أسماك صغيرة وأسماك كبيرة... وعالم متلاطم... الأسماك الكبيرة سرعان ما تقفز لتلتهم الأسماك الصغيرة... ويتكرر المشهد ذاته... طال الوقت... وعندما ملت ريحانة من هذا المنظر رجعت ببدنها

قليلاً للوراء... إنها تستعد كي تقفر على الأرض... ولكنها سمعت أصواتاً وجلبة على ظهر السفينة... في الأعلى... فوق نافذتها تماماً... عادت ريحانة لتسمع ما يقال... الأصوات متداخلة... ولكن أحدهم قال:

- "ستأكله الأسماك... أفضل بكثير من أن تتعفن جثته... لقد كانت الطعنه في قلبه غائرة... إنها أشبه بطعنه رجل متمرس... لا فتاة غريرة".

وأجاب آخر:

- "يبدو أن هذه القاتلة متمرسة... لقد قضت عليه بطعنة واحدة".

ازداد صوت الجلبة ثم قال أحدهم:

- "سنعد... واحد... اثنان... ثلاثة... ثم نرمي به".

ريحانة تسمع في الأسفل... إنها تشعر أنهم يتحدثون على السطح... فوقها مباشرة... استمرت في التركيز بكل دقة... وحاولت أن تخرج ما استطاعت من رأسها من بين القضبان المطلة على البحر... ثم رفعت بصرها لأعلى... وسرعان ما سمعت رجلاً يعد.

- "واحد... اثنان... ثلاثة".

وبعدها قذف بجثة داود جهة البحر... كانت الجثة تهوي... وكانت ريحانة تنظر في ألم رهيب... وما إن بدت لها الجثة وهي تهوي... إلا وبدأت عيناها في صناعة هاطل من الدمع... كي تطل من خلف دموعها عينان واهنتان... تتبعان الجسد الصامت يهوي.

وريحانة تتبع من كان يوماً ما زوجها داود... والآن ها هو... طعام للأسماك... يال أسفها عليه... إنها تتبعه ببصرها المنذهل من فظاعة المشهد... وهناك... ها هو الجسد يهوى في شيء أشبه بالسكون... ثم يرتطم بالموج العاتي... والبحر ينتظر... وعند ارتطام الجثة بالماء بدأت دموع ريحانة تنهمر بشكل مذهل... وبدأت

ضربات قلبها تزيد... الموج يذهب ويجيء... ولكن بدا لريحانة أن الخضم الهائج يتوقف فجأة... حدقت ريحانة ببصرها المتردد... وعلى حافة موجة بيضاء... سرعان ما انكشف وجه داود... الأشبه بالوجه الملائكي.

السكون يتآكل في ذهن ريحانة... والصورة تتراءى لها كالحلم القصير في ذهن النائم... وبدأت الأمواج تتقدم في تراقص منسجم... رويداً... رويداً... كانت تتضح اللحية الطويلة... وتبل الثياب المشدودة على الجسد... وقفت ريحانة للمشهد... أو هو وقف لها... ساعة فقط.

لم تكن تلك الصورة المهيبة لرجل سكن قلب الفتاه النمرة... لتمحى بسهوله... بمجرد أن يسطو الموج على الوجه الوضيء... ولكن اللحظات الأخيرة كانت فضيعة... وكانت كفيلة بأن تنقش معاناة الفتاه الصبورة ذات القوة والصلابة على كل تقاسيم عقلها المكدود... وأخيراً... هناك... بدأت الأسماك الكبيرة تلتف حول الرجل المؤمن... وبدأت عينا ريحانة تبتعد وتبتعد... والتف الماء على الجسد من كل مكان... ثم انتهى... انتهى داود إلى طعام للسمك الشره... ابتسمت ريحانة في موقف لم يكن لها أن تبتسم فيه... وهزت رأسها... ثم حدثت نفسها بإعياء شديد... وهي تقول:

- "فقط... طعام للسمك... طعام للسمك... داود... طعام للسمك... صاحب الأفكار... وصاحب الأطماع في الثراء والمال... ثم داود... صاحب الإيمان والسماحة... أصبح الآن مجرد طعام للأسماك... يالك من دنيا".

وهكذا بقيت ريحانة تحدث نفسها طيلة دقائق... وهي الآن تودع زوجها إلى الأبد... عادت للوراء مخلفة البحر خلف نافذة سجنها... ومدخلة كل هموم الدنيا إلى صدرها... ثم ألقت بنفسها على الأرض الصلبة... ثم جلست تلك الجلسة التي اعتادت جلوسها في خلوتها... وضعت الفتاة كفيها تحت لحييها... ثم استأنفت النحيب... صورة داود والبحر يلتهمه... لا تكاد تفارق ذهنها..

الصندوق القذر

عندما ألقت الشمس بنفسها في أحضان المياه المالحة... كانت ريحانة جالسة... وكان وقعٌ لأقدامٍ تسير على أحذية كبيرة... وتتقدم نحوها... إنهما حارسان... لقد أحضرا الطعام والماء... وأحضرا صندوقاً حديدياً لقضاء الحاجة... صندوق قذر يغلق بأحكام بعد استخدامه... ويمكن الاستفادة منه ثلاثة أيام على الأقل قبل تفريغه وإعادته ثانية.

لم تشأ ريحانة أن تأكل أو تشرب... ولكنها استهجنت أن تقضي حاجتها بهذه الطريقة العفنة... لقد كانت من قبل تعاند نفسها في الذهاب لدورة المياه الموجودة في السفينة... والمسبكة تلقائياً للبحر... بحجة أنه شيء تتقزز منه الفتاة البرّية... إنها لم تكن تذهب لدورة المياه في السفينة إلا في أوقات متأخرة... وتكون على عجلة من أمرها.

ولكن هل سيكون سجنها الآن... بداية لأشد أصناف المعاناة النفسية... التي تعانيها فتاة حرة... تأنف من أن يحيطها شيء سوى السماء والهواء... لقد ضاقت من قبل بأن تسجن في البحر... وكانت تعد اللحظات في انتظار الخروج منه... فكيف بها الآن وهي تسجن في مرحاض داخل سفينة... أوه يال الهول... حدثت ريحانة نفسها:

-"ولكن ذلك كله لا يهم الآن... المهم فقط أن داود قد مات... وفاضت روحه إلى خالقه... لقد قضى شهيداً مؤمناً... وبقيت أنا مسجونة هنا... في هذا الخضم الرهيب... بعد أن كنت ملكة الوادي المتوجة... آه أيتها الدنيا اللعينة... كم تهزئين بالإنسان... وكم تغرينه".

الرجل الأسطورة... من جديد

رفعت ريحانة رأسها... وأسندته على الحائط خلفها... وأغمضت عينيها في صمت... وفي إغفاءتها تلك... لاح لها لائح غريب... أعادت تذكره بشوق شديد...

حتى أصبح الخيال أشبه بالحقيقة... إنه الوجه الصبوح... ذو اللون القرمزي... والعينين الزرقاوين... يا الله... إنه عين الدين... كم طال البعاد يا عين الدين.

لقد اختفى عين الدين من حياة الفتاة النمرة... اختفى من حياتها بمجرد دخول داود فيها.

ريحانة لم تكن تعلم لماذا كانت تشعر أن داود وعين الدين صارا رجلاً واحداً... وأن داود ليس سوى عين الدين... ولكنها المرأة... إذا أحبت... إنها لا تستطيع أن تحب سوى رجل واحد... وكل الصفات الجميلة التي تراها... أو رأتها من قبل في الرجال... تجسدها طوعاً في حبيبها الجديد... حتى ولو لم تكن تلك الصفات موجودة فيه... هذا في الواقع هو إعجاز حُبٍّ النساء.

لقد مات داود الآن ... ولم يعد يعني لريحانة سوى الذكرى الجميلة... وربما الحزن الكبير... ولكن عين الدين عاد إلى ذهنها... عاد من جديد كي يجسد لها حنان الأب والأم والصديق.

«آه يا عين الدين لو رأيتني هنا... قل لي شيئاً يخفف عني الهموم».

ابتسمت الصورة المهيبة لعين الدين... والمرتسمة بين السقف والجدار... عاد ذهن ريحانة للوراء... تذكرت ذات يوم عندما سألته قائلة:

- "لماذا يا عين الدين يضحك الإنسان حين (يدغدغه) شخص ما... بينما لا يضحك عندما (يدغدغ) نفسه".

- "لست أدري يا صغيرتي... ربما لأن أعصابنا تتقبض بسرعة عندما يلمسنا شخص آخر... وذلك لسبب بسيط... هو أننا لا ندري أن أحدهم سيلمسنا... ولكن عندما نلمس أنفسنا فإن أعصابنا لا تتقبض... لأنها متهيئة لنا... هكذا خلقنا الله يا بنتي... الإنسان مخلوق معقد... إننا نثق في أنفسنا بدرجة أكبر... وربما لا نثق في غيرنا... ونحن دائماً نشعر أننا على صواب... ونشعر أن من يخالفنا على خطأ.

ولكن يا صغيرتي... عليك أن تعلمي أن ثقتنا في أنفسنا قد يكون ضررها أكثر من نفعها... علينا أن لا نزكي أنفسنا بقدر ما نبحث عن أخطائنا... وعلينا أن نحاول إصلاحها... الإنسان مخلوق ضعيف... وهو مليء بالأخطاء... وضعفه ناتج عن جزعه... عن تسرعه في الحكم على الأشياء... الإنسان يستطيع أن يكون قوياً... فقط إذا استطاع أن يكون صبوراً... ولكن عندما تنهار قواه ولا يستطيع أن يصبر على المصائب... فإنه يحكم على نفسه بالتوتر والقلق... وربما بالحزن والاكتئاب... لا يوجد إنسان في الدنيا معصوم من المصائب... لأن حياة الإنسان مقطوعة قصيرة... لها ألحان عذبة... ولها ألحان أشبه بزعيق الغراب... علينا دائماً أن نتذكر الألحان الجميلة... وأن نتغلب على الألحان القبيحة... وعندما نرفع أصواتنا بذكر الله... ولذكر الله أكبر".

أطرقت ريحانة برأسها... وبدأت تذكر الله وتسبحه... وتتذكر داود عندما قضى أيامه الأخيرة في ذكر الله والابتهال إليه... هنيئاً له... ربما كان سعيداً الآن... كم تمنت ريحانة أن يقتلها هؤلاء الأوغاد... ويريحوها من عنائها الذي بدأ مع ارتمائها في هذا السجن الضيق... ولا تدري إلى أين سينتهي بها المطاف..

الطبيب

الطعام الذي يقدم لريحانة يعود كما هو... أما الماء فهي تستهلكه في الوضوء... وربما شربت منه جرعة أو جرعتين... لقد بدا الهزال عليها مع انتهاء الثلاثة الأيام الأولى... وسرت أخبار امتناعها عن الطعام لدى جميع الركاب... وأخيراً وصلت الأخبار لقبطان السفينة.

- "أوه... هذه المرأة المأفونة... كم ستجلب لنا من المصائب... غداً يقال... قبطان السفينة أساء معاملتها... وربما ساءت سمعة سفينتنا".

أرسل القبطان إلى طبيب السفينة... وطلب منه الكشف حالاً على تلك السجينة... ربما كانت مريضة... أو ربما كانت تقوم بعملية إضراب عن الطعام... لكن يجب أن يعرف القبطان كل شيء.

استقبل الطبيب هذا الأمر بشيء من الانزعاج... شعر في بادئ الأمر أن عليه ألاّ يتولى تطبيب القتلة... ومن المؤكد أنها امرأة خطيرة... خطيرة بالفعل... ولكن ليس من حيلة... ذهب الطبيب مع أحد الحراس تجاه القفص... كان شعور الرعب يداخلهما معاً... وعندما أدار الحارس الباب لفتح المفتاح قال للطبيب:

- "كن على حذر".

فُتح الباب... لقد كانت ريحانة هناك في الزاوية... ملقاة كما هو حال أي قطعة أثاث... ولكنها عندما رأتهما صرخت بعنف:

- "اخرجا... يا قتلة".

تراجع الحارس للوراء قليلاً... في حين أصابت الدهشة عقل الطبيب... وبعد تفكير قصير... قال الطبيب للحارس:

- "دعنا لوحدنا... ربما انزعجت منك".

- "أنت... وهي؟".

- "لا عليك... أنا الطبيب".

انصرف الحارس في حين تقدم الطبيب نحوها... وعندما جلس بجوارها مد يده في هدوء نحو يدها وهو يقول:

- "علينا فقط أن نقيس نبضات القلب... وبالمناسبة أنا طبيب".

لم تلق ريحانة له بالاً... لقد أدارت له ظهرها... إن إصرارها على عدم مقابلته كان حتمياً... إنها تشعر ألاّ فائدة ترجى من وجوده... وماذا عساه يفعل... ذلك الطبيب؟؟؟.

لكن الطبيب ذا الأصل الفرنسي... صاحب الستين عاماً... شعر بمشاعر غريبة... انقدحت في أعماقه بمجرد رؤيته الخاطفة لنظراتها... لقد بدأ حرصه يزداد لمعرفة حال هذه السجينة... لا يدري ما هو الباعث الذي يدفعه لذلك... ولكن نظرتها لم تكن نظرة قاتل... إنها ضحية بالتأكيد.

وأيضاً... ذلك الشيء الذي عرفه عن قصة زوجها... إن فضول الطبيب بدأ يزداد... لقد تذكر تلك الخطبة التي تكلم فيها القتيل... عن الله وعن الدار الآخرة... بالتأكيد كان موت الرجل الصالح مؤثراً... وهناك سر في أعماق هذه الفتاة... حري به أن يعرف... انتقل الطبيب للجهة المقابلة... وألقى بابتسامة في وجه ريحانة... وهو يقول:

- "عليك أن لا تخافي".

-"أنتم... قتلة".

توقف الطبيب قليلاً... عند هذه الكلمة.

«ما هو السر يا ترى؟».

أحس أن في الأمر خديعة... ولأنه يعرف أنها لم تتناول طعامها... وجد في ذلك فرصة سانحة له... كي يعرف حالها الصحي... وأيضاً كي يعرف السر الكامن وراء الجريمة... خاصة وأنه قد استُدّعي شخصياً لمعاينة الجثة والحكم عليها... نظر الطبيب من الكوة الموجودة في الباب ثم قال:

- "سوف تكونين بخير يا ابنتي... أنت في حاجة ماسة للطبيب... ثم... أنا لا دخل لي بالقتلة الذين تتحدثين عنهم... وعلى كل حال... فإن عينيك لا توحي أبداً بأنها عيني قاتل... وإنما هي عين لا تجرؤ على القتل".

عاد الطبيب نحوها وبدأ يقلب طرفه في وجهها... لقد ازداد الشك في قلبه حول قصة القتل... واستمر إلحاحه على معرفة كل شيء... وأخيراً قالت ريحانة:

- "ماذا تريد".

قام الطبيب جهة الباب... ومن جواره حمل كوباً من عصير الليمون... وقطعة صغيرة من حلوى الدباء اللذيذة... ثم عاد إليها... ومع خطواته الهادئة كانت ريحانة ترفع بصرها نحوه... وعندما جلس وضع الصحن وقال بهدوء.

- "مرحبا... بك".

ردت بتثاقل.

- "وعليكم السلام".

نظر الطبيب في وجه الفتاه الشاحب... وعينيها الغائرتين... ثم أجال طرفه في أطرافها التي أصبحت هزيلة... وابتلع ريق الحزن... وبعدها قال:

- "أنت هكذا تعذبين نفسك... عليك أن تتغلبي على معاني الحزن... وعليك أن تصبري... وعليك أن تتوكلي على الله".

غيرت ريحانة من جلستها عندما سمعت اسم الله ثم قالت بحذر:

- "هل أنت يهودي... هل أنت منهم... أم أنك...؟".

- "أوه يا ابنتي... أنا مسيحي... مسيحي متدين... لقد عشت في مصر ثم في لبنان وقتاً طويلاً... أنا أجيد العربية... والحقيقة أني لست عربيا".

صمتت ريحانة... ولكن بدا عليها أنها أحست بشيء من الارتياح... بعدها قال الطبيب:

- "لست أدري يا ابنتي... ولكن هل صحيح أنك قتلت زوجك؟".

أشاحت ريحانة بوجهها قليلاً في صمت... ثم عادت ونظرت للطبيب... وقالت باضطراب:

- "بل قتله الصهاينة... اليهود".

عادت ريحانة لوضعها الطبيعي وأردفت بهدوء:

- "لقد قتله الصهاينة... إنهم يطاردوننا منذ عام... وداود زوجي... كان في يوم من الأيام يهودياً... وكان صهيونياً... ولكنه أسلم... إنهم يخشون من أن يكشف

مخططاتهم... لذا دبروا قتله... وقتلوه... وأنا هنا دون ذنب... ولم يثبت في حقي أي جرم... أين ربان السفينة أريد مقابلته... أين هو؟".

قال الطبيب في تأمل واندهاش ظاهر:

- "أوه يا ابنتي... اليهود... ما دامت الجريمة من تحت قبعاتهم فنجاتك... لا أستطيع أن أحكم... ولكن يبدو لي أن نجاتك صعبه... لكني سأحاول جمع بعض خيوط القضية... سأدون كل كلامك... صحيح أن السكين تحمل آثار يدك... لقد رأيتها منطبعة على الدماء... والشهود كلهم ضدك".

قالت بتأثر:

- "ولكن الله معي... أما آثار يدي على السكين".

فكرت ريحانة قليلاً ثم أكملت:

- "إنه أمر اعتيادي... لقد كانت بسبب محاولتي نزع السكين... بعد أن وجدتها مغروسة فيه... يرحمه الله".

فكرت ريحانة هنيهة... ثم نظرت يمنة ويسرة ثم عادت لتقلِّب عينيها في حركات دائرية... واقتربت قليلاً من الطبيب وقالت في همس:

- "هل تستطيع أن تساعدني؟".

قال بقلق:

- "مساعدتك... كيف... لم أفهم!...".

- "أريد أن أخرج من هذا الحبس النتن".

ارتبك الطبيب قليلاً ثم قال:

- "أمر صعب... أنت هكذا تعرضين حياتي للخطر... صحيح أنا أتعاطف معك من أجل صحتك أولاً... وثانياً من أجل البحث عن الحقيقة".

ابتسمت ريحانة... ثم أسندت ظهرها للخلف وقالت:

- "صدقت... بالطبع... حياتك مهمة لديك... حتماً أولادك في انتظارك... أنا حمقاء... كنت أظن الناس مثلي... مشردين... ووحيدين".

أحس الطبيب بوخز في نفسه عند سماعه لهذا الكلام... وقال منتشياً:

- "وماذا تريدين يا ابنتي؟ ثقي أني سأساعدك بكل طاقتي... لست أدري لماذا قرأت أسطر البراءة بين عينيك... ولكني سعيد لو ضحيت من أجلك".

أطرقت ريحانة برأسها قليلاً... ثم صوبت نظرها تجاه لا شيء... ولم تلبث أن رفعت رأسها عالياً... وعندما صار كالطود... ألقت بنظرها تجاه الطبيب وعيناها تكادان تقذفان بالشرر... وبدا في ملامحها سمات النمر ذاته... الذي تركته عظاماً في الوادي... حينها بدأت أوصال الطبيب ترتجف... قال في نفسه:

- "يا الله ما هذه العفريتة التي أمامي".

تراجع الطبيب قليلاً للخلف... كان يزحف على يديه ومؤخرته... ولكنها سددت له نظرات قوية متتالية... كان عقلها يتفجر بذكاء خارق... إنها عازمة على إيجاد الحل الحاسم... قالت:

- "إذن أنت ستساعدني... عليك أن تتحمل قليلاً... سوف أضربك ضرباً مبرحاً وبعدها سأهرب... بالطبع أنا أضربك... كي لا يقولوا إنك ساعدتني... أنا لا أريد الصهاينة أن ينالوا منك... انتبه جيداً... الحارس الذي على باب السجن سيفتح الباب بعد قليل ليقول بصوته الممل:

- "اخرج... انتهى وقت الكشف".

إنك ستتأخر عندي قليلاً... وبعدها لن تراني فتاة كما تشاهدني الآن... وإنما ستراني شيئاً آخر !!! وعليك أن تتذكر أن الله معي... وتتذكر أيضاً أني سأضربك".

مرت لحظات... وكل منهما ينظر للآخر... وسُمع صوت المفتاح في الباب الصغير... بعدها فُتح الباب... ثم سمع صوت الحارس وهو يقول:

- " هيا اخرج أيها...!".

لم تكتمل كلمات الحارس... لأن صوتاً أشبه بالدوي انبعث من الغرفة... سمع في طياته صراخ الطبيب... وبعده سمع صراخ الحارس... واجتمع الناس من هنا وهناك... ليحملوا الحارس... وليكتشفوا أن مسدسه لم يعد معه... وعندما دخلوا غرفة الحبس رأوا الطبيب وهو يئن... ودمه قد غطى ملابسه... ولكن الفتاة لم تعد هناك... شيء أشبه بالسحر جعلها تختفي... صرخ الجميع:

- " أين ذهبت...".

حُمل الطبيب... وبدأت الأخبار تسري في جنبات السفينة... وبدأ الرعب يسري داخل القلوب... الفتاة القاتلة... لم تعد هنا... إنها مجرمة... قد قتلت زوجها من قبل... وهي الآن تحمل السلاح... وتختبئ في مكان ما في نواحي السفينة... وتأكد للجميع أنها امرأة خطيرة... بالتأكيد ليست مثل النساء... يا الله كل القلوب خائفة... والقبطان يسأل في ذعر عن أبعاد ما حصل... واليهود الذين نفذوا جريمة قتل داود أصبحوا أشبه بالنحل الطنان... إنهم يحاولون البحث عن مكان كي يخفوا فيه أنفسهم.

والوقت ساعتها قارب على غروب الشمس... ولا أحد من حراس السفينة يجرؤ على البحث في الأماكن التي يحتمل وجود الفتاه فيها... مر الوقت كئيباً مذهلاً... ومع غروب الشمس... صرخ أحد الحراس على سطح السفينة.

- "قتيل... قتيل... يوجد هنا قتيل".

اجتمع الحراس الآخرون... إنها جثه أحد الحراس... بالطبع كان القتيل أحد الخمسة الذين شهدوا على قتل ريحانة لداود... وكان سلاحه منزوعاً... وجثته مسجاة على الأرض... وأوصاله باردة... حُمل الحارس... وذُهب به إلى طبيب السفينة... الذي لتوه عالج الكدمات غير العميقة في جسده... وعندما كشف على الجثة أكد وفاة صاحبها مخنوقاً... وأن رقبته قد كسرت... ومن داخله ضحك الطبيب... ثم عاد ومسح جروحه.

انفجر الرعب من جديد في قلوب الجميع وبدأ ركاب السفينة يدخلون لغرفهم ثم يقفلون على أنفسهم أبوابها... والحراس جمدت الدماء في عروقهم.

ومع منتصف الليل... وفي السرداب المفضي لمخزن الطعام... كانت ريحانة تسير بحذر... إنها تريد حمل بعض الأطعمة... لأنها في حاجة ماسة للطعام والماء... بالتأكيد هي في حاجة ماسة لتستعيد قواها... لقد كانت تتوقع أن تجد حارساً هناك... وقد كانت مستعدة لقتله... وكانت حريصة على ألاّ يتنبه لها بقية الحراس... لذا قررت استخدام السكين... وما هي إلا لحظات حتى أصبحت ريحانة وجهاً لوجه مع الحارس... دققت ريحانة النظر... ثم لم تلبث أن هاجمته... ولكنه على عجل وضع يده على المسدس... وبدأ يصوب عليها.

وسرعان ما قذفت ريحانة بالسكين من يدها... لتراها بعد لحظات وهي تسكن في قلب الحارس... عندها سقط الحارس... ودخلت ريحانة مسرعة إلى داخل المخزن... وحملت ما أمكنها حمله من الأطعمة الجافة... وشربت الماء... وأخذت مزودة الماء الموجودة بجوار الحارس... وأخذت أيضاً جميع أسلحته... وخرجت في خفتها المعهودة.

ومع الفجر... كان صوت الناعي ينبعث من داخل السرداب بقتل حارس جديد... انتشر الخبر مفزعاً... واستيقظ معه كل النائمين... رجل فقط ابتسم عند سماعه للخبر... وشعر أنه يريد أن يصفق... أو يرقص طرباً... إنه الرجل الوحيد الذي يعرف أنها كانت مظلومة... الطبيب الفرنسي... ولكنه سرعان ما تذكر قوتها عندما هجمت عليه... وضربها إياه... إنها حقاً عفريتة.

صعدت ريحانة فوق سطح إحدى الغرف في السفينة... واختفت هناك... ومع شروق الشمس بدأ حراس السفينة ينتقلون ومسدساتهم في أيديهم... إنهم يبحثون باجتهاد عن الفتاة... وكل منهم يخاف أن تكون نهايته على يدها.

الطبيب الفرنسي بدا مهتماً جداً للوضع... ولكنه في الوقت ذاته كان عازماً على فعل شيء ما... كان يسير على سطح السفينة... وينظر يمنة ويسرة... وفي خفية تامة... دخل لغرفة الأطعمة... خرج من الغرفة بحذر... كان ينظر خلفه وهو يحمل كمية من الأطعمة الجافة... وضعها في مكان ما... ثم اتجه نحو كيزان الماء العذب... وعبأ كمية من الماء في قربة متوسطة الحجم وترك جزءاً منها فارغاً للهواء... وبدا قلقاً خشية أن يراه أحد... ولكنه أتم مهمته بسرعة... ثم عاد بين الحراس يبحث معهم ويسب الفتاة التي نالت منه... أحد الحراس قال:

- "أنت محظوظ... لأنك لم تمت".

مرت ساعات اليوم طويلة... الفتاة مختفية ولم يعثر لها على أثر... وغربت الشمس والحال هو الحال... الحراس خائفون يتنقلون في ذعر... والفتاة النمرة مختفية... لقد مضى الليل طويلاً قلقاً... ولم يُعلم عن حدوث أي عملية قتل... وعندما طلعت الشمس كان هناك توقعات عن المكان الذي تختفي فيه الفتاة... لقد بلغهم أنها على سطح إحدى غرف السفينة... وعليهم أن يتحركوا بالسرعة الكافية كي ينهوا مهمتهم بنجاح... حددوا المكان المتوقع وبدؤوا في الاجتماع حول الغرفة التي تقف ريحانة على سقفها... ريحانة مختبئة هناك... إنها على أتم الاستعداد... وعندما شعرت بهم قامت في هدوء... لقد كانت تحمل معها مسدساً... جلست في مكان منزو وبدأت تصوب عليهم... ثم تطلق بمهارة ودقة... لقد سقط أحدهم ميتاً... وبخفتها المعهودة قفزت تجاه سطح السفينة... وبدأت الأصوات:

- "اقتلوها... اقتلوها... قبل أن تختفي".

ولكن ريحانة وجدت نفسها محاصرة من جميع الجهات... إلا أنها لم تعدم الحيلة... لذا قفزت... وتعلقت بأحد الحبال... لقد كانت تريد التسلق على السطح ثانية... كان الطبيب الفرنسي ساعتها على أحد جوانب السفينة... وكان بجواره ثلاثة صناديق من الخشب... قد أقفلت بشكل محكم... وسرعان ما حملها واحداً

واحداً... وألقى بها في البحر... ثم انطلق جهة ريحانة... كان الحراس ساعتها مشغولون... إنهم يصوبون ناحية ريحانة بفوهات مسدساتهم... وكان التوتر واضحاً على ملامحهم ... وكأنهم يخشون من إطلاق الرصاص عليها... ولكن الطبيب أقبل بسرعة وهو يحمل معه عصاً طويلة... كان يصرخ:

- "لا تقتلوها قبل أن أنتقم منها... انتظروا... لقد ضربتني على رأسي... وجعلت دمائي تتبخر".

وتقدم الطبيب جهتها... ثم ضربها ضربة... قوية على ظهرها... ثم دفعها بعد ذلك للخلف بمؤخرة عصاه... ريحانة كانت تنظر للطبيب نظرات ثاقبة... لم تكن تعلم ماذا يدور بخلده... ولكنها لم تشأ أن تهجم عليه... لقد أحست في كلماته شيئاً يخالف ما يجول بداخله... تراجعت ريحانة للخلف قليلاً... تبعها الطبيب... ودفعها بقوة... كانت ريحانة ساعتها على حافة السفينة... وكانت الخطوات التي رجعتها للوراء هذه المرة كفيلة بأن تجعلها تسقط من فوق السطح.... جهة أمواج البحر العاتية.

أغمض الطبيب عينيه... ولم يشأ أن ينظر إلى سقوط الفتاة.

داخل البحر

هكذا غادرت الفتاة النمر سفينة الذئاب... بعد أن عاشت فيها أياماً عصيبة... لتدخل في الخضم الهادر... الذي يبتلع بعنف كل ما يلقى فيه... لحظات وترتطم الفتاه بالأمواج... ويتقدم الطبيب لينظر إليها... قلبه يكاد يتقطع من الحزن... ثم تقدم نحوه الحراس وهم يصدقون أنفسهم ويكذبون... إنهم لم يكونوا قادرين على إطلاق الرصاص جهتها... خوفاً على أنفسهم منها... لقد كان كل حارس منهم يريد أن يسبقه حارس آخر في إطلاق الرصاص... كانوا يشعرون أنها أقوى منهم جميعاً... مع أنها كانت وحيدة دون سلاح... وعندما ترك الطبيب الأمواج خلفه عاد جهة غرفته... واستقبله الحراس شاكرين... وما كان منه إلا أن وزع عليهم ابتسامته الحزينة... ثم قال:

- "أنا حزين... لأن الطبيب يجب أن لا يقتل أحداً... الطبيب يمنح الحياة ولا يسلب الحياة".

ثم ولاهم ظهره... وتقدم حتى دخل مع باب غرفته... ومن داخل غرفته بدأ يتابع البحر... ويطل من خلال نافذة صغيرة... إنه يريد أن يتأكد من شيء ما... وعندما نظر ودقق النظر.. رأى الأمور قد سارت كما خطط... بعدها ابتسم ابتسامة عريضة ورفع نظره للسماء... وقال:

-"اللهم لك الحمد".

عاد الطبيب بعدها ليجلس على سريره... فقد كانت معاناته في الدقائق الفائتة معاناة بليغة... ولكنها هدأت الآن أوصال قلبه الملهوف... بعد أن تأكد من نجاة الفتاه النمرة من فوهات مسدسات الحراس.

ومنذ قليل رآها وهي في وسط البحر... وقد أمسكت بأحد الصناديق الخشبية التي ألقاها بيده في خضم المياه المتلاطم... منذ قليل فقط... إنها عناية الله... ربما كانت هذه الأمواج حافظاً أميناً.

لم يكن أمام الطبيب سوى هذه الطريقة... إنها الطريقة الوحيدة التي تكتنفها احتمالات الفشل... أكثر من احتمالات النجاح... ولكن احتمال الموت خير من الموت المحقق... بطلقات الرصاص... وفي طيات ذلك التأمل... سمع الطبيب صوتاً قوياً من الخارج... إنه صوت الفتاة النمرة وهي تصرخ على سطح البحر الهادئ نوعاً ما... وأمواج البحر تحوم حواليها ولا تكاد تؤذيها... كانت تقول بصوتها المرعب:

- "سأنتقم... سأنتقم منكم يا يهود".

قام ساعتها الطبيب... وعاود النظر مع نافذة حجرته... إنه يرى الفتاة تشير من وراء السفينة... وتصرخ متوعدة... نظر في أطراف غرفته... وإذا به يرى أربع برتقالات... حملها بشعور متدفق... وألقاها مع النافذة... وأشار بيده إلى الفتاة مودعاً... وعيناه تذرفان الدمع... وعندما رأته الفتاة هدأت نوعاً ما... وشعر أنها

تبتسم له وتودعه... واستمر يراقبها... ويراقب بدهشة بريق عينيها وهي تتلألأ كدراري المحار... وابتعدت السفينة مخلفة ذلك البريق الرائع... وذلك المخلوق الأشد روعة... إنها الفتاة الأسطورة... الفتاة النمرة... التي عليها الآن أن تصارع جبروت المياه... وعليها أن تستمر حية كي تكمل رسالتها.

قال الطبيب و هو يمسح دموع عينيه:

-"وداعاً... أيها المخلوق الرهيب".

الفصل العشرون

وحدة قاتلة

يمد يده بهدوء... ليفتح باب الخزانة القديمة... المعلقة بمسمارين من النحاس... في جدار غرفته... ثم ينظر شمعون عبر الظلام المخيم داخل تلك الخزانة... وما إن يتبدد الظلام قليلاً حتى يمد يده للرف العلوي... ويمسك بالكتاب الضخم الذي يلتف حوله جلد أحمر لايزال به شعر كثيف.

حمل شمعون الكتاب وأخرجه من الخزانة... ثم قربه من صدره في يقين تام... وأحس أن شيئاً من الهدوء يعبر لأعماقه... بعد ذلك أردف بزفرة طويلة... ثم عاد أدراجه للوراء... وسار باتجاه الشرفة الزجاجية المطلة على المزرعة... وهناك جلس على المقعد الخشبي... الملبسة أطرافه بالحرير الطبيعي... خمري اللون.

المكان ساكن سكون الصمت... والجو قاتم قتام الضوضاء... والضوء القادر على تبديد الظلام هو الضوء الذي ينطلق من فتائل الشموع المنصوبة في الشمعدان... والوقت الآن هو ما قبل غروب الشمس.

الجو الغائم في الخارج... لا يسمح لقرص الشمس إلا بشيء واحد... هو أن يلقي بنفسه في أحضان الموت البطيء... دون أن يتلفظ بالشهادة التي تتلصص من بين رتوق الغيوم وفتوقها... شمعون يضع الكتاب أمامه بهدوء... ثم يرمي بطرفه نحو الملكوت البديع... الله... الله هو الحقيقة التي تبث الدفء... وتمنح السلام.

وفي حركة هادئة... يمد شمعون يده نحو التلمود المقدس... الذي تلفه الدفتين... ويبدأ بتقليب الصفحات... ويقرأ بعينين ناعستين ملئها الوجل والضراعة.

مر من الوقت ما كان كفيلاً بتأجيج المشاعر داخل وجدان شمعون... وبعدها انحدرت الدموع كحبات برد بلورية... كانت السكينة ساعتها محيطة بالموقع الذي كان شمعون يريد إحاطته بها داخل قلبه... وأقبل الخادم سنوم من هناك... بخطوات هادئة... وكان يحمل في يمناه مظروفاً صغيراً... وعندما وقف أمام شمعون قال بهدوء وسكينة:

- "سيدي... هذه رسالة من هدية".

نظر شمعون له في انفعال... ثم ابتسم وهو يقول:

- "هدية".

وبعد أن تناول الظرف فتحه بسرعة... وأخرج الرسالة المطوية... وبدأ يفتحها بهدوء... لقد شعر أنه يشم رائحة ابنته... ويرى صورتها... قد بدت بتقاسم باهته... بين السطور المتموجة... وسرعان ما بدأ شمعون في القراءة... كان شمعون يقرأ ويتلذذ برؤية كل حرف... وعندما انتهى من القراءة قال بهدوء:

- "وأخيراً... سوف تعودين في أقرب وقت... كم أنا ممتن لك يا شيخ داود".

الوحدة

يمسك عصاه الطويلة... ثم يمدها في هدوء نحو التفاحة الناضجة... وبهدوء يحاول إسقاطها... إنه شمعون... بيد أن عقله هناك يتآكل... قبل أن يصل للتفاحة الخضراء... لأنه يفكر في هواجسه الرهيبة... إنها ابنته هدية... وماذا عساه يفعل... بعد أن تغيرت جميع طباعها... قد كانت عصفورة جميلة غناء، ولكنها الآن نسر جارح... أين دلالها... أين أنوثتها.

قطف شمعون تفاحته... ثم أمسكها... وبدأ يقذفها للأعلى بهدوء... ثم يواصل مسيرته في مزرعته الكبيرة... وعندما سئمت قدماه السير... جلس على

مقعد خشبي... ثم رفع التفاحة لينظر في لونها الساحر... وتذكر ذلك المعنى الكبير الذي طالما جال في وجدانه... إنه الحب... الحب والصفاء... والقلوب المتدفقة بالدم.

تنهد شمعون... ثم لاحت له دون أي مقدمات... تلك الصورة الناصعة... صورة داود...

-"ويلك يا داود... لقد أصبحت مسلماً... هـ هـ هـ... كم ستنال الظنون والهواجس من فؤاد هدية... وهي ترقب لحيتك الطويلة هـ هـ هـ".

ابتسم شمعون للموقف الجميل... الذي ارتسم لداود وهدية... وهما يلتقيان... ثم أسند العجوز ظهره للوراء... وهو يقول في هدوء:

- "لقد اختطفتك الصهيونية من بين يدي... أوه يا هدية... لو لم تنخرطي في هذا الخيط اللعين... لكنت الآن ساكنة القلب بين أحضان والدك... ولكن... يال الأسف... عبّاد مصالحهم استأجروك... بثمن بخس... عليهم اللعنة".

مر الوقت رتيباً هادئاً... وبعد أن أخذ الملل من شمعون كل مأخذ قام من مقامه... واتجه نحو الباب الكبير المذهب الأطراف... آن له أن يدخل الآن... ليستقبل وحدته الطويلة... في ليلة مظلمة قاتمة... داخل قصر كبير.

وفي داخل القصر كان شمعون يلقي بنظره على كل ما يصادفه من التحف والأرائك... ثم ينقل خطواته وهو يعزف على أنغامها قيثارة وحدته... اختار شمعون إحدى الأرائك ليجلس عليها... ثم ليخرج في هدوء حبات مسبحته الطويلة... التي أهداها له الحاج سالم... جاره القديم... عندما عاد من الحج... حينها وزَّع على جميع جيرانه حبات من الحمص... وسبحات خشبية... وحلوى حمراء.

استمر شمعون في عد حبات السبحة دونما تركيز... بيد أن عقله مشغول بالصهيونية... إنها نهاية المطاف التي يريد أن يخوضها أبناء جنسه... ولكنها لعبة خاسرة... تلك اللعبة التي يلعبها من لا يجيد اللعب... وكثير من الضحايا سوف تنالهم هذه الحرب... أولهم من اليهود.

بدا شمعون يحدث نفسه بذلك الجرم العظيم... الذي يصنعه المخططون للحروب الدموية... عندما يقررون خوضها بأجساد الأبرياء... ثم تنهد بعمق وقال:

- "سوف يزجون بأبنائنا في جوف الحرب... سوف يحرقون فلذات أكبادنا... بزعم أنهم يبنون دولة للرب... هـ هـ... ليس الرب في حاجة لدولتكم... ولكننا في حاجة لأبنائنا... لعنك الله يا هرتزل... لو لم تنشأ في عقلك الغبي... تلك الفكرة اللعينة ... لكانت هدية جالسة أمامي الآن... ولكانت تسرد قصصاً وأخباراً عن طفولتها... وتبدد عن شيخ كبير سُدم الوحدة.

استمر الليل يمضي بخطواته البطيئة على المنزل الكبير... وعلى المزرعة النظرة... وعلى نبضات قلب شمعون الذي اتخذ من (تكتكاته) أنغاماً لتنقل الثواني في ليل حرمان بهيم... ومع بزوغ الفجر كان المؤذن يؤذن... وكان شمعون جالساً في مجلسه... يبحث عن النوم الذي هجره... ولكن صوت المؤذن ذكره من جديد "بهيلا الهيلي"... أغمض شمعون عينيه وهو يردد...

"هيلا... الهيلي"...

ثم جلس بهدوء... وسبح مع هذا الاسم... بعيداً في سني الماضي... لقد شعر شمعون أنه يحن إلى الماضي... ولكل أصحاب الماضي.

وانقدحت في ذهنه فكرة رائعة استسلم بعدها لنوم عميق... إنها زيارة هذا الصديق القديم... علَّ جديداً يحصل على يديه.

أين أنت يا هيلا

لم يلتئم الجرح الذي بدا راكداً في قلب شمعون... منذ فراقه لابنته.

- «إيه... لقد كان يوم بؤس ذلك اليوم الذي تم فيه انخراطها في خيط تلك المنظمة اللعينة... منظمة تريد بناء دولة صغيرة لليهود... في قلب وطن العرب».

شمعون لا يفكر في وطن لليهود... بقدر ما يفكر في قلبه الذي يلهبه الشوق... في انتظار ابنته الوحيدة... بيد أن ذلك الفراق وجد سلوته في استعادة ذكريات الماضي... إنها الومضة التي أعادت الدفء:

- "الرجل المذهل صاحب الاسم المذهل... هيلا الهيلي... صديق الشباب... والرجل صاحب المواقف".

كان شمعون يغلق الخزانة... جيداً بعد أن أخرج خمسة جنيهات ذهبية ووضعها في جيبه... ثم تراجع قليلاً ليجلس على كرسي من دون ظهر... وقال في نفسه:

- "وماذا لو أسلم هيلا... ليس هيلا أول يهودي يسلم... ولكن ماذا عني أنا... إيه... بالتأكيد أنا في حاجة ماسة لألجأ لصدره الواسع... وقلبه الحنون... في هذه الوحدة".

لم يطل تفكير شمعون كثيراً... ومع انتصاف الشمس في كبد السماء كانت العربة البيضاء ذات العجلات الأربع تتنقل كيفما انتقل الحصانان القويان... اللذان يجرانها.

إنه الحي العربي في بيروت... هو الحي الذي يسكن فيه هيلا الهيلي... كما نمي إلى علم شمعون... ومع غروب الشمس كان شمعون يصل مع عربته وسائقه إلى بيروت... وهناك بدأ الركب يسيرون على الأوصاف التي يعرفونها عن منزل هيلا الذي نزله بعد إسلامه.

سارت خطوات الأحصنة... واقتربوا من موقع الحي... ومع دخولهم لتلك البوابة الحجرية القديمة... بدت المنازل قديمة متهالكة... وبدت النساء الفقيرات

يخرجن من تلك المنازل... وهن يحملن دجاجات أو علفاً للبهائم... أو يحملن بعض عيدان الحطب... والتفت عاصفة رملية صغيرة بجوار عجوز كانت تغزل الصوف تحت شجرة تين عملاقة... وقف "العربجي" ونزل ليسأل العجوز... وعندما وقف عند رأسها... دققت النظر فيه... ورفعت عينها وقالت:

- "أهلاً يا بني".

- "هل تعرفين منزل هيلا الهيلي؟".

- "لا يوجد أحد بهذا الاسم".

- "قيل لنا إنه يسكن هنا".

- "لا أدري".

انصرف العربجي وصعد العربة وعندما ضرب الحصان أردف يقول:

- "اش".

نادته العجوز بصوت واهن وقالت:

- "تعال يا فتى".

نظر السائق إليها دون اكترات... ولكنه أوقف الحصان ثم قال:

- "ماذا لديك؟".

- "هل تقصد عبد الله الهيلي؟".

نظر العربجي لشمعون في حين قال شمعون:

-"ربما غير اسمه... اذهب وتأكد".

قالت العجوز:

- "هل تقصد اليهودي الذي أسلم؟".

- "نعم إنه هو".

أشارت العجوز بيدها ثم قالت:

- "في نهاية الطريق... ولكني لم أشاهده منذ فترة".

انطلقت العربة ثانية متجهة للأمام... وبعد دقائق توقفت بجوار منزل كبير بالنسبة للمنازل المجاورة... وكان بجوار المنزل مزرعة صغيرة... وجدران المنزل الطينية يبدو أنها لم تنل نصيباً كافياً من الصيانة لمدة سنوات... وبعض النوافذ يُدخلها الهواء للداخل ثم يُخرجها ثانية... ولا يوجد آثار أقدام بجوار باب المنزل.

نزل شمعون من العربة وبدأ يطالع متفقداً تلك الملامح البائسة للقرية... ولهذا المنزل... ثم قال (للعربجي):

- "يبدو أن أحداً لا يسكن هنا".

رفع العربجي كتفيه في حيرة... في حين وضع شمعون يده تحت خده ودخل في تأمل طويل... وفي تلك الأثناء... خرج رجل من المزرعة المجاورة... إنه رجل له شوارب عظيمة... قد غطى التراب معظمها... وسرواله الواسع تبدو خطوطه متمازجة مع التراب المبتل بالماء... وفي يده "المسحاة " الحديدية... ذات النصل المصنوع من أغصان الزيتون الصلبة... تقدم شمعون نحو الرجل وقال:

- "هل تعمل هنا؟".

- "بالطبع... أنا مزارع هذه المزرعة... وعندي الزيتون، والليمون، والبرتقال وعندي أيضاً التفاح".

- "لمن ترجع ملكية هذه المزرعة... يا سيد؟".

- "أوه... إنه الرجل الطيب عبدالله الهيلي".

قال شمعون متسائلاً:

- "هيلا الهيلي".

ابتسم المزارع ثم أردف:

- "نعم... هيلا الهيلي... الله... الطيبون لا يبقون".

قال شمعون في قلق وحيرة:

"ماذا حصل له... هل هو بخير؟".

"ألا تدري يا سيدي عن آخر أخبار عبد الله... أوه يا سيدي".

- "قل لي بربك... حل حصل له مكروه".

جلس المزارع بعد أن استدار للخلف ليشاهد ما وراءه... ثم بدأ في سرد الحكاية.

الفصل الحادي العشرون

العجوز والبطة السوداء

الشمس تبدي وجهها من وراء الجبل الأخضر... مؤذنة بدخول يوم جديد... وأشعة الشمس ترسم مع الثلج المتشبث بقمة الجبل لوحة بديعة التقاسيم... والعجوز ماريا تصرخ على عادتها... وتتنقل داخل مزرعة البط... وتسب وتشتم... ومرة تلعن البطة السوداء وتناديها بالبطة العفريتة... ومرة أخرى تسب البطة البنية.

وسبب تلك الشتائم في الغالب هو تأخر البطات في إنتاج البيض... المقرر على كل بطة من فصيلتها أن تنتجه... دخلت العجوز لقفص الأرانب وأدخلت يدها في الجحر ونزعت أرنباً صغيراً... قبلته في حُب ثم أعادته.

ماريا تعيش في كوخها الصغير... وتقضي طيلة وقتها في حظيرة الحيوانات التابعة لمنزلها... إنها عجوز في السبعين من عمرها... ولكنها لا زالت نشيطة... ومع كل السلاطة البادية على لسانها... إلا أنها تحمل قلباً طيباً رحيماً... وهي لا تفكر كثيراً في المستقبل بقدر ما تفكر في ابتكار طريقة جديدة لسلق البيض أو قليه... و نادراً ما تذبح بطة أو أرنباً... لأنها تدعي أنها نباتية.

شيء واحد يشعرها بالاعتزاز والفخر... ويمنحها الثقة في نفسها... إنه الاستقلالية شبه الكاملة عن الناس... فهي تمثل حيزاً مستقلاً هو أقرب لحالة الاكتفاء.

بقرة ماريا العرجاء الحلوب صارت كبيرة في السن... وماريا تفكر بجد في بيعها... إنها تنتظر فقط أن تأتي بالمبلغ المناسب... وهي تنوي شراء بقرة أخرى لا تحمل أية علة.

ماريا لها يوم واحد في كل أسبوع تخرج فيه لقضاء حوائجها... إنها تذهب للبلدة... وتقوم بعلميات الشراء والبيع... أو عمليات المقايضة... وسلتها الصغيرة تحمل جميع الأشياء التي تريد العجوز بيعها... تلك السلة مصنوعة من خشب البلوط الرائع ... وهي من أسفلها ترتكز على عجلتين من الخشب... ويمكن بسهولة سحبها أو دفعها.

وعندما شارف فجر اليوم التالي على الظهور... وكان الظلام حينها لا يزال يصارع خيوطاً ضعيفة من النور... يصرعها حيناً وتصرعه حيناً آخر... كانت ماريا بقبعتها الحمراء وفستانها القرمزي المزركش... وحذائها الجلدي الداكن... تخرج من منزلها... لقد كانت السلة العجيبة ذات العجلتين تسير أمامها بهدوء.

توقفت ماريا... وتركت سلتها... واتجهت جهة حظيرة الحيوانات... وبدأت تسب وتشتم كالعادة... ثم فتحت مخزن الأطعمة المعد مسبقاً لخزن الحبوب والعلف... وحملت شيئاً من ذلك... وألقته على حيواناتها وابتسمت في سعادة... ثم خرجت.

أقدام العجوز تسير الهوينا... وعيناها تتقلبان بانسجام في الطريق المعشوشب... وكفاها تدفعان العربة الصغيرة... وقطرات من السعادة تخالط دمها كلما هزت رأسها مع ترانيم خطواتها... إنها تسير في هذا الطريق المظلم... والمحاط بالأشجار العالية... وهي تسلي نفسها بترديد ترانيم جميلة... لأغنية قالها زوجها... في أيام الصبا.

من عادة ماريا دائماً ترديد هذه الأغنية... وبالأخص كلما اقتربت من الجسر الخشبي الموضوع بشكل مقوس فوق الجدول الصغير... ماريا ترفع صوتها بأغنيتها في خشوع... وربما خنقتها العبرة هناك... وإذا سارت على الجسر وقفت في

منتصفه وألقت ببعض حبات البندق المكسور في الجدول... وربما سمحت لعينيها أن تذرفا شيئاً من الدموع.

سبب هذا المشهد الحزين... الذي تقوم به العجوز كلما كررت السير في هذا الطريق... هو أن زوجها الحبيب مات في هذا الجدول... منذ ثلاثين سنة.

لقد مات وهو يعيد إصلاح الجسر... بعد أن تآكل خشبه من الأسفل... وحينها سقط... ووقع رأسه على صخرة لم تكن بعيدة عن سطح الماء... وأغمي عليه... وغرق... نعم لقد غرق وخرج من الحياة... مع أنه كان شاباً قوياً.

تواصل ماريا سيرها متجاوزة الجسر... وشيئاً فشيئاً تعود لحالتها الطبيعية وتعيد الترنم ثانية بأغنيتها الجميلة..

"ورق في كفيكِ سينبت...

إن أنتِ سقيتيني الماء...

ورد في خديك سيذبل...

إن أنت حرمتيني الماء...

نلهو نضحك من قلبينا...

نسطع نوراً كالجوزا...

ما أبهانا كل صباح ...

ما أجملنا كل مساء...

نحن طيور ركبت غيما...

وقفت تنظر للأجواء...

شربت مطراً غرست حُباً...

عشقت دوحتها الفيحاء...

ورق في كفيك سينبت...

إن أنت سقيتني الماء".

شبح الظلام

نظرت ماريا لنجم بعيد... كانت تعتقد بيقين أنه نجم زوجها الميت... وتوقفت عن الغناء فجأة... ثم أرخت سمعها... ربما كانت تسمع شيئاً.

- "ما هذا يا ترى... أمر غريب".

شعرت العجوز أنها تسمع أصواتاً تنبعث من خلف جدار المحرقة الصغير... ذلك الجدار الأسود الذي يبعد عنها مسافة عشرين متراً... دققت النظر في مصدر الصوت... وفي المحرقة... إنها محرقة قديمة لها جدار بني اللون على شكل مربع... ويضع فيه أهل المنازل المجاورة نفاياتهم استعداداً لحرقها.

في الغالب... تكون نفاياتهم... أشياء فقدت كل قيمتها... وربما يكون من بينها أدوات حرفية تالفة... أو شيء من القاذورات.

دفع الفضول ماريا لتقصي حقيقة ذلك الصوت المنبعث من المحرقة... ولم تكد المرأة العجوز لتقترب عدة أمتار حتى توقفت فجأة... لقد خرج ذلك المخلوق الرهيب من بين تلك النفايات... إنه أشبه بالشيطان الذي سمعت عنه... بالتأكيد إذا لم يكن هو الشيطان بعينه... مخلوق أسود مذهل... شعره منتفش... ويسير بخطوات عرجاء... لم يكن الطريق مفتوحاً أمام ذلك الشبح إلا من وراء ماريا... وذلك بسبب الأسلاك الشائكة التي تحيط بجدار المحرقة من ثلاث جهات... توقف الشبح أمام ماريا فجأة... نظر إليها للحظات... وبدا وكأنه عازم على الهرب... الغريب في الأمر أن ذلك المخلوق كان عار تماماً... ولكنه يبدو خجولاً.

دققت ماريا بنظر مرتعب... وكان قلبها يدق... لم تكن ملامح ذلك المخلوق لتخفى عليها... إنها بالتأكيد ملامح إنسان... ولكنه إنسان مرعب... تمتد بشاعته

إلى اللانهاية... وضعت ماريا يدها على صدرها... وبدأت تفكر في الهرب... ولكن أين عساها تهرب... ثم إنه من المحتمل... أن يكون هربها هو سبب هلاكها... وقفت العجوز متجمدة في مكانها... ثم استجمعت كل شجاعتها لتقول بصوت خائف:

- "من تكون أيها الكلب الشارد؟".

لم يرد عليها الشبح بكلمه واحدة... لذا عادت ماريا لتقول وقد عاد لها بعض الاطمئنان:

- "هل أنت الشيطان أم أنك؟".

بدأ قلب ماريا يرتجف بشكل أكبر... لقد بدأ ذلك الشبح في الاقتراب منها... إنه أشبه بمجموعة من العظام اجتمعت تحت جلد ناشف... عينان غائرتان... وعظام بارزة... تراجعت ماريا قليلاً للخلف... ثم عاودها العزم على الهرب من جديد... ولكن سرعان ما سقط ذلك الشبح أرضاً... وبدا وكأنه يرفس تحت وطأة شيء ثقيل... توقفت ماريا برهة... ثم ابتلعت ريقها... ثم نظرت يمنة و يسرة... لقد كانت نفسها تتنازع بين فكرتين... هل تهرب... أم تتقدم لتعرف حقيقة هذا الشيء الغامض...

لم يطل وقت التفكير... لقد تقدمت العجوز نحو الشبح بهدوء... وعندما وقفت عند رأسه بدأت تدقق النظر فيه... يال الهول... إنه إنسان... إنسان محروم...

اقتربت ماريا أكثر... أصابها الذهول حتى كادت تسقط... هذا المخلوق ليس سوى فتاة:

-"نعم إنه فتاة... فتاة... يا الله إنها فتاة عريانة".

وضعت ماريا يدها على رأسها... هذه الفتاة تبدو عظاماً جوفاء... ويبدو أنها لم تأكل طعاماً منذ سنين... هذا إن صدق الظن... بأنها فتاة بالفعل.

ثنت العجوز ركبتيها حتى اقتربت من هذا المخلوق... ثم مدت يدها ووضعتها على صدر الفتاة المسجاة... تبدو ميتة... نعم إنها ميتة... إلا أن شهقة صغيرة خرجت بكل

ضعف... من ذلك الجوف المتهالك... كل الدماء تجمعت في وجه ماريا ودون شعور... تحركت العجوز حركة سريعة... لقد وقفت بحزم... ثم عادت للخلف... وأحضرت السلة... وأخرجت جميع البيض منها... وأخرجت صغار الأرانب والخضروات المخزونة... ثم تقدمت بعربتها جوار الجسد الهزيل... وبدأت ترفعه... قليلاً... قليلاً... كي تضعه داخل السلة... لم يكن الجسد ثقيلاً... لأنه كان أشبه بهيكل عظمي.

دقائق قليلة مرت... وكانت ماريا بعدها تدفع سلتها عائدة جهة منزلها... لم يعد لها وجهة هذا اليوم نحو السوق... هناك أمر أهم.

مرت ماريا بالجسر... صعدت بعربتها فوقه... بيد أن مرورها هذه المرة كان مروراً مختلفاً تماماً... إنها منذ (٣٠) سنة لم تمر على الجسر بهذه الطريقة... لقد مرت دون أن تغني أغنية زوجها... لأنها كانت ملهوفة... تفكر بعمق في حقيقة هذه الفتاة.

مر الوقت وماريا غارقة في أفكارها... وأخيراً ها هو كوخها الصغير... ومن بعيد تلك هي البطة السوداء... وبقية الحيوانات... القفص هادئ لا يعبأ بشيء... وتصل ماريا لاهثة إلى كوخها... وتمر من جوار الأقفاص والحظيرة... وهي أيضاً لم تسب ولم تلعن... لقد أحست أن دمعة حارة انحدرت من عينها الزرقاء... وأحست أن شهقة مرة نشبت في حلقها... هذه الفتاة تبدو مسكينة بالفعل.

دخلت ماريا... ودخلت عربتها... ودخلت العظام الملفوفة بالجلد... شيء رهيب... أشبه بالموت... أو بشبح الكوليرا... يتقمص شخصية فتاة.

الفتاة المهزولة

خرجت ماريا... وأحضرت ثلاثة أعواد من الحطب الصلب... ووضعتها في الموقد... الموقد لا يخلو من شيء من الجمر المدفون في الرماد... بدأت ماريا بالنفخ باستخدام المنفاخ الجلدي... حتى التهبت النار في الحطب الجديد... ثم فرشت معطفين متجاورين من الصوف بجوار الموقد... وحملت الفتاة بهدوء... ووضعتها قريباً من الموقد.

الفتاة لا تتحرك... يال الهول... إنها أشبه بكومة من القش البالي... انطلقت ماريا جهة المطبخ الصغير... وأخذت إناء الحليب... ثم خرجت جهة الحظيرة... ودخلت وهي تحمل الإناء... إنها تريد أن تحلب بقرتها... شيء ما جعل البقرة تقترب من ماريا... أحست العجوز بتفاؤل كبير... وبعدها بدأت تحلب... ثم عادت مع ما تحمله من حليب وألقت نظرة خاطفة على الفتاة... ثم أحضرت شيئاً من العسل... ووضعته في إناء حديدي صغير... وسكبت الحليب على العسل... وعادت جهة الموقد لتضع الإناء بجوار النار... وبعدها ذهبت لتحضر شيئاً من الماء... في (طست) صغير... سكبت الماء من الكوز الكبير الموضوع بجوار الباب من الداخل... ثم أحضرت الماء وجلست بجوار الفتاة... وبدأت تغسل وجهها... وتلطم بهدوء على خديها... تناديها:

- "يا ابنتي... يا ابنتي».

وكانت تحادثها بلكنة إيطالية ريفية... بدت السعادة على وجه ماريا عندما لاحظت شيئاً من دبيب الحركة يتراقص على جسم الفتاة... لقد بدأ الدفء يسري في جسدها البارد... وأخيراً رفَّت عيناها... وبدأ الجفنان ينحسران عن كرتين سوداوين... ثم تبعتها رمشات متلاحقة.

- "يا الله... كم أنت جميلة يا بنتي... كلا... كلا... عليك أن لا تموتي وأنت بكل هذا الجمال".

بدأت ماريا تتحسس شعر الفتاة الأسود... وتتأمل مسامات جلدها الحنطي... وتقول:

- "أنت رائعة... وأخاذة... أقسم على ذلك... وسينحني الرجال عند قدميك... عليك ألا تموتي".

لكن الفتاة لم تكن آبهة لذلك الإطراء... لقد بدأت تنظر يمنة ويسرة بهدوء... ثم نظرت إلى أعلى... وقالت كلمات غريبة... لم تفهمها ماريا... وبعد ذلك

أغمضت عينيها... بيد أن الفتاة لم تكد تغمض عينيها إلا وأشبه بشوط الكهرباء يسري في جسدها... بسبب تلك القبلة التي شعرت بها وهي تنطبع على جبينها... فتحت الفتاة عينيها ثانية... وبدأت تنظر... كان وجه العجوز ماريا مطلياً بقتام الحزن... وكان خدها مرصعاً بكرات متتالية من الدمع... دهشت الفتاة لهذا المنظر الرهيب... وفي شيء أشبه بالسحر... هبت الفتاة واقفة... وكأنها عفريت من الرماد... وبدأت تطالع بريبة في كل شيء حولها... وأخيراً ألقت بابتسامة شكر على وجه العجوز ماريا... وسقطت بعدها على الأرض.

ذعرت ماريا لتلك السقطة... وشعرت بإشفاق كبير على الفتاة الجميلة... خاصة بعد ابتسامتها الساحرة... لذا اقتربت بهدوء منها... وبدأت تمسح على وجهها... وتناديها:

- "يا بنتي... يا بنتي".

لم يطل ذهول ماريا... لأن الفتاة فتحت عينيها ثانية... ثم أسندت يديها على الأرض... وجلست... وفي لحظة ساحرة ابتسمت الفتاة للعجوز... وابتسمت العجوز للفتاة... وكأنهما أم وابنتها... ولكن الابتسامة تلك لم تطل... لأن ماريا شعرت بطقطقة الحليب... مدت العجوز يدها... وحملت قدح الحليب الذي أصبح ساخناً الآن... وسكبت منه في كأس معدني... ثم فتحت علبة صغيرة... وحملت ملعقة بداخلها... ثم حركت الملعقة لتملأها بالسكر... ثم وضعت السكر في الكأس... وبدأت تحرك... أنهت العجوز تذويب السكر... ثم حملت الكأس ومدته جهة الفتاة وهي تقول:

- "قولي لي... ما اسمك يا بنتي".

أصيبت الفتاة بشيء من الدهشة... و بدأت تدور بعينيها وكأنها تبحث عن شيء ما... ثم أشارت إلى فمها و كأنها تريد إخبار العجوز بإشارات متتالية... أنها غير قادرة على الكلام.

قالت العجوز في ذعر:

- "ماذا... يال أسفي... هل أنت بكماء؟".

ولكن الفتاة طأطأت برأسها... ومن ثم قامت العجوز أيضاً بتنكيس رأسها... لحظات الحزن لم تطل... لأن الفتاة شربت الحليب بسرعة... ثم مدت الكأس ثانية لماريا وهي تبتسم... أحست ماريا بقيمة كبيرة لتلك البسمة التي منحتها إياها هذه الفتاة... وشعرت بسعادة عارمة تحيط قلبها الطيب... ثم هزت رأسها في أسى بالغ على حال هذه المسكينة... وبعدها سكبت شيئاً من الحليب في الكأس... لكنها تذكرت شيئاً... حكت العجوز أنفها... ثم قامت.

لم يطل الوقت... لقد أحظرت العجوز خمس بيضات... اثنتان من بيض البط... وثلاث من بيض الدجاج... هذه المرة لم تلعن ماريا بطتها السوداء... ولكن مشاعرها تجاه الفتاة أصبحت مضطربة... ومع نظراتها المتكررة للوجه الحنطي شعرت أن هذه الفتاة شيء آخر... أشبه بمخلوق مقدس... سمات الهيبة والوقار والسكينة مرتسمة على كل ملامحه... وفي وجهه يلتمع شعار الطهر والنقاء... دخلت العجوز مع بيضاتها... ولكن الصدفة أدهشتها... عندما لم تجد الفتاة في مكانها الذي تركتها فيه... نظرت على يمينها فلم ترها... نظرت عن يسراها فلم ترها... ولكنها بدأت تسمع تمتمات خافته.

تقدمت ماريا جهة الصوت... وإذا بها ترى الفتاة هناك بجوار جدار الموقد... إنها خاشعة خشوع الرمال... مطرقة ببصرها للأرض... قد رفعت كفيها للسماء... ابتسمت العجوز قائلة:

- "أوه يا بنتي... لقد كدت أعرف ذلك... أنت كاهنة قديسة... لذا باركك المسيح... هنيئاً لك طهرك وصلاتك... حتماً ستحل البركة واليمن في هذا الكوخ الصغير... وسيكون هذا المنزل ديراً تقام فيه أجراس الصلاة... فليبارك الرب أرضاً تطؤها قدمك... يا ابنتي".

الصلوات

وضعت العجوز بيضاتها في إناء حديدي... ثم سكبت بعض الماء عليها... ثم وضعتها بجوار اللهب في الموقد... أحست عند ذلك أن قلبها يطير فرحاً... ابتسمت من أعماق قلبها... ثم حملها الخشوع الذي حل قلبها أنفاً حتى وقفت بجوار الفتاة... ورفعت يديها لأعلى... وبدأت تتمتم:

- "كما ضحيت بابنك الوحيد من أجل خطيئتنا... بارك حياتنا... وانشر السلام والمحبة على أبنائك...".

نظرت العجوز للفتاة ثم قالت باستغراب.

- "أنت تبكين يا ابنتي".

ثم مدت ماريا يدها ومسحت رأس الفتاة... وبقيت تحدق ببصرها قليلاً وهي تتأمل ذلك الوجه الوضاء... ولم تملك نفسها... لقد بدأ قلبها يخفق... أمالت رأسها جهة الفتاة... ثم قبلتها... كانت تقول:

- "يا ابنتي... يا ابنتي".

ثم وضعت رأسها في هدوء على صدر الفتاة... رفعت الفتاة يدها... وبقيت تربت على ظهر العجوز في دهشة... وهي لا تدري ماذا دها هذه المرأة... وبعد ذلك طقت إحدى البيضات التي بجوار النار... وكانت تلك الطقة كفيلة بأن تنهي الموقف الخاشع... ابتسمت العجوز... وابتسمت الفتاة... وقامت العجوز وهي تقول:

- "هيا... سنأكل البيض... تلك البطة اللعينة... ربما تدخل لتأخذ بيضتها".

اكتفت الفتاة بابتسامة صادقة... في حين قامت العجوز... وحملت صحن البيض... ثم اتجهت جهة الباب... وأفرغت الماء في الخارج... وعادت بالبيض... وفي طريقها حملت قطعتين من الخبز الموضوع في أحد الأدراج الخشبية... ذات اللون المعتق... والموضوعة بجوار المدخنة... وعادت تبتسم وتقول:

- "قولي... ما اسمك يا ابنتي".

كانت الدهشة مرتسمة على وجه الفتاة... لذا أردفت العجوز:

- "لا عليك يا فتاتي... حاولي استخدام يديك... بالإشارة... سوف أفهمك".

ولكن الفتاة اكتفت بابتسامة حزينة... ضمنتها كثيراً من الآلام والأحزان... قشرت العجوز البيضات... وقدمت قطع الخبز... ثم بدأت تأكل بيمينها... وحملت بيسراها بيضة كبيرة من بيضات البطة... وناولتها للفتاة... وأتبعتها بقطعة خبز... تناولت الفتاة البيض... ثم أدنته من فمها وقالت كلمات متواصلة... لم تكن كلماتها تلك من كلمات اللغة الإيطالية... وإنما هي بلغة أخرى... توقفت نظرات العجوز... وقالت بلغتها الإيطالية مندهشة:

- " أنت لست إيطالية إذن؟!".

طأطأت الفتاة رأسها... ثم رفعت كتفيها قليلاً... لتُفهم العجوز أن كلامها ليس مفهوماً بالنسبة للفتاة... ابتسمت العجوز ثانية... وبدأت تأكل... ساعتها كان القِدْر الذي يحوي الحليب قد وصل لدرجة الغليان... وقد فاض شيء من الحليب بداخله على الجمر... عرفت الفتاة ذلك حين سمعت الصوت... لذا قامت بخفة رهيبة... واتجهت جهة الموقد... وأحضرت الحليب... كانت العجوز مندهشة لتلك الخفة... ماذا دها هذه الفتاة المريضة... جلست الفتاة أمام العجوز... وسكبت قليلاً من الحليب في كأس فخاري يبدو قديماً... وسكبت في كأس آخر من الزجاج... الأعين وحدها تتحدث... بيد أن انسجاماً كبيراً بدأ يلف قلبي المرأتين... إنه شعور أشبه بشعور الأم وابنتها... ولكن اللغة تقف حائلاً سميكاً بين التوغل في طيات التعارف والتآلف... انتهى الأكل... وقالت الفتاة بلغتها الغريبة كلمات أخرى... قالت العجوز:

- "أنت قديسة كريمة... الله... حتماً ستكونين سعيدة في حياتك... لن أفرط فيك أبداً... حتماً ستعيشين معي هنا".

لكن الفتاة لزمت الصمت أمام كل هذا الكلام... وماذا عساها تقول... وهي لم تدر ما يقال؟!.

وجه الكاهنة الوضاء

مضى الوقت هادئاً... وبعد ساعة... كانت الفتاة تتمشى بجوار منزل العجوز... إنها الآن بحلة جديدة... لقد لبست فستان العجوز ذا اللون الأحمر... والمقلمة أطرافه من أعلى بلون أشبه بلون الحناء... إنه الثوب الذي تدخره العجوز لتلبسه في أيام أعياد ميلادها... أو أعياد ميلاد المسيح... ولكنها آثرت أن تمنحه لهذه الفتاة... لأن الفتاة حتماً ستبعث في داخله حياة وحيوية... من نوع آخر... ماريا الآن تفكر في القدسية التي تقطن في جسد الفتاة النحيل.

- "آه كم هي سعيدة بقدسيتها".

أما الفتاة... فهي لا تنظر للفستان إلا من زاوية واحدة... إنها الزاوية التي مُنحت فيها ثوباً لا تقطنه الشقوق والفتحات... وأي شيء يهم فتاة كانت تلبس ثوباً رمادي اللون آكل منه البلا كل جزء... ولا يوجد به رقعة واحدة... و إنما هي فتحات لا تجد من يرقعها.

ولكن الفتاة التي عادت لها حيويتها بسرعة تبدو كسيرة حزينة... إنها أشبه بلبؤة ضارية كسرت أنيابها... ونزعت مخالبها... إنها تدور في مكانها... ثم تنطلق هناك... ثم تعود هنا... ثم لا تلبث أن تلقي بنظراتها في جميع الاتجاهات... وتبدو كمن يبحث عن شيء ما... شعرها المنسدل على كتفها يبدو رائعاً... لولا أنها تتجاهله تماماً... وعيناها الواسعتان تبدوان ساحرتين لولا أن نظرات الريبة والشك تجعلانها تدوران وتدوران... أشبه بعيني بومة ليلية... إنها ممشوقة القوام... ساحرة فتية... ولكنها تتحرك بطريقة أخرى... طريقة لا كطريقة النساء... إنها شيء من الصرامة والكبرياء... وشيء من التواضع العنجهي!!... وربما لم يكن لأحد أن يفهمها.

دخلت الفتاة لحظيرة الحيوانات... وسحبت ذلك الجزء القصير من ساق الشجرة المقطوعة... وجلست عليه... وبدأت تتأمل... ثم وقفت بجوار البقرة... ومسحت رأسها... ومكثت قليلاً تتأمل... وأبحرت بهدوء في عيني البقرة الواسعتين.

-"... الله... الله...".

هاتان الكلمتان قالتهما الفتاة... ثم سمعت بعد ذلك نداء العجوز الذي لم تفهمه... ولكنها قامت جهة صوت النداء... كانت العجوز تحمل في يدها القبعة الصفراء وتقول:

- "خذي هذه القبعة... إنها تحمي من الشمس... وتجعلك جميلة".

ولكن الفتاة أشارت بيدها على رأسها وصدرها... وكأنها تريد شيئاً أكثر ستراً لبدنها... فهمت العجوز... ووضعت يدها على رأسها في دعابة وقالت:

- "أوه... يال تعاستي... لقد نسيت... أنك كاهنة قديسة... جميع الكاهنات يغطين رؤوسهن... علي أن أكون أكثر وعياً بذلك".

اقتربت الفتاة من العجوز... وألقت عليها ابتسامة صادقة... وأمسكت بيدها وبدأت تشير لبعض الأشياء من حولها... إنها على ما يبدو تريد معرفة أسماء هذه الأشياء باللغة الإيطالية... كانت العجوز مندهشة لذلك... وماذا عسى أن تكون قدرة هذه الفتاة على حفظ الكلمات التي لها بداية و ليس لها نهاية... ولكن الفتاة كانت مصرة على ذلك... أشياء كثيرة سألت عنها... والعجوز تجيب وتذكر أسماءها... لقد كانت الفتاة تشير لأشياء في حظيرة البقر... ثم لأشياء في حظيرة الدواجن... ثم للمنزل والمدخنة... إلى غير ذلك من الأشياء... لم يبق شيء مما تشاهده الفتاة إلا وأشارت إليه... والعجوز تقول اسمه في استغراب... والفتاة تكرر ذلك الاسم مرة ومرتين... ولكن العجوز في أثناء ذلك كانت ترى أن جهدها هذا يضيع على غير فائدة... وماذا يعني سؤال الفتاة عن أسماء كل تلك الأشياء... هل يعني أنها ستحفظها... هذا مستحيل... ولكن العجوز على كل حال كانت سعيدة بذلك... انتهت الجولة الطويلة... ورفعت الفتاة يدها شاكرة... وعادت المرأتان إلى المنزل.

اللغة الإيطالية

عندما صبغت الشمس وجه الأفق الغربي بلونه الحزين... وأذنت بنهاية نهار ممتد على طول العالم وعرضه... كانت الفتاة ذات الفستان الإيطالي المشدود مع الخاصرة... والقبعة الصفراء المائلة على طرف الرأس... تتأمل انعكاسات الأشعة الذهبية على أجزاء الجليد المتجمد في أعالي جبال... ثم تسحب يدها بحنان على رؤوس العشب المجاور لها... وعندما تقع يدها على حصاة صغيرة تتوقف عن المسح... وتحمل الحصاة ثم تلقي بها على صفحة ماء الجدول... الذي يجري حثيثاً بجوارها... ولا يطول حالها على هذا الوضع... حتى تسارع في إدارة عنقها الطويل جهة كوخ العجوز ماريا... التي لا زالت تطلق لعناتها على البطة السوداء... بين كل فينة وأخرى... شيء كبير يدور في خلجاتها... إنها لا تفكر في محيطها الجديد فحسب... بل تفكر بعين أخرى... قطع أحلامها تلك صوت العجوز وهي تنادي:

- "هيا أيتها الضيفة العزيزة... هيا تعالي".

حينها كانت الشمس قد غربت... ومع الغروب انصرفت الفتاة جهة الجدول... وغسلت وجهها وذراعيها وقدميها... ثم وقفت في خشوع... مرّ وقت قصير... بدأت تقوم تقعد... لم يَخْفَ على العجوز أن هذه الراهبة تصلي... ولكن أي صلاة هذه... إنها ليست في الكنيسة... ثم ما سر كل هذا الانحناء... لم تتمالك ماريا نفسها... لقد انطلقت إلى جوار الفتاة الراهبة... قامت بجوارها في سكينة... ورفعت بصرها للسماء.

العجوز واقفة... أما الفتاة فهي تنحني... وتبالغ في الانحناء... لم تشأ العجوز أن تمارس هذا الانحناء... ولكنها اكتفت بالوقوف في محراب القدسية الذي صنعته الراهبة هنا... على الجبال الشاهقة... وفوق الأعشاب... شيء من الطمأنينة يجعل العجوز تعاود النظر جهة الفتاة... لتتأمل سمتها الرهيب... وحركتها الخاشعة.

وبعد انتهاء الفتاة الراهبة من صلاتها... قامت ووضعت يدها في يد العجوز... ثم سارا سوياً جهة المنزل... الصمت والابتسامة هي العلامة المطبوعة على وجه الفتاة... وما إن دخلت المرأتان داخل الكوخ... حتى أسرعت العجوز لإيقاد الشمعدان ذي السبع شمعات... لم تفهم الفتاة معنى أن توقد الشمعات السبع... لكنها أخيراً أقنعت نفسها بأن ذلك شيء من الاحتفال بها... وبعد فترة وجيزة... كانت المرأتان متقابلتان على وجبة العشاء... لقد قعدت كل منهما على كرسيها الخشبي... وتناولت أمامها طبق البطاطا... الفتاة لا زالت تبحث بلهفة عن أسماء الأشياء بالإيطالية... والعجوز لم تبخل في تحرير كل ما تطلبه الفتاة... مصحوباً بابتسامة حب عريضة... شيء من الوقت مر... وبعدها أطفئ الضوء... وعم الهدوء كل شيء.

بصمات رائعة

الصباح يعود من جديد... ويعيد للعصافير بهجتها وطربها الممتد على طول أشجار الصنوبر والبلوط المتناثرة هنا وهناك... وصوت البط يرتفع احتفالاً بما ستقدمه له العجوز من غذاء في الصباح... والزائرة الجديدة في منزل العجوز تشعر بالنشاط... وتشعر أن للعجوز أفضالاً كثيرة... وعليها أن تقوم بمكافئة تلك الأفضال.

من أجل ذلك قدمت الفتاة الغذاء للبط... ولكن دون لعنات أو شتائم... وأخذت البيض أيضاً... لقد حاولت الفتاة أن تطبع على كل شيء في الحظيرة طابعاً جديداً... إنها ترتب وتنظف... وأخيراً دخلت مع الباب الخشبي... ونظرت للعجوز الجالسة في حظيرة البقر... لقد بدت الفتاة مهتمة بهذه البقرة... وأيضاً مهتمة بطريقة العجوز عندما رأتها تحلب... بدأت الفتاة تشير إلى بعض الأشياء أمامها... لقد فهمت العجوز أن الفتاة تسأل عن أسماء تلك الأشياء بالإيطالية... العجوز لم تجد غضاضة في ذكر الأسماء والجمل... استمرت الفتاة في طرح الأسئلة... بعض الأشياء التي سألت عنها الفتاة في هذا اليوم كانت قد سألت عنها بالأمس... ولكن العجوز وجدت من ذلك فرصة لها كي تثرثر... وتشجع رغبة

لسانها في الحركة.... فالحديث إلى إنسانة لا تفهم لغتها أفضل من الحديث للبطة السوداء اللعينة... خاصة وأن الحديث مع تلك البطة مقتصر على كيل الشتائم.

لم يمر الوقت بطيئاً... لأنه كان سعيداً بالنسبة للمرأتين... بعدها كان الفطور جاهزاً... وبعد تناول الفطور سارعت الفتاة لتنظيف المنزل الصغير... وهي في أثناء ذلك تستمع باهتمام إلى المرأة العجوز وهي تتحدث عن أشياء كثيرة... تتحدث عنها بكل عفوية... لا لشيء إلا لتثرثر.

الفتاة دينا

ذلك مع بزوغ فجر اليوم التالي كانت العجوز واقفة أمام باب منزلها... وكانت سلتها ذات العجلات واقفة بجوارها... لقد كانت ترقب بسعادة تلك الفتاة الراهبة... وهي تؤدي قدّاسها الغريب... هناك بجوار الجدول الجاري بخفة... العجوز ذاهبة للسوق... حتماً ستبيع البيض والجبن... والزبد وبعض البقول والخضروات... وربما فكرت أن تشتري لضيفتها شيئاً ما... حتماً ستجعله مفاجأة لها... بقيت الفتاة في مكانها بعد أن أنهت صلاتها... كانت ترقب خطوات العجوز وهي تنحدر جهة القرية... وبعد أن اختفت العجوز هناك... في الظلام البعيد... المتعارك مع وميض نور الفجر... رفعت الفتاة يدها للسماء... وقالت:

- يا الله... يا رب".

ثم قامت من ساعتها واتجهت جهة الحظائر والدواجن... كانت تحس أن عليها أن تقوم بجميع المهام بدلاً من العجوز الطيبة.

ومع المساء كانت العجوز تقبل من بعيد... ويبدو على هيئتها أنها تغذ السير... ولكنها في الواقع قد جاءت متأخرة هذا اليوم... ليس من عادتها أن تأتي في مثل هذا الوقت المتأخر كلما ذهبت للسوق... لقد كانت الفتاة في انتظارها... الغريب أن العجوز ألقت نظرة غريبة على الفتاة... ولم تلق التحية... ثم سارعت بالدخول للمنزل... لقد كان التوتر والقلق بادياً على وجهها... وبعد أن دخلت أغلقت الباب من خلفها.

في تلك الأثناء كانت الهواجس الغريبة تتواثب إلى ذهن الفتاة... لماذا حصل هذا التغير الغريب في طباع العجوز... أين ابتسامتها وروحها المرحة...؟! لم تفعل الفتاة أي شيء حيال موقف العجوز ذاك... وإنما اكتفت بالبقاء في مكانها... وماذا عساها تفعل... لم يطل الوقت حتى فتحت العجوز إحدى النوافذ التي تطل على الحظيرة... وتطل أيضاً على المكان الذي تجلس فيه الفتاة... بقيت العجوز تتأمل قليلاً... ثم أمسكت برأسها وصرخت بقوة... كانت تقول في صرختها:

- "يا ويلي... يا ويلي... ما هذه النهاية السعيدة لحياتي... إنني أكاد لا أصدق... أكاد أموت من الفرحة... دينا... حبيبتي... دينا... اغفري لي كل ذلك".

أغلقت العجوز تلك النافذة التي أطلت معها... ثم لم تلبث أن فتحت الباب... وخرجت مندفعة جهة الفتاة وهي تنادي:

- "دينا... حبيبتي دينا... لتغفري لي كل ذلك".

لم تشأ الفتاة أن توهم نفسها بأن العجوز تقصدها... حتماً هي تقصد مخلوقاً آخر... ولكن لا أحد هنا... ربما كانت البقرة... أو البطة السوداء الملعونة... تدعى دينا... أو ربما كانت هذه العجوز ترفس تحت أغلال السحر... أو الجنون... لم تكمل الفتاة أوهامها تلك... لأن العجوز أصبحت قريبة منها.

مرت ثوان قليلة... وألقت العجوز بنفسها في أحضان الفتاة... وبدأت تبكي وتمسح وجهها في صدر الفتاة... التي بدأ الرعب يتسور قلبها من كل صوب... بعد ذلك... نظرت العجوز لوجه الفتاة نظرة عميقة... ثم قالت:

- "حبيبتي دينا... لقد أصبحت راهبة مباركة... لم يكن لك بُدٌّ من ذلك... بالتأكيد... لقد عشت في كنيسة الكاهن راميسوا... نعم عشت هناك... وأصبحت كأفضل فتاة تفتخر بها أمها... آه يا بنتي... كم أنت قديسة".

ألقت العجوز بوجهها ثانية على صدر الفتاة... واستمرت في نحيب طويل... وبين ثنايا الدهشة... أدركت الفتاة أن في الأمر سراً غامضاً... لذا وجب عليها أن

تعـالج الموقف... ولم يكن منهـا إلا أن تكلَّمت ولأول مـرة... بالإيطاليـة الثـقـيلة المكسرة... التي للتو تعلمت بعض كلماتها.

- "لا عليك يا أمي... تعالي وادخلي للداخل".

سارت العجوز تساندها الفتاة... حتى دخلت للداخل... وعندما جلست العجوز على المقعد الخشبي ذي القوائم الأربع قالت بلهفة:

- "لم أكن أتوقع أنني سأراك قبل الموت... ولكن... ها نحن نلتقي ثانية".

اكتفت الفتاة بأن هزت رأسها موافقة... لم يطل جلوس العجوز على المقعد... وسرعان ما وقفت واتجهت للخزانة... وبعد أن فتحتها أخرجت كتاباً قديماً... فتحته بهدوء وهي تخرج نظارتها عودية البرواز... ثم سحبت من بين أوراق الكتاب صورة قديمة... نظرت للصورة وهي تستدير جهة الفتاة... ثم تقدمت حتى جلست على الكرسي... قالت العجوز في ثقة:

- "هذه صورتك يا ابنتي... كنت حينها في السنة الثالثة من العمر... لقد رَسَمَتْكِ الآنسة بترين... وبعثت إلي بالصورة في عيد ميلادك الثالث... كان ذلك قبل الحرب... آه... لعن الله الحرب... وقبل أن تُقصف الكنيسة... لقد قتل الكثير من الناس... ويال خيبتي... كنت أظنك مع الشهداء... انظري... هذه هي الرسالة التي أرسلتها الآنسة بترين مع الصورة... اقرئيها جيداً... إنها تقول:

- "«فتاتك دينا رائعة الجمال... وهي تحب اللاهوت... وستكون راهبة إذا كبرت... إنها تشارك في كل قداس بقلب خاشع... ولكنها للأسف لا تستطيع أن تتكلم... لسانها الثقيل يشير إلى أنها ستعاني كثيراً... وربما لن تتعلم النطق»".

نعم يا ابنتي... لقد كبرت... ولا زال لسانك ثقيلاً... الحرب هي أم المصائب... لا أدري لماذا صنعوا القنابل... تلك الأسلحة الهدامة... يا ابنتي... لك أن تباركي الرب... وتسألي بركته... فقد حلت علينا البركات... عندما عدت إلينا... آه لو كان والدك موجوداً الآن... لما وسعته سعادة الدنيا... لقد مات وأنت جنين في أحشائي... لم أكن أعلم حينها أن الحرب ستكون طريقنا للفراق... آه يا

فتاتي... ولم أكن أعلم أن سفري إلى براغ سيكون ثمنه الحرمان الطويل... لك ولي... عملت هناك كئيبة كي أجمع المال... وكي أرسل لك قوتك وملابسك... لقد تركتك في الكنيسة قبل أن أسافر ... وعندما تركتك أحسست أني تركت قلبي وروحي بين جدران الكنيسة... لا طفلة رضيعة لا يجاوز عمرها الأشهر الأربعة... أنا في براغ أعمل وأكدح... وعمال التنقيب يأتون إلي بكل قذارتهم... وأنا أقدم لهم الطعام... كانوا دائماً يرفعون أصواتهم علي... ويقولون:

- "أنت لا تجيدين الطبخ... أنت لا تصلحين إلا لتنظيف الأطباق... وكنت آكل ما يتبقى في صحونهم... لأني أريد توفير المال... لا أريد أن أصرف النقود القليلة تلك... على نفسي... وإنما أريد أن أرسلها لك... لم أكن أعلم حينها أن القنابل التي ستسقط على الكنسية ستفجعني فيك... وتلك البطة السوداء اللعينة... البطة السوداء اللعينة... لم أكن أعلم أنها هي من سينقل الخبر المفجع لي... الخبر الذي تنهد له الجبال... نعم يا ابنتي... لقد جاءني الخبر... وقد كنت حينها ذاهبة لأذبح البطة السوداء... ودخلت للحظيرة... وأمسكت بالبطة... ولكن ساعي البريد أحضر لي رسالة بنية في ظرف أزرق... لم يقل لي من أين جاءت الرسالة... فكرت وقلت:

«سأقطع رأس البطة السوداء أولاً... وسأتركها في الحوض حتى تموت... ثم أقرأ الرسالة».

تلك البطة اللعينة ماتت وأنا أقرأ الرسالة التي جاء فيها أن ابنتك في عداد المفقودين... بسبب القنبلة التي سقطت على الكنيسة... ومنذ ذلك الحين وأنا ألعن كل بطة سوداء... لقد بقيت أعمل طباخة لعمال المنجم... عاماً كاملاً... وبعد أن تأكد لي موتك... ضقت بالدنيا ذرعاً... لكني كنت حريصة على البقاء في ذلك العمل المرهق... كل ذلك بسبب الصبي الذي كان شديد الشبه بك... وكان أيضاً لا يتكلم... هذه صدفة غريبة... إنه أبكم لا يتكلم... لقد أحببته من كل قلبي... وكنت دائماً أنظر لصورتك المرسومة هنا في الورقة... ولصورته المطبوعة في وجهه

الحزين... آه يا ابنتي... كم أنا متشبعة بالسعادة... أكاد لا أحتمل نفسي... وقلبي يكاد يعزف سيمفونية بكاء سعيدة".

أمالت العجوز رأسها حتى وضعته على صدر الفتاة... وبدأت في النحيب... لقد فهمت الفتاة كثيراً من المعاني التي صاغتها العجوز بالإيطالية البطيئة الهادئة... وانقطع المشهد الأشبه بفصل درامي من مسرحيات شكسبير... بدخول تلك البطة السوداء... من الباب... وبإخراجها لصوتها المعهود... ولكن ذلك الصوت الحزين المكفهر جعل الفتاة تشهق باكية هي الأخرى... بيد أن العجوز انتزعت نفسها من مشاعرها... ثم نزعت حذاءها الجلدي... ورمته جهة البطة... ثم قامت وهي تسب وتلعن... وتتوعد البطة المنحوسة بالويل والثبور.

عادت العجوز ثانية لتتأمل وجه فتاتها... ثم قامت في خفة واتجهت نحو الخزانة الخشبية... ولم تلبث أن فتحتها وبدأت تقلب في أوراق قديمة... وأخيراً أخرجت شهادة الميلاد... تأملتها قليلاً ثم قالت:

– "هذه شهادة ميلادك حبيبتي... وهذا هو اسمك مدون في الأعلى... دينا... أنا أعرف أنك خرجت من تحت أنقاض الكنسية... في ذلك اليوم المشؤوم... وقد اجتهدت في تغيير اسمك... وأيضاً تغيير بعض ملامحك... وأعرف أيضاً أنك التحقت بكنسية الكاهن توريان... وبعد أن بدا فجوره... وتحرش بك أنت... وبالخادمة الموكلة بتلميع الأجراس... هربت... وعشت بعدها هائمة على وجهك... آه... يال حسرتي عليك... لقد تركت المبادئ الكهنوتية حينها... لأنك صدمت في ذلك الراهب الخائن... لقد علمت أيضاً أنك تفكرين باعتناق دين آخر... ولكنك حتماً يا فتاتي السعيدة... سوف تسألينني الآن... وسوف تقولين:

– "(كيف عرفت كل ذلك عني)".

نعم يا بنتي... من حقك أن تسألي... ولكن... إنه قلب الأم الذي لا يخطئ أبداً... كان شيء من ذلك يحيك في صدري... منذ رأيتك... ولكني اليوم قمت

بأهم مهمة في حياتي... فبعد أن بعت كل الحاجيات التي حملتها للسوق... فكرت بجد في الهاجس الذي تسور فؤادي... منذ رأيتك لأول مرة... بعد فراقنا الطويل... عندما خرجتِ علي من خلف أستار الظلام... بجوار المحرقة... وكنت أحسبك شبحاً... ولكن وجهك الوضاء سكب في فؤادي نبعاً من الهدوء... كانت أعضائي تتحرك... وكأن شيئاً خفيفاً يحركها... وعندما ذهبت اليوم للمستشفى... الذي رصدت فيه أسماء الفتيات اللواتي قتلن ساعة القصف... تأكد لي أنك لم تكوني إحداهن... وبدأ اليقين يجد طريقه لقلبي... والأمل يلوح كحقيقة ناصعة... وأحسست أن مشاعري نحوك لم تكن خائبة.

ذهبت إلى كنيسة الراهب توريان... بالطبع لم يعد هناك توريان... لقد هرب من الخزي والعار الذي سجله في ديوان كنيسته للأبد... ولكني وجدت الخادمة الموكلة بتلميع الأجراس... وقد حكت لي قصتها مع الراهب... وقصتك أنت... بالطبع لم تخبرني الخادمة بأنك قد غيرتي اسمك... ولكني عرفت ذلك... أنت ابنتي يا حبيبتي... هكذا تقابلنا في آخر العمر... ما أسعدني بك... نعم... إنك ابنتي... ها هي عيناك... إنها ذاتها عينيك في الصورة... وكل شيء لم يتغير".

ألقت العجوز برأسها في حجر الفتاة... في حين نظرت الفتاة للرأس الذي بدا وكأنه يرضع حناناً حرم منه طويلاً... لم تلق الفتاة كثير بال لما سمعت... هل كانت العجوز تهذي... أم أنها تقول الحقيقة... مدت الفتاة يدها.... وبدأت تمسح رأس العجوز في حنان... كانت تبتسم... وكانت العجوز تلقي بنظرات ذات معنى... وتهز رأسها.

هل أصبحت الفتاة كل شيء بالنسبة للعجوز... وهل كان لزاماً عليها أن تعيش كجزء لا يتجزأ من هذا المنزل... ربما.

مزرعة الزهور

مرت الأيام والليالي... على الطريقة الرتيبة ذاتها... التي لم تنفك عنها طبيعة الحياة منذ خلقت... لقد أصبحت الفتاة الخرساء قادرة الآن على رصف طريق

ممتد من الكلمات الإيطالية المعبرة... والعجوز تزداد تشبثاً بفتاتها... وتزداد تلذذاً بقضاء آخر العمر بجوار ابنتها... التي لا توجد أدلة كافية تجزم بأنها ابنتها بالفعل... ولكن القواسم الكثيرة بين الصورة وبين ملامح الفتاة... وقصة الفتاة الغامضة ترسم شيئاً من المصداقية لكل تلك الدعاوى... الفتاة إلى الآن لم تعبِّر بجزم أو بنفي... حول صدق أو كذب الدعاوى... ولكنها كانت بالفعل تمثل دور البنت البارة... وكأنها بذلك تروي عطشاً داخل نفسها... لشيء من حنان الأمومة.

مشكلات كثيرة تدور في ذهن الفتاة... ولكن طموحها يكبر مع مرور الوقت... ويبدو أنها لن تتوقف عند حدود حظيرة البقر... أو البطات... شيء آخر ربما كان يعتمل في ذهنها... لقد ازدادت الأيام التي تذهب الفتاة فيها للقرية... إنها تتعرف على الكثير والكثير هناك... الكنائس والمدارس والمستشفيات والمشاتل الزراعية... والمكتبات... وكل ما يخطر بالبال.

مرت أربعة أشهر... وبعدها أصبحت الفتاة التي خرجت من بين نفايات القمامة في يوم سابق شيئاً آخر... إنها الآن فتاة إيطالية... وتبدو على قسماتها ملامح الجدية والنشاط... وهي ترتدي معطفاً أسود من الصوف... وبين الفينة والأخرى تعيد اتزان قبعتها الصفراء... لم يكن ليخفى على من يشاهد الفتاة أنها فتاة صارمة قوية... ذات شخصية جذابة... إنها تستطيع إقناع كل من يقابلها بأنها فتاة جديرة بالاحترام.

وذات مساء... عرضت الفتاة على والدتها فكرة جديدة... لقد عزمت على عمل مزرعة صغيرة لزراعة الزهور.

- "الزهور ذات قيمة كبيرة لدى الإيطاليين... وهنا نستطيع تطوير أنواع شتى من الزهور الجبلية... ومن ثم عرضها في السوق... وقد نستطيع إقناع مصانع العطور بشراء بضاعتنا... وموقعنا مناسب تماماً... الجو نقي... والأرض خصبة".

لقد أعجبت العجوز بفكرة ابنتها... ووضعت يدها في يد الفتاة قائلة:

- "أنت تفكرين بطريقة جيدة... لا مانع أبداً من ذلك... حتماً ستنجحين... هنا كل الإمكانيات المساعدة لنجاح فكرتك... الماء والجو النقي... حتماً ستنجحين... أنت تشبهين أباك... لقد كان محباً للزهور وللجمال... ولعمل الأشياء المفيدة".

و في صباح اليوم التالي... بدأت الفتاة في إعداد مزرعة صغيرة بمساحة مئة متر مربع... واستمر الأعداد أسبوعاً كاملاً... بما في ذلك تصميم طريقة لإيصال الماء إلى الحقل الصغير... لقد استعانت الفتاة بالبقرة في الحرث... وأيضاً في تسميد المزرعة... وبعد انتهائها من كل ذلك العمل... أخبرت الفتاة أمها أنها ستذهب غداً لشراء البذور... وهي الخطوة الأهم...؛ لذا فإنها تحتاج إلى معرفة رأي العجوز في أفضل أنواع الزهور... وأكثرها ملاءمة لهذا الطقس... لم تبخل العجوز في منح الفتاة كثيراً من المعارف التي جمعتها طيلة عمرها... ولكن الفتاة أحست أن تلك المعلومات أقل من القليل الذي تحتاجه... لذلك سوف تقضي النهار القادم بطوله في البحث والتحري... والسؤال... وستحاول استقصاء الإجابات الصحيحة عن تلك الأسئلة... بالطبع من أناس هم أكثر تخصصاً في هذا المجال.

جامعة روما العريقة

مع بزوغ فجر يوم جديد كانت الفتاة تتجه ككتلة من النشاط جهة البلدة... شيء ما جعلها تفكر في الجامعة... إنها لا تدري ما هي أقرب جامعة يمكنها الذهاب إليها... ولكن... في الجامعة حتماً ستجد بغيتها... لقد أعطتها العجوز مبلغاً لا بأس به... سوف تفكر في السفر إلى أقرب جامعة... وربما استطاعت هناك أن تسأل... قضت الفتاة ما يقارب الثلاث ساعات في البلدة الصغيرة.

وبعد ذلك ركبت القطار المتجه جهة المدينة... وطيلة ساعتين أمضتهما في القطار... كانت تتأمل مع النافذة تلك الصور الجميلة في الخارج... لقد مر الوقت سريعاً كالطيف... ولم تنتبه الفتاة إلا وصوت القطار يبدأ في الانخفاض التدريجي... وعندما وقفت عجلات القطار... وقفت الفتاة مع الطابور المستعد

للنزول ... لحظات سريعة مرت... وها هي تلك الفتاة... تضع رجلها على تلك الأرض المرصوفة بالطوب الأحمر... وتلقي ببصرها للعالم الجديد... كم هي مذهلة تلك العراقة الممتدة في تاريخ هذه البقعة... تقدمت الفتاة قليلاً وكأنها تعد خطواتها... وأرخت سمعها للضجيج الذي يحدثه الذاهبون والقادمون... ثم تابعت سيرها للأمام.

كانت طَرَقَاتُ قدمها على الأرض تتبعها طرقات أخرى في صدرها التواق لمعرفة الجديد... ما أروعه من عالم متلاطم... لو أن هناك قانوناً أكثر عدلاً... ألقت الفتاة ببصرها لتلك الأشجار المحملة بالأزهار الملونة... بدت الأزهار وكأنها تتحدث بلغة جميلة مع الكون.

استمرت الفتاة في السير والدهشة تكاد تتآكل قبل أن تحيط عقلها... تلك العربات المنمنمة بزينة بديعة... والأسواق التجارية الضخمة بلوحاتها الجذابة... والمصنوعات الجلدية والنحاسية البديعة... المعروضة في عربات يدفعها الباعة المتجولون... وذاك التمثال البرونزي الجاثم في الباحة الكبيرة... والناس... يحمل كل منهم نفسه لينصرف إلى عمله... وقفت الفتاة قليلاً بجوار التمثال... صورة تبعث للتأمل... تقدمت نحو النافورة الكبيرة المتربعة في الجانب الشرقي للتمثال... كم كانت حبات الماء الطيارة تبدو أقرب شبهاً بدراري ثمينة... كل شيء بدا مدهشاً للفتاة... ولكنها استمرت في السير... لا تدري الفتاة كم من الأمتار قطعتها... ولكنها أحست بالإعياء.

لفت نظر الفتاة ذلك المطعم ذو الواجهة الخشبية... واللوحة الزرقاء المضاءة بفوانيس صغيرة... لم يطل التفكير... لقد دلفت مع الباب... كانت رائحة المكرونة المغطاة بقطع اللحم تنقل الداخل للمطعم إلى عالم مذهل... جلست الفتاة على أحد المقاعد الخشبية المعتقة... وبمجرد حضور النادل ابتسمت الفتاة وطلبت طبقاً من (السبغيتي)... وفي تلك الأثناء أمالت وجهها جهة أحد الزبائن... وألقت التحية عليه... ثم استأذنته بأن تسأله بعض الأسئلة... ابتسم لها موافقاً... لذا قامت من

التو وجلست قبالته... وبدأت تسأله أسئلة متعددة عن المدينة العريقة... وعن جامعة روما وطبيعة الدراسة فيها... وعن طبائع الناس هنا... وهمومهم ... وكيف يفكرون ... كانت جلستها معه ثرية لأقصى الحدود... لقد عرفت الكثير مما أرادت معرفته... وعندما حضر الطبق الذي طلبته قامت شاكرة.

وبعد أن أكملت الفتاة وجبتها واصلت السير نحو الجامعة... كل شيء كان يلفت انتباهها... ويحفر في أعماقها إعجاباً وذهولاً من نوع خاص... استمرت في السير محاولة اكتشاف كل شيء... بيد أن الطريق طال بها... وبدأت تشعر بالإعياء... لذا لم يكن لها من بد في أن تستأجر إحدى العربات التي تذهب وتجيء... مدت يدها وسمعت لتوها:

- "صباح الخير... أين تريدين؟".
- "الجامعة".
- "تفضلي سيدتي".

مضى الوقت سريعاً على ظهر العربة... وأخيراً ها هي تلك... جامعة روما العريقة... إنها كما يليق بها... مهد للعلوم منذ أربع مئة سنة... نزلت الفتاة بكل إجلال إلى ساحة الجامعة... ثم دخلت مع البوابة الكبيرة المليئة بالنقوشات الدقيقة... وفي ذهول مخلوط بإعجاب شديد... كانت الفتاة تتنقل في أرجاء الجامعة الرحبة... مر الوقت سريعاً... وهاهي أخيراً تصل لقسم الحيوان.

حاولت الفتاة أن تتعرف على المارين الذين يحملون دفاترهم ويسرعون في المشي... ولكن أحداً منهم لم يمنحها فرصة للتعرف عليه... كل منهم في عجلة من أمره... إلا أن الفتاة لم تفقد الأمل... لقد بقيت تنتظر عند مدخل القسم... ومن بعيد رأت رجلاً في الخامسة والأربعين... ورأت مجموعة من الطلاب يجتمعون حوله... لم تشك الفتاة في أن هذا الشخص هو أحد أساتذة الجامعة... تقدمت الفتاة ناحيته... كانت خطواتها بطيئة متزنة... وعندما وقفت أمامه دققت فيه

نظراتها... كان الأستاذ يدير وجهه وبصره جهة طلابه المجتمعين... ولكن شيئاً ما جعله يتوقف قليلاً عندما وقع بصره على عيني الفتاة المنتصبة أمامه في شموخ... لقد وقف عن الحديث ثم دقق النظر ثانية فيها... وبادرها بالسؤال:

- "هل أنت إحدى طالباتي".

- "كلا... أنا لست إيطالية".

قالتها بلهجة إيطالية ركيكة بعض الشيء... ابتسم الأستاذ وهو مأسور بلونها البرنزي... وبحبتي عينيها السوداوين... ثم هز رأسه وقال في دعابة:

- "أنت تستحقين أن تكوني إيطالية".

لم تلق الفتاة بابتسامة مقابلة... لقد فاجأته بسؤال مجرد:

- "هل نستطيع تلقيح الريحان بشيء من زهر الزنبق؟".

- "أوه الريحان... نبات آسيوي عطري... إنه مذهل ولكنه لا ينبت هنا... بالشكل الجيد... لا... لا أدري... ربما كانت فكرة بديعية".

أكملت الفتاة:

- "هل نستطيع زراعة جيل جديد من الفل... بحيث تصبح أوراقه ذات ألوان متعددة؟".

هز الأستاذ كتفيه ولف شفته السفلى باستغراب... ثم بادرها بالسؤال:

- "هل أنت متخصصة في علم النبات؟".

- "أنا مستثمرة... أريد الوصول لتركيبة... أنا سأعمل جاهدة لصناعة أجود أنواع العطورات... ولكني بحاجة إلى خبير".

نظر الأستاذ للتلاميذ من حوله وأبدى إعجابه بالفتاة... ثم ابتسم لهم منصرفاً... وتقدم جهة الفتاه حتى صارا منفردين... ثم مد يده ليضعها في يدها...

من أجل إكمال حديثها... ولكن سرعان ما سحبت الفتاة يدها بلطف... وهزت رأسها قائلة:

- "هل لديك جديد في الموضوع؟".

ارتاب الأستاذ قليلاً... وبدأ يسأل نفسه عن أسباب سحبها ليدها... ولكنه تجاهل الموضوع قائلاً:

-"أنا متفائل... يبدو أنك جادة فيما تقولين... هل أستطيع مساعدتك؟".

- "أريد مقعداً في الجامعة... أريد أن أدرس علم النبات".

- "لم أفهم... هل أنت مستثمرة... أم تريدين الدراسة... على كل حال... سنكون سعداء... حتماً ستكون لديك أفكار جديدة... ولكن ما هي مؤهلاتك؟".

نظرت إليه دون مبالاة وقالت:

- "ليس لدي مؤهلات معينة... سأبدأ من الصفر".

- "من الصفر؟... إذن يجب أن تتعلمي اللغة الإيطالية بدرجة مناسبة... هذه مشكلة... هذا يستلزم وقتاً".

- "لا عليك... سأتعلمها بسرعة".

- "ربما... ولكنك محتاجة للدراسة في معهد اللغات... ربما لن تكون التكاليف باهظة... فقط عليك أن تذهبي لقاعة التسجيل في الجامعة... وستحصلين على كل ما تريدين... بالطبع إن كانت قادرة على دفع المال".

- "وأين هي القاعة؟".

-"أوه أنت مستعجلة... إنها هناك... ولكن هل أنت متزوجة... أنا الدكتور (جيليوفرليك)... أنت جميلة... صدقيني... أنت فاتنة".

ألقت الفتاه إلى الأستاذ نظرة نارية ثاقبة... ثم تقدمت نحوه خطوة... وقالت في صرامة:

- "كن رجلاً".

تراجع للوراء قليلاً وقال.

- "لم أقصد... هل أنت يونانية".

- "هل أنت يهودي ؟".

اضطرب الأستاذ قليلاً... وحك أنفه... وأدار عينه... ثم أكملت الفتاة:

- "عليك أن تتعلم مساعدة الناس دون مقابل".

- "أكرر أسفي... ولكني لم أقصد شيئاً... أقسم على ذلك".

انصرفت الفتاة... بعد أن أدخلت الأستاذ في دوامة من الشكوك والأوهام... وبعدها وصلت للغرفة التي أشار إليها آنفاً... وفي محادثة سريعة بين الفتاة وبين الموظف الجالس خلف مكتبه... استطاعت الفتاة جمع المعلومات الكفيلة بأن تجعلها تعزم على الدراسة هنا... الأمور كلها حسب الجهد الذي يبذله الدارس... يمكن اختصار الوقت عندما يتضاعف الجهد.. الحد الأدنى ثلاثة أشهر مبدئية لتعلم الإيطالية... ستة أشهر لدراسة البرنامج الكامل عن علم النبات إذا كان الطالب قادراً على اجتياز الاختبار الشامل لكل ما قُرر عليه... وبعدها سيقدم البحث... خرجت الفتاة بعد أن أكملت تسجيل اسمها ضمن أسماء الدارسين مع بداية الشهر القادم... ودفعت شيئاً من رسوم الدراسة.

على الفتاة الآن أن تولّيَ وجهها نحو مكان مناسب، كي تنام فيه... لم تكلف الفتاة نفسها كثير عناء... في البحث عن مسكن... لقد دخلت مع باب الفندق الصغير المجاور لحديقة سان مانيند... واستأجرت إحدى الغرف الجنوبية... لقد كان حظها سعيداً باستئجار تلك الغرفة... لأنها تطل على الحديقة المليئة بالطيور... وتطل على أحد الشلالات الصناعية... وطيلة ساعات الليل الأولى بقيت الفتاة جالسة بجوار النافذة... تقلب طرفها في الداخلين والخارجين من الحديقة... ثم أخرجت كتاباً صغيراً و بدأت تقرأ فيه.

وعندما رأت بجوار بوابة الحديقة بائعاً متجولاً يدفع عربته المزينة... ويبيع قطع اللحم المشوي مع أرغفة من دقيق الذرة المعجون بالسمن... تذكرت أنها لم تأكل شيئاً منذ الظهر... نزلت بخفة... ولم يطل الوقت حتى عادت لمكانها وهي تحمل وجبتها الشهية... وبدأت في الأكل... وبعد أن أكملت نصف الوجبة تقريباً أحست أن أحشاءها تضطرب... لقد توقفت عن الأكل فجأة... ثم عاودت النظر إلى عربة البائع المتجول مع نافذتها... ولكنها رأت صورة خنزير بجوار قطع اللحم المشوي... حكت رأسها وابتسمت... ثم قامت دون أن تكمل وجبتها.

وفي صباح اليوم التالي نزلت الفتاة للسوق... واشترت أشياء كثيرة... من بينها هدية جميلة للعجوز... الهدية عبارة عن كرسي من الخشب يتأرجح... واشترت الفتاة أزهاراً وبذوراً... واشترت بعض الكتب لتعلم الإيطالية.

ومع وقت الظهيرة... كانت الفتاة تدلف مع بوابة القطار العائد إلى أعالي الجبال... ستعود دينا لمنزل العجوز... مر الوقت سريعاً... ووصل القطار للبلدة في الوقت المحدد... قبل غروب الشمس بقليل... وحملت الفتاة ما كان معها من حاجيات... ونزلت من القطار... واستأجرت عربة حصان... وانطلقت من محطة القطار جهة القرية... وبعد وصولها للقرية امتطت قدميها صاعدة التل... وبعد غروب الشمس بقليل كانت الفتاة تتقدم جهة المنزل الصغير... وتستمع لقول العجوز... التي تسبق خطواتها متجة نحو الفتاة وتقول:

- "أهلاً بك يا ابنتي... أوه... لقد طال غيابك عني... لقد قلقت حتى كاد قلبي يتفطر... حمداً لله على سلامتك".

تعانقت الفتاة والعجوز... ثم وضعت كل منهما يدها في يد الأخرى وسارا نحو باب المنزل... وعندما دخلا مع الباب كانت الفتاة تشعر بسعادة كبيرة بسبب هذا الاستقبال الحافل من عجوز هي أشد براءة وطيبة... وفي أثناء الجلسة بجوار الموقد كانت العجوز سعيدة وهي تتأرجح على الكرسي الخشبي... وكانت الفتاة تسكب من الحليب الطازج... وتحكي بلهجتها الإيطالية الجيدة نوعاً ما... تلك

العجائب والغرائب في المدينة... وكيف أنها عازمة على إكمال دراستها... وكيف أن طموحاتها بدأت تزداد.

المظاهرة الصاخبة

الفتاة الراهبة تسير بثقة في حرم الجامعة الشرقي... ثم تجلس على المقعد الخشبي الصغير المجاور لشجرة نارجين ذات أوراق صفراء... ثم تعيد شد قلنسوتها على رأسها... وتضع قدماً على الأخرى... ثم تضع دفترها المغلف بجلد التمساح على رجلها... وتُخرج قلماً فضياً... وتبدأ في رسم خطوط طويلة وأخرى عرضية... ثم تدون تفاصيل جدول مندل في الوراثة... لقد مرت الأيام سريعة كالبرق... وهذا الشهر هو الشهر الأخير لدراستها في الجامعة... إنها الآن تجيد الإيطالية... وهي أيضاً تعمل جادة لإكمال البحث الذي تطمح أن تصل من خلاله للثراء الفاحش.

قامت الفتاة من مقعدها ذلك... وسارت في اتجاه القاعة الكبيرة التي تجري فيها المناظرات العلمية... لم يخف على الفتاة أن الطلبة والطالبات يتحدثون عنها... ولكنها كانت تبتسم للجميع... بعض الطلبة يحبها وبعضهم الآخر يزعم أنه يكرهها... و لكن الجميع يحترمها... وهم يعرفون جيداً أنها الطالبة الأكثر تميزاً لدى جميع الأساتذة... لقد كانت تدرس باهتمام كل شيء تقع يدها عليه... وكانت تتعلم كل شي تسمح لها الفرصة تعلمه... والحقيقة أن الأشهر الثمانية التي درستها في الجامعة هنا، كانت تعادل عامين دراسيين... فقد كانت تحضر محاضرات الكيمياء والفيزياء... وكانت تتعلم الرياضيات... لقد أصبحت سمعتها ممتدة بطول الجامعة وعرضها... والكثير يتحدث بأن قسم النبات سيلزمها إكمال عام كامل... كي يسمح لها بالإعادة في الجامعة... لتكون باحثة دائمة في القسم... ومن ثم أستاذة.

شيء ما يجعل الجميع حذرين منها... ويجعل الجميع يتحاشى أن يُكوِّن معها علاقة ودية أو غرامية... خاصة من زملائها الشباب... الذين يشغلهم كثيراً أن يرتبط أحدهم بفتاه ناجحة... يعبدها وتعبده!!.

الغريب في الأمر... أن هذه الراهبة تجعل حولها هالة من القداسة... تحرق كل من يقترب منها... الجميع يتحدث عن جمالها الأخاذ... ولكن لو أنها تكشف شعرها الذي يبدو فاحماً... وتُبْدي ساقيها... وتلبس زياً يختلف عن زى الراهبات... ولولا أن اسمها دينا... أوه... إنها سر غامض... لا حيلة في كشفة.

ولكن الموقف الذي لمعت فيه الفتاة أخيراً... جعل أنباءها تسري سريان النار في الهشيم... خاصة موقفها أثناء المظاهرة الطلابية... التي سارت في حرم الجامعة لتأييد الحركة المستقبلية الداعية لتمجيد الآلة... وكان جميع الطلاب يهتف باسم (بيرانديللو)... وازداد الصخب عندما صرخ أحد الطلبة:

- "على الحكومة أن تشارك في الحرب... وعليها ألاَّ تلزم طرف الحياد... كرامتنا مقدمة على كل شيء".

ثم صرخ طالب آخر.

- "الآلة تحتاج إلى وقود... وبلاد الشرق مليئة بالثروات".

وبدأت المظاهرة تضج بصوت واحد:

(لا للحياد... لا للحياد... نعم للحرب في سبيل الحصول على موارد الطاقة... الشرق لنا... الشرق لنا).

لم يكن لأحد أن يتصور أن مارداً سينفجر كالبركان... ويخرج من بين الجموع... في الحقيقة لم يكن ذلك المارد سوى الفتاه الراهبة... دينا... إنها أشبه بالإعصار القوي... لقد تقدمت عدة خطوات أمام المسيرة... ثم صرخت بصوت جهوري مجلجل:

- "ليسقط بيرانديللو... ولتسقط الآلة... ولتسقطوا جميعاً... ما دمتم تهذون كالمجانين".

كان الصوت من القوة بحيث يطرق آذان الجميع... وكانت الكلمات الرنانة التي أسقطت الفتاة فيها رمز الحركة المستقبلية... بيرانديللو... تدهش الجميع.

بدأت الأصوات التي تنبعث من بين حشود المسيرة تخبو شيئاً فشيئاً... وبدأ الجميع يطالع لمصدر الصوت... انحرفت الفتاة قليلاً جهة أحد الكراسي الخشبية المثبتة قريباً من المقهى الرئيس لقسم النبات... ثم صعدت عليه... ووقفت بهدوء... وأشارت بيمناها وهي تقول:

- "أنتم جميعاً مجانين".

بدأت الهمسات من داخل الحشود... إنها الراهبة... ولكن أحد أساتذة الجامعة تقدم نحوها... وعندما اقترب منها قال:

- "هل لديك فلسفة أخرى... أم أنك تريدين العودة إلى الوراء".

بيد أن نظرات الفتاه الثاقبة... التي ألقتها على الأستاذ... كانت كفيلة بأن ترجعه للوراء خطوتين... لحظات أخرى... وبدأ الصمت يعم الجميع... أشبه بحياة أهل القبور... وبعدها قالت الفتاة في ثقة بالغة:

- "أنتم تتكلمون عن الآلة... وعن التقانة... ولكنكم لم تتكلموا عن الإنسان قط... إن الإنسان المحطم لا يستطيع صناعة شيء... وقبل أن ندير مسماراً واحداً لصناعة الآلة علينا أولاً أن نصنع الإنسان... الإنسان الحر القادر على اتخاذ آرائه بكل استقلالية... ولكي نصنع الإنسان الحر علينا أن نصنع نظاماً اجتماعياً عادلاً... تتساوى فيه جميع طبقات الشعب... أنتم تفكرون الآن وكأنكم وحوش من فصيلة ابن آوى... إنكم تمجدون الآلة... لأنها ستمكنكم من السيطرة على شعوب أخرى... لكن تلك الشعوب تشعر في الوقت ذاته أن لها الحق في أن تعيش... كما أنكم تشعرون بأحقيتكم في الحياة... ثم أنتم تنادون بالحرب... وكأن الإنسانية ولدت لتُقتل... أو لتُنهب ثرواتها... صناعة الإنسان مقدمة على صناعة الآلة... وصناعة الإنسان تكمن في أن يعرف ما يجب أن يفعله... وما يجب أن لا يفعله... وإن كان جان جاك روسو في فلسفته العبقرية... قد دعا للتربية الطبيعية... فإني أدعو أنا شخصياً... للتربية القِيَمِيّة... لأن قيمة الفرد فيما يعتقده تجاه الآخرين...

أنا لست مثالية بالطبع كمثالية (توما الأكويني) ولكنني أعتقد بأن لكل شيء قيمة... وقيمة الإنسان في أن لا يكون ظالماً".

صمتت الفتاة قليلاً... ثم نزلت من فوق الكرسي وبدأت تصرخ:

- "لا للحرب... لا... للحرب".

وسارت للأمام في خطوات واثقة... ولم تمر بضع ثواني إلا والأصوات من خلفها:

- "لا للحرب... لا للحرب".

ومع تلك الانطلاقة القوية للفتاة... بدأ صيتها يذيع بشكل أكبر وأكبر... وبدأ أساتذة الجامعة يفكرون بجد في احتوائها.

ولكن الدكتور هايدهل مهتم بشأنها كثيراً... إنه الأستاذ المشرف على بحثها المقدم... وهي الآن في المرحلة الأخيرة من دراستها حول زهرة البوق... وإمكانية دمج رائحتها برائحة ورق الريحان... جميع الزنابق تتأثر سريعاً بالهندسة الوراثية... ولكن زهرة البوق ذات الأوراق المقلوبة هي الأنسب من وجهة نظر الفتاة الباحثة.

البحث المسروق

معمل النبات في الجامعة مكتظ بالطلاب... والبذور المعدة خصيصاً للزراعة موضوعة في الخزانة... وأوراق البحث على مكتب الدكتور... وكل مشغول بعمله... غابت دينا قليلاً... ثم عادت... وقبل أن تدخل للمعمل شاهدت وجهاً يخرج من المعمل... وقد بدت عليه علامات القلق والتوتر... نظرت دينا إليه بريبة... ثم دخلت المعمل... وأدهشتها أن رأت باب الخزانة مفتوحاً.

اتجهت لمكتب الدكتور هايدهل المجاور لنبتة كودان خضراء نضرة... في أقصى المعمل... لم يكن الدكتور موجوداً... نظرت بعينها إلى جنبات المكتب... لم تر البحث... إنه لأمر محير... بقيت الفتاة في مكانها تشعر بالقلق... إلى أن جاء الدكتور... ولما رأته تقدمت نحوه قائلة:

- "هل تدري أين البحث؟".

- "بحثك أنت ؟".

- "نعم... بحثي أنا".

- "أوه... هنا على مكتبي".

قالت في استخفاف:

- "على مكتبك!! إذن لقد سرق البحث... وسرقت البذور... يال أسفي... ويال حسرتي... لم تكن حريصاً عليها بالدرجة المطلوبة... أنت تعرف جيداً... أن موضة القرصنة على البحوث قد انتشرت هذه الأيام... خاصة على بحوث النبات... أم أنك لا تعلم؟".

... شعر الدكتور بالقلق... وقال وهو يتقدم جهة المكتب:

- "مستحيل... هذا مستحيل".

وعندما وقف أمام مكتبه... قلب الأوراق... ثم نظر في توتر نحو الفتاة... وعاود البحث وهو يبتلع ريقه... وبعدها اتجه إلى الخزنة... أصيب بدهشة مثيرة عندما رأى بابها مفتوحاً... وضع يده على رأسه وقال:

- "عزيزتي دينا... هل سرق البحث؟!".

- "بل ضاع جهدي سدى".

ثم انفجرت الفتاة بصوت غاضب:

- "مستحيل".

بعدها تركت الدكتور... وخرجت في سرعة أشبه بصرير الريح... وبعد خمس دقائق كانت ترفس بقدمها طرف ذلك الباب الموصد... لينفتح فجأة أمام ضربتها القوية... وبعد أن انفتح الباب دخلت دينا على الدكتور (جيليوفرليك) إنه بعينه

الدكتور الذي استقبلها في أول مرة حضرت فيها للجامعة... وقد عرف ذلك الحين... أن الفتاة تفكر في تلقيح الريحان بنوع من أنواع الزنابق.

في الواقع أن هذا الدكتور استمر يتابع أخبارها... أولاً بأول... حتى عرف أنها انتهت من البحث... وهو الآن في قفص الاتهام أمامها... ولكنه يبدو ضعيفاً أمام غضبها... قالت بحزم:

- "أحضر البحث... والبذور".

أصيب الدكتور (جيليوفرليك) بأزمة حادة... وبدأ يسحب يده في هدوء ليخفي الأوراق التي يطالع فيها... ثم قال بتوتر:

- "أنت... كيف سمحت لنفسك الدخول لمكتبي دون إذن".

لاحظت دينا عملية سحبه للأوراق... وعندما دققت النظر في تلك الأوراق تأكد لها أنها الأوراق المسروقة... تقدمت خطوتين للأمام ثم مدت يدها قائلة:

- "هات الأوراق".

- "ليست... ليست... أوراقك".

- "إذن هي أوراقك أنت... لم أكن أعلم أنك تجري دراسات في الريحان والبوقية... هات الأوراق... ألم أقل لك من قبل إنك ذو فكر صهيوني... لست أدري إلى أي وقت سيستمر تفكيركم ضيقاً".

تقدمت دينا أكثر... وسحبت الأوراق... والدكتور أشبه بتمثال متحجر... ثم فتحت أعلى درج من أدراج مكتبه... لم تجد فيه شيئاً... وعندما فتحت الدرج الأسفل منه وجدت البذور كما هي... أخذت البذور وقالت:

- "سوف تدفع ثمن ذلك غالياً".

- "أرجوك... استريني... سامحيني".

- "قل لي كيف سرقتها؟".

- "أرجوك سامحيني".

- "ليس قبل أن تخبرني كيف سرقتها".

-"حتماً أخبرتك الخادمة روزا... عليها اللعنة... من خادمة منافقة".

- "لم يخبرني أحد بذلك... وإنما عرفته من عينيك".

- "من عيني ؟".

- "من أول وهلة شاهدت وجهك فيها... منذ ما يقارب العامين... عرفت أنك ستقع في يدي وأنت مجرم... هل تذكر... ولو لم يكن لك فضل عليّ حين أرشدتني لمكان تعلم اللغات... لكان لي معك شأن آخر... لكني أحفظ المعروف".

- "أنا أتأسف".

- "قل لي كيف سرقتها".

- "لم أسرقها... ولكن أحضرتها الخادمة روزا".

- "كذبت".

أستاذة علم النبات

مرت الأيام سريعة... وها هي دينا الآن تتسلم... شهادتها العليا من قسم علم النبات... إنها الطالبة الأولى على مستوى زملائها بكل جدارة... والزهور التي أنتجتها من تلك البذور المهجنة تبدو اختراعاً عظيماً بالنسبة لفتاة في عمرها.

الزهور هناك... وتبدو موضوعة بعناية في المزهرية البيضاء... وسرعان ما قام الدكتور (هايدهل) وسار نحو المزهرية ورفعها للأعلى... ثم توجه نحو المنصة... لإعلان خطابه... كونه هو المشرف على بحث الطالبة دينا... وقف الدكتور هايدهيل في غبطة وسرور... وقطف إحدى زهور المزهرية... وقال:

- "هذه هي البوقية المهجنة... إنها أروع الزنابق رائحة... وأعظمها جمالاً... وهي هجين مع نبات الريحان الشرقي... لا أشك أن معنا هنا عدداً من

المستثمرين... بذور هذه النبتة معدة بطريقة علمية رصينة... وهي نتاج أبحاث دامت مدة طويلة... ونالت من الجهد الشيء الكثير... وهي من اختراع الطالبة دينا... التي تشرفت بالإشراف عليها... حتى الآن لم تصل هذه النبتة المهجنة إلى درجة تؤهلها كي تكون نبتة استثمارية".

رفع أحد الحضور يده قائلاً.

- "أنا أريد استثمار هذه النبتة".

لكن رئيس الجلسة قال:

- "أرجوك يا سيد... السوق السوداء ليست هنا بالطبع... تستطيع التفاهم مع الطالبة دينا في وقت آخر".

ثم أمال رئيس الجلسة وجهه نحو زميله وأشار إليه بعينه... وفي تلك الأثناء أعلن أحد الأساتذة أن الطالبة دينا ستعين أستاذة لعلم النبات في الجامعة.

شيء عن الأديان

دينا جالسة عند والدتها ماريا... هذه هي المرة الأولى التي تزور فيها دينا والدتها... بعد أن عُيِّنت محاضرة في الجامعة... كم تبدو سعيدة هذه الأسرة الصغيرة... وكم هي وجوه بريئة تلك الوجوه التي يحملونها... وتنبعث من قسماتها نبرات السعادة والحب.

دينا حصلت على إجازة من عملها في الجامعة... وستستمر إجازتها لمدة شهرين... لقد عزمت على قضاء هذه الإجازة عند العجوز ماريا... أوه كم سُحرت ماريا بفتاتها هذه... إنها لا تكاد تصدق أن ابنتها أصبحت عالمة ذات شهرة وصيت... ومع أن تناقضات كثيرة تَبْرُزُ أمام عيني الأم تجاه ابنتها هذه... إلا أنها سرعان ما تتجاهل كل تلك التناقضات... وتستمتع بالهناء والسعادة بجوار ابنة عظيمة... خاصة وأنها تقطع بهدوء هذه الأيام الأخيرة من حياتها.

من حق الإنسان أن يعيش سعيداً كلما تفتحت في قلبة أوراق السعادة... حتى ولو عرض له في بعض الأحيان ما يشبه الوهم... وكما أن على الإنسان أن لا يجعل الوهم يفسد عليه سعادته فإن عليه أن لا يجعل الوهم يفسد عليه آخر أيام حياته.

أما دينا فهي حريصة على البقاء مع هذه العجوز الطيبة... لتصبغ على حياتها لوناً أبيض... ينسيها سنوات الحرمان والوحدة... خاصة وهي تفكر في إكمال مشروعها الذي خططت له منذ مدة... شربت دينا قليلاً من كوب الحليب الدافئ ثم قالت:

- "أمي...".

- "نعم يا حبيبتي".

- "لقد أحضرت معي ذلك المال... الذي استدنته منك وقت الدراسة... سوف أعيده لك الآن وكلي عرفان وشكر".

انكمشت البسمة المرتسمة على وجه العجوز... أغمضت عينيها قليلاً... ثم قالت في حدة وغضب:

- "هذا مالُكِ أنت... مالي هو مالك... لماذا تريدين أن تفسدي عليَّ كل شيء... أنا أمك وأنت ابنتي عليك أن تعي ذلك جيداً... هل فهمت".

بدأت عينا العجوز حينها تذرفان الدموع... في حين أحست دينا بصعوبة الوهم الذي سرى في قلب أمها... لذا ابتسمت وقالت:

- "لا... لا... أنا أعيده لك كي ننشئ به المشروع الجديد... ربما فهمت ما أقصده خطئاً... أوه كم أنا حمقاء... ألم أقل لك... حتماً سيُدرُّ علينا المشروع ذهباً أصفر... لقد أسأت فهمي... أوه يا والدتي".

اقتربت دينا من والدتها أكثر... وضمتها لصدرها لتمنحها شيئاً مما حرمتها إياه السنين... وبعد ذلك رفعت العجوز رأسها لأعلى وقبلت وجه ابنتها... وتنهدت بعمق... قالت ساعتها دينا:

- "المشروع هو إنشاء المعمل الذي تنبت فيه زهرة البوقية المعدلة... سننشئه هنا بجوار المنزل... وسأقوم أنا بالإشراف عليه... ولكن في غيبتي ستكونين أنت يا أمي... المديرة العامة للمعمل... لذا فإنك ستأخذين المبلغ، كيف يكون لمدير ناجح أن يدير المشروع دون مال.. هـ.. هـ؟!".

ابتسمت الأم في طرب ثم قالت:

- "أنا... مديرة عامة... على الزهور... يا لك من شيطانة".

وبعدها انفجرت العجوز بضحكة مدوية... ضمنتها كل آهات قلبها الولهان... وفي صباح اليوم التالي قامت الفتاة التي لم تعد راهبة بقدر ما هي عالمة عملاقة... وغسلت وجهها وكفيها وقدميها... مع بزوغ الفجر... وقفت تصلي صلاتها المعهودة... ليست سوى لحظات... ووقفت العجوز بجوار ابنتها وبدأت تصلي هي الأخرى... وبعد انتهاء الصلاة قالت العجوز لدينا:

-"هل لازلت راهبة يا ابنتي".

استقبلت دينا بوجهها جهة ماريا... ثم قالت:

- "أمي... ما هو أفضل دين على الأرض".

- "لم أفهم سؤالك ...".

- "ما هو الدين الذي يُصلح حياة الناس... ويحثهم على الخير وعلى الصدق وعلى حب الآخرين... ويحثهم على السلام... والعدل؟".

- "إنه دين المسيح... بالطبع".

- "المسيحيون الآن يأكلون بعضهم... إنهم كالنار... ها هي الحروب تستخدم التكنولوجيا للإبادة... أوروبا ستدخل في ظلام دامس... إنهم يتجاوزون الخطوط الحمراء... ويقتلون الأبرياء".

- "عليهم اللعنة يا ابنتي... لقد تمردوا على الكنسية... فصاروا كالكلاب المسعورة".

- "الكنيسة يا أمي... نعم... ربما لم تكن الكنيسة الغربية ذات يوم لتمنح الناس طريقاً مستقيماً... أو لتمنحهم شمعاً ينير الطريق... لقد كان تعنت الكنيسة بتعنتها الصلب... هو بداية الانحراف... إنها في تلك الحقبة تجبر الإنسان على السير في الطريق الضيق... وفي فكر الكنيسة لا خيار... فأنتِ إما أن تكوني راهبة تعبدين الله... أو تكوني شيطاناً تعبدين ذاتك".

- "لم أفهم يا ابنتي... أو لست راهبة تعبدين الله... أم أنك تعبدين نفسك والمادة... لقد حيرتِني".

- "ماذا ترين يا أمي... أياً منهما أكون؟".

أطرقت الأم قليلاً... ودمعت عيناها... ثم قالت:

- "أعيدي كلمة أمي... لم أشبع منها... آه... يا ابنتي... آه... كم انتظرتها لسنوات طويلة".

- "أنت أعظم أم في الدنيا... يا أمي".

- "وأنت أعظم ابنة في الدنيا... صدقيني... في بعض الأحيان... أقول... ابنتي راهبة قديسة... وفي أحيان أخرى أقول إنك مادية بحته تكادين تقدسين العمل والحياة... أنت فريدة من نوعك يا ابنتي... ليت كل المسيحيين مثلك... أنت قمة في التدين... وقمة في الإبداع".

قالت دينا وهي تعبث بيدها:

- "هل سمعت بالعرب... من قبل".

- "نعم... إنهم يسكنون جزيرة في الشرق... وهم بدو رحل... وهم يكفرون بالله وبالمسيح... ألست مثقفة يا دينا ألم تسمعي بهذا؟".

- "وهل سمعتِ بالأديان في الشرق".

- "أديان الشرق... نعم... نعم... لقد سمعت شيئاً عنها... وهل تعرفينها أنت جيداً يا دينا؟".

ابتسمت دينا ثم قالت في هدوء:

- "نعم... أشهر الأديان في الشرق يا أمي... إني أعرف عنه الكثير".

- "نعم... بالتأكيد... حقٌ على كل راهبة أن تعرف ما تقوله الملل عن الله... أليس كذلك؟".

اقتربت دينا قليلاً من والدتها... ثم قالت في همس:

- "هنا... نحن لا نعرف الكثير عن تاريخ الشعوب... ثمة شعوب كثيرة... بنت صروحاً عالية من الحضارة... الشرق يا أمي حوى أعظم حضارات الأرض... أهل الشرق كانوا في تاريخهم أصحاب حضارة أخاذة... لقد أكسبتهم مبادئهم التي حملوها بجد وإخلاص... قدراً هائلاً من القوة... لقد بذلوا الكثير من أجل مبادئ العدل والخير... وقد خاضوا معارك كثيرة".

- "أوه يا ابنتي... كم أكره الحرب... لا أظن امرءاً يملك مبادئ سامية... سيدخل نفسه في متاهات الحروب... الحروب هي الإبادة... والمبادئ هي الحياة المسالمة".

هزت دينا رأسها في إعجاب... ثم أكملت:

- "لقد أصبت يا أمي... من يقتل الناس لا يستحق أن يقال عنه إنسان ذو مبادئ... ربما قيل عنه إنسان ذو مصالح".

- "قولي لي إذن... لماذا قاتل العرب... وحاربوا".

- "العرب في البداية لم يقاتلوا إلا من أجل تحرير أرضهم... لقد كانت أرضهم راضخة لاستعمار الفرس... والروم".

- "هل صحيح... هل كان العرب بالفعل... يقاتلون دفاعاً عن أنفسهم؟".

- "نعم... ولكن بعد أن استقامت دولتهم... بدؤوا يقاتلون من أجل تحرير الشعوب... ومن أجل إعتاقها من سطوة الأباطرة المستبدين... إن من أهم مبادئ دينهم أن يسقط كل حاكم ظالم... تحت وطأة أقدام الشعوب... فالحكم لله وحده... وتطبيقه أمانة في عنق من تختاره الشعوب".

- "أوه... هذا جميل... ولكن هل بالفعل... كان العرب كذلك؟!".

- "لقد امتدت دولتهم حتى مشارف فرنسا".

- "فرنسا... لم أسمع بذلك من قبل؟!".

- "إن هذه حقائق... لقد انتشر حكمهم على مشارف الدنيا... ولكن الأهم من انتشار حكمهم هو انتشار مبادئهم... مبادئ الحرية والعدل والمساواة... والخير... لقد امتدت مبادئهم في الدنيا أكثر من امتداد الأرض تحت رايات جيوشهم... إن البلاد التي دخلت راياتها تحت حكم المسلمين لم تلبث أن دخلت شعوبها في دين المسلمين".

- "بسبب ماذا يا دينا؟".

- "بسبب العدل والحرية التي يمنحونها للشعوب... إنه دين يُصلح الدنيا... ويُصلح الآخرة".

قطبت ماريا وجهها قليلاً ثم قالت:

- "ماذا يا ابنتي... أشم في كلامك تعابير لا يصلح أن تخرج من فم راهبة... لست أدري... ولكن الراهبات لا يتحدثون بالمديح عن الأديان الأخرى".

طأطأت دينا رأسها... ثم قالت:

- "أليس من حق الإنسان أن يختار مبادئه؟".

- "بالطبع... ولكن...".

- "لقد قرأت الكثير والكثير...".

- "ماذا تقصدين".

- "لم تكن المسيحية لتملأ فراغاً داخل نفسي".

قطبت ماريا جبينها أكثر ثم قالت:

- "ماذا عساك تقولين... أنت مؤمنة تصلين لله... وتذرفين الدموع في قداس الصلاة".

ابتسمت دينا وقالت:

- "أنت يا والدتي عظيمة... قطعة من النور أنت... ومن الصدق والصفاء خلقت".

ابتسمت ماريا... ثم طأطأت رأسها... في خجل في حين أكملت دينا:

- "لست أدري ما هو القول الذي سأقوله لك بالضبط... ولكنك حتماً سوف تندهشين مما سأقول".

- "قولي ما تشائين".

- "أنا أفكر في البحث عن الدين الحقيقي".

- "الدين الحقيقي... والمسيحية؟... أليست هي الدين الحقيقي؟".

- "المسيحية لم تعد قادرة على حل مشاكلنا... إنها تجبرنا على الإلحاد... لم تعد الشعوب تطيقها... لأنها متحجرة في مكانها".

- "لا خيار يا ابنتي... مادام الرب يريد ذلك".

- "الرب لا يريد ذلك... ولكنهم الرهبان".

- "ماذا؟... كلا... لا تقولي ذلك".

شيء عن النبي العربي

الهواء في الخارج يوحي بالبرد... وهدوء مهيب يفرضه تساقط الثلج... وبرق خافت يلتمع من بعيد... ودينا تزيد من كميات الحطب داخل الموقد... ثم تجلس وفي يدها كتاب بُنّي... وتقول لوالدتها:

- "سوف نقرأ معاً قصة دين عظيم... وما دمنا قادرين على الاختيار... فإن من حقنا أن نعرف الكثير عما نقرر اختياره... هل توافقين؟".

- "دينا... ماذا بك؟ أنا مقتنعة بديني لا يجدر أن أرتاب فيه".

- "سنقرأ فقط... لن نخسر شيئاً".

- "ولكني خائفة".

- "خائفة !!! من أي شيء".

تعلثمت الأم قليلاً ثم قالت:

- "ماذا لو كان في ذلك الدين أشياء مقنعة".

- "هذا ليس مخيفاً... أبداً... علينا إذن أن نقبل الأشياء المفيدة".

- "أوه... هذه مسألة صعبة... صعبة جداً... على عجوز عاشت سنوات عمرها في أحضان النصرانية".

وضعت دينا كتابها جانباً... في حين اقتربت من والدتها ومدت يديها نحوها وهي تشرح وتقول:

- "اسمعي واحكمي يا أمي... دين الشرق يطلب من أتباعه شيئاً أساسياً... إنه يطب ممن يقرر الدخول فيه... أن يفكر ملياً قبل الدخول... لأن نظرية الإسلام... تؤكد على أن الدين الذي علينا أن ندين به... يجب أن ندخله عن طريق الاقتناع لا عن طريق التقليد".

قالت العجوز في عبث:

- "ما دام الأمر كذلك... أقنعيني إذن بدين الشرق... كم أنت عنيدة يا دينا".

أطرقت دينا قليلاً... ثم رفعت نظرها لأعلى... كي تدقق في الأخشاب البنية المرصوفة في السقف... ثم أعادت بصرها وحملت كوب الماء المجاور لها... ورفعته

قليلاً... ورُسم على وجهِها ابتسامةٌ رائعة... ما جعل العجوز تفتح عينيها في دهشة أخاذة... وبعد ذلك قالت دينا:

- "أشبه بهذا الماء كان ذلك الرجل العظيم... إنه سقى الأرض بعد أن أحرقها العطش... أطفأ لهيب النار في القلوب الظامئة... لقد جاء إليهم وهم يتخبطون في الظلمات... هل تصدقين... لقد كانوا يقتلون البنات الصغيرات... وكانوا يهينون العبيد... ويشبهونهم بالبهائم... وكانوا يتلذذون بممارسة الظلم وسفك الدماء.

وفي يوم طويل ليله... عبدوا الأحجار... وركعوا عندها أذلاء... ومع امبلاج النور... جاء إليهم رجل هادئ أمين... وقال لهم:

«لا تفعلوا... كونوا كالماء الزلال... ولا تكونوا حجارة من سجين... اصنعوا الخير... وتناسوا أنكم صنعتموه... ويوماً ما ستلقونه أمامكم... واعبدوا الله... اعبدوه وحده... وانظروا للحجارة على أنها حجارة... لا تنفع ولا تضر... وكونوا ربانيين... حينها ستقبّل الأرض آثار أرجلكم... وسيدعو لكم كل شيء... حتى حوت البحر».

ولكن أولئك الغلاظ الشداد... لم يكن لديهم قلوب يعون بها هذا الخير... لذا قالوا له: «ما أنت إلا ساحر... وكلامك هذا يفسد علينا عبيدنا وأبناءنا»... قال لهم: «إن أبغض الأشياء عندي السحر... أنا لا أقول سحراً... ولكن اسمعوا».

وقرأ عليهم آيات الله... فبهتوا بما فيها من الهدى والحكمة... ومن الخير والصواب... وآمن بعضهم... لأن قلوبهم كانت متهيئة لإدراك الحق... بيد أن آخرين قد امتلأت قلوبهم حقداً وحسداً... اهتاجوا عند سماع مقالته، اهتياج الثيران في الحلبة... وقالوا:

«سنقتلك... فما أنت إلا مجنون».

قال بهدوء وصبر:

«والله لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في يساري... وقلتم اترك دعوتك للخير والعدل... ما تركتها».

التهبت في قلوبهم نار العداوة... وأجمعوا أمرهم... وحاربوه... وطردوه... ولكن الله نصره... وحارب معه جند مؤمنون... كي يدفعوا الظلم عن أنفسهم... كانوا أقل من القليل ولكن الله نصره... ونصر المؤمنين معه... نصرهم على القوم الكافرين... الذين تمادوا في الظلم والعدوان... وحاكوا المؤامرات كي يشوهوا أفكاره ومبادئه... لقد انتصر لأن الله نصره... وبعد انتهاء الحرب... نظر لأعدائه وهم مقيدون بين يديه... كانت المواقف البشعة التي صنعوها معه تتراءى بين عينيه... وكانت تتراءى بين أعينهم أيضاً... لقد تذكروا كل سوء عاملوا به هذا الرجل الصالح... وكان الموقف الذي يمليه مكان المنتصر... يوحي بأن نظرته للمقيدين بين يديه... ممن آذوه وظلموه... ستنتهي بتقطيعه لهم إرباً بسيفه... ولكن شيئاً آخر حدث... لم يكن أبداً في الحسبان... لقد فرضت المبادئ العليا مكانها هنا... لقد نظر إليهم بإيمان وتواضع... ثم ابتسم وهو يقول:

«اذهبوا... فأنتم الطلقاء».

إنها الحرية... الحرية العظيمة هي الشيء الذي منحه لأعدائه... لأنه داعي الحرية الأول... في عالم المبادئ والأخلاق... لم تكن مشاعرهم التي كانت متطلعة للموت منذ قليل... لتجهل قدسية المبادئ التي يحملها هذا الرجل...؛ لذا هاجت في قلوبهم مشاعر الإيمان... وآمن منهم الكثير... واتبعوا مبادئ العدل والخير... ومرت السنوات وراء السنوات... وأتباع هذا الرجل يزيدون ويزيدون... حتى أنشأ دولة في طرف الصحراء الغربي... ثم امتدت دولته حتى سادت الصحراء جميعاً... لقد كانت الدنيا ملك يمينه... ولكنه مع ذلك عاش حياته زاهداً فقيراً... يجوع أكثر مما يشبع... ويخشع ولا يتكبر...

كان دينه الإسلام... وكان هو رسول السلام... لقد أمر بصلة الأرحام... وأمر ببر الوالدين... وأمر بإكرام الجار... وأمر ألا يؤذي الإنسان أحداً... حتى

الدواب... نعم... حتى الدواب... كان لها مكان في قانون عدله وهديه... وقد نهى عن الزور والكذب... ونهى عن الغدر والخيانة... وقال:

«لا تتكبروا... فإن المتكبرين يكونون يوم القيامة كالنمل يطأهم الناس».

وقال: «لا تحاسدوا... لأن الحسد يجعل حسناتكم كالرماد».

ومات ذلك الرجل... ويوم مات... كانت الدنيا جميعاً تصلي لله... أو تنتظر الغيث الذي سيحمله لها أصحاب هذا النبي... كي تعيش في سلام... بعيداً عن الخوف والظلم والأوهام... وانتشر الدين... وأمن الناس وآمنوا... ونحن هنا لا زلنا في حرب وضرب... وقاتل ومقتول».

دمعت عينا دينا... وطأطأت برأسها... لتعيده أخرى... وتنظر للعجوز التي اغرورق وجهها بالدمع والذهول... اقتربت دينا لتقول لأمها في تأثر:

- "هل اقتنعت بدين ذلك الرجل العظيم؟".

قالت الأم:

- "كنت أظن أنك أعظم فتاة في الدنيا... يا ابنتي... وكنت أحسب أن كل مبادئك النبيلة هي من نتاج عقلك... للتو أعلم أنك تسيرين على دين آخر... هل دينك يا ابنتي هو المؤثر القوي في حياتك؟!".

ابتسمت دينا في ذهول ثم قالت:

- "نعم يا أمي... أنا أتبع ديناً آخر... وهذا الدين هو سبب هدايتي ورشادي، وهو الذي يجبرني على أن أبرَّ بأمي... وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات... هل أنا أحسن لك يا أمي؟».

- «الجنة تحت أقدام الأمهات؟».

– «وأنت حتماً ستكونين سعيدة بذلك الدين... ولن تلعني البطة السوداء بعد اليوم...هـ هـ هـ".

– "هـ هـ هـ... أوه تلك البطة السوداء اللعينة... وهل يحرم دينك أن نلعن البط".

– "نعم... إنه يحرم كل كلمة سيئة... ويدعو لحفظ اللسان... حتى من لغو الكلام".

– "لن ألعن البطة الملعونة بعد اليوم".

– "لقد لعنتيها الآن يا أمي".

– "أوه... اغفري لي يا ابنتي".

– "ليغفر لك الله".

الفصل الثاني العشرون

قضبان قاتلة

بصيص من نور متعرج... ينكسر داخل الحجرة الصغيرة... وهدوء قاتل يعم المكان... وتمتد يد مرتجفة قد برزت عظامها... لتمسك بأحد القضبان العمودية المنتصبة في منتصف الباب... ثم يتقدم الوجه الأبيض... ليطل مكتنزاً نظرات طويلة... بعدها يقول له الحارس:

- "أدخل رأسك".

ولكن هيلا الهيلي... الذي تنفرج شفتاه ببطء... يبتسم ويقول:

- "هل من زائر جديد... الوحدة قاتلة؟".

يقترب الحارس... ثم يلقي ابتسامة مقابلة في وجه هيلا... ثم يقول:

- "عليك أن تصبر... لقد ذهب الكثير من محكوميتك... لم يبق إلا القليل".

- "لولا إنك تكرمني بابتساماتك الصادقة يا محسن... لما استطعت تحمل سياط الظلم لمدة عامين".

- "عليك إذن أن تحتمل الأسابيع القادمة... سوف تنقضي بإذن الله".

- "حتماً سوف تنقضي... ولكن... هيه... بعد أن قضت على آخر أيام عمري".

ومع انبلاج الصباح كان الحارس ينادي:

- "هيلا الهيلي... زيارة خاصة".

قام هيلا مهتماً وهو يقول:

- "هل جاء ولدي شالوم".

- "كلا... إنه زائر لم أره من قبل".

وفي غضون دقائق... كان شمعون يعانق سنوات طويلة من الذكريات... حين ألقى بنفسه بين ذراعي هيلا الهيلي... لم يشأ اليهودي... واليهودي الذي أصبح مسلماً... أن يُعبِّرا بتعابير أخرى... هي أكثر بلاغة من الدموع الحارة... التي ارتصت على خديهما المتعرجين... في ملحمة رائعة من ملاحم الذكرى... قال شمعون:

- "هل لازلت تذكرني؟".

عاد هيلا برأسه للخلف... ثم قال في تأثر وهو ينظر في ملامح شمعون:

- "ولماذا لا أذكرك... ألست جاري".

- "نعم أنا جارك... ولكني توقعت أن الإسلام قد غيرك".

- "نعم لقد غيرني... الإسلام غيرني كثيراً".

- "كنت متردداً... خشية أنك لن تستقبلني".

ابتسم هيلا... ثم قال:

- "اجلس... اجلس... لقد طال اشتياقي لك... أنت جاري... ونبي الإسلام أوصى بسابع جار... حتى ولو لم يكن على دين الإسلام".

ابتسم هيلا وهو يقدم يده ليمسك بيد شمعون... ثم ليشد عليها بصفاء... ثم قال:

- "ولكن... قل لي يا شمعون... كيف فكرت في زيارتي... مع علمي من بعض من يزورونني... أنك حملت أحقاداً لا نهاية لها... عندما علمت بإسلامي".

قال شمعون وهو يعدل جلسته على ذلك الكرسي الخشبي الطويل... ويمد يده لهيلا... كي يجلس هو في الطرف الآخر من الكرسي:

- "نعم يا هيلا... إنها حاجتي إليك... يا صديقي... حاجتي جعلتني أبحث عنك... إنها الوحدة القاتلة... وتلك النسمات التي نزفرها مع آخر خطوات أرذل العمر... إنها حقاً... تجعل الواحد منا يحن لصديق قديم".

طأطأ هيلا رأسه في هدوء... ثم قال في تمايل وانسجام:

- "الوحدة... أنت تذمها... صدقني الوحدة هي الجنة بالنسبة للسجن والتنكيل... أنت قضيت أياماً من عمرك وحيداً... ولكن ماذا عني أنا... أنا قضيت عامين في هذه الزنزانة القذرة".

- "أوه يا صديقي... كم يؤسفني ذلك... عامان... لماذا"؟.

صمت هيلا قليلاً... ثم برقت عينه الزرقاء وهو يرفعها للأعلى... وقال بألم:

- "لم يعد السجن في هذه الأيام هو نزل المجرمين... كلا يا جار... إنه نزل النزيهين والشرفاء... أصحاب القضايا العادلة... أما المجرمون... فإنهم هناك على كراسي مجدهم يأمرون وينهون... بريطانيا هي الوجه الآخر لإبليس".

ربت هيلا على ذراع شمعون ثم قال:

- "الحمد لله... لقد أزف وقت خروجي... ربما في الأسبوع القادم... ربما أخرج... أخرج".

- "وما تهمتك ؟".

- "تهمتي التحريض على الحكومة الشرعية... تصور... بالطبع... الحكومة الشرعية بريطانيا... هـ هـ... والتهمة الثانية هي استخدامي لمعلوماتي وخبراتي... ضد بريطانيا... العلم صار جريرة يعاقب عليها... هذا انحطاط في الفكر الإنساني".

تنهد هيلا بهدوء... في حين ابتسم شمعون... لم تكن تلك الابتسامة لتكون مستساغة بالنسبة لهيلا... لذا قال متعجباً:

- "ماذا بك"؟.

- "إيه يا صاحبي... لقد تذكرت ابنتي هدية".

- "هدية... أعلم جيداً مدى حبك وأبوتك... أنت مشتاق لها... أليس كذلك؟".

- "بالطبع... تماماً كما أنت مشتاق لابنك... قل لي يا هيلا... هل دخل ابنك شالوم في الإسلام؟".

- "كلا... كلا... إنه علماني... ولا يؤمن بالدين... لقد اعتنق في آخر المطاف... ذلك الفكر البهيمي... إنه بهيمي... يأكل ويشرب... ويعمل... هـ هـ... ويظن أن ذلك كاف... لم يعجبني ذلك منه... قل لي عن هدية".

- "أخشى عليها يا جار... لقد بدأت تسبح في المستنقع... إنها تغرق في الدم".

- "ماذا؟... إياك أن تقول إن هدية أقنعتك بالصهيونية".

قال شمعون وهو يضطرب... وشفته السفلى ترتجف... ودمعة صغيرة تكاد تتدحرج على خده:

- "نعم... الصهيونية... الصهيونية اللعينة... التي ستحرق اليهود... إن عاجلاً أو آجلاً".

- "إن عاجلاً أو آجلاً... صدقت... إنها مستنقع التماسيح".

- "عليهم اللعنة... يا لهم من كفره".

- "هدية سوف تعود لصوابها... إنها ذات معدن شرقي... هـ هـ... معدنها طيب... لا تقلق".

- "وما دخل المعدن الشرقي... أليس معدنك غربي يا هيلا؟".

- "لا تلق لذلك بالاً... كنت فقط أمزح".

- "ولكني أخشى أن أكون خسرتها... قطعة كبدي بدأت تضيع من يدي".

- "لا تحمِّل نفسك أكثر مما تطيق".

- "لقد قلتُها من قبل... ولازلت أقولها... وسأقولها للأبد".

- "عرفت ماذا تقصد".

- "ماذا؟".

- "يا ليت أولادنا مثل أولاد المسلمين".

- "نعم... يا ليت أولادنا مثل أولاد المسلمين... وإيماني بهذه الكلمة يزداد كل يوم".

- "هل أسألك سؤلاً يا شمعون".

- "قل... وأنا سأجيب".

- "هل فكرت في الإسلام".

- "أوه يا هيلا... لقد توقعت هذا السؤال منك... أنا لن أفكر في الإسلام... اليهودية الناصعة طريقي... ربما كان لزاماً علي ألا أغير طريقي".

- "وابنتك".

- "هدية".

قالها وهو يتنهد... ثم اقترب شمعون أكثر... ونظراته الهائمة في الملكوت الآخر تبرز بين عينيه ثم أكمل:

- "ادع أيها الشيخ الطيب... ادع لهدية... أن ترجع إلي".

- "أنا أدعو لك يا شمعون؟... ولماذا لا تدعو أنت".

أشاح شمعون ببصره... ثم قال:

- "أنا دعوت... دعوت ملء ليلي ونهاري... ولكني أتبارك بدعواتك... أرجوك".

هز هيلا رأسه ثم قال:

- "سأدعو لها بعين خاشعة... وقلب ضارع... سأدعو أن يعيدها الله إليك... ولكن".

- "ولكن ماذا؟".

- "سأدعو الله أن يعيدها مسلمة".

- "هـ هـ... هـ هـ... مسلمة... كافرة... المهم أن ترجع".

- "أنا واثق من إجابة الله... لست أمزح".

- "وأنا كذلك... ولم لا... ربما إذا لقيت داود".

- "داود ؟!... داود من".

- "أوه يا صاح... ألا تعرف قصة داود".

- "لا...".

- "هـ... هـ... هـ...".

لقاء الأبوة

يحمل كيساً كبيراً من القماش... ويضعه على ظهر الحمار... ثم يقول لصاحب الحمار:

- "هيا... انطلق...".

ويركب الدكتور روزولث على جواده البني... ويواصل سيره جهة السجن.

وخلال الطرق الضيقة بين المزارع... يسير الحصان الذي يمتطيه روزولث... مع الحمار الذي يحمل كيس البرتقال... ويجلده الحمال بعنف.

الحصان والحمار يسيران متجاورين... لم يطل الوقت حتى وصل روزولث لبوابة السجن... ثم قال بهدوء للحمال:

- "أنزل كيس البرتقال هنا... سوف أطلب إذناً بإدخاله... سيفرح أبي كثيراً... وبعد أخذ الإذن... سوف تساعدني في إدخاله للداخل".

وما هي إلا لحظات ويعود روزولث وهو يحمل ورقة صغيرة... ثم يشير لصاحب الحمار كي يحمل البرتقال نحوه... لقد سارا عبر الممرات حتى وصلا للحجرة الصغيرة... التي تفصلها من النصف قضبان حديدية صدئة... ومن بين القضبان ألقى روزولث نظرته الطويلة إلى الرجل الواقف والممسك بقضيبين صلبين... ابتسم روزولث وهو يقول:

- "والدي... ها أنا ذا... لقد انتهى المطاف بي... كي ألقي بنفسي بين يديك".

مد هيلا الهيلي يديه... ثم عانق ابنه روزولث وهو يقول:

- "أهلاً بك يا حبيبي شالوم... لقد طال شوقي لك".

وبعد أن أحسا بحرارة اللقاء نظر روزولث لوالده وهو يقول:

- "كم اشتقت لك يا والدي".

- "هل أنت بخير... ما أخبار دراستك...؟".

- "أنا بخير... ثم... هناك شيء هام... سأخبرك به... لقد غيرت اسمي يا أبي... هـ هـ هـ... لم يعد اسمي شالوم".

نظر هيلا لابنه في دهشة ثم قال:

- "غـيـرت اسـمك... هذا أمـر حـسـن... ولكن... قل لي... هل تتنصلون من هويتكم اليهودية بكل هذه البساطة".

ابتسم روزولث وقال:

- "كم اشتقت لك يا والدي... أنت كما أنت... لم تتغير".

قال هيلا وهو يستدير للجلوس:

- "لقد أثقلَت كاهلي أيام السجن المريرة... بالمناسبة... قل لي... لماذا غيرت اسمك؟".

"هويتنا اليهودية تجلب لنا المتاعب في أوروبا... الكل ينظر لنا بتوجس وريبة... وربما باحتقار".

- "باحـتـقـار!!... قلت لك من قـبل... كـرامـة الـيـهـودي في أن يعـيش بين المسلمين... إنهم يقدرون تماماً معنى كلمة يهودي... ولا يحتقرونه أو يظلمونه".

- "بدأت تمارس ضـغـوطك الخـفـيـة علي... لا يهم... لقـد أتيت لك بكيس برتقال... كي توزعه على أصحابك في السجن أعرف... أنت كريم".

- "أوه... لقد أحسنت... سوف أوزع في يوم الاحتفال بخروجي... شيئاً من البرتقال... سيكون المساجين أكثر سعادة بذلك".

- "أخيراً يا أبي... سوف ترى هواء الحرية".

نظر هيلا لجوانب الغرفة ثم تنهد وهو يقول:

- "أصـدقـائي... حـتـمـاً سـوف أشـتـاق لهم... هم وحـدهم من قـاسـمني الحـزن والحرمان... صديقان لا يمكن أن تنساهما... من قاسمك فرحك ومن قاسمك حزنك".

- "لا زلت فـيلسـوفـاً أبي... على كل... سـيكون الـبـرتـقـال هو آخـر وجـبـاتكم المشتركة".

مد هيلا يده... وربت على كتف روزولث وهو يقول:

- "ما آخر أفكارك وتطلعاتك يا شالوم".

- "أوه يا والدي... بعد أن رأيت أبي يعتنق الإسلام دخلت مع نفسي في صراع فكري عميق... وأيضاً... هناك فتاة مذهلة... يهودية... لها أفكار جهنمية".

- "أنت يا بني تجيد مصارعة الأفكار... قل لي... إلى أي طريق توصلت".

- "الإسلام... دعنا منه الآن... ولكن... صدقني... من يعيش في أوربا يقتنع بأن يعيش حياته بكل بهيمية".

- "صحيح يا بني ... هل أنت واثق مما تقول... هذا شيء غريب... الحرب التي عاشتها أوربا في العقود الماضية... تجعل كل من يعيش المعاناة يفكر بحل ما... وبما أنك ولدت في هذه البلاد ذات الثقافة الإسلامية... وتربيت فيها حتى سن الثلاثين... ثم عشت عشر سنوات في أوروبا... فإنك حتماً ستستجدي الحلول لمشاكلك من خبراتك... وبالطبع... الإسلام شيء من خبراتك".

- "لقد عرفت بعضاً من سور القرآن... القرآن يذكر حقائق عن اليهود... لا يعرفها أحد... ربما يعرفها اليهود فقط... أنا أندهش لذلك".

الفصل الثالث العشرون

ألمانيا من جديد

تلك هي الوجوه الكالحة... التي يحملها أهلها على مضض... ويُبْرزونها للناس... وقد نشبت عليها قطع من أحزان الحرب... لا تكاد تمحوها السنين... أخيراً شاركت إيطاليا في الحرب... وكانت آمال الإيطاليين كبيرة في ضم "الترنتينو"و"تريستا" التي احتلتها النمسا... ولكنهم شربوا كأس الهزيمة... ولا زالوا يتذوقون مرارتها... بعد أن أطبقت عليهم جيوش النمسا أشبه بكماشة حديدية.

وعلى واجهة أحد المعارض الراقية... في طريق نابولي الممتد شرقاً... تبرز لوحة ذات ألوان زاهية... مكتوب عليها... (الريحانة... والبوقية)... وبداخل المعرض يكتظ المشترون... والمتفرجون.

وفي الصالة الداخلية تجلس السكرتيرة لورا... بجوار الباب المفضي للمكتب الرحب... وهناك تمتد صالة كبيرة فخمة... وفي نهايتها يقبع المكتب الأنيق... وتجلس على الكرسي الجلدي عالمة مرموقة... على مستوى إيطاليا... إنها صاحبة شركة هامة لبيع الأزهار... وهي تحاضر في الجامعة... في قسم علم النبات... وسماتها تبرز كسمات امرأة وقورة ذات ذكاء وثقة.

وبعد لحظات تدخل امرأة عجوز وهي تحمل في يدها مزهرية متعددة الزهور والألوان... وتستأذن بالدخول على دينا الجالسة على مكتبها... وعندما تراها دينا تقف وتقول:

- "ماذا فعلت يا أمي؟".

- "لقد أعددت هذه الطريقة... إنها أحدث طريقة لتنسيق زهور الريحان ذات اللون الأحمر مع مجموعة الأزهار الصفراء... أريد إبداء رأيك... ومن ثم اعتمادها".

قالت دينا وهي تسحب الكرسي لأمها كي تجلس:

- "ما أسرع ما تنقضي الأيام يا أمي".

- "الأيام يا ابنتي... لا تنقضي... نحن فقط من ينقضي".

عادت دينا لتجلس مقابلة لأمها ثم قالت وهي ترفع دفتر مذكراتها... وتكتب عليه... الحادي عشر من يناير... عام ١٩١٦ .

- "يا أمي... كم تتصورين أنه مضى من الوقت منذ أن حصلت على الدكتوراه".

- "أوه دينا... هل تظنيني نسيت... هذا اليوم هو اليوم الموافق لذلك اليوم... بالضبط هو نفسه التاريخ... وبهذه المناسبة سوف نصنع اليوم احتفالاً بذلك".

قامت دينا... واتجهت للشماعة الذهبية الموضوعة بعناية في ركن المكتب... ثم تناولت معطفها ذا الشعر الرمادي... وقالت:

- "ليس ثمة عيد... إنها أيام كئيبة... وأنا يا أمي لا أملك قدرة على استشعار الفرح".

- "لماذا يا دينا... لماذا يا ابنتي؟".

- "الحروب تطحن الأرواح... أشبه بطاحونة هوائية... تطحن الحبوب... وهؤلاء الساسة المجانين لا يشبعون من إهدار الدماء... إنهم أشبه بالخفافيش".

- "أنت على حق يا ابنتي... أوروبا لم تعد تطاق".

- "نحن يا أمي قفزنا للهاوية... إن جيلنا هذا هو جيل اللعنة لأوروبا... على امتداد سنوات المستقبل... لن تغفر لنا الأجيال القادمة... كلما حان لها أن تقرأ شيئاً عن أيامنا هذه".

قالت ماريا وهي تدني زهرة بيضاء من أنفها وتشمها بعمق:

- "لا تفكري في ذلك كثيراً يا ابنتي... مادمت أنت تحسنين... فلا عليك أبداً... لا تهتمي للظروف الصعبة... اهتمي بسعادتك... هذا هو كل ما يطلب منك".

اقتربت دينا من أمها حتى صار وجهها بجوار وجهها... ثم قالت بهدوء وهمس:

- "كلا يا أمي... أنا أحمل قضية كبيرة... ليس لمثلي أبداً أن يبقى في موقف المتفرج".

وضعت ماريا يدها على كتف دينا... وقالت:

- "أريد لك السعادة... فقط يا ابنتي... تماماً كما وجدت على يديك معاني السعادة... لحظة واحدة أقضيها إلى جوارك... تساوي لدي الدنيا وما فيها".

ابتسمت دينا وهي تقترب من والدتها... ثم قالت:

- "أوروبا تجتاح الشرق... وتلتهم الدنيا... إنها الندبة الأعمق في خد الحضارة... وها هي الآلة تدخل من جديد لتحيل الإنسان إلى تراب... الإنسان يصنع الآلة... والآلة تقتل الإنسان... إنها مدرعات... مدرعات يا أمي... وبارود يتفجر... وقذائف مذهلة... تحرق وجه الدنيا... وها هم الأوروبيون... يقتسمون باحترافٍ طعام الشرقيين".

- "كان على الشرقيين أن يدافعوا عن أنفسهم... إن من يتخاذل عن الدفاع عن نفسه... حتماً لن يرحمه قانون الغاب".

- "ها أنت قلتيها يا أمي... قانون الغاب... لقد أصبحنا الآن أشبه بقطعان الكلاب... وجيوش الأوربيين أصبحت جيوشاً إرهابية... لأنهم يقتلون الأطفال دون جريمة... فقط من أجل المصالح الخاصة".

تناولت دينا زهرة صغيرة... ذات لون أصفر... ثم بدأت في نزع أوراقها... ثم وضعتها أمامها على الطاولة... وبعد ذلك قالت في هدوء:

- "أخبريني المزيد عن ألمانيا... أريد معرفة التفاصيل... منذ سبع عشرة سنة".

- "أنت مهتمة بألمانيا... لست أدري... لماذا".

- "أخبريني المزيد... عن الفتى الذي يشبهني... وعن عمال المناجم".

- "إنها أيام عصيبة... ولكني قد حدثتك كثيراً... عن كل ما حصل في تلك الأيام... لم يعد لدي جديد... لقد قلت لك كل شيء... بل وأعدته عليك مرات ومرات... ولكن لن أمل تكراره".

- "قولي... قولي... إذن".

- "إنه يشبهك يا دينا... وهو أبكم لا يتكلم... وكان يصلي مثل صلاتك... نعم... رأيته يفعل ذلك... أقصد مثل صلاتي وصلاتك".

بقيت ماريا تترنم بتكرار أحاديثها... ودينا بجوارها تستمع... وتقلب في صفحات مذكراتها بين الفينة والأخرى... وتكتب تارة بعض الكلمات... ثم تتكئ على ظهر المقعد ثانية لتواصل الاستماع.

اختطاف

تلك هي دينا... الفتاة الخارقة... ذات العلم والمعرفة... والثراء الفاحش... إنها الآن من أكبر سيدات الأعمال على مستوى إيطاليا... وشهرتها بدأت تكتسح الآفاق.

ولكن شخصيتها تزداد غموضاً وانطواء... وهي الآن تدخل في منعطفات جديدة وغريبة... ولها أسفار متكررة... وأسفارها في بعض الأحيان مشبوهة... وهناك سر ما يقبع في ذهن الفتاة العبقرية.

وقد بدأت أمورها تتكشف عن تلك التصرفات الغريبة... بعد أن عادت من إحدى سفراتها... حيث تعرَّفت على شاب ألماني يعد من أبرز أثرياء برلين... وكان لتعرفها عليه قصة غامضة.

لقد خرج الشاب من إحدى الصالات الرياضية... بعد قيامه ببرنامجه الرياضي اليومي... وعندما كان يسير خالي البال... باتجاه عربته... تقدم نحوه أربعة رجال أشداء... وأوثقوا عقاله... ثم حملوه... واتجهوا به نحو عربة صغيرة... وانطلقت العربة نحو بيت صغير... في مزرعة ريفية... يعيش فيها مزارع مع زوجته.

وداخل المنزل استُقبل الشاب الذي لم يجاوز الثالثة والثلاثين من عمره استقبالاً مرعباً... فقد كان ثمة أربعة من الكلاب المتوحشة تنتظر قدومه... ومع نباح تلك الكلاب بدأ إدراك الشاب لما حوله يتغير...

وداخل المنزل... بدأت نظرات الشاب تتقلب في السقف القديم... وفي الأثاث البالي... وفي تلك الحجرة القديمة... والكبيرة... التي توحي بأجيال ساحقة في القدم... وزهور صغيرة أنيقة... ونور الشمعة المتذبذب يشعر الناظر إليه بمتاهات الكهوف... وعجوز شمطاء... تتأرجح على كرسي خشبي... وقد غطت ساقيها... حيث تعاني من داء الروماتيزم... ومع ردهة صغيرة يبدو الباب العتيق... الذي يفضي إلى غرف ذات إنارة أكبر... وتبدو الكتب القديمة المتراصة بعناية بالغة... على أرفف من خشب السنديان الداكن... وفتاة يافعة تجلس على الكرسي... وأمامها على الطاولة كتب مفتوحة... وفي يدها قلم موضوع في أسفل ريشه نعام طويلة... ومحبرة من النحاس... وصوت الأوراق... وهي تُفتح بهدوء يوحي لذلك المذهول بأوهام كثيرة... ثم كوب الحليب الذي سكبته الفتاة في القدح الزجاجي... لتستبدل به كوباً جديداً.

قامت الفتاة... واتجهت خارج غرفتها... وعندما وقفت أمام الشاب قالت له:

- "تفضل... ادخل... أهلاً بك يا سيد لوك".

قام الشاب في ارتباك... وتقدمت به خطواته وهو يتبع الفتاة... وعندما جلست على كرسيها أشارت عليه بالجلوس... ثم ناولته عدداً من الوثائق وقالت:

- "اطّلع على هذه".

كان قلب الشاب يدق بشدة... وكان مرعوباً ويشعر من داخله بخجل كبير... وهو يقف أمام هذه الآنسة... بيد أنها بددت توتره بقولها المفاجئ:

- "كثير من تعاملات شركتك يشوبها التجاوز على القانون".

- "هل أعتبر نفسي مخطوفاً؟".

- "ليس الأمر بهذا السوء... ولكنك هنا من أجل أن تكون قادراً على وضع قدمك في الطريق الصحيح".

ابتلع الشاب ريق خوفه... وأعاد التجوال ببصره مرة أخرى في المفردات من حوله... ثم قال:

- "أي تعاملات تقصدين؟".

قامت الفتاة بثقة... ثم تقدمت حتى جلست على الكرسي المقابل للشاب تماماً... ثم مدت يدها وقلبت كوباً زجاجياً كان موضوعاً بطريقة شرقية... ثم سكبت فيه من إبريق الحليب... ومدته له... رفع الشاب يده معتذراً ثم قال في لهفة:

- "أي تعاملات تقصدين؟".

- "أنت خائف... لأنك تعرف جيدا أنك مخالف للقانون... لست في حاجة لأن أسألك عن سبب ثرائك... ولكني سأكتفي بسؤلك عن صفقة الـ...".

توقف حديث الفتاة... لأنها قدمت قدح الحليب مرة أخرى للشاب... وعندما تناوله بتوتر... أكملت:

- "صفقة الذخيرة... المهربة للثوار... في إيرلندا؟".

رجعت الفتاة بظهرها حتى لاصق ظهرها المقعد... ثم تناولت قدح الحليب الخاص بها... وبدأت تشرب... وفي أثناء ذلك قالت:

- "من حق الثوار أن ينفصلوا... هذا شأنهم... ولكن ليس من حقك أن تقوم بأعمال غير قانونية... راجع الأوراق جيداً".

وبعد أن قلب الشاب تلك الأوراق طأطأ رأسه... في حين أكملت:

- "عليك أن تكون نظامياً... لقد كنتُ حريصةً على نجاتك من المأزق... لقد قمت باللازم... قمت باللازم من أجل إنقاذك... يمكنك الآن أن تتصرف".

- "والقضية".

- "عليك أن تنساها تماماً".

- "هل هذا يعني أني مدين لك بإنقاذي...".

وقفت الفتاة... وقالت وهي تستدير لتعود لكرسيها السابق:

- "أو... لقد نسيت... ربما كان عليك أن تتعامل معي... أنت تملك مالاً... وتستطيع بناء مصنع للعطور... سوف أدعمك بالزهور... وسنكون يداً واحدة... من واجبي أن أساعدك... لتكون جميع أعمالك قانونية... والآن من حقك أن تتصرف".

انصرف الشاب... وقامت الفتاة دينا من خلف المكتب لتخرج للعجوز... ثم أعطتها مبلغاً من المال أجرة للمنزل... وللتمثيلية (المحبوكة)... ثم خرجت خارج المنزل... وهي تودع الشاب... حيث ركب في العربة... التي جاءت به... ثم انصرف... وانصرفت دنيال كذلك.

تلك هي دينا... إنك تعرفها بتصرفاتها الجرئية... وبنظراتها وهي تسير في طرقات برلين... إنها دائمة الأسفار... وتحاول إخفاء الكثير من تفاصيل حياتها ولكن ذلك لم يكن ليخفى على العجوز ماريا التي كانت تدعو للفتاة بالتوفيق دائماً.

رحلة إلى لندن

الفتاة النشيطة... لتوها وصلت الآن إلى مدينة لندن العريقة... لقد أذهلها كل شيء هنا... الناس تطبعهم طبائع خاصة لم تشاهدها دينا في ألمانيا ولا في إيطاليا...

وربما كان الجميع هنا يؤثرون الحياة المسالمة... لندن يميزها العدد الكبير من السكان... الناس يتحركون كأنهم أسراب الجراد... ومع أن الأعمال في المصانع تستقطب العديد من العمال... إلا أن الأغلبية لا زالت مهنتهم الحقيقية هي الزراعة.

دينا هدفها محدد... إنها تريد عقد صفقات مع أصحاب رؤوس الأموال المعروفين... كي توزع صناعتها الجديدة... وهي أيضاً تريد تقصي حقائق معينة عن قضايا كثيرة.

لقد سكنت في أحد الفنادق الأنيقة في وسط لندن... وبالتحديد في حي هامبستيد... وبقيت طيلة ليلتها الأولى تنظر مع الشرفة المطلة على الطريق العام... وهي تحدق في العربات الغادية والرائحة... والنزر اليسير جداً من السيارات...

وفي صباح اليوم التالي... كان لزاماً عليها أن تسعى جاهدة لإنجاز ما يمكّنها الوقت من إنجازه... لقد خرجت من بوابة الفندق... وبقيت عدة دقائق وهي واقفة... كانت تتأمل الشمس المشرقة... وتتأمل العصافير التي تتنقل من شجرة لأخرى في حديقة الفندق... وبعدها ذهبت لإكمال أعمالها.

مر الوقت سريعاً... ودينا تتنقل كالنحلة... لقد استطاعت في وقت قياسي مقابلة بعض أصحاب الشركات التي دونت أسماءهم في ورقة خاصة... ثم عرضت عليهم التبادل التجاري... وأنهت مهمتها في يومها ذاك قبل الغروب بقليل... وعادت للفندق وهي متعبة... لتستقبل ليلة هادئة.

موقف لا ينسى

وفي اليوم التالي... واصلت عملها في عقد أكثر من صفقة ناجحة... وبعد أن وقعت العقود... عادت للفندق وهي منهكة... وكان الوقت متأخراً... وفي اليوم التالي أحست ريحانة أنها في حاجة للاستجمام والراحة... لندن لا تنقصها الأماكن المعدة للاستجمام... لذا قررت الفتاة منح نفسها فرصة للهدوء والراحة طيلة الثلاثة الأيام التالية...

وفي أثناء تلك الإجازة أحست دينا باستعادة بدنها للكثير من حيويتها ونشاطها... لقد زارت الفتاة أماكن مذهلة... المتاحف والمواقع الأثرية... والكثير من الحدائق... وبعد أن أنهت أيام إجازتها الثلاثة بدأت مهمة جديدة...

لقد خرجت الفتاة من الفندق باكراً... كانت ملابسها الأنيقة تدل على أنها فتاة حذرة... وكانت نظراتها تنبئ بشيء مما يعتمل داخلها... سارت عبر شارع (ستراند) المفضي إلى منطقة (الوست إند) وبعد أن ناصفت المسافة رأت أنها تسير بمحاذاة سور مقبرة قديمة... واصلت سيرها بجوار السور وهي تتأمل... أولئك الذين يدخلون المقبرة وهم يحملون الزهور ليهدوها لموتاهم... انسجمت ريحانة قليلاً مع تلك الصور... إلا أن صورة فتاة صغيرة لم تجاوز الثامنة من العمر... هزت مشاعر دينا من أعماقها... كانت الفتاة تحمل مزهرية ذات زهور حمراء... لقد كانت تلك الزهور هي الزهور نفسها التي ينتجها مصنع دينا... وكانت الفتاة حزينة فيما يبدو... وتسير بخطوات متهدجة كسيرة... ورأسها ذو الضفيرتين منكس للأرض... وفي صورة معبرة... وقفت دينا مع نفسها... لتنبش ذكريات عميقة في مقبرة عقلها الألمعي... بيد أن بحث الفتاة الصغيرة في المقبرة الكبيرة جعل دينا تقطع أفكارها تلك... وتدخل للمقبرة... لتقف أمام الفتاة وتسألها بحب:

- "هل أستطيع مساعدتك"؟.

كانت الصورة مؤثرة عندما نظرت الفتاة الصغيرة نحو دينا بكل براءة... ثم بدأت عيناها تغرورقان بالدموع... ولكن المشهد لم يكتمل إلا عندما ألقت الفتاة الصغيرة بجسدها الناحل على صدر دينا... كانت الفتاة تردد وهي تبكي:

- "أمي... أمي".

أحست دينا بنحيب حسرة مَسْنونة... يتدحرج الهوينا في شعاب صدرها الواسع... ثم سمحت لنفسها أن تنفجر بألم كبير... ثم وجهت دينا للفتاة السؤال التالي:

- "ماذا دهاك... لماذا أنت هنا".

- "أنا غريبة عن هذه المدينة... لأول مرة أجيء إليها... لقد قتل والدي ووالدتي في الحرب اللعينة... عندما كنت عند جدتي في الريف... نعم... لقد فقدت أسرتي... وأنا هنا الآن كي أبحث عن قبرهما".

انفعلت دينا لحال هذه الفتاة المسكينة... ولم تملك إلا أن ابتسمت لها بسمة حانية... ثم رفعت يدها ووضعتها على كتف الفتاة وهي تقول:

- "وهل تعرفين أين هما قبر والديك؟".

- "كلا... أنا لا أعرف... ولكن قالت لي الممرضة أن جميع من مات في تلك الغارة قد دفنوا هنا".

- "هل أنت وحدك هنا؟".

- "كلا... معي جدتي... إنها هناك... تلك... صاحبة الفستان الأسود... هي... جدتي".

انصرفت الفتاة متجهة نحو جدتها... وتركت دينا تعتصرها الآلام... وهي تفكر... كيف يمكن إيقاف الحروب... وإنقاذ الأبرياء... إنها المسؤولية الصعبة.

لم يطل الوقت... لقد استمرت دينا في سيرها... وبعد أن تجاوزت السور بدأت تسير بمحاذاة أشجار تفاح صغيرة قد فقدت أكثر نضارتها... لاجتماع الحشرات على أوراقها... بدأت دينا ساعتها تشعر بالإعياء... ولم يكن منها إلا أن جلست على أحد المقاعد الخشبية المرصوصة هناك... وبعد لحظات وقفت أمامها عربة صغيرة... وعرض صاحب العربة عليها الركوب ... ولكن دينا رفضت... وبعد أن ارتاحت قليلاً واصلت سيرها لمدة خمس دقائق... ثم وقفت بجوار باب عمارة ذات ثلاثة طوابق... تطل على شارع وايتهول... نظرت دينا يمنة ويسرة... وشبّعت عينيها برؤية التماثيل والنافورات المنتصبة على الرصيف الواسع... ثم صعدت الدرج الشمسي حتى وصلت للباب المفضي للدور الثاني... ثم دخلت معه... وحسبت ثلاث غرف... وبعدها طرقت باب الغرفة الرابعة... ودخلت بهدوء وحذر... أجالت عينيها... ثم دققت النظر في الشاب الجالس على كرسي قديم.

لقد كان الشاب الذي ينتظرها في الغرفة رث الثياب... تبدو عليه علامات الفقر والاضطراب... وعندما ابتسمت له ابتسم هو أيضاً بقلق... لكنها جلست على كرسي آخر يقابل كرسيه... ومدت يدها لجيب معطفها... ثم أخرجت بعض النقود ووضعتها في يده... وتفاهمت معه بلغة بسيطة وبصوت منخفض... ثم ابتسم لها وناولها مجموعة من الأوراق المطوية... التي سرعان ما تناولتها منه وأخفتها في جيب معطفها رصاصي اللون... وبعد ذلك ربتت على كتفه وانصرفت خارجة من الغرفة... ثم من المبنى...

وبعد أن عادت دينا إلى غرفتها في الفندق... بقيت طوال ذلك اليوم والليلة المقابلة تدرس تلك الأوراق... وتدون ملاحظاتها في أوراق أخرى... وعندما أعياها السهر قامت لتصلي صلاتها المعهودة... ورفعت كفيها للسماء لتستلهم من الأعلى قوة وإيماناً... استمرت ساعة كذلك... بعدها قامت من مصلاها لتلقي ببدنها المنهك على السرير... كي تخلد للنوم.

ما يثبت يهوديتها

وفي صباح اليوم التالي... كانت الفتاة قد تناولت فطورها وخرجت باكرة... وكانت الجهة التي قصدتها في ذلك اليوم هي جهة الشرق... صوب شارع ستراند... لم تشأ الفتاة أن تستقل سيارة من سيارات (بانهارد وليفاسور) الصفراء... التي كانت منتشرة بدرجة قليلة في الشوارع الترابية... إنها لسبب أو لآخر تحب عربات الحصان... المنتشرة بكثرة... ولكن... ولطول الطريق في هذه المرة... قررت دينا إيقاف صاحب السيارة الصفراء ذات الأنوار البارزة... وركبت بجواره... كان السائق رجلاً في الخامسة والخمسين... وكان يدخن غليونه الذي شارفت حشوته على الانتهاء... وعندما ركبت ابتسم لها السائق... وخلع قبعته في أناقة... ثم قال وهو يقترب منها قليلاً:

- "هل لك أن تضعي هذه القبعة على رأسك يا سيدتي".

قالت له:

- "شكراً... أنا أحتمل حرارة الشمس إلى درجة الغليان".

- "ولماذا تلفين رأسك بهذا الوشاح التراكوزي اللون".

قالها في تعجب وهو يدير عجلات السيارة للأمام... قالت الفتاة وهي غير مهتمة بكلامه... وقد عمدت إلى رفع حقيبة يدها... وفتحها:

- "لكي ألهو مع نفسي دون أن يحصل أي (التماس) كهربائي في رأسي".

لم يفهم الرجل شيئاً... ولكنه شعر أن هذه الفتاة تستخف به... لم يلق لذلك بالاً... لقد انطلق بسيارته جهة ميدان بيكاديلي... وبعد مرور نصف ساعة وقفت السيارة... ونزلت دينا في الساحة الكبيرة... وبدأت في تقليب عينيها بحثاً عن شيء ما... وبجوار النافورة الرخامية... كان الفتى الذي ذهبت إلى منزله بالأمس ينتظرها بتوتر وقلق... ابتسم لها ثم أشار إلى أحد المطاعم الراقية التي تقع في الجهة الشرقية المرصوفة... على بعد ٣٠٠ متر تقريباً... وبعد أن هزت رأسها انصرف الشاب في عجل... ودخلت دينا للمطعم...

كان الجو هادئاً... والأنوار خافتة... نظرت دينا يمنة ويسرة... ثم اتجهت نحو الطاولة الموجودة في أحد الأركان... والمجاورة لنافذة ذات زجاج أخضر منقوش... ثم جلست... وعندما حضر النادل طلبت منه فنجاناً من القهوة... وبعد أن وضعت قدماً على الأخرى بدأت في احتساء رشفات طويلة من قهوتها... وبعد مرور دقائق أقبل من هناك رجل طويل... يرتدي بنطالاً أسود وسترة صفراء... وتبدو عليه سيماء الهيبة والوقار... استعدت دينا لقدومه بأن عدلت جلستها... ووضعت القهوة على الطاولة بهدوء... بدأ الرجل يطالع هنا وهناك حتى أشارت له بالمجيء... ثم ابتسمت له وابتسم هو بدوره لها... وبعد أن وقف بجوار الطاولة سحب الرجل الكرسي للخلف... ثم جلس... ثم سحبه للأمام ثانية... في تلك الأثناء بادرته دينا بقولها:

- "أهلاً بك يا أبي الكاهن".

- "أهلاً يا ابنتي".

- "ذنوبي كثيرة... ولكني حتماً سأخدم الهيكل".

- "هل آن للحمل الفار أن يعود للحظيرة".

- "بل آن له أن يذبح نفسه بيده بين يدي الراعي".

قال في تأثر بكلماتها الأخيرة:

- "ولكن... كيف تثبتين لي أنك فعلاً يهودية".

- "أموالي... أموالي التي سأنفقها من أجل الله... ومن أجلكم".

حك الرجل ذراعه ذات الشعر الكثيف الأبيض... ثم قال:

- "هذه مسؤولية كبيرة".

- "وماذا عساكم تخسرون إذا عاد إليكم كلبكم الضال... إنه كلب مطيع".

ازداد تأثر الكاهن... وطأطأ رأسه... ثم قال:

- "أنت متواضعة يا ابنتي... ولكن لابد من التحري".

أحست دينا بشيء من التوتر... ولكنها بادرت بالقول:

- "أوه... التحري... وكأني مجرمة أطلب أن ألتحق بالسلك العسكري... أنا عائدة إلى الله... عائدة إلى الطريق القويم".

هز الكاهن رأسه... ثم ابتلع ريقه... وقال:

"هل لديك ما يدل على حقيقة نسب والدتك... أي شيء؟؟".

قالت دينا في حسرة:

- "أنا من بنات الكنيسة الأرثوذكسية في إيطاليا... لقد ألقتني أمي في أحضان الكنيسة بعد أن حملتني... تسعة شهور... إنها...".

لم تكمل دينا... ولكنها أردفت بدمعتين وشهقة حزينة طويلة... قال الكاهن:

- "إذن الأمر كذلك... لماذا لم تكوني مسيحية مخلصة".

- "في عروقي تجري الدماء اليهودية... إن لم تقفوا معي يا آبائي... فسأقف مع الشيطان".

طأطأ الكاهن برأسه... ثم قال:

- "وهل ستدفعين أموالاً... كثيرة... لإعادة بناء الهيكل".

- "سأدفع دمي... أنا أحلم بشيء واحد... فقط أريد أن أغمض عيني وأفتحها... ثم أجد نفسي مستلقية بجوار الهيكل... كي أعيش في الشرق... أشعر أني شرقية بطبعي".

- "أنت فتاة صالحة".

أحست دينا بشيء من السعادة... ثم قالت:

- "سيعطيكَ الله أجرك أضعافاً... وأنا... أيضاً... أنا سأمنحك من المال ما يثبت أني صادقة".

احمر أنف الكاهن قليلاً... واهتزت شفتاه... ثم قال:

- "أنت يهودية... هكذا قال لي ضميري الذي لا يكذب أبداً... بحق قدسية الهيكل... لا يكذب أحد أمامي".

مد الكاهن يده... ومدت الفتاة يدها... وتصافحا.

كان ذلك الرجل هو عمدة حي اليهود المجاور لساحة بيكاديلي... وكان هو صاحب القدرة على إثبات هوية أي يهودي ينتمي لذلك الحي أو نفيها... قامت الفتاة مستأذنة... على أن تقابله في هذا المكان غداً... وتأخذ الأوراق المثبتة ليهوديتها... وتعطيه مبلغاً مجزياً للهيكل... ومبلغاً آخر هو تقدير شخصي لجهوده.

وفي اليوم التالي... تم كل ما خططت له دينا... وطلبت من الكاهن أن يسمح لها باستئجار سكن في حي اليهود... لمدة أسبوعين... وأخبرته كثيراً عن تجارتها المتخصصة في الزهور... وأنها لولا هذه الأوضاع السياسية... لكانت ملكة تجارة الزهور في أوروبا... قام اليهودي من مقامه وهو يقول:

- "بجوار حديقة المركز... سوف تسكنين".

تم لدينا ما طلبت... وسكنت في حي اليهود في شقة صغيرة... وطيلة أسبوعين كانت تتعرف على السكان بكل لباقة... وتقدم لهم الهدايا... لقد أصبحت دينا فتاة محبوبة... وكان أكثر حديث نساء الحي عنها... وعن جمالها الأخاذ وسحنتها الشرقية الداودية الأصيلة... وهي تطمح في الرجوع إلى ذلك الأصل... إسرائيل.

المنزل الجديد

مر الأسبوعان هادئان رتيبان... وبعد انتهائهما أحست دينا أنها قد استوعبت جميع ما تريد استيعابه... عن حياة اليهود... والأهم في كل ذلك أنها اشترت منزلاً صغيراً... وكان شراء المنزل مع نهاية الأسبوع الثاني... ولحرصها الزائد كتبت ذلك المنزل باسمها ثم أسكنت فيه إحدى العائلات الفقيرة... على أن يقوم أفراد العائلة بخدمتها كلما جاءت إلى هذا المنزل... إنها هنا تبدو يهودية أصيلة... وبعد انتهاء الأسبوعين عادت دينا مرة ثانية إلى قلب المدينة... وسكنت في شقة صغيرة نوعاً ما... مكونة من حجرتين وصالون ومطبخ... وفي أثناء ذلك بدأت تُعد للدخول في المظاهرات الصاخبة التي تطالب برفع أجور العمال... لقد كتبت كثيراً عن قانون إجازة العشر ساعات... وكانت حينها تطالب اللورد شامتسبري أن يكون إلى جانب العمال... لم تشعر دينا أنها بحاجة لإضاعة وقت أطول في مثل هذه المظاهرات... مع أنها اندمجت معها بادئ الأمر... ولكنها الآن عازمة على العودة إلى والدتها العجوز... فقد اشتاقت لها شوقاً كبيراً.

اليهودية المخلصة

الأيام تنطلق بسرعة... ودينا تخْصُبُ كالإعصار البحري... بيد أن أغرب الأحداث التي صنعتها دينا عام ١٩١٧ ذلك الحدث الرهيب... حيث دخلت الفتاة متقدمة ذلك الوفد الذي يزيد عن (١٥) يهودياً من الشباب المثقفين... والمدعوين لحضور أحد الاجتماعات التحضيرية لمؤتمر الشرق الأعظم... ووقفت دينا بين الحشود المجتمعة... ثم أخذت الحديث وبدأت تتلاعب بالألفاظ... وتركز على أن الإخاء والحرية والمساواة رموز غامضة... وأن على معاشر السادة أن يفسروا ذلك الغموض... ثم حذرت من قيام دولة إسرائيل في الأرض العربية... لأن ذلك العمل يخالف نصوص التلمود... وأكدت أن دعاة الوطن الواحد إنما هم عناصر مرتزقة... تريد زج اليهود في أتون الموت دون مبالاة... ثم تحدثت عن نفسها كيهودية مخلصة... يثبت صدق انتمائها لليهودية تلك الأوراق القديمة التي عرضتها على المحفل الماسوني من قبل... أما ذلك الرعديد هرتزل فهو لا ينتمي لليهودية أصلاً، عوضاً عن أن كل المستندات التي قدمها للمحفل إنما هي مستندات مزورة... وبدأت دينا تتحدث بصوت عال... وتصب جام غضبها على الشخصيات البارزة في الحركة الصهيونية... وأنهت خطابها الحماسي بقولها... ليخسأ الكاذبون.

ونزلت بعد ذلك من المنصة... وحظيت بتصفيق الكثير من الحضور... ولكن رئيس المؤتمر أمال رأسه حنقاً... وَحَدَثَتْ شوشرة في المقاعد الأمامية التي يجلس عليها بعض المنظمين للمؤتمر.

قلب جليدي

لقد بدأ صيت الفتاة دينا يكتسح في جميع أنحاء إيطاليا... وبدأت في تكوين حزب أسمته حزب الحياة... وزارت خلال تلك الفترة صديقها الثري لوك... وكانت أكثر زياراتها له ذات طابع أخوي بعيد عن التجارة أو الصفقات... وفي إحدى

الجلسات مع الشاب ذكرت له أنها تشك فيه... وأنها تعتبره رجلاً غير سوي... ولكنه رد عليها بعنف قائلاً... إنه بدأ يستاء منها... بعد أن اكتشف أنها يهودية... لكن الفتاة ضحكت من كل قلبها... وصفعته على فخذه قائلة:

- "أنت مسكين... يا... رجل... لو لم تكن ألمانياً لأقسمت أنك عربي".

اضطرب لوك قليلاً وقال:

- "أنا لست عربياً".

- "لا يهمني هذا الموضوع الآن".

- "ولكني لم أكن أعلم أنك يهودية".

اقتربت منه قليلاً ثم حدقت في عينيه وقالت:

- "أنا لست يهودية... على كل... الأهم من ذلك أنني في حاجة ماسة لرجل يقف معي... وإن كنت رجلاً فعليك أن تقف معي وقفة رجل".

- "لم أفهم".

- "اليهود يريدون تدمير العالم، هناك مواثيق سريه... وبنود... وخطط... إنهم يرفعون دعاوى جوفاء... يغلفونها بشعارات الحرية والمساواة... وهم بدعاواهم تلك يريدون أن يدخلوا العالم في حروب دموية موحلة".

- "ومن أخبرك بذلك؟".

أطرقت دينا برأسها... ثم وضعت يدها تحت خدها وبدت وكأنها تفكر... ثم رفعت رأسها وقالت:

- "لقد قضيت عمري في صراع مع الحياة... وأنا الآن قاب قوسين أو أدنى من الانخراط في سلك المنظمات الصهيونية".

- "ولماذا تنظمين إليهم... وأنت لست منهم؟".

- "هذا هو سر لعبتي".

- "ولماذا أفصحت لي بهذا السر... ألا تخشين أن أفشيه... ما سر ثقتك بي إلى هذا الحد؟".

- "كلا... أنا واثقة بك تماماً".

- "وكيف وثقت بي ولماذا؟".

قالت دينا بكل برود وهي تشيح بوجهها:

- "لأني أعرف كل شيء عن حياتك".

قال في ارتباك:

- "ماذا؟...".

- "لا تقلق... لن أخبر أحداً".

- "يالك من لعينة... أنت تحرقين أعصابي".

قام لوك ساعتها حائراً وكان يتصنع أنه غاضب... ويتصنع أنه سينصرف... وكان ينتظر منها أن تتبعه لتراضيه... غير أن دينا لم تتحرك من مكانها... لم تمض دقائق إلا وآثار أقدام لوك تقترب من جديد نحو دينا... وعندما وقف عند رأسها قال:

- "ماذا تعرفين عن حياتي"؟.

نظرت إليه باستخفاف وقالت:

- "أرأيت... أنت لا تجيد التمثيل... لو كنت ممثلاً ناجحاً لما عدت إلي مرة أخرى... أنت بهذه الطريقة تؤكد لي سرك الغامض... وخوفك... وقلقك".

قال في انفعال:

- "سوف أفشي سرك... وأخبر الناس أنك تخادعين اليهود... حينها سيريحون الدنيا من رأسك".

- "لست أنا من يخاف اليهود... هذا أولاً... ثانياً لن يصدقك اليهود... لأن مستنداتي موثقة... ثالثاً لو فضحت سري لفضحت سرك".

- "أنت متوحشة تلعبين بأعصابي".

- "هل تساعدني"؟.

- "وماذا تطلبين؟".

- "اجلس أولاً... وستعرف".

جلس لوك حائراً... في حين أردفت دينا:

- "أريد أن أتعرف على مصطفى كمال".

- "التركي".

- "نعم... التركي".

- "إنه ضابط يحمل أفكاراً ثورية".

- "سأصل من خلاله".

- "يا لك من امرأة نمرة".

- "قيلت لي هذه الكلمة من قبل ذلك كثيراً... ولكني لا آبه بها".

- "إذن أنت متمرسة في الإجرام".

- "ربما لست مجرمة... ولكن حتماً أنا أملك قضية عادلة أسعى من أجلها".

- "هل أنت... هل أنت...".

- "هل أنا ماذا؟".

- "هل أنت مسيحية... أم أن دينك دين آخر؟".

- "ولماذا هذا السؤال... ألم تقل إني يهودية من قبل".

- "لماذا تراوغين دائماً... ألا تستطيعين أن تجيبي مباشرة... ولو لمرة واحدة".

- "ربما لأني أستخف بك... وربما لأني نمرة... فقط لأني نمرة... كما تقول.

- "أنت مملة... وتقتلين دون شفقة".

- "لقد مات الكثير ممن هم أفضل منك".

- "هل أنت من قتلهم".

- "بالطبع... نعم... لقد تلطخت يدي بدماء الكثير".

- "أنت تمزحين".

- "ومن قال لك إني أتكلم معك بجدية؟".

زفر زفرة طويلة.... ثم قال في هروب من هذا النقاش:

- "سوف أتعاون معك... ولكن بشرط... أريد أن أعرف عنك كل شيء".

- "نعم... ولكن على أن أقول لك كل ذلك... في الوقت المناسب... الوقت الذي أختاره أنا".

- "يا لك من بارعة... لو لم أكن متأكداً أنني الآن لا أحلم... لما صدقت أن امرأة ذات شخصية مذهلة تستطيع إخضاعي".

- "لا تقلق... ستكون رابحاً بتعاونك معي".

العودة إلى قلب الحذاء

كانت دينا مطرقة للأرض... وهي تنصت بخشوع لبوق القطار المتجه من ميلانو إلى روما... وتعزف سيمفونية إبحار هادئة في تاريخها الطويل... المليء

بالأحداث الرهيبة... لتؤكد أنها بالفعل ليست فتاة عادية... وكانت تعترف بذلك أمام نفسها...

ولكن دينا أخيراً استسلمت لدموعها الغزيرة... التي بدأت تنهمر دون إذن... إنها جالسة على المقعد المتوسط في إحدى عربات القطار المنطلق... ولكنها تفكر وتتساءل... لماذا يلهث الإنسان وراء كل هذه الصراعات... الآن هي متجهة إلى قلب الحذاء... إيطاليا... لا يهم شكل إيطاليا كيف يكون... إن كانت بالفعل أشبه بحذاء جوفاء... أم أشبه برأس الذئب... المهم لدى دينا أن هذه الجزيرة تتوغل في أعماق البحر الأبيض... الذي يحاط في جهته الأخرى برمال الشرق... أخرجت دينا الإنجيل من حقيبتها الجلدية زهرية اللون... وبدأت تتصفح أوراقه في خشوع... كم هي مسؤولية كبيرة تلك المسؤولية التي عزمت على تحمل أعبائها... وبعد ثلاث ساعات توقف القطار... ونزلت دينا... واستأجرت عربة بسائقها... إنها الآن في طريقها جهة الفاتيكان... أوه يا روما... كم أنت مهد للحضارات العريقة في قلب الدنيا... وكم هي قوية تلك الدولة التابعة في قلبك والمتبوعة في آن معاً...

شرعت دينا في استئجار شقة صغيرة... وبعد أن استقر بها الحال في شقتها المطلة على جدول (ميناردون) كان عقلها مشغولاً بوالدتها... لذا أرسلت رسالة تطلب منها الحضور ثانية من نابولي... وخلال تلك الفترة فتحت دينا مكتباً تجارياً... واستأنفت إدارة شؤون تجارتها الوليدة في روما.

زيارة خاطفة

في ذلك الشارع العريض... من الجهة الغربية لبرلين... يسير (لوك مارلي)... الشاب الثري... صاحب مصنع العطورات العملاق الذي فتحه منذ مدة قصيرة... بالتعاون مع دينا... وتسير بثقة بجواره... الفتاة دينا... إنها تتكلم معه بالإيطالية السريعة... وتستمع له وهو يتكلم بلغته الإيطالية الثقيلة... المطعمة بالكثير من الكلمات الألمانية... لم يطل طريق سيرهما... لأن المنتزه ذا القباب الثلاث... المطل

من جهته الجنوبية على النهر الصغير في بلدة (تورا رابلس) كان قريباً... وسرعان ما دخلا وحجزا مقعدين متقابلين.

كانت دينا تشرح بثقة قدرتها الكبيرة على ابتكار أنواع جديدة من الزهور... وتناقش مع الشاب قدرة مصنعه على تحويل زهورها إلى عطورات نسائية صارخة...

ولكن الأغرب من ذلك كله نظراتها إلى لوك بتوجس... كلما بدأ في أحاديثه الفلسفية الغامضة... لقد أظهرت له شيئاً من عدم الارتياح لشخصيته... وسرعان ما أخذت معه موعداً في مكتبه صباح الغد... كي تنهي معه الصفقة... فهي غير آبهة بترهاته تلك عن الفلسفة... وعن آراء التنويريين...

أحس لوك بخيبة أمل... في حين حملت دينا حقيبتها وانصرفت خارجة من المنتزه... بعد أن ألقت ابتسامة غريبة على وجه الفتى.

وفي صباح اليوم التالي كانت دينا تدخل مكتب (لوك مارلي)... حاملة معها كل بساطتها... ثم تلقي تحية عابرة على الفتاة التي تعمل مديرة لأعمال لوك... استقبل لوك دينا بكل ترحيب... وعندما جلست أمامه ابتسمت قائلة:

- "لقد كنتُ حادةَ المزاج ليلة البارحة".

- "لا عليك... هل نمت جيداً؟".

- "هناك في أحد الفنادق... أنا أعشق الوحدة".

- "الوحدة... وهل أنت متزوجة".

- "أظن أن لك حدوداً... يجب أن تقف عندها".

- "وهل قلت خطأ ما".

- "ماذا عن الفتاة التي في الاستقبال؟".

- "أوه... إنها جوليا فتاة طيبة".

- "هي يهودية... أليس كذلك؟".

- "أسئلتك مذهلة... أنت لا تسمحين لأحد بالتفكير".

- "من الخطر أن يكون في مكتبك يهود".

- "هل أعتبرك تفكرين بطريقة عنصرية وما المشكلة في اليهود... إنهم أناس منتجون... تصدقين... كنت سأتزوجها يوماً ما؟".

- "أنت وما تشاء... ستكون سعيداً بذلك... ماذا عن عائلتها؟".

- "راءول... عائلة راءول... مكونة من أبيهم العجوز والفتاتين العانستين".

- "عليك أن تتزوج بهما معاً".

- "هـ... هـ... هـ...".

في أثناء ذلك دخلت الفتاة (جوليا)... كانت تحمل أقداح القهوة... وضعت فنجاناً أمام دينا... ووضعت الفنجان الآخر أمام لوك... قالت دينا في خفة وسرعة بديهة:

- "هل لي أن أتعرف عليك يا حسناء؟".

ابتسمت جوليا قائلة:

- "أتشرف بذلك... أنا جوليا".

- "أنت ذكية وجميلة".

- "شكراً سيدتي".

انصرفت جوليا... وابتسمت دينا في شراسة وقالت:

- "هل أنت مسيحي متدين؟".

- "لا... لا عليك من ذلك".

ركزت دينا نظراتها في وجه لوك أشبه بعيني صقر... ثم أجالت بصرها في مكتبه... مما جعله يصاب بدهشة كبيرة... ثم فاجأته بالسؤال:

-"هل أنت ألماني... أم أنك تكذب؟".

ابتلع لوك ريقه... ثم تقدم بوجهه نحوها قليلاً وقال في توتر:

"أنت امرأة مذهلة... تماماً كالنمر العربي".

أغمضت دينا عينيها... ثم أعادت ظهرها للوراء حتى أسندته على ظهر الكرسي... ثم شهقت شهقة طويلة... وطال إغماضها لعينيها حتى شعرت ببلل الدمع يتدحرج على خديها... ولكنها قامت في صلابة وقالت:

- "النمر العربي... لا يبكي... أبداً".

دهش لوك... وأحس أن توتره يزداد... ولم يعد قادراً على تركيز بصره في دينا... خاصة بعد أن رأى دموعها... ولكنها أردفت قائلة:

- "ربما يبكي النمر العربي... إذا كان منزوع الأنياب... ومنزوع الأظافر... ولكنه على كل حال... قادر على الزئير... وزئيره كفيل بطرد أعدائه".

سحبت دينا حقيبتها... في حالة من الذهول تحيط بالفتى لوك... ثم فتحتها وأخرجت القلم... وتناولت عَقْدَ تصدير كميات الورد... ثم وقعته بسرعة... وانصرفت.

لقد تركت الفتاةُ لوك في مكتبه وهو في شبه دوامة... ولكن مشاعره تجاه هذه الفتاة... ذات الأطوار الغريبة بدأت تلتهب... إنها مجموعة هائلة من الأسرار... ولكنها حتماً إنسانة جديرة بالاحترام... والحب أيضاً.

ومع المساء في ذلك اليوم كان لوك يركب عربة جميلة يقودها حصانان قويان... وبجوار فندق النهر توقفت العربة... ونزل لوك... لقد عزم على تقديم زيارة للفتاة الغامضة بالنسبة له... والتي تذكره دائماً بالنمر العربي... (دينا)...

وعندما وصل للاستقبال... سأل عن حجرتها في الفندق... وبعد أن أخذ الجواب... صعد الدرج فوراً بمجرد معرفته لرقم الحجرة... كان الوقت حينها قد تجاوز الغروب بقليل... وعندما وقف أمام الباب أحس أن قلبه يدق بخفقان قوي... لم يكن لوك ليشعر بشيء كهذا من قبل... لو لم يكن ليقابل الفتاة المدهشة عما قليل... ولكنه تجاهل خفقان قلبه وطَرَقَ الباب... لم يسمع لوك صوت إجابة من الداخل... الغرفة خاشعة هادئة... طرق الباب مرة أخرى... انتظر قليلاً... ثم أعاد ترتيب ياقته... ومسح ذقنه وشاربه الحليقين... ثم طرق الباب للمرة الأخيرة... لم يجد صوتاً يدل على وجود دينا... وعندما عزم على النزول... بدأ صوت قدميها بسرعة وهي تتجه للباب... وأخيراً انفتح الباب عن وجه رهيب... يحيطه الخمار الأسود... صانعاً منه قمراً في كبد السماء المظلمة... وعينين خاشعتين كلؤلؤتين جميلتين كبيرتين مطعمتين بياقوتتين سوداوين صغيرتين... ابتسمت دينا قائلة:

- "أهلاً".

لوك أحس بشعور غريب... لقد أحس أنه يريد أن يبكي... أحس بدوار رهيب يجول برأسه... كاد يسقط... ولكن دينا أسندته وأمسكت بيده... أحس أن يدها ليست كيد فتاة... إنها يد قويه صلبة... ولكنها أدخلته للداخل وأجلسته على أحد المقعدين المجاورين للسرير... ثم باغتته بالسؤال:

- "لماذا أصابك الدوار؟".

- " لا... لا... فقط... لقد عدت للوراء... وتذكرت شيئاً".

نظرت دينا لنفسها... ثم قالت:

- "أوه... هذا الخمار... لا عليك منه الآن... لماذا أتيت إلى هنا؟".

- "أنت سر رهيب... يزداد غموضاً مع الوقت".

- "وتريد أن تعرف السر؟".

- "نعم".

- "لن تعرف السر... لأنك تمثل سراً أكبر بالنسبة لي... ولكني لست متهورة مثلك... أليس لديك سر كبير يا لوك... وتخفيه عن الناس؟".

اضطرب لوك... وبدا وجهه محمراً... ثم أخرج منديلاً من جيب قميصه... وبدأ يمسح العرق الذي بدأ يتفصد على جبينه... ولكن دينا فاجأته بقولها:

- "هل لك أن تكون شجاعاً يا لوك... وتخبرني عن سرك؟".

- "هيا... هيا... أنا سأذهب الآن... علي أن أذهب".

ابتسمت دينا... وألقت بنظرة صارمة نحوه... ثم قالت:

- "ربما كنتُ في حاجة إليك... إنها خدمة بسيطة... أريد منك المساعدة في التعرف على العائلة اليهودية التي أخبرتني عنها... أريد ذلك في أقرب وقت... هل ستكون جاداً في معاملتك معي؟".

- "لا بأس... ولكن اليهود لهم أفكار قد لا تعجبك".

العائلة اليهودية

وفي مساء اليوم التالي... ذهب لوك ودينا لزيارة عائلة (راءول)... لقد كانت الجلسة خفيفة هادئة... سألت دينا أسئلة كثيرة... وبدت امرأة مثقفة... ولكن ثقافتها لا تنصب في اتجاه معين... لقد حازت بالفعل على إعجاب الجميع... وفي النهاية أخذت موعداً آخر بزيارة قادمة.

أستاذ جامعي

ومع صباح اليوم التالي... كانت دينا تجلس في بهو الفندق... وأمامها يجلس (جيوليفر ليك)... إنه بعينه ذلك الأستاذ الذي حاول سرقة أبحاثها في الجامعة... عندما كانت في آخر بنود تجربتها لتهجين البوقيه مع الريحان... وهو الآن يجلس أمامها في هدوء... وهي تتحدث معه عن قضايا كثيرة... ولكنها ركزت على

السلطان العثماني الذي جُرِّد من جميع مهامه منذ سبع سنوات... والأعمال التي يقوم بها الشاب مصطفى كمال في سيلانيك... والأعداد الكبيرة من الشبان اليهود الذين اجتمعوا حوله وخاصة من يهود الدونمة... وكيف أنه صنع من نفسه أسطورة بعد أن ساعده الحظ في حمل اللواء من جديد... بعد أن كادت فرقة ستيڤورد البريطانية تُتم استيلاءها على تل (أنافرتا)... ذلك النصر على يد مصطفى كلف البريطانيين (١٢٠) ألفاً من القتلى والجرحى.

كانت دينا تتحدث بثقة... في حين كان "جيوليفر ليك" ينصت لها... ثم أخرجت أوراقاً ذات أحجام متوسطة ... وبدأت تكتب أسماء رجال وأسماء نساء... وأسماء أحياء ومدن... وانتهت الجلسة تلك على أثر اتفاق على موعد جديد... لأن ريحانة كما زعمت تريد مقابلة شخصيات يهودية ... وسيقوم سامول ليوران بتقديمها لهم.

لم يطل بقاء دينا في برلين... لقد عادت من جديد إلى إيطاليا... هناك تدار جميع مصالحها بمأمن عن الحرب... بالطبع إلى حد ما... عاشت دينا حياتها شبه الطبيعية... إلا أنها أصبحت تتنقل كثيراً لزيارة أفراد أو أماكن.

افتتاح المركز اليهودي

مرت خمسة أشهر على استقرار دينا في روما... وازدادت أعمالها التجارية نجاحاً... إلا أنها مشغولة الآن بأمر آخر... إنها تُعِدُّ لفتح مكتب ثقافي لمناصرة اليهود المستضعفين في العالم... ولديها مشروعها الكامل المدون على الأوراق... ولكنها في حاجة ماسة لموظفين من نوع خاص.

استمر بحثها عن موظفين مخلصين للقضية اليهودية مدة ثلاثة أشهر... وعندما أنهت هذه المدة في البحث... فتحت المكتب... إنه مكتب في وسط روما... وهو مطل على ميدان كولونا... وكان يوم الافتتاح يوماً عامراً... حيث وزعت الإعلانات في الشوارع المجاورة... واجتمع مع غروب الشمس قرابة ٣٠٠ زائر... وكان المركز يحوي ثلاث حجرات للكتب القديمة... التي تؤصل تاريخ اليهود وهويتهم... وثمة حجرتان

معدتان للقراءة أو الكتابة... وحجرة كبيرة للاجتماعات مجهزة بطاولة مستطيلة وخمسين مقعداً... وفناء متسع... وضعت في إحدى زواياه منصة خشبية بخمس درجات.

بدأ الاحتفال بافتتاح المركز بعد أن دقت أجراس كنيسة القديس بطرس دقات متتالية... وكانت البداية مثيرة عندما وقفت الفتاة دينا على المنصة... وصفقت بيديها ثم قالت:

- "ها هي واجهة القرن الجديد... القرن العشرين".

وأشارت بيدها للأمام... ومن هناك بدا وجه رجل في الستين من عمره... وهو يتقدم نحو المنصة... أعادت دينا التصفيق وقالت:

- "هذا هو الأسقف جون ريلو... إنه أحد أهم أساقفة كنيسة الأبرشية... وهو الآن يرتقي منصة المعهد الثقافي اليهودي... في إحدى مفارقات هذا العصر... عصر التسامح... والمحبة... من أجل الله... ومن أجل الإنسان".

ضجت القاعة بالتصفيق... إلا أن كثيراً من اليهود المتشددين... كانوا يديرون نظراتهم في توجس... وبدأ بعضهم ينظر لبعض... هل ثمة تدبير من نوع ما... أو مؤامرة أو حيلة... ولكنّ افتتاح الأسقف لكلمته جعل الجميع يتوقفون عن بحث ما وراء الأمور... وجعلهم يستمعون بإصغاء كامل لما سيقوله الأسقف... كان الأسقف واثقاً من نفسه عندما قال:

- "إما أن نكون... وإما أن لا نكون... ليغفر لنا الرب الذنوب... يداً بيد... وسنكون بعدها أقرب لملكوت القدسية... أنتم إخوان لنا وكلنا عيال الرب".

ضجت القاعة بالتصفيق... ثم قامت دينا وهي تبتسم وقالت:

- "المنصة الآن ملك الحاخام (غيرو هام)".

قام الحاخام اليهودي المكتنز وقاراً وهيبة... وصعد المنصة في هدوء... ثم قال:

- "نشكر الفتاة المخلصة... والثرية... دينا... على مشروعها الكبير في إحياء ثقافة الهيكل... إنها باحثة كبيرة... وهي (دكتورة) في علوم النبات... جميعنا يفتخر بها... ونحيي انتماءها لإبراهيم وأبنائه... ونرجو أن تكون قدوة حسنة لكل يهودي مخلص لقضيته... ونشكر الأسقف جون على تشريفه هذا الاحتفال".

أكمل الحاخام كلمته بأن رفع يده ثم نزل... وصعدت دينا خلفه في خفة ودعابة وهي تحرك يدها... وبدت صورتها الجذابة التي تجسدت في بسمة صادقة اندهش لها الجميع... ثم قالت:

- "شكراً للجميع... وشكراً لله... سوف أقدم لكم فكرة مختصرة عن هذا المركز الثقافي...".

أعادت دينا إصلاح غطاء رأسها ثم قالت في دعابة:

- "نعم... ربما تساءل البعض عن هذا الغطاء... شيء من العراقة أن أبدو برأس غير حاسر... أنا بهذا أتعاطف مع نسائنا فيما قبل الثورة... ولكن لا عليكم من شيء كهذا... إذا كان الصلع قد تسلط على رأسي من الخلف... هـ هـ".

توقفت دينا قليلاً... ثم أكملت:

- "نعود مجدداً لموضوع المركز... إنه أشبه بمعهد علمي متخصص في علوم اللاهوت المتعلقة بمعتقداتنا نحن اليهود... علينا أن نكون مؤمنين حقاً كما أراد الله... لقد أنهك الظلم كاهل اليهود... وعلينا أن نخرج بثقافة جديدة تجعل جميع شعوب الأرض تحترمنا... وتتخلى عن الإهانات والظلم التي تنزلها علينا... يجب على الجميع أن يتوقف عن ظلمنا واحتقارنا... ولكننا معنيون بالدرجة الأولى بالموضوع الأهم... لماذا يظلمنا الناس ويحتقروننا... هل يملكون المبرر لذلك أو الدافع له... وهل نحن نساعدهم على ذلك... وهل في ذلك شيء من عند أنفسنا... هل هناك أعمال من نوع ما كلما ارتكبناها منحنا العالم مبرراً لاحتقارنا... وأيضاً ما هي الرؤية التي سنستشرفها لمستقبلنا... خاصة وأننا نسمع ارتفاع صوت تلك التمتمات التي تنبعث من أجل إقامة دولة تجمع شتات اليهود... بل إن تلك التمتمات وصلت

لمسامع البريطانيين الذين يحكمون الشرق... ولكني أتساءل كيهودية مخلصة... هل من صالحنا أن نَتَقَطَّع أوصالاً من أجل دولة لنا في قلب الشرق... لقد جمعت مكتبة ضخمة ومتخصصة... وسيكون كل ما فيها قرباناً من أجل الحقيقة... ومن أجل الصعود نحو الطريق المستقيم... وكلنا نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ابتسمت دينا وصفق الحضور وتمتم الكثير ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

رفع أحد الحضور في تلك الأثناء يده مستأذناً يريد الحديث للجماهير... أشارت دينا له بالصعود... وعندما قام... بدا وكأنه كان غاضباً... ثم اعتلى المنصة وبدأ قوله:

- "المشروع اليهودي مكتمل... لم يبق فيه سوى التطبيق... ولا أظن أحداً من صنف الدكتورة دينا سيضيف لنا جديداً... لقد أجمعت الدراسات على أنه لا حل لقضيتنا التاريخية إلا بالجد والمثابرة... وبأن تمد إحدى الدول المخلصة لحقوق الإنسان يدها من أجل شعب الله المختار... والدولة الأكثر إخلاصاً لحقوق الإنسان هي بريطانيا... وهذا المركز سيعيد البحث في قضايا ليست جوهرية... نحن في الحقيقة سائرون... ولن نتوقف من أجل شخص أو أشخاص... ونحن لسنا بحاجة للتوقف كي نعيد بحث قضايانا المسلَّمة... هذا شيء من الهروب للخلف... سوف يقوم الهيكل على أرض فلسطين... نحن الآن في سباق مع الزمن... وإن كان هناك شيء أولى بأن يهدم على رؤوس من بداخله فإنه هذا المركز".

ارتفع الضجيج... وارتفع صوت الرجل الواقف فوق المنصة... وهو يكرر كلمته الأخيرة... ثم أكمل حديثه بعد أن هدأ الصوت.

- "هذه مؤامرة... أو دسيسة... هناك أمر ينسج في الخفاء".

توقف الرجل عن الزعيق هنيهة... ومن هناك ابتسمت دينا وصفقت بحرارة وهي تتقدم نحو المنصة... وصفق قلة من الحضور... وصعدت المنصة... في حين انصرف الرجل... ثم قالت:

- "نشكر الأستاذ على هذه الكلمات... هناك مشاعر جياشة وحيوية... يحملها كل يهودي... نحن نشكر كل يهودي مخلص على مشاعره الجميلة... ونمتن له بها... ولكني أقول هنا وأؤكد... إن أياً منا لا يستطيع أن يدير العالم... أو أن يُسَيِّره على هواه... بمجرد رفعه لصوته... في الحقيقة إن العالم له طريقته الخاصة في السير... فالعالم يسير دون أن يأبه بالأصوات المرتفعة... والحقيقة تعشق نفسها... وتعشق من يبحث عنها بتواضع وهدوء... وهذا المركز هو معهد علمي من أجل أجيالنا التي لها الحق في أن تتعلم بكل حياد وموضوعية... ولن نوقف التعلم لأن أفكاراً معينة قد أخذت وضعية المسلَّمات في أذهان بعض كبار السن... فربما لم تصل هذه الأفكار إلا لمستوى الهرطقة لدى جيل هو أشد تغيراً... كلما قرأ كماً أكبر من الحقائق... وهذا المركز يرحب بالأستاذ الفاضل الذي يشعر أنه وصل لدرجة عليا من اليقين بمسلَّماته... ولكنه يرحب بدرجة أكبر بأولئك الباحثين عن الحقيقة... وكلنا لازلنا أطفالاً في محراب الحقيقة... أما الأستاذ فأظنه قد شاخ".

قالت ذلك وهي تبتسم... ثم توقفت لشرب قليل من الماء... وعند ذلك ضجت القاعة بالضحك والتصفيق... وبدأ البعض يهتف:

- "نعم للبحث عن الحقيقة... نعم للبحث عن الحقيقة".

لكن شعوراً عارماً بالارتياح بدأ يساور الجميع جهة هذه الفتاة اليافعة... التي تحمل درجة الدكتوراه... ولها أطروحتها الفلسفية... أنهت دينا الحفل بقولها.

- "لمدة أسبوع كامل... سيتم تنظيم العديد من المحاضرات والمناظرات... والآن قوموا لتناول الكيك والمرطبات".

مسحت دينا عرقها بمنديل أخضر مقلم بلون فستقي... ثم جلست على مقعد قريب... فيما قام بعض العاملين بتوزيع قطع الكيك مع أكواب العصير الطازج.

ومن هناك... تقدم نحو دينا فتاة وشاب... لم يجاوزا سن العشرين... وصافحاها بكل تقدير... في حين قالت لهما:

- "اجلسا...".

وعندما جلسا قبالتها قال الشاب:

- "سيدتي الدكتورة... نريد أن نخدم القضية التي تطرحينها... لقد فكرنا كثيراً... هذه خطيبتي كاري... وأنا أورفيل... في الحقيقة نحن نريد الزواج في أقرب وقت... ونحتاج لعمل... ويبدو أن تصوراتك عن موضوع اليهود أقرب للحق".

قالت الفتاة:

- "لقد أدهشني ردك اللذيذ على الرجعي المتطرف".

قالت دينا:

- "ولكننا سنظل أطفالاً في محراب الحقيقة! نحن وهو".

المحررة الجديدة

دينا جالسة في مكتبها في مركز الثقافة اليهودية... إنها تقضي الساعات الطوال هنا... وهي تتنقل بين الكتب والمراجع كالنحلة... ولكن اهتمامها بالدوريات ازداد هذه الأيام... إنها تتابع النشرات التي تعدها الجامعات ومراكز البحث... وهي تبحث عن الشخصيات البارزة... ولديها الآن قائمة بأسماء المفكرين والسياسيين والأدباء... وهي تريد التعرف عليهم جميعاً... وتفكر في استضافة الكثير منهم كأعضاء شرف في هذا المركز... رؤية دينا للمستقبل واضحة... وخطتها مدروسة... ولكنها على عجل من أمرها... فهناك أمور جسام تجعل العالم يتقلب أشبه بالبركان.

مدت دينا يدها... ثم تناولت مستندات صغيرة مدبسة... وضعتها أمامها... وبدأت تدقق فيها... ثم أعادتها لمكانها وهي تقول:

- "الشخصيات الهامة يجب تعريفها بنشاطات المركز... خلال الثلاثة أشهر القادمة".

مدت دينا يدها للخزانة... ثم أخرجت ورقة طويلة مكتوب في أعلاها (أجور الأساتذة العاملين لدى المركز) كتبت دينا ملاحظة في الأسفل.

(تُرفع الأجور لجميع العاملين بنسبة (٥٠٪)...

قامت دينا... واتجهت خارجة نحو مكتب مديرة أعمالها... كانت الفتاة كاري والشاب أورفيل يجلسان في مكتبين منفصلين... وهما الفتاة والشاب نفساهما اللذان عرضا نفسيهما للخدمة في المركز ليلة افتتاحه... دخلت دينا على كاري ثم ناولتها الأوراق وهي تقول:

(أكملي مراجعة هذه الأوراق... لو تكرمت).

الفَرَس

دينا تخرج من دورة المياه ذات الجدران السماوية اللون... وهي تغطي وجهها بالمنشفة البيضاء... وسرعان ما تُجري منشفتها الصفراء على الوجه الطويل الرطب... ثم تسحب منشفتها للخلف لتجفف شعرها المبتل... ثم تضع منشفتها على الأريكة الخضراء... وتطقطق قدماها على الأرضية الخشبية وهي تتجه نحو المطبخ... حتماً ستكون الوجبة سريعة كحال وجبة كل يوم...

بيضتان صغيرتان من سلة البيض... تدنيهما دينا من أذنها الحبة تلو الأخرى... ثم تهزهما بخفة... ليست البيضة فاسدة...

أوقدت دينا النار وكسرت البيضتين في المقلاة... وشيء من الخبز المجفف... وكوب القهوة... أهم شيء هنا القهوة.

وفي أثناء التهام دينا لآخر لقمة في الصحن الصغير... فكرت في آخر القرارات التي عليها أن تتجزها.

- "بالتأكيد... شراء فرس... أوه... نعم".

دينا تحتاج لفرس ذات لون مميز... إن التنقل بالعربية يكلفها وقتاً أطول... والتنقل بالقدمين لم يعد مناسباً لفتاة الأعمال الإيطالية من الطراز الخاص.

أسماء لامعة

أنهت دينا فطورها... وقامت بسرعة... وحملت حقيبتها الصغيرة... وخرجت... وبعد وقت ليس بالطويل... كانت دينا تدخل مع بوابة المركز... ألقت التحية على الفتاة الجالسة بين أوراقها... ثم تقدمت نحوها وقالت:

- "هنالك عمل هام... علينا أن نقوم به خلال الأيام القادمة".

قالت الفتاة:

- "أنا في خدمتك سيدتي".

قالت دينا وهي تولي ظهرها جهة الفتاة:

- "أرجوك... اتبعيني".

قامت الفتاة... وتبعت دينا... في حين دخلت دينا لمكتبها... وعندما جلست على المقعد... قالت وهي تضع كفيها تحت ذقنها:

- "لقد فكرت ليلة البارحة... وتبادر لذهني فكرة أظنها جيدة".

مدت دينا يدها ثم أكملت:

- "اجلسي...".

ثم أردفت بعد جلوس لفتاة:

- "علينا أن نربط المركز بعلاقات ذات مستويات رفيعة... علاقات متجهة في جميع الاتجاهات... نحن نريد حضوراً عالمياً للمركز".

- "لم أفهم يا سيدتي".

- "سوف نمنح عضوية الشرف لشخصيات بارزة من داخل إيطاليا... ومن خارجها... وسيكون هناك امتيازات من نوع ما... لأولئك الأعضاء... مثلاً... تذاكر مجانية في البواخر التي تقلهم من وإلى المركز... هدايا عينية... استضافة في فنادق مميزة... حضور محاضرات المركز أو إلقاء محاضرات فيه... بالطبع سنقدم لهم مكافآت مناسبة".

- "لقد فهمت ما ترمين إليه... ولكن هل سيكون للمركز عائد مادي من هذه العضوية؟".

صمتت دينا قليلاً ثم قالت وهي تلف شفتها:

- "كلا... المركز يدفع... لا ليكسب... ولكنه يحمل أعباء قضية اليهود".

- "أنت عظيمة يا سيدتي".

"أرجو ذلك... إن قضيتنا معاشر اليهود موغلة في القدم... لم تمتد إلينا يد المساعدة... منذ سنوات التيه... ولكن قضيتنا اليوم ستزداد تعقيداً بتلك الأوهام... وطن واحد... هذا ليس وطناً... وإنما هو أكذوبة كبيرة... إنه الخطوة الأولى في طريق إبادتنا... كل شعوب الأرض تكرهنا... ولأننا عشنا متغلغلين بين الشعوب... فقد كان ذلك سبباً في بقائنا... الكارثة كل الكارثة لو اجتمعنا في دولة واحدة... ذلك سيكون هو بداية نهايتنا... ستحرقنا الشعوب كلها في ذلك التنور المزعوم وطناً... سوف نكون محطاً لأنظار الحاقدين... وستطبق علينا أسنان الكماشة".

- "ولكن أدعياء الصهيونية لا يفهمون ذلك".

- "لذا نحن نريد أن نفتح عيونهم... لأمر هو أشد وضوحاً من الشمس".

- "هل تتوقعين أنهم سينجحون"؟.

- "ربما نجحوا في البداية... وربما استمروا لعشر أو عشرين سنة أو مئة سنة... ولكنهم إن استمروا سيتلاشون حتماً... سيُسْحقون... وهذا ما أخافه".

هزت الفتاة رأسها... في حين مدت دينا يدها بورقة كتبت فيها مجموعة من الأسماء اللامعة في أوروبا... ثم قالت:

- "هذا الاسم مهم جداً... هيلا الهيلي... يهودي متدين... وقد جال بلاد العرب في الحملات الاستشراقية... ثم استوطن هناك في بلاد الشام... يجب أن تصله الرسالة في أقرب وقت... بالطبع مع بريد البواخر المسافرة لهذا الأسبوع... وأيضاً سيكون مع الرسالة هدية تليق بعلمه... وأيضاً... صاحب هذا الاسم... روزولث... روزولث هيلا الهيلي...اسمه الحقيقي شلوم... لقد غير اسمه".

نظرت دينا إلى كاري بتعجب... ثم أكملت:

- "نعم لا تندهشي... إنه ابنه...الأب يهودي متدين... وابنه ملحد... هـ... هـ... ولكننا حتماً سنكسب أحدهما... كلاهما يمثلان لي شيئاً مهماً... أما بقية الأسماء فحتماً ستصلهم الرسائل بسهولة".

المجلة

خرجت دينا من مكتبها نظرت إلى كاري... وقالت في اهتمام... هناك موضوع هام... أحضري لي قدحاً من القهوة... أنا أريدك في الداخل... لم يطل الوقت... لقد جاءت كاري تحمل القهوة... وضعتها أمام دينا... ثم جلست... في حين وقفت دينا بهدوء... ثم تقدمت نحو الشرفة الزجاجية... وبدأت تطالع الشارع الممتد... وتطالع أولئك الغادين والرائحين... بعد ذلك قالت:

-"المجلة... المجلة التي يصدرها المركز... إنها الخطوة الأهم في طريق قضيتنا اليهودية العادلة... سوف يكون العدد الأول قادراً على عرض فكرتنا بكل وضوح".

قالت كاري:

- "تفكرين في إصدار مجلة؟".

قالت دينا وهي تبتسم:

- "نعم، إنها مجلة... سوف تكون خطوتنا التالية هي إصدار مجلة... وسيكون لها طابع خاص... إنها مجلة فكرية فلسفية... تهتم بالمناظرات بين الأديان... وتهتم بتأصيل الفكر اليهودي الحقيقي... نحن شعب كتب الله علينا أن نعيش مختلطين بالشعوب... دون أن يكون لنا كيان مستقل... لأن أي مكان يجمع شتاتنا يكون هو ذاته المكان الحتمي لإبادتنا.

- "صدقت دكتور".

- "أنا أحتاج لمجموعة من المحررين والكتاب... سوف أوكل لك الاتصال بهم... لقد اجتهدت في وضع أسماء لكتاب أظن أنهم قادرون على خدمة قضيتنا... هذا العمل سيستهلك وقتاً... لست أدري ماذا سأفعل... لقد اتفقت مع صديق لي يملك مطبعة ممتازة... وأريد أن يصدر العدد الأول من المجلة خلال هذا الشهر... في نهايته بالطبع".

تغير لون كاري قليلاً... وبدا وكأنها تريد قول شيء ما... لقد لاحظت دينا ذلك؛ لذا قالت:

- "ماذا بك".

- "لا شيء سيدتي... ولكن... أنا أعرف مجموعة من الكتاب الممتازين".

- "صحيح... تعرفين كُتاباً؟... وكيف تعرفت عليهم؟".

- "أنا يا سيدتي... أنا أهتم بالكتابة السردية أيضاً".

- "أوه... إذن أنت كاتبة".

- "ربما...".

- "هذا رائع... كاري... رائع جداً... ولكني أحتاج إلى محررين مميزين... وكتاب مبدعين... سأكون قادرة على دفع أجورهم... وأجور تشجيعية أيضاً... لست أدري عن مستوى كتاباتك".

قالت كاري في اضطراب.

- "أنا يا سيدتي... أنا قادرة على رصف الكلمات بطريقة شيقة".

قالت دينا في اهتمام:

- "صحيح... هل أنت واثقة مما تقولين... هل تجيدين الكتابة باحتراف".

- "بالطبع".

- "وأي نوع من الكتابات تجيدين".

- "أنا أجيد سرد القصص... والحكايات".

- "جميل جداً... هذا شيء رائع... وبما أنك فتاة موثوقة... وتحملين الأفكار التي يتبناها المركز... اعرضي عليَّ شيئاً من كتاباتك".

أسرعت كاري نحو مكتبها... وأخرجت مجموعة من الأوراق التي يمسكها دبوس واحد... ثم عادت وقدمتها للدكتور دينا... نظرت دينا في تعجب... ثم ابتسمت قائلة:

- "أنا الآن سأقرأ ما كتبتيه... حتماً سيعجبني... أتمنى لك التوفيق".

جلست دينا على مكتبها... بعد أن طلبت من كاري إقفال الباب خلفها... خرجت كاري لتبقى في مكتبها... إنها تتلهف وتترقب... عن أي شيء يا ترى ستسفر هذه الخلوة للدكتور دينا... داخل مكتبها.

في الداخل كانت دينا تقرأ وتتعجب... مقال مطول عن الظروف الغامضة التي قتل فيها زعيم مقدونيا... كان الأسلوب أقرب إلى الخيال السابح المطعم بوميض من الواقع... بيد أن الانطباع الذي انطبع في ذهن دينا نحو المقال كان انطباعاً حسناً... وبعد نصف ساعة خرجت دينا وهي تبتسم... ثم قالت لكاري:

- "أنت كاتبة رائعة... سوف تقومين بتحرير أهم مقالات المجلة... مقالات تصف المناظرات داخل المركز وتلخِّص ما فيها... سوف تكونين مسؤولة عن ذلك... أنا سأثق بك... أليس كذلك".

كادت الفرحة تطيش بعقل كاري... لقد أصبحت الآن محررة... أوه... يا له من منصب... تقدمت كاري نحو دينا ثم حيتها في حب واحترام... قالت دينا:

- "إذن سوف تكون التجربة الأولى التي تخوضينها هي تجربتك في الأسبوع القادم".

قالت كاري في اهتمام:

- "في الأسبوع القادم".

- "نعم... لقد وضعت في ذهني مخططاً مبدئياً لأعمال المركز خلال الأشهر القادمة... سنرسل الدعوات لجميع النخب الذين تبدو بوادر اقتناعهم بمشروعنا... سنتعرف عليهم... وقد نستضيفهم في أيام لاحقة... المناظرة الأولى هي مناظرة بعنوان (الإيمان والإلحاد) وستكون أولى الخطوات في سلسلة مناظرات فلسفية... واجبك أنت في تلك المناظرة هو الانتباه... ثم الفهم... ثم صياغة كل ما يحدث في المناظرة بأسلوب أدبي... كي يتم نشره في الصحيفة... وقبل نشرها يتم عرضها علي شخصياً... أنا واثقة بك".

أوراق من دفتر كاري

ها هي كاري... تحمل في لهفة أوراقها وتدخل مكتب دينا بعد أن سمعت الجرس الصغير يناديها من الداخل... كانت دينا مشغولة بتقليب أوراق كثيرة؛ لذا قالت وهي منهمكة في عملها:

- "ماذا عن المناظرة في الليلة الفائتة".

- "أنت رائعة يا سيدتي".

- "حتماً ستكون كتابتك عنها أروع".

- "نعم... لقد سهرت طيلة الليلة الفائتة أكتب... كتبتها بكل تفاصيلها... وبكل ما أوتيت من طاقة".

نظرة دينا لكاري وقالت وهي تضع الأوراق على الطاولة.

- "وهل وهي معك الآن".

تقدمت كاري ووضعت الأوراق بين يدي دينا... وقالت:

"هذه هي النسخة المعدلة... أرجو أن تحوز إعجابك".

ابتسمت دينا... وحملت الأوراق... وبدأت تقلبها ثم قالت:

- "سأبدأ في قراءتها الآن... عليك أن تذهبي... شكراً لك".

أسندت دينا ظهرها على الكرسي وبدأت تقرأ بصوت هادئ...

(المقالة الأولى) [١].

(١) مقالة كاري موجودة بكاملها في الملحق... في نهاية الرواية.

الفصل الرابع والعشرون

أعصاب حارة

الأوراق المتراصة على الرف تصيب العاقل بالغثيان... وصوت القلم وهو يقفز على السطور ينبئ عن شيء ما في ذهن مخلوق ما... والدنيا تبدو من خلف النافذة مليئة بالسدم والغيوم... وعندما تلقي هدية ببصرها عبر تلك النافذة تشاهد أشجار الحديقة وهي منتصبة في علو... هنا لندن... وهذه هي هدية الباحثة المناضلة من أجل قضيتها... ومن أجل هوية اليهود... التي بادت مع أيام التاريخ البائدة... وحان لها أن تُستنسخ الآن من جديد... وبين الفينة والأخرى تقف هدية لتحضر أوراقاً جديدة... أو لتقلب في خرائط قديمة... أو لتتابع سطراً ما في مرجع كبير... إن منظرها بحق يشعر الراصد بمدى المعاناة التي يعيشها هؤلاء الباحثون... شيء ما يُشعر بأنهم مجانين... أو أشبه بالمجانين... أدخلت هدية أصابعها بين خصلات شعرها الثائر... ثم شدته بعنف... ثم نظرت لكوب الشاي الذي بدا بارداً... رفعته في هدوء... وعندما احتست جرعة منه أعادته في ضجر... ثم قالت:

- "كل شيء بارد".

أكملت هدية الكتابة في صفحة جديدة... ثم أسندت ظهرها على المقعد.

وفي أثناء ذلك انبعث صوت طرق خفيف... من خلف الباب الموصد... قالت هدية في عدم اكتراث:

- " تفضل...".

دخل كوهين وهو يحمل حقيبته الصغيرة... التي لا تكاد تفارقه أبداً... وابتسم في أثناء دخوله... ثم قال:

- "مرحباً هدية".

ردت عليه في ضجر:

- "رأسي يتآكل... لقد ظلمتموني... هذه أعمال يعجز عنها فريق عمل كامل... أكاد أجن".

- "هدئي من اضطرابك".

ثم أكمل وهو يشيح بوجهه:

- "من أراد التمر عليه أن يتحمل الأشواك".

"أنا أحدث نفسي دائماً بما نقوم به... هل نحن نفعل الخير لأنفسنا وللآخرين... أم أننا نسير في طريق الطوفان".

في أثناء تلك الأحاديث التي تبدو لائقة... مع أنها ليست لطيفة بالقدر الكافي... دخلت أقدام تنتعل حذاء رمادياً قديماً... وفي الأعلى يجثم على الكتفين رأس جوني... منذ شهر فقط أصبح مديراً للقسم المكلف بتدوين المعلومات الاستخبارية... التابعة لنشاطات الحركة الصهيونية في فلسطين... لقد حاز جوني على هذا المركز بعد أن ثبت إخلاصه... وذلك عندما قدم معلومات هامة عن مجموعة من اليهود الذين انضموا للحركة الصهيونية في حقبة ما... ثم تخلوا عنها... كانت خطوات جوني أشبه بوخز الإبر في القلب النابض بين جنبيها... هدية... إنها تمتلئ بألوان الأحقاد كلما لاح لها طائف من أطيافه... جوني الذي كرهته حتى الثمالة... وهو يستمتع بإشعال لهب أحقادها... كلما رآها هادئة مطمئنة... إنه يثقل كاهلها بأحمال تنوء عنها الجبال بعد أن صار مديراً.

ولكن قضيته الأخيرة تتلخص في حرصه على إثبات انتمائها للعرب... ولو كان هذا الانتماء انتماء وجدانياً.

لازالت صورة هدية وهي تمسك بيد ذلك الرجل المسلم... ذي اللحية الطويلة في ساحة الأقصى... تفرض نفسها على ذهن جوني المتوجس حتى من ظله.

قال جوني:

- "ماذا عن التقرير المتعلق بالأرض الشمالية ذات الجسر... وماذا عن حديقة ورق الورق".

نظرت إليه هدية وهي تزمر بشفتها ثم قالت:

- "لقد أصبحَت ملِكاً للجمعية... لقد سُجلت باسم الحاخام روميا".

اقترب جوني من طاولتها... ثم قال:

- "كم عدد المجندين الذين انضموا للكتائب المتواجدة في شمال القدس؟".

- "لست أدري... أنت تعلم أن هذه الأمور ليست من اختصاصي".

ضرب بيده على الطاولة بقوة... ثم قال:

- "أنت هنا تتلاعبين... وتريدين إدارة الأمور كما تشائين".

نظرت هدية إليه في حنق وبدت وهي تكبت غيظها أشبه بحبة ذرة على اللهب... نظر جوني إلى كوهين ثم قال:

- "هذا هو الجنس الشرقي... هذه المرأة شرقية... لا يمكن أن تقوم بما أوكل إليها... حتى تذوق كاسات الهوان".

أغمضت هدية عينيها في هدوء... وتنفست بعمق... بعد ذلك ارتعش جفنها وتدوّرت كرة صغيرة في حلقها ثم فتحت عينيها ثانية... وصوبتهما جهة هذا الصدر المنتفخ أمامها... ثم رفعت بصرها لأعلى لتطالع تلك العينين الخضراوين ذوات العروق الحمراء الأشبه بشجيرة العُليق.

سمحت هدية لنفسها بالتدقيق في تلك العليقة الحمراء... النابتة فيما بين الجفن والبؤبؤ.

بيد أن نظرات جوني النارية تحولت فجأة إلى نظرة خبيثة حالمة... تبعتها غمزة بالعين اليمنى ثم ابتسامة... لم تقدّر هدية حقيقة الموقف... إلا أنها طأطأت رأسها.

مرت خمس ثوان... بعدها ضرب جوني بيده على الطاولة ثم قال في حنق:

- "جميع الأموال التي جمعت من إيطاليا يجب أن يتم جدولتها حسب أسماء دافعيها... سواء من الشركات أو من الأفراد... نحن هنا لم نأت لنعبث... سوف أرسل لكِ المحاسب المالي... عليك ألا تنامي هذه الليلة حتى تكملي الملف".

قالت في حزم:

- "أنت تعلم أن هذا كثير".

- "أنا أعلم أنني هنا المسؤول... أنت يا سيدة... تتقاضين راتباً مجزياً".

نظر جوني ناحية كوهين ثم قال:

- "ماذا عن المجلة الجديدة... التي تصدر عن المركز اللعين... الذي يريد أن يقف في حلوقنا كغصة من الشوك".

قال كوهين في اهتمام:

- "إن العدد الأول موجود معي".

تقدم جوني نحو كوهين ثم مد يده قائلاً:

- "هاته أرجوك".

أدخل كوهين يده في حقيبته... ثم أخرج مجلة من عشرين ورقة... ذات لون أصفر... وعلى غلافها كتابات عبرية قديمة... وصورة لامرأة تبدو في العشرين من العمر... وعلى وجهها يلتف شال مزكرش ذو لون قاتم.

قال جوني:

- "ربما كانت هذه الكافرة أقرب للشيطان منها لليهود".

- "هي قوية... وثرية... ويصعب احتواؤها".

أخذ جوني المجلة ثم سار جهة هدية وقال:

- "إذن أنت تريدين أن تعملي لدينا".

نظرت إليه شزراً ولكنه أكمل:

- "إذن عليك أن تعلمي جيداً... ما هو حجم القضية التي نحملها... ثم هذه المجلة أريد تدقيقاً لها... إنها مجلة دورية ذات أعداد شهرية... وتصدر من المركز اليهودي اللعين للحوار... وهذه المرأة هي الدكتور دينا... انظري... إنها جميلة... بيد أنها لعينة... وتهدم كل أطروحات الصهيونية... تأملي الصورة جيداً... وأريد متابعة كاملة لكل أعداد المجلة".

قامت هدية وقالت:

- "هذا كثير".

ولكنها عندما دققت النظر في صورة دينا أحست أنها تعرف هذه المخلوقة... مدت هدية يدها... وحملت المجلة في صمت... وبدأت تدقق في الصورة وتتذكر.

فاكهة الصيف

يطأطئ الحصان البني رأسه قليلاً... ليقضم طرف حافره... في حين يبقى الحصان الرمادي واقفاً مختالاً... ووجه الشمس يجعل السفح المائل مذهباً بقدر روعة تلك النباتات الخضراء، التي آن لها أن تصفر... ومع جريان الجدول الصغير تجري اللحظات التي لا يوقفها جوني وهو يرفع رأس حصانه عندما يجره بالخطام.

ينتهي الحصان من حك قدمه... ثم يرفع رأسه ليواصل السير... ومن فوق

ظهره يتكلم جوني بصوت متقطع:

- "لقد لعبت لعبتي... ولكني لم أشعر أنني ربحت شيئاً حتى الآن".

قال كوهين وهو يلكز حصانه بقدمه ثم ينظر إلى جوني:

-"أنت تقسو عليها... هذه القسوة لن توصلك أبداً للهدف الذي تريده".

- "إنها شرقية... هذا يكفي!".

- "أنت تحبها إذاً".

- "أهيم بها... أذوب مع نظراتها... وأنت تعلم ذلك جيداً".

- "فلماذا إذن لا تصارحها".

قال كوهين في اعتداد بالنفس:

- "يكفيها أنها شرقية".

- "هي يهودية".

- "يهود الشرق... لقد جرت في أبدانهم دماء قذرة... إن طبيعة العرب... قد طبعت على وجوههم".

- "إنك تبالغ... اليهودي هو اليهودي".

- "كلا... اليهودي الشرقي منافق كاذب".

- "اتركها إذن... عليك أن تنساها".

- "أنا مأسور بها... كلما نظرت لها أشعر أن قلبي يرقص".

قال كوهين وهو يدخل يده في لحيته القصيرة نوعاً ما:

- "لم أصادف قلباً متناقضاً كقلبك... عليك أن تختار... إما أن تحب أو تكره".

- "هذه هي المعادلة التي لم أكن قادراً على حلها".

قال كوهين:

– "توقف في هذا المكان... أشعر أنني بحاجة لجرعتين من الماء".

توقف الحصانان... ونزل الرجلان... وجلسا بجوار الجدول... في حين مد كوهين قدميه داخل الماء... أما جوني فقد اكتفى بالضرب بإحدى يديه على صفحة الماء.

قال كوهين:

– "ألم تفكر من قبل في إمكانية تغلبنا على عقدة اليهودي الشرقي واليهودي الغربي".

– "ليست عقده... ولكنها حقيقة".

– "جميع اليهود هنا يقولون بذلك... ولكن إيماننا بهذه الحقيقة ربما كلفنا الكثير".

– "إنهم أوغاد... يهود الشرق أوغاد... وإذا لم يقفوا في وجه قضيتنا كالصخرة الصماء فهم حتماً لن يفيدونا".

– "أرى أن تعصبنا واعتدادنا بجنسنا الغربي سيحرمنا من خطوات كثيرة... قد نتجاوز بها الكثير من الصعاب ...".

– "أعرف ما تقصده... أنت تقول... فلنجعلهم وقود النار التي نتدفأ بها... فليكونوا هم رأس الحربة في المواجهة... ونحن نحتمي بهم... أليس كذلك؟".

– "فليكن الأمر كذلك".

– "كلا... في قضيتنا... علينا أن نكون أكثر صرامة... ألا تذكر وجه ذلك اليهودي القذر الذي أسلم... داود... لقد كنا نُعوِّل عليه... ولكن انتماءه للشرق جعله يذوب... وما يدريك عن تلك الأسرار التي نبطنها... ونحميها حتى من التعرض للهواء... قد ينشرها السفلة".

– "صدقت... لقد أحرقت مشاعرنا تلك الأنباء التي جاءت من روسيا".

- "ألم أقل لك... سوف تتسرب كل الوثائق... كل البروتوكولات... كل الخطط".

- "علينا أن نكون أكثر وعياً".

- "ولكني أحبها... أحبها يا كوهين".

- "ربما لم يكن في قلبها أدنى ميل لك".

- "أنا لا أملك قلبي تجاه نسيم الشرق... في كثير من الأوقات أحس أنني أريد التهامها... وأشعر أنها فاكهة صيف لذيذة...".

- "عليك إذاً أن تقنعها بنفسك".

- "أشعرها أنها لا تستحق ذلك... الشرقيون لم يخلقوا إلا من أجل أن ندنسهم أو نلوكهم... أو نذوقهم كالحلوى".

- "أنت في هذا مخطئ... إنها مثابرة من أجل قضيتها".

- "عليها أن تكون مجرد دمية... عينين كحيلتين ووجه مستدير... وجسم رشيق... إنها تأكل العقل".

- "لماذا لا تفكر في غيرها".

- "قلبي لا يطاوعني... وتمنُّعها عن نظراتي، يجعلني أطيش بها".

وجه داود

على سرير وحدتها تسحب قدمها في هدوء... ثم تعيدها مرة أخرى... عيناها تتنقلان في تلك الألوان الزيتية الممسوحة بريشة الفنان اليوناني (جون براون)... إنه إبداع ساحر يبدو متألقاً على اللوحة الموضوعة بجوار النافذة... وفي زوايا الحجرة تبدو أشعة خافتة تبعثها الشمعات الموزعة في الأركان الأربعة.

الوقت يطول ويطول... ومنتصف الليل يبدو وكأنه ثابت في كبد السماء...

وكرة صغيرة تتحدر من عين هدية... إيذاناً بفتح باب البوح الصامت... إنها قصة حب تزداد وتزداد... لم يكن داود ليعرف أنه هو بطلها الحقيقي... عندما ابتلعته الأمواج... أو ربما الأسماك... وقيثارة المرأة المحبة تعزف أنغاماً لن تصل أبداً لمحبوبها... أبداً... أبداً.

ولم تكن هدية التي واصلت بذلها... في سبيل قضيتها المقدسة... من أجل الشعب (المختار)... لتغض الطرف صلفاً عن قلب رقص ورقص... وتأبت عروقه على الليالي أن تنسيها رقصاته... إنه قلب المحب إذا رقص.

وفي دوحة حُبها الغناء... تشدو عصافير داود... الذي أصبح ملتحياً... وربما أصبح مسلماً... وفي تلك الأثناء يحط على أيكة القلب الولهان... غراب أسود... ليس بغراب البين... وإنما هو غراب ينعق بصوت تعرفه هدية جيداً... إنه صوت جوني...

معادلة غير متوازنة... بيد أن هدية توغل في جو مشاعرها لتلمح الطير والغراب... ليس جوني بالنسبة لها هو الرجل السيئ... ولكن داود بالنسبة لها هو الرجل الصالح.

ومع انتقال أفكار هدية بين أصابع مشاعرها... التي بدا وأنها تلهو قليلاً بعمامة داود... وبحبة من زبيب أسود... كانت هي الأثر الصارخ... على مدى عمق إيمانه.

- "ويلك يا داود... وويل أمك... هل آن ليهودية الشرق... أن تصنع في جبينها زبيباً من آثار السجود... وهل آن لقفص طال حبسه... أن تنفرج عيدانه عن طرق بيضاء نحو الكعبة؟".

تحسست هدية أنوثتها... وتحسست عمرها الذي تبدد كطيف عائد نحو الشمس... وتحسست قلباً يرف... ثم ألقت بنظرها نحو مكتبها الذي تتكدس على خشبته أوراق وخرائط... وملفات سوداء... ويوم من أيام المستقبل... يلوح في الأفق... للجيل القادم... وتدفع هدية قيمته من عمرها ومن صباها... في الوقت الراهن.

إلى متى يطول أمد هذا الانتظار... أمن أجل وجهٍ عريض اسمه إسرائيل... أما آن لفتاة تتنهد أيام صباها بتثاقل... أن تفكر بجدية في صباها... ولكن وجهاً آخر غير وجه داود ليس بقادر على معانقة الوجد العميق في الفؤاد الدموي الملتهب وعلى عتبة منامها تدخل هدية مع باب أحلامها... لتلتقي بين النوم واليقظة وجهاً يلوح بحاجبيه في الأفق... ويقول:

- "هنا لن نلتقي".

إنه وجه داود.

جوع وشبق

صوت طويل ممتد أشبه بصوت الناي الشرقي المتهالك... تخرجه حنجرة متذبذبة الأوتار أو متقطعتها!... بسبب إدمان تدخين السيجار... وبدخول جوني لتلك الغرفة التي تجلس فيها هدية... ينقطع الصوت... الذي دخل إلى أذني الفتاة من قبل... أشبه بنعيق الغراب.

بدت الأوراق المتراكمة أمامها... وزجاجة فارغة من عصير التوت... ورغيف خبز ملقى على الأرض... بسبب ازدحام المكتب بما يحمله... قال جوني:

- "سأذهب لفترة قصيرة... يجب ألاَّ تذهبي حتى تفرغي من إنجاز كل المهام الملقاة على عاتقك... لا أريد أن أذكِّرك... نحن الآن نشارف على الأيام الأخيرة لتثبيت حقنا دولياً... الدقيقة الواحدة تقدمنا أميالاً... والخطأ الواحد يجر أمتنا للهاوية".

وقفت هدية ثم قالت وهي تضرب بيدها على الطاولة بهدوء مشوب بالتوتر:

- "أنا لم أقصر في شيء... ها أنا أبذل كل وقتي".

- "ليس لك فضل... أنت تأخذين راتباً مجزياً مقابل هذا العمل... الخارجي".

- "عليك أن تتذكر جيداً أنك لا تحوز أي فضل علي... وأن راتبي ليس من جيبك".

قال جوني بعنف:

- "اصـمـتي... أهكذا تعلمت كـيف يكون الأدب الذي تتـأدبين به... عندمـا تخاطبين رئيسك".

نظرت هدية للأسفل... ثم جلست في هدوء وهي تقول لنفسها:

- "أنت فقط تريد إذلالي... عليك اللعنة من وغد حقير".

- "ماذا قلت؟".

لم تجب هدية... في حين حملت القلم وواصلت عملها.

نظر جوني لها بجوع واقترب منها قليلاً... ثم وقف وتأملها ملياً... ثم اقترب حتى أصبح واقفاً بجوارها... كان قلبه يدق في توتر... ولكنه تجرأ أكثر... ومد يده ليمسك بيدها... نظرت له بتقزز... ثم سحبت يدها... لم يكن جوني قادراً على الصمود أمام نظرتها... لذا فضل أن ينسحب.

سارت بجوني أقدامه... وهو يطالع بهدوء ما يصنعه الشفق الذي أزف وقت تلاشيه... إن ضغوطاً أشبه بالبراكين تتفجر في أعماقه... وعيناه الرابضتان في محجريه أقرب لعيني بومة مريضة... تتراءى لهما صورة هدية... التي يتغالب شبقه بها... واحتقار شرقيتها... وحقد دفين عليها... لا يُدرى ما سببه.

معركة

تقدمت الأقدام نحو تلك الأنوار المرفرفة... والمنبعثة من فتائل الصوف، المحاطة بزجاجات متعددة الألوان... وبدأ الصوت الصاخب يرتج في الآذان... وعند المدخل تبدو السيقان الداخلة والخارجة... وتبدو الأكتف العارية وهي تتزاحم... ورائحة الشواء... تكاد تطير بمن يشمها... وصناديق خشبية مسمرة... يحملها رجلان أو ثلاثة... وتتأرجح فيها قناني الخمرة المعتقة... وروائح تبدو للبعض قذرة... وتبدو للبعض الآخر قمة في النشوة والمتعة.

دخل جوني إلى المكان... في حين وضعت فتاة في الرابعة والعشرين يدها في يده وهي تضحك... لم يتفاعل جوني معها... وإنما اكتفى بابتسامة صغيرة... ثم سحب يده... وبعد ذلك اتجه نحو طاولة ذات كرسيين وجلس... لم يطل الوقت... حيث بدأت المقطوعات الموسيقية... في إشعال فتيلها الصاخب... وعندما توقفت الموسيقى... بدأ النادل... صاحب الابتسامة الرائعة... يدور ويدور... على أولئك الضيوف الجدد.

كان النادل حينها واقفاً بجوار جوني... الذي ابتسم بدوره وطلب كأساً من الجعة... أعادت الفرقة الموسيقية كرّتها... في حين توافد رجال ونساء للمنصة... وبدأ التمايل والضحك... والتصفيق... بيد أن جوني لم يكن مقتنعاً بمن أمامه... بقدر انشغاله بتلك الجالسة على مكتبها... وبين أوراقها... إلا أن عدد الكؤوس التي تزور معدته يزداد ويزداد... مع مرور الوقت.

وفي ثنايا رقصة صاخبة... بدأ جوني يدير عينيه في نشوة... وبدت أطيافٌ كثيرة لعالم حالم... ولم يطل الوقت... حيث قام جوني وهو يرتجف... واتجهت قدماه حاملة جسمه المترنح... نحو من حسبها تنتظره...

لم يكن لهدية المنهكة في عملها... والتي أسلمت عينيها لنعاس لذيذ... إلا أن صرخت عندما رأت ذلك الوجه المكور...

وتلك العينين الحمراوين... واليدين الأشبه بيدي ذئب.

ومع صرخات هدية ازداد سعار جوني... وبدأ الزبد يسترسل من بين شفتيه... لم يكن لهدية أن تدرك معنى ما يقوله رجل مخمور... لامرأة وحيدة... إلا عندما بدأت تقاوم... وتحاول أن تهرب... بيد أن يديه الغليظتين... الشعراوين... أمسكتا بمعصمها... أحست الفتاة أن إبليس بعينه هو الذي يضمها... تفجر بداخلها بركان الغيظ والحسرة... وبدأت تحاول إنقاذ نفسها... كانت الشماعة الخشبية ذات الكرات الحديدية الصغيرة أقرب... لذا حملتها بتوتر... وسددتها بقوة نحو وجهه... حيث تاهت يد جوني... وصدع فمه بصرخة قوية... ثم أسلمت هدية قدميها للريح.

الفتاة والقيد

يأكل في شفتيه... وفي أسنانه... وزفيره وشهيقه لا تكاد تُفَرِّق بينهما... وبين الأوراق الكثيرة يُقَلِّب... ثم يخرج ورقة صفراء... يطالعها بخبث ويضعها أمامه... هذا ما قرره جوني.

سوف يكتب وبكل هدوء... آخر فصول مسرحيته المدروسة بعمق... ضد الفتاة التي تضطرب كل مشاعره تجاهها... وقبل أن يجر قلمه... وضع يده على القطن المعصوب على جبينه.

- "أوه... كم هو مؤلم ذلك الجرح الغائر... الذي صنعته شراستها... أوه يا هدية".

بدأ جوني يكتب ما يحلو له... في ذلك السند الذي يرتسم في زاويته توقيع هدية...

- «هذه هي ورقة الرهان الأخيرة... في الطريق الطويل مع هذه الشرقية الكالحة... المتسخة بتراب الشرق وهوائه».

جوني يجر قلمه وفي داخله أحقاد تضطرم... أشبه بنار التنور... ولكنه لا يستطيع أن يتحمل طعم الهزيمة... أو طعم لطمة يوجهها لكبريائه أي من كان.

أنهى جوني كتابته... وألقى بالقلم دون مبالاة على طرف السرير الذي يتكئ عليه... ثم مد يده في كسل شديد... وتناول الإبريق الزجاجي الذي يكاد سائل الجعة بداخله أن ينهض... وضع الإناء في طرف فمه... ثم أسلم نفسه لما يشبه النوم.

ومع صباح اليوم الجديد... كان جوني يغسل وجهه بسرعة... وينظر بعجل لموسى الحلاقة... ثم يتجاهله... لأنه قرر ألا يحلق ذقنه هذا اليوم... وأخذ الورقة التي أعدها طيلة ليلته البائدة... ثم رفعها بكل هدوء... وبعد خروجه من غرفته ذات الرائحة المميزة... والتي يطغى عليها العرق المكتنز في قميصه الأصفر المقلم... ورائحة الجوارب الصوفية المخرمة من الكعب... تناول زوج الحذاء البني اللون... ثم أدخلهما في قدميه... وانطلق.

مر الوقت سريعاً... ووجد جوني نفسه وهو يدلف مع باب الشرطة... ابتسم للحارس عند الباب وواصل سيره.

مر النهار سريعاً... ومع غروب الشمس... كان جوني في مكتبه... وفي المكتب الآخر تجلس هدية وهي تشعر بتوتر شديد... وتفكر في الحال الذي سيؤول إليه مستقبلها... دخل كوهين وهو يحمل أوراقاً كثيرة... وعندما جلس على كرسيه رفع رأسه محيياً هدية... التي رفعت رأسها قليلاً دون أن تبتسم... قام كوهين ليرى ما هي القضية... وعندما وقف بجوارها قال:

- "هل لا زالت المشكلة كما هي... ألم تقترب الأزمة من الانفراج".

- "أنا خائفة من ألاعيبه... إنه حاقد وماكر".

- "إنه يحبك".

- "إنه كلب قذر... لا يحب سوى نفسه".

- "إذاً أنت مضطرة... لتلبية رغبته".

رفعت هدية رأسها... ثم استندت على الطاولة... وبدأت في الوقوف... وعندما انتصبت قامتها اقتربت بوجهها قليلاً من كوهين وقالت في كبرياء:

- "أنا امرأة لي كرامتي".

قال كوهين وهو يتراجع للوراء... حتى جلس على كرسي مجاور:

- "هدية... علي ألا أذكرك بالصفات التي يجب أن يتحلى بها... الـ... العضو في منظمة صهيونية... أنت تعرفين... تعرفين جيداً... لا دين... لا أخلاق... إلا لمن ينتمي إلى منظمتنا".

انتفخ أنف هدية وعيناها تحدقان في كوهين... وأحست أن في رأسها عروقاً تكاد تتفجر بدماء حمراء نقية... ثم قالت:

- "أنتم... سفلة... أقذر من الخنازير... ألا تشعرون بإنسانية الإنسان... بحريته... بامتلاكه لنفسه".

احمر وجه كوهين ثم طأطأ رأسه... وفي تلك الأثناء دخل جوني ووجهه لا يكاد يتسع ابتسامته... ثم قال:

- "عليك أن تدفعي جميع المستحقات التي استدنتيها من الميزانية العامة للمنظمة".

نظرت هدية باستخفاف... ولم تجب... بيد أن العسكري ذا القبعة الحمراء كان واقفاً بالباب... تقدم العسكري... وقدم لهدية ورقة صغيرة... ثم قال:

- "هذا أمر بالقبض عليك".

كان كوهين ينظر للأمر بتوتر... في حين أدار لهم جوني ظهره وهو يخرج... لم تتمالك هدية نفسها... لقد أسلمت نفسها لبكاء هز أوصالها.

الفصل الخامس والعشرون

الشمس الملتهبة

الهواء البارد ينساب في هدوء... والشمس الملتهبة في طرف السماء الغربي لم تعد قادرة على إخضاع الدنيا لحرارتها... بقدر ما هي قادرة على إقناع الدنيا بجمالها... والمروج الخضراء هنا في جبال الألب تموج كما تموج البحار... وقرع أقدام فرس عربي بعث للدنيا رسالة شموخ بكل اقتدار... ومن خلف مرج صغير يبدو الفرس والفارس.

وشاح ذو لون أصفر... تتلاعب به الريح كراية من رايات حرب البسوس... مرة تخفضه ومرة ترفعه خلف ظهر الفارس... ويكتمل المشهد عندما بدأ الفارس رحلة صعود رشيقة لأعالي الجبال... مرت دقائق... ووقف الفرس الأبيض ذو الأنف الأسود المدبب... والعينين الدعجاوين... ثم نزلت دينا... وألقت بنظرتها للدنيا الرحبة... واشتمت هواء الدنيا المرتق مع حبات الأكسجين الأشبه بقطرات ماء طيارة... وأعادت ترتيب وشاحها... ثم تقدمت وهي تسحب جوادها الأخاذ.

لم تمر لحظات إلا وخمسة رجال يتقدمون مسرعين نحوها... كانوا يتهامسون في توتر... وعندما وقفوا بين يديها... حنا مدير المشروع الزراعي رأسه للأمام في احترام بالغ:

- "أهلاً سيدتي".

- "أهلاً بك... وبكم جميعاً يا سادة".

تقدمت دينا... في حين أمسك أحدهم بخطام جوادها وأردفت قائلة:

- "يبدو أن عملكم يسير على أكمل وجه... قل لي ياجون... ما هي أخبار المشروع هنا".

- "نعم يا سيدتي... كل التقارير نرسلها أولاً بأول... والشركات التي وُقعت معها العقود طويلة الأجل... تأتي لتجد جميع البضاعة جاهزة... العمل يسير على ما يرام".

في تلك الأثناء... وصل الجميع لمكتب المبيعات الخارجي... ودخلت دينا... وتبعها الرجال... وعندما جلست على مقعد جلدي لمّاع... سألت:

- "ما أخبار البذور؟".

- "لقد أوشكت على الانتهاء سيدتي".

- "نعم... توقعت ذلك... لقد كانت الكميات التي نرسلها لكم مناسبة للوقت... إياكم أن يذهب أي منها هدراً... أنتم تعرفون... هي أثمن من الذهب".

- "بالطبع سيدتي".

- "على كلٍ... لن تسوّل لأحد نفسه أن يسرقها... لأنها مهجنة بطريقة تجعلها لا تنبت إلا هنا... هـ هـ هـ... أليس هذا حلاً مناسباً لتلافي السرقة؟!".

- "بالطبع سيدتي".

- "لقد أحضرت لكم كمية مناسبة... سوف تكفي لمحصولين".

- "شكراً سيدتي".

في تلك الأثناء... قدم أحد العمال كوباً من عصير الـ (جريب فروت) المحُلَّى بالعسل الطبيعي... والمنتج في المزرعة... تناولته دينا وهي تقول:

- "شكراً جزيلاً".

ثم أردفت:

- "لو تكرمت... أخرج هذا الكرسي للخارج... أريد متابعة الغروب في هدوء".

هز العامل رأسه... وحمل الكرسي الذي قامت من فوقه دينا للتو... ولحق بها مستعجلاً.

وفي منظر ساحر... كانت دينا تسند ظهرها على الكرسي... وتضع قدماً على أخرى... ثم تسحب ثوبها لتغطي أصبع قدمها الصغير... الذي انكشف للتو... وترفع قدح العصير بهدوء... كي تسمح لأشعة الشمس الذهبية رسم صورة ساحرة على طرفه... ثم ترشف رشفة صغيرة... وتلقي بنظرها جهة الفرس العربي... الذي يرفع ذيله في شموخ... ثم يرفع قوائمه الأمامية... وتعيد دينا رشف جرعة أخرى هي أكبر من سابقتها... ثم توغل في أعماق هذا المنظر الساحر... لتجعله يحطم ما عاشت به في كيانها... مخالب المدينة... وتروي ظمأ مشاعرها بقطرة صغيرة من الدمع... تُعبّر بها عن مدى امتنانها لرب العالمين.

إلى أمها

مرت ساعة... وقبل أن تنطفئ الشمس في جفنة الغروب... قامت دينا لتتوضأ... ثم ركبت على ظهر فرسها... وطارت.

لم يدم الوقت طويلاً على ظهر الفرس... لأن الفتاة ذات القد المياس... قد وصلت إلى الكوخ الصغير... هناك عاشت بداية حياتها الجديدة... كوخ والدتها ماريا... لقد كانت ماريا تجلس بجوار الباب... وترقب الشفق الأحمر... أو ترقب رقصات أشجار الصنوبر العملاقة... على صرير الريح... رفعت دينا يدها وهي تبتسم... ثم قفزت من فوق الفرس... كانت ماريا واقفة تنتظر... لذا تقدمت نحو الفرس العربي... لتعانق ابنتها... العبقرية الفذة... بجوار مهر ساحر... طال العناق كما تطاولت نحوه الأعناق... وتمازجت الدموع... ثم قالت دينا:

- "أوه يا والدتي... يجب أن يكون العشاء من بيض البطة اللعينة".

ابتسمت الأم وهي تجفف دموع فرحتها... ثم قالت بصوت مرتعش:

- "بل من لحمها... أقسم أن تكون البطة اللعينة... هي عشاء هذه الليلة الجميلة".

ضحكت دينا... ودخلت هي وأمها للداخل... ومع مرور الوقت... كان بداخل الكوخ ليلة سعيدة تمر بهدوء ... لم تتوقف المرأتان طيلة الليل عن الثرثرة في الأمور المفيدة... والأمور غير المفيدة.

وما إن نضج لحم البطة (المسكينة !!) حتى كانت أوصالها مرصوصة في صحن نحاسي مستدير.

بدأ الجميع في الأكل... حتى من أوهمت نفسها ذات يوم... أنها امرأة نباتية... وقبل منتصف الليل بقليل قامت دينا لصلاتها... وبجوارها كانت تقف والدتها... وبعد قضاء الصلاة أسلمتا نفسيهما لنوم هانئ... في فراش واحد... وكل منهما قد ضمت الأخرى لقلبها.

عمل خيري

ومع بكور الصباح... كانت دينا واقفة تصلي بجوار الجدول الصغير... وعندما أنهت صلاتها... رفعت يدها ضارعة للسماء... ثم قامت... وأعدت بسرعة فطوراً لا يحوي الكثير من الأصناف... وبعد تحضير الفطور كانت والدتها للتو تنهي صلاتها هي أيضاً... المرأتان جلستا على الطاولة... تلك الطاولة التي جلستا عليها في أول مرة التقتا فيها... وبعد ذلك بدأتا في تناول الطعام... يبدو أن دينا تخطط لأمر ما... لذا قالت لوالدتها:

- "هل أنت مستعدة لقطع خمسة كيلومترات... وعلى ظهر فرسي الأبيض".

- "أوه حبيبتي... كم هو جميل فرسك الأبيض".

- "وسيكون أكثر جمالاً عندما نمتطيه معاً".

- "معاً!!".

- "نعم".

- "إلى أين يا دينا".

- "أوه يا أمي... ألم أقل لك؟".

- "ماذا؟".

- "أهل القرية... سيصنعون لي احتفالاً كبيراً هذا اليوم".

- "صحيح... لم تقولي لي من قبل".

مدت ماريا يدها بهدوء... ثم أمسكت بأذن دينا... وسحبته في حب ثم أكملت:

- "ألم أقل لك من قبل... عليك أن تخبريني بكل شيء".

قالت دينا في دلال:

- "كلا يا أمي... لم تقولي لي ذلك... ولكني أردتها مفاجأة".

- "أوه مفاجأة... أنا أحب المفاجآت".

وقبل أن تطل الشمس على الدنيا... كانت دينا تمتطي فرسها الأبيض... وتهب... ومن خلفها كانت أمها... تمسك بها من الجنبين... ومع انحدار الجبال... انحدرت الصورة الرائعة... ومع معانقة شمس الصباح لرؤوس الجبال... كانت دينا تسحب خطام فرسها وتقف... ثم تقول لوالدتها في أسف:

- "أمي... هذا هو الجسر... الجسر الذي مات والدي بجواره... إيه يا والدتي كم أنت وفية... انزلي هيا... وقولي قصيدته القديمة".

نزلت دينا... في حين بقيت ماريا على الفرس تتأمل... وبعد أن نكست رأسها قليلاً قالت:

"كلا يا ابنتي... لم يعد لي من حاجة لتذكر الأحزان... أبداً... بعد أن أعاد لي ربي فلذة كبدي الوحيدة... ها أنت ذي أمامي... لم يعد أمامي أي كهف من كهوف الحزن... ولن أسمح لنفسي أن تبحث عن كهف بعيد لتدخله".

أمسكت دينا بيد والدتها... ثم ساعدتها على النزول... وسارتا متجاورتين حتى وقفتا على الجسر... بعد ذلك... قالت دينا بصوت هادئ ساحر:

- "لن أنسى تلك الكلمات المسجوعة... أبداً لن أنساها... لقد دقت باحتراف على أوتار نفسي المكلومة... حين كنت مرمية فوق النفايات...

زهر في كفيك سينبت إن أنت منحتني الماء".

- "ورد في كفيك سيذبل... إن أنت حرمتني الماء".

- "ورد في خديك سيذبل...

إن أنت حرمتني الماء...

نلهو نضحك من قلبينا...

نسطع نوراً كالجوزا...

ما أبهانا كل صباح ...

ما أجملنا كل مساء...

نحن طيور ركبت غيما...

وقفت تنظر للأجواء...

شربت مطراً غرست حُبا...

عشقت دوحتها الفيحاء...

ورق في كفيك سينبت ...

إن أنت سقيتني الماء...".

كانت مشاعر العجوز هنا مختلفة تماماً... وكانت تترنم بأغنيتها وهي تبتسم... وبعد ذلك... ركبت ماريا وابنتها على الفرس... ونفرتا مع الريح.

وفي الساحة الكبيرة... بجوار النافورة القديمة... التي تفور مياهها من انحدار الماء عبر الجبال الشاهقة... كانت دينا تقف مع والدتها... وكان هناك جمع من الشبان والفتيات قد اجتمعوا حول الفتاة.

وبعد دقائق بدأ عدد أكبر من الناس في الاجتماع... ومن هناك جاءت عربة كبيرة... يجرها حصانان بنيان... وهي مغطاة بقماش أحمر.

وقفت تلك العربة في مدخل الساحة الكبيرة... وعندما أشارت دينا لسائقها تقدمت... حتى وقفت بجوار المنصة...

المنصة بنيت حديثاً... وهي من الخشب المتراص... بمساحة أربعة أمتار مربعة.

اجتمع أهل القرية بشكل أكبر مع مرور الوقت... منهم من كان يحمل بعض الخضراوات... ومنهم من يحمل الزهور أو بيض الدجاج ليبيعه... ومنهم من جاء لينظر فقط.

وهناك جمع كبير من اللوحات القماشية كتب عليها اسم دينا... وصورة تخطيطية لها... وكثير من الشعارات الذهبية... ومع ضجة التصفيق والهتاف... صعدت دينا على المنصة... وألقت خطبة حماسية ثم سحبت ستاراً قماشياً عن لبنات الأساس الأولى... المستشفى المجاني الخاص بالبلده... ثم نزلت... وبعد ذلك أشارت بيدها نحو العربة... تقدمت العربة... واصطف الناس في ثلاثة طوابير... وبدأ أربعة من رجال دينا... يوزعون قطع القماش المجاني... وزجاجات العطر الفواحة... كل من وقف في ذلك الطابور أخد هديته... بعد ذلك انصرفت دينا مع والدتها عائدة إلى الجبال.

الفصل السادس والعشرون

نحيب طويل

هدية تنزل ببطء... والدرجات الأربع التي تنزل معها هي أشبه بدرجات تحط بها في الجحيم... وبجوار الدرجات جدار ذو لون بني... مكتوب عليه (الشرطة والتحقيقات)... وعلى الرصيف يقف كوهين وهو ينظر إلى هدية بأسف... وعندما تقدمت نحوه سار نحوها بخطوات أسرع... وعندما وقف أمامها... مد يده وهو يقول:

- "لقد فعلها هذا اللئيم".

شهقت هدية وقالت في حنق شديد:

- "هذا الوغد... أخو القردة والخنازير".

نظر كوهين إلى هدية بعجب... ثم لم يتمالك نفسه أن ضحك بهدوء... وأدخل رقبته بين كتفيه ثم غطى فمه بيده... واصل كوهين لفترة قصيرة تلك المقطوعة الضاحكة... ووقف بعدها... وقال:

- "ماذا تقصدين؟".

- "أعرف جيداً بماذا تفكر... ولكنني أعني ما قلته... إن من يفعل هذه الأفاعيل لا يصلح إلا أن يكون من إخوان القردة والخنازير".

- "أنت متأثرة بثقافتك الشرقية".

- "بل متأثرة بهذه القذارة التي يمارسها هذا الوغد... ألا تعلم أني مطالبة الآن بتسديد عشرة آلاف جنيه... لقد ادعى أني اختلستها من أموال الجمعية التي نكفل فيها فقراء المنظمة... بالطبع لا منظمة... ولا فقراء... ولكنها هي ذاتها الأموال التي نشتري بها الأراضي في فلسطين... من أجل وهم كبير... من أجل إنشاء الدولة... لقد سئمت... سئمت من هذه الأعمال السرية... التي تدب في الظلام... والآن وقع الفأس في رأسي".

- "أنت مضطربة... عزيزتي... ما تراك ستفعلين؟".

- "لست أدري".

- "والدك... إنه ثري".

- "والدي!!... أنت واهم... إنه بالطبع غاضب مني... لقد هجرته بسبب هذه المنظمة اللعينة... التي تمارس نحوي كل الضغوط لكوني شرقية... منذ سنوات لم أرسل له رسالة واحدة... وهو لن يقف معي في محنتي... أنا غبية... لِمَ أضحي كل هذه التضحيات... علمي وجهدي ومالي... من أجل وهم... لعنك الله يا هرتزل... ولعنك الله يا جوني".

- "جوني إذن عازم على".

- "على ماذا؟؟".

- "على طردك... إنه يريد إثبات عدم جدارتك بالانضمام إلينا".

- "عليه اللعنة... وعليك... لقد سئمت".

بدأت هدية في نحيب طويل... ثم ألقت بنفسها على صدر كوهين... وذرفت ما شاءت من الدموع... ثم انتبهت لنفسها... وتراجعت في خجل وهي تقول:

- " لقد حرمت من أنوثتي... ومن حياتي الطبيعية... عشت كرجل... وأنا الآن أبكي دماً بين هذه الوحوش... وليس ثمة رحمة... بدعوى التضحية... هذا كثير".

نظرت هدية للسماء... ثم تذكرت مقولة والدها المحفورة في ذهنها:

- "يا ليت أولادنا مثل أولاد المسلمين".

رددت هذه الكلمات... كانت ساعتها ذاهبة في الاتجاه المعاكس من الرصيف.

مجلة دينا

تذرع الغرفة جيئة وذهاباً... وتلعن تلك الخرائط المعلقة على الجدار... خاصة وأن تلك الحدود المقطعة داخل الخرائط تذكر هدية بالليالي الطويلة التي قضتها مع جوني وكوهين... في عمل لا طائل وراءه... عشرة آلاف جنيه هي القسيمة التي عليها أن تدفعها... ومن أجل ماذا... من أجل هذا اللعين جوني... كم هي حمقاء... من تثق في صنف ماكر وغد.

عقارب ساعتها تلهو بالوقت... والوقت يلهو بمداعبة همومها... والانتظار القاتل هو الشيء الأكثر مللاً... ومع تباشير الصباح الأولى... كانت هدية تحمل نفسها بإعياء... وتخرج خارج المنزل... ساقاها العاريان يحملانها الهوينا نحو المعبد اليهودي... في ضاحية مانشوراس المجاورة... وهناك ستهتز مع المصلين... علها أن تجد ما يهدئ روعها.

وعندما اقتربت هدية من ساحة المعبد... تذكرت حائط المبكى... بيد أن صورةً متطفلة التمعت في عقلها فجأة... ودون أي مقدمات... إنه الرجل ذو اللحية الطويلة واليد الواحدة... الرجل الذي سقط أمامها في ساحة الأقصى... هل هي في حلم طويل... أم أنها عين الحقيقة... بصيرة هدية دقت مع دقات قلبها... ذلك الرجل ليس سوى... لا... لا لا... ليس داود... ذلك الرجل ليس داود... وزوجته تلك... لا... لا... لا يمكن أبداً.

وفي طيات سجال طويل... لهدية مع نفسها... وصلت لما كان الناس واقفون بجواره... ثم وقفت معهم... بيد أن الوقت مضى وهي تفكر بهموم كثيرة... وآلام أنستها حتى صلاتها التي جاءت من أجلها... لذا تجاهلت كل الواقفين... وانصرفت

للحديقة المجاورة لمنزلها... لم يكن كوهين ليتجاهل فاجعة هدية فيما حولها... بيد أن عجزه جعله يتناساها تماماً... وعندما أطل من النافذة رآها جالسة تحت شجرة ذات أوراق خريفية تتساقط... كان في يده مجلة... وكان يدرس إحدى المقالات فيها... من أجل عمل تقرير مهم... ولكنه اعتقد أن ذهابه لهدية أهم من إكماله لهذا المقال... لذا حمل مجلته وسار للأمام.

بعد بضع دقائق... كان كوهين يصافح هدية ويجلس قبالتها... ثم يبتسم ويحاول أن يرسم على ثغرها بسمة... إلا أن جرحها الملهوف لا يسمح لشفتيها الضامرتين... رسم أي بسمة... قالت هدية:

- "هل لا زلتم في متاهتكم سائرين؟".

- "أي متاهة؟".

- "جمع المقالات... والبحث عن الأسماء... والتخطيط للقتل".

- "أوه... تقصدين هذه المجلة... إنها مجله مملة... ولكنها مذهلة".

- "بالطبع هي... مجلة المركز اليهودي".

- "هي ذاتها... لقد توليت متابعتها بعد أن".

- "بعد أن طردني جوني... واتهمني بالاختلاس... إنه كلب قذر مسعور".

- "إن قلبه طيب".

- "كل واحد منكم ألعن من صاحبه".

- "حتى أنا يا هدية؟".

- "أنت أحد القتلة".

قال كوهين متعجباً:

- "قتلة!".

- "قتلة... ومنافقون... وسفاكو دماء".

أرجع كوهين ظهره على المقعد وقال في هدوء:

- "علي أن أمنحك وقتاً لتهدئة الأعصاب... سوف أتصفح هذه المجلة التي تصيب بالغثيان".

فتح كوهين تلك الصفحة ثم أكمل حديثه:

- "دينا... الدكتورة دينا... إنها فتاة مشاغبة".

صمتت هدية لثوانٍ... لقد كانت تغالب دهشتها وهي ترى صورة دينا في زاوية الغلاف... بيد أنها قالت في هدوء مصطنع:

- "ومن تكون هذه الدينا... التي طبختكم في قدرٍ قديم؟".

- "إنها قوية... تبدو أقوى من الجميع... وعلينا أن نأخذ مقولاتها بجد... إنها تهدم اليهودية من الداخل".

- "تقصد... أنها تهدم الصهيونية".

- "لازلنا نلزم معها حالة ضبط النفس... ولكن سننفجر قريباً ونحرقها".

ثم أردف كوهين في دهشة:

- "اسمعي تصريحاتها... إنها مذهلة... هنا تقول:

(المركز يقدم المساعدات لكل أبناء اليهود الذين تصيبهم النكبات... وكذلك هو يقوم المعونات لضحايا الحروب).

وتقول في مكان آخر:

(نحن نضع أموالنا من أجل إغاثة كل إنسان... سواء كان يهودياً أو غير يهودي... لأن قضيتنا السامية تحتم علينا ذلك)...

اسمعي... وتقول أيضاً:

(أنا أقف في وجه اليهودية المزورة... التي تنادي بشن الحروب... وقتل الأبرياء... وسرق مقدراتهم وأراضيهم... نحن معاشر اليهود... علينا أن نفرض أنفسنا على العالم بما نفعله من الخير لا بما نفعله من الشر).

هذه الكاذبة...

اقتربت هدية قليلاً وهي تقول:

- "هل تقدم دينا معونتها للمنكوبين؟".

نظر كوهين إليها مستغرباً ثم قال:

- "ماذا تقصدين؟".

- "ماذا أقصد... سوف أذهب... لا... لا لا أقصد شيئاً... إنها كاذبة... إنها تريد هدم اليهودية".

- "نعم... ولكن حسابها سيكون عسيراً".

- "عليكم أن تدبروا قتلها إذن".

صمتت هدية بعد ذلك... ودخلت في تفكير عميق... في حين استمر كوهين يهذي بكلام لم تُعِرْهُ هدية أي اهتمام... وكأنها تنتظر انتهاء الجلسة.

الفصل السابع والعشرون

نمر عربي

وصلت هدية... لقد قضت يوماً كاملاً في القطار... والآن... وصلت لتوها... الوقت هو الفجر... والخطوات التي تسير بها هي خطوات ساخنة.

استأجرت الفتاة عربة صغيرة بحصان واحد... وطلبت من سائقها أن يوصلها إلى المركز اليهودي البارز... مركز الحوار والثقافة.

مر الوقت سريعاً... ووصلت هدية لبغيتها... وعندما نزلت... قرأت باللغة الإيطالية لوحة بيضاء ببرواز مذهب... وحروف مذهبة بارزة... (باب المركز)... ثم نظرت لصورة دينا التي كانت بجوار الباب مرسومة بألوان زيتية باهتة... ضربات قلب هدية تزداد مع تزايد عدد خطواتها جهة الباب... وعندما وقفت بالباب انتظرت لحظة... ثم دخلت... كل شيء يبدو هادئاً... وفي الغرفة الداخلية تجلس كاري... وهي منهمكة في تحرير أوراق لديها... سحبت هدية قميصها لأسفل قليلاً... ثم اتجهت وهي تحدث نفسها:

-"أين ستكون الدكتورة دينا؟".

وعندما رأتها كاري قادمة من هناك... ابتسمت لها... في حين اطمأن قلب هدية قليلاً... وواصلت السير جهة كاري... وعندما دخلت للمكتب قامت كاري ومدت يدها مصافحة... صافحتها هدية وهي تبتسم في حين قالت كاري:

- "نرحب بك في المركز... ونقدم كل الخدمات".

ابتسمت هدية ثم قالت:

- "شكراً... هل من الممكن مقابلة الدكتورة دينا؟".

- "سوف تأتي بعد قليل... لن تتأخر... يمكن أن تنتظري هنا".

هزت هدية رأسها في تسليم... ثم رجعت للوراء قليلاً كي تجلس... مر الوقت سريعاً... لم تتحمل هدية البقاء جالسة... لذا قامت لتحرك الدماء في عروقها...

وفي الخارج كانت تسير جيئة وذهاباً بجوار باب المركز... وتنظر للغادين والرائحين في الطريق... أحضرت لها كاري فنجاناً من القهوة... وعندما ناولتها إياه قالت:

- "سوف تحضر الدكتورة دينا الآن".

- "هذا جيد".

ثم هزت هدية رأسها شاكرة... وتناولت الفنجان وبدأت تشرب وهي واقفة... ومن بعيد بدأ صوت القرقعة يزداد... شيئاً فشيئاً... نظرت هدية لمصدر الصوت... كان الصوت هو صوت أقدام فرس نشيط... يسير بسرعة مذهلة... دققت هدية نظرها في الصورة الجميلة... التي يرسمها الفارس وفرسه... مع سحر الصباح ونسيمه...

المدهش في الأمر... بالنسبة لهدية... هو أن الفارس كان يتجه نحو المركز... لقد زاد ذلك من إعجاب هدية بتلك الصورة الأخاذة... اقترب الفارس من المركز... وهدية مشغولة بالمتابعة... كانت تنتظر عبور الجواد من جوار المركز... وعندما وصل الفارس للمركز سحب خطام فرسه... وتوقف.

وفي أثناء دهشة هدية هبط وشاح الفارس الذي كانت الريح ترفعه وتخفضه... لحظة واحدة... وتبدو صورة الفارس المذهلة... ثم يقفز بلياقة كاملة من فوق ظهر الفرس العربي الرمادي... لم يكن الفارس رجلاً... وإنما هي دينا.

وفي خطوات جسورة... كانت دينا تتقدم نحو باب المركز... وهدية واقفة مكانها تعالج رهبتها وإعجابها... إنها صورة دينا بكل قوتها وإبداعها... اقتربت دينا من هدية... ثم نظرت إليها باحترام... وقالت بصوت دافئ ينساب من بين أحرف إيطاليتها المتقنة:

- "أهلاً وسهلاً... يبدو أنك ضيفة للمركز... تفضلي...".

لم تكن هدية لتدري ما تقول... ولكنها بالفعل تقدمت وراء دينا... في حين قامت كاري من مكتبها... لتستقبل الدكتورة... صافحتها دينا وهي تقول:

- "هل من أعمال جديدة؟".

- "كلا... ولكن هذه الضيفة... إنها تنتظر منذ وقت".

نظرت دينا لهدية... وقالت في أسف ظاهر:

- "أعتذر عن تأخري".

قالت هدية في خجل:

- "كلا سيدتي".

بيد أن صورة الفارس التي رأتها هدية منذ قليل... لم تكن لتفارق ذهنها... إن شيئاً أشبه بقوة المغناطيس... يجعلها تتجذب نحو هذه الفارسة... دخلت دينا... وجلست على المقعد خلف مكتبها... في حين أشارت لهدية بالجلوس أمامها على مقعد مقابل... وأسرعت كاري في إحضار أوراق مدبسة تتعلق بالمجلة... ابتسمت دينا لكاري وقالت:

- "لو تكرمت... فنجاني قهوة".

في تلك الأثناء... كانت هدية تشعر من داخلها بارتياح شديد حيال دينا... وتشعر أنها ليست أمام إنسان عادي... وإنما هي أمام إنسان من طراز خاص... وقبل أن تتلفظ هدية بكلمة واحدة... طأطأت رأسها... وبدأت في النحيب... كان

الأمر مؤسفاً بالنسبة لدينا... لذا قامت من مقعدها واتجهت نحو الكرسي المجاور لهدية... وبعد أن جلست... وضعت يدها على كتف هدية في حنان... وبدأت تربت عليه وهي تقول:

- "لا تخافي يا أختي... كوني صابرة... كان لزاماً علي أن أساعدك... ولكن علي أن أعرف حكايتك... ثقي أنني سأقدم لك كل ما أستطيع".

سرت كلمة يا أختي في وجدان هدية أشبه بالكهرباء... لذا رفعت رأسها في هدوء... وألقت بنظرة طويلة في وجه دينا... الذي ينساب سكينة ووقاراً... ثم قالت:

- "أنا أتعذب... أتعذب يا سيدتي".

- "عليك أن تقولي (يا الله)... الله حتماً سيساعدك".

كانت هدية تدقق ببصرها في فم دينا وهي تقول (يا الله)... لقد أحست أن كلمةً أشبه بالماء البارد... تستحق أن تشرب على الظمأ... قد خرجت من ذلك الثغر الصادق.

جلست هدية في اعتدال... في حين أحضرت كاري فنجاني القهوة... قالت هدية بعدها:

- "سوف أحكي لك الحكاية من بدايتها".

بدأت هدية في سرد حكايتها... منذ طفولتها حتى صباها... وحتى انضمامها لنوادي العراة... ومروراً بسنوات دراستها... وزيارتها لوالدها مع كوهين وجوني... ولقاءها بمن أحبته وبحثت عنه كثيراً... وأخيراً عودتها إلى إيطاليا... وما فعله جوني معها.

كانت دينا تستمع في دهشة... ولكنها لم تسمح لقطرة واحدة من ماء عينيها أن ترى الدنيا... في حين انفجر بداخل أعماقها مشاعر كثيرة... ملئها الحزن والشفقة... وانفجرت مشاعر أخرى ملئها الإصرار والتحدي.

في حقيقة الأمر... لقد كان المقطع من قصة هدية... والذي برز فيه فارس أحلامها كبطل للمشهد... هو المقطع الأشد إثارة... ربما كان ذلك... لأن دينا كانت تقرأ معاناة فتاة تعيش كرجل... ثم عادت لأنوثتها فجأة... فلم تجد إلا السراب... السراب الذي يضطرم داخلها... أشبه بالموقد.

أنهت هدية قصتها... وطأطأت دينا رأسها... ثم رفعته بعد ذلك... ونظرت في عيني هدية... ثم قالت في هدوء:

- "عليك أن تكملي طريقك في خدمة الصهيونية... هناك هدف محدد... وهناك قضية واضحة... إنها الدولة التي ستعيد مجد اليهود... من النيل إلى الفرات... تلك الأرض الخصبة المدرّة... أشبه بالبقرة الحلوب... مصر... نعم... مصر... سيعيش اليهود هناك في سلام... وأرض الرافدين... عليك أن تكملي طريقك... سنُقيم حضارة مذهلة هناك".

كانت نظرات هدية تتجه لدينا في توجس واستغراب... ليست هذه الكلمات هي الكلمات التي انتظرت سماعها من دينا... في حين قامت دينا ثم ذهبت نحو كاري... ونادتها... جاءت كاري في رشاقة... وقالت لها دينا:

- "هذه السيدة... سوف يمنحها المركز معونة بمقدار عشرة آلاف جنيه... إنها فتاة مخلصة لقضيتها... وعليك أن تُجَهِّزي المبلغ آنسة كاري".

عادت دينا في هدوء... وجلست على كرسيها... وتناولت بعضاً من الأوراق الموضوعة أمامها... ثم بدأت في مراجعتها... أما هدية... فقد ألقت بصرها للأرض... لأنها أحست بأن عقلها قد توقف عن مواصلة التفكير.

مر الوقت سريعاً وهادئاً... إلى أن جاءت كاري وهي تحمل مظروفاً بداخله نقود... وعندما وضعته على مكتب السيدة دينا شكرتها دينا... ثم حملت المظروف ومدته نحو هدية وهي تقول:

– "ستكون قضيتكم العادلة نبراساً لكل الأمم... فليبارك الرب كل مجهود من أجل العدالة".

لم تمد هدية يدها ولكنها قالت في توتر:

– "لست أدري عن أي قضية عادلة تتحدثين؟".

أرجعت دينا يدها إلى الطاولة... ثم وقفت وقالت:

– "قضيتكم من أجل الأجيال القادمة من أبنائنا... أنتم الآن تقدمون التضحيات... وتنالون قدراً هائلاً من البؤس والقلق... فقط من أجل أبنائنا في المستقبل".

– "ولكننا سنفقد أرواحنا من أجل هذا الطريق... سنفقد مشاعرنا... سنفقد راحتنا".

قالت دينا... وهي تعيد الالتفات نحو هدية:

– "هكذا العظماء... إنهم من أجل غيرهم... يمنحون أنفسهم رخيصة".

– "هل هذا يعني... أنني كنت أسير في الطريق الصحيح".

اقتربت دينا من هدية حتى جلست قبالتها قالت:

– "نعم... بالطبع... أنت تسيرين في الطريق الصحيح".

رفعت دينا إصبعها السبابة وحاجبيها... ثم أكملت:

– "هذا بالطبع إذا كان النجاح حليفكم".

قامت دينا ثم استدارت من خلف الكرسي وهي تقول:

– "لست أدري... إن كان العرب سيفرشون لكم الطريق إلى أراضيهم بالورود... أم أنهم سيفرشونه بالكلاليب... ولكن عليكم أن تحتملوا السير... إنه الطريق من أجل مبادئكم".

ابتلعت هدية ريقها وهي تتصور الكلاليب التي سيفرشها العرب... وتتصور الأجيال القادمة من اليهود الذين سيعيشون في أمان وسلام... ومن النيل إلى الفرات تمتد أرضهم... وتخيلت هدية نفسها وهي تقدم نفسها ضحية من أجل أولئك الأجيال.

بيد أن دينا نظرت للسقف بعمق... وقالت وهي تتأمل:

- "العرب... العرب مقاتلون شجعان... إنهم كالأسهم المبرية... لست أدري مدى تحملهم للحدود التي ستفرضها عليهم دولتنا المستقبلية... ربما صمتوا سنة... أو سنتين... ربما صمتوا عشر سنين أو مئة سنة ... ولكن تجربة الحملات الصليبية مع العرب... تبعث على الخوف... هل قرأتم التاريخ جيداً؟".

بدأت دينا ترفع صوتها شيئاً فشيئاً وتُسدد نظراتها نحو هدية وهي تقول:

- "إن الغبي من الناس... هو من لا يقرأ التاريخ... ويريد ابتكار منظومة عملية من الصفر... التاريخ يعيد نفسه... وربما كان مستقبل دولتنا في الشرق... كتاريخ دول الفرنجة في بلاد الشام... هل تذكرين؟... لقد استمر سيناريو تلك الدول الإفرنجية... سبعين سنة... ثم سقطت... بعد أن قدم فيها ملوك الفرنجة مئات القرابين من أبناء اليسوعية البؤساء... ربما كانت قضية كقضية الصليبيين... خطأ من جنون... وجناية صارخة... وخيانة للشعوب... ولكن الحقيقة الجلية... تؤكد وبكل وضوح: إن من يحتل بلاد غيره فإنه حتماً الخاسر... بالطبع مع أجياله اللاحقة... وسوف تناله لعنات بني جنسه إلى يوم الدين... كنت سأصفق لدولة إسرائيل لو لم يكن ثمة عرب... ولكني سألعنها مع أول لبنة توضع في جدارها... لأنها تحمل بذور سقوطها مع بذور إنباتها... ربما سقطت بعد ألف سنة... ولكنها لن تسقط حتى يلعنها اليهود قبل غيرهم... لأنها ستحصدهم قبل غيرهم".

طأطأت هدية رأسها... وهي تقول:

- "أنت محقة سيدتي".

- "أنا أقرأ في الأفق بوادر اللعنة... إنها حتماً ستحل على كل أوروبا... لأنها هي من سيسعى في تنبيت طفل في رحم غير رحم أمه... إنه الزنا... والفجور... نعم... إن زرع وطن لليهود في قلب بلاد العرب... إنما هو وضع البذر في غير الحرث... وسيكون ولد الزنا ممقوتاً حتى يموت... أما والداه فهما ملعونان من فم

ابنهما، قبل أن يكونا ملعونين من أفواه الناس... أوروبا هي الفاجرة... وهي التي ستنال لعنات أكثر... أنا واثقة من ذلك".

كانت نظرات هدية ساهية... وأذناها مبهوتتان بما تسمع... لقد تسمرت جامدة بين ثنايا كلمات دينا... التي تقذفها... وتقذف معها بالشرر والغضب... وكان تسليم هدية بهذا الكلام... يكاد يكون مطلقاً... لذا طأطأت رأسها وبدأت تردد:

- "نعم... ستكون دولة إسرائيل لعنة على اليهود... وستكون لعنة على كل أوروبا الصامتة... عندما يكون الضحية في يوم ما... هم أبرياء المسيحية... وأبرياء اليهودية".

قامت دينا بهدوء... ثم اتجهت للشرفة المطلة على الحديقة المجاورة... ثم أكملت:

- "لن يصمت العرب... أنا واثقة من ذلك... وإن صمتوا اليوم فلن يصمتوا في الأعوام المقبلة... ولو لم يجدوا من طريق للخلاص إلا تدمير العالم... إنهم حتماً سيدمرونه... وستشهد أيام المستقبل لكلامي هذا... ويلك يا بلفور... أنت بما تفعل الآن... تدمر أوروبا في المستقبل... نعم... أنت لا تدمر العرب".

نظرت دينا في تأهب نحو هدية... ثم أكملت:

- "هل ستكونين معنا... بالطبع... في طريق الوقوف أمام هذه الدولة... الجسد؟".

قامت هدية في تأهب... ثم قالت:

- "نعم أنا معكم... بكل تأكيد... ولكن كيف أثبت لكم أنني معكم... أقصد كيف أثبت إخلاصي؟".

ابتسمت دينا... ثم قالت:

- "أوه يا أختي... أنت إذن لا تعرفين دينا... أنا لا أحتاج لأدلة كي أعرف الذي معي والذي هو جاسوس ضدي... تكفيني النظرات التي أقرأ بها ما بداخل عيني من أمامي".

ركزت دينا نظراتها في عيني هدية... أشبه بنظرات نمر عربي... لم تتمالك هدية نفسها... لقد تراجعت للوراء... وبدأ قلبها يرتجف خوفاً... بيد أن ابتسامة صادقة ارتسمت على شفة دينا... كانت ابتسامتها كفيلة ببث نوع آسر من الدفء... لم يكن لقلب هدية المجروح... أن يحظى بمثله منذ سنوات... اقتربت دينا... وربتت على كتف هدية وهي تقول:

- "ستذهبين إلى الشرطة... كي تسددي المبلغ المقرر عليك... لهذا الشخص المدعو جوني... وبعدها سوف ألقاك... لك عندنا عمل مناسب... في المركز... أنت بالطبع كفاءة علمية ممتازة... أنت مكسب كبير".

نظرت هدية إلى دينا بشكر... ثم هزت رأسها وانصرفت:

وفي تلك الأثناء... دخلت دينا على الفتاة كاري... وقالت:

- "كلفي أحد الرجال بدراسة حياة هذه المرأة... بكل التفاصيل... ومع كل السرية... قد نضمها إلينا".

جلسة ودية

مرت ثلاثة أيام على المناظرة... دينا جالسة الآن على مكتبها في المركز... دخلت سكرتيرتها الخاصة كاري... كانت تحمل مجموعة من الأوراق... وضعت الأوراق أمام دينا وقالت في احترام.

- "اجتماع أعضاء مجلس الإدارة في فرع الشركة سيكون بعد ساعة... سيدتي".

-"أوه ... لقد كدت أنسى... إن علينا أن نناقش مشكلة التكدس في الزهور... الخزائن ربما تمتلئ... هناك مشكلة حقيقية مع ظهور بواعث الحرب".

- "أيضاً دكتورة... هذه الرسالة من جامعة روما".

- "ناوليني إياها من فضلك".

استلمت دينا الرسالة... ثم فتحتها:

- "ما هذا... إنهم لازالوا يطاردونني... لقد قدمت استقالتي وانتهى الأمر... ما هذه السخافة... يريدون مني الإشراف على مجموعة من البحوث في علم النبات... هذه مهزلة... بحوث مقدمة للحصول على الدكتوراه... وما دخلي أنا في الأمر... ألا يوجد غير دينا... ماذا عساي أفعل... أنا مشغولة لحد التوتر".

- "ألا ترين سيدتي أن فتح هذا المركز هو السبب وراء التهام وقتك".

- "نعم... نعم... بالتأكيد".

- "اعذريني سيدتي... هل هو مهم لهذا الحد؟".

- "بالطبع... ألا ترين... يكفي أنه وفر لك عملاً... هـ هـ هـ ... نعم... نعم يا عزيزتي... أنت لا تعلمين كم يهمني أمر الأديان".

- "هل لي بسؤال دكتور؟".

- "تفضلي".

- "لماذا؟...".

صمتت كاري في حياء... ثم أردفت:

- "أرجو المعذرة... ولكن... لماذا... لماذا لسنا جميعاً مثلك... ألسنا كلنا يهوداً؟".

- "تقصدين لماذا أنا لست مثلكم... مع أننا جميعاً يهود... أليس كذلك... هناك فرق بين التعبيرين؟".

- "نعم... نعم...".

- "أنا...".

انقطع الحديث بطرق على الباب... ثم قالت دينا وهي تبتسم:

- "سنكمل فيما بعد... انظري من بالخارج".

خرجت السكرتيرة... وفاجأها الطارق... إنه الدكتور روزولث... لذا عادت مبتسمة لدينا وقالت:

- "إنه... الدكتور الذي ناظرتيه المرة السابقة".

- "أوه... صحيح".

قالتها دينا بتعجب ثم وقفت لاستقباله... كانت التحية حارة... بعدها دخلت دينا وهي تكرر ترحيبها وتبعها الدكتور... وبعد أن جلسا متقابلين قال الدكتور روزولث:

- "لا أدري هل أنت مشغولة... أم أنك قادرة على إعطائي بعض الدقائق".

- "أوه دكتور... كم أنت متواضع حقاً... أنا سأمنحك أغلى الساعات... أشكر لك جداً مجيئك إلى هنا... هذا كرم منك عزيزي".

- "شكراً... شكراً... ولكني سمعت من موظف الاستقبال أن لديك اجتماعاً مع مديري شركتك".

- "أوه لقد ذكرتني... كم أنا في حاجة للوقت".

- "هل أنت مشغولة إلى هذا الحد".

- "المركز... لقد التهم وقتي... ولكنه قدري... وسأعمل فيه حتى النجاح... إن شاء الله".

- "لماذا ترددين كلمة (إن شاء الله)".

- "أوه... ألازلت ملحداً... هل أزعجتك هذه الكلمة".

- "صديقتي دينا... كم أنا فخور بك... لقد وقفت بين يديك في المناظرة... وقفة ربما كانت محرجة... أو ربما بدت كذلك لبعض الحاضرين... لقد رأيت

بعضهم مشفقاً علي... وبعضهم الآخر سعيداً بما رآه من الحرج الذي أصابني... لقد أحسوا أنني أُفحمت... لقد كان الأمر ثقيلاً".

- "كلا... لا تقل ذلك".

- "لكنهم جميعاً لا يعلمون ماذا يعتمل في داخلي... صدقي أولا تصدقي... لقد كنت أرقص طرباً من داخلي كلما رأيتك تقمعين الجهل... بعلمك الكبير، لقد سقيتي في كياني بذرة قديمة... كانت راكدة في أعماق نفسي الطفولية... كنت في نهاية المناظرة ثملاً... لكن بمشروب آخر... وكنت أشعر بسعادة غامرة... لقد وجدت كياني... ووجدت ما كنت أفتقده... وأنا حينما أقول هذا القول... لا أقوله لأني عامي انطلت عليه الألفاظ والمواعظ المعسولة... ولكن لكوني فيلسوفاً أتعمق لنزع الحقائق... كلما حارت العقول البسيطة في فهمها.

وعندما عدت لمنزلي... لم أجد بداً من إعادة كلماتك... كنت حينها بحاجة ماسة... لإقامة صلة بما كنت تسمينه الخالق... وبما كنت أسميه أنا مصدر الوجود... لقد خرجت في الظلام... وتصالحت مع الله...

كنت أنظر للأعلى وأتأمل... ووجدت قلبي ينبض كمعزوفة جميلة... آه كم أحسست حينها بالسعادة... وأخيراً سكبت دموعاً لا أدري ما بواعثها... ولكني حينها أحسست أني طفل رضيع في هذا الكون... وأن الله الذي يربيني ويمنحني الحب والرحمة... حينها ودون شعور... ألقيت بوجهي على الأرض... وقلت... ليس الإيمان سذاجة أو حمقاً... ولكنه فلسفة كبيرة".

شهقت دينا شهقة عميقة... ثم استمر نحيبها لوقت... ووضعت يدها على وجهها... وبدأ جسمها في الاهتزاز... الدكتور أحس بشيء من الاضطراب... حيال موقفه هذا... ولكنه سمح لبعض دموعه أن تتكور على حافة عينيه... استمر الموقف الصامت ثلاث دقائق... وكانت القلوب حينها تلوك المعاني الجميلة... ثم طرقت السكرتيرة الباب ودخلت وهي تقول:

- "الاجتماع يا دكتور".

انتبهت دينا لحالها... ثم مسحت عينيها بيدها بطريقة غريبة... ثم عدلت جلستها وقالت:

- "أحضري القهوة للمديرين... وأخبريهم أن الاجتماع سيتأجل نصف ساعة".

نظرت دينا للدكتور... ثم قالت:

- "لا عليك... هذه مجموعة من الأحزان والهموم... وأتعاب سنوات طويلة... لقد أخرجتها الآن... نحن في حاجة للدموع... مهما صلبت أعوادنا... وارتفعت مناصبنا... عملية الدموع بالنسبة للهموم... أشبه بعملية الأيض بالنسبة للطعام... ولكني سعيدة بكلامك".

- "أنا... دكتور دينا... محتار... أريد أن أعيد ترتيب حياتي... في الحقيقة أنا عازم على ترتيبها وفق أساس ديني... ولكن هل هناك دين حق... ودين باطل... وهل الدين شيء واحد أم أنه أشياء متعددة... أريد اختيار الدين الصحيح... لا أريد أن أسير في إلحادٍ هو أكثر ظلاماً من إلحادي السابق... وربما كانت بعض الأديان أسوأ من الإلحاد بعينه".

- "لقد أكْمَلْتَ خطوة... يا دكتور... وبقي خطوة أطول... ولكنها أكثر إمتاعاً... عليك أن تدرس عن الأديان بطريقة أفضل... لو بدأت باليهودية مثلاً... ثم النصرانية... ثم البوذية... فالهندوسية... ولا أظن هناك مانع يمنعك من دراسة دين الشرق... الإسلام... لا أدري لماذا التوجس من الإسلام... ولكن التاريخ بين أوروبا والإسلام يجعل القلوب تدق كلما تذكرنا شخصيات من أمثال خالد بن الوليد... وعمرو بن العاص... وطارق بن زياد... ومحمد الفاتح الذي سقطت القسطنطينية على يده... ولكن لا عليك... من كل ذلك... ثم... هناك طلب سأقدمه لك دكتور".

- "تفضلي".

- "لقد عزمت على تكوين مكتبة في المركز... مكتبة متخصصة في فلسفة دين الشرق...الإسلام... ومقارنته بالأديان... فكرة ولدت حديثاً... وسأطلب منك أن تكون مستشاراً للمركز في هذا العمل... سأكون سعيدة بمشاركتك معنا".

- "وأنا... سأكون سعيداً أيضاً".

- "بالطبع أنت لا تعرف أن لنا خطة جادة... في فتح خمسة مكاتب تابعة للمركز... في أكبر مدن أوروبا... نحن الآن نسعى لأخذ التصاريح... أنا أحتاج لك... بالفعل أنا أحتاج لك... وستأخذ مكافأة مجزية".

- "وماذا لو لم أكن يهودياً مثلك سيدتي... ربما كنت في المستقبل هندوسياً... أو بوذياً... هـ هـ هـ... هل سأبقى على رأس العمل".

- "كن كما تشاء... ستبقى في إطار تخصصك... مستشار المركز في مقارنة الأديان... لا عليك".

- "أوه عزيزتي دينا... أنا أعمل عندك".

- "أنت بالطبع تمزح... أنت لا تعمل عندي... ولكننا جميعاً نعمل في خدمة الحقيقة".

- "نعم... نعم... أنا فخور بأن تكوني رئيستي".

- "سأضيف اسمك في قائمة المحاضرين... في المحاضَرات الدورية في المركز... بعد شهر ستلقي علينا محاضرة تحوي جميع ما توصلت إليه... حتماً أنت موافق على ذلك".

- "شهر واحد... هذا قليل... ولكن عندما أفرغ من عملي في مقارنة الأديان... سيصلك الخبر... وسألقي المحاضرة".

أوراق لم تسقط بعد

لقد مرت الأيام سريعة... واستطاعت دينا أن تنجز الكثير من المهام التي قررت القيام بها... والدتها الآن هي المديرة العامة للشركة... وهي تقوم بدورها على أحسن ما يرام... ولديها الكثير من المتعاونين... وتجارة دينا تزداد وتزداد... لقد امتلكت حقلاً مساحته أربعة هكتارات مربعة... إنها مساحة كبيرة بالنسبة لزراعة الزهور... ولكن الشركات المختصة في صناعة العطور... من جميع أنحاء أوروبا... قد أبرمت عقوداً طويلة مع شركة دينا... لاستيراد الزهور.

ومع هذا النجاح المذهل لشركة دينا... إلا أن اهتمامها الآن منصب على شيء آخر غير الشركة... إنها مهتمة بقضية مركزها الديني... وما ينتابه من اضطرابات... خاصة وأن عدداً من اليهود المتشددين أحسوا أن ما تقوم به دينا أمر مناقض لمعتقداتهم الراسخة... التي كثيراً ما يكتمونها... لقد قابلت دينا العديد من رجال الدين... وقد حذروها من مغبة الحديث عن الأشياء الإنسانية المتعلقة بالأديان... وأيضاً من مغبة مقارنة الأديان.

مراكز جديدة

لكن دينا سارت في الطريق الذي رسمته... واستطاعت خلال أشهر أن تعلن عن افتتاح المركز الديني التوراتي في لندن... ومركز اللغة العبرية في باريس... ومركز اليهود الأحرار في برلين... لقد مر على فتح أول مركز لها عام كامل... دينا تؤمن بالعمل الجماعي... لقد وظفت الكثير من المتعاونين في مراكزها... إنها تحرص على استقطاب موظفين ناجحين ومثابرين... وهي تعطي كلاً منهم أجراً مجزياً... وتتنقل بين المراكز كل ثلاثة أسابيع... ومع كل هذه الصعوبات التي تواجهها... إلا أنها تشتد صلابة وعزماً... وذات مساء كانت دينا في مكتبها في المركز التوراتي بلندن... وكانت تقلب أوراقاً كثيرة تريد مراجعتها... وعندما طرقت السكرتيرة الباب... نظرت دينا جهة الباب وقالت:

- "لا يمكنني مقابلة أحد... أنا مشغولة جداً".

- "الدكتور روزولث... يريد مقابلتك".

- "ثانية... لقد كان هنا منذ فترة وجيزة... هل أنهى مهمته... دعيه يدخل".

دخل روزولث متلهفاً... في حين قالت دينا لدى دخوله:

- "أوه... ربما احتجت المزيد من النقود... ماذا عن مكتب باريس".

قال الدكتور وهو يسحب مقعداً ويجلس.

- "تنظرين لي كموظف لديك ... هذا ما كنت أتحاشاه ... لم آت من أجل مكتب باريس... أتيتك متلهفاً من أجل أمر آخر".

- "أمر آخر!".

- "نعم... وهل نسيت؟".

- "أعمالي أكثر من أن أتذكرها جميعاً... اعذرني ".

- "لقد وجدت الدين الذي يطمئن له العقل والقلب".

قامت دينا فجأة ثم ابتسمت وقالت:

- "صحيح ... هذا رائع؟".

- "لقد... لقد اخترت ديناً مذهلاً... ربما لن يخطر لك على بال".

- "أعرفه جيداً".

- "كلا... أنت لا تعرفينه... إنه الإسلام... الإسلام... يكفيه هذا الاسم... إنه حقاً دين السلام... أرجو أن لا نفقد صداقتنا".

جلست دينا ثم نكست رأسها... وقالت:

- "يا الله... هذا مؤسف... لن نستطيع أن نعمل سوياً... ونحن على دينين متناقضين".

- "نعم... ربما سنكون ضدين بعد اليوم عزيزتي دينا... ولكن ثقي في احترامي لك".

- "كلا لن أتركك... سأبذل المستحيل كي نكون على دين واحد".

- "أنا لا أستطيع أن أترك الإسلام... لقد اتخذت قراري... لا أستطيع... مع أن لك مكاناً كبيراً في قلبي".

- "أوه دكتور... يجب أن نكمل طريقنا معاً... ويجب أن نكون على دين واحد".

- "كلا دكتور... أشعر أنك أعظم إنسانة عرفتها... وربما أحببتها... ولكني مضطر لأتركك الآن".

قام روزولت عن المقعد... وبدأ يرجع للوراء وهو يقول:

- " أراك على خير... أنا آسف لتعكير مزاجك... ولكن اتركيني أعيش سعادة الحقيقة التي خالطت قلبي".

ولكن دينا قالت في ثقة... وحزم:

- "لماذا لا نتناظر... أنت تناظر عن الإسلام... وأنا عن اليهودية... ويكون ذلك أمام الناس".

أدار روزولت عينيه في دهشة... ثم قال في توتر يشوبه الخوف:

- "لا... لا... صديقتي".

- "أنت خائف إذن... إيمانك ضعيف".

- "كلا ولكن...".

- "اذهب... اذهب... أنت لست مؤمناً حقيقياً".

- "ناظريني إن شئت هنا... أو في أي مكان... لكن لا أريد المناظرة أمام الناس".

- "وماذا إن استطعت إقناعك".

فكر روزولث قليلاً... تذكر قدراتها على الحوار... ولكنه عاد لقلبه فجأة... ثم استنشق نفساً عميقاً... بعدها قال:

- "لن تستطيعي... أبداً... لن تستطيعي... ربما استطعت أنا إقناعك... ماذا لو أقنعتك دينا... هل تؤمنين إذن بالإسلام".

- "عليك إذن أن تذاكر الإسلام جيداً".

- "إذن أنت مصممة على المناظرة".

- "نعم وبكل عزم".

قال روزولث في ثقة لا يدري ما مصدرها:

- " عليك إذن أن تتوقعي الهزيمة".

- "بعد غدٍ... بعد غدٍ وقت مناسب... بعد غروب الشمس... في حديقة باترسي".

- "أوه رائع... سأعمل جاهداً لأنتصر عليك... وأرد لك دَيْنَكِ".

"أوه... أنت حاقد علي إذن... أنا لا أفكر في الانتصار عليك... فقط أفكر في الوصول للحقيقة".

- "هز روزولث رأسه في حنق... وقال:

- "هذا هو أسلوبك المذهل... حقاً أنت قوية... بهدوئك وثقتك... بدأت أخشاك".

- "لا عليك... ولكن أرجوك... اسمح لي بإحضار بعض العاملين في المركز... السكرتيرة كاري... وبعض الأعضاء... هذا لن يغضبك".

- "أنا كما عهدتك... تحرجين الذي أمامك بردودك المذهلة... ولكن سأكون شجاعاً... لا مانع من حضورهم".

خرج روزولث مبتسماً... وأقفل الباب خلفه... أما دينا فقد طأطأت رأسها... وبدأت في النحيب... كان نحيباً خاشعاً مهيباً... لم يطل الوقت... لقد قامت بهدوء وتواضع... ثم دخلت دورة المياه الداخلية في المكتب... وسرعان ما عادت ووجهها يقطر ماء... ثم وقفت خاشعة... ورفعت يديها... وبدأت تتمتم بكلمات لها أسرار رهيبة.

محاورة جديدة

حديقة باترس تغص بالزوار... وهنا وهناك تتناثر وسائل الإثارة والترفيه... أطفال يقذفون ألعابهم النارية... وبائع الذرة المطبوخة يتجول بعربته المزينة... وفي الظلام المختلط بالنور الخفيف تسير فتاة نشطة... وبجوارها رجل وخلفها شابان وثلاث فتيات... وسرعان ما يجلسون على طاولة طويلة تلتف حولها ثمانية كراس حديدية... مذهبة الأطراف... نادت دينا بائع الذرة ليحضر أكوازاً من الذرة المدهونة بالسمن... وبدأ الحديث... وفي أثناء قرقشة الذرة... قالت دينا:

- "جميل أن يختار الإنسان شيئاً جديداً".

ابتسمت كاري... وقالت وهي ترفع الإصبع السبابة، في يدها اليمنى:

- "سيدتي... هل أكتب المناظرة من هذه النقطة".

نظر روزولث في دهشة... وقال وهو ينظر لدينا:

- "يا لك من ماكرة شيطانه... وتريدين كتابة المناظرة أيضاً".

ابتسمت دينا وقالت:

- "لم أعهدك جباناً تخاف من كلماتك... أجبن الناس من يخشى كلماته هـ هـ".

لف روزولث وجهه في حيرة... وقال:

- "هذه هي البداية إذن".

- "لا... لا... أنا أمزح... فقط لو أذنت لنا بالتدوين... أعدك بعرض كامل المناظرة عليك... لتنقيحها قبل أن تنشر".

- "ماذا... وستنشر أيضاً؟".

- "لا عليك... ستكون دعاية لك... ولدينك الجديد".

- "حتى ولو انتصرتُ عليك".

- "حتى ولو انتصرت علي؟".

- "أنا موافق إذن".

قالت كاري:

- "هل أبدأ بالكتابة".

- "بالطبع... ابدئي".

بدأت كاري تكتب:

(المقال الثاني) (١).

روزولث... ودينا... والسر

يسيران بهدوء... بجوار الجدار القديم... في مرتفع بايدوند الأخضر... وعندما وصل روزولث ودينا للجسر الصغير فوق الجدول الصافي... سطع ضوء القمر... وقفت دينا بهدوء... ومدت يدها لزهرة صغيرة وقطفتها... ثم بدأت تنزع أوراقها الصفراء وترمي بها للجدول... ثم نظرت لروزولث... وهو يقول:

- "سعادتي ينقصها شيء واحد... هو أن تدخلي معي في الإسلام حبيبتي".

- "حبيبتك... أنت... روزولث... أنت حبيب الله... أنت مسلم... أما أنا".

- "أنت ماذا؟".

---

(١) لمعرفة مضمون المقال الثاني لكاري راجع الملحق في آخر الرواية.

"أنا... كاذبة".

انفجرت دينا بعدها ببكاء رهيب... واشتد نحيبها... اقترب روزولث منها في شفقه... ثم بدأ يربت على كتفها... وعندما شعرت بيده نظرت إليه في شكر... وقالت ونحيبها يختلط بكلامها:

- "أرجوك... أبعد يدك... عليك ألا تمسني".

اندهش روزولث ثم قال:

- "أوه... كيف نسيت أدب الإسلام في هذا الأمر".

بدأت دينا تضحك... ودموعها لاتزال في عينيها... على ما أصاب روزولث من حرج... ثم صمتت وطأطأت رأسها... ولكن روزولث قال لها في دهشة:

- "قلت إنك كاذبة... كاذبة في ماذا؟".

- "هل أنت مسلم صادق؟".

- "أرجو ذلك".

- "وهل تعلم مؤامرة اليهود ضد مقدسات المسلمين؟".

- "تقصدين دولة إسرائيل؟".

- "وهل تعرف مدى أطماع أوروبا... في الدولة العثمانية الخاوية؟".

- "نعم".

- "هناك دماء ستسفك... إن نشبت الحرب... الحرب الآن تكشر عن أنيابها... والجميع يريد الغنيمة... وبلاد المسلمين ستكون غنيمة باردة... أوروبا سترث خلافة العثمانيين... وستمنح اليهود دولة فلسطين".

- "وعلام غضبك... ألست يهودية؟".

- "أنت لا تفهم... هل ستكون أميناً على سري؟".

- "وما سرك؟".

- "هل ستكون أميناً... المسلم لا يخون ولا يغدر".

- "نعم أنا كذلك... قولي".

طأطأت دينا برأسها، وهي تقول:

-"نعم... لقد خططت لهذا كثيراً... ها هي بداية النجاح".

- "لم أفهم! ماذا تقصدين؟".

- "اسمع... سأخبرك بكل شيء... على أن تساعدني... لقد طال الوقت وأنا أبحث عن رجل يساعدني... لم أجد... صدقني... طال الوقت، وأنا محتاجة لاحتواء رجل موهوب مثلك... شيء ما يجعلني أقول هذا الكلام... ولكن لا بأس... كنت قد درست حياتك كاملة روزولث... منذ أن كنت في بلاد الشام... علمت أن قلبك سيحط في ربا الإسلام... ومنذ أول مرة استضافك فيها المركز وأنا واثقة بأنك ستختار هذا الطريق... أنت الرجل المناسب، بالفعل".

- "ماذا تقولين... لم أفهم... هل كانت استضافتي للمركز مقصودة لغيرها أم لذاتها... قولي".

أسندت دينا ظهرها على حافة الجسر... ثم نظرت لوجه روزولث... الذي بدا صافياً وضاء... ثم قالت:

- "أنا في الحقيقة... يا دكتور... فتاة مسلمة... هـ هـ... شيء مذهل... أليس كذلك... أنا لست يهودية... لقد كذبت عليكم... تخيل... أنا كاذبة... هل يبدو ذلك في ملامحي... أرجو أن يغفر الله لي... ولكني مضطرة لذلك... لأني أحمل هموم قضية كبرى... قضية العالم الكبير، الذي يسير للهاوية... وإلى الاحتلال والاستعمار... كنت أريد تفتيت الدعوات الصهيونية من داخلها... ولكن الوقت يسرق فتاة مثلي... تريد عمل الأشياء لوحدها... لقد تركت شركتي... وتركت

الجامعة ومنحت نفسي لقضيتي العادلة... ولكن الوقت بالفعل يسرقني... فتاة واحدة لا يمكنها أن توقف حرباً بين روسيا وألمانيا... أو أن توقف أطماع الأوروبيين في بلاد المسلمين... فرنسا وبريطانيا... دولتان... إرهابيتان... نعم... ليسجل التاريخ ذلك عني... لقد أوقفتا خط الحديد من الأناضول إلى مكة... لأنه يهدد مصالحهما في الاستعمار... أما فرنسا.. فلو قدر لها احتلال العراق... حتماً ستبدأ العمل لإنشاء السكه.. من أجل مصالحها فقط... إن نفسي تتكسر مع مرور الساعات... بل وتتصدع... صدقني أنا لا أنام من الليل إلا دقائق معدودة... ولكني أشعر بالعجز... والانحسار أمام الطوفان الهائل... لذلك أريد مساعدتك... ومن أجل ذلك... عملت كل ما بوسعي كي أكسب رجلاً مثلك... يحمل معي هموم قضيتي... ونحن في حاجة للمزيد من الرجال... ولكن الله سيأتي بهم".

طأطأت دينا رأسها في تأثر... في حين كانت عينا روزولث مفتوحة... ودهشتة الرهيبة تكاد ترفعه للنجوم... ولسانه جامد في فمه لا يجيد حركة... رفعت دينا رأسها... ثم قالت:

- "تكلم يا روزولث... قل أي كلمة... لم أكشف لك السر إلا بعد أن تأكدت من مدى فهمك لدينك... كنتَ في المناظرة كالطود المتين... قل لي... هل أنت مسلم بالفعل... المسلم يقف مع العدل والحق".

أمسك روزولث برأسه ثم قال بهدوء:

- "أنا لا أصدق... هل أنت... هل أنت بكل هذا الدهاء... أنت... تعملين بجد... من أجل هذه القضية... هل أنت بكل هذه العظمة... هل دخلت أنا للإسلام بتخطيط منك؟!".

- "الهداية من الله وحده... أما العظمة... فما دخل العظمة... أنا لا أفكر في العظمة... ولا في المجد... ولكنها الدماء والموت... أنا أخشى على مستقبل المسلمين... وعلى مستقبل البشرية... علينا أن نصارع من أجل البقاء".

- "إذن... سأكون تلميذاً عندك".

- "سنتعاون معاً... أريد منك يا دكتور أن تصحبني إلى برلين... هناك رجل أطمع في أن يساعدنا... إنه مسلم... اسمه لوك... ولكنه... ينظر بمنظار رمادي... الرؤية لديه ليست واضحة... أرجو أن يساعدنا".

ثالث الثلاثة

مرَّ أسبوعان على لقاء دينا بالدكتور روزولث في حديقة باترس... وها هما الآن متجاوران في إحدى عربات القطار... لأنهما متجهان إلى برلين في بروسيا... الحديث بينهما ذو شجون... ودينا تتحدث كثيراً عن الإسلام... إن معلوماتها الغزيرة تدهش روزولث... يبدو أن في ذهنها نظرية كاملة تجعل من الإسلام مشروعاً حضارياً ملائماً للقرن العشرين... وهي كثيراً ما تستشهد بآيات القرآن وتفسرها... وبين الفينة والأخرى تستغفر الله ثم تدمع عيناها... وعندما سألها روزولث لماذا تدمع عيناك... تقول:

- "لأني كذبت وقلت إني يهودية... ولكن علي أن أبقى كذلك... حتى نصل لما نريد".

بقيت دينا وروزولث في طريق رحلتهما الطويل... ثمانية أيام... ولكنهما كانا سعيدين بالتجوال... ورؤية المناظر الساحرة... دينا حريصة على الاستجمام قدر استطاعتها... لذا كانت تقترح الوقوف في كل مدينة يمران بها.

وأخيراً... حطت بهما الرحال مع الظهيرة... في برلين... استأجرا غرفتين متجاورتين في أحد الفنادق... وبقيا طيلة ذلك اليوم في الفندق... لقد تركاه يوماً للراحة...

وفي الليل... ذهبا للتجوال في برلين العريقة... وتناولا وجبة العشاء من أحد المطاعم في ميدان ألكسندر... ثم عادا قرابة الساعة العاشرة.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت دينا مع روزولث لمركز اليهود الأحرار... الذي فتح حديثاً في برلين... إنه مركز تابع لمركز الثقافة في روما... وهذه هي المرة الثانية الذي تزور دينا فيها المركز... منذ أن افتتح قبل ثمانية أشهر... وصلت دينا مع روزولث للمركز... كان وصولهما مفاجئاً... ولكن يبدو أن الأمور تسير على ما يرام... قامت دينا بجولة سريعة... ثم قصدت مكتبها... وبقيت فيه قرابة الساعة... وطلبت من السكرتيرة أن تبلغ جميع العاملين في المركز... عن الاجتماع الذي سيعقد بعد ساعتين.

في صباح اليوم التالي كان هناك احتفال صغير... بمجيء الدكتورة دينا إلى المركز... لقد كان الجميع سعداء جداً... وخاصة روزولث... الذي بدا ضيفاً أنيقاً ومهماً.

وبعد تناول وجبة صغيرة من القهوة... والحلوى الإيطالية... قامت دينا لتتفقد المركز... وبقيت طويلاً في المكتبة... ثم سألت روزولث:

- "ما رأيكَ في مجموعة الكتب".

- " لقد كنتُ مهتماً جداً بمعرفة العناوين... وقد وجدت أن الكتب التي تتحدث عن الإسلام قليلة... وهي في أغلبها مشوّهة إلى حد ما... هذا مؤسف... هي من ترجمات عدد من المستشرقين غير الموضوعيين... إنهم يتحدثون فيها عن الإسلام وكأنه اختراع بشري... أو نظرية إنسانية... المسألة تحتاج لجهد".

- "أظن أن المشكلة... تكمن في ندرة الكتب المترجمة".

- "أ م هـ... صحيح... ليكن في ذهنك من الآن فصاعداً إقامة مركز للترجمة... سنوظف عدداً ممن يجيدون العربية... ولغات أخرى".

- "أوه... أنت مستشار بارع... سيكون جهداً رائعاً".

- "سوف نعمل ما دمنا أحياء... مع أن خرقاً كبيراً في ثوب الحضارة الإسلامية يصعب على مثلي ومثلك... أن يرقعانه... خاصة أني لم أعلن إسلامي حتى الآن".

أكملت دينا جولتها... ثم دخلت إلى مكتب المدير العام... وطلبت من السكرتيرة الحضور للمكتب... جاءت السكرتيرة مضطربة... وقالت:

- "نعم سيدتي".

- "بالطبع أنت يهودية".

- "نعم سيدتي".

- "جميل... بالطبع أنت مقتنعة بدينك؟".

- "بالطبع".

- "أنت تكذبين... أليس كذلك... أنت مسيحية".

صمتت الفتاة... ولكن دينا أكملت بعد أن أخذت ورقة صغيرة وبدأت تكتب فيها... وهي تقول:

- "هذه الورقة أريد إيصالها للسيد لوك... إنه أحد الأثرياء في برلين... أريد منه الحضور... وهذا عنوانه".

- "حاضر سيدتي".

قال روزولث:

- "كيف عرفت أنها ليست يهودية ؟".

- "هذا لا يهم الآن... المهم هو أن يساعدنا السيد لوك".

- "ومن يكون لوك هذا؟".

- "لا عليك... هذه الحياة مليئة بالأسرار التي قد لا نحتمل معرفتها... علينا أن لا نبحث كثيراً في أشياء لا تهمنا... ربما كان لدي أسرار أنت لا تحتملها... وربما كان لديك أسرار أنا لا أحتملها... والوجود ربما كان له أسرار لا نحتملها جميعاً... ومن الحمق البحث فيها... إن المطلوب منا هو العمل... لا تقصي الأسرار... خاصة فيما لا يعنينا".

قال روزولث بشيء من الخجل:

- "هل أنا فضولي؟".

- "بالطبع".

- "مزاجك اليوم حاد دكتوره...".

- "أنا أحسب الدقائق والثواني... هناك شبح قادم... اسمه الحرب... ربما نموت قبل أن نقدم لقضيتنا شيئاً".

- "وهل هذا يؤرقك".

- "ربما... ولكن أرجو أن أموت وأنا سعيدة".

- "هل تحلمين كثيراً بالجنة".

"أوه... الجنة... هي المحطة النهائية التي أخطط لها... لن يكون الموت مشكلة بالنسبة لي... لأنه خطوة ضرورية لدخول الجنة... أرجو العون من الله".

مرت ساعتان على دينا وروزولث... كانا في المركز يتحدَّثان ويراجعان الكثير من الأنشطة... ومدير المركز يشرح لدينا كل شيء غامض... لقد شكرته كثيراً على أنشطته.

في تمام الساعة الثانية ظهراً... كانت دينا تغسل كفيها بعد أن تناولت الغداء وبجوارها مدير المركز... وكان روزولث في دورة المياه... في حين سُمعت أصوات أقدام شخص قادم... ثم سأل ذلك القادم السكرتيرة:

- "هل دينا هنا؟".

سمعت دينا صوت القادم وعرفته... إنه لوك... لذا قالت للمدير:

- "من فضلك استقبل الزائر... إنه رجل يهمني أمره".

- "حاضر سيدتي".

دخلت دينا إلى المكتب... في حين بقي المدير مع لوك في حجرة السكرتيرة... حتى أذنت دينا بالدخول... وعندما دخل لوك كان مندهشاً أشد الدهشة... لرؤيته دينا... لذا قال:

- "أوه عزيزتي دينا... لقد قسوتِ على المخلص من أجلك".

ابتسمت له... ومدت يدها مصافحة... وعندما رفع يدها كي يقبلها... سحبت يدها بلطف وقالت:

- "لا زلت أهوجاً... هيا اجلس".

جلس لوك... وجلست دينا في المقعد المقابل لمقعده... ثم ابتسمت في حين قال:

- "أوه هل أغضبتك؟".

- "ألست مسلماً... وتعرف أدب الإسلام... في علاقة الرجل مع المرأة؟".

- "وأنت ألست مسلمة... لماذا تصافحيني؟".

- "أنا يهودية".

- "لازلت كما أنت... ولكن علي أن أقبلك مع كل عللك".

- "سأحتسي معك قدحاً من القهوة... بالطبع لم أدعُك لذلك فحسب... ولكن لدي موضوع آخر".

- "هل سنتزوج ...؟".

- "هـ... هـ... سيد لوك... ألا تعلم أنني جادة... أكثر من أي وقت مضى".

- "هل صحيح أن هذا المركز لليهود؟".

- "نعم".

- "وماذا تفعلين هنا؟".

- "أنا يهودية الآن... عليك أن تدرك ذلك جيداً".

قال وهو يضع يديه على رأسه ويشيح بوجهه:

- "يا إلهي... لا بأس... أنا رهن أمرك".

- "أنت رهن شهواتك ومصالحك... اسمع لوك... يجب أن تعمل عندي... أنا الآن في حاجة لرجل مسلم... يجب أن نحمل قضيتنا... للعالم... إن الوطن الإسلامي في خطر".

طأطأ لوك رأسه... وقال:

- "وما قصة هذا المركز اليهودي... أنت لغز محير؟".

- "إنه شيء من المقاومة من الداخل... علينا أن نكسب رأياً قوياً... علينا أن نؤثر في اليهود كي يتراجعوا عن طلباتهم في الدولة العبرية".

- "أوه... دينا... أكاد أجن... أنا لا أعرف لماذا وثقت بي إلى هذا الحد... بل لا أدري ماذا وراءك... بدأت أخاف منك".

- "المسألة سهلة... أنا أعرف ماضيك كاملاً... أعرفه جيداً... لذا كان علي أن أثق بك".

- "لا بأس... أنت شيء مخيف... وخلفك سر غامض".

- "وأنت؟؟".

- "أنا خلفي سر غامض... هل أكشف سري وتكشفين سرك".

قالت دينا وهي تقلب أوراقاً عندها:

- "لا حاجة... الآن لا حاجة... ولكني أحتاج الآن لفتح مركز... أو مركزين... وربما ثلاثة... في الوطن العربي... أنا محتارة كيف يمكن القيام بذلك... ولكن علي أن أكمل طريقاً بدأته".

أطرقت دينا برأسها... ثم بدأت عيناها تذرفان... قال لوك:

- "عجيب... هل تبكين... لم أتوقع ذلك".

- "الوقت... إن الأمور تسير إلى الأسوأ... ربما كنتُ في حاجة كي أرجع للوراء... سنة كاملة... هناك بوادر سيئة... وربما لن ننجح... آه... كم يؤسفني التفكير بذلك... ولكني مصرة على مواصلة العمل... حتى النهاية".

- "أنت شيء مذهل دينا".

- "بالطبع سمعت عن الأخبار السيئة في يونيو الفائت (١٩١٤)".

- "أوه... أخبار المتطرف (غفريلو برنسيب) البوسني".

- "نعم... الرصاصة التي أطلقها على الأرشيدوق (فرانتز)... حتماً لن تمر على خير... هي فيما يبدو اقتربت بداية النهاية".

- "صبي أحمق".

- "صبي... ولكنه قتل وريث العرش النمساوي... بغض النظر... أكان أحمق أم لا".

- "البوسنة دائماً أم المشاكل".

- "هذا رأيك أنت... إن جمعية اليد السوداء الصربية وراء كل ذلك... بل إن الحكومة الصربية تتمرد الآن... وتماطل في إجراء التحقيق... وربما لن تحكم بجدارة في القضية".

قال لوك في شيء من عدم الاكتراث:

- "لا علينا...".

- "ولكن يا صديقي... النمسا لن تصمت... سوف تطالب بحقها في الانتقام".

- "لا علينا".

- "لا عليك أنت... أما أنا... فأظن أن بداية الحرب قد أزفت... لقد أرسلت النمسا بتقويض استقلال الصرب".

- "ليذهبوا للجحيم".

- "ألمانيا ستدعم النمسا... وتركيا حليفة لألمانيا".

- "هل لديكم قهوة هنا؟".

- "أوه لقد نسيت... أنت تفكر في بطنك كثيراً".

- "هذا صحيح".

نادت دينا سكرتيرة المركز... وطلبت منها فنجاني قهوة... مع قطعة كيك كبيرة... ثم أكملت:

- "وعندما تدخل النمسا وألمانيا في الحرب... فإن على تركيا أن تدخل معهم".

كان لوك حينها يفرك كفيه في شيء من الضجر... وعندما رأته دينا على تلك الحال سألته:

- "ماذا بك لوك... ألا تطربك آرائي في السياسة؟".

- "عزيزتي دينا... ليذهب الجميع للجحيم... أنا لا أدري هل أنت فتاة... أم أنك إمبراطورة بلا إمبراطوريَّة... عليك أن تفكري في نفسك... في أنوثتك... أو عليك أن تكوني رجلاً... وتذهبي معهم للجحيم".

- "ربما سأكون رجلاً... ولأنك أنت... وأمثالك... لم تقوموا بالدور المنوط بكم كرجال... كنت مضطرة أن أقوم به أنا".

- "أوه... يا لك من عقرب... لقد أرسلت لك الكثير من الرسائل... بعد لقائنا الأول... ولكنك كنت قاسية... ولم تكوني تدركين مدى اللوعة التي تثور في قلبي كلما تذكرتك... لا أدري لماذا وقع حبك في قلبي... مع أنك تعيشين في هذه الدنيا... وأنت

أشبه ببركان ثائر... وتتحدثين وأنت أشبه بزوبعة من الأحداث والمشاكل... ولكني... صدقيني... أحببتك... ربما كان ذلك نعمة... وربما كانت عقوبة".

في تلك الأثناء طرق روزولث الباب... دخل وهو يحمل فناجين القهوة... ولقد كانت ثلاثة بدلاً من اثنين... لذا امتعض لوك... وعلم أن هذا الداخل سيقطع خط الحديث... الذي انتظر طويلاً كي يلقيه بين يدي دينا... حتماً سيجلس هذا المأفون معهم... ولكن الداخل الجديد لحسن الحظ اعتذر قائلاً:

- "ربما قطعت عليكم حديثاً خاصاً".

عندها... انزاح الهم عن صدر لوك... وشعر أنه يتنفس الصعداء فرحاً بما ظنه مقدمة لعودة روزولث أدراجه... قالت دينا:

- "كلا يا دكتور... تفضل... سوف أعرفك على السيد لوك... إنه صديق قديم... وهو من كبار المستثمرين الألمان".

قال روزولث:

- "أوه... أنا سعيد بمعرفتكم سيدي... أهلاً بك".

قالت دينا:

- "تفضل... اجلس يا دكتور".

جلس روزولث... في الوقت الذي نظر لوك له بكل حقد... قال روزولث محاولاً عرض ثقافته:

- "أوه... هذه الكهرباء... إنها أشبه بالسحر... لقد سُخِّنَتْ القهوة في موقد كهربائي... الكهرباء أغدقت على البشرية خيرات لم يكن لها أن تحلم بها من قبل".

قال لوك منتقماً:

- "وما أدراك دكتور عن مستقبل هذه الكهرباء... ربما كانت الدنيا تنتظر حروباً قادمة... تحصد فيها الكهرباء كل ما قدمت للبشرية من خير... وتحصد أرواحاً لم يكن لها أن تُحصد... لولا وجود الكهرباء".

قال روزولث:

- "صحيح".

تحسر لوك على هذه الموافقة... لذا بقي مقطباً جبينه... يبتلع بين اللحظة والأخرى ريقاً مراً... لكن الشيء الواضح هو عدم ارتياحه لهذا الدكتور.

لم تأبه دينا لما ينتاب لوك من المشاعر... لقد بدأت في كيل المديح للدكتور بقولها:

- "هذا بالطبع هو الدكتور روزولث... إنه عالم أحياء بارز... ولكن الأهم هو كونه أحد الناشطين لدى مركزنا... إنه يبذل الكثير من وقته... ومن ماله... و...".

قال لوك بامتعاض:

- "لست أدري... هل هو يهودي... مثلك... أنت تحبين جمع اليهود حواليك دائماً... آنسة دينا".

قالت دينا وهي تضحك:

- "كلا... كلا... إنه مسلم... لقد كان ملحداً... والآن هو مسلم".

احمر وجه لوك... دينا لا تدري ما سبب ذلك.

تركيا... نهاية عام ١٩١٣م

دينا قررت أخيراً أن تسافر إلى تركيا... أوه... إنها العقدة الكبيرة في قضيتها الغامضة... وعليها أن تنجح هذه المرة... عرضت دينا على روزولث فكرة السفر... ولكنها أبدت تخوفها من الطامة... هل ترى فاتها الوقت... إنها عازمة على اصطحاب روزولث معها هذه المرة... وستكون الأستانة هي مقصدهم... مشاعر

راقصة تدغدغ أعماق دينا... كلما تذكرت إستانبول... أو إسلام بول... جلس الدكتور روزولث أمامها في مكتبها... ثم قال:

- "سوف تكون رحلتك مثيرة".

تنهدت وقالت:

- "أنا غريبة في هذا العالم... وأحمل أعباء مشروع ضخم... لست أدري هل أنا أسير في الاتجاه الصحيح... ولكن أجري على الله".

- "أنت مؤمنة يا دينا... لن يضيع عملك سدى".

- "لقد أسقط في يد عبدالحميد... كانت الآمال معلقة على رقبته... ولكنه كان مثلي... يحاول رفع الجبل الثقيل لوحده... لقد سقط الجبل عليه... وأخشى أنا أن تسقط الخلافة الإسلامية... حري بها لو سقطت... أن يشرب العرب والمسلمون دماءهم".

- "كانت الدولة العثمانية قوة ضاربة... ولو سقطت لما وجد المسلمون من يحمل على كاهله أعباء حمايتهم من الأوروبيين".

- "تريد إقناعي بذلك... لقد صدقت... ستُحْتَلُّ بلاد العرب شبراً شبراً... وسيقتل الملايين".

- "بالفعل... لقد تراجعت دولة الأتراك... هكذا الدنيا".

- "تراجعت بالفعل... ولكن بداية التراجع لم تكن اليوم... لقد كانت منذ ثلاثة قرون... أنت تعلم... بعد معركة موهاكس، عام ١٥٢٩... انتكست قوة الأتراك... ثم استمر التراجع".

- "صدقتِ... أوربا حينها قويت... وعادت ثقة الأوربيين في أنفسهم... بعد أن صُدت هجمات الأتراك على فينا... لقد أخفق الأتراك في استعادة فيينا... في ذلك العام الحزين عام ١٦٨٣... ومن ذلك الوقت بدأ العد التنازلي لدولتهم".

-"لننظر للمسألة من جهة أخرى روزولث... الحرب ضد الروس في القرن الماضي هي الطعنة التي أصابت المقتل... لقد خسرت الدولة العثمانية منطقة القرم... وبعدها تجرأ أعداء تركيا عليها... وبدأت الدولة العثمانية تخسر المدينة تلو المدينة".

- "واليونان... ألا ترين أن اليونان هي رأس الأفعى... لقد طالبت بالانفصال... وساندتها فرنسا وبريطانيا وروسيا على ذلك".

- "إنهم مساكين... حالهم كحال غيرهم... إنهم يطالبون بالاستقلال... ولكني أتسائل... هل يا ترى كان اجتماع قوى التحالف ضد تركيا... كان بسبب كونها دولة مسلمة".

- "كلهم كانوا يحقدون على الدولة العثمانية".

- "المهم أن اتفاقية ادريانوبل عام ١٨٢٩ المسماة (أدرنة)... وضعت حداً للقتال بين اليونان والدولة العثمانية... ومنحت اليونان فيه استقلالها".

- "تركيا تلقت أكثر من ضربة... ولكن الضربة القاضية هي احتلال فرنسا للجزائر عام١٨٣٠ واحتلالها لتونس عام ١٨٨١ ... واحتلال بريطانيا لقبرص عام ١٨٧٨ ثم احتلالها لمصر عام ١٨٨٢، شيء مذهل".

- "نعم شيء مخزٍ... وبعدها فكر الحلفاء والعثمانيون بوضع إصلاحات لإعادة تنظيم الجيش... وتحسين نظام التعليم... ثم تولى عبد الحميد الثاني... فطرح الدستور جانباً... ولكنه مع ذلك كان عازماً على إعادة الخلافة الإسلامية للمجد... الحقيقة أنه لا ينفع إصلاح الثوب الخلق".

- "نعم نعم... اليهود حينها قد وصلوا للأعماق... وأمسكوا بالكثير من الأمور".

- "تقصد جمعية تركيا الفتاة... أوه... في عام ١٩٠٨... هذا متوقع... لقد ثارت ضد عبدالحميد واستخدمت السلاح... وأجبرته على ترك أفكاره فيما يتعلق

بالخلافة... والعمل بالدستور... ولكنه ثار عليهم في فترة لاحقة... وفشل... أجبرته تركيا الفتاة على التنحي... منذ ٦ سنوات".

- "أوه... نعم ...عام ١٩٠٩".

- "ثم حُكمت تركيا الفتاة من خلال محمد الخامس شقيق السلطان عبدالحميد".

- "هل تصدقين... بعد الثورة لم يعد الأتراك ليأبهوا بالخلافة... ولا بالحفاظ عليها؟".

- "نعم، لقد سقطت بعدها ليبيا في يد إيطاليا عام ١٩١٢ واستولت النمسا على البوسنة... والآن تنازع اليونان من أجل أخذ كريت وجزء من مقدونيا وجنوبي آبيروس".

- "ستسلمها لها الدولة العثمانية لا محالة".

- "لا ندري ماذا سيحصل غداً".

- "علينا أن نعرف كل شيء عن مصطفى كمال... إنه من أهم رجالات جمعية تركيا الفتاة".

مكتب الشرق

إنه هناك بجوارها... قال في سخرية:

- "عليك ألا تصدقي هذه الدعاوي... أنت حمقاء إن فكرت ذات يوم بتصديقها".

عم الصمت قليلاً ثم انفلتت دينا بضحكة صغيرة... قام على أثرها لوك مغضباً... ولكن دينا أمالت رأسها ناحية روزولث وقالت:

-"لا عليك... سيرجع".

-"ما الذي دعاه لفعل كل ذلك... يبدو أنه غير سوي".

-"إنه خطوة مهمة ستوصلنا إلى إسطنبول... نحن في حاجة إليه".

- "ماذا تقصدين؟".

- "هذا الشاب... كان ذات يوم صديقاً لأحد أهم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي".

- "أوه... الجمعية التي نشأت في جنيف... والآن هي في سالونيك".

- "نعم... نعم... أحد أعضائها الشاب مصطفى كمال... وهو شاب يتصف بصفات الزعامة... والآن حسب معلوماتي هو منتظم في صفوف جمعية تركيا الفتاة... لقد كان مصطفى كمال صديقاً... أو قل... زميلاً للشاب لوك... في يوم ما... كلاهما كان يتيماً".

- "لست أدري ماذا يجول في رأسك... ولكن ماذا يمكن أن يصنع مصطفى كمال؟".

- "إنه إحدى حلقات التأثير... والتأثير عليه أمر في مصلحة الدولة التركية... لقد كان عضواً بارزاً على حد علمي في عزل الخليفة العثماني عبد الحميد".

- "أوه عبد الحميد... لقد كان شجاعاً".

- "كان شجاعاً... ولكنه لم يكن يعترف بالطرق السلسلة للإصلاح... لم يكن مناسباً لوقته الذي حكم فيه... لذلك كانت نهاية حكمه الخلع... لقد خسر أكثر مما كسب... كان يريد أن يدير الخلافة بالطريقة التقليدية... وكان يريد أن يمسك زمام الأمور وحده... ولكن الأمور تغيرت... لذلك خسر الخلافة... وخسرته الخلافة عام ١٩٠٩... والآن الأمر بيد من لا حول له ولا قوة".

- "وعلى أي شيء تعزمين".

وضعت دينا يدها تحت ذقنها ثم أكملت:

- "جمعية الاتحاد والترقي... هي الجمعية الأقوى... علينا أن نراهن عليها... وعلينا أن نخترقها".

- "أوه أنت مغامرة!! نخترقها... هذا رائع".

- "أنا لم أعد قادرة على التفكير... لقد أذهلني اتساع الخرق... ولكني أنظر للمستقبل وكأنه أمامي... ينقصني الوقت والرجال".

- "نعم الرجال... أين هم شباب مثل لوك... مسلمون... ولكنهم أبعد ما يكونون عن حل قضية".

في تلك الأثناء طرق الباب ودخلت السكرتيرة قائلة:

- "السيد لوك يريدك... سيدتي".

- "دعيه يدخل... تفضل أنت يا دكتور... يبدو أنه لا يريدك".

خرج روزولث ودخل لوك... وبعد أن جلس قالت دينا:

- "عليك أن تكون حليماً يا لوك".

- "لا تعجبني تصرفاتك مع هذا المسمى... دكتور".

- "وهل تغار منه؟".

- "نعم... يخيل لي أنك وقعت في حبائله".

- "وما دخلك أنت... في حبائله وحبائلي ".

- "أرجوك دينا... أرجوك... لا تقولي هذا الكلام... أنت لي... وأنا لك".

قالت في عدم اكتراث به:

- "هل ستقدم لنا خدمة؟".

- "ما هي؟".

- "نحن عازمون على فتح مكتب ثقافي في الشام... ومركز آخر في مصر... ونحن في حاجة إلى شاب مثلك... وأيضاً نحن في حاجة ماسة للتعرف على مصطفى كمال".

- "قلت ذلك من قبل... ولكن ماذا تريدين من مصطفى... إنه ضابط منهمك في عسكريته".

- "من أجل ذلك أنا أريد التعرف عليه".

- "أنا الآن أكرهه... ولا أظن أن لديه قلباً يسمح له أن يقدم للناس شيئاً يكون فيه مصلحة مباشرة لهم... ولكن".

- "ماذا؟".

- "لي أصدقاء من لبنان ومن مصر... إنهم قادرون على مساعدتكم".

- "جميل جداً... بالطبع هم يجيدون العربية".

- "نعم بالطبع".

- "ومسلمون".

"نعم متمسكون... وهم أيضاً يحتاجون لدعم... ولكن هل ستكون مكاتبك جميعاً يهودية؟".

- "كلا... كلا... سيكون هناك تنسيق آخر".

- "كيف... لم أفهم... كيف سيثقون بك".

- "هذا يرجع لجهودك أنت معنا".

- "أوه... هذه مهمة صعبة".

- "اطلب ما تشاء من أجر".

"أجر... أريدك زوجة شريفة لي".

- "ابتسمت دينا ... وقالت".

- "ليس قبل أن تعرف سري وأعرف سرك".

انبعث شيء من الأمل في نفس لوك... ونعس بعينيه قليلاً:

سعال جاف

الأمور هنا في مكتب برلين تسير على ما يرام... لقد مضت شهران... وكل الأمور أصبحت جاهزة... وذلك بفضل السيد لوك... الذي عمل جاهداً على إعداد كل ما طلبته منه دينا... والآن دينا تقلب الأوراق التي دونت فيها أسماء الأعضاء الجدد في مكتب القاهرة ومكتب بيروت... سبعة شبان لديهم طموح... وهم قادرون على خدمة قضيتهم... أربعة منهم في القاهرة وثلاثة في بيروت... إلا أن نار الغيرة لازالت تضطرم في أعماق لوك... كلما رأى وجه روزولث وهو يقابل وجه فتاة أحلامه... إن دينا تمكث مع روزولث الساعات الطويلة... في حين لا تمنح لوك إلا تلك الأوقات التي تستمع له فيها وهو يتحدث عن آخر أعماله بالنسبة لفتح المكاتب الجديدة... وكلما حدثها عن الزواج تخرج من أعماقها ضحكة باهتة... ودائماً تتحدث عن السر... السر اللعين... ولكن ميل لوك لها شيء مذهل... في الحقيقة أن لوك ذاته لا يعرف له سبباً.

وعندما دخل وقت الظهيرة طرق لوك الباب... ثم دخل... أذهله أن رأى روزولث إماماً... ودينا تصلي خلفه في المكتب... نظر يمنة ويسرة... ثم قرر الدخول معهم في صلاتهم... وبعد انتهاء الصلاة رفعت دينا يديها لأعلى... وبدأت في الدعاء... إلا أن لوك اعتذر منها قائلاً:

- "دينا ... أريدك على انفراد".

- "أوه... مستعجل... أنت دائماً مستعجل".

في تلك الأثناء قام روزولث مستأذناً... وهو يقول:

- "لقد اتضحت الرؤية... وقد فهمت كل ما يدور في ذهنك سيدتي... عملنا سيكلل بالنجاح بإذن الله".

- "ومادامت الميزانية جاهزة... أنا واثقة أنه لم يبق إلا بعض الأعمال الروتينية".

- "الأحد القادم سيسافر المهندس جون إلى لبنان... ومن ثم سينسق مع أصحابنا هناك... وبعدها سيرحل إلى مصر".

- " أنا متفائلة جداً... هؤلاء الشباب السبعة سيكونون هنا في برلين... بعد شهرين... الله... أحس أن مشاعري تكاد تتقد ناراً... أشعر وكأني أنظر للنجوم البعيدة وكأنها تقترب مني".

قال روزولت:

- "إنه نور الله... إنها البهجة والسعادة بتقديم الخير للناس... إنه الإيمان بقضية عادلة".

قال لوك:

- "وهل من الضروري مجيئهم إلى هنا؟".

قالت دينا:

- "نعم... عزيزي لوك... سوف نحجز لهم سبعة مقاعد... لدراسة اللاهوت والعقائد... وأيضاً لدراسة السياسة... أربعة أشهر سيقضونها هنا... وبعدها سنتفق على كل شيء".

خرج روزولث... في حين جلست دينا على أحد المقاعد... وركزت نظرها في الشاب لوك... وقالت:

- "إيه يا لوك... كم أشعر بالسكينة وأنت بجواري".

قال في انفعال:

- "صحيح دينا... هل فتحت قلبك لي".

طأطأت دينا رأسها وقالت:

- "القضية أكثر دهشة مما تتصور".

وقفت دينا... ثم سارت قليلاً كي تغلق النافذة التي دخلت معها نسمات باردة... ولكن نوبة جافة من السعال باغتت رئتها... حاولت دينا أن تكتمها عن لوك... ولكن السعال كان جافاً ومتواصلاً... بعد ذلك آثرت دينا أن تخرج... ولكن سرعان ما قال لوك:

- "دينا... ماذا بك... هل أصابك مكروه...".

- "لا... لا... هـ هـ هـ... أهـ... أهـ".

ثم خرجت.

انتظر لوك قليلاً... بعدها دخلت دينا وهي تبتسم وقد غسلت وجهها... وعندما دقق لوك في وجهها بصره... أدهشه احمرار عينيها... لذا قال:

- "يبدو أن في الأمر سراً ما... هل أنت مريضة؟".

- "ومن منا في هذه الأيام لا يشعر بآلام في جسده... الجو بارد".

- "أوه دينا... عدت إلى إجاباتك المطاطة... لماذا يا دينا لا تجيبين عن أسئلتي بصراحة؟".

"أنا؟... دائماً تظلمني لوك".

- "أنت من يظلمني... ولكن... سأطلب منك طلباً صغيراً حبيبتي".

- "تفضل".

- "هل لي أن أقابلك الليلة... أريد أن أتحدث معك في أمر هام".

- "وما هو؟".

تقدم لوك نحوها... وأمسك بيدها وأكمل قوله:

- "ألا تعلمين أني أحبك... أنا أحبك من أعماق قلبي".

قالت في حزن:

- "وأنا أحبك... ولكننا لا نستطيع أن نتزوج... نعم نحن لا نستطيع... صدقني... هذه مسلّمة".

- "لماذا... دينا؟".

- "ألا ترى أن من الغريب حرصي على مقابلتك دائماً".

- "لا أدري... وهل أنت حريصة على مقابلتي... لم يبد ذلك لي قط".

- "أوه حبيبي لوك... يبدو أن قلبي بالفعل أصبح كالصخر... يبدو أنني بالفعل نمرة شرسة... ثق يا لوك أنني لا أصلح زوجة لك... وربما لا أصلح زوجة لأحد".

- "كلا حبيبتي... لا تقولي هذا الكلام".

بدأت مشاعر دينا تُحتضر... ثم تكورت دمعتان في عينيها... وطأطأت رأسها... ولكن سرعان ما عادت نوبة السعال ثانية لحنجرتها... ومع سعالها ذاك... كان نحيبها يزداد... قال لوك حينها في شفقه:

- "ماذا بك حبيبتي؟... يبدو بالفعل... أنك مريضة".

حاولت دينا أن تتصنع الضحك... ثم تركت لوك وذهبت جهة الباب... كي تخفي قسمات وجهها... المتقطع من الألم... وصوت سعالها الغريب يعبث بكل بدنها... ولكنها لم تتمالك نفسها... لقد سقطت... وسرعان ما هب لوك مسرعاً نحوها... وقال:

- "هيا بنا... سأذهب بك إلى طبيبي الخاص... عليك أن تُحددي ما أصابك بالضبط".

ولكن دينا وقفت متحدية كل شيء... وقالت:

- "لا عليك... لوك".

ثم عادت أدراجها حتى ألقت ببدنها النحيل على أحد المقاعد... خرج لوك في تلك الأثناء... وطلب من السكرتيرة أن تذهب بسرعة لإحضار الطبيب.

بدا لوك قلقاً مضطرباً... ومر الوقت سريعاً... ثم طرقت السكرتيرة الباب وهي تقول:

- "الدكتور".

دخل الدكتور العجوز... ذو السبعين عاماً... وفتح حقيبته بهدوء... ثم أخرج السماعة... ولكن دينا مدت يدها قائلة:

- "لا حاجة يا دكتور... لا حاجة... أنا بخير".

رفع الدكتور كتفيه لأعلى مستغرباً... ثم نظر إلى لوك وقال:

- "لماذا استدعيتموني إذن".

اقترب لوك من دينا وقال:

- "ماذا بك... هل أنت قلقة... يجب أن يراك الدكتور".

- "أنا أعرف تماماً ماذا حصل لي".

أرجعت دينا رأسها للوراء ثم أكملت:

- "لقد بدا واضحاً للناس أني مريضة... ولكني بخير... علي أن أواصل عملي... بجد".

ابتسمت دينا... وأخرجت نقوداً ناولتها للدكتور... ثم طلبت منه أن ينصرف... وبعد ذلك قامت... وبدأت تسير داخل الغرفة بحركة دائرية... ثم طلبت من السكرتيرة كوباً من الماء... في أثناء سير دينا كان لوك يتابع حركات جسمها بهدوء... لم يتمالك نفسه في النهاية... لقد قام من المقعد... واتجه نحوها وهو يشعر بالأسى يعتصر قلبه... ثم قال في عطف:

- "هل أنت مريضة... هل ثمة شيء يدعو للقلق؟".

- "كيف حالك يا لوك... هل أنت مريض؟".

- "أنا ؟ أنا مجنون... وربما قريباً سأنتحر".

- "عليك إذن أن تنتحر بأداة حادة".

- "أنت كالزئبق".

- "صحيح".

- "ولن أكون سعيداً لو تزوجتك".

- "صحيح".

- "ولكني أحبك... وأحب كل ألاعيبك دينا".

- "شكراً".

- "متى إذن سنلتقي لتحديد كل شيء... ما رأيك... الليلة".

- "لا... لا عزيزي... أنا في هذه الليلة سأكون مرتبطة في عمل هام".

- "ليلة غدٍ... إذن".

- "ثق لوك... أنك لو عرفت حقيقتي... فلن تتزوجني... مطلقاً... أنت أبداً... لا يمكن أن تكون زوجاً لي... أبداً".

انفعل لوك... وقال:

- "هذا عبث أطفال... هذا هراء... هذه ألاعيب قذرة... لماذا إذن جعلتني كالخادم لديك... لماذا طلبتي مساعدتي".

- "لأنك مسلم... وأنا مسلمة".

- "لن تكوني زوجة لغيري... أنت خلقت لي... لن يناسبني في هذه البلاد الغربية أحد سواك... أرجوك... لا تعذبيني".

- "البلاد الغربية ؟ ما تقول... ألست ألمانياً لوك".

اضطرب لوك... ووضع يده على رقبته... ثم سحبها لأسفل... وبدأ يحك ذقنه بتوتر... في حين قامت دينا... وربتت على كتفه... وقالت:

- "لا عليك... سرك مدفون في صدري".

- "أي سر... أنا لا أملك سراً غير... غير كوني مسلماً... تماماً مثل سرك أنت".

- "لا عزيزي... أنا لي سر آخر... وأنت لك سر آخر... ويوماً ما سأكشفهما".

- "اقترب لوك من دينا... ودقق النظر في وجهها... وقال:

- "لا أدري لماذا أنجذب لك".

وعندما ابتسمت دينا بسمة بريئة... ازداد تركيز عيني لوك في أسنانها البيضاء المرتصة كعقد لؤلؤ... أحس بما يشبه الهيام... ثم قال:

- "دينا... أشعر أني أعرفك... أشعر أن صورتك مرتسمة في ذاكرتي... لا أدري... أشعر أنك قطعة مني... هذا الوجه شيء مهيب... إنه صورة مرتسمة في أعماقي... في أعماقي".

- "لقد قالت أمي ماريا شيئاً من ذلك... عندما سنحت الفرصة لي أن أعرفك... قالت:

هناك صبي كان يعمل في المناجم... عندما كنت طباخة للعمال... إنه شاب أبكم... لا يتكلم... وهو يشبهك تماماً»...

هل تصدق يا لوك".

طأطأ لوك رأسه قليلاً... ليعيد مشاعره نحو سنوات بعيدة في عمره... سنوات العناء والوحدة... وليدق قلبه مع ما يختمر في ذاكرته من ضربات المعول... ولتعزف مشاعره الماضية شيئاً من الأنغام... لمشاعره الحاضرة... دويَّ السنوات المملوءة بالحزن والغربة.

- "آه دينا... من أجل كل هذا... كان حبي لك شيئاً من حبي لذاتي... سنلتقي الليلة حتماً... وسنتفق على كل ما يتعلق بالزواج... قُلّةٌ من الهموم تهوي في أحشائي... أنت من سيزيحها".

- "كلا عزيزي... لا تكن لحوحاً فيما لا فائدة من ورائه".

أطبق لوك شفتيه... وزفر زفرة طويلة من أعماقه... ثم قال وهو على وشك النهوض:

- "يا لك من امرأة نمره... تباً لك".

قام بعدها وانصرف.

لوحة بطابع خاص

مع حلول المساء... كانت دينا في قصرها الأنيق... تسلي نفسها بالوقوف أمام لوحة فنية... ثم تضيف بين الفينة والأخرى مسحة خفيفة بالفرشاة... وسرعان ما تعود للوراء كي تتأمل تلك الجبال الشامخة... ذات اللون الرمادي الخفيف... ثم تعود لتمسح الفرشاة ثانية... على ذلك اللون الأصفر الممزوج بلون أحمر باهت... وبعد أن تغرق الفرشاة في ألوان الزيت... تحملها دينا لتمسح مسحات متتالية في الأفق... وتُطأطئ رأسها وتتأمل... ثم تعيد فرشاتها للون الأخضر الممزوج بلون أصفر خافت... وترفع فرشاتها تغرقها بين أغصان شجرة السدرة العملاقة... المنتصبة بجوار بركة الماء الصغيرة... دينا تدهن وتدهن... وتشعر بلهيب الحنين لشيء بعيد مدفون في أعماق سنوات راحلة.

عادت دينا للخلف... ثم حملت كرسياً صغيراً... وقربته من اللوحة... جلست... ومكثت ما يقارب نصف الساعة وهي تتأمل... وبعد ذلك حملت الفرشاة ووضعتها في اللون الأصفر الفاتح... ثم رفعتها وبدأت تدهن في ظهر حيوان يجلس بجوار شجرة السدر... في تلك الأثناء طُرق الباب... انتبهت دينا لما حولها... أوه...

إنها الآن بالفعل... في برلين... وليس ثمة وادٍ... تركت دينا كل شيء كما هو... وحملت نفسها جهة الباب ثم فتحت.

- "مرحباً دينا".

- "أوه... مرحباً لوك... لم أكن أتوقع أنك قادر على أن تجيء إليّ دون موعد مسبق... حقاً أنت شجاع".

حك لوك رأسه ثم قال:

- "هل من الممكن أن أدخل؟".

- "أوه... بالطبع... أنت الآن تمثل دور الضيف... وعلي أن أمثل في مقابل ذلك دور صاحب البيت الكريم... تفضل... تفضل لوك".

- "شكراً عزيزتي".

دخل لوك وهو يدير عينيه في المفردات المتناثرة هنا وهناك:

- "أوه... أنت رائعة دينا... شيء جميل تملكينه... أنت أنيقة".

- "أهلاً بك أخي الكريم... أهلاً أهلاً... أنت لبق... جداً لدرجة اللصاقة!!".

نظر لوك لدينا نظرة تأنيب... ثم جلس على المقعد... في تلك الأثناء اتجهت دينا جهة المطبخ لتعد شيئاً ما... وبقي لوك يتلذذ بذوق دينا في ترتيب هذا المنزل... ولكنّ بصره بدأ يتركز شيئاً فشيئاً هناك... عيناه تضيقان وتنفتحان وهو يحملق في اللوحة... شيء ما بدأ يعتمل في أعماق هذا الشاب الألماني... قام لوك دون شعور... وتقدم جهة اللوحة... وعندما وقف أمامها... بدا وقوفه مهيباً خاشعاً... إنه يُصَدِّعُ في نفسه جدار الزمن... ولكن... لماذا هذه اللوحة بالذات... هي ما اختارته دينا... لترسمه... ثم كيف عرفت كل هذا.

دخلت دينا وهي تحمل فنجاني القهوة... في صحن زجاجي ملون بنقوش صغيرة... ثم قالت:

- "أنا أفتخر... لأنني لا أوظف خادمة في منزلي... المرأة هي من يجب أن تخدم في بيتها".

ولكن دينا أغمضت عينيها بسرعة عندما رأت لوك ينظر للوحة... وقالت بقلق:

- "اجلس لوك... هذه اللوحة لم تكتمل بعد".

نظر لوك جهة دينا وقال:

- "كيف... وأين... ومتى... ولماذا... هذه اللوحة؟".

- "لا عليك... اجلس... اجلس".

دفعته للخلف بهدوء... وعلى المقعد جلس لوك... وهو في أقصى درجات التوتر... في حين اتجهت دينا جهة اللوحة... وأسدلت عليها ستاراً من قماش... وعندما عادت نظر لها لوك منتظراً الإجابة... إلا أنها قالت بكل هدوء:

- "هل من الممكن أن تقول لي لوك كل شيء عن حياتك... عن طفولتك... عن حقيقة شخصيتك".

ذبلت عينا لوك وارتعشت شفتاه... ليس ثم ما يمكن قوله... لذا قالت دينا:

- "عليك أن تنسى أمر هذه اللوحة حتى أخبرك به".

- "ألا يمكن أن تخبريني الآن؟".

تنهدت دينا ورفعت رأسها في حزن... وقلبها يكاد يتقطع ثم قالت:

- "الغريبان... أما آن لهما أن يجتمعا".

انتبه لوك ثم قال:

- "بلى... لقد آن أن نجتمع".

صمتت دينا قليلاً لتُشعر نفسها أنها تفكر... ثم قالت:

- "هناك قضية كبرى... صديقي لوك... قضية أكبر من كل المشاعر... وعليَّ أن أسير في الطريق حتى... آخره".

- "هل يمكن أن تقدمي اللوحة... هدية لي".

-"أنا أعرف كم هي قيمة اللوحة لديك... ولكن قيمتها عندي أكثر بكثير مما تتخيل... وهي حتى الآن لم تكتمل بعد... أشياء كثيرة علي أن أضيفها... ربما فكرت في المستقبل أن أهديها لك... ربما".

قال في توتر وهو يشعر بإعياء شديد:

- "هل تسمحين لي بالاستئذان".

- "غريب... وكأنك لم تأت لتبقى... هل أزعجك شيء".

- "كلا... ولكني في حاجة ماسة... كي أخلو بنفسي".

الطبيب السخيف

في جلسة عائلية لذيذة... داخل منزل دينا في روما... كانت الفتاة تجلس على قطعة سجاد صغيرة... وقد أسندت ظهرها إلى الجدار... وأمامها أمها ماريا التي أصبحت الآن أكثر ثرثرة... خاصة مع مهنتها الجديدة... كمستشارة عامة... لدى شركة دينا... لإنتاج وتصنيع العطور.

ابتسامة دينا لم تكد تنقطع... إلا عندما فاجأها السعال الجاف... لم يكن السعال عادياً ... لقد كان حاداً بالدرجة الكافية لجعل العجوز ماريا تضرب بيدها على صدرها ثلاث مرات متتالية لتقول بعد ذلك:

- "ما هذا دينا... ماذا أصابك عندما كنت بعيدة عني... هل أنت مريضة... هل عرضت نفسك على طبيب... لماذا لم تخبريني أنك مريضة؟".

- "لا عليك أمي".

- "ماذا قال الطبيب؟".

لم تتكلم دينا... لأن نوبة السعال داهمتها مرة أخرى... مما جعل العجوز تهب واقفة وهي تقول:

- "سوف أذهب للطبيب".

- "لا داعي أرجوك".

انطلقت ماريا خارجة من المنزل... وسارت في الطريق المرصوف... كانت سمات القلق مرتسمة على وجهها... ثم سألت أحد المارة عن أقرب عيادة طبيب... لم يكن ذلك المار حريصاً على إخبارها عن شيء... لذلك ذهب وتركها... استمرت ماريا في المشي... ولحسن الحظ... رأت لوحة لعيادة على بعد خطوات... يبدو وكأن اللوحة علقت حديثاً... غذت ماريا خطاها جهة العيادة... وعندما دخلت قابلها الطبيب الشاب المحمر الوجنتين... ذو الابتسامة العريضة التي تُطَرِّزُها أسنان صفراء... والحاجبان ثائران من المنتصف... ومنسدلان من الجانبين... وعندما دخلت ماريا مد الشاب الدكتور يده وقال:

- "هل من خدمة سيدتي".

- "هل أنت الطبيب".

- "نعم... ألا يبدو ذلك... ربما أنا خريج جديد... وأيضاً أنا في الخدمة".

- "ابنتي مريضة... أرجوك".

- "مريضة؟... هذا مؤسف... سأكون خلفك الآن".

حمل الطبيب حاجياته بسرعة... وانطلقت ماريا العجوز وهو يسير وراءها... وعندما دخل الطبيب لغرفة دينا... أسرع في فتح حقيبته... وأخرج جهازاً لقياس نبضات القلب... وبدأ يطالع وجه دينا... ركز الطبيب نظره أكثر وأكثر وقال:

- "أنت بخير... ربما كانت رئتك مريضة".

حمل الطبيب جهاز القلب ليعيده للحقيبة... بيد أنه عاود النظر لدينا... ثم تأملها قليلاً... ثم قال في تعجب:

- "لكن صورتك عزيزتي ليست غريبة عني؟".

ركزت دينا نظرها في الطبيب الشاب فترة أطول... وسرعان ما بدأ وجهها يتفصد عرقاً... ثم أشاحت بوجهها قليلاً وهي تقول:

- "شكراً يا دكتور... أنا بخير".

- "ربما كُنتِ في حاجة لدخول المستشفى... شهيقك ليس اعتيادياً... وكذلك نبضات قلبك".

- "سوف أتحسن... لا تقلق".

- "هل لي أن أتذكر أين رأيتك من قبل".

قالت العجوز ماريا:

- "هذا أمر طبيعي... إن ابنتي عالمة نبات مشهورة ... وهي أستاذة في جامعة روما".

قال وهو يشعر بصدمة... مشوبة بالفرح.

- "أوه... تذكرتك جيداً... أعتذر... مثلك أبداً لا ينسى".

ابتسمت العجوز ماريا... في حين ابتلعت دينا ريقها في غضب وصمت... وقال الطبيب:

- "هل تسمحين لي سيدتي، بزيارتك في الغد؟".

وقفت دينا وأعادت ترتيب معطفها... وحملت حقيبتها وأخرجت منها بعض المال... ثم ناولته للطبيب وهي تقول:

- "أنا بخير... لا أحتاج زيارتك مرة أخرى".

ثم نظرت إلى والدتها وقالت:

- "سوف أخرج الآن... أمامي الكثير من المهام".

خرجت دينا وهي تفكر في هذه الحادثة الجديدة... وما إن سارت بضعة أمتار خارج المنزل حتى عادت بسرعة... ثم دخلت على والدتها... لقد حصل ما توقعته بالضبط... هذا الطبيب جالس أمام العجوز ماريا أشبه بجلسة محقق منتبه... لقد أمكنه طرح عدد من الأسئلة حول شخصية الفتاة دينا... وقد زعم أنه معجب بها كل الإعجاب... وعندما دخلت دينا كان الطبيب الشاب يقول:

- "وأنا يا سيدتي مغرم بها... إنها جميلة وشهية".

نظرت دينا للطبيب ثم قالت:

- "أنت سافل وقح... هل تستطيع أن تخرج دون أن تصاب بأذى".

وقف الشاب في شيء من الانفعال... واقترب من دينا وهو يقول:

- "وهل أسأت لك سيدتي".

- "أنت تتبع خطواتي... لماذا؟".

- "لأني أحببتك".

- "أنت تريد أن تؤدي دور الجاسوس ضدي... لأنك يهودي متطرف... تريد أن تعرف أموراً ما... وتحسب أنها غامضة... ولكني سوف أريح نفسي من مطاردة جاسوس أحمق مثلك".

بدا للطبيب مدى احتقار دينا له... في حين دخلت دينا لغرفتها... وأخرجت حقيبة صغيرة... واتجهت جهة الطبيب... وهي تقول:

- "سوف تعرف عني كل شيء... أيها الفأر المتلصص... الآن".

فتحت دينا الحقيبة... وأخرجت وثائق كثيرة وناولت الطبيب وهي تقول:

- "هل علي أن أشغل وقتي بتعريف نفسي على الحمقى... أنا يهودية... هكذا تقول الأوراق التي أمامك... وأنا... ؟".

نظرت دينا للعجوز... ثم أكملت:

- "أنا ابنة هذه العجوز... لقد فقدتني وأنا صغيرة... ومات أبي... وعشت مشردة في الملاجئ... لقد تسولت كثيراً... وعملت في تقليم أشجار الحدائق داخل البيوت... وعملت في تنظيف القمامة... أو البحث في داخلها... عن أشياء مفيدة... وعندما لقيت أمي بالصدفة... وجدت الجو الذي أستطيع فيه أن أبدع... لقد درست حتى حصلت على الدكتوراه... وعملت بجد في زراعة الزهور حتى كونت شركة عملاقة... وصرت ثرية... ثم أنشأت مركزاً ثقافياً لتأصيل ثقافتنا اليهودية... نعم أنا الآن في خدمة الديانة اليهودية... ولكن ليس كما يحلو لكم معاشر اليهود المرتزقين باسم الدين... كلا... الدين اليهودي الحقيقي هو شيء غير ما تدعون... هو شيء أكثر قداسة".

بدأت عينا الطبيب في الدوران... وبدا القلق مرتسماً على وجهه... ولكنه أخذ في تصفح الأوراق... في حين قالت دينا:

- "هل تريد شيئاً آخر".

- "هل يمكن لي أن أطرح سؤالاً واحداً؟".

- "اسأل".

- "إن سبب سعالك هذا هو تعرضك لإجهاد كبير... وبرد شديد... هل قدر لك أن سبحت مسافة طويلة ذات مرة؟".

- "ربما... وربما كان ذلك كثيراً... عندما كنت أشعر بالجوع ولا أجد مالاً... كنت أذهب للصيد في البحر... وكنت أسبح... هل هذا يكفي؟".

كانت العجوز الجالسة... تشعر بأقصى درجات اللوم والعتاب... لقد تألمت كثيراً لحال ابنتها عندما كانت في سنوات التيه... أوه... يا لها من فتاة مسكينة... ولكنها مستغربة من كون ابنتها يهودية... لم تتمالك العجوز نفسها... لقد أسرعت بخطواتها حتى ألقت بنفسها بين أحضان دينا... وهي تقول اغفري لي يا ابنتي... ضمت دينا والدتها وقبلتها... في حين انصرف الطبيب... وهو يسمع دينا تقول:

– "احمل معك صورة من الوثائق الشخصية الخاصة بي... ربما طلبها منك أسيادك اليهود المتعصبون... أنا أعرف أنكم تبحثون عن أي شيء كي تجعلوه ضدي... لأني يهودية صادقة... أهتم بديني أكثر من أطماعكم".

عاد الطبيب في هوان... وحمل صورة من الوثائق.

من هي دينا

يلوح بطرف سماعة حول يده... ويستدير قليلاً بكرسيه... ثم يضع يده تحت خده... ثم يتساءل:

– "هل من المعقول أن تكون الفتاة النمرة... لازالت على قيد الحياة".

بدأ الطبيب يراجع نفسه منذ أن ركب السفينة قبل ثمانية أعوام... وشيء ما يعتمل في داخله حول تلك الفتاة المتوحشة... ولكنه كرهها من أعماقه... لأنها قتلت صديقه الحميم سيمار على ظهر السفينة.

ولكن... هل تراه أحبها... عندما رآها لأول مرة... أم كرهها... إنه لا يدري ماذا كان يعتمل بداخله ساعتها... ولكن المؤكد... إنه الآن يكرهها... ومن كل وجدانه... خاصة عندما يتذكر صورة سيمار... وهو مسجى قد احتُزَّ رأسه.

هل ابتلعتها الأمواج في عرض البحر... أم أن صورتها وهي تطفح تارة وتغرق تارة... كانت لعبة قذرة من ألاعيبها الرهيبة... كي تنجو بعد أن قتلت كل من استهواها قتلهم... يال الروعة... مستحيل... هل هي شيطان مارد... أم عفريت...

أم مخلوق من كوكب آخر... وهل تلك الفتاة النمرة... تمثل شيئاً بالنسبة للدكتورة دينا... شيء لا يصدق.

ألقى الطبيب إسحاق بسماعته... وحمل غليونه مذهّبَ الأطراف... خشبي اللون... ووضعه في فمه... ولم يشعل النار فيه...

- «إنها نفس الملامح... والصوت... والصوت هو الصوت... الشكيمة... القوة... الصرامة... إنها ذاتها... والدليل الأقوى هي تلك الحشرجة في رئتها... إنه التهاب رئوي... يغلب أن يكون بسبب سباحتها الطويلة... حتى وصلت اليابسة.

ولكن... هل يمكن لإنسان أو جان... أن يسبح عابراً البحر... أوه... يا دينا... هل أنت سر غامض... هل يمكن لتلك الفتاة النمرة... أن تحصل على الدكتوراه... وتجيد الإيطالية لدرجة الإتقان... وتكون مستثمرة ثرية... وتهتم بالثقافة والأديان في أقل من عشر سنوات... ويكون لها أُمَّاً... ما هذا.

فكر الطبيب قليلاً ثم ابتسم.

- "إنه واهم... حقاً إنه واهم... لقد ماتت تلك الفتاة العربية في البحر... ومات قبلها زوجها الذي قتلته... وانتهت من الوجود تلك الأسرة العربية... انتهت للأبد... وهذه الدكتورة ثروة كبيرة... إنها فلتة من فلتات إيطاليا العظيمة... إنها تستحق أن يحبها كل من يعرفها... وما هذه الأوهام سوى غيرة... نعم إنها الغيرة... أنا ربما أعجبت بها... وربما أحببتها... وربما وقعت في غرامها... وأوهامي هذه ليست سوى أعراض لحمى الحب... أوه يا دينا... بالفعل... لقد أحببتك... ولكن... أنا أستحقك".

صراع أحمق

السكرتيرة التي تعمل لدى دينا في مكتبها فتاة نشيطة... إنها تعمل بجد... وتقوم بكل المهام التي تطلبها منها دينا... وبمهام أخرى... والشاب الذي كان يعمل

مديراً للمركز تغيرت مهنته الآن... وأصبح منسقاً بين المراكز الخمسة... والعمل في هذه المهنة أصبح محبباً لدى دينا... لقد بدأت بعض الثمار تؤتي أكلها... المركز ليلاً يغص بالزوار من الباحثين عن الحقيقة... ودينا تستضيف عدداً من المفكرين والعلماء ورجال الدين... إن هدفها الأسمى هو خدمة الإيمان بمعناه الشامل... والشعار الذي وضعته على مدخل المركز هو (علينا أن نؤمن بشيء عظيم وراء هذا العالم المحسوس... وعلينا أن نتواضع من أجله).

العمل في جميع المراكز على ما يرام... إلا أن المركزين الذين سيتم فتحهما في الشام وفي مصر... لا زالا يحتاجان إلى جهد مضاعف... وربما لسفر خاص إلى هناك.

وفي قرابة الساعة الثامنة كانت السكرتيرة تعد جدول الأعمال لذلك اليوم... وتنظم مواعيد الدكتورة دينا... في حين دخل لوك بهدوء... وألقى التحية على السكرتيرة وقال:

- "متى ستأتي دينا؟".

- "قريباً... ليس من عادتها أن تتأخر".

- "لا أدري ما حال السعال الذي يداهمها... إنها فتاة لا تستحق المرض".

اقتربت السكرتيرة من لوك وقالت:

- "يبدو أنها تحبك... إنها تذكرك بالخير دائماً".

انتفض لوك مبتهجاً وقال:

- "هل صحيح ما تقولين؟".

- "نعم بالتأكيد... أنا أحب دينا... وأرجو لها الخير".

فرك لوك يديه وهو يقول:

- "آه... يا دينا".

جلس لوك على أحد المقاعد... وحمل أحد الكتب الموضوعة على الطاولة... وبدأ يتصفحه... وما هي إلا لحظات... وإذا بشاب يطرق الباب ثم يدخل بنصف جسمه... ثم يلقي التحية... ويستأذن بالدخول... كان التوتر والقلق بادياً على ملامح هذا الداخل... وعندما قال له لوك:

- "تفضل... تفضل".

دخل الشاب... وأدار عينيه في المكتب... ثم جلس على المقعد القريب وهو يقول:

- "أين هي الدكتورة دينا؟".

أجاب لوك:

- "ستأتي قريباً... ومن تكون أنت؟".

- "أنا الدكتور إسحاق جيهيم".

أدار إسحاق عينيه قليلاً... ثم أردف بفخر:

- "وأنا أيضاً... بالطبع... خطيب... الدكتورة دينا".

شعر لوك أنه لا يسمع ما يقوله هذا المخلوق... ولكن بعد لحظات نظر إلى الشاب باستغراب وقال:

- "ماذا قلت ؟".

ابتسم إسحاق وأعاد مقولته ظاناً أن الشخص الذي أمامه قد استحسنها:

- "نعم نعم... دينا خطيبتي... أنا معجب بها وهي كذلك".

مد لوك إصبعه نحو الشاب... وقال في دهشة:

- "أنت... أنت لا تصلح حذاءً لسكرتيرة دينا... واسمك إسحاق أيضاً... يا سلام... عليك أن تهرب من هنا قبل أن يأتي عمال النفايات".

بدأت السكرتيرة تضحك... وتضع يدها على وجهها... في حين رد إسحاق بغضب:

- "أنت يا هذا... ألا تعرف حدود الأدب... هل تستطيع أن تقول لي... بأي صفة تقول هذا الكلام".

- "بصفتي قادر على تكسير رأسك... ووضعه داخل تلك السلة... الموضوعة بعناية جوار هذا المكتب".

وقف لوك واتجه جهة إسحاق وهو يقول:

- "ألا تعلم يا حشرة الخنفساء... أنني أنا زوج دينا... وهي زوجتي... يا وغد".

وما هي إلا لحظات حتى اشتبك الرجلان في عراك... ولم تدر السكرتيرة ماذا تفعل... إلا أنها شعرت بأن الطالع كان سعيداً... عندما دخل الدكتور روزولث.

لم يكن المشهد الذي رآه الدكتور مناسباً لتقاسيم هيبته التي دخل بها... ولكنه سرعان ما أراد أن يكون رجلاً فعالاً تجاه إخماد هذه الأعمال الصبيانية... لذلك قال:

- "يا حمقى... يا مغفلون... ألا تمنحون المكان الذي أظلكم سقفه شيئاً من التقدير... ألا تحترمون أصحاب المكان... ماذا لو دخلت زوجتي دينا ورأتكم في هذا المنظر السفيه... هيا اخرجوا".

توقف العراك فجأة... وبدأ كل من لوك وإسحاق ينظران لبعضهما... ثم يعيدان النظر لهذا الداخل الجديد... ثم همّا بالانقضاض عليه.

في تلك الأثناء سمعت السكرتيرة وقع أقدام دينا... لذا توقفت عن الضحك... وهبت مسرعة لتقص لها الخبر... وتقدم لوك جهة روزولث بحقد... عازماً على تنكيله وتأديبه... إلا أن إسحاق استغل الفرصة لينتقم من لوك... جراء تلك

الضربات التي نالها منه... لذا تسلل بيده وهو يحمل فيها لكمة قوية... سددها لبطن لوك... وعاد العراك من جديد بين الثلاثة... في حين دخلت دينا... لقد كانت بالفعل تضحك... ولم تكترث بالضجيج.

تقدمت... وفتحت باب مكتبها وسارت حتى وضعت حقيبتها... ثم عادت من جديد لصالة الاستقبال... لقد توقف العراك وبدأ كل منهم يلوم نفسه... بسبب تلك النظرات التي ألقتها عليهم دينا بكل صرامة... ثم قالت وهي تتناول فنجان القهوة من يد السكرتيرة:

- "الرجال يجب أن لا يتناحروا من أجل امرأة لا تفكر أصلاً في شيء اسمه رجل... وربما نظرت لهم باحتقار".

دققت دينا النظر فيهم ثانية... ثم تقدمت نحو إسحاق حتى صارت أمامه مباشرة... وأكملت قولها:

- "ثم أنت... ألست الطبيب ذاته الذي رأيته بالأمس... أليس من الأسلم أن تعيش في سلام مع نفسك ومع الآخرين".

اقترب إسحاق منها أكثر وقال:

- "اعذريني... أنا أحبك دينا... أحبك... هل تقبليني زوجاً؟".

ولته دينا ظهرها وهي تقول:

- "أليس في الدنيا نساء سوى امرأة وهبت نفسها لقضية أكبر من ترهات رجل... ألا تملكون عقولاً غير عقول الحمير التي تحملونها؟".

امتعض روزولث ولوك قليلاً... في حين جلس روزولث على مقعد قريب... وقال لوك لإسحاق:

- "أنت أحمق... عليك أن تذهب قبل أن".

ولكن إسحاق نظر إلى دينا قائلاً:

- "إذن... لن تتزوجي مني".

صمتت دينا في حين أكمل إسحاق:

- "هل أنت إيطالية... بالفعل... أم أنك شرقية متوحشة".

نظرت دينا جهته... ثم قالت وهي تخفي قلقها:

- "عليك أن تحمل نفسك إلى مكان آخر... يبدو أنك مصاب بهستيريا... أو جنون عظمة... أو ربما جنون غباء".

هز إسحاق رأسه في حنق وقال:

- "سوف نعرف من هو المجنون".

خرج إسحاق... في حين دخلت دينا لمكتبها وأغلقت الباب من الداخل... وبقي لوك وروزولت... ينظر كل منهم للآخر في بلاهة.

لم يكن لدينا أن تكمل قهوتها... لقد وضعت كفيها تحت خديها... وبدأت تعيد تاريخها الطويل... هل آن لها أن تهدأ... وتحط كل الأحمال عن ظهرها... أم أن عليها أن تكمل طريقها الطويل... ولكنها الآن تعترف أمام نفسها بالضعف... وتشعر أنها بحاجة ماسة لثوب من الحنان تتدثر به... أوه ما أطول طريق العناء... وما أطول دروب الحزن... عندما يدخل الإنسان مع بابها الأول... تفتح له كل الأبواب.

فتحت دينا أحد أدراج مكتبها... وأخرجت المصحف... وبدأت تقلب أوراقه بهدوء... ثم أرخت ظهرها قليلاً على المقعد... واستنشقت هواءً عميقاً... وبدأت في التلاوة:

- ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**﴾.

كانت دينا تشعر أن هذه الآيات تتحدث في خاصتها... أكملت:

- "﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾".

في تلك الأثناء طرق الباب... ودخلت العجوز ماريا في لهفة... وما إن رأتها دينا حتى أحست بحاجة ماسة للبكاء... قامت الفتاة... وسارت نحو والدتها... وألقت بجسدها المكدود على صدر أمها الذي طالما ألقت عليه هموماً وأحزاناً...

بقيت دينا ما شاء الله لها أن تبقى... مرتمية على صدر أمها... تجدد اعترافها مع نفسها بضعفها... وأنوثتها... وبقيت الأم تشارك فتاتها بكاءً لا تدري ما سببه... ثم قالت ماريا:

- "لماذا الحزن يا ابنتي... أنت أقوى من الحزن".

نظرت دينا لوالدتها في خشوع... ثم قالت:

- "ولكني أضعف من الهزيمة... أضعف من الهزيمة".

ربتت العجوز على كتف دينا من الخلف... وابتسمت في وجهها... وقالت:

- "أنت ملَكُ السماء... وأنت هبة الله للأرض... سيكون الخلاص على يديك... لأناس كانوا أكثر شقاء وشؤماً... وسيكون الله معك".

ابتسمت دينا... وقبلت جبين والدتها وهي تقول:

- "أرجو الله أن ينزل السكينة على قلبك كما أدخلتها في قلبي... أنت أعظم أم مؤمنة في الدنيا".

جلست دينا ووالدتها... وبدأت الأم تتحدث عن أسعار الزهور والشركات المنافسة لشركة دينا... وأحاديث أخرى.

رجل التحريات

إسحاق يلتهم إفطاره بسرعة... ومع كل حبة زيتون بيضاوية يبتلعها... يشعر بغصة مريرة... بسبب تلك الفتاة الرجل... لقد أهانت كبرياءه... وحطمت أوراق شخصيته... أوه كم يتلهف لينتقم منها... تبادرت له فكرة... أوه... إن ذلك الطريق الذي يتبادر لذهنه هو الطريق الأصعب... ولكن... لو نجح فيه فستكون ضربته قاضية... طريقه الوحيد هو إثبات كونها مجرمة سفاحة... الطب شيء والتحقيق شيء آخر... ولكنهما المهنتان اللتان تستدعيان روح المغامرة في أعماق الإنسان.

هل سيتحول الطبيب إسحاق إلى محقق... وهل سيسعى لكشف أسرار العقول وخبايا النفوس... بدل أن يكشف أعراض المرض... وهل سيلاحق المجرمين بدل مطاردة البكتريا والفيروسات.

احتسى إسحاق قليلاً من الحليب... ووضع حبة من الزيتون الأسود في فمه... ووقف... ورفع بصره قليلاً لأعلى في إحساس بذكائه... وبدأ يتأمل وجه سيمار الصديق العزيز... الذي لم تزل صورته تشي لإسحاق بالحزن والانتقام... ماذا لو ثبت أن دينا الدكتورة... ليست سوى تلك العربية القاتلة... أوه... إنه اكتشاف مذهل.

حمل إسحاق حقيبته... وذهب إلى عيادته... لقد كان طيلة الطريق يفكر في اتخاذ قرار ما... وبمجرد دخوله للعيادة وضع حقيبته... وأخبر الممرضة أنه سيذهب لمكان ما... وعليها أن تضع لوحة صغيرة تفيد بذلك... على مدخل العيادة.

انطلق إسحاق وفي ذهنه تعتمل الكثير من الأفكار... لكنه عازم على الذهاب إلى الجامعة... هناك سيجد الكثير من الحقائق... ثم إن ثمة أساتذة يعرفهم... وحتماً سيساعدونه.

وصل إسحاق إلى الجامعة... وقابل رئيس قسم النبات... وبدا مهذباً أنيقاً... واستطاع أن يصطنع نوبة من الحزن... وهو يقول لرئيس القسم:

- "أنا يا سيدي أعمل طبيباً... لقد تخرجتُ من هذه الجامعة العريقة".

- "هذا رائع... وجدير بالتقدير".

- "من حسن طالعي أن حظيت في الأيام الأخيرة بعقد عمل رائع... مع إحدى النساء اللواتي يمثلن واجهة مشرقة لايطاليا... إنها الدكتورة دينا".

- "أوه دينا إنك محظوظ بالفعل... لقد تركت الجامعة... إنها عبقرية".

- "بالتأكيد... وهذا العقد... هو... أن أكون طبيبها الخاص".

- "بالطبع صحتها ممتازة أليس كذلك؟".

- "من أجل ذلك أتيت هنا... وأرجو أن أحظى بمساعدتكم".

- "بالطبع... بالطبع".

- "إن الدكتورة دينا مصابة بالتهاب رئوي... وهذا الالتهاب يسبب لها سعالاً جافاً... وبما أنها فتاة نشيطة... فهي تجهد نفسها بطريقة قد تكون مؤذية إلى حد ما".

- "ماذا تقول".

- "نعم... والمشكلة في ذلك أنها لا تتعاون معي كثيراً في تناول الدواء... لأنها مقتنعة أنها بصحة جيدة... ولكن داء الصدر يا دكتور... داء الصدر... إذا لم يتداركه الطبيب مبكراً... حتماً لن تؤمن العواقب... لا أدري ماذا أقول".

- "لا لا... هذا مستحيل... الدكتورة دينا أعقل من ذلك".

- "بالتأكيد... ولكنها مشغولة الآن بأعمال كثيرة... إنها تهمل صحتها في طريق المجد الطويل الذي تسلكه... وتأمل أن تتربع على عرشه قريباً".

- "أوه... وماذا ترى الآن؟".

"تصدق يا دكتور... إنها لم تخبرني عن سبب البرد الذي تعرضت له... إن هذا الداء ناتج عن تعرضها لبرد شديد... وجهد شاق استمرا مدة طويلة".

- "ولماذا لم تخبرك؟".

اضطرب الطبيب قليلاً ثم قال:

- "بالتأكيد... هي لا تريد... هي لا تريد أن تجهد نفسها بالتفكير والتذكر... لأن عقلها مشغول بأمور مهمة".

- "وهل هناك شيء أهم من صحتها... عليها أن تتعاون معك".

- "هه... لا لا... ولكن يهمني أن أعرف سجل حياتها قبل دخولها للجامعة".

قال الدكتور في شيء من الازدراء:

- "أمرك غريب... اسألها... ألست طبيبها".

حك إسحاق أنفه في توتر ثم قال:

- "أرجو أن تضع نفسك مكاني... أنا لا أريد أن تشعر دينا أنها مريضة... ذلك سيؤثر على عطائها وطموحاتها... ولأني حريص عليها فأنا أريد معرفة أشياء كثيرة عن صحتها السابقة... دون أن يعكر ذلك عليها".

- "نعم نعم... لقد تفهمت موقفك... أنت طبيب تفهم عملك جيداً".

- "الطب ليس مهنة علاج فقط... هو أيضاً مراعاة لمشاعر المريض".

استدعى رئيس قسم النبات سكرتيره الخاص وقال له:

- "عليك أن تقدم المساعدة كاملة للدكتور إسحاق".

ثم نظر إلى الدكتور إسحاق في شك وقال:

- "هل يمكن أن تعطيني إثبات شخصيتك".

ابتسم إسحاق في رضا... وأخرج بطاقته الطبية... وناولها للدكتور... وعندما قرأها الدكتور ابتسم وناولها للسكرتير وهو يقول في شعورٍ بالذكاء:

- "دوّن جميع بيانات الدكتور إسحاق... وأيضاً احتفظ بصورة له... ضعها جميعاً في ملف الدكتورة دينا... ربما احتجنا شيئاً منه".

لم يخف الامتعاض في وجه إسحاق... ولكنه استطاع أن يبتسم... لما كان الدكتور يعتبره زيادة حيطة... ذهب إسحاق مع السكرتير... إلى غرفة الملفات... وبدأ السكرتير يبحث في سجلات الموظفين... استمر البحث قرابة الأربع دقائق... ابتسم بعدها السكرتير في وجه إسحاق... وقال:

- "هذا هو... الرقم...".

قام السكرتير جهة الرف الذي يحوي الملفات... بحث بعينيه قليلاً... ثم لم يلبث أن مد يده وسحب الملف بهدوء... وناوله لإسحاق... ابتسم إسحاق في شكر مشوب بالقلق... ثم فتح الملف بهدوء... وبدأ في تدوين بعض المعلومات المهمة عن دينا... في مذكرة صغيرة معه... لقد دونها بدقة... وهو يبتلع ريقه بين الفينة والأخرى... عمرها... سنة دخولها للجامعة كطالبة... دورات لدراسة اللغة الإيطالية... الطالبة من مدينة نابولي... ولم تدرس في أي مدرسة من قبل... وفي الملف أربع صور صغيرة... صور لدينا عندما دخلت الجامعة... أخذ إسحاق واحدة من الصور في لهفة... دون علم السكرتير.

انتهت مهمة إسحاق في الجامعة عند هذا الحد... ربما احتاج أن يرجع مرة أخرى... ولكن الأمور بدت واضحة أمامه بشكل كبير.

بين كفي قلب

روزولث يشعر بالنشوة... ويحدث نفسه بتناول كأس من البيرة التي اعتزلها منذ فترة... ولكن أكواز الذرة المتراصة أمام بائع الذرة تجعله يتناسى البيرة... ويتقدم نحو الذرة المشوية.

إنه هنا... في حديقة الكنيسة الكاثوليكية... ذات الأرصفة الصقيلة... والمقاعد المتراصة في تناسق مذهل... والأشجار المتناثرة بين قطع الأرض الخضراء الأشبه بالسجاد الإيراني.

اشترى روزولث كوز الذرة... وبدأ في نزع حباته... وإلقائها داخل جوفه بمتعة... وكلما انطلق صوت من أي جهة من جهات الحديقة... يسرع روزولث بإلقاء نظرة جهته... ومع طول ذهابه ومجيئه... لفتت نظره تلك الفتاة الجالسة خلف يدي عربتها الخشبية... وتدعو بين الفينة والأخرى أيما مار تراه... ليشتري شيئاً من زهور البوقية المهجنة... ابتسم روزولث من داخله... وتحسس جيبه... ثم اتجه جهة الفتاة... واشترى منها مجموعة من الأزهار الجميلة... وطلب غلافاً ذا لون أحمر.

تناول روزولث الزهور... وبدأ يشمها بانسجام... ثم سار جهة شجرة زيتون عملاقة... ومن بعيد بدأ يشاهد فتاة أحلامه... أوه... لطالما انتظر هذه اللحظات منذ زمن... الفتاة العملاقة... دينا... ذات الستة والعشرين عاماً... وذات الذكاء الأسطوري.

ابتسمت دينا عندما رأته يحمل الأزهار... وتقدمت بخطوات راقصة حتى وقفت أمامه... ثم مدت يدها وهي تقول:

- "لقد أتيتَ مبكراً هذا اليوم روزولث".

- "أخيراً ها قد اجتمعت القلوب بعد مطاردة طويلة".

- "نعم... نعم روزولث... ها أنا ذي أضع قلبي ثانيـــة بين يدي رجل... يال المفارقات".

طأطأت دينا رأسها ثم أكملت:

- "وما كان لمثلي أن تتزوج بعد أن دُفن قلبها في البحر هناك".

- "ماذا تقولين حبيبتي".

- "ولماذا نحن واقفين... ألا يحق لأقدام المحبين أن ترتاح من حملهم".

- "نعم حبيبتي... خذي أولاً هذه الأزهار".

- "أوه... ذوقك رائع".

- "في اختيار الأزهار؟".

- "بل في اختيار شريكة المستقبل هـ هـ هـ".

بدأت دينا تتقدم... وروزولث يسير خلفها بقليل... اتجها نحو أحد المقاعد الخشبية الطويلة... ثم أكملت دينا:

- "عزيزي... هذه إحدى منتجات شركتي... إنها بالفعل تصلح أن تكون رمزاً للحب".

- "الحب هو خمرة الحياة... هو نشوتها... هو الرحيق الحالي... وهو الكف المخلصة... ولكن أين يجد الإنسان حبيبه... إذا كان العالم مليء بالأنانية والرذائل".

- "نعم... لقد أجدت الشعر أخيراً... لم أتوقع ذلك منك".

ابتسمت دينا... وهي تتأمل بشجن... هكذا قررت أخيراً خوض تجربة زواج جديدة... وكلها أمل في أن تنجح... وضعت يدها في يد روزولث... وبدأت تبثه أشجانها وأحاسيسها... وهو يبحر معها في القارب ذاته.

مر الوقت سريعاً... وفي أثنائه كان العشيقان يركبان فرس الحب العذري... ويرشفان من كأسه العذبة... في حين لم يكن من المصادفة أن يبدو من بعيد... وجه لوك الشاب الألماني الثري... الذي بحث عن دينا في منزلها ثم في مكتبها... وعلم أخيراً أنها ستكون في الحديقة... ولكنه لم يتوقع أن يجدها بهذا المنظر المؤلم... وهي جالسة تشم الورود من يد هذا الفرنسي المتفلسف... كان الأولى أن تشم زهور حبها وغرامها من يد الشاب الذي ليس له في الدنيا غيرها... لوك يصدق نفسه ويكذبها... هل كانت هذه الفتاة تلعب بمشاعره... وهل كانت تمنحه أشياء تناسب

عقله... في حين أنها تحب شخصاً آخر... تجد فيه ما لا تجده فيمن وهبها قلبه... وصل لوك محملاً بأحقاده... ووقف بجوار الطاولة التي يجلس عليها عصفوران يتيمان يغردان أفراحهما في وحدة.

لم يتوقف حديث البلبلين... إلا على طرقة قوية من يد لوك... على صفحة الطاولة... كان ساعتها يقول:

- "يا سافلة... يا غادره... يا لعوب".

نظرت دينا في وجه لوك بدهشة... ثم قالت وهي ساخرة:

- "ماذا بك... ربما فقدت شيئاً من عقلك هناك... وأنت تتقدم نحونا... ابحث عنه وراءك... ومتى وجدته فاحمله وتعال".

- "بل فقدت كل ثقتي بك".

قال رزولث في ثوره:

- "فلتذهب إلى الجحيم لوك... ولا تنس أن تبق فيه للأبد".

قال لوك وهو يستشيط غضباً:

- "وأنت أيها السافل الوضيع... لماذا عبثت بمشاعر فتاة مخطوبة لغيرك".

قالت دينا في سخرية... وهي تستعد للوقوف... بعد أن مدت يدها جهة لوك:

- "لا تكن عربياً لوك... عليك أن لا تمارس الصفات الهوجاء هنا في روما".

بدا التوتر على وجه لوك بعد سماعه كلمة عربي... كاد يتفجر حنقاً... لذا قال وهو عازم على الانصراف:

- "سوف تندمان... سوف أسقيكما كأساً مرة... سوف لن... أسمح لكما... أن تتمتعا... بحبكما هذا... يا أوغاد".

ارتد لوك في غضب أدراجه... في حين قالت له دينا وهي لا ترى إلا ظهره.

- "الجمعة القادمة سيكون موعد زواجنا... أنا وروزولث... عليك أن تحضر حبيبي لوك... إياك أن تتأخر... أنا قد أعددت لك هدية ومفاجأة... سنكون أنا وزوجي سعداء بمجيئك".

نظر إليها لوك في حنق... وقال:

- "سوف أحضر... ولكن لشيء في نفسي".

أين يعيش هؤلاء

إسحق يسير بخطوات هادئة... وهو يدخل لما يشبه القبو الواسع... الظلام الخانق... تُبَدِّد أطرافه بجهد... أنوار الشموع المتباعدة... والموضوعة بنظام دقيق في فتحات الجدار الحجري... والسقف القصير القريب جداً من رأس الواقف يجعل شعوراً بالرهبة يخالج ذهن من يوجد هنا... لأي سبب كان.

وتماثيل فخارية تتصنم في شموخ... بعضها تماثيل لأسود... وبعضها الآخر تماثيل لنمور... وهناك تماثيل كثيرة لنجمة مكونة من مثلثين متعاكسين... وصور لمعابد ووجوه ذات لحى طويلة.

استمر إسحاق في سيره... كان ينظر بين الفينة والأخرى إلى الخلف... حتى وصل أخيراً إلى باب مقوس... تحسس حقيبته الصغيرة ليتأكد من وجودها مربوطة حول خاصرته... ثم وقف قليلاً... تلفت يمنة ويسرة... وابتلع ريق الخوف المجتمع في فمه... ثم صعد إلى درج حجري... له سنن متقاربة وصغيرة... استمر في الصعود حتى بدأ ضوءٌ أكبر ينبلج في جنبات الدرج...

ها هو المكتب الأنيق العودي اللون... وهذه الجدران الحجرية التي نُقش على كل حجرة منها نجمة داود... وتلك شجرة صغيرة تنمو ببطء في إناء من الطين... والستائر القاتمة تحيط بالشرفة المطلة على الحديقة الصغيرة... المكتظة بأصناف النباتات الشوكية... والرجل الجالس على المكتب يبرز أنفه الطويل قبل أن يبرز أي

شيء آخر... وعيناه الصغيرتان تبدوان وكأنهما مدببتان... ولون وجهه القرمزي يشي بشيء من الحرص والمحافظة ... ابتسم إسحاق حال دخوله... وانحنى قليلاً... في حين استدار الرجل الجالس على كرسيه... ووقف بهدوء... ثم بادله بابتسامة مقابلة... وبعدها قال:

- "هل أنت على علم تام بما أتيت له؟".

أجاب إسحاق.

- "بالطبع... يا سيدي".

قَلَبَ ذلك الرجل أوراقاً كانت أمامه... ثم قال وهو يقذف ببصره من فوق النظارة الكثيفة:

- "منذ ساعة أحضر مدير مكتبي هذه البيانات عن المسمى داود شاع... أحد أعضاء الحركة الصهيونية... لقد خان قسمه... ونال جزاءه... ولكن فتاة الوادي التي تزوجها بعد خيانته... كما هو مدون هنا... قد ماتت".

قال ذلك وهو يمد يده نحو الورقة... ثم أكمل:

- " لقد قتلت عدداً من اليهود".

ضرب الرجل بيده على الطاولة في عنفوان وقال:

- "امرأة قذرة ... ولكن الحيتان أكلتها".

قال إسحاق في تشف:

- "أظنها أكلت الكثير من الحيتان... قبل أن تضع قدمها على رمال إيطاليا... إنها لا تعاني من شيء... كما تعاني من فُتُوَّتها وصحتها... وذكائها المذهل... وشخصيتها القوية كالحديد".

نظر الرجل الغاضب نحو إسحاق... وسحب (جاكيتاً) بنياً يضعه على ظهره منذ الأزل!... وقال في سخرية:

- "ماذا تقول... ادعاؤك هذا عرفته منذ ثلاثة أيام... عندما قرأت رسالتك... لذا تم مراجعة جميع أوراق القضية... وها هي أمامي... أنت تتكلم بما يشبه الجنون... هل تدرك ذلك".

- "أنت يا سيدي لن تصدق ما أقوله... حتى أبرز لك الأدلة الحقيقة... على أن الدكتورة دينا... التي ترتدي ثوب ناشطة يهودية... وباحثة في الأديان... الحقيقة أنها ليست سوى... ليست سوى الفتاة التي قتلت صديقي سيمار في السفينة".

- "أنت مهووس بلا شك... أو مجنون... إن على العاقل أن لا يصدق الجنون أبداً... كيف يمكن أن تنجو من ظلمات البحار... ثم تتعلم حتى تصبح عالمة نبات... ثم... تفعل المعجزات حتى تكون مستثمرة تملك رأس مال ضخم... وشركة عملاقة... ثم تخدم قضية يهودية صرفة... عن طريق مراكز ثقافية ناجحة... تنتشر في مدن أوروبا... لو صدق كلامك فلن أكون مبالغاً إن قلت: إن هذه الفتاة تستحق جائزة من نوع ما".

قالها في سخرية... أما إسحاق فقد طأطأ رأسه... ثم فتح حقيبته وأخرج مجموعة من الأوراق... ثم قال:

- "هذه تتعلق بدخولها جامعة روما... وهنا إنجازاتها العلمية... وتاريخ كل إنجاز... وأيضاً تعلمها للغة الإيطالية... بالطبع لم تكن من قبل إيطالية".

ثم أخرج إسحاق أوراقاً أخرى وقال:

- "هذه الأوراق اجتهدت في بحثها... لقد سافرِت لمدينة نابولي... وقابلت عدداً من النساء... بعضهن صديقات للعجوز ماريا... العجوز التي تزعم أنها أم دينا... وهنا شهادات للكنائس... تجزم بموت دينا ابنة ماريا وهي صغيرة... للفتاة دينا الحقيقية صورة قديمة... وأيضاً صورة دينا هذه... عندما دخلت الجامعة... هناك فرق كبير جداً بين الصورتين".

في تلك الأثناء دخل مدير أعمال المكتب وهو يقول:

- "سيدي الحاخام الأكبر... هذه الأوراق تحوي تحريات عن مراكز الدكتورة دينا".

- "جيد... وما مختصرها ؟".

- "أن هذه المكاتب لا تسعى لمصلحة الصهيونية... ولا اليهودية... هي فقط مختصة باللاهوت".

- "واهتمامها بالإسلام... قل لي... ماذا عنه".

-"أن المراكز تحوي الكثير من الكتب الإسلامية المترجمة... وربما كان اهتمامها بالإسلام أكثر من اهتمامها بغيره... هذا من واقع إحصائيات الكتب في المركز... وأيضاً المحاضرات... والاستضافات سيدي".

وقف الحاخام هابيرلو... وأنزل قبعته المستديرة... ونظارته... وألقى بنظرة بعيدة... ذات معاني غامضة... ثم قال بحزم:

- "هكذا إذن... بعد أن قتلنا داود في السفينة... تريد العربية أن تتفوق علينا... لم يحن بعد للعرب أن يتفوقوا علينا... ولكن هذه الفتاة قد تفوقت... كلا... كلا... لم يفت الوقت... لم يفت الوقت".

هكذا وقف المشهد بالنسبة للحاخام (هابيرو)... بيد أنه لم ينته بعد بالنسبة لإسحاق... الذي أحس بشيء غامض يدب في جسده... لكن كلمة الحاخام لا زالت ترن في أذنه... بدأ يسأل نفسه في دهشة:

- «هل هم اليهود بالفعل من قتل داود... وهل كانت الفتاة العربية... مجرد ضحية لأطماعهم... هل اتهموها بجريمة لم ترتكبها... وهل دافعت هي عن حريتها بكل هذه البراعة والقوة... وهل هي محقة في حربها لهم بعد أن ذاقت على أيديهم الأمرّين... هل هم بكل هذه البشاعة؟»...

ركز إسحاق بنظره من جديد في صورة دينا... الملقاة أمامه على الطاولة... لقد انبعث بداخله شعور غامض... بمجرد أن دقق النظر في عينيها الصافيتين...

وفي ملامح وجهها... شعر وكأنه يريد البكاء... بدأ ينظر حوله في توتر... ثم مد يده خلسة والتقط الصورة... وبهدوء وضعها في جيبه... عمت لحظات من الصمت... بعدها نظر الكاهن هابيرلو إلى إسحاق... وقال:

- "لك تحياتي أيها الشاب الطبيب... أنت صهيوني مخلص... سوف يكون لك يد طويلة في دولة الهيكل... نحن في حاجة ماسة لأمثالك... كن على صلة بنا".

قال إسحاق في قلق لا يعلم سببه:

-"وماذا ستفعلون بدينا؟".

- "بالطبع سنزيحها من الطريق... لا مساومة في مشروع حضاري يحمل آمال ملايين اليهود".

شعر إسحاق أن نبضات قلبه تزداد... لكنه ابتسم ورفع يده منصرفاً... وعندما غادر باب العمارة المفضي إلى حديقة كبيرة... زفر زفرة طويلة... ثم قال يحدث نفسه:

- "إنها جريمة كبيرة... بالتأكيد... لقد تسرعت... أنا الآن أحد المشاركين فيها".

حماقات رهيبة

لوك يهتز وراء الطاولة المستطيلة... ويطرق بقلمه حافة الطاولة بتوتر... وتهتز شفته السفلى... قبل أن يبتلع ما اجتمع في فمه من الريق... لم يتناول لوك فطوره... والقهوة التي أمامه تغيرت عدة مرات... لأنها تبرد قبل أن يشربها... وحاجباه المقطبان يصطكان ببعضهما قبل أن تنزل دمعة ساخنة... تتبعها زفرة طويلة.

وكلما حرك وجهه هنا أو هناك... تبدت له صورة دينا... التي التهم قلبه حقداً عليها... بعد أن ألغت وجوده من حياتها... لقد اختارت رجلاً آخر دون أن تلقي بالاً لمن أعطاها قلبه فارغاً من كل شيء... إلا من حبها والوله عليها.

أيام قلائل... ويحط في عشها ذلك الدكتور الأحمق... ويمتلكها للأبد... وتنتهي آمال لوك... وتنتهي حياته.

وقف لوك... ونظر من نافذة المكتب... واستنشق شيئاً من هواء روما العليل... عليه أن يعود إلى برلين... وعليه أن يضع نائباً عنه هنا في مكتب روما...

كثيرون هم الأطفال... الذين رآهم لوك في الخارج... وكثيرات هن النساء أيضاً... وأشجار عملاقة... وعربات... ووجوه باليه... أكل عليها الحزن وشرب... أقفل لوك النافذة... وعاد ليجلس على الأرض الصلبة... ثم حدث نفسه.

- "يجب أن أنتقم ... وبعدها سأعود إلى برلين... لن تبقى دينا ليتمتع بها أحد... هذا عهد على نفسي".

لحظة تأمل

إسحاق واقف بجوار السرير الأبيض... أمامه أحد المرضى... والسماعة في أذنيه... تنقل دقات القلب المضطربة... وسمة البؤس مرتسمة على وجه الطبيب الشاب... تماماً كما هي مرتسمة على وجه المريض... يركز إسحاق في عيني مريضه أكثر وأكثر... ثم يتذكر صورة دينا.

-"هل انتهى المطاف بالأطباء أن يكونوا قتلة".

ولكن سرعان ما ينبعث ردٌّ قوي من داخل إسحاق:

- "دينا ليست سوى قاتلة... سيمور مات على يدها".

ثم يرد على نفسه:

- "لقد كانت ضحية... سيمور أحد المتآمرين على قتل زوجها... ثم... هل أنت يا إسحاق حكومة؟".

وجه دينا بكل براءتها وبكل صرامتها وبكل قوتها يتجلى... ولكن مشاعر إسحاق ترفض أبداً... ترفض قتل دينا... إنه يشعر بشيء ما يعتمل في نفسه...

ربما كانت الرحمة... وربما كانت شيئاً آخر... هل هو الإعجاب والحب... ربما فاض الحب ثانية بنهر كبير من التضحية لا يتفق معه القتل... مهما ازداد الخلاف... بين القاتل والضحية.

ولكن الحقيقة التي بدأت تتضح صورتها... هي أن إسحاق لا يريد موت دينا... أكمل إسحاق كشفه على المريض... وكتب له العلاج اللازم... وخرج من غرفة الكشف... ثم أدار عينيه في المرضى المنتظرين... وبعدها ابتسم ابتسامة مصطنعة... واعتذر منهم مستأذناً... وحمل نفسه وخرج.

الطريق يطول بإسحاق... وهو على ظهر العربة الأنيقة... وسائق العربة كهل في الخمسين... ولم تخف عليه سيماء الحزن البادية على محيا إسحاق... لذا قال:

- "هل في فؤادك أي هموم تشعر بها سيدي؟".

- "اذهب جهة المركز الثقافي".

- "هل من الأفضل أن تحمل شيئاً من الزهور... هنا خان زهور رائع؟".

فكر إسحاق قليلاً ثم قال:

- "نعم... نعم... أرجوك قف لدى خان الزهور".

نزل إسحاق... واشترى باقة ملونة من الزهور... وعاد ليصعد العربة... ثم قال:

- "انطلق... كنتُ بالفعل في حاجة للزهور".

- "عندما تختصم أنت وشخص آخر... قدم له اعتذارك عن طريق الزهور... إنها أفضل مرهم لتضميد جراح الصداقة".

لم يلق إسحاق بالاً لهذا الكلام... الذي ظن قائله أنه مذهل... ومر الوقت سريعاً والجميع صامتون... وبعدها بدت لوحة المركز.

وقفت العربة وأخذ سائقها أجرته... ونزل إسحاق مهتماً حتى دخل... وعندما رأى السكرتيرة تبتسم... ابتسم لها... في حين ابتسمت له وهي تقول في خبث:

- "لقد فاتك الوقت... أنت وهذه الزهور... قريباً ستتزوج الدكتورة دينا... وزوجها هو الدكتور روزولث".

قطب إسحاق جبينه... ولكنه أكمل الموقف بطرح السؤال التالي:

- "تزوجت... جيد... هذا شأنها... ولكن قولي لي... هل هي موجودة الآن".

- "عليك أن تنتظر قليلاً... ربما كانت الآن في طريقها إلى هنا".

سحب إسحاق كرسياً وجلس... ثم تناول مجموعة من الأوراق الموضوعة على الطاولة أمامه... والتي يخترمها دبوس... وبدأ يقلب فيها... وقعت عيناه على مقالات معينة... لم يهتم كثيراً لتلك المقالات... ولكنه بدأ يقرأ فيها بضجر... إنه يقرأ ليقطع الوقت... ولكن... هذه الصفحة... اسم الكاتب هو روزولث... حدث إسحاق نفسه:

- "أوه هذا أمر مقرف... وما عساه يقول هذا الفيلسوف الأفاك السخيف".

اهتم إسحاق بالأمر... لقد كانت الأسطر الأولى عادية... ولكن السطر الخامس والسادس بدتا أسطراً شيقة وآسرة... استمر إسحاق في القراءة:

(المقال الثالث) [١].

اعتذار

لم يطل الوقت... لكن الوقت الذي مر كان كفيلاً بجعل إسحاق يبدو أكثر انسجاماً مع ما قرأه... وفي تلك الأثناء انقطع حبل أفكاره... لأن دينا قد دخلت... كانت السعادة بادية على وجهها... ولكن سرعان ما قطبت جبينها وهي تنظر لوجه إسحاق... أما إسحاق الجالس على كرسيه فقد كان منذ لحظة... منشداً بالفعل للكلام الذي قرأه... ربما لأن الأسطر التي قرأها هي كل ما عرفه عن الإسلام...

(١) المقال الثالث موجود كاملاً في آخر الرواية.

ولكنه عندما رفع بصره إلى وجه دينا أحس أن قلبه يرقص... وقف إسحاق... ثم تقدم جهة الدكتورة... بخطوات بطيئة... كان ساعتها يقول:

- "هل لي أن أقدم اعتذاري".

- "عن أي شيء تتحدث... أنت لم تخطئ بشيء... ولكنك مجرد طبيب قمت بما تمليه عليه مهنتك".

وبعدها ذهبت الفتاة نحو مكتبها... في حين لحق بها إسحاق... ووقف عند باب المكتب وقال:

- "لحظة لو تكرمت".

التفتت إليه دينا وهي تنزل حقيبة يدها... ثم قالت في تجاهل:

- "لا أدري لماذا أتيت الآن؟".

- "أنت سيدتي تعرفينني جيداً".

لم ترد دينا... ولكنها اتجهت جهة الكرسي... وعند ذلك نظر إسحاق يمنة ويسرة ثم قال:

- "هل أدخل... أرجوك سيدتي؟".

لم تجبه دينا... لأنها انشغلت بأوراق أمامها... وعندما نظر إلى السكرتيرة مستفسراً أشارت إليه برأسها أن يدخل... دخل إسحاق... في حين كانت دينا جالسة على الكرسي... ثم قالت:

- "ماذا تريد؟".

- "أنت الآن في ورطة كبيرة... لا أدري ماذا سأقول لك بالضبط... ولكنك حتماً تعرفين أن سرك لم يعد خافياً علي".

ابتسمت في ازدراء ثم قالت:

- "أي سر"؟

- "أنت فتاة الوادي".

تنهدت دينا بنفس عميق... ثم نظرت إلى أسفل... وأعادت ظهرها للخلف قليلاً... ثم قالت:

- "هل أنت يهودي متعصب أيها الطبيب... أم أنك يهودي غبي".

شعر إسحاق بشيء من التوتر... ولكنه قال:

- "بعد أن عرفتك سيدتي... دخلت في دوامه رهيبة... أنت إنسانة أخرى... يبدو لمن يدقق النظر في عينيك أن سحراً ما يجذبه نحوك... منذ قليل قرأت شيئاً عن الإسلام... بالمصادفة طبعاً... وقرأت شيئاً عن اليهودية... كل ذلك لست واثقاً منه... ولكني واثق من حبي لك".

نظرت دينا له في شيء من الشفقة... ثم قالت:

- "أنت أحمق... عندما تفكر في حب فتاة... ستتزوج غيرك... عما قريب".

- "صدقيني... أنا لا أفكر في الزواج منك".

وقفت دينا في حدة ثم قالت:

- "إذن أتيت كي تقول لي: (هناك سر... أعرفه عن شخصيتك السابقة... وسأقوله للناس)".

طأطأ إسحاق رأسه فيما يشبه الخجل ثم قال:

- "ليت الأمر كذلك... لكان حينها أهون على قلبي... ولكن... لقد انكشف سرك".

-"ماذا... انكشف السر".

- "ربما لن تصدقيني... لو قلت أنني بدأت أخاف عليك".

ابتسمت دينا في سخرية... ثم قالت وهي تجلس وتشيح بوجهها لأعلى... وعيناها مغرورقتان بالدموع:

- "اطمئن... ليس أنا من يقتله اليهود... ولكن ربما كانوا أقدر على قتل الحقيقة... وقتل الخير... وقتل الحقوق المشروعة للناس".

اقترب إسحاق من دينا... وقال وعيناه سابحة في ملكوت قدسيتها:

- "أنا من أخبرهم عنك".

هزت دينا رأسها وقالت وهي تتراجع بأسف للخلف:

- "كنت أتوقع شيئاً كذلك وهل أنتظر من يهودي... غير الوشاية الكاذبة".

ثم نظرت إليه بغضب... وقالت وهي تتقدم بوجهها نحوه:

-"ولكني مع كل ذلك لن أتسرع في قتلك...".

تراجعت للوراء قليلاً... في إحساس بانهيار قاتل... ألقت إليه بنظره ثابتة... قرأت شيئاً في عينيه... ثم أكملت:

-"ربما لن أقتلك... لأنك جئت معترفاً... كم يعز على صاحب القضية العادلة أن يقتل أحداً... من أجل شخصه".

- "ولكني معجب بشخصيتك... ونادم على إفشاء السر".

- "أشكر لك مشاعرك... ولكن... صدقني... ستكون أنت أول ضحية لما تزعم أنه سر أفشيته".

- "عليك أن تغفري لي... وسأتدبر أمر هروبك".

وقفت دينا... وشمخت برأسها للأعلى... واحتدت عيناها ببصر ثاقب... وشعر إسحاق أنه يتقزم أمام شموخها وهيبتها... ثم قالت في صوت غليظ أشبه بزئير نمر... وهي تمد يدها نحوه:

- "أنا لا أهرب من اليهود... لم يكن لنمرة الوادي أن تهرب من يهودي... ولكن عليك أن تهرب أنت".

وفي شعور مليء بالدهشة يخالطه شعور بالخوف والخضوع فغر إسحاق فمه... وشخص بعينيه جهة دينا... وطأطأ ظهره... ثم بدأ يتمتم:

- "أنت إذن سيدة الوادي... أنت الفتاة النمرة".

ابتلعت دينا ريقها... وبدت صامتة تنظر بإغراق جهة اليمين... نظر لها إسحاق في خوف... ثم قال:

- "أرجوك... لا تنتقمي مني... سأكون في خدمتك سيدتي".

- "عليك إذن أن تهرب".

- "من هناك".

تحدر صوت دينا من أعماقها وكأنه كتل صخرية تتحدر في واد عميق... وأحس إسحاق أنه يريد أن يفجر مشاعره ببكاء متصاعد... ولكنه قال:

- "هل علي أن أكون مسلماً سيدتي... كي ترضي عني؟".

قامت دينا... وتقدمت جهته بهدوء... ثم ربتت على كتفه وهي تقول... في خشوع:

- "تتحدث عن الإسلام... هذا مدهش... بالفعل مدهش".

ثم نظرت لعينيه بعمق... أحست أنها قرأت الكثير هناك... هزت رأسها وهي تقول:

- "هل يدخل الناس في الإسلام بكل هذه السرعة... مدهش... نعم مدهش... ربما... في عهود سابقة... دخلت آسيا بمجملها في الإسلام... وخلال سنوات قليلة... ودخلت إفريقيا أيضاً بمجملها... هل ترى حان الوقت... لتدخل أوروبا... هل حان؟!".

تراجعت دينا للوراء قليلاً... ثم ألقت ببدنها على المقعد في منتصف المكتب... ثم ألقت ببصرها للسماء وأكملت:

- "هل آن أن تدخل... أوروبا... وهل ترى يكون ذلك على يدي... أنا... هل ستُفتح لي تلك القلوب الحائرة... وهل سأكون حينها سعيدة بنعمة الله... يا الله ".

لبثت دينا منسجمة كذلك... في حين بقي إسحاق مندهشاً ينظر إليها... ثم نظرت إليه لتقول في صفاء:

"إسحاق... أنت ستكون أخاً لي في الإسلام... اذهب الآن... وامنح نفسك فرصة للبحث عن الحقيقة... نعم... هنا في المركز كتب متخصصة... تبين مشروع الإسلام الحضاري... عليك أن تقرأها جيداً".

- "وأنت سيدتي".

- "سأعيش فترة أطول مما سيقرره اليهود لموتي... ولكني أحتاج لخدمة صغيرة... أرجو أن تقدمها لي".

- "أنا رهن أمرك".

- "أريد عدداً من المسدسات... وكمية من الرصاص".

الزفاف

لم تكن سعيدة دينا عندما لفّت على رأسها ذلك الخمار الأبيض... إنها تنظر في المرآة ثم تدخل يدها في اللياقة الصفراء لتعيد اتزانها... هذه الليلة هي ليلة زفافها.

طرقات لطيفة صدرت من خلف باب الغرفة... بعدها سُمع صوت العجوز ماريا وهي تقول:

- "علي أن أدخل... هل أنت جاهزة دينا".

أجابت دينا.

- "يا لك من أم عظيمة... ادخلي".

دخلت العجوز... في حين أكملت دينا:

- "الزواج... هو الكابوس الأكبر في حياة المرأة".

- "ولكن... ربما كان حُلماً جميلاً".

- "هل العربة جاهزة".

- "نعم... وأمامها حصانان جميلان... أحدهما أبيض والآخر رمادي".

- "أوه... رائع أمي".

ضحكت دينا... ثم تقدمت وضمت والدتها بحب كبير...

وفي خارج المنزل كان الجو حالماً بديعاً... وكانت أشعة شمس ما بعد العصر تكسب كل شيء لمعاناً أخاذاً... وأشجار البلوط العتيقة تكسب حديقة المنزل هيبة دافئة... وعندما خرجت العروس وأمها ماريا إلى الحديقة... ربما أدرك المهر العربي أن حدثاً جميلاً قد بدأ... لذا أصدر معزوفة بديعة من صهيله.

أدارت دينا بصرها في الحديقة... كل شيء على أتم وجه... تلك هي الطاولات المعدة لجلوس الضيوف... والأنوار... لقد تضاعف عددها... والزينات متدلية في كل اتجاه... شيء ما يُشعر بالنشوة والطرب... إلا أن سحنة الحزن تباغت وجه دينا بين الحين والآخر.

عادت دينا للمنزل وجلست أمام والدتها... مر الوقت سريعاً وغربت الشمس... وقامت دينا للصلاة... ووقفت والدتها بجوارها... وقبل أن تكبر دينا نظرت لأمها وقالت:

-"وقوفك بجواري يذكرني بأول صلاة وقفت فيها بجواري".

-"أوه... هواء الجبال حينها كان نقياً... وكان قلبي الخاشع أشبه بفرخ الحمام".

-"الحمد لله... كم يشعر الإنسان بالسعادة عندما يرضى عن ربه... ويشعر أن ربه راض عنه".

اشتعلت الأنوار في الخارج... وفي داخل المنزل كان ضجيج الطباخين الثلاثة يكسب المكان أنساً... إنهم يتنقلون بين إعدادهم للحلوى والعصير بالداخل... ثم إعداد المكان... وإعداد المشويات والفطائر في الخارج... في ركن الحديقة المجاور للمنزل من الجهة الجنوبية.

فيم يفكر

مرت دقائق معدودة... وبدأ الضيوف في التوافد إلى الداخل... ومع ازدياد عدد الضيوف بدأت رائحة الشواء تنبعث في أرجاء الحديقة... لم يكن الضيوف أناساً عاديين... معظمهم كانوا أصحاب شخصيات مرموقة... من علماء وتجار... ومسؤولين... ومن بين الوافدين... توقفت به العربة... عودية اللون... ثم نزل منها وقال للسائق:

- "عليك أن تذهب الآن... ولا تعد".

وقبل أن يتقدم الرجل... تحسس جيبه... ثم أخرج من جيبه منديلاً صغيراً... ركز النظر فيها... وبدا مضطرباً وعندما تقدم قليلاً بدأ النور يُبدي ملامحه... إنه لوك... الشاب الثري... وعندما تقدم أكثر... أدخل يده في جيبه الآخر ثم أخرج علبة صغيرة... فتحها... ولمعت داخلها قطعة من الألماس... وقف لوك... ثم ابتسم... وقال في هدوء:

- "كم هي طعنة نجلاء... تلك التي غرستها في حبي الكبير يا دينا... ولكن مكانك في قلبي سيبقى إلى الأبد".

دخل لوك وجلس على أحد المقاعد... ووضع يده تحت ذقنه... وألقى بذهنه في أحضان أفكاره العميقة... ثم أحس ببرد دموعه وهي تنحدر على خديه... ثم قال في همس:

- "هذه هي النهاية".

قُدم للشاب لوك صحن فيه كأسين من عصير البرتقال... وكأس من الماء... تناول لوك الصحن ووضعه أمامه... ازدادت ضربات قلبه... وبدا وجهه مضطرباً.

جريمة

في الخارج... كان هناك شاب يسير الهوينا... إنه يتنقل سيراً على رؤوس قدميه... كان مضطرباً... وكان يخفي يسراه داخل سترته من جهة الصدر الأيمن... وعندما أصبح بمحاذاة الشجرة المتدلية الأغصان... والتي تقف شامخة بجوار موقد الطباخين... وقف... ثم نظر يمنة ويسرة.

الظلام الذي تتخلله أشعة مهزولة تتسلل من بين أوراق الشجرة... تجعل ملامح ذلك الرجل الخفية أكثر رهبة... مر قليل من الوقت ومشاعره المضطربة تجبره على الإفصاح أمام الظلام بما تكنه سترته... لقد أخرج يده بهدوء... كانت قبضته مشدودة على مقبض حديدي لمسدس كئيب... ولكنه على كل حال... أقل كآبة من حامله... الذي يتبادر له بين الفينة والفينة... أن هناك شيئاً قادم من بعيد.

استمر توافد الضيوف... حتى اكتظ بهم الفناء... والعجوز ماريا تدخل وتخرج... وتتفقد هنا وهناك... لتتأكد أن كل شيء على ما يرام...

إلا أن روزولث لم يأت حتى الآن... دينا في الداخل... لم تكن قلقة على تأخره بقدر قلق الحضور... الذين بدا على وجوههم الضجر من وجودهم هنا... دون أن يكون هناك أثر للفرقة الموسيقية التي ستحيي الحفل.

بدأ الوقت في اجترار دقائقَ وثوانٍ قد مضت من قبل... وكأنه يريد التحضير لحدث هام... ولكن دينا الآن بدأت تلوك شيئاً ما... داخل مضغة قلبها الفريد... وبكل هدوء... وقفت أمام المرآة... كانت أمها لتوها فتحت باب الغرفة... وسرعان ما قالت:

- "أنت رائعة يا فتاتي".

- "هل جاء روزولث".

طأطأت العجوز رأسها... ثم قالت:

- "لست أدري ما عساني أقول... ولكنها... أشياء... لا ...".

- "لا عليك... لا عليك أمي... الأمور أسهل بكثير".

- "إذن... ماذا عن الناس في الخارج".

- "سأخرج إليهم الآن".

تقدمت العجوز ماريا... بخطى وئيدة... ثم فتحت ذراعيها وألقت بنفسها على صدر دينا... التي ما بخلت بضم صدر والدتها المحدودب إلى صدرها بهدوء... ثم ترادفت متسارعة تلك الدمعات الحارة من عين واسعة... تشير إلى صاحبتها بأن حدثاً هاماً سيقع... أو أنه بالفعل قد وقع... وربما كان إيماءً بشيءٍ حزين.

طال الزمان أو قصر... أو قصرت تلك اللحظات التي تنظر دينا من خلالها للدنيا... ولكنها معزوفة عميقة في النفس الطيبة... سرعان ما تترنم مع ألحانها... دقات القلب هادئة يترقبها القلب البرّي... أو تموجات مياه هادئة... تر قبحها رمشات العينين اللتين تطالع دينا الذكية... من خلالهما للدنيا... لقد كانت حالمة في ملكوت آخر.

ولكنها سحبت بلطف ذراعيها من خلف أمها... الظامئة لمزيد من العطف... ثم مسحت الخدين بلطف... لتبتل كفًّا فتاة مذهلة... بدموع امرأة صالحة... ولكن الشيء الرهيب المتتابع... يتبدى شيئاً فشيئاً... لكل من ينظر بعيداً في الأفق.

وقفت دينا وقفة صارمة... متوجة بجمال وهيبة... ثم مدت يدها الحنطية جهة الخزانة... وأخرجت الشيء الذي احتفظت به كثيراً... ثم قالت:

- "أمي... عليك أن تحتملي الليلية خبراً ما... ربما كان ثقيلاً... وقد يكون مذهلاً بالنسبة لك... ولكن عليك أن تتحملي... لأن قضيتي الكبيرة... قد تحسم قريباً... وأنا في حاجة لك... لصبرك... في حاجة ماسة".

- "خبر ماذا يا دينا".

- "سامحيني إذا كنت وقحة بعد قليل".

- "ماذا تقصدين".

- "سأقول شيئاً ما... للضيوف".

- "قولي ما تشائين... لن يضيرني ذلك".

"الحقيقة... هي الشيء الذي يهمني... قبل أن...".

- "أي حقيقة؟".

- "أرجو... أن تذكري ما قلتيه الآن جيداً... لن يضيرك ذلك".

- "حبيبتي دينا".

نشبت غصة مدببة الأطراف... في حلقٍ طويل أبيض... يحمل رأس دينا... (الفتاة النمرة)... ثم ألقت هي بدورها جسماً نحيلاً... يحمل روحها الطاهرة... ألقته بهدوء على صدر الوالدة الحنون... التي يخبئ لها القدر شيئاً ما.

ولكن العجوز ربتت على كتف دينا وقالت:

- "تشجعي يا عروس... إلى هذا الحد أنت قلقة من شأن العرس... كلنا كنا تلك المرأة".

سحبت دينا نفسها... وابتسمت في وجه والدتها... إعجاباً بهذه الطرفة... التي لم تخطر لها على بال... ثم حملت دينا ما كانت تقبضه بيدها... ثم قبلته... إنه المصحف ذو العشرة سنتمترات طولاً... ثم قالت وهي تبعده عن شفتيها:

- "هذا هو... حبي الأخير... في ساعة الصفر... وأنت كذلك... أمي...".

بدأت دينا مسيرتها الطويلة... حيث ستُلّقي ما حفظته خلجات نفسها مدة طويلة... تلقيه بكل اعتزاز... بين يدي أولئك المنتظرين... في الليلة الساحرة... التي ستزف فيها فتاة غير اعتيادية... بكل المقاييس:

سارت دينا حتى خرجت من غرفتها... وكانت الأم تسير في إيقاع كإيقاع خطوات دينا... وبعد أن جاوزت دينا الدرجات الأربع... التي أمام غرفتها... بدأ الحاضرون في الصالة الداخلية في الوقوف... ثم التصفيق... لم يبد على دينا أنها آبهة بهم... لقد واصلت مسيرتها حتى خرجت مع باب المنزل... كانت الحشود الواقفة في الحديقة رائعة بدرجة آسرة... وكانت صورتهم المرتسمة في مخيلة دينا تشي لها بشيء من الافتخار.

أعين ثاقبة

قليلاً قليلاً... تزحزح الرجل المختبئ خلف الشجرة... وسلط عينيه هناك... في ذلك القوام الرائع... الذي تتقدم به دينا... وهي متجهة جهة كرسي طويل يتسع لثلاثة أفراد.

لم تكن عينا ذلك المخلوق المختبئ... إلا عيني إسحاق... ولم يكن المسدس الذي معه... إلا مسدساً مذهلاً... يحمل في عجلة وخفة... مستقبلاً مروعاً...

لم يصوب إسحاق مسدسه تجاه دينا السائرة هناك بكل روعتها... لكن عينيه المخمورتين بللتا في لطف خديه... لا يُدرى أي دموع تمساح كانت تلك الدموع التي قذفت بها عيناه... وربما لم يكن لقلب تمساح ماكر... متسع في صدر إسحاق الممتلئ بشيء ما... جهة فتاة كدينا... ولكن نظراته هنا وهناك... تبدي حذره من شيء مجهول... ربما كان ينتظره:

وبين الجموع... كانت الشفة السفلية تهتز... لرجل يطرق بإصبعه بحنق... طرف الطاولة... وينظر لكأس من عصير البرتقال... لوك هو ذلك الرجل... ولكن احمرار وجهه لم يعد ليمنحه صبغته الطبيعية.

وهناك... لا تزال دينا تتقدم... ولا تزال يد لوك تتحرك ببطء لتحمل كأس البرتقال.

وفي مكان آخر... لازالت إبهام إسحاق ممسكة بالزناد.

لحظات مهيبة... تتفتق من قلب الزمن... وتسير ببطء شديد... خشية شيء ما... سيحصل لفتاة هي أقرب للمستحيل... منها للكائن... لكن قدماها بالفعل... تحملانها جهة المنصة... وهناك... كانت النجوم الخافتة في كبد السماء، ترتبط مع هذه الفتاة... داخل ذهن كل واحد من هؤلاء الواقفين... رجالاً ونساء... علماء وعمال... خليط متجانس... من أعراق وأديان وألوان... ولكن الأبصار جميعاً ترقب الجسد الناحل... وهو يهزأ بكل ركود وصخب... على حد سواء... في قداس ليلي بديع... وأخيراً... صعدت دينا على الكرسي.

لم يجرؤ أحد على التصفيق... صورة الوجه الملائكي المضيء تبدو صارخة... وتبدو ضاربة لجدران القلوب الهائمة... في ملكوت قداسة الصفاء والصدق.

وإسحاق هناك... إنه يترقب بحذر... وزفرات رئته تزداد... ولكن عينيه تزدادان ذهولاً... كلما استشرف الوجه المهيب.

وعلى بعد أمتار... تقف سيارة صغيرة حمراء اللون... ينزل منها رجلان بقبعتين سوداوين... قد لفَّ أسفل وجهيهما شالٌ أسود.

لم تقف عينا إسحاق المختبئ... عن المراقبة الشديدة لهما... لقد اقتربا أكثر... وأكثر... وعندما قاربا جدار المنزل اختفيا فجأة.

ازدادت مراقبة إسحاق لمكانهما... وتوجهت فوهة مسدسه جهة المكان الذي غطاهما منذ قليل.

وتفتق الصوت المهيب من أعماق حنجرة دينا... عندما ابتدأت خطابها وهي تقول:

- "مرحباً بكم يا سادة... لم يحضر زوجي في هذا المساء... الحقيقة أنه لن يحضر أبداً... لسبب بسيط... هو أنه قد قتل... نعم لقد قُتل روزولث... في صباح هذا اليوم... بعد أن اختطفه أعوان الشيطان الأكبر».

صمتت دينا برهة... ثم أكملت.

- «لست واقفة هنا لأعبر عن مدى ألمي وحزني... فصبري أدخره أجراً عند الله... أنا واقفة أمامكم الآن... وأنا واثقة من قدرتكم على فهم قضية متشعبة... لا تهم فتاة مثلي... بقدر ما تهم البشرية جمعاء.

أنا الدكتورة دينا... نعم الدكتورة... عالمة... وثرية... وصاحبة مشروع ثقافي... ولكن هذا كله هو جزء صغير من شخصيتي... وأنا يهودية كما تعلمون... ولكن هناك أشياء أخرى سأكشفها لكم الليلة".

في تلك الأثناء تسلل الرجلان المختفيان... لقد كانا يسيران بجوار السور من الخارج... توقفا بهدوء... وأخذ كل منهما مكانه... ثم أشار أحدهما للآخر بعد أن أجال طرفه هنا وهناك.

هز الآخر رأسه... ثم رفع كل منهما مسدسه...

في تلك الأثناء كان إسحاق هناك... يرفع رأسه في هدوء ثم يخفضه... بيد أنهما لم يكونا أبداً غائبين عن عينه... التي تترقب في هدوء.

إسحاق يرتعش ذهولاً... عندما سمع مقولة دينا عن السر...

- «أي سر يا ترى ستكشفه هذه الفتاة... دينا».

أعاد إسحاق نظره... ليراقب الرجلين الحاملين لمسدسيهما... لقد كانا وبكل دقة... يوجهان فوهتي مسدسيهما إلى هناك... حيث العملاقة الواقفة... في كل هدوء وثقة... مدت دينا يدها لتكمل... بيد أن تلك اللحظة كانت تجري في سياق آخر... لقد أطلق إسحاق عياراً نارياً.

هناك دم قان... قد تبعثرت قطراته مباشرة، بمجرد دخول الرصاصة للجسم المتهيب... والتفت الرجل الواقف بمحاذاة السور... ودقق النظر في جرحه الذي بدأ ينزف... لقد أصابه العيار في مقتل.

وفي الحديقة من الداخل... فزع الحضور لسماع الصوت... ثم سمع صراخ إسحاق وهو يقول:

- "انتبهي دينا... انزلي من المنصة... هؤلاء اليهود لقد نفذوا ما توعدوا به".

سمع الرجل الثاني... المختبئ بجوار الجدار... صوت إسحاق... إلا أن رصاصته المتجهة جهة دينا... قد أخذت طريقها...

كان المشهد باهتاً... وكانت العيون المتراصة للنظر للمشهد... أقرب لدرجة الذهول... وقف الرجل المختبئ ثم ارتد أخرى ليتفقد ما حوله... كان الخوف والقلق قد أخذا منه حقهما... وهناك... ألقى بطرفه... في الناحية التي يقف فيها إسحاق... ورفع مسدسه... وسدد بسرعة ومهارة إحدى رصاصات مسدسه... وصرخ بعدها مباشرة... لأن مسدس إسحاق... قد انطلق في الوقت ذاته... برصاصة منبرية جهة الرجل... سقط الرجل المختبئ... وسقط إسحاق.

وعلى المنصة هناك... ترفع دينا رأسها في هدوء... ثم ترفع يدها... ثم تنزلها قليلاً قليلاً... لتضعها على صدرها... إنها حتماً تضمد شيئاً ما... قد وقع هناك... ثم ترفع يدها... لتنظر إلى قطرات الدم المتسللة بين أصابعها... هذا مذهل... لقد... اخترمت الرصاصة جسد دينا... الواقفة... في شموخ هناك.

وهناك... بدا إسحاق... وهو يترنح... ويغالب الموت... ولكنه يفكر في شيء آخر... السر... إنه يريد معرفة السر... قبل أن تفارق الروح جسده.

رفع إسحاق رأسه قليلاً... وبعين راكدة المياه... بدأ يطالع في خشوع... وجه دينا... الواقفة في صلابة الصخور... ثم يدير بصره للجمهور الغفير... الذي كان خاشعاً خشوع الخريف.

رفعت دينا يدها اليمنى... لتشاهد يداً مضمخة بشيء غير ما اعتادت مشاهدته في يدها أيام طفولتها... لم تكن يدها مخضبة بالحناء ولكنها كانت مضمخة بالدم... لقد اختلطت قطرات الدم وهي تتقاطر من بين أصابعها... ثم أكملت الفتاة:

- "دينا لم تمت حتى الآن".

أغمضت دينا عينيها قليلاً... ثم أكملت:

- "ولكن الفتاة الصامدة في وجه الموت... لستة وعشرين عاماً... ربما كان لها اليوم موعداً صادقاً... مع من واعدها كثيراً وأخلف...".

ثم أغمضت عينيها من جديد في ألم واضح... وهناك بدا إسحاق شاخصاً ببصره في دينا... وقلبه ينبض بهدوء... وأذناه تسمعان ببطء... وهو يتجه شيئاً فشيئاً لنهايته... أكملت حينها دينا بقولها:

- "أنا هنا... اسمي دينا... أما ماريا التي تجلس في مقعدها هناك... فهي أمي... نعم أمي التي أحبها أشد ما تحب ابنة أمها".

ماريا ترتجف فرقاً في كرسيها... بيد أنها لم تعلم حتى الآن... شأنها شأن جميع الحضور... أن دينا قد أصيبت بالعيار... أكملت دينا:

- " ولكني منذ قرابة العشر سنوات كنت فتاة أخرى... نعم... فتاة أخرى... إنها الفتاة النمرة... سيدة الوادي... أنا ريحانة... اسمي ريحانة... وقد قتلت عدداً من اليهود المتعصبين... في سفينة ميلان هاري... القادمة من لبنان... قتلتهم بدم بارد... لأنهم أرادوا طمس معالم الحقيقة... بعد أن أقدموا على جريمة قتل بشعة... لقد كنت حينها يد القانون".

صمتت دينا قليلاً... وكأنها تسترجع الذكريات الطويلة... ثم انتحبت بصوت خافت... ثم أكملت:

- "أنا الفتاة النمرة... الأقوى... والأكثر صموداً أمام كل من يواجه جسارتي... نعم... أنا قوية... وأومن بذلك من كل قلبي... إيماني بوجودكم أمامي الآن... ولم يكن ليهودي نذل... أن يقتل سيدة الوادي... الجنية النمرة...".

نظرت دينا لماريا التي وضعت وجهها بين يديها... ثم دخلت في نحيب طويل... ثم توقفت قليلاً لتكمل بعد ذلك:

- "إلا بعد أن قتلوا زوجي الأول... داود... وزوجي الثاني... روزولث... حيث قُتِلَ على أيديهم اليوم... ولكن يا سادة... لكم أن تتساءلوا... لماذا قتلت فتاة الوادي عشرة من اليهود... نعم... لقد كان زوجي داود يهودياً... وقد مكث في أفران يهوديته حتى أصْلَتْهُ نارها... وضاق ذرعاً بحياة الكبت والأحقاد... وعندما اختار طريقاً غير طريقهم... اختار عقله وحريته... واختار دين الإسلام... طردته الصهيونية من رحمتها... إن صح أن فيها رحمة... ثم استمر الصهاينة في مطاردته حتى قتلوه... قتلوه في السفينة... وألقوا عظامه في أعماق البحر... وعندما اتهموني بقتله... لم يكن لمثلي أن تستسلم... أنا... سيدة الوادي... أو تموت كما يشاؤون... ولكن الله كان معي... لقد أخذت بثأري... ثم ألقيت بنفسي في البحر... ولم أمت... لأني وصلت إلى".

أشارت دينا وقتها للسيدة ماريا... التي أصبحت واقفة قريباً منها... في ذهول وحيرة... ثم أكملت:

- "وصلت إلى الأم العظيمة... التي ضمدت جرح امرأة قتل زوجها... وعانت كثيراً".

لوك

كان لوك في تلك الأثناء... غارقاً في وحل من الأوهام والأراجيف... التي يكذبها تارة وينذهل لها أخرى... ولكنه مد يده في شيء من فقدان الوعي... لقد كان أشبه بمن يتخبط في الظلام... واصطكت يده بكوب العصير... ومن داخله أحس بعطش شديد... رفع الكوب في بلاهة... وأوصله لفمه... ثم احتساه... بكل ما يحويه... وأسند ظهره على الكرسي ثانية... ليعاود النظر إلى دينا التي أكملت:

- "لقد أحسست بمدى فظاعة الخطر الذي يصنعه متطرفون حمقى... وعلمت أن من حقي أن أحمي العالم من ذلك الخطر... وتيقنت أن اليهود لو عرفوا حقيقتي فلن يتركوني... لذا عشت وأنا أصنع أثواب التخفي... وأخيطها بخيوط

الحرص والتوجس... حتى اضطررت أن أكون ذات يوم... يهودية... في الحقيقة... أنا لست يهودية... ولكني مسلمة عربية".

أدخلت دينا يسراها في قميصها الأبيض... ثم أخرجت شيئاً ملفوفاً في شال أبيض... رفعته لأعلى... ثم أردفت:

- "وهذا المصحف... الذي أومن به... ويؤمن به ملايين المسلمين... هو كتاب الله... وهو كتاب المسلمين... أما السر... الآخر الذي أردت أن أكشفه لكم... فهو سر الشاب الثري... لوك...".

أفاق لوك قليلاً... في حين بدأت الآلام تعتصر فؤاد دينا... التي أغمضت عينيها قليلاً... ثم قالت:

- " تعال هنا يا لوك... تعال بسرعة أرجوك".

وقف لوك وعيناه تدوران بالدنيا... ثم تقدم حتى صعد المنصة... ووقف بجوار دينا... التي أكملت:

- "هذا الشاب هو لوك... ولكن عليكم أن تعلموا شيئاً آخر عنه".

نظرت دينا للوك... ثم ابتسمت... وضمته لصدرها في حنان... ثم أزاحته قليلاً... واتجهت للجمهور كي تكمل:

- "هذا هو أخي... أخي سبران... سبران...".

وفي ذهول صارخ... فتح لوك فمه في دهشة... واقترب بوجهه من دينا أكثر... وأكثر... ثم بحلق بعينيه في عينيها... وبدأ يرتجف... ومع ارتجافه أحس أن كل خلية في بدنه ترتجف... في حين نظرت له دينا وقالت:

- "نعم... لقد هرب هذا الشاب... هرب من قريتنا... التي بجوار جبل الكرش... منذ أكثر من عشرين سنة... بعد أن قتل اليهود الصهاينة... ذلك الطبيب الصالح... عين الدين... عين الدين...

أنتم مجانين لو صدقتم أن هذا الشاب من جنس ألماني... وهو أيضاً يغالط نفسه... لو زعم أنه ألماني... ولكن طفولته البائسة أجبرته على الكذب... وأجبرته على انتحال أشياء أخرى.

هذا الشخص... كان يوماً ما عاملاً في مناجم الفحم... وكان فقره سربالاً طويلاً من المعاناة... ولكن شيئاً من جنس المعجزات حصل في حياته... وجعله يقفز نحو الثراء... وكان الأولى بمثله أن يموت... من جراء معاناة... لا تحتملها حتى الأحجار".

أدار لوك عينيه في وجه دينا... في حين وضعت دينا يدها على رأسه وأغمضت عينيها قليلاً وهي تشعر باعتصار الألم المر... يسري من أعماق جرحها... ولكنها ابتسمت ثم أردفت قائلة:

- "أين ولد هذا الثري... الذي يدّعي أنه ألماني... عليكم أن تتلقوا الصدمة التي سألقيها عليكم... في الوقت الذي كان عليه هو أن يتلقى صدمته بثبات أكبر... فلا يليق برجل مثل لوك أن يبقى طيلة العمر واهماً أو منتحلاً لهوية أخرى... لأن العربي المسلم... يجب أن يفتخر بعروبته وإسلامه... ويشهرها لكل الدنيا".

هل قتل سبرانُ عين الدين

نظرت دينا إلى لوك بجوارها ثم قالت:

- "نعم... هو أخي سبران... لقد ولد كما ولدت تماماً... لكنه هرب في ليل بهيم... من القرية الصغيرة... لقد كان حينها صبياً صغيراً... ولكن خوفه جعله يهيم على وجهه بحثاً عن النجاة".

قسمات وجه لوك رهيبة متضاربة وأذناه تصغيان لما تقوله دينا... ثم توحي لعقله بأرجوزة متوترة من المعاني... ولكنه مقتنع أنها عرفت كل شيء عنه".

أكملت دينا وهي تنظر إلى لوك:

- "لماذا هربت من القرية؟".

أراد لوك أن يقول شيئاً ولكنه أمال رأسه للأمام... ثم أكملت دينا.

- "لقد كانت محنة عظيمة... تلك التي قابلها الصبي الصغير... حين اتهم بالقتل... لقد كان ذاك الصبي قاتلاً في أعين جميع الناس... ولم يكن لعقله قدرة على إقناع أحد بأنه لم يقتل... لذلك هرب... الجميع يظنون أن سبران هو القاتل الحقيقي للطبيب عين الدين آغا... ولكني سأحكي لكم الحكاية.

لقد جاء الطبيب عين الدين آغا من الأستانة في تركيا... هرباً من مؤامرة يدبرها له بعض أتباع الماسونية العالمية... بالطبع سمعتم عن جمعية تركيا الفتاة... التي عملت منذ سنوات طويلة... على تقويض الخلافة العثمانية.

لقد شارك الطبيب عين الدين في جمعية تركيا الفتاة... كان يظن أنها تريد إصلاح الخلافة... ولكن هيمنة اليهود على مشروعها... جعل منه معارضاً للكثير مما طرحته الجمعية... كان عين الدين طبيباً بارعاً... وكانت آراؤه في السياسة أكثر نضجاً... وكان عازماً على تقويض برنامج الجمعية من الداخل... وإحلال أطروحة وحدوية إصلاحية.

لم يرض أعضاء الجمعية عن أفكاره... ولم يستطيعوا أن يقفوا في وجه أفكاره التي ازداد تأثيرها... لذلك حاكوا مؤامرة قذرة لقتله.

فشلت المؤامرة... وعزم عين الدين على الهرب... والاختفاء... حتى تتيح له فرصة أخرى القيام بما يمليه عليه الضمير.

كانت المحطة الأخيرة في درب عين الدين هي عسير... لقد حطت به الرحال... وبقي يدور في القرى... يبث أفكاره عن وحدة المسلمين... وعن أهمية الدين وأهمية... أن يعيش الناس في سلام وصفاء... بعيداً عن المؤامرات... وكان

يذكر الناس بأخلاق نبي الإسلام محمد... ويقول دائماً... إياكم والحسد... إياكم والحقد... إياكم والتكبر... إياكم واحتقار الغير... إياكم أن تدَّعوا امتلاك الحقيقية، فالحقيقية ملك نفسها.

لقد حارب العصبية... وحارب الكذب والخيانة والغش... ودعا إلى محاسن الأخلاق... ولكن شيئاً ما لن يبقى سراً للأبد... عرف أعداء عين الدين مكانه... وعرفوا أنه يريد جمع أولئك الناس المتدينين بطبيعتهم في جنوب الجزيرة... وأنه يريد نشر الثقافة الإسلامية بينهم... وكان يطمع في أن يجعل منهم قوة ضغط للإصلاح.

لقد قرروا قتله... وراقبوه جيداً وعرفوا الكثير عنه.

عين الدين كان يعمل الخير... ومن بين أعماله... علاجه لفتاة اسمها صبرة...

كانت تعاني من داء الكبد... أما لوك هذا... فقد كان يحب صبرة ... وكان يغار من مقابلتها لعين الدين...

أدرك القتلة هذه العلاقة بين لوك الذي كان يدعى سبران... وبين صبرة... وحدثوا سبران بأكاذيب كثيرة... زعموا فيها أن للدكتور آغا علاقة مشبوهة بصبرة... ثم أقنعوه بأن طريقة التأكد من مدى فظاعة هذه العلاقة هو المراقبة.

وذات ليلة... كان القتلة قد أكملوا إعداد خطة القتل... ومهدوا الطريق لصبي كسبران... كي يراقب ما يحدث داخل المنزل بين صبرة في وجود عين الدين...

كنت أنا ساعتها في الثامنة... وكنت موجودة مع صبرة في منزلها... في حين كان عين الدين يُدخل إبرته الطويلة ذات الإطار الخشبي في بطن صبرة... ليسحب الماء المتجمع في الكبد... وعندما بدأ في غسل الجزء من البطن... الذي سيدخل الإبرة معه... سمعت ضجة في الخارج... واستدار عين الدين... وحينها رأى نصف وجه سبران... الذي كان يراقب الأحداث من خارج النافذة... في الغرفة المجاورة... قال حينها عين الدين وهو يستعد للنهوض:

- "هذا لا يليق أبداً... هذا تجسس...".

وعندما وقف عين الدين ابتسم في وجه صبرة وهو يقول.

- "ابقي كما أنت... لا تتحركي... سوف أقدم معلومة للصبي عن التجسس... وسأعود إليك في الحال".

خرج عين الدين من الدار... وبمجرد تقدمه جهة اليمين لثلاث خطوات فقط... أصابته الطعنة...

هذا الفتى الشاب... الذي أصبح الآن ألمانيا وثرياً... كان حينها كأي صبي من صبيان بلده... لا يخرج في الليل إلا والسكين المغلف نصلها بالجلد... مربوطة حول خاصرته... لقد قال وهو يسمع الجلبة... ويسمع شهقة عين الدين... وهو يقاوم من هجموا عليه:

- "أخو ريحانة".

كان يقولها معتزاً بنخوته وشهامته... ومعتزاً بي... أنا دينا.

نظرت دينا إلى لوك بجوارها... كانت عيناها تدمع... ثم أكملت وهي ترفع يدها الملطخة بالدم النازف وتضعها على خده:

- "لقد تحرك سبران من الجهة التي كان فيها... وهي الجهة الشرقية... إلى الجهة الشمالية... التي فيها باب المنزل الطيني... وفيها الباب الذي خرج منه عين الدين... وحين رأى المنظر المذهل... ورأى رجلان أحدهما واقف... والآخر جالس على ركبه... يعالج إدخال السكين في صدر عين الدين.

صاح لوك... هذا الصبي... الذي لم يكن ساعتها يحمل اسم لوك... واتجه جهة الرجلين... ثم أدار سكينه جهة أحد الرجلين... وربما أصابته في يده... ولكن الإصابة كانت سطحية.

وقفت أنا... وقفة طفلة في الثامنة... والخوف يحاصر قلبي... ثم خرجت أتتبع موضع الصوت... وعندما أخرجت رأسي من الباب... رأيت الرجلين وهما يواجهان سبران... ليقتلوه... ولكني صرخت... ومع صرختي نظر كل منهما للآخر... ثم هربا.

سمعت صبرة الصراخ... وخرجت... ورأت عين الدين وهو مضرج بدمائه ورأت سبران وهو يحمل السكين... ثم صرخت.

- "هل قتلت الرجل الصالح...".

هرب ساعتها سبران من أمام عيني صبرة... كي يطارد الرجلين... ويثبت براءته... واختفى... لمدة أسبوعين... وعاد للقرية مرة أخرى كي يخبرها الحقيقة... وعندما علم أن صبرة قد ماتت سار هائماً على وجهه.

لا أدري ماذا حصل له بالضبط... ولكن المطاف انتهى به إلى المدرسة الدينية في سالونيك... هناك تعلم أشياء كثيرة... وحط عن عاتقيه أثقال الأمية... وقيوداً طالما كبلت صبياً... لم يكن يعرف سوى عناصر الحياة البدائية.

نعم هذا هو لوك... وهذا أيضاً سبران... الذي طرد من المدرسة الدينية بسبب تعرفه على طالب يدعى مصطفى كمال... لم يكن هناك مبرر لطرده سوى سوء تقدير بعض الأساتذة.

لم يكن أخي هذا أقل حظاً مني... لقد كان قادراً على المضي قدماً جهة أوروبا الصناعية... وعمل مع عمال المناجم... في حياة هي أشد قسوة من حياة الأسماك التي تطردها الحيتان... ولكنه عاش هناك بهدوء مشوب بالحذر... والغربة القاسية.

وهناك تعرف على امرأة صالحة... هي بركة من بركات مريم العذراء... نعم... إنها الأم التي أحبت من لم تحمله... وأحبت من لم تلد به... ولكنها استطاعت أن تحب... وأن تعطف... وأن ترحم... إنها أمي... وحبيبتي... ماريا... المؤمنة الصالحة... لقد وضعت يدها على رقبته السوداء... المتلبدة من أتربة الفحم... وقالت:

- "أنت لازلت طفلاً يا بني... لماذا تجهد نفسك بكل هذه المشاق".

لقد صمت ولم يجبها... ولكنها قبلت جبينه وقالت:

- "أنت تشبه ابنتي دينا... نعم تشبهها... إلى درجة أن نظري لعينيك يمنح قلبي وجبة ساخنة من دفء الأم... دفء لا تجده إلا وهي تضم ولدها... من أين أنت يا بني".

بكى حينها الفتى... صاحب التسعة عشر عاماً... وهو ينظر إلى وجه تلك العجوز الجالسة بينكم الآن... ثم أخرجت من جيبها قطعة من حلوى الكاكاو... ووضعتها في فم لم يذق طعم الحلوى منذ مدة طويلة.

وبعد ذلك... توطدت العلاقة بين هذه الأم... وهذا الفتى... حتى طلبت منه أن ينتقل إلى بيتها... وبالفعل أصبح المنزل ذو الحجرتين ... يضم شاباً من الشرق... وامرأة من الغرب.

تعلم لوك القليل من لغة ماريا... وعرفت عنه بعضاً من أحداث قصته... ومر عام كامل... ثم طرأت تغيرات كبيرة على حياة الفتى... مما جعله ينتقل من بيت العجوز... وينشئ بعض المشاريع التجارية... وخلال عام واحد صار الفتى العسيري من أثرياء برلين... وانقطعت العلاقة بينه وبين أمه ماريا... عدا بعض الرسائل التي تصلها منه في الأعياد.

وعندما التقيت أنا بهذه العجوز... في أعجوبة من عجائب الأقدار... حدثتني عن لوك... وأعطتني صورة صغيرة له... وعرفت حينها أن سبران ما هو إلا لوك... كنت أحبه أشد ما تحب فتاة أخاها... وكان هو أيضاً يحبني... وكنت أعرف أنه أخي... ولكنه لم يعرف أنني أخته... لأنني لن أكشف سره وسري... خوفاً على مشاعر العجوز الصالحة... فقط خوفاً على مشاعر أمي... التي منحتني كل شيء... والتي جعلت مني بنتاً لها... ولم يكن ليسهل على قلب مبتل بقطرات اللقاء... أن يلقى في صحراء الحرمان القاحلة.

عذب هو لقاء الأحبة... ولكن فقدانهم عذاب أليم... ولم تكن شهامتي لتسمح لي أبداً... أن أقتل الفرحة في قلب من أحيتني.

ولكن... الآن يطاردني خدام الماسونية... وعباد الترهات الصهيونية... بعد أن قتلوا زوجي الأول... وقتلوا زوجي الثاني في يوم زواجه... وقتلوا".

نظرت دينا لأسفل... عند قوائم الكرسي في المنصة... ورأت إسحاق الجريح... الذي أعياه الزحف على الأرض... تأملت قليلاً في العينين اللتين ترسم صورة الاحتضار... وربما رسمت صورة البراءة ثم أكملت:

- "وقتلوا هذا الطبيب... الذي شاركهم في جريمتهم... ثم تبرأ منهم... ولكن هذا هو حال كل من يتعاون مع الصهيونية ذات يوم... إما أن يبقى عبداً لهم إلى الأبد... وإما أن يطلب حريته... وحينها يقتلونه... أي وحوش هم".

في تلك الأثناء كانت دموع لوك متحدرة على خديه... أشبه بميزاب من زجاج... ولكنه فرد ذراعيه ليرمي نفسه في أحضان أخته ريحانة التي ضمته بحرارة... بقي عناقهما مدة قصيرة... في حين تقدمت العجوز الصالحة ماريا لتأخذ نصيبها من حنان ريحانة... وتقدمت ريحانة... الفتاة العسيرية... نحو والدتها... وعندما وقفت بجوارها، صرخ إسحاق ملتمساً نظرة... ممن سكنت فؤاده مع أول لحظة رآها فيها على السفينة... ولكن ريحانة لم تكن مشغولة به... بقدر اشتغالها بروحها... التي وصلت إلى ترقوتها... بدأت الدنيا تدور في عيني تلك الصبية المذهلة... وبدأت كل خلايا شبابها ترتجف... ثم انطبقت جفناها وهي واقفة... وشعور الموت أحاط بها... لتمثل أمامه في هدوء...

لحظات قليلة... وسقطت ريحانة... على أرض المنصة الخشبية... في حديقة منزلها الجميل... في ضاحية من ضواحي شرق نابولي... المدينة الإيطالية العريقة... وهناك ضج الحضور... وقامو متسارعين نحو الفتاة الأسطورة... وعقولهم يتأرجح فيها الوهم... ولكن ريحانة... ماتت بالفعل.

مرت ساعات الليل كئيبة حزينة... وفي صباح اليوم التالي... دفنت ريحانة داخل حديقة قصرها... بأمر من العجوز ماريا... حيث تحولت الحديقة فيما بعد، لمقبرة خاصة بالمسلمين... سلام لك يا ريحانة... وسلام على كل أرض وطئتيها.

عبدالوهاب

٩/١٢/١٤٢٥ هـ

أبها. الساعة ١١ ليلاً

البريد الإلكتروني: WAHAB10@AOTMAIL.COM

ص ب أبها - ٢٤٢٢ - السعودية

الملاحق

الملحق رقم (١)

المقالة الأولى: "الإيمان والإلحاد".

«بقلم كاري»

عندما بدأ الليل يحط على الدنيا أروقته... كان غروب الشمس حدثاً سعيداً للدكتورة دينا... لأن سعادتها كانت غامره وهي ترى المثقفين والأدباء والمفكرين... بزيهم المميز وسمتهم الملائم لعلمهم... قد أخذوا طريقهم إلى داخل المركز... ومع انسجام ظلام الليل داخل ردهات الدنيا... كان المركز قد حوى ما لا يقل عن خمس وعشرين شخصية بارزة... إضافة إلى بعض الحضور من عابري الطريق الذين قرؤوا الإعلانات... على جدران المركز.

استُقبل جميع الضيوف بعصير البرتقال... وقطع البسكويت الملبس بالشوكولاتا... وبعد دقائق ارتفع الإعلان عن أسماء المتناظرين... وعن وقت المناظرة.

كان الإعلان يقول:

- "بعد أربع دقائق... سيرتقي المنصة كل من: الدكتورة (دينا)... كممثله عن الأديان الإلهية... والدكتور (روزولث هيلا الهيلي)" كداع للتحرر الإنساني من سيطرة الأوهام والخرافات".

مرت الدقائق سريعة... ودقت عقارب الساعة دقاتها الثمان... وهي تعلن البداية الحقيقية للأمسية الرائعة.

وفي البهو الواسع... الذي يشغل الحيز الجنوبي... للمركز اليهودي لحوار الأديان وحقوق الإنسان... كان ثمة مكان مهيب تكسوه الروعة... ومن الخلف ترى

الرؤوس نصف الصلعاء... التي يحملها هؤلاء النخب على أكتافهم... ولا يمكن التنبؤ أبداً... لماذا هي هكذا.

النور الخافت في الجوانب والزوايا البعيدة يبدو صادقاً... وتلك الكراسي الجلدية الأنيقة... ووجوه القائمين على إعداد الأمسية... كل ذلك يدعو للتأكد بأن الأمور على ما يرام... ومع اكتمال الوجه المشرق للحفل بدأ الهمس يتلاشى شيئاً فشيئاً... عندها تقدمت فتاة في الخامسة والعشرين لتصعد المنصة... إنها جميلة وجذابة... ولكن ليس هذا هو المهم... المهم لدى كثير من أولئك النخب... تساؤلهم:

هل بالفعل قطعت الفتاة اليافعة... شوط العلم حتى أصبحت تحمل درجة الدكتوراه... وهي في هذا السن... يال روعتها".

ولكن أحداً لم يكن يعرف شيئاً عن مدى حرصها الدفين على مصلحة البشرية... كلما ألقت بنظراتها هنا وهناك.

وبعد لحظات... صعد الدكتور روزولث... ويديه مسدلة لأسفل... وشعره ثائر... وشاربه طويل ونظراته ثاقبة... ووجه الأحمر يتقد شباباً وحيوية... وهو في الثالثة والأربعين من العمر.

جلس المتناظران... وبدأت دينا في الحديث قائلة:

- "كان من المفترض أن يكون هنا من يدير الحوار... ولكني على ثقة بأن هذا الموضوع الهام سيدير نفسه بنفسه... سوف تجدون متعة كبيرة... أشكركم جميعاً على الحضور... تفضل بالحديث دكتور".

اعتدل روزولث في جلسته وقال بثقة:

- "لقد أعطى الدين للناس كل ما يملك... منحهم كل شيء كان يستطيع منحه... لقد قام برسالته كاملة... ونجح في كثير مما كان عليه أن يقوم به... والآن لم يعد لديه شيء يمنحه للناس".

رجع الدكتور بظهره قليلاً... ثم مد يديه الطويلتين للأمام وأكمل:

- "علينا أن نؤمن بالحداثة... أنا لا أكره الدين... وإنما أقدره بالقدر الذي كان به قادراً على تنظيم سلوك أناس هم أقرب للوحوش... ولم يكن من طريق لإصلاحهم إلا التوعد بالنار والثبار... أما الآن... فقد منح القانون لكل شيء قيمته... القانون هو المصلح الحقيقي للناس... علينا أن نقفز بعقولنا للأمام... علينا أن نتخطى العوائق والعقبات... وعلينا أن نستخدم العقل والبرهان... لمعرفة ما ينفع وما لا ينفع... ثم نلزم الدولة بأن تضعه في دستورها... ثم هي المسؤولة أمامنا... في أن تثيب وتعاقب، تبعاً للقانون.

أنا أشكر لليهود يهوديتهم... وللمسيحيين مسيحيتهم... ولا أظن هنا مسلمين... ولكني أشكر لهم إسلامهم وكذلك للبوذيين... وللهندوس... وأقول... لقد قمتم بالكثير... ولكن... عليكم الآن أن تستعملوا عقولكم... نحن موجودون هنا كي نعيش... كي نبدع ولكي نخترع... حتى القيم... علينا أن نخترعها... بما يناسب حاجاتنا... في عدل وديمقراطية... وضمان للحريات... وعلى القانون أن يساعدنا... وعلى الأجيال القادمة أن تختار ما يناسبها... وكلما وُجد جيل جديد... عليه أن يمحص ما وصلنا إليه... وعليه أن يتوصل لحقائق خاصة به... يضمنها له قانونه... هذا كل شيء... وبكل اختصار".

عم الصمت للحظات... ثم انفلتت تصفيقة من أحد الصفوف... تبعتها تصفيقات قوية... وبعد أن هدأ الضجيج... تقدمت دينا بجسمها النحيل... جهة الطاولة... وسحبت كرسيها... وابتسمت ابتسامة لطيفة... يشك من يراها لأول وهلة... أنها صادرة من فم مناظرة قوية... ثم قالت:

- "باسم العظيم... إله العالمين... نفتح".

نظرت دينا بعد أن التفّت ببدنها جهة الدكتور روزولث ثم قالت:

- "هل أنت موجود عزيزي روزولث؟".

نظر إليها روزولث باستغراب ثم قال بثقة:

- "نعم... أنا موجود".

- "من أوجدك؟".

قال بسخرية... وهو يعيد نظره للجمهور:

"يا سادة... هذا هروب واضح من الموضوع... وهذه الردود الساذجة مضغناها ثم لفضناها...".

أعاد النظر لدينا... ثم أردف:

"أنتم دائماً تعودون للوراء... للما لا نهاية... التي لا يستطيع أحد إمساكها... نحن بشر... ونحن قادرون على إدارة كل شيء... بعقولنا".

قالها وهو يمسك بمقدمة رأسه.

قالت دينا في هدوء... وقد ضمت كفيها لبعضهما... وألقت بهما أمامها على الطاولة:

- "لم تجبني... ما هي القوة الرهيبة القادرة على إيجاد مثلك".

صمتت قليلاً... ثم أكملت:

- "أنت بالطبع لم توجد نفسك... وأنا بالتأكيد لم أوجدك".

ضجت القاعة بالضحك... وطرقت دينا على المنضدة طلباً للهدوء... ثم أكملت وهي تنظر للجمهور:

- "في الحقيقة... إنه صراع رهيب وخفي... نشعر به جميعاً... عندما نتعمق في ذواتنا... بحثاً عن حقيقة ما... ربما هي أهم حقيقة بالنسبة لنا".

قاطع الدكتور روزولث حديث دينا بشيء من العصبية... بعد أن رأى أعين الحاضرين مستلذة بكلامها... وذلك بقوله:

- "موضوعنا يا دكتورة... هو مبحث الدين... وليس مبحث الوجود... هناك فرق جوهري... عليك ألا تحتالي... وكلامك هذا عزف على العواطف... لا تفتيش في العقول".

ابتسمت دينا وقالت في دعابة:

- "هل تسمح لي... كي أكمل ما بدأته... وأظن أن من حقي أن أصل لما أريده بالطريقة التي أختارها... هناك خطوات متتابعة للوصول لإثبات أهمية الدين... المسألة ليست مسألة ١ + ١ = ٢ ... وعند الحديث عن الميتافيزيقا فعلينا أولاً أن نتحدث عن الفيزيقا... وننطلق منها لمباحث الميتافيزيقا... وأنا حين أطرح سؤالي عليك... فأنا حتماً لم أخرج عن إطار الموضوع... ولكني أسير... في نفس طرق التعلم... حسب رأي بياجيه... من المعلوم إلى المجهول... ومن المحسوس إلى غير المحسوس".

توقفت دينا قليلاً... وضجت القاعة بالتصفيق... وبعدها أكملت:

- "إن الطريق الذي يسير عليه دعاة الحداثة... يحتم عليهم قص الماضي... والانفعال في الحاضر... على درجة تكوين مسلَّمات جديدة... الواقع أنهم ينظرون للزمن من خلال مدخل واحد... ذلك المدخل هو ببساطة (ماذا نحتاج الآن)... أنا لن أناقش مسلَّمات الفكر الحداثي... ولكني مضطرة الآن للنهوض".

نهضت دينا ثم أكملت:

- "السفينة لن تسير أبداً دون ربان... وأنا الآن لن أسير دون عقل يبعث بأوامر معقدة إلى... عضلات جسمي".

سارت دينا قليلاً... ثم عادت وجلست على كرسيها... وأكملت:

- "أنا أريد من عقولنا جميعاً أن تتواضع قليلاً... وتبحث بروية وهدوء... في طيات مسلماتها الفطرية... القديمة... بعيداً عن التعصب.

هل يمكن لهذا العالم المنسجم الهادي... الذي يحمل في أعماقه كل أسرار الإبداع والحكمة... أن يوجد اعتباطاً.

لا يمكن لعقلي البسيط أن يصدق بذلك... ولست أدري حقيقة ما تكنه عقولكم... ولكني أجزم أن هناك شيئاً آخر... نعم آخر... مستقلاً عن هذا العالم... هو الذي حكم بوجود هذا العالم... البحوث التجريبية تقول ذلك... وذلك أيضاً ما قاله نيوتن... قال:

«لا يوجد شيء بطريقة اعتباطية... وإنما هناك فعل ورد فعل... وهذا العالم ردة فعل لفعل سابق... وفاعل الفعل هو الخالق".

رفعت دينا منديلها الأبيض لتمسح عرقها... في حين كان الجميع يعيشون حالة دهشة ولذة... وهناك قد فغر الدكتور روزولث فاه وحدق بعينيه... ثم ضجت القاعة بالتصفيق... وكلمات تنبعث من بين الصفوف... وتطلب المواصلة في الحديث... لذا أكملت دينا:

- "وبالطبع... ليست مسألة إثبات الخالق... هي ذاتها مسألة الدين... ولكن في تصوري أنها هي الخطوة المنطقية الأولى... علينا أن نسير في الطريق من بدايته... أنا أعلم أن كثيراً من النظريات... ومنها نظرية النشوء والارتقاء... وأيضاً نظرية مصادفة العالم... قد اكتسحت الدنيا... ولكنها عملياً ستسقط... حتماً... ستسقط من الخارج؛ لأنها في الحقيقة ساقطة من الداخل... ومع أن نظرية النشوء أكثر قوة وصلابة من نظرية المصادفة... إلا أنها في النهاية تثبت وجود قانون لخلق العالم... وهو قانون النشوء والارتقاء.

وأنا أسأل الدكتور روزولث... إن كان من أنصار هذه النظرية... ترى عندما نسلم جدلاً بنظرية النشوء والارتقاء... من هو الذي سن قانون النشوء في الحيوانات... وبكل هذه الدقة والحكمة... ما الذي جعل البعوضة تتطور بطريقة متناسقة ومنضبطة حتى أصبحت ضفدعاً... أهو الاعتباط... هل الاعتباط في

إحدى أطروحاته منطقي... إن كان كذلك فلماذا لا نسيمه انضباطاً... ونقول... هو قادر على رسم خطط سوية... باستخدام علم أسبق... هل نحن نستحي من الحقيقة... أم أننا متكبرون عليها... ولكن صدقوني يا سادة... لن نكون لا هذا ولا ذاك... عندما نختصر الطريق على عقولنا المنهكة في الإلحاد... ونقدم لها الحقيقة الجلية... ونؤمن أن هناك قادراً آخر... ليس من نوع الإنسان قد خلق ونظم... وصنع كل شيء... وله قدرة ليست كقدرتنا".

نظرت دينا جهة الدكتور روزولث ثم قالت:

- "أليست المسألة بسيطة...؟".

ثم أكملت:

- "والآن... تستطيع أن تعلق بما تشاء يا دكتور".

- "أوه... أنت متحدثة بارعة... وقادرة على أسر المشاعر... ولكنك تتكلمين كراهب غارق في الميتافيزيقا... ربما أجد نفسي في النهاية مضطرًا للصمت... أو ربما أوافقك على وجود شيء ما... له سر ما... وهو ذاته يملك منح الحياة صورتها الحية.

كنت أريد أن لا أوافق... ولكن لم أستطع... على كل... هذا لا يهم... المهم هو هذا التساؤل الذي سأطرحه... عن معرفة كنه هذا الباعث لسر الحياة... معرفة حدوده... معرفة صفاته... ومعرفة إمكاناته... هل هو نسيج صغير داخل الخلية الحية... هل هو نبضات مجهولة داخل العقل... هل هو الرياح... أم أنها الجاذبية.

أنا أعلم يا دكتورة دينا... أنني أدخلتك في متاهة... عندما طرحت أمامك هذا التساؤل... وأعلم أن الحرج ربما خالج مشاعرك... سهل جداً أن نقول... هناك خالق... ولكننا ندخل في متاهة السؤال... من هو الخالق... فقط كلما تجرأنا للقول بأن هناك خالقاً... لأننا لا نملك جواباً يرضينا... ومن هنا ولد الإلحاد... الإلحاد... هو في الحقيقة خطأ... ولكن الدخول في متاهة البحث عن ما وراء الحياة هو الجنون بعينه... الإلحاد هروب من الجهل... ولكن الإيمان الذي تقولين به دينا، هو

انتحار العقل... على مشنقة الأوهام... وستبقون في أوهامكم... وسأبقى في إلحادي... وكلنا نجهل الحقيقة... فإياكم أن تكابروا علينا... أشكر لكم جميعاً".

صمتت دينا وهي تبتسم... في حين ضجت القاعة بالتصفيق... بعدها ابدأت دينا قائلة:

- "أشكرك دكتور على صراحتك البديعة... وأشكر لك اعترافك بجهلك... وعدم ثقتك في إلحادك... ولكن إن كان من العدل أن تحكم على نفسك بأنك جاهل... فليس من العدل أن تحكم على غيرك به... وإن شعرت بمركَّب النقص يتفاعل في داخلك... فليس من العقل أن تحكم على الآخرين... بأنهم لا يعرفون حقيقة ما تجهله...

عزيزي روزولث... أنت متفائل كثيراً... لأنك ظننت أنك ستدخلني في المتاهة التي تتوهمها... وربما كانت أوهامك هي المتاهة التي عليك أن تخرج منها... اسمع صديقي الدكتور... لقد سألتك في البداية سؤالاً وتهربت منه... وأراك الآن تجيب عنه بطريقة غير صريحة... ولكني أعيد عليك السؤال مرة أخيرة... وأريد منك جواباً واضحاً... وإلا فإننا مضطرون... أنا والجمهور... لإيقاف المناظرة... حتى نشعر أنك قادر على الإجابة عن أسئلة ملحَّة... يراد منك جوابها... خاصة من الجمهور".

انطلق التصفيق... ثم تتابعت الهتافات... نريد الجواب... نعم... الجواب مهم... بعدها أكملت دينا:

- "هل تؤمن بوجود خالق لهذا الكون... أم أن العشوائية والاضطراب هي التي تولد الترتيب والانضباط".

قال روزولث... في شيء من الامتعاض:

- "لن أكون جباناً دكتور... أنا أومن أن هناك موجداً للكون... وأعلم أنني لو لم أومن بنظرية الفعل ورد الفعل... لكانت إجابتي بنفي الموجد هي شيء من الكلام

الأخرق... وحتماً ستؤخذ على... والمسألة كما قلت دكتورة دينا... الاستحالة في أن يولِّد الاضطراب انضباطاً... هذه النظرية محالة... وأنا لا أتبناها...".

أعاد روزولث ترتيب ياقته ثم أكمل:

- " وأيضاً أنا أشكر لك عرض قضية الإيمان بالخالق من زاوية قانون الفعل وردة الفعل... المثبت تجريبياً... وقانون الاضطراب والانضباط... بالتأكيد... الاعتباط يستحيل تجريبياً أن يولد انضباطاً متتابعاً.. إنها نظرية العشوائية... أعترف بكل شجاعة أمام الجمهور أني معجب بك دكتورة... ولكن إثبات الخالق شيء غير الدين... ولست أدري ما إذا كان هذا الخالق ذا صلة بالأديان... لست أدري".

- "أشكر لك دكتور تواضعك الجم وموضوعيتك... وهذه الخصلة هي الخصلة الرائعة التي تميز بها علماء القرن العشرين... وهي تزيد من قيمة العالِم بالطبع... لأنها تثبت أن عقله هو الذي يسيره لا هواه وشهوته... هكذا ستقود أوروبا كل العالم... وهكذا ستصل لذروة العلم... بعلماء هم أكثر تواضعاً في محراب الحقيقة والمعرفة".

- "شكراً لك... ولكني أتمنى أن أسمع المزيد في موضوع الدين... نعم... هنا سنقفز للأمام قليلاً... وسنقول... هل للخالق هدف ما... يتعلق بالمخلوق الذي خلقه... وبمعنى آخر... هل يريد الخالق شيئاً من هذه المخلوقات... نعم... نعم... هل يريد الخالق شيئاً من حيوان مثل دودة الأرض... أو الخرتيت... هل يريد شيئاً من البكتريا... بالطبع لا... لقد خلق الخالق كل المخلوقات... كي تعيش... وكي يظهر إعجازه... هذه أوافق عليها... أما الدين... فشيء لا تعرفه المخلوقات... لا يعرفه الحيوان... ولم نسمع أنه يعرفه... فكيف جاء... إنه أمر يحتاج إلى إعادة نظر... أليس كذلك دكتورة... وهنا نعود لنقطة الصفر، التي بدأناها آنفاً... علينا أن نتحدث في مبحث الدين... لا مبحث الوجود...".

- "هل أنت سعيد دكتور... هل أنت سعيد بهذه المقارنة التي تطرحها".

- "نعم بالطبع... لأنها الحقيقة".

- "هل أنت دكتور... تقيس الوجود الإنساني على الوجود الحيواني؟".

قال في حيرة:

- "أقيسه ؟؟ نعم... نعم أقيسه".

- "وهل تسمح لي ألا أقيس وجود الإنسان على وجود الحيوان... هذا بالطبع إذا كانت مشكلتك مع الدين هي ناتجة من استنتاجك القائل... بأنه... ما دام الحيوان لا يحتاج لدين... فالإنسان لا يحتاج أيضاً لدين... هل هذا هو استدلالك... هل هذه مشكلتك؟".

- "كوني صريحة دكتورة... هل تنفين نظرية التطور؟".

"وهل تؤمن أنت بها... إنها مجرد فرضية... لم تأخذ نصيبها كاملاً من البحث... القرد تطور لإنسان... ماذا يا ترى عن الأرنب... هل تطورت إلى قط !!! أم أن القط هو الذي تطور بدوره لأرنب... ولماذا لا تكون نظرية التطور عكسية... بمعنى أنه تأخر... فالأصل الإنسان... ثم انحدر وتأخر فصار قرداً... ثم هكذا حتى صار ضفدعاً ففراشة هـ... هـ... هـ... ستكون عندها نظرية أخرى هي نظرية التأخر... أو التدهور... وربما جاء عالم ثالث ليقول إن هناك عملية دورانية بمعنى أن الإنسان يكون قرداً ثم القرد يعود إنساناً... خاصة وأن هناك أقوال عن مسخ اليهود لقردة... هـ هـ... وعندها نقع نحن اليهود في الفخ... لا يا عزيزي... نظرية التطور هذه شيء من العبث...لا طائل من ورائه".

ضجت القاعة بالتصفيق... والتصفير... وبدا الدكتور مدهوشاً ثم أكملت دينا:

- "أنا عالمة نبات... ولست عالمة حيوان... ولأني لم أتخصص في علم الحيوان بالدرجة الكافية... فإني أعترف بعجزي... ولكني فقط أتساءل... مع رفضي لأن يتحدث شخص في تخصص لم يدرسه... وأعتذر أيضاً للأستاذ داروين... فربما حظيت نظريته بشيء من التأييد اليوم... ولكن عليه أن لا يراهن كثيراً على قبولها

في المستقبل... ولكني أعيد سؤالي للدكتور ثانية... هل الوجود الإنساني يقاس على الوجود الحيواني... أم أن هناك فوارق جوهرية... تجعل وجود الإنسان شيئاً... ووجود الحيوان شيئاً آخر... أرجوك أجب»:

- "بالطبع لا... لا... وجود الإنسان يختلف... فهو... وجود يميزه العقل والاختيار... أنا أعترف لك بذلك دكتورة دينا".

- "العقل والاختيار أولاً... هذا ممتاز... ولكن هناك شيء آخر دكتور... ربما كان الأكثر أهمية... إنه... إنه القدرة على السيطرة والتحكم".

قال روزولث في تواضع:

- "نعم... تفضلي... هل تبينين ذلك للجميع".

- "وهذا ما سأضع حوله دائرة حمراء... لعل ذلك في أذهانكم فقط... ولعلي أؤكد... إن المخلوقات الحيوانية... تسير لقضاء شؤون بقائها... من خلال دوافع غريزية... وإنك تجد هذه الدوافع الفطرية مشتركة لدى جميع أفراد هذا النوع من الحيوان... أما الإنسان... فإنه قادر على السيطرة والتحكم... ومادام هناك سيطرة وتحكم... فمن الواجب على الإنسان... أن يوجد نظاماً وقانوناً ضابطاً لتلك السيطرة وذلك التحكم... وإلا وجد الظلم والفساد... والقانون بالطبع ليس هو الفطرة... وأيضاً... يجب أن لا يكون مصدره هو ذات مصدر السيطرة والتحكم... لأن صاحب السيطرة سيجعل القانون على هواه.

يجب أن يكون مصدر القانون... هو الخالق... لأنه هو وحده الأعلم بما يحتاجه مجموع أولئك المخلوقين.

والقانون... في تصوري... هو الدين... في تصوري أنا على الأقل... أن القانون هو ذاته الدين... نعم الدين.

وبغض النظر عن التسمية... فقد نسميه الدين... وقد نسميه قانوناً إلهياً لإصلاح حياة البشر... وتنظيم السيطرة والتحكم... التي أُعطِيها الإنسان دون غيره.

إنه شيء من التنظيم للحياة... وذلك القانون هو ما يعلِّمه الخالق لأحد البشر... ويطلب منه أن يبلغه للبقية.

تنحنح روزولت تم قال بثقة:

- "ما هو الدين دكتورة... أرجو أن لا تغرقي في مصطلحات رنانة... قد لا تكون إلا شيئاً من الغموض؟".

- "الدين أيها الأخ... يتركز حول عدة محاور... سأذكرها على شكل نقاط... حتى تكون أكثر وضوحاً... وترتيباً في الأذهان:

- **أولاً**: من أهم بنود الدين... الإيمان الجازم بوجود خالق للإنسان... وللكون... وهذا الخالق قادر حكيم عليم... ونحن لا نحيط به... وهو يحيط بنا... والوصول إلى الإيمان بالخالق هو الغاية من وجود العقول... فالعقل بقدرته الكامنة... مسؤول عن التأمل في كل ما حوله... حتى يصل للخالق.

- **ثانياً**: أن تكون هناك صلة ذات طابع خاص... بين الإنسان وخالقه... ويجب أن تكون هذه الصلة ذات طابع روحاني تأملي صادق... تخلو معها الروح في منظومة تأملية... حتى تدرك شيئاً من نسبيتها تجاه الخالق... وهذه الصلة... حتمية لازمة لطهارة النفس... ولن نسهب في أهمية هذه الصلة... لضيق الوقت... مع أن أدلتها من علم النفس ودراسات العقل الباطن... وعلاقة العقل الباطن بإيقاظ الضمير كثيرة.

- **ثالثاً**: الصدقة... نعم الصدقة... إنها شيء من المال المملوك... يمنحه من يملكه... لإنسان آخر لا يملك شيئاً... إنها قصة الإنسان وأخيه الإنسان... فالمال مال الله... وللإنسان حق على الإنسان... فيجب أن يسود التكامل... جميع البشر.

- **رابعاً**: تنقية ممتلكات الإنسان... والتأكد من كونها جميعاً مكتسبة من مصدر لا ظلم فيه... كل جنيه... يجب أن يمحصه الإنسان... قبل أن يدخله إلى جيبه ويسأل... هل هناك من هو أحق به مني.

- **خامساً**: الدين يقول: «إن على الإنسان أن يطهر قلبه من الأحقاد والضغائن... وعلى كل إنسان أن يجاهد نفسه كي يطهرها من الأحقاد».

- **سادساً**: علينا أن نجاهد كي نطهر أنفسنا من الحسد... الحسد هو درك وضيع... وكلما اشتعلت نيران الحسد في قلب إنسان اشتعلت نيران نهايته.

- **سابعاً**: علينا أن لا ننتهك أعراض الناس... أو أن نتحدث فيهم بما يسوؤهم... إن حديثاً عنهم في غيبتهم بما يعيبهم هو شيء من الظلم... وإن الحديث عنهم في حضرتهم بما يعيبهم... هو شيء من الشتم... وكلا الظلم والشتم... ينهى عنهما القانون الإلهي.

- **ثامناً**: هناك حدود معينة للعلاقات الجنسية... فيجب أن يكون فقط داخل إطار الأسرة... كي يتربى الأبناء في كنف أسرة تكسبهم الأمان.

هذا هو الدين... هذا هو الدين دكتور... وهذا هو الدين أيها الحضور الكرام... هل هو وهم... هل هو خرافه... هل هو ترهات ومتاهة... يا للعقول".

توقفت دينا عن إكمال حديثها... الجميع كأن على رؤوسهم الطير... أما الدكتور روزولث فإنه يدير عينيه... ويبحث عن كلام يقوله... لكنه أغمض عينيه ثم طأطأ رأسه.

الملحق رقم (٢)

المقالة الثانية: "عندما تفكر في خلوة".

الكاتب: كاري

شيء مذهل قد حصل... إنه التغير الذي يحصل على أفكار الإنسان... بمجرد خلوته للتفكر في الملكوت الكبير.

هنا في الحديقة... يجتمع كل من الدكتور دينا والدكتور روزولث... حقاً ستكون المناظرة منفتحة بكل الأبعاد... لأنها في الهواء الطلق... لقد قرر المتحاوران أن يهربا عن كل الأضواء... ولكن قلم كاري هنا دائماً... إنه بالمرصاد... ليكتب لكم كل التفاصيل... هاهو روزولث... يرفع كوز الذرة... ثم يقول معرباً عن أفكار جديدة اعتنقها... بعد تفكير طويل:

- "الإسلام عزيزتي دينا هو الاستسلام للخالق... وحبه وهو مسالمة البشر... وعدم إيذائهم... إنه تصور عميق عن الحياة... يجعل من المؤمنين به... كائنات خير... لا يصدر عنها الشر أبداً".

في تلك الأثناء... نظرت الدكتورة دينا بسعادة... ثم ابتسمت بسمة صادقة... كي تبدي فرحها بإيمان روزولث... وتبدي أيضاً دهشتها من اختياره لهذا الطريق في التدين... إنه طريق غريب... لم يتوقع أحد أن يكون الإسلام هو الدين المرشح لدى عالم كبير... يمكنه الاختيار... من بدائل متعددة... قالت دينا:

- "كذلك اليهودية... إنها دين يسعى لنشر العدل والسلام... في الوطن الموعود... الذي وهبه الله لأبنائه... في أرض فلسطين".

- "وماذا عن غير اليهود؟".

- "عليهم أن يدخلوا في اليهودية... ليجدوا كل الامتيازات... وإلا... فعليهم أن يواجهوا قدرهم... وأن يبقوا خدماً لليهود".

- "وأموالهم... أقصد أموال من لم يكونوا يهوداً".

- "هي بالطبع مباحة لليهود... وكذلك أعراضهم... لأنهم لم يؤمنوا... بالله فهم كالحيوان".

- "هذا ظلم".

- "ظلم ماذا دكتور؟".

- "أنتم تبيحون لليهودي أن يظلم غير اليهودي".

- "بالطبع... مالُ غير اليهودي مباح لليهودي... ونحن نحرم الربا مع اليهود... ولكن نبيحه مع غيرهم".

- "وأنت... هل أنت من هذا الصنف".

ابتسمت دينا... ثم أغرورقت عيناها بالدموع... ثم طأطأت رأسها:

- "ما لك حبيبتي... هل أنت خاشعة في محراب اليهودية... أم أنك لا تتخيلين نفسك بكل هذه البشاعة".

جففت دينا دموعها... ثم اعتدلت في جلستها وقالت بحدة.

- " أكمل...".

- "هل تؤمنون بالله معشر اليهود؟".

- "لست أدري بالضبط... ولكن لدينا تلمودان التلمود الأرشليمي... والتلمود البابلي... نحن نؤمن بإله واحد... ولكنه إله مثل البشر تماماً... إنه يأكل ويشرب... ويمشي في الأرض... وهو ربما يجهل الكثير... وربما يظلم الناس... وبالمناسبة... لقد ظَلَمَنَا نحن أبناءه... وتركنا في التيه... أربعين سنة... ثم ندم... ووعدنا بالأرض المباركة... إنه إلى الآن لم يحقق وعده لنا... لا أدري".

- "وأنبياؤكم؟".

- "إنهم بشر عاديون... وهم غير معصومين من ارتكاب المنكرات... لقد قتل الكثير من الأنبياء... قتلهم اليهود... لأنهم انحرفوا".

- "الأنبياء منحرفون؟؟".

- "مادام الإله الذي يعتقد به كل يهودي إلهاً منحرفاً... في بعض الجوانب السلوكية لماذا لا ينحرف الأنبياء... يقول التلمود... إن الرب قد أتى إلى إسحاق... ذات يوم وأعجب بزوجته... ما الحال إذن بالنسبة للأنبياء؟".

- "ألا تخجلين دكتورة من هذا الدين؟".

- "كلا... على العكس تماماً... هذا هو سر تفوق اليهودية... إنها تؤمن بالمساواة... وتعرضها في أعدل صورها... حتى مع الخالق... وأيضاً هي تجعل التحاكم المطلق للمصالح والمنافع لا للخرافات... لا أحد يمكنه أن يكذب علينا ويدعي العصمة... ثم يلزمنا باتباعه... حتماً مصيره الموت".

- "أنتم والله منحرفون... تماماً كالإله الذي تعبدونه... أنتم جهلة عزيزتي دينا... ولكن أستغرب أن تكوني يهودية بالفعل".

- "وماذا عن الإسلام دكتور؟".

- "أوه الإسلام يحترم الديانة اليهودية".

- "صحيح... إذن عليك أن تحترم ما أقوله لك... حول اليهودية".

- "نعم... ولكن الكتاب العبري المقدس... والتلمود... جميعها كتب دخلت فيها أصابع التحريف... حرفها بعض الأحبار بما يناسب أناساً هم أشد حرصاً على مصلحتهم من أي شيء آخر.

الإسلام عزيزتي يعتمد في بنيته التشريعية والمعرفية... على القرآن... والقرآن كتاب محفوظ... لقد مر القرآن بإجراءات علمية منضبطة لحفظه... منذ عهد الرسول الذي أنزل عليه القرآن.

- «تقصد محمداً؟».

- «أجل، حيث أمر بكتابة القرآن من خلال مجموعة من كتَّاب الوحي... كل يكتب على حدة... وبطريقة مستقلة... ثم قورنت النسخ بعد وفاة الرسول فوجدت متطابقة... لقد سميت هذه المقارنة بجمع القرآن... وكانت في عهد أبي بكر... الخليفة التابع للرسول... هذه النقطة بالتحديد هي ما جعلني أميل للقرآن... دون بقية الكتب الدينية.

- "أوه ... هذه طريقة رائعة... ولكن ما أدرانا أن القرآن أصلاً من عند الله... في اليهودية... لا يوجد دين آخر بعد دين موسى إلا ما يجيء به المسيح في آخر الزمان... والمسيح لا يخرج إلا بعد أن يمتلك اليهود دولة عبرية في فلسطين".

- "أنت واهمة عزيزتي... لقد ذُكر النبي محمد باسمه في التوراة... لكن المحرفين حرفوا كل ما لا يصلح لمصالحهم".

- "أوه... أنا لا أستطيع أن أنكر... لا أستطيع... فالتوراة بقيت أعواماً عدة وهي غير مدونة... بل إنني أجد أحداثاً متناقضة بين بعض الأسفار... يا إلهي... كم يزعجني ذلك... ولكن... قل لي... وما هي دعوة الإسلام... روزولث".

"هل أنت تكذبين علي دينا... هل تستخفين بعقلي؟".

"ماذا؟".

(أنت لست يهودية... هل تذكرين المبادئ التي ذكرتيها... عندما كنا نتحاور في المركز اليهودي... في إيطاليا... إنها هي المبادئ التي دعا لها الإسلام... الإسلام يدعو للمساواة بين البشر... ويجعل المفاضلة عند الله لمن كان أقرب للعدل والإحسان والتقوى... الإسلام لا يجبر أحداً على ترك دينه والدخول في الإسلام... وهو مع ذلك يحفظ حق المعاهدين في دولة الإسلام... ويعطيهم ما يعطي المسلمين أنفسهم... الإسلام دينا كيان كامل... يحوي إشباع الوجدان بتصور مقنع عن الله... ويحوي اتصالاً بالله عن طريق الصلاة... ويحوي زكاة وصوماً وحجاً... الإسلام دينا

هو المعاملة... إنه يحرم الحقد والحسد والتكبر... ويحرم السرقة والاختلاس والربا والرشوة... ويحرم الغيبة والنميمة والكذب... الإسلام يدعو لصلة الأرحام... وبر الوالدين... وإكرام الجار... لقد أسلمت وأنا مقتنع بالإسلام... لأنه يدعو لمكارم الأخلاق... ويمنع من الرذائل... هل انتصرت عليك دينا في المناظرة؟".

- "أنا أكذب عليك!... إذن أنت تلقي بالتهم... كم أنت متجهم تحاول جر الحوار إلى حسابات شخصية... أنا لا أوافق أن ينحدر الحوار لهذا المستوى... توقفي كاري عن الكتابة... هناك جرح للمشاعر الشخصية") [١].

---

(١) هذا المقطع لم ينشر في المجلة.

الملحق رقم (٣)

المقال الثالث: "أي الأديان يا ترى سيُنجي الإنسان من الصراع".

بقلم/ روزولث

ما هى العقوبة التي يستحقها الظالم... وكيف تراه سينجو... بعد أن يلتهمه اللحد... الجميع يعلم أن الظلم... يتربع في قاع الرذائل... وهو شيء تأباه الأنفس... ولكن يا ترى... هل سينزل الخالق قانوناً يمنع الظلم... وأي قانون سينزله الخالق للبشر... كي يكفل القانون السماوي للبشر حياة عادلة... وهل سيكون ذلك القانون شيئاً من اليهودية أم النصرانية أم من الإسلام... أم هي الفلسفات العقلية المتجددة.

إن اليهودية ديانة سماوية... ولكنها الآن لا تقف في جانب العدل... ولا تتخذ موقفاً مانعاً من الظلم... لأنها تكرس مبدأ العنصرية... والعنصرية لا تلتقي مع العدل في طريق واحد.

اليهود يشعرون أنهم أفضل جنس... ويظنون أن دينهم يخولهم ابتزاز الآخرين... وإنزال الظلم بهم... صحيح... ليست المشكلة في الدين اليهودي... ولكن المشكلة في العقل اليهودي... الذي يصدق بأن ديناً سماوياً يستوعب في طياته أسفاراً للظلم والعنصرية... العاقل يتصور أن اليهودية الصحيحة... قد طُمست معالمها... وحُرِّفت بأيدي أناس حمقى... بحثوا ذات يوم عن مصالحهم... متجاهلين مصالح أبنائهم... إن شعب اليهود اليوم... لم يظلم بشيء... مثلما ظلم بتحريف دينه على أيدي الرهبان... ويهود اليوم... يعيشون في متاهة العنصرية... ولم تجنِ أيديهم سوى الذل والهوان والانطواء.

أما النصرانية فحالها أحسن من اليهودية بدرجة... ربما لأنه مبادئها لا تغرس في أنفس أتباعها بذرة العنصرية... كما يغرسها دين اليهودية... ولكن دين النصارى

يحمل في داخله عجزاً كبيراً... لأنه يُنَظّر لأتباعه قوانين العزوف عن الدنيا... ويجعلهم يعيشون بعيداً عن هدي الخالق في سائر مجالات الحياة.

الحقيقة أننا نجد في الدين الجديد شيئاً آخر... دين الإسلام... إنه بالتأكيد دين جدير بالدراسة والانتباه... الإسلام هو دين البشر جميعاً... لأن نبي المسلمين قال كلمته المشهورة: «**لا فضل لعربي على عجمي... إلا بالتقوى**».

الإسلام يزيل كل معالم العنصرية... من ذهن كل من يدخله... لأن الناس سواسية... أفضلهم هو الأكثر نفعاً لإخوانه من البشر... الإسلام يدعو للسلام... ويدعو للعدل... وفي القرآن: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
● **الفصل الأول**	
شارب الفتاة	٧
● **الفصل الثاني**	
حي اليهود في دمشق	٥١
● **الفصل الثالث**	
ولد في الحادية عشرة	٥٥
● **الفصل الرابع**	
الطفلة... والوادي	٧٣
● **الفصل الخامس**	
يوم قديم على جبال السروات	٨٧
● **الفصل السادس**	
ليلة من ليالي دورين موند	١١٥
● **الفصل السابع**	
صباح باكر	١٢٧
● **الفصل الثامن**	
داود شاع... يحط قدمه بسلام	١٦١
● **الفصل التاسع**	
الوادي بعد عام	١٧١
● **الفصل العاشر**	
الضرس	١٩٥

● **الفصل الحادي عشر**
الوجبات ____ ١٩٧
● **الفصل الثاني عشر**
يهوديتان وثري ____ ٢٢٩
● **الفصل الثالث عشر**
داود الرجل المدلل ____ ٢٤١
● **الفصل الرابع عشر**
صفحة قديمة ____ ٣١٥
● **الفصل الخامس عشر**
استقبال ساخن ____ ٣٤١
● **الفصل السادس عشر**
الرجل البهلول ____ ٣٤٧
● **الفصل السابع عشر**
نفحات القدس ____ ٣٦١
● **الفصل الثامن عشر**
حوار داخل الأقصى ____ ٣٧٣
● **الفصل التاسع عشر**
سبران ____ ٣٩١
● **الفصل العشرون**
وحدة قاتلة ____ ٤٤٥
● **الفصل الحادي والعشرون**
العجوز والبطة السوداء ____ ٤٥٣
● **الفصل الثاني والعشرون**
قضبان قاتلة ____ ٥٠١
● **الفصل الثالث والعشرون**
ألمانيا من جديد ____ ٥١١

● **الفصل الرابع والعشرون**

أعصاب حارة ـــــــــــــــ ٥٥١

● **الفصل الخامس والعشرون**

الشمس الملتهبة ـــــــــــــــ ٥٦٧

● **الفصل السادس والعشرون**

نحيب طويل ـــــــــــــــ ٥٧٥

● **الفصل السابع والعشرون**

نمر عربي ـــــــــــــــ ٥٨١

● **الملاحق**

الملحق رقم (١)

المقال الأولى (الإيمان والإلحاد) ـــــــــــــــ ٦٨٥

الملحق رقم (٢)

المقالة الثانية (عندما تفكر في خلوة) ـــــــــــــــ ٦٩٩

الملحق رقم (٣)

المقال الثالث (أي الأديان يا ترى سينجي الإنسان من الصراع) ـــ ٧٠٥